
رواية
مكتبة 1723
آين راند
أطلس
متململا
الجزء الأوّل اللا تناقض
ترجمة: خالد حافظي
صفحة ٧

الأطلس متململًا

«الجزء الأول: اللا- تناقض»



رواية

الأطلس متململًا

«الجزء الأول: اللا- تناقض»

المؤلف

آين راند

الطبعة الأولى :2021

الترقيم الدولي

978-603-91630-3-9

رقم الإيداع

1442/11081

E-mail: admin@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

Atlas Shrugged

Ayn Rand

مكتبة | 1723

الأطلس متململاً

«الجزء الأول: اللا- تناقض»

ترجمة

خالد حافظي



إلى فرانك أوكونر.....

الفهرس

الجزء الأوّل: اللّا- تناقض

الجزء الأوّل

اللّا- تناقض

الفصل الأوّل

الموضوع



«من هو جون جالت؟»

كان ضوء النّهار يَنْحَسِر شيئًا فشيئًا. فجأةً وقف أمامه شحّاذٌ، كان ظلّه يشي بوجوده، لكنّ **إيدي ويلرز** لم يتمكّن من تبيّن ملامحه بدقّةٍ، فقد أعمت عينَيه خيوطُ الضوء الصفراءُ القادمة من نهاية الشّارع حيثُ كانت الشمس تلفظ أنفاسها الأخيرة. جاء سؤاله واضحًا وبسيطا كما لو أنّه يخاطبُ القلق الّذي يؤرّقهُ بلا سببٍ.

قال **إيدي ويلرز** بتوتّر: «لماذا قلت ذلك؟».

انحنى الشحّاذ على جانب المدخل؛ فظهر خلفه إسفين من الزجاج المكسور وقد عكس في الأفق صفرةً أرجوانيّة شاحبة.

سأل الشحّاذ: «ولماذا انزعجت؟».

وقبل أن يدسّ يده في جيبه بخفّةٍ، أردف إيدي ويلرز بنبرة قاطعةٍ: «لا. لم أنزعج البتّةَ».

كان يعرف أنّ الشحّاذ إنّما أوقفه ليطلب منه عشرة سنتات، ولم يرد الانزلاق معه في هذا الحديث الجانبيّ. وكما لو أنّه أراد التخلّص منه وتبديدَ تلك اللحظة أو أيَّ مشكل إضافيٍّ قد يليها، أخرج من جيبه بعض السنتات ومدّ بها إليه. كان التسوّل في تلك الأيّام متفشّيًا بكثرةٍ في الشوارع، حتّى إنّ إيدي ويلرز لم يعد يرى أيّ جدوى في الإنصات إلى شكاوى المتسوّلين المتشابهة، بل إنّه لم يكن يملك أدنى رغبة في تحمّل

كمّ اليأس الذي يفتك بهذا الشحّاذ.

قال وهو يسلّم النقود إلى شبح إنسانٍ بلا وجه: «اذهبْ وتناول فنجان قهوة».

قال الشبح دون اهتمامٍ: «شكرًا سيّدي». وانحنى الوجه إلى الأمام لحظةً. كان بنيًّا ومحمرًّا، تغزو ملامحَه خطوطٌ من التّعب والاستسلام السّاخر، أمّا العينان فكانتا توحيان بذكاءٍ حادٍّ.

في الطريق، غرق إيدي ويلرز في التفكير بهذا الخوف غير المبرّر الذي يستبدّ بتلابيب قلبه في ذلك الوقت من كلّ يوم. قال في أغوار نفسه: لا، أنا لست خائفًا، لا يوجد ما أخشاه، إنّها مجرّد مخاوف هائلة تنتشر في كلّ الاتّجاهات دون أن يكون لها سببٌ أو موضوع. لقد اعتاد على مثل هذا الشعور، غير أنّه لم يجد له أيَّ تفسير؛ لكنّ الشحاذ خاطبه وكأنّما علم أنّ إيدي يشعرُ بتلك المخاوف، أو اعتقد أنّ على أيّ امرئ أن يشعر بها، بل أكثر من ذلك: كأنّه كان يعرف السبب.

انسحب إيدي ويلرز بأدبٍ رافعًا كتفيه بشكل مستقيم. كان يعتقد أنّ عليه إيقاف ذلك الأمر. ثمّ بدأت الخيالات تطارده مجدّدًا: هل كانت هذه المخاوف تستبدّ به دائمًا؟ هل كان ذلك يحدث طيلة السنوات الاثنتين والثلاثين من عمره؟ حاول التفكير مرّة أخرى. لا، لم يكن ذلك يحدث دومًا. لكنّه لم يفلح في تذكّر بدايات هذه المخاوف. لقد كانت تستبدّ به فجأة، وفي فتراتٍ متفرّقة، غير أنّها أصبحت الآن متكرّرةً أكثر من أيّ وقت مضى. قال في نفسه: أعتقد أنّه الشّفَقُ، أنا أكره الشَفَق.

كانت الغيوم وأعمدة ناطحات السّحاب تتحوّل إلى اللّون البنّيّ تمامًا مثل لوحة زيتيّة قديمة أو تحفة باهتة. من قممها تمتدُّ خطوطٌ طويلة من الأوساخ باتّجاه أسفل الجدران النحيلة المتآكلة بالسّخام. على جانب البرج في الأعلى، كان هناك صدعٌ على شكل برق متجمّدٍ، طوله عشرة طوابق. رافقه جسم متشظٍّ يشقُّ السّماء فوق الأسطح؛ يشبه نصف قمّة مذبّبة، ما يزال يحمل وهج الغروب؛ أمّا الشّمس فكانت مثل ورقة الذّهب التي مرّ زمنٌ طويل على انتزاعها من نصفها الآخر. كان التّوهج أحمرَ ثابتًا كنارٍ منعكسةٍ: لم تكن متوهّجةً، كانت نارًا تحتضر وفات أوان إطفائها.

قال إيدي ويلرز محدّثا نفسه: لا، لا شيء يزعج في هذا المشهد. إنّه تمامًا كما يبدو دائما.

تذكّر وهو يمشي أنّه تأخّر في العودة إلى المكتب. لم تعجبه المهمّة التي كان عليه تنفيذُها عند عودته، ولكنّه اضطُرّ إلى فعل ذلك. ولذا تجنّب أن يتأخّر أكثر، فأخذ يهرول.

ثمّ استدار عند الزاوية. وفي مساحةٍ ضيّقة من ظلالٍ مظلمةٍ بين مبنَيين، مثلما هي الحال بين شقوق الباب، رأى صفحةً عملاقةً معلّقة في السماء.

إنّها الروزنامة التي أقامها عمدةُ نيويورك العامَ الماضي على قمّة أحد المباني، حتّى يتمكّن المواطنون من معرفة اليوم والشهر، بل حتّى الساعات والدقائق، فقط من خلال النظر إلى برج المبنى العامّ. فذلك المستطيل الأبيض الذي عُلِّق عند قمّة المدينة هو الذي ينقل التاريخ إلى عامّة الناس في ما يطلّ عليه من شوارع. ومن خلالِ الشفق الذي بدا صدئًا في ذلك المساء، كُتِبَ على ذلك المستطيل: الثاني من سبتمبر.

نظر إيدي ويلرز بعيدًا. لم يُعجَب البتّة برؤية هذا التاريخ. أربكه ذلك على نحوٍ لم يستطع تفسيره أو تحديده. بدا وكأنّ شعوره ممزوج بالتّوتّرِ؛ بل إنّه التوتّر عينه.

حاول أن يتذكّر تعبيرًا أو اقتباسا يلخّص التاريخ الذي أعلنته الرزنامة، لكنّه فشل في ذلك. فمشى وهو يتلمّس طريقه نحو جملة معلّقة في ذهنه كشكل فارغ لم يستطع ملأه أو تبديده. ثمّ نظر إلى الخلف. فرأى فوق الأسقف ذاك المستطيل الأبيض وقد توقّف، معلنًا على نحو نهائيّ ثابت: الثاني من سبتمبر.

أشاح إيدي ويلرز ببصره إلى أسفل الشارع؛ تجاه عربة خضار تنزوي عند منحدر منزل بنّيٍّ. رأى كومة من الجزر زاهيةً يشبه بريقها بريق الذهب، وكومةً أخرى من البصل الأخضر الطازج. رأى ستارةً بيضاء نظيفةً يتلاعب بها النسيم وراء نافذة مفتوحة. رأى حافلة تواصل طريقها في الزاوية، يقودها سائقٌ خبير. تساءل عن سبب شعوره بالطمأنينة، ولماذا انتابته فجأةً رغبةٌ غير قابلة للتفسير في أنّ تلك

الأشياء لم تُخلَّف في العراء من دون حماية داخل المساحة الفارغة أعلاها.

وحين وصل إلى الجادّة الخامسة، كانت عيناه تمسحان نوافذ المتاجر التي مرّ بها. لم يكن هناك ما يحتاج إليه أو يرغب في شرائه. لكنّه كان يحبّ رؤية البضائع المعروضة، تلك الأشياء التي صنعها بعض البشر، ليستخدمها بشرٌ آخرون. كان يستمتع بمشاهدة هذا الشارع العامر الذي أُغلِق ربع متاجره بنوافذ مظلمة وفارغة.

لم يعرف سبب تفكيره المفاجئ في شجرة البلّوط. فلا شيء يدعو إلى تذكّرها. ومع ذلك فكّر فيها، وتذكّر طفولته وفصول الصّيف التي قضّاها في عقّارات تاجارت. لقد أمضى معظم طفولته مع أطفال آل تاجارت، وهو الآن يعمل معهم، تمامًا كما عمل والده وجدّه قبله مع آبائهم وأجدادهم.

كانت شجرة البلّوط العظيمة تقف شامخةً في تلّةٍ على نهر هدسون، ثابتةً في جهة معزولة عن عقّارات تاجارت. وكان إيدي ويلرز، الذي يبلغ من العمر وقتئذٍ سبع سنوات، يحبُّ أن يأتي ويتَمَلّى تلك الشجرة. لقد صمدت هناك مئات السنين، وكان يعتقد أنّها ستظلّ واقفة هناك دومًا. لقد تمسّكت جذورها بالتلّة مثلما تُمسكُ قبضةُ اليد بالتراب حين تنغمس الأصابع في التربة. وكان يعتقد أنّه حتّى إذا جذبها عملاقٌ خارقٌ من الأعلى فإنّه لن يستطيع اقتلاعها، بل سيجتثُّ التلّة وكامل الأرض معها. وفي حضرة شجرة البلّوط وجدَ شعورًا بالأمان: وبدا الأمر وكأنّ شيئًا لم يتغيّر أو ينبئ بالخطر؛ لقد كانت بمثابة الرّمز الأعظم الذي يشحذ عزيمته.

ذات ليلة، قصف البرق شجرة البلّوط، لكنّ إيدي لم يكتشف ذلك إلّا في صباح اليوم الموالي. لقد انشقّت إلى نصفين، تملّى جذعها الذي بدا مثل فوهة نفق تَفَحَّم بالسواد. كان الجذع مجرّد صَدَفَةٍ فارغةٍ تعفّن جوفها منذ أمدٍ بعيدٍ. لا شيء بداخلها غيرَ غبارٍ رماديّ رقيقٍ تذروه الرِّياح. لقد ماتت تلك القوّة الحيّة، أمّا شكلها المتبقّي فلم يكن قادرا على الوقوف من دونها.

تعاقبت السنين، وسمع خلالها كلامًا يوصي بضرورة حماية الأطفال من الصدمة الأولى التي تلي معرفة الموت أو الألم أو الخوف. مثل هذه الأشياء لم تكن ترعبه البتّة؛

إلى أن واجه وقع صدمته الخاصّة حين وقف، بهدوء شديد، يَتَمَلَّى الثقب الأسود في الجذع. كانت الصدمة بمثابة خيانة عظمى، بل أكثر فظاعة من ذلك، لأنّه لم يستطع تحديد مَن تعرّض للخيانة. كان واثقا من أنّه لم يتعرّض هو شخصيًّا للخيانة. شيءٌ آخر تعرّض لذلك. مكث هناك زمنًا دون أن ينبس ببنت شفة، ثمّ قفل راجعا إلى المنزل. ولم يطرح هذا الأمر على أيّ شخص سواء في ذلك الزمن أو فيما بعد.

هزّ إيدي ويلرز رأسه، فعند حافّة الرّصيف أوقفه صرير آليّة صدئة مع تغيّر إشارة المرور. كان الغضب يغمرهُ، لأنّه ما من سبب يدعو إلى تذكّر شجرة البلّوط في تلك اللّيلة. فبعد الآن لم يعد ذلك يعني له شيئًا، إنّه مجرّد مسحة خافتة من الحزن. وفي مكان مّا داخله، ثمّة جرعة من الألم تتحرّك لفترة وجيزة ثمّ تتلاشى، تمامًا مثل قطرات المطر التي يشكّل مسارها علامة استفهام على زجاج النافذة.

لم يكن يرغب في أن يَعلَق بطفولته أيُّ نوعٍ من أنواع الحزن؛ فهو مولعٌ بذكريات طفولته: وحين يتذكّر الآن أيّ يوم من أيّام تلك الذكريات فإنّه يجده مغمورا بثبات في روعة ضوء الشمس السّاطع. سيبدو له الأمر كما لو أنّ شيئًا من أشعّة تلك الشمس قد لحق بحاضره: لم تكن أشعّةً، بل أشبه بأضواء دقيقةٍ تمنح عملَه وشقّته الوحيدة وتقدّمَ وجوده الهادئَ والمضبوطَ بريقًا في لحظة واحدةٍ عريضة.

وعادت بهِ الذّاكرة إلى يومٍ صيفيّ حين كان في العاشرة من عمره. عادت به إلى ذلك اليوم الذي قضّاه في تنظيف الغابة، وحينها أخبرته رفيقة طفولته العزيزة بما سيفعلانه عندما يكبران. لقد كانت الكلمات قاسية ومتوهّجة مثل ضوء الشمس. فاستمع بإعجاب واندهاش، وعندما سُئِل عمّا يريد أن يكون، أجاب على الفور: «كلّ ما هو صائب»، وأضاف، «يجب عليك أن تفعلي شيئًا عظيمًا... أعني، كلانا معًا».

سألته: ماذا؟

أجاب: لا أعلم. هذا ما يجب علينا اكتشافُه. لا فقط ما قلته. ينبغي ألّا نطمح فقط إلى الحصول على عمل وكسب لقمة العيش، بل إلى أشياء أخرى أيضًا من قبيل

كسب المعارك، أو إنقاذ الناس من الحرائق، أو تسلّق الجبال.

ـ وما الغاية من تلك الأشياء؟

ـ لقد قال الوزير في الأحد الماضي إنّه يجب علينا دائمًا بلوغ أفضل ما فينا. فما هو الشيء الذي تعتقدين أنّه أفضل ما فينا؟

ـ لا أدري، لا أعلم.

ـ علينا معرفة ذلك.

لم تُجِبهُ؛ كانت تنظر بعيدًا، صوبَ مسار السكّة الحديديّة.

مشى **إيدي ويلرز** والابتسامة تعلو محيّاه. فمنذ اثنتين وعشرين سنة خَلَت، أدلى بتصريحٍ مثير: «**كلّ ما هو صائب**». وقد أبقى على ذلك التصريح دونما اعتراض منذ ذلك الحِين؛ أمّا الأسئلة الأخرى فقد تلاشت من ذهنه؛ لقد كان أكثر انشغالًا من أن يطرح تلك الأسئلة مجدّدًا. لكنّه لا يزال يعتقد بجلاءٍ أنَّ على المرء فعل ما هو صائبٌ. لم يتعلّم قطّ كيف يمكن أن تكون للناس رغبةٌ في شيءٍ عكس ذلك؛ لقد تعلّم فقط أنّهم يرغبون في فعل الصّواب. بدا له الموقف بمنتهى البساطة وعلى درجةٍ من الغموض في آن واحدٍ: فهو بسيط لأنّ الأمور يجب أن تكون صحيحةً، وغامضٌ حينَ تكون على عكس ذلك. كان يعلم أنّها ليست كذلك. فأخذ يفكّر في الأمر بينما ينعطف عند زاوية، حتّى وصل إلى المبنى الكبير لمقرّ شركة تاجرت العابرة للقارّات.

تربّع المبنى وسط الشارع تمامًا مثل الهيكل الطويل الفاخر. كان **إيدي ويلرز** يبتسم دائمًا حين يرى المبنى لأوّل وهلة. كانت السلسلة الطويلة من نوافذه غير متقطّعة، على عكس تلك الموجودة في المباني المجاورة. خطوطها الصاعدة تقطع السماء، من دون زوايا متدلّية أو حوافّ مهترئة. يبدو أنّها ستصمد إلى الأبد ولن تستسلم لصُرُوف الدهر. ويعتقد إيدي ويلرز أنّها ستبقى كذلك دومًا.

كلّما دخل مبنى **تاجرت**، انتابه شعور بالراحة والأمان. لقد كان هذا المبنى مكانًا يرمزُ إلى الكفاءة والعظمة. فأرضيّات مداخله مرايا مصنوعةٌ من الرّخام.

والمستطيلات المتجمّدة بتجهيزاتها الكهربائيّة عبارةٌ عن رقائق من الضوء الثابت. وخلف الصفائح الزجاجيّة، كانت صفوفٌ من الفتيات يجلسن أمام الآلات الكاتبة، وينقرن على مفاتيحها فيحدثن صوتًا شبيهًا بصوت عجلات القطار السريعة. وفي بعض الأحيان كانت تجتاح الجدرانَ انتفاضةٌ خافتةٌ مثل رجع **الصدى**، ترتفع من تحت المبنى، من أنفاق المحطّة الكبرى حيث بدأت **القطارات** تعبر قارّة ثمّ تتوقّف إثر عبورها مرّة أخرى، ويستمرّ فعل البدء والتوقّف جيلًا بعد جيل. يعتقد إيدي ويلرز أنّ شعار شركة تاجرت العابرة للقارّات «**من المحيط إلى المحيط**» هو شعار يدعوه كثيرًا إلى أن يفتخر بطفولته، إنّه رمز أكثر إشراقًا وقداسة من أيّ وصيّة من الوصايا العشر بالكتاب المقدّس. من المحيط إلى المحيط، وإلى الأبد، هكذا كان إيدي ويلرز يردّد في نفسه، كما لو أنّه يؤدّي صلاة يوميّة، وهو يمشي عبر القاعات الناصعة في قلب المبنى، إلى مكتب **جيمس تاجارت**، رئيس الشركة.

جلس جيمس تاجارت أمام مكتبه. كان يبدو مثل رجل في الخمسينات، فهو من طينة الرّجال الذين يعبرون إلى سنّ الرشد مباشرة دون المرور بسنّ المراهقة، دون تلك المرحلة المتوسّطة من الشباب. كان لديه فم صغير، لكنّه ينغلق على لسان سليط، سريع الغضب والاستفزاز. أمّا شعره فكان رقيقًا متشبّثا بجبهة صلعاء. تنبئ هيئته بأنّه أعرج، بانحراف لامركزيٍّ، كما لو أنّه يعيش تحدّيًا لجسده الطّويل والنّحيل. وكان ذا أناقة تليق بمقام يعادل الوقار الأرستقراطيّ الواثق، لكنّها سرعان ما تتحوّل إلى بلاهة. ملامح وجهه شاحبة وناعمة، أمّا عيناه فكانتا شاحبتَين وتحجبان نظرةً تتحرّك ببطء، دون أن تتوقّفا مطلقًا، فتنزلقان وتتخطّيانِ الأشياء العابرة باستياءٍ أبديٍّ من وجودها. بدا عنيدا وجافًّا. لقد كان في التاسعة والثلاثين من عمره.

رفع رأسه بغضبٍ، عند سماع صوت صرير الباب وهو يُفتح، ثمّ قال: «لا تزعجني، لا تزعجني، لا تزعجني».

سار إيدي ويلرز نحو المكتب، وقال دون أن يرفع صوته: «أمرٌ مهمّ يا جيم».

ـ ردّ عليه جيمس: «حسنا، حسنا، ما الأمر؟»

نظر إيدي ويلرز إلى خارطة علّقت على جدار المكتب وقد تلاشت ألوانُها تحت الزجاج الّذي يغطّيها، وتساءل بشكل خافت عن عدد الرؤساء الذين مرّوا بشركة تاجارت وجلسوا أمام تلك الخارطة، وعن عدد السنوات التي قضّوها هناك. لقد كانت شركة تاجرت للسكك الحديديّة العابرة للقارّات عبارةً عن شبكة من الخطوط الحمراء التي تقطع الجسم الباهت للبلد من نيويورك إلى سان فرانسيسكو، فبدت وكأنّها نظام من الأوعية الدمويّة. وبدا الأمر كما لو أنّ الدم قد أسقط الشريان الرئيسيّ منذ فترة طويلة. وتحت ضغط اندفاعه المفرط، تفرّع في نقاط عشوائيّة، ليمتدّ في جميع أنحاء البلاد. إنّه خطّ أحمر واحدٌ، طريقه ملتوٍ، ينطلق من مدينة شايان، وايومنغ، وصولًا إلى باسووتكساس. إنّه خطّ ريونورث التابع لشركة تاجارت العابرة للقارّات. لقد أضيف خطّ جديد مؤخّرًا فتمّ تمديدُ الخطّ الأحمر جنوبًا إلى ما بعد الباسو، لكنّ إيدي ويلرز ابتعد بسرعة عندما وصلت عيناه إلى تلك النقطة.

نظر إلى جيمس تاجارت وقال: «إنّه خطّ ريونورث». فانتبه إلى نظرة تاجرت وهي تنتقل إلى زاوية المكتب، ثمّ أضاف: «لدينا حطام آخر».

ـ حوادث السكك الحديديّة تجري كلّ يوم. هل كان عليك إزعاجي بشأن ذلك؟

ـ ألا تكترث لما أقول يا جيمس؟ لقد انتهى خطّ ريونورث. وحادت القاطرة بالكامل عن السكّة وسقطت أسفل الخطّ.

ـ سنحصل على قاطرة جديدة.

استمرّ إيدي ويلرز في الحديث وكأنّه لا يسمعه:

ـ لقد تحطّمت القاطرة فلا جدوى من تشغيل القطارات هناك. سيتخلّى الناس عن محاولة استخدامها مجدّدًا.

ـ يبدو لي أنّه ليس في هذه البلاد شركة لسكك الحديد لا يخلو أحد فروعها القليلة من حالة عجز عن العمل. إنّنا لسنا الوحيدين. هي حالة وطنيّة، حالة وطنيّة مؤقّتة.

وقف إيدي ينظر إليه بصمتٍ. ما لم يعجب تاجرت في إيدي ويلرز أنّه ينظر في أعين الناس بشكل مباشرٍ. كانت عينَا إيدي زرقاوين وواسعتين لا يغادرُهما السؤال؛ كان لديه شعر أشقر ووجه عريض، وتعجّبٌ دائم مثير للحيرة، إنّه رجل عاديّ باستثناء تلك النظرة الدقيقة اليقِظة.

قاطعه تاجرت قائلًا: «ماذا تريد؟».

ـ لقد جئت لأخبرك بشيء ينبغي ألّا ينطلي عليك، شيء كان على شخص مّا أن يخبرك به.

ـ أتقصد أنّ حادثا آخر وقع؟

ـ بل بأنّنا لا نستطيع التخلّي عن خطّ ريونورث.

نادرا ما يرفع جيمس تاجرت رأسه. فحتّى وهو ينظر إلى النّاس، كان يفعل ذلك برفع جفنيه الثقيلين والتحديق إلى الأعلى من تحت جبينه الأصلع.

سأله جيمس: من يفكّر في التخلّي عن خطّ ريونورث؟ لا يوجد أيّ داعٍ إلى التخلّي عنه. أنا مستاء لأنّك قلت هذا. مستاء جدًّا.

ـ لكنّنا لم نلتزم بجدول زمنيّ يخصّ الأشهر الستّة الماضية. وما أنهينا عملًا إلّا وفيه نوع من أنواع الخَوَرِ، سواء أكان رئيسيًا أم ثانويًا. نحن بصدد خسارة جميع الشاحنين واحدًا تلو آخر. إلى متى يمكننا الاستمرار على هذا المنوال؟

ـ أنت متشائم يا إيدي وتفتقر إلى الإيمان. وهذا ما يحطّم معنويّات أيّ شركة.

ـ هل معنى هذا أنّنا لن نفعل أيّ شيء بخصوص خطّ ريونورث؟

ـ لم أقل ذلك على الإطلاق. سنفعل ما إن نحصل على القطار الجديد.

ـ جيم، لن يكون هناك أيّ قطار جديد. ثمّ شاهد جفنَي تاجرت وهما يتحرّكان ببطءٍ: «لقد عدت الساعةَ من مكتب شركة مجّمع الفولاذ. تحدّثت مع أورين بويل».

ـ ماذا قال؟

ـ لقد تحدّث مدّةَ ساعة ونصف ولم يقدّم لي إجابةً واحدة مباشرة.

ـ وما الغاية من إزعاجه؟ أعتقد أنّ أوّل طلبيّة لنا بجلب قطارٍ لم يكن من المقرّر تسليمها حتّى دخول الشهر المقبل.

ـ وقبل ذلك، كان من المقرّر تسليمها قبل ثلاثة أشهر.

ـ لقد واجهوا ظروفًا غير متوقّعة، ظروفًا كانت خارج سيطرة أورين.

ـ وقبل ذلك، كان من المقرّر أن يتمّ التسليم قبل ستّة أشهر. جيم، لقد انتظرنا شركة مجّمع الفولاذ مدّةَ ثلاثة عشر شهرًا لتسليم تلك القاطرة.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟ لا يمكنني إدارة أعمال **أورين بويل**.

ـ أريدك أن تفهم أنّنا لا نستطيع الانتظار أكثر.

فسأله تاجارت بهدوءٍ، وفي صوت ممزوج بالسخرية والحذر: وماذا قالت أختي؟

ـ لن تعود قبل الغد.

ـ حسنًا، ماذا تريدُني أن أفعل إذَن؟

ـ لك القرار.

ـ حسنًا، بغضّ النظر عن أيّ شيء آخر كنت ستقوله، ثمّة أمرٌ واحد لا أودُّ أن تذكّرني به في المرّة القادمة، وهو شركة ريدين للفولاذ.

لم يجب إيدي في الحال، ثمّ قال بهدوء: حسنًا، جيم. لن أذكر ذلك.

ـ أورين صديقي. لم يسمع جيم أيّ جواب.

ـ أنا مستاء من موقفك. سيقدّم لنا أورين بويل هذا القطار متى أمكن ذلك. ومادام لا يستطيع تسليمه، فليس لأحدٍ أن يلومنا.

ـ جيم! عمّ تتحدث؟ ألا تفهم أنّ خطّ ريونورت تعطّل. إنّه لم يعد مجديًا ما إذا ألقى علينا أحدٌ باللوم أم لا؟

ـ الناس سيتجاوزون ما حدث - سيتعيّن عليهم ذلك – إن لم يكن من أجل شركة

فينيكس – دورانجو.

ثمّ لاحظ وجه إيدي المنقبض.

ـ لم يشكُ أحدٌ من خطّ ريونورت، إلى أن ظهرت شركة **فينيكس – دورانجو** على الساحة.

ـ شركة **فينيكس- دورانجو** تقوم بعمل رائع.

ـ تخيّل شيئًا يدعى شركة **فينيكس – دورانجو** ينافس شركة تاجرت العابرة للقارّات! إنّها لم تكن قبل عشر سنوات سوى خطٍّ لتوزيع الحليب المحلّيّ.

ـ لقد حصلت الآن على معظم حركة الشحن في ولايات عديدة مثل أريزونا ونيومكسيكو وكولورادو.

لم يجبه تاجارت.

ـ جيم، يجب ألّا نفقد ولاية كولورادو. إنّها أملنا الأخير. هي الأمل الأخير للجميع. إذا لم نوحّد جهودنا معًا، فسوف نفقد كلّ شركة شحن كبيرة في الولاية لصالح شركة فينيكس - دورانجو. مثلما فقدنا حقول النفط في وايت.

ـ أنا لا أرى أيّ داعٍ إلى استمرار الجميع في الحديث عن حقول النفط في وايت.

ـ لأنّ إليس وايت معجزة.

ـ لعن الله إليس وايت!

وفجأة جال بخاطر إيدي أنّ آبار النفط تلك لا تربطها أيُّ صلةٍ بالأوعية الدمويّة على الخارطة؟ ألم تكن الطريقة التي أطلقها التيّار الأحمر **لشركة تاجرت العابرة للقارّات عبر البلاد**، منذ سنوات، إنجازًا لا يصدّق؟ ثمّ فكّر أنّ آبار النفط وما تضخّه في تيّار أسود يمرّ عبر القارّة أسرعُ تقريبًا ممّا يمكن أن تحمله قطارات شركة فينيكس - دورانجو. كان حقل النفط هذا مجرّد بقعة صخريّة تقعُ في جبال كولورادو، تمّ التّخلّي عنها عندما نفدت منذ فترة طويلة. لقد تمكّن والد إليس وايت

من الضغط على مستوى عيشه بغموضٍ حتّى نهاية أيّامه، مستنزفا آبار النّفط المحتضرة. الآن يبدو الأمر كما لو أنّ شخصًا قذفَ جرعةً من الأدرينالين في قلب ذلك الجبل، فأخذ القلب يضخّ، وانفجر الدّم الأسود عبر الصّخور. إنّه بطبيعة الحال كالدم تمامًا مثلما يقول إيدي ويلرز، لأنّ الدّم يغذّينا، ويبعث الحياة في أوصالنا، وهذه هي الأدوار عينها التي اضطلع بها نفط وايت. لقد صُدمت المنحدرات الفارغة وسُوِّيت بالأرض وبعثت إلى الوجود، وجلبت بلدات جديدة، ومحطّات طاقة حديثةٍ، ومصانع جديدة إلى منطقة لم يكن باستطاعة أحدٍ ملاحظتها على أيّ خارطة. فكّر إيدي ويلرز في تلك المصانع الجديدة، في وقت كانت عائدات الشحن من جميع الصناعات العظيمة القديمة تنخفض خلاله ببطء عامًا بعد عامٍ. حقل نفط جديد غنيّ، في وقت كانت المضخّات تتوقّف أثناءه في حقل مشهور تلو آخر؛ دولة صناعيّة جديدة لم يتوقّع فيها أحد شيئًا سوى الماشية والبنجر. لقد أنشأها رجل واحد، وحقّق ذلك في ثماني سنوات فقط. كان هذا الأمر، كما يعتقد إيدي ويلرز، يُشبه القصص التي قرأها في الكتب المدرسيّة ولم يؤمن بها قطّ، قصص الرجال الذين عاشوا في أيّام شباب الوطن ومجدهِ. تمنّى لو توفّرت له فرصة لقاء إليس وايت. كان هناك حديث كثيرٌ يدور حوله، لكنّ قليلين منهم قابلوه لأنّه نادرًا ما يزور نيويورك. قالوا إنّه كان يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين سنةً، وكان يملك مزاجًا عنيفًا. لقد اكتشف طريقة مّا لبعث الحياة في آبار النفط المنهكة وشرعَ في إحيائها.

قال جيمس تاجارت: «إليس وايت وغدٌ جَشِعٌ لا يسعى إلّا وراء ربح المال. يبدو لي أنّ في الحياة أشياء أكثر أهميّة من كسب المال».

ـ عمّ تتحدّث يا جيم؟ ما العلاقة بين هذا وذاك.

ـ علاوة على ذلك، لقد تجاوزنا الأمر. لقد قدّمنا على مدى سنواتٍ خدمةً جليلةً لحقول النفط في وايت وفعلنا ذلك بشكل كافٍ. ففي أيّام وايت العجوز، كنّا نستهلك ما يملأ خزّان القطار لمدّة أسبوع.

ـ جيم، هذه ليست أيّام وايت العجوز. فشركة فينيكس دورانجو توفّر ما يملأ

خزّاني قطارين يوميًّا، وتوزّعهما في المواعيد المطلوبة.

ـ لو أنّه يتيح لنا فقط مُتَّسَعًا من الوقت حتّى نكبر معه.

ـ ليس لديه وقت يضيّعه.

ـ وماذا يتوقّع؟ أن نخسر الشاحنين الآخرين كلّهم، ونضحّي بمصالح البلد كلّه ونمنحه جميع قطاراتنا؟

ـ لا، لماذا تقول هذا؟ إنّه لا يتوقّع أيّ شيء. هو فقط يدير شركة فينيكس-دورانجو ويتدبّر شؤونها.

ـ أعتقد أنّه مدمّر وعديم الضمير. إنّه مغرور وغير مسؤول، وقد ضُخِّم بشكلٍ مبالغ فيه.

كان من المدهش سماع مشاعر مفاجئة في صوت جيمس تاجارت، ذلك الصوت الذي تعوزه الحياة. ـ «لست متأكّدا من أنّ حقوله النفطيّة تعدّ إنجازا مفيدا. ويبدو لي أنّه قد فكّك اقتصاد البلد بأكمله. لم يتوقّع أحدٌ أن تصبح كولورادو ولايةً مصنّعة. كيف يمكن لنا الحصول على أيّ أمن أو التخطيط لأيّ شيءٍ إذا حافظت الأشياء على نسق تغيّرها طوال الوقت؟».

ـ يا إلهي، يا جيم! إنّه...

«نعم، أعلم، أعلم، إنّه يكسب المال. لكن يبدو لي أنّ هذا الأمر لا يعتبر معيارًا يمكن للمرء أن يقيس به قيمة الرجل في المجتمع. أمّا في خصوص نفطه، فأعدك بأنّه سيأتينا زاحفًا، لينتظر دوره مع جميع شركات الشحن الأخرى، ولن يطلب أكثر من نصيبه العادل من وسائل النقل. لن نستطيع الصمود إذا كنّا سنواجه منافسةً مدمّرة من هذا النوع. لا يمكن لأحدٍ أن يلومنا».

اعتقد إيدي ويلرز أنّ غيظَ جيم والضيق الذي ضغط على صدره كانا بسبب الجهد الذي يبذله؛ فقرّر أن يُوضِّح له المسألة دفعةً واحدةً، على الرغم من أنّها كانت في غاية الوضوح. لقد رأى أنّه لا يوجد شيء يمكن أن يمنع تاجرت من فهمها، ما لم

يفشل هو في عرض توضيحه. لذلك بذل قصارى جهده، غير أنّه فشل، مثلما فشل دائمًا في جميع نقاشاتهما؛ وبغضّ النظر عمّا قاله، لا يبدو أنّهما كانا يتحدّثان في الموضوع نفسه.

ـ جيم، عمَّ تتحدّث؟ هل من المهمّ ألّا يلومنا أحدٌ حين تنقطع بنا السبل؟

ابتسم جيمس تاجرت ابتسامةً رقيقة مسلّيةً وباردة وقال: «إنّه لمن المؤثّر إخلاصُك لـشركة تاجرت العابرة للقارّات، يا إيدي، غير أنّك سوف تتحوّل إلى أحد هؤلاء الأقنان الإقطاعيّين الحقيقيّين ما لم تهتمّ بأحوالكَ».

ـ هذا ما أنا عليه، يا جيم.

ـ لكن، هل جوهر عملك هو مناقشة هذه الأمور معي؟

ـ لا، ليس الأمر كذلك.

ـ وهكذا، فلماذا أجدك تتناسى أنّ لدينا أقسامًا مختصّة في العناية بمسائل كهذه؟ لماذا لا تُنهِي كلَّ هذه الأشياء إلى من يهمّه الأمر؟ لماذا لا أجدك تبحث عن دعمٍ عند أختي العزيزة؟

ـ انظر يا جيم، أعلم أنّ مكانتي في المؤسّسة لا تسمح لي بالتحدّث إليك، لكنّني لا أستطيع استيعاب ما يحدث هنا بمكتبك. لا أعلم ما الذي يخبرك به مستشاروك الخاصّون، أو لماذا لا يمكنهم جعلك تستوعب المسألة. لذا اعتقدت أنّ عليَّ محاولة إخبارك بنفسي.

ـ إيدي، أنا أقدّر صداقتنا التي نمَت منذ طفولتنا، ولكن هل تجد في ذلك ما يخوّلك الدخول إلى هنا دون سابق إنذارٍ ومتى شئت؟ وبالنظر إلى رتبتك، ألا يجب أن تتذكّر أنّي رئيس شركة تاجرت العابرة للقارّات؟

كان حوارهما عقيمًا وإهدارًا للوقت. نظر إليه إيدي ويلرز كالمعتاد، ولم يشعر بأذى كلامه، غير أنّ حيرة تملّكتهُ، فاستفسرَ: إذَن أنت لا تنوي فعل أيّ شيء بخصوص خطّ ريونورت؟

ـ لم أقل ذلك. لم أقل ذلك مطلقًا. كان تاجارت ينظر إلى الخارطة، عند الخطّ الأحمر جنوب آل باسو.

ـ بمجرّد أن تبدأ مناجم سان سيباستيان ويبدأ فرعنا المكسيكيّ في السداد.

ـ دعنا من الحديث عن ذلك، يا جيم.

استدار تاجرت مذعورًا من غضبٍ لم يُعهَد في صوت إيدي، ثمّ قال: ماذا؟

ـ أنت تعلم حقيقة الأمر. لقد قالت أختك...

ـ اللعنة على أختي!

تسمّر إيدي ويلرز في مكانه ولم ينبس ببنت شفةٍ. وقف ينظر إلى الأمام مباشرةً. لكنّه لم يرَ جيمس تاجارت أو أيّ شيء في المكتب.

وبعد لحظة، استأذن وخرج.

في غرفة الانتظار، كان موظّفو الطاقم الشخصيّ لجيمس تاجرت يطفئون المصابيح، ويستعدّون للمغادرة. لكنّ بوب هاربر، كبير الموظّفين، ظلّ جالسًا بمكتبه يلوي أذرع آلة كاتبة نصف مفكّكة. كان لدى كلّ فرد في الشركة انطباعٌ بأنّ بوب هاربر وُلد في تلك الزاوية الخاصّة من ذلك المكتب المحدّد ولم ينوِ البتّة تَرْكَه. إنّه كبير موظّفي والد جيمس تاجارت.

نظر بوب هاربر إلى إيدي ويلرز وهو يخرج من مكتب الرئيس. كانت نظرته حكيمةً وبطيئةً، كأنّه أراد من خلالها البوح بأنّه يعلم أنّ زيارة إيدي إلى ذلك الجزء الخاصّ بهم من المبنى تعني وجود مشاكل على الخطّ، وبأن لا شيء يُرجى من تلك الزيارة، وأنّه كان غير مبالٍ تمامًا بمعرفة ما دار فيها. لقد كانت تشبه اللّامبالاة الساخرة التي رآها إيدي ويلرز في عينَي الشحّاذ عند زاوية الطريق.

سأل بوب: قل لي يا إيدي، هل تعرف مكانًا يمكنني الحصول فيه على فنايل صوفيّة؟ لقد حاولت البحث في جميع متاجر أنحاء المدينة، ولكنّها غير متوفّرة في أيّ واحدٍ منها.

قال إيدي: لا أعلم. ثمّ توقّف: ولماذا تسألني أنا بالذّات.

ـ أسأل الجميع. ربّما سيخبرني أحدهم.

نظر إيدي نظرة خفيفةً إلى وجه بوب الأبيض الهزيل وإلى الشيب الذي يزحف على شعره.

قال بوب هاربر: الجوّ باردٌ في هذا القسم من المبنى. سيكون الطقس أكثر برودة هذا الشتاء.

ـ ماذا تفعل؟ سأل إيدي، مشيرًا إلى قطع آلة الكتابة المبعثرة.

ـ انكسر هذا الشيء اللّعين مرّةً أخرى. لا فائدة من إرسالها إلى الخارج قصد إصلاحها، فقد استغرق الأمر ثلاثة أشهر في المرّة الأخيرة. أظنّ أنّني سأصلحها بنفسي وأعتقد أنّ هذا الأمر لن يأخذ منّي وقتًا طويلا. وترك قبضته تنزل على مفاتيح الآلة، قائلًا: هل أنتِ مستعدّة لإلقائك في كومة القمامة، يا صديقتي القديمة. لقد باتت أيّامك معدودة.

بدأ إيدي يتذكّر. لقد كانت آخر جملةٍ لبوب هي الجملة نفسها التي حاول أن يبحث عنها في سحاب ذاكرته: أيّامك معدودة. لكنّه نسي السياق المتّصل بما حاول أن يتذكّره.

قال بوب هاربر: لا فائدة من ذلك يا إيدي.

ـ لا فائدة من ماذا؟

ـ لا شيء. لا شيء.

ـ ما الأمر يا بوب؟

ـ لن أطلب آلة كاتبة جديدة، فالآلات الجديدة مصنوعة من الصفيح. وعندما يندثر النوع القديم، سنبلغُ نهاية الرّقن والكتابة. لقد وقع حادث في مترو الأنفاق صباح اليوم، لم تعمل فراملهم. إيدي، يجب عليك العودة إلى المنزل، شغّلْ الراديو

واستمع إلى فرقة رقصٍ جيّدةٍ. انسَ الأمر يا فتى، فمشكلتك تكمن في أنّك لا تملك أيَّ هواية. لقد سرق شخصٌ مّا المصابيح الكهربائية مرّةً أخرى من درج المبنى الذي أقيم فيه. أشكو من ألمٍ في صدري ولم أتمكّن من الحصول على أيّ قطرات من دواء السّعال هذا الصباح، لقد أفلست صيدليّة حارتنا الأسبوع الماضي، مثلما أفلست شركة تكساس-ويسترن للسكك الحديديّة في الشهر الماضي. بالأمس أغلقوا جسر كوينزبورو لإجراء إصلاحات مؤقّتة. حسنًا، وما الفائدة؟ من هو جون جالت؟

***

جلست عند نافذة القطار، وأرسلت رأسها إلى الخلف، ومدّدت إحدى ساقَيها فوق المقعد الفارغ أمامها. ارتجف إطار النافذة مع سرعة الحركة، وبقيت لوحة زجاجها معلّقةً في الظلام الدامس، وكانت نقاط الضوء تتقطّع من حين إلى آخر عبر الزجاج كخطوطٍ مضيئةٍ.

بدت ساقها منحوتةً بتألّقٍ من خلال الجورب الضيّق، وخطّه الطّويل الممتدّ بشكل مستقيم، من مشط قدم مقوّس إلى طرف قدم ممشوق في حذاء عالي الكعب. كانت لها أناقةٌ أنثويّةٌ بدت غير لائقةٍ بعربة قطار متربة وغير متناغمة على نحو غريبٍ مع ما تحملهُ من سماتٍ. كانت ترتدي معطفًا باهظ الثمن قُدَّ من وبر الجِمَال، ملفوفًا حول جسدها النحيل المتوتّر بشكلٍ غير متناسقٍ. رفعت طوق المعطف إلى الحافّة المائلة من قبّعتها، فتدلّت خصلةٌ من شعرها البنّيّ إلى الوراء، ولامست تقريبًا خطّ كتفيها. كان وجهها واضحًا بحوافّ حادّة، أمّا شكل فمها فبدا واضح المعالم، ثغر مثير أغلقته بدقّة فائقة. أبقت يديها في جَيْبَي المعطف وهيَ متجمّدة في مكانها، كأنّها مستاءة من حالة الجمود، وغياب الأنوثة، بل كأنّها غير واعية بأنّها تسكن جسد امرأة.

جلست تستمع إلى الموسيقى. كانت تنصت إلى سيمفونيّة النصر. تدفّقت النوتات الموسيقيّة متصاعدةً وكأنّها هي الصّعود ذاتُه، بل جوهر الحركة الصاعدة وشكلها، وبدت كما لو أنّها تجسّد كلّ فعل وفكر بشريّ صاعد. كان صوتًا من رحم إِشْرَاقَة الشَّمْسِ المُفَاجِئَة، يخرج من الخفاء وينفتح. وقد وجدت في الأمر نوعًا من الحرّيّة

والانعتاق. اجتاحت الفضاء لكنسه وتركه نظيفًا، ولم تترك سوى فرحة جهد لا عوائق أمامه. فقط صدى خافتٌ من الأصوات تحدّث عن الموسيقى الهاربةِ، لكنّه تحدّث في دهشةٍ وابتسامٍ عن اكتشاف أنّه لم يكن هناك قبح أو ألم، ولم يكن هناك داعٍ قطّ لأن يوجدا أصلا. لقد كانت بمثابة أغنية خلاص هائل.

واصلت التفكير برهةً بينما كان هذا الأمر يستمرّ. من الأفضل الاستسلام تمامًا – نسيان كلّ شيء والسماح لنفسك بأن تغرقي في مشاعرك. ثمّ قالت في أغوار نفسها مجدّدا: ترك كلّ شيءٍ – إسقاط الضوابط – هذا هو المطلوب.

في مكان مّا من حدود عقلها، وفي غمرة الموسيقى، سمعت صوت عجلات القطار. كانت تدقّ في إيقاع متوازن، وبدا كلّ ربع دقّة مفخّمًا، كما لو أنّها تشدّد على هدف واعٍ. يمكنها الاسترخاء الآن لأنّها سمعت صوت العجلات. استمعت إلى السيمفونيّة وهي تفكّر: لهذا السبب يجب أن تستمرّ العجلات، هذه هي الوجهة التي كانت تسير نحوها.

لم يسبق لها أن سمعت بهذه السمفونيّة، لكنّها تعلم أنّ ريتشارد هالي هو مَن ألّفها. اعترفت بالعنف والكثافة الرّائعة التي تتخلّلها. لقد أدركت أسلوب اللّحن؛ إذ كان لحنًا واضحًا ومعقّدًا في وقت لم يعد أحدٌ يؤلّفُ فيه الألحانَ... جلست تنظر إلى سقف العربة، لكنّها لم ترَهُ ونسيت المكان كلّه. لم تكن تعلم هل هي بصدد الاستماع إلى أوركسترا سيمفونيّة كاملةٍ أم إلى مجرّد لحنٍ. ربّما كانت تنصت إلى عزف أوركسترا موسيقاها الخاصّة التي تتصاعدُ في رأسها.

لقد اعتقدت، على نحوٍ غير جازمٍ، أنّ لهذا اللّحن أصداء منبّهةً غير مسبوقة في جميع أعمال ريتشارد هالي، على امتداد سنوات نضاله الطويل، إلى حدود يومٍ من أيّام منتصف عمره، أصابته فيه الشّهرة فجأة فأوقعته. هذا الأمر–كما تبادر إلى ذهنها وهي تستمع إلى السيمفونيّة– كان هدف نضاله. تذكّرت أنصاف التّلميحات المندسّة في محاولاته الموسيقيّة، والعبارات التي وعدت بها، وأجزاء اللّحن المكسورة التي بدأها لكنّه لم يصل إلى إنهائها مطلقًا؛ فعندما ألّفَ ريتشارد هالي هذا، كان... ثمّ

جلست باستقامةٍ. متى ألّفَ ريتشارد هالي هذا اللحن؟

في اللحظة نفسها، أدركت مكانها وتساءلت لأوّل مرّةٍ من أين جاءت هذه الموسيقى؟

على بعد خطوات قليلة، في نهاية العربة، كان العامل المسؤول عن الفرامل يُعدّل ضوابط مكيّف الهواء. كان أشقرَ وشابًّا. يصفّر مردّدًا لحن السيمفونيّة نفسها. أدركت أنّه كان يصفّر منذ هنيهةٍ وأنّ هذا هو كلّ ما سمعته.

شاهدته بريبةٍ لفترة من الوقت، قبل أن ترفع صوتها لتسأل: قل لي من فضلك، ما اسم اللّحن الذي تصفّر بهِ؟

التفت إليها الصبيّ، فالتقتهُ بنظرة مباشرة وشاهدت ابتسامة توّاقة ومتلهّفة، كما لو أنّها علامة ثقةٍ. لقد أعجبت بوجهه وبملامحه الحادّة والدّقيقة، لم يكن بوجهه ذلك النّوعُ من العضلات الرّخوة التي تحاول التّخلّص من سطوةٍ ما يرتسمُ في وجوه النّاس من ملامح.

أجاب مبتسمًا: «إنّها كُونْشِيرْتُو هالي».

ـ أيّ واحدة منها؟

ـ الخامسة.

وتوقّفت برهةً، قبل أن تقول ببطءٍ وحذرٍ شديد: «ألّفَ ريتشارد هالي أربع حفلات موسيقيّة فقط».

تلاشت ابتسامة الصبيّ. كان الأمر كما لو أنّه عاد إلى الواقع، مثلما مرّت به هي قبل لحظات قليلة، وكما لو أنّ مصراع النافذة أوصد بعنفٍ، ولم يبق سوى وجهٍ بلا تعابير، وجهٍ غير شخصيّ، غير مبال، وشاغر.

قال: نعم طبعًا. أنا مخطئ. لقد ارتكبت خطأً.

ـ إذَن أيّ كُونْشِيرْتُو هي؟

ـ شيء سمعته في مكان مّا.

ـ ما اسمها؟

ـ لا أدري، لا أعلم.

ـ أين سمعت هذا؟

ـ لا أتذكّر.

توقّفت عاجزةً؛ كان يبتعد عنها دون مزيد من الاهتمام.

قالت: «بدا الأمر وكأنّه لحن هالي، لكنّني أعرف كلّ نوتة ألّفها وحتّى التي لم يؤلّفها».

عمّ السّكون كلّ شيء، باستثناء نظرة خافتةٍ منتبهةٍ إلى وجه الصبيّ، وعندما عاد إليها سألها: «هل تحبّين موسيقى ريتشارد هالي؟»

قالت: «نعم، أحبّها كثيرًا».

أخذ ينظر إليها لحظةً، وكأنّه متردّد، ثمّ ابتعد. أمّا هي فبقيت تراقبه منتبهةً إلى كفاءة الخبير في تحرّكاته وهو يواصل عمله. كان يعمل بصمت.

لم تنم لمدّة ليلتين، لكنّها لم تستطع السماح لنفسها بالنوم. كانت أمامها مشاكل كثيرة لتنظر فيها ولكن ليس لديها وقت كثير لتُلمّ بها: كان من المفترض أن يصل القطار إلى نيويورك في وقت مبكّر من الصباح. وكانت هي في حاجة إلى الوقت، ومع ذلك تمنّت أن يسير القطار بشكل أسرع. لا خوف. إنّه قطار تاجرت، أسرع قطار في البلاد.

حاولت التفكير؛ لكنّ الموسيقى ظلّت ترنّ في كلّ جزء من عقلها واستمرّت في سماع أنغامها كاملةً، مثل خطواتٍ عنيدةٍ لشيء لا يمكن إيقافه... هزّت رأسها بغضب، وعدّلت هيئة قبّعتها ثمّ أشعلت سيجارة.

ظنّت أنّها لن تنام، يمكنها أن تصمد حتّى ليلة الغد... وكانت عجلات القطار

تنقر بإيقاع شديد. لقد تعوّدت على سماعها إلى درجة أنّها لم تعد تسمعها بوعيٍ، لكأنّ الصوت أصبح يشعرها بسلام داخليّ... حين أطفأت سيجارتها، عرفت أنّ بها حاجةً إلى واحدة أخرى، لكنّها اعتقدت أنّ عليها إمهال نفسها دقيقةً، أو بضع دقائق فقط، قبل أن تشعل السيجارة التالية...

وسرعان ما استرخت وغطّت في نوم عميق، قبل أن تستيقظ مع أوّل ارتجاج للقطار، فأدركت أنّ خطبًا مّا قد وقع، قبل أن تعلم ما هو: لقد توقّفت العجلات. توقّفت العربة دونَ أن تُحدثَ صوتًا وظلّت متوقّفة في غمرة نور المصابيح اللّيلية الأزرق. نظرت إلى ساعتها: لم يكن هناك سبب للتّوقّف. نظرت من النافذة: كان القطار واقفًا وسط الحقول المقفرة.

سمعت قدمَي شخص يتحرّك في مقعد عبر الممرّ، فسألته: منذ متى ونحن متوقّفون؟

أجاب صوت الرجل بشيء من اللّامبالاة: حوالي ساعة.

اهتمّ بها الرجل، وبنعاسها المدهش، لكنّه استغرب لأنّها قفزت فجأةً وهرعت إلى الباب.

في الخارج كانت هناك رياح باردة، وأرض ممتدّة شاسعة يعمّها الفراغ تحت سماء خالية. سمعت حفيف الأعشاب في الظلام. وبعيدًا أمامها، رأت ظلال رجال يقفون بجانب المحرّك، ومن فوقهم يسطعُ ضوء الإشارة الأحمر مُعلَّقًا معزولا في السماء.

سارت بسرعة نحوهم، ومرّت حذو خطّ من العجلات بهدوء. لم ينتبه إليها أحدٌ عندما اقتربت ووقف طاقم القطار وعددٌ قليل من الرّكّاب متجمّعين تحت الضوء الأحمر. وخيّم السكون، فلا أحد ينبس ببنت شفة. يبدو أنّهم ينتظرون في لامبالاة هادئة.

سألت: ما الخطب؟

التفت سائق القطار مندهشًا. لقد بدا سؤالها كما لو أنّه أمرٌ، وليس من قبيل فضول

الهواة من الرّكّاب. وقفت، ويداها في جيبيَها، وطوق معطفها مرفوعٌ، والرياح تعصف بشعرها فتنساب الخصلات بتماوجٍ عبر وجهها.

قال سائق القطار مشيرًا إلى أعلى مع إبهامه: «الضوء أحمر، سيّدتي».

ـ كم مضى من الوقت وهو على هذه الحال؟

ـ ساعة تقريبًا.

ـ نحن خارج المسار الرئيسيّ، أليس كذلك؟

ـ هذا صحيح.

ـ لماذا؟

ـ لا أعلم.

وتحدّث بعد ذلك قاطع التذاكر: «لا أعتقد أنّه كان في وسعنا فعل أيّ شيء لتجنّب إخراج القطار عبر خطّ جانبيّ، فنظام تغيير الأضواء لم يكن يعمل بشكل صحيح، بل إنّه لا يعمل على الإطلاق». ثمّ رفع رأسه تجاه الضوء الأحمر وأضاف: «لا أعتقد أنّ الإشارة ستتغيّر. أظنّ أنّها معطّلة.

ـ ثمّ ماذا ستفعلون؟

ـ سننتظر تغيّر الإشارة.

ضحك رجل الإطفاء لِمَا لاحظه عليها من ذهول وغضب، وقال: «في الأسبوع الماضي، وقع الحادث نفسه إثر خروج قطار شركة جنوب الأطلسيّ عن مساره لمدّة ساعتين، إنّه مجرّد خطإٍ بشريّ».

قالت: إنّه قطار النجم المذنّب لشركة تاجارت، والمذنّب لا يتأخّر أبدًا.

فردّ سائق القطار: من بين بقيّة القطارات في هذه البلاد، فإنّ هذا هو الوحيد الذي لم يقع في مثل هذا الحادث مطلقًا.

فتفاعل معه رجل الإطفاء قائلا: توجَد دومًا مرّة أولى.

ثمّ قال أحد الركّاب: سيّدتي، أنت لا تعلمين شيئًا عن شركات سكك الحديد، لا يوجد في هذه البلاد نظام إشارة أو أعوان إرسال جديرون بالمكانة، إنّهم لا يستحقّون إلّا اللّعن.

لم تكترث المرأة لما قاله الراكب، بل إنّها لم تلتفت إليه، لكنّها تحدّثت إلى سائق القطار: إذَن أنتَ تدرِكُ أنّ الإشارة معطّلة، فماذا تنوي أن تفعل؟

لم تعجبه نبرة كلامها، ولم يستطع فهم سبب افتراضها هذا الأمر بشكلٍ طبيعيٍّ. كانت تبدو كطفلة صغيرة. فقط فمها وعيناها أظهرا أنّها امرأة في الثلاثينات من عمرها. كانت العينان الرّماديتان والدّاكنتانِ تشكّلانِ مصدرَ إزعاجٍ، كما لو أنّهما تقطّعانِ الأشياء، ولا تهتمّان بالأمور التافهة بل ترميها جانبًا ولا تلقي لها بالًا. وبدا وجهها مألوفًا على نحو خافت، لكنّه لم يفلح في أن يتذكّر أين رآه.

ـ فقال: سيّدتي، لست مستعدّا لأن تُقطعَ رقبتي.

فتدخّل رجل الإطفاء مفسّرا: هو يعني أنّ مهمّتنا هي انتظار الأوامر.

ـ مهمّتك هي تشغيل هذا القطار.

ـ لا يمكننا مخالفة الضوء الأحمر. إذا أعلن الضوء إشارة التوقّف، فنحن مضطرّون إلى التوقّف.

ـ قال الرّاكب: سيّدتي، الضّوء الأحمر يعني الخطر.

وأردف سائق القطار: «لا يمكننا المخاطرة. وأيًّا كان المسؤول عن ذلك، فإنّ اللّوم سيُلقى علينا إذا تحركّنا. لهذا لن نتحرّك حتّى يأذن لنا أحد المسؤولين بذلك».

ـ وإذا لم يأذن أحدٌ؟

ـ سيظهرُ شخصٌ مّا عاجلًا أم آجلًا.

ـ كم سيدوم هذا الانتظار؟

تجاهلها سائق القطار بلامبالاة.

ـ من هو جون جالت؟

فقال رجل الإطفاء: إنّه يعني، لا تسألي أسئلة لا يستطيع أحد الإجابة عليها.

نظرت إلى الضوء الأحمر وإلى القطار الذي تعطلّ في ذلك المكان المظلم المنقطع.

قالت: تابع بحذرٍ الإشارةَ التالية. وإذا وجدت ترتيبًا للخطوط، فانتقل إلى المسار الرئيسيّ. ثمّ توقّف عند أوّل محطّة بها مكتب مفتوح.

ـ نعم؟ ومن أمر بهذا؟

ـ أنا.

ـ من أنت؟

توقّفت عن الكلام لفترة وجيزة، لقد مرّت بلحظة استغراب من سؤالٍ لم تكن تتوقّعه، لكنّ سائق القطار نظر عن كثب إلى وجهها. وفي الوقت المناسب، وفي انسجامٍ مع إجابتها قال وهو يلهث: «يا إلهي!».

أجابت، دونما إساءةٍ، وكأنّها مجرّد شخصٍ لم يتعرّض في حياته لسماع السؤال نفسه الذي يتكرّر دائمًا:

ـ داغني تاجارت.

قال رجل الإطفاء: «حسنا، ســ...» ثمّ خيّم الصمت على الجميع.

أمّا هي فتابعت، باللّهجة المتسلّطة نفسها، ولكن بحدّة أقلّ: «واصل المسير إلى أن تبلغ المسار الرئيسيّ وأوقف القطار عند أوّل محطّة بها مكتب مفتوح».

ـ حاضر، آنسة تاجارت.

ـ يجب عليك أن تستدرك ما ضاع من وقت. أمامك بقيّة اللّيل لتفعل ذلك. أوصل المذنّب في الموعد المحدّد.

ـ أمرك، آنسة تاجارت.

وبينما همّت بالذهاب، سألها سائق القطار: آنسة تاجارت، هل ستتحمّلين

المسؤوليّة إذا وقع أيّ مشكل؟

ـ بكلّ تأكيد.

ثمّ تبعها قاطع التذاكر حينما قفلت راجعةً إلى عربتها وهو يتمتم بارتباكٍ: «لكن.. لقد حجزتِ مجرّد مقعد بسيط في جناح عاديّ؟ كيف يمكن أن يقع هذا؟ ولماذا لم تخبرينا؟»

ابتسمت بيسرٍ: لم يكن لديَّ الوقت الكافي لأكون رسميّة أكثر. لقد كانت عربتي الخاصّة ملحقة بالقطار رقم 22 المنطلق من شيكاغو، ولكنّي نزلت في كليفلاند، والقطار رقم 22 كان يعاني من تأخير، لذلك تركت العربة. ثمّ قدم قطار النجم المذنّب بعدها فركبته. لم تكن ثمّة عربة بها مكان للنوم».

هزّ قاطع التذاكر رأسه وقال: لو أنّ أخاك مكانك لما كان له أن يركب عربة متواضعة.

ضحكت: لا، لم يكن ليفعل.

ثم رآها جميع الرجال الذين كانوا بمحاذاة المحرّك، وهي تبتعد. وبينهم كان الشابّ عامل الفرامل فسألهم مشيرًا إليها: «من هذه؟»

فأجابه سائق القطار بصوتٍ يعبّر عن احترام خالص: «إنّها من يدير شركة تاجرت العابرة للقارّات» ثمّ أردف: «هي نائب الرئيس المسؤول بإدارة غرفة العمليّات في الشركة».

عندما ارتجّ القطار أثناء انطلاقه إلى الأمام، ودوّت صافرته ثمّ تلاشى صوتها فوق الحقول، جلست بالقرب من النافذة، تشعل سيجارةً أخرى. وسرحت بخيالها: لقد تعطّل وتحطّم إلى أشلاء. يمكنك أن تتوقّع مثل هذا الحدث، بأيّ مكان في جميع أنحاء البلاد، وفي أيّة لحظة. لكنّها لم تشعر بأيّ غضب أو قلق، فهي لا تملك وقتا كافيًا لتهدره في مشاعر القلق.

ستكون هذه مجرّد مسألة يتعيّن تسويتها جنبًا إلى جنب مع القضايا الأخرى. كانت

تعلم أنّ المشرف على قسم ولاية أوهايو ليس كفؤًا وأنّه كان صديقا **لجيمس تاجارت**. لم تصرّ على طرده منذ فترة طويلة فقط لأنّها لا تملك خيارا آخر أفضل منه. الرجال الأكفاء الطيّبون عُمْلَة نادرة، والعثور عليهم أمرٌ يصعب بشكل غريب في هذا الزمان. ثمّ قالت في نفسها، كان عليّ التخلّص منه، ومنح منصبه لأوين كيلوغ، المهندس الشابّ الذي كان ينجز عملًا رائعًا بوصفه أحدَ أبرع مساعدي مدير محطّة تاجارت في نيويورك. كان **أوين كيلوغ** هو من يدير المحطّة. وقد سبق لها أن راقبت عمله لبعض الوقت. كانت تبحث دومًا عن الكفاءة الوقّادة، مثل المنقّبين عن الماس في أرضٍ يبابٍ غير واعدة. **وكيلوغ** لا يزال يافعًا بعدُ حتّى يشرف على خطّة ناظر بقسم كامل؛ لقد أرادت أن تمهله سنة أخرى، ولكن لا وقت للانتظار. كان عليها أن تتحدّث معه فَورَ عودتها.

كان شريط الأرض لا يكاد يُرى من خارج النافذة، فالقطار يتحرّك بشكل أسرع الآن، يمخر الأرضَ ويغيبُ معَ تيّارٍ رماديٍّ من الضباب. ومن خلال كلّ ما كان يشغل عقلها من عبارات الحسابات الجافّة، لاحظت أنّ لديها الوقت الكافي لتشعر بشيءٍ: الاحتفال البالغ بمتعة الفعل.

***

مع أوّل اندفاع للهواء، وبينما كان قطار النجم المذنّب يعبر أنفاق محطّة تاجارت تحت مدينة نيويورك، كانت **داغني تاجارت** تجلس باستقامةٍ، وينتابها الشعور نفسه بمجرّد عبور القطار للنّفق، ذلك الشعور بالحرص والأمل والحماس السّريّ. بدا الأمر كما لو أنّ الوجود العاديّ مجرّد صورة لأشياء بلا شكل وبألوانٍ مطبوعة على نحوٍ سيّئ، ولكنّهُ كان رسمًا أُنجِزَ بعدد قليل من جرّات القلم الحادّة التي تجعل الأمور تبدو نظيفة ومهمّة وجديرة بأن تُنجَز.

شاهدت الأنفاق وهي منسَابةٌ أمامها: جدران عارية من الخرسانة، وشبكة من الأنابيب والأسلاك، وشبكة أخرى من قضبان سكك الحديد التي انطلقت إلى ثقوب سوداء حيث علقت الأضواء الخضراء والحمراء التي بدت كما لو أنّها نطف

ملوّنةٌ. لم يكن هناك شيء آخر، لا شيء لتخفيف ذلك، على نحوٍ يمكن فيه للمرء أن يُعجب بالهدف العاري والإبداع الذي حقّقه. فكّرت في مبنى شركة تاجارت الذي يقف فوق رأسها أثناء هذه اللحظة، ويرتفع بشموخ مباشر معانقًا السماء، فقالت في نفسها: هذه هي جذور المبنى، جذور مجوّفة ملتوية تحت الأرض، تغذّي المدينة.

عندما توقّف القطار، وبمجرّد نزولها وسماعها احتكاك خرسانة المنصّة تحت كعبها، شعرت بإحساس خفيف ينتابها، ويدفعها إلى الفعل. كانت تحثّ الخطى كما لو أنّ سرعة خطواتها يمكن أن تعطي شكلا للأشياء التي شعرت بها. مرّت لحظات قليلة قبل أن تدرك أنّها تدندنُ بقطعة موسيقيّة، وأنّ اللّحن كان كونشيرتو هالي الخامس.

شعرت بشخص يراقبها، فالتفتت. كان عامل الفرامل الشابّ ينظر إليها بتوتّر.

***

جلست على ذراع الكرسيّ الكبير المقابل لمكتب **جيمس تاجارت**، وكان معطفها مفتوحًا على بدلة سفر متكمّشة. جلس **إيدي ويلرز** في الغرفة، يدوّن الملاحظات مرّة تلو أخرى بلا توقّفٍ. كان يشغل منصب المساعد الخاصّ لنائب الرئيس المسؤول عن العمليّات، وواجبه الرئيسيّ هو أن يكون حارسها الشخصيّ ضدّ أيّ فرصة لتضييع الوقت. طلبت منه أن يكون حاضرًا في مقابلات من هذا النوع، لأنّها لن تُضطَرّ إلى أن تشرح له شيئًا بعد ذلك. جلس **جيمس تاجارت** في مكتبه، وكان رأسه مرتفعًا عن كتفيه.

فقالت: إنّ خطّ ريونورتي أصبح كومة من القمامة من أوّله إلى آخره. إنّه أسوأ بكثير ممّا كنت أعتقد، لكنّنا سننقذه.

ردّ **جيمس تاجارت**: «بطبيعة الحال».

«يمكننا إنقاذ أجزاء من القطار، لكن ليس الكثير منها ولن يدوم الإصلاح فترة طويلة أيضًا. سنبدأ بوضع قطار جديدٍ في الأجزاء الجبليّة، من كولورادو أوّلًا.

سنحصل على القطار الجديد في غضون شهرين».

ـ أوه، هل قال أورين بويل إنّه سيُقدّم...

ـ لقد طلبت القطار من شركة «ريردن ستيل».

كان صوت إيدي ويلرز الخافت والمخنوق يخفي رغبة مكبوتة في الابتهاج.

لم يردّ جيمس تاجارت على ما قالته الآنسة دفعةً واحدةً فقال: داغني، لماذا لا تَجْلِسين على الكرسيِّ مثلما يُفترَض بأيّ واحد منّا أن يفعل؟ ثمّ أضاف في الأخير؛ بصوت مبتذل: لا أحد يعقد صفقات تجاريّة بهذه الطريقة.

ـ أنا أفعل.

ثمّ انتظرت ردّه فسأل، وعيناه تتحاشيانها: هل قلت إنّك أمرت بطلب قطار من شركة ريردن؟

ـ لقد تمّ ذلك بالفعل مساء أمس. اتّصلت بهم من كليفلاند.

ـ لكنّ المجلس لم يأذن لك بذلك. لم آذن لك بذلك وأنت لم تستشيريني.

بلغت حدودًا قصوى من التحمّل، فالتقطت سمّاعة الهاتف من فوق مكتبه ووضعتها على أذنها وقالت: هل ترغب في أن أتّصل بـشركة ريردن وألغي كلّ شيء.

عاد جيمس تاجارت إلى كرسيّه: وأجاب بغضب: لم أقل ذلك، لم أقل ذلك على الإطلاق.

ـ إذَن لنراسلهم لإلغاء طلبنا؟

ـ لم أقل ذلك أيضًا.

التفتت إلى ويلرز: إيدي، وجّه أمرًا بإعداد العَقد مع شركة ريردن، سيوقّعه جيم قريبًا. ثمّ أخرجت من جيبها قطعة مدعوكةً من ورق الملاحظات وقدّمتها إلى إيدي: خذ هذه الجذاذة فقد دوّنت فيها جلّ البيانات والشروط اللّازمة.

قال تاجارت: لكنّ المجلس لم يقم بـ...

قاطعته قائلة: لا علاقة للمجلس بذلك. لقد أذنوا لك بشراء القطار قبل ثلاثة عشر شهرًا. لكن من أين ستشتريه، الأمر متروك لك.

فردّ عليها: لا أعتقد أنّ من المناسب اتّخاذ مثل هذا القرار من دون إعطاء المجلس فرصة للتعبير عن رأيه. ولا أرى سببًا لضرورة أن أتحمّل المسؤوليّة بصفة شخصيّة.

ـ سأتحمّلها أنا.

ـ ماذا عن النفقات التي...

ـ شركة ريردن تقدّم لنا عرضا مناسبا أفضل بكثير من شركة مجمّع الفولاذ المرتبطة بأورين بويل.

ـ نعم، وفي هذا السياق ماذا عن عقدنا مع أورين بويل؟

ـ لقد ألغيت العقد. نحن نملك حقّ إلغائه قبل ستّة أشهر.

ـ متى فعلت ذلك؟



ـ أمس.

ـ لكنّه لم يتّصل ليؤكّد لي ذلك.

ـ لن يفعل.

جلس تاجارت ينظر إلى مكتبه. أمّا هي فتساءلت عن سبب استيائه من ضرورة التعامل مع شركة ريردن، ولماذا كان لاستيائه مثل هذه النوعيّة الغريبة والمراوِغة من السخط. كانت شركة ريردن المزوّد الرئيسيّ لشركة تاجارت العابرة للقارّات على امتداد عشر سنوات، منذ إطلاقها أوّل فرن للفولاذ، أيّامَ كان ريردن الأب رئيسًا لشركة السكك الحديديّة. على مدى عشر سنوات، كانت معظم شركات السكك الحديديّة تتزوّد وتتوسّع بفضل فولاذ شركة ريردن. ولم تكن هناك شركات كثيرة تفي بتعهّداتها فتسلّم ما يُطلَب منها في الموعد المضبوط ووفقًا للشروط التي تطلب منها. وشركة ريردن ستيل كانت واحدة من بين تلك الشركات. لقد اعتقدت داغني

أنها لو كانت مجنونةً لاستنتجت أنّ شقيقها يكره التعامل مع شركة ريردن لأنّها تؤدّي عملها بكفاءة فائقة. لكنّها لم تكن لتختم كلامها بذلك، لأنّها اعتقدت أنّ مثل هذا الشعور ليس من اللباقة في شيءٍ.

قال جيمس تاجارت: هذا ليس عدلًا.

ـ وما هو العدل إذا لم يكن هذا؟

ـ نحن نعطي كلّ أعمالنا لـشركة **ريردن** دومًا، يبدو لي أنّ علينا منح الفرصة لشخص آخر أيضًا. ريردن لا يحتاج إليها. إنّه كبير بما فيه الكفاية، يجب أن نساعد الزملاء الصغار على التطوّر، وإلّا فإنّنا سنشجّع الاحتكار فقط.

ـ جيم، لا تتحدّث عن الاحتكار.

ـ لماذا علينا دائما الحصول على الأشياء من ريردن؟

ـ لأنّنا دائما نحصل عليها.

ـ أنا لا أحبّ هنري ريردن.

ـ وأنا أيضا. ولكن كلّ ذلك لا يهمّ، نحن بحاجة إلى قطار وهو الوحيد الذي يستطيع توفيره لنا.

ـ الجانب الإنسانيّ مهمّ جدًّا. ليس لديك أيّ إحساس بالجانب الإنسانيّ على الإطلاق.

ـ نحن نتحدّث عن إنقاذ شركة للسكك الحديديّة، يا جيم.

ـ نعم، بالطبع، بالطبع، ولكن مازلتِ لا تملكين أيّ شعور بالجانب الإنسانيّ.

ـ لا، لا أملك ذلك الشعور.

ـ إذا كنّا سنمنح ريردن مثل هذه الطلبيّة الكبيرة بتوفير قطار فولاذيّ...

ـ لن يكون من الفولاذ. سيكون من معدن ريردن.

كانت دائما تتجنّب ردود الفعل والانفعالات الشخصيّة، لكنّها اضطرّت إلى كسر

ما تعوّدت عليه من قواعد عندما رأت تعابير وجه تاجارت. فانفجرت ضاحكة.

كان معدن شركة ريردن نوعًا من خليط جديد، أنتجته الشركة بعد عشر سنوات من التجارب. لقد عرضه هنري ريردن في السوق مؤخّرًا ولكنّه لم يتلقّ أيَّ طلبات ولم يجد أيّ زبائن.

لم يستطع تاجارت فهم التحوّل المفاجئ في نبرة صوت داغني من الضحك إلى البرود والقسوة: «جيم، دعك من ذلك، أعرف كلّ شيء ستقوله وأنّه معدن لم يستخدمه أحدٌ من قبل، وأن لا أحد يوافق على التعامل مع شركة ريردن وأن لا أحد مهتمّ بخليطها المعدنيّ الجديد وأن لا أحد يريده. ومع ذلك، فإنّ قطارنا ستصنعه شركة ريردن للمعادن»

ـ قال تاجارت: «لكن...» فقاطعته قائلةً: «ولكن... ولكنّ معدنهم لم يستخدمه أحدٌ من قبل!»

لاحظ، بارتياحٍ، أنّ الغضب قد أسكتها. كان يجب أن يلاحظ العواطف؛ إنّها تشبه الفوانيس الحمراء المعلّقة على طول الطريق المجهولة والمظلمة التي تترك أثرَها في شخصيّة فردٍ آخر، فتضع علامات على نقاط ضعفه. ولكن كيف يمكن للمرء أن يشعر بعاطفة شخصيّة تجاه سبيكة معدنيّة؟ ولم يفهم ما تشير إليه مثل هذه العاطفة. حتّى إنّه لم يستطع الاستفادة من اكتشافه.

ـ يبدو أنّ أفضل سلطات قطاع التعدين تُجمِع على التشكيك في معدن شركة ريردن، المتنازع عليه.

ـ دعك من هذا، يا جيم.

ـ حسنًا، مَن صاحب الرأي الذي أشار عليك بهذا؟

ـ أنا لا أطلب رأي أحد.

ـ ما هو مرجع قرارك؟

ـ الحكم والتقدير.

ـ حسنا، من احتكمت إليه في أخذ هذا القرار؟

ـ احتكمت إلى نفسي.

ـ لكن مع من تشاورت بشأن هذا الحكم؟

ـ لا أحد.

ـ وما الذي تعلمينه عن المعدن الجديد لشركة ريردن.

ـ إنّه أعظم ما طُرِح في السوق على الإطلاق.

ـ لماذا؟

ـ لأنّه أكثر صلابة من الفولاذ، وأرخص منه وسيقاوم ويعمّر أكثر من أيّ قطعة أخرى من المعادن في الوجود.

ـ لكن من قال ذلك؟

ـ جيم، أنت تعلم أنّي درست الهندسة في الكلّيّة. عندما أرى الأشياء، فإنّي أراها فعلا.

ـ ماذا رأيت؟

ـ التركيبة التي أوجدها ريردن والاختبارات والنتائج المذهلة التي أظهرها.

ـ حسنا، لو كان يرجى منها أيّ خير، لاستخدمها شخصٌ مّا، لكن لا أحد فعل ذلك.

لاحظ شرارة الغضب، فواصل بعصبيّة: كيف استطعت معرفة أنّه جيّدٌ؟ كيف يمكنك أن تكوني متأكّدة؟ كيف يمكنك أن تقرّري؟

ـ جيم، لا بدّ من وجود شخص مّا ليقرّر مثل هذه الأشياء، من هو هذا الشخص؟

ـ حسنا، أنا لا أرى داعيًا إلى أن نكون أوّل من يتعامل مع هذه الشركة. لا أرى داعيًا إلى ذلك على الإطلاق.

ـ هل تريد إنقاذ خطّ ريونورتيي أم لا؟ لم يجبها. «لو كانت هناك من سبيل إلى الأمر، لتخلّصت من كلّ ما نملكه من القطارات الخردة في نظامنا بأكمله وعوّضتها بما تنتجه معادن ريردن. كلّها تحتاج إلى تغيير. لا شيء منها سيستمرّ لفترة أطول. لكنّنا لا نستطيع توفير هذا وتَحمُّل التكاليف الباهظة. يجب أن نتجاوز هذا المطب السيّئ أوّلًا. هل تريد لنا النجاح أم لا؟».

ـ مازلنا أفضل شركة للسكك الحديديّة في البلاد. أمّا الشركات الأخرى فهي تعاني وتفعل ما هو أسوأ من هذا بكثير.

ـ إذَن هل تريدنا أن نبقى في هذا المطبّ؟

ـ لم أقل ذلك! لماذا تبالغين دومًا في تبسيط الأمور على هذا النحو؟ وإذا كنت قلقة بشأن المال، فأنا لا أرى مبرّرا يدفعك إلى إهداره على خطّ ريونورتيي، بينما تقوم شركة فينيكس- دورانغو بسرقة كلّ أعمالنا هناك. لماذا ننفق المال حين لا نملك حماية كافية تمكّننا من مواجهة منافس سيدمّر استثمارنا؟

ـ لأنّ فينيكس-دورانغو شركة سكك حديديّة ممتازة، لكنّي أنوي جعل خطّ ريونورتيي أفضل من ذلك. وسأهزم تلك الشركة، إذا لزم الأمر، إلّا أنهُ لن يكون ضروريّا، لأنّ في كولورادو مجالًا يتّسع لشركة أو حتّى ثلاث شركات للسكك الحديديّة يمكنها جني ثروات. وسوف أرهن النظام لبناء فرع لنا في أيّ منطقة حول بلدة إليس وايت.

ـ لقد سئمت من سماع إليس وايت.

لم تعجبه طريقة حركة عينيها في النظر إليه، نظرة بقيت لحظةً مثبّتة عليه.

فقال: لا أرى حاجة إلى اتّخاذ إجراء فوريّ. ثمّ أضاف مهينًا: ما الذي تعتبرينه مقلقًا جدّا في الوضع الحاليّ لـشركة تاجارت العابرة للقارّات؟

ـ عواقب سياساتك، يا جيم.

ـ أيّ سياسات؟

ـ إنّ تجربة عقدك مع شركة مجمّع الفولاذ لمدّة ثلاثة عشر شهرًا مثالٌ صارخ عن تلك السياسات. وكارثتك المكسيكيّة مثالٌ آخر.

فقال على عجلٍ: لقد وافق مجلس الإدارة على عقد شركة مجمّع الفولاذ بالإجماع. وصوّت المجلس أيضًا على بناء خطّ سان سيباستيان. ثمّ إنّني لا أرى سنببًا يبرّر تسميتها بالكارثة.

ـ لأنّ الحكومة المكسيكيّة ستُؤمّم خطّك في أيّ يوم.

ـ هذه كذبة! ثمّ أضاف بصوت يعجّ صراخًا: هذه ليست سوى شائعات شرّيرة! لديّ علاقات جيّدة جدًّا مع السلطات هناك.

ـ قاطعته بازدراء: جيم، لا يبدو أنّك خائف.

لكنّه لم يجبها.

ـ قالت: لا فائدة من الذعر بشأن هذا الموضوع الآن. وأضافت: كلّ ما يمكننا فعله هو محاولة تخفيف الصدمة. ستكون بمثابة الصفعة السيّئة لنا. أربعون مليون دولار خسارة، لن نتعافى منها بسهولة ولكنّ **شركة تاجارت العابرة للقارّات** واجهت في الماضي صدماتٍ عديدةً سيّئةً، غير أنّها صمدت. سأحرص على أن نصمد أمام هذه المصيبة.

ـ أرفض تصوّر... أرفض تمامًا تصوّر إمكان تأميم خطّ **سان سيباستيان!**

ـ حسنًا. لا تشغل نفسك بهذا الأمر.

بقيت صامتة. فردّ هو بشكل دفاعيّ: لا أرى سببًا يبرّر تلهّفك الشديد إلى منح **إليس وايت** فرصةً، ومع ذلك تعتقدين أنّ من الخطإ المشاركة في تطوير تلك المنطقة الريفيّة المحرومة التي لم تحظَ قطُّ بفرصتها في النموّ.

ـ إليس وايت لا يستجدي الفرص من أيّ شخصٍ. وأنا لست في مجال الأعمال التجاريّة لمنح الفرص. أنا فقط أدير شركة للسكك الحديديّة.

ـ يبدو لي هذا موقفًا ضعيفًا جدًّا. لا أرى سببًا يبرّر الرغبة في مساعدة رجل واحد بدلًا من أمّة بأكملها.

ـ أنا لست مهتمّة بمساعدة أيّ شخص. أنا أريد فقط كسب المال.

ـ هذا موقف غير عمليّ. الجشع الأنانيّ من أجل الربح شيء من الماضي. وقد تمّ التسليم عمومًا بأنّ مصالح المجتمع ككلٍّ يجب أن توضع دائمًا في المقام الأوّل مهما يكن المشروع التجاريّ.

ـ جيم، كم ستهدر من وقت حتّى تتهرّب من هذه المسألة؟

ـ أيّ مسألة؟

ـ طلبيّتنا مع شركة ريردن.

لم يجبها مجدّدًا. جلس يتفرّسُ هيئتها في صمتٍ. كان جسدها النحيل على وشك الانهيار من الإرهاق. إذ انتصب في خطٍّ مستقيم يمتدّ إلى كتفَيها، أمّا الكتفان فكانتا صامدتَين بفضل جهد إرادة واعية. قليلون أولئك الذين أحبّوا وجهها: كانت ملامح وجهها باردة جدًّا، أمّا عيناها فكانتا حادّتين جدًّا. لا شيء فيهما مطلقًا يمكن أن يمنحها سحر انتباه لطيف. أمّا ما أزعجته رؤيته فكان ساقيها الجميلتين، المائلتين من أسفل ذراع الكرسيّ؛ لقد أفسدتا بقيّة تقديراته.

ظلّت صامتة؛ ممّا اضطرّه إلى السؤال: هل قرّرتِ أن تأمري بهذه الطلبيّة على هذا النحو، وبارتجال عبر الهاتف؟

ـ لقد قرّرت ذلك قبل ستّة أشهر. كنت أنتظر استعداد هانك ريردن لينطلق في الإنتاج.

ـ لا تناديه باسم هانك ريردن. بهذا الأسلوب المبتذل.

ـ هذا ما يدعوه به الجميع. لا تغيّر الموضوع.

ـ لماذا كان عليك الاتّصال به الليلة الماضية؟

ـ لقد حاولت الاتّصال به بمجرّد وصولي في وقت مبكّر.

ـ لماذا لم تنتظري حتّى عودتك إلى نيويورك.

ـ لأنّني رأيت عن كثب خطّ ريونورتيي.

ـ حسنا، أنا أحتاج إلى مزيد من الوقت للنظر في الأمر، ولعرض المسألة على أنظار المجلس من أجل التشاور.

ـ ليس لدينا وقت لذلك.

ـ أنت لم تعطني فرصة لتكوين رأيٍ.

ـ أنا لا أهتمّ برأيك اللعين. ولن أجادلك أنت أو مجلسك الموقّر أو أساتذتك. لديك خيار واضح لتقوم به وسوف تقوم به الآن. فقط قل نعم أو لا.

ـ هذه طريقة منافية للعقل، وعالية التهوّر، وتعسفيّة لـ...

ـ نعم أم لا؟

ـ هذه هي المشكلة معك دومًا. أنت دائما تلخّصين الأمور في نعم أو لا. الأمور لا تكون أبدًا مطلقة على هذا النحو. فلا شيء في وجودنا مطلق.

ـ قطار المعدن الجديد هو كذلك سواء حصلنا عليه أو لم نحصل، سيبقى على هذا النحو إلى الأبد.

انتظرت ردّه لكنّه لم يجب. فسألته: حسنا، ألن تجيب؟

ـ هل تتحمّلين المسؤوليّة التي ستترتّب عن ذلك؟

ـ أنا على أتمّ الاستعداد لها.

فقال:

– انطلقي. ثمّ أضاف: ولكن على مسؤوليّتك الخاصّة. لن ألغي الطلبيّة، لكنّني لن ألزم نفسي أمام ما سيقال في المجلس.

ـ قل ما تريد.

همّت بالانصراف، أمّا هو فانحنى قليلًا على طول المكتب مُكرَهًا على إنهاء المقابلة بشكل حاسم.

قال: أنت طبعًا تدركين جميع الإجراءات الطويلة التي يستلزمها هذا الأمر. وأضاف بكلمات متفائلة تقريبا: الأمر ليس بهذه البساطة.

قالت: أه، بالتأكيد سأرسل إليك تقريرًا مفصّلا سيعدّه إيدي، لكنّني أعلم أنّك لن تقرأه. إيدي سيساعدك في إدراجه بجدول أعمالك. سأذهب الليلة إلى فيلادلفيا لرؤية ريردن. أنا وهانك ينتظرنا عمل كثيرٌ، ثمّ أضافت: جيم، الأمر بهذه البساطة.

ثمّ همّت بالذهاب، حين خاطبها مرّة أخرى بحديث جانبيّ ومحيّرٍ في آن واحد: بالنسبة إليك كلّ الأمور على ما يرام، لأنّك محظوظة. أمّا الآخرون فلا يستطيعون فعل ذلك.

ـ فعل ماذا؟

ـ الآخرون هم بشرٌ. إنّهم حسّاسون، ولا يمكنهم تكريس حيواتهم كلّها للمعادن والمحرّكات. أنت محظوظة، لأنّك لا تملكين أيّ مشاعر، إنّك لا تشعرين بأيّ شيء على الإطلاق.

وبينما كانت تنظر إليه، سرحت عيناها الرماديّتان الداكنتان ببطءٍ ودهشةٍ من السكون الذي خيّم عليهما، ثمّ أوحتا بتعبير غريب يشبه نظرة الإرهاق، لكنّه بدا كأنّما يعكس أكثر من ذلك بكثير، تلك القدرة على مزيد من التحمّل التي تلوح في الأفق ولو للحظة.

ثمّ قالت بهدوء: لا أعتقد أنّني لا أشعر بأيّ شيء على الإطلاق، يا جيم.

تبعها إيدي ويلرز إلى مكتبها. كانت كلّما زارت المبنى شعرَ إيدي كما لو أنّ العالم أصبح واضحًا وبسيطًا وسهل المواجهة، بالإضافة إلى أنّه ينسى لحظات توجّسه التي تعدم أيَّ شكلٍ. وعلى الرغم من أنّها امرأةٌ فقد كانت الشخص الوحيد الذي وجد أنّ من الطبيعيّ تمامًا أن يكون نائبًا لرئيسٍ يدير أعمال شركة السكك الحديديّة

العظيمة. عندما كان في العاشرة من عمره أخبرته أنّها ستدير الشركة في يومٍ من الأيّام. لم يدهشه الأمر الآن، تمامًا كتلك الدهشة التي ساورتها ذات يوم من أيّام تنظيف الغابة.

وبمجرّد دخولها مكتبَها، أخذ يراقبها وهي تجلس وراء المكتب وتلقي نظرة خاطفة على الملاحظات التي تركها لها، وانتاب إيدي شعورٌ يشابه ما ساوره أثناء تشغيله محرّك سيارته لتتمكّن العجلات من الدوران إلى الأمام.

كان على وشك مغادرة مكتبها، حين تذكّر مسألةً لم يبلّغ عنها. فقال: لقد طلب منّي أوين كيلوج من قسم المحطّة موعدًا لرؤيتك.

نظرت إلى أعلى بدهشةٍ، ثمّ قالت: يا لها من صدفة مضحكة. كنت سأرسل في طلبه للتوّ. إيدي، أريد أن أراه...، وأضافت فجأة: لكن قبل أن أبدأ، اطلب منهم أن يحيلوا إليّ عبر الهاتف السيّد آيرز من شركة آيرز الموسيقيّة للنشر والتوزيع.

فردّد إثرها وهو في ريبة من أمره: شركة آيرز الموسيقيّة؟

ـ نعم. ثمّة أمر أريد أن أسأل السيّد آيرز عنه.

وحين بلغ مسامعها صوت السيّد آيرز، مستفسرًا عن الخدمة التي يمكن أن يقدّمها لها، بكلّ أدب وحماس، سألته: هل يمكنك أن تخبرني بما إذا كان ريتشارد هالي قد كتب كونشيرتو البيانو الجديد، الخامسة منها؟

ـ آنسة تاجارت، الكونشيرتو الخامسة؟ لماذا تسألين، لا، بطبيعة الحال، لم يفعل.

ـ هل أنت متأكّد؟

ـ بالتأكيد، لم يكتب أيّ شيء منذ ثماني سنوات.

ـ أَمَا يزال على قيد الحياة؟

ـ لماذا تسألين؟ نعم، ولكن لا أستطيع أن أجزم بذلك، لقد انسحب نهائيًّا من الحياة العامّة، ولكنّني متأكّد من أنّه لو تُوفّي لكنّا سمعنا بذلك.

ـ هل تعلم أيّ شيء عن مؤلّفاته؟

ـ طبعًا. سنكون أوّل من يعلم بها. سننشر كلّ أعماله، غير أنّه توقّف عن تأليف الموسيقى.

ـ فهمت. شكرًا لك.

عندما دخل أوين كيلوغ مكتبَها، نظرت إليه بارتياحٍ وأعربت عن سرورها لرؤيته. لقد كانت على حقّ في تذكّرها الغامض لظهوره، كانت ملامح وجهه تشبه ملامح الشابّ عامل الفرامل في القطار، وجه نوع من الرجال الذين يمكنها التعامل معهم.

ـ قالت: سيّد كيلوغ، اجلس، لكنّه ظلّ واقفاً أمام مكتبها، ثمّ قال: آنسة تاجارت، لقد طلبت منّي مرّةً أن أعلمك إذا قرّرت تغيير عملي، لذا جئت لأخبرك أنّني سأستقيل.

فردّت وكأنّها كانت تتوقّع أيّ شيء غير ذلك؛ استغرق منها الأمر لحظةً قبل أن تسأله بهدوء: لماذا؟

ـ لسبب شخصيّ.

ـ هل أنت غير راضٍ عن العمل هنا؟

ـ لا.

ـ هل تلقّيت عرضا أفضل؟

ـ لا.

ـ ما اسم شركة السكك الحديديّة التي ستلتحق للعمل بها؟

ـ لن أذهب إلى أيّ شركة، يا آنسة تاجارت.

ـ إذن، ما الوظيفة التي تبحث عنها؟

ـ لم أتّخذ القرار بعدُ.

أخذت تدقّق معه، فشعرت بشيءٍ من عدم الارتياح. لم يكن في وجهه ما يشير إلى العداء. كان ينظر إليها على نحوٍ مباشر، أمّا إجاباته فبسيطة وصريحة. تحدّث كشخص

ليس لديه ما يخفيه أو يظهره. كانت ملامح وجهه لا تنبئ إلّا بأنّه صادق ومهذّب وخالٍ من أيّ سوء.

ـ إذَن لماذا تنوي المغادرة؟

ـ إنّها مسألة شخصيّة.

ـ هل أنت مريض؟ هل هي مسألة صحّيّة؟

ـ لا.

ـ هل ستغادر المدينة؟

ـ لا.

ـ هل ورثت المال الذي سيسمح لك بالتقاعد؟

ـ لا.

ـ هل تنوي مواصلة العمل من أجل لقمة العيش؟

ـ نعم.

ـ لكنّك لا ترغب في العمل لدى شركة تاجارت العابرة للقارّات؟

ـ نعم.

ـ في هذه الحال، لا شكّ أنّ شيئا مّا قد حدث هنا وهو ما دفعك إلى اتّخاذ هذا القرار. أخبرني عنه؟

ـ لا شيء.

ـ أرجو أن تخبرني. لديّ سببٌ يدفعني إلى معرفة هذا الأمر.

ـ هل تعدينني بأن تصدّقي كلّ ما سأقول؟

ـ أعدك.

ـ لا وجود لشخصٍ أو حدثٍ هنا أثّر على قراري.

ـ ليست لديك شكوى محدّدة ضدّ الشركة؟

ـ لا شيء.

ـ أعتقد أنّك قد تعيد النظر في قرارك هذا حين تسمع ما سأعرضه عليك.

ـ أنا آسف، لا أستطيع.

ـ هل تسمح لي بأن أبوح لك بما يجول في خاطري؟

ـ نعم، إذا كنت ترغبين في ذلك.

ـ هل تعدني بأن تصدّق أنّني قرّرت أن أعرض عليك منصبًا كنت أخطّط لعرضه عليك حتّى قبل أن تطلب رؤيتي؟ أريدك أن تعرف ذلك.

ـ آنسة تاجارت، أنا أثق في كلامكِ دومًا.

ـ كنت سأعرض عليك منصب المشرف العامّ على قسم أوهايو. إنّه لك إذا كنت ترغب في ذلك.

لم يظهر وجهه أيّ ردّ فعلٍ، كما لو أنّ الكلمات كانت بلا أهمّيّة. وبدا الأمر بالنسبة إليه وكأنّه إنسان بدائيّ لم يسمع قطّ عن شركات السكك الحديديّة، فأجابها: أنا لا أريد ذلك.

وبعد هنيهة أجابته بصوت حادّ: كيلوغ، اكتب في هذه الجذاذة ما تريد. حدّد المبلغ الذي يريحك. أريدك أن تبقى. يمكنني توفير أيّ شيء ستقدّمه لك شركات السكك الحديديّة الأخرى.

ـ لن أعمل في أيّ شركة أخرى.

ـ كنت أعتقد أنّكَ تحبّ عملك.

لقد كانت هذه أولى علامات العاطفة لديه، مجرّد اتّساع طفيف في بؤبؤي عينيه وتركيز هادئ على نحوٍ غريبٍ رافق صوته عندما أجاب: نعم أحبّ عملي.

ـ إذَن، أَشِرْ عليّ بما يتوجّب فعله لكي أبقيك معنا!

كان الأمر لاإراديًا، ومن الواضح أنّه نظر إليها كما لو أنّها اهتدت إلى ذلك.

ـ لعلّي لم أكن موفّقًا حين قدمت إلى هنا لأخبرك بأمر استقالتي. أعلم أنّك طلبت منّي

الحضور، لأنّك أردت أن تعرضي عليّ فرصة عمل أفضل.. لا أرغب في أن يُفهَم سبب قدومي إلى هنا على أنّه فتح حوار بخصوص صفقة. لكنّني لا أنتمي إلى هذا النوع من الرجال. جئت فقط لأنّني... أردت أن أَفِيَ بوعدي لك.

لقد كان لتأثير انكسار صوته وقعٌ يشبه ومضةً مفاجئة تخبرها بقيمة ما يعنيه له اهتمامها وطلبها وبأنّ قراره لم يكن من السهل اتّخاذه. فسألته:

ـ كيلوغ، هل ثمّة شيء يمكنني أن أقدّمه لك؟

ـ لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

همّ بالذهاب. ولأوّل مرّة في حياتها، شعرت بالعجز والهزيمة.

تساءلت دون أن توجّه الخطاب إليه: لماذا؟

توقّف متجاهلًا إيّاها، ثمّ ابتسم بعد أن استعاد حيويّته للحظة. أمّا ابتسامته فكانت أغرب ابتسامة رأتها على الإطلاق، فهي تحمل في طيّاتها تسلية سرّيّة وحسرة، ومرارة لانهائيّة. فتساءل: من هو جون جالت؟

الفصل الثاني

السلسلة

بدأ الأمر ببعض الأضواء. وبينما كان قطار خطّ تاجارت يطوي الأرض طيًّا وهو يسرع باتّجاه فيلادلفيا، ظهرت في الظلام بعض أضواء متناثرة رائعة. بدت وكأنّها منتشرة بلا هدفٍ في السهول الخالية، ولكنّها كانت أقوى من أن تحظى بأيّ هدفٍ. وكان الركّاب مكتوفي الأيدي، يراقبونها بفتور وبلا اهتمام.

ظهر هيكل ذو شكل أسود لا يكاد يُرى من عتمة السماء، يليه مبنًى كبير على مقربة من المسارات. كان المبنى مظلمًا، وانعكاسات أضواء القطار تندفع بلمح البصر عبر زجاج نوافذ جدرانه الصلبة.

ثمّ غطّى المشهدَ قطارُ شحنٍ قادمٌ، فدكّ النوافذ بلوثة من الضوضاء. رأى الركّاب هياكل بعيدة في السماء تحت توهّجٍ خافت تشوبه حمرةٌ، انعكس فجأة من فوق العربات المسطّحة. تنقّل التوهّج في تشنّجات غير منتظمة، كما لو أنّ تلك الهياكل كانت تتنفّس.

وعندما اختفى قطار الشحن، رأوا المباني المحدّبةَ ملتحفة في لفائف من البخار. اخترقت أشعّة بعض الأنوار القويّة تلك اللفائفَ مشكّلةً حزمًا ضوئيّة مستقيمة. أمّا البخار فكان أحمر مثل لون السماء.

ثمّ مرّ القطار بعد ذلك قربَ شيء لا يبدو أنّه يشبه المبنى، ولكنّه مثل محارة من

الزجاج المتقلّب اللون يحتوي على عوارض ورافعات ودعامات لا تكاد تُرى من خلال لهيبٍ أرجوانيّ ثابت يعمي العيون.

لم يتمكّن الركّاب من إدراك وجه التعقيد في ما يبدو أنّه مدينة ممتدّة أميالًا، نشطة دون علامات على الوجود البشريّ. رأوا أبراجًا تشبه ناطحات السحاب الملتوية، والجسور المعلّقة في الجوّ، ثمّ رأوا خطًّا من الأسطوانات المتوهّجة المصنوعة من المعادن الحمراء الساخنة تتحرّك خلال الليل.

على مقربة من قضبان سكك الحديد، ظهر مبنًى للمكاتب. علامة النيون الكبيرة فوق سطحه تضيء العربات من الداخل كلّما مرّت حذوها. وقد كُتِب على تلك العلامة: شركة ريردن للفولاذ.

قال أحد الركّاب، وهو يعمل أستاذًا للاقتصاد، لرفيقه: «أين تتجلّى أهمّيّة الفرد في الإنجازات الجماعيّة الجبّارة في عصرنا الصناعيّ؟» ثمّ قال آخر، وكان يعمل صحفيًّا سبق أن دوّن مذكّرة ليوظّفها مستقبلًا في عمود جريدته: «هانك ريردن من الرجال الذين يضفون البصمة على كلّ شيء يلمسونه فيتركون أسماءهم موشومة على تلك الأشياء. يمكنك، من خلال هذا الاستنتاج، تشكيل موقفك الخاصّ من شخصيّة هانك ريردن».

كان القطار يسرع في الظلام عندما انبعثت في السماء من خلف هيكلٍ آخر طويلٍ سحابةٌ حمراء لم يولِها الركاب أيّ اهتمام؛ فالحرارة المنبعثة من الصلب المنصهر لم تكن حدثًا تعلّموا الانتباه إليه من قبل.

كانت تلك الحرارة هي الشرارة الأولى للإيفاء بأوّل طلبيّة تُعدّها شركة ريردن.

قرب الرجال، ومن فتحة حنفيّة الفرن داخل الطواحين، انسكب أوّل تدفّق من المعدن السائل في العراء، مولّدًا إحساسًا شبيهًا بالاختناق في ساعات الصباح. لقد انسكب الصلب السائل على شكل خيط رقيق أبيض نقيّ يتدفّق من خلال الفضاء، كان لونه يشبه ألوان أشعّة الشمس. وكانت لفائف البخار السوداء تتصاعد إلى أعلى،

مسيّجةً بلون أحمر عنيفٍ. وكانت نوافير شرر النار تتطاير بتشنّج، ولها خفقٌ يشبه نزيف شرايين مقطوعة. بدا الهواء ممزّقًا إلى خرقٍ، ممّا يعكس لهبًا مستعرًا لم يكن موجودًا، وبقعًا حمراء تلتفّ وتدور وتسبح في الفضاء، كما لو أنّها لم تُحطْ داخل بناءٍ من صنع الإنسان، أو كما لو أنّها على وشك التهام الأعمدة، والعوارض، وجسور الرافعات العلويّة. غير أنّ ذلك المعدن السائل لم يكن عنيفا بأيّ شكل من الأشكال. كان ينساب على شكل منحنًى أبيض طويل بنسيج من الصقيل والابتسامة المشرقة. يتدفّق بسلاسة عبر صنبورٍ من الطين، مع حدّين متصدّعين لكبح جماحه، حتّى يسقط من علوّ عشرين قدمٍ في الفضاء، وصولًا إلى مغرفة كبيرة تستطيع رفع مائتي طن. وكان هناك دفق من نجوم عُلّقت فوق التيّار، تقفز بنعومة هادئة، تبدو رقيقة مثل الدانتيل، وبريئةً مثل البريق الذي يشعّ من عيون الأطفال. كان يمكن للمرء أن يلاحظ فقط عبر لمحةٍ تكون أقرب إلى تلك الأشياء أنّ الصقيل الأبيض يغلي. وتتطاير البقع في بعض الأحيان وتسقط على الأرض: كانت سائلا معدنيًّا، وأثناء ارتطامها بالتربة بردت، وانفجرت في شكل لهب.

تصوّروا معي مائتي طن من معدنٍ يُفترَض به أن يكون أقوى من الصلب، يتحوّل إلى سائل في درجة حرارة تناهز أربعة آلاف درجة، وفي وسعه القضاء على كلّ جدارٍ في مبنى، بل يملك القوّة لإهلاك أيّ رجل من عمّال المصنع. ولكنّ كلّ شبر من مساره، وكلّ رطل من ضغطه وكلّ جزءٍ صغير داخل محتواه، كان يسيطر عليه ويصَنّعُه عقلٌ واعٍ اشتغل عليه لمدّة عشر سنوات.

ظلّ الوهج الأحمر يتأرجح من خلال ظلام السقيفة، يقطع رؤية وجه رجلٍ واقف في زاوية بعيدة؛ كان واقفًا متّكئًا على عمودٍ، يراقب. شقّ الوهج إسفين اللحظة مارًّا أمام عينيه اللتين كانتا بلون الجليد الأزرق الشاحب، ثم مرّ عبر شبكة العمود المعدنيّ السوداء وخيوط الرماد الأكثر شقرةً من شعره، ثمّ عبر حزام معطفه والجيبَين حيث أمسك بيديه. كان طويل القامة وهزيلًا، طويلًا جدًّا بالقياس إلى مَن هم حوله. وقد ميّزت ملامحَ وجهه عظام الوجنتين البارزة وبضعة خطوط حادّة؛ لم تكن خطوط

الشيخوخة، ولكنّها ترافقه دائمًا: هذا الأمر جعله يبدو عجوزًا في العشرين، وشابًّا في الخامسة والأربعين. منذ كان يستطيع التذكّر، قيل له إنّ وجهه قبيحٌ، لأنّه شديدٌ وقاسٍ. ولأنّه بلا تعابير، فقد ظلّ وجهه بلا تعابير في تلك اللحظة، عندما نظر إلى المعدن. إنّه هانك ريردن.

جاؤوا بالمعدن وهو يرتفع إلى أعلى المغرفة ثمّ يسيل بتعالٍ إعجازيّ. ثمّ يتحوّل السيل الأبيض المبهر إلى اللون البنّيّ المتوهّج. كان منذ لحظات مضت عبارةً عن كتل جليديّة سوداء من المعدن، ثمّ أخذت في الانهيار. وكان الزبد يتقشّر في حوافّ بنّيّة سميكة تشبه قشرة الأرض. وحينما تزداد القشرة سُمكًا، تنفتح بعض الفوهات، مع استمرار السائل الأبيض في الغليان.

ثمّ قدم رجل يجلس في قمرة رافعةٍ علويّة في السماء. كان يسحب الرافعة بحركة يدٍ واحدة عفويّة: هبطت الخطّافات الفولاذيّة على السلسلة، واستولت على مقابض المغرفة، فرفعتها بسلاسةٍ مثل دلوٍ من الحليب، وانتقلت مائتا طن من المعدن في الفضاء نحو صفٍّ من قوالب تنتظر ملأها.

انحنى هانك ريردن إلى الخلف، وأغلق عينيه، فشعر بالعمود يرتجف مع قعقعة الرافعة. كان يعتقد أنّ العمل قد أُنجِز.

رآه أحد العاملين فحيّاه بابتسامةٍ تنمّ عن فهمٍ، وكأنّه زميل له في لحظة احتفالٍ عظيم. كان يعرف السبب الذي أتى بهذا الرجل الأشقر الطويل إلى هناك في تلك الليلة. ابتسم ريردن في تجاوبٍ مع العامل: كانت التحيّة الوحيدة التي تلقّاها طيلة عمله هناك. ثمّ عاد مرّة أخرى إلى مكتبه، واستعاد مجدّدًا شخصيّته ذات الوجه الذي تعوزه التعابير.

كان الوقت متأخّرًا عندما غادر هانك ريردن مكتبه في تلك الليلة فقطع المسافة من طواحينه إلى منزله مشيًا على القدَمين. ترجّل لبضعة أميال عبر ريف خالٍ، لكنّه شعر بأنّه يودّ فعلَ ذلك، دون أن يعي له سببًا.

مشى واضعًا إحدى يديه في جيبه، مغلقًا أصابعه بإحكامٍ حول سوارٍ صُنِع من معدن ريردن على شكل سلسلة. تحركّت أصابعه، فشعرت من حين إلى آخر بحبكة السوار وصلابته. لقد استغرق صنعه عشر سنوات. كان يعتقد أنّ عشر سنوات مدّة طويلة.

كانت الطريق مظلمةً ومليئة بالأشجار وبالنظر إلى أعلى، وكان بإمكان هانك رؤية بضع أوراق يتخلّلها تلألؤ النجوم؛ بَدَت الأوراق ملتويةً وجافّة وآيلة للسقوط. ثمّ تراءت أيضًا أضواء بعيدة تنبعث من نوافذ المنازل التي تنتشر في الريف. ولكنّ تلك الأضواء جعلت الطريق تبدو أكثر وحشةً وعزلةً.

لا يشعر هانك بالوحدة مطلقًا إلّا إذا كان سعيدًا. وبين فينةٍ وأخرى ينظر إلى وهج السماء الأحمر فوق الطواحين.

لم يفكّر في السنوات العشر، إذ لم يبقَ منها في تلك الليلة سوى مجرّد شعورٍ لم يستطع إيجاد اسمٍ له أو توصيفٍ، غير أنّه بدا شعورًا هادئًا ومهيبًا. كان الشعور عبارة عن خلاصةٍ لم يَحْتَج هانك إلى حساب جديدٍ لأجزائها المكوّنة لها. لكنّ الأجزاء، التي لم تُستَدْعى، كانت أيضًا هناك، حاضرةً داخل ذاك الشعور. فتذكّر تلك الليالي التي قضّاها في أفران الحرق بمختبر أبحاث المطاحن، الليالي التي قضّاها في ورشة منزله، على أوراق ملأها بتركيبات كيميائيّة عديدةٍ، ثم مزّقها في شعور غاضبٍ بالفشل، وتذكّر أيضًا الأيّام التي كان فيها العلماء اليافعون، من بين عددٍ قليل من الموظّفين الذين اختارهم لمساعدته، ينتظرون تعليماته مثل الجنود الجاهزين لمعركة يائسةٍ، بعد أن استنفدوا براعتهم، ولا يزالون مستعدّين، ولكن صامتين، دون أن يجرؤوا على قول ما يفكّرون فيه: سيّد ريدين، لا يمكن إنجاز ذلك...

عادت به الذاكرة إلى أمور شتّى:

ـ وجبات الغذاء التي أُوقفت ووقع التخلّي عنها بمجرّد وميضٍ مفاجئ لفكرة جديدةٍ، فكرةٍ يجب متابعتها دفعة واحدة، وتجريبها، واختبارها، والاشتغال عليها شهورًا، ثمّ التخلّص منها على أنّها فشل آخر؛

ـ اللحظات المنتزعة من المؤتمرات، ومن العقود، ومن واجبات تشغيلِ أفضل لمصانع الصلب في البلاد، والتي انتُزعت تقريبًا بشعور بالذنب، مثلما يقع في حالات الحبّ السرّيّ؛

- كلّ فكرة صمدت بشكلٍ غير ثابتٍ على مدى عشر سنوات، ضمن كلّ ما فعله وكلّ ما رآه، الفكرة التي علقت بذهنه حينما نظر إلى مباني المدينة، وخطوط سكّة الحديد، في الضوء المنبعث من نوافذ مزرعة بعيدة، والسكّين في يد امرأة جميلة تقطع فاكهة لمأدبة العشاء، فكرة سبيكة معدنيّة من شأنها أن تفعل أكثر من الفولاذ العاديّ في أيّ وقت مضى، إنّه معدن يمكن أن يكون ثورة بالمقارنة مع الفولاذ تمامًا كما فعل الفولاذ سابقًا بالمقارنة مع الحديد؛

- وأفعال الإجهاد الذاتيّ عندما تخلّى عن أملٍ أو عيّنةٍ، من غير أن يسمح لنفسه بمعرفة أنّه كان متعبًا، أو يجود عليها بوقت للعاطفة والشعور، دافعًا نفسه من خلال تعذيب مغتصب تمارسه جُملٌ من قبيل: «ليس جيّدًا بما فيه الكفاية... لا يزال غير جيّد بما فيه الكفاية...» والاستمرار من غير قوّة دافعة باستثناء القناعة بأنّه يمكن تحقيق ذلك؛

ـ اليوم الذي تمّ فيه كلّ شيء فكانت النتيجة ما سُمّي معدن ريردن.

كلّ تلك الأشياء التي بلغت درجة حرارة بيضاء ذوّبت سبائكه بداخله وصهرتها، بشعور غريب وهادئ جعله يبتسم في الريف أثناء الظلام ويتساءل: لماذا يمكن للسعادة أن تؤذينا؟

لقد أدرك، بعد فترة، أنّه كان يفكّر في ماضيه، كما لو أنّ أيّامًا معيّنة منه انتشرت أمامه، وتاق إلى أن يحياها مرّة أخرى. ولم يرد النظر إليها، بل كان يحتقر الذكريات بوصفها انغماسًا لا طائل منه. لكن بعد ذلك استوعب أنّه فكّر الليلةَ بتلك الأيّام تكريمًا لتلك القطعة المعدنيّة في جيبه. ثمّ سمح لنفسه بالنظر.

رأى أحداث اليوم الذي وقف فيه على حافّة صخريّة، وشعر بخيطٍ من العرق

يتصبّب من الصدغ أسفل رقبته. لقد كان عمره حينها أربعة عشر عامًا. وكان ذلك أوّل يومٍ له في العمل بمناجم الحديد في مينيسوتا. كان يحاول تعلّم التنفّس ليقاوم الألم الحارق في صدره. ثمّ وقف يلعن نفسَه، لأنّه قرّر ألّا يرضخ للتعب. وبعد برهةٍ، عاد إلى مهمّته؛ إذ لم يجد في الألم سببًا وجيهًا للتوقّف.

ورأى أحداث اليوم الذي وقف فيه أمام نافذة مكتبه ونظر إلى المناجم؛ تلك التي أصبحت على ملكه منذ ذلك الصباح. كان في الثلاثين من عمره وقتئذٍ. لم يكن ما حدث في كلّ تلك السنوات يستحقّ الذكر والاهتمام، تمامًا كما لم يكن الألم مهمًّا. كان يعمل في المناجم، وفي المسابك، وفي مصانع الصلب بالشّمال، متحرّكًا نحو الهدف الذي رسمه لنفسه. كلّ ما كان يتذكّره عن تلك الوظائف هو أنّ الرجال من حوله لا يبدُون على معرفةٍ بما يجب عليهم فعله، أمّا هو فكان دومًا يدرك تمام الإدراك ما يريد فعله. وتذكّر أنّه تساءل عن سبب إغلاق الكثير من مناجم الحديد، تمامًا مثلما كانت هذه المناجم على وشك الإغلاق إلى حدود تسلّمها. نظر إلى أكوام الصخور من بعيدٍ حيث كان العمّال يضعون لافتةً جديدة فوق بوّابةٍ عند نهاية الطريق: شركة ريردن للتعدين الخام.

رأى أيضًا أحداث تلك الليلة عندما جلس إلى مكتبه. لقد تأخّر الوقت حينها وغادر كلّ موظفيه المكان؛ لذلك استلقى هناك وحيدًا لا تراقبه أيّ عينٍ. كان متعبًا وبدا الأمر كما لو أنّه خاض سباقًا ضدّ جسده، وحاصرته سنوات الإرهاق، فثبّته ذلك الاسْتِنْزاف، الذي رفض الاعتراف به في الحال ودحاه على قمّة المكتب. لم يشعر بشيءٍ سوى الرغبة في عدم التحرّك. لم يجد القوّة ليشعر، ولا حتّى القدرة على الإحساس بالمعاناة. لقد أحرق كلّ شيءٍ كان هناك وتركه يحترق بداخله؛ أذرى شتات شراراتٍ كثيرة لبدء أشياء كثيرة، وتساءل عمّا إذا كان يمكن لشخص مّا أن يعطيه الآن الشرارة التي يحتاج إليها، الآن إذ يشعر بأنّه غير قادر على النهوض مجدّدًا. وسأل نفسه عمَّن أنشأه وجعله يستمرّ. ثمّ رفع رأسه على مهلٍ، بأعظم جهدٍ في حياته، وجعل جسده يرتفع حتّى أصبح قادرًا على الجلوس عموديًّا بيدٍ واحدة

تضغط على المكتب وذراع ترتجف لدعمه. لم يسأل ذلك السؤال مرّة أخرى.

ثمّ رأى أحداث ذلك اليوم حين وقف على تلّة ونظر إلى أرض يبابٍ ملوّثة بهياكل كانت مصنعًا للفولاذ. كان مغلقًا ومنهارًا في استسلام تامٍّ. لقد اشتراه في الليلة السابقة. كانت هناك رياح قويّة وضوءٌ رماديّ محبوس بين الغيوم. ومن خلال هذا الضوء رأى ذاك الصدأ الذي يشوبه لونٌ بنّيٌّ مختلط بحمرة تمامًا مثل دم الميّت، على فولاذ الرافعات العملاقة، والأعشاب الطفيليّة الخضراء المشرقة تنمو مثل أَكَلَةِ لحوم البشر المتخمين، على نحوٍ متزايد فوق أكوام الزجاج المكسور في سفوح الجدران المصنوعة من الإطارات الفارغة. وعند بوّابة بعيدة، رأى صورًا ظلّيّة سوداء لعددٍ من الرجال. لقد كانوا معطّلين عن العمل، بمعاول متعفّنة تشير إلى ما كان ذات يومٍ بلدةً مزدهرةً. وقفوا بصمتٍ، يراقبون تألّق سيّارة كان قد تركها عند بوّابة المطاحن؛ ثمّ تساءلوا عمّا إذا كان الرجل الواقف على التلّ هو هانك ريردن المعروف عند جميع الناس، وتساءلوا أيضًا عمّا إذا كانت إعادة فتح المصانع أمرًا صحيحًا. لقد ذُكِر في إحدى الصحف: «من الواضح أنّ الدورة التاريخيّة لصناعة الفولاذ في ولاية بنسلفانيا تعيش حالة ركود. ويتّفق الخبراء على أنّ مجازفة هنري ريردن في مجال الصلب ميؤوسٌ منها. ربّما سنشهد قريبا النهاية المثيرة لهنري ريردن المثير».

حدث ذلك قبل عشر سنوات. أمّا الليلة، فالرياح الباردة تلفح وجهه بشعورٍ مشابه لرياح ذلك اليوم. التفت لينظر خلفَه إلى توهّج الطواحين الأحمر المنثور في السماء. لقد كان مشهدًا يبعث على الحياة مثل شروق الشمس.

هذه كانت محطّاته، المحطّات التي وصل إليها القطار ومرّ بها. لم يتذكّر شيئًا متميّزا عن السنوات التي مرّت بين تلك المحطّات؛ كانت سنوات مشوّشةً مثل خطّ السرعة.

كان يعتقد أنّهم يستحقّون ذلك، بغضّ النظر عمّا يلاقون من عناءٍ وعذابٍ، لأنّهم جعلوه يصل إلى ذلك اليوم، يوم انطلاق الشرارة الأولى لأوّل طلبيّةٍ ستفي بها شركة ريردن للفولاذ، فالشركة ستسكب معدنها ليصبح قطارًا لشركة تاجارت العابرة

القارّات.

لمس السوار في جيبه. لقد قُدَّ من أوّل سكب للمعدن الجديد، وكان من نصيب زوجته. ولّما لمسه، أدرك فجأةً أنّه كان يفكّر في موضوعٍ مجرّدٍ يُدعى «زوجته»، لا في المرأة التي تزوّجها. شعر بطعنةٍ من الندم، فتمنّى أنّه لم يصنع ذاك السوار، ثمّ انتابته موجةٌ من تأنيب الضمير عمّقت ذاك الندم.

ورفع رأسه، لأنّ الوقت لم يكن مناسبًا لشكوكه القديمة. شعر بأنّه يمكن أن يغفر أيّ شيءٍ لأيٍّ كان، لأنّ السعادة كانت أعظم أسلوبٍ للتطهير. لقد شعر الليلة بأنّه سيتمنّى الخير لكلّ من يعيش على وجه البسيطة. وبتلك الرغبة في مواجهة أوّل غريبٍ، ودّ لو أنّه يقابل شخصًا مّا، ليقف أمامه منزوع السلاح عاريًا، ويقول له: «انظر إليّ». كان يعتقد أنّ الناس متعطّشون دومًا إلى رؤية الفرح، مثله تماما وهو يبحثُ عن لحظة راحةٍ من أعباء تلك المعاناة الرماديّة التي بدت غير قابلة للتوضيح وغير ضروريّة. لم يكن يملك أيّ قدرةٍ على فهم السبب الذي يجعل البشر غير سعداء.

ارتفعت الطريق المظلمة إلى قمّة التلّ بشكلٍ غير ملحوظ. توقّف هانك وانعطف. لقد أصبح الوهج الأحمر شريطًا ضيّقًا بعيدًا باتّجاه الغرب. أمّا كلمات إشارة النيون فوقه، وقد أضحت صغيرةً لا تكاد تُرى على بعد أميالٍ، فظلّت مكتوبةً على سواد السماء: ريردن للفولاذ.

توقّف باستقامةٍ، كما لو أنّه أمام لجنة تحكيم. وتوهّم في ظلام تلك الليلة أنّه يرى إشارات أخرى مضيئة فوق البلاد: خام ريدين - فحم ريدين - ريردن للحجر الجيريّ. ثم فكّر في أيّام ماضيه، وودّ لو أنّ من الممكن إضاءة لافتةٍ نيون فوق تلك الأيّام، تقول: حياة ريردن.

استدار بشكلٍ حادٍّ ومشى. وعندما اقترب من منزله، لاحظ أنّ خطواته بدأت تتباطأ وأنّ شيئًا مّا يتعكّر في مزاجه. ساوره التردّد في الدخول إلى بيته، وهو أمر لا يريد أن يشعر به. ثمّ قال في نفسه: لا، ليس الليلة؛ سيفهمون الأمر الليلة. لكنّه لم

يكن يعلم، لم ينطق البتّة بالشيء الذي يريد منهم أن يفهموه.

حينما اقترب من منزله، رأى أضواء منبعثةً من نوافذ غرفة الجلوس. كان البيت أمامه يقع على تلٍّ مرتفع مثل كتلة بيضاء كبيرة؛ بدا عاريًا، مع بعض أعمدةٍ شبه استعماريّة بزخارف متنافرة؛ لقد كان البيت يُبدي عريًا بائسًا وحزينًا وغير جدير بالكشف.

لم يكن متأكّدًا ممّا إذا كانت زوجته قد لاحظت دخوله إلى غرفة الجلوس. كانت جالسة بجانب الموقد، تُجري محادثة هاتفيّة، وذراعها تنحني وتتقلّب في تأكيدٍ رشيقٍ لكلماتها. لاحظ توقّفًا قصيرًا في صوتها، فاعتقد أنّها انتبهت إليه ورأته، لكنّها لم تنظر إلى أعلى وأكملت جملتها بسلاسةٍ؛ لم يستطع التأكّد من انتباهها إليه.

كانت تقول: لكنّ رجل الثقافة يشعر بالملل من عجائب الإبداع المادّيّ البحت. إنّه ببساطةٍ يرفض أن يكون متحمّسًا إلى السباكة.

ثمّ أدارت رأسها، ونظرت إلى ريردن في الظلّ عبر الغرفة الشاسعة، فمدّت ذراعيها برشاقةٍ، مثل رقبتَي بجعتين صُمِّمَتا إلى جانبيها.

ـ قالت بنبرةٍ مرِحةٍ مشرقةٍ: لماذا يا حبيبي، أليس من السابق لأوانه العودة إلى المنزل؟ ألم يكن هناك بعض من الزبد للمسح أو أيّ إطارات للصقل؟

ثمّ التحق جميع أفراد العائلة - والدته وشقيقه فيليب وبول لاركين صديقهما القديم.

أجابها: أنا آسف، أعلم أنّني تأخّرت.

قالت والدته: لا تقل إنّك آسف. كان بإمكانك أن تتّصل عبر الهاتف.

نظر إليها، محاولًا بشكل غامض تذكّر شيء مّا، فقاطعته: لقد وعدتَ بأن تكون هنا لتناول العشاء الليلة.

ـ أوه، هذا صحيح، لقد فعلت. أنا آسف. ولكن اليوم في الطواحين، سكبنا... ثمّ توقّف عن الكلام؛ لم يعرف السبب الذي جعله غير قادرٍ على نطق الشيء الوحيد

الذي عاد إليه ليذكُره؛ ثمّ أضاف: أنا فقط... نسيت.

قال فيليب: هذا ما كانت أمّي تعنيه.

قالت زوجته بمرحٍ: أوه، دعوا الرجل يسترجع أنفاسه فهو ما يزال مرهقا من العمل، ثمّ إنّه دخل لتوّه، وذهنه لا يزال شاردًا في المطاحن. اخلع معطفك يا هنري.

كان بول لاركين ينظر إليه بعينين مخلصتين، مثل عينين حسّاستين لكلب حبيس. قال ريردن: مرحبًا بول. متى دخلت؟

ابتسم لاركين مبديًا امتنانه لاهتمام هنري به وقال: أوه، لقد قفزت للتوّ من الطائرة رقم 535 القادمة من نيويورك.

ـ هل لديك مشكلة؟

أجابه لاركين: مَن منّا خالٍ من المشاكل هذه الأيّام؟

وتلاشت ابتسامة الامتنان عن لاركين، في إشارةٍ إلى أنّ ملاحظته كانت فلسفيّة بحتة، ثمّ أضاف: لكن لا، ليست لي مشاكل خاصّة هذه المرّة. لقد فكّرت في زيارتك وهذا كلّ ما في الأمر.

ضحكت زوجة ريردن وقالت: لقد خيّبت ظنّه يا بول. ثمّ التفتت إلى ريردن: هنري، أهي عقدة نقصٍ أم عقدة تفوّق؟ هل تعتقد أنّه لا يمكن لأحدٍ زيارتك فقط من أجل رؤيتك، أم تظنّ أنّه لا يمكن لأيّ شخص أن ينسجم معك دون مساعدتك؟

أراد أن يطلق إنكارًا غاضبًا، لكنّها كانت تبتسم له كما لو أنّ ما قالته مجرّد مزحةٍ، ولم يكن هو يملك القدرة على تلك المحادثات الجانبيّة التي يُفتَرض بها ألّا تكون مقصودةً وغير هادفة، لذلك قرّر عدم الردّ. ظلّ ينظر إليها متسائلًا عن الأشياء التي لم يتمكّن من فهمها.

عمومًا، كان يُنظر إلى السيّدة ليليان ريردن على أنّها امرأةٌ جميلةٌ. كانت تحظى بقَوامٍ ممشوقٍ ورشيقٍ، من النوع الذي يبدو جيّدًا عند ارتداء فساتين عالية الخصر مثل تلك

المصمّمة على النمط الإمبراطوريّ، وهي فساتين تعوّدت على ارتدائها. كانت ملامحها الرائعة توحي بأنّها جوهرة نفيسةٌ من ذلك الزمن: خطوطها النقيّة الفاخرة وتموّجات شعرها البنّيّ الفاتح اللّامع، وارتداؤها ملابسَ كلاسيكيّةً بسيطةً، وكانت لها علاماتٌ تشير إلى جمالها الإمبراطوريّ الملتزم. لكنّها كانت تصيب الناس الذين تلقاهم بوجهٍ مكشوفٍ كاملٍ بصدمةٍ صغيرةٍ تشوبها خيبة أملٍ. وجهها لم يكن جميلًا، أمّا عيناها فتضجّان بالوحشة، فهما شاحبتان بشكل غامض، لم تكونا رماديّتين ولا بُنيّتين، بل كانتا خاليتين من أيّ تعبيرٍ. لطالما تساءل ريردن، لماذا لا تنعكس تعابير المرح في ملامح وجهها حين تحاول إظهار بعض الفكاهة في أحيانٍ كثيرةٍ.

قالت وهي تردّ على تدقيقه الصامت: لقد التقينا من قبل عزيزي، وإن كنتَ لا تتذكّر جيّدًا هذا الأمر.

سألته والدته: هل تناولت العشاء يا هنري؟ كان صوتها يوحي بنفاد صبرٍ واضحٍ، وكأنّ جوعه مثّل إهانةً شخصيّة لها.

ـ نعم... لا... لست جائعًا.

فردّت الأمّ: من الأفضل لي أن أهاتفهم.

فأجابها: لا يا أمّي، ليس الآن، لا يهمّ.

ردّت الأم: هذه هي المشكلة التي تواجهني معك دائمًا. لم تكن تنظر إليه، بل أرسلت كلماتها في الفضاء وكأنّها تحدّث نفسها: لا فائدة من محاولة القيام بأشياء من أجلك، أنت لا تقدّر ذلك. لم أستطع قطُّ جَعلَك تأكل على النحو الصحيح.

قال فيليب: هنري، أنت تعمل بجدٍّ، وهذا الأمر قد يضرّ بصحّتك.

ضحك ريردن: أنا أحبّ ذلك.

فردّ فليب: هذا ما تخبر به نفسك. إنّه، وكما تعلم، شكل من أشكال العصاب. عندما يُغرق رجلٌ نفسه في العمل، فذلك لأنّه يحاول الهرب من شيءٍ مّا. يجب أن تكون لك هواية.

أجابه: أوه فيليب، بحقّ المسيح!، ثمّ ندم على ما كان في صوته من هياج.

لم تستقرّ صحّة فيليب يومًا، على الرغم من أنّ الأطبّاء لم يجدوا أيّ عيب محدّدٍ في جسده المترهّل الطويل والنحيل. كان في الثامنة والثلاثين من عمره، لكنّ تعبه المزمن جعل الناس يعتقدون في بعض الأحيان أنّه أكبر من أخيه.

فقال فيليب: يجب أن تتعلّم اكتساب شيءٍ من المرح وإلّا سوف تصبح مملّا وحادَّ الطبع، مثل ذلك النوع من البشر الذين يميلون إلى الوحدة والعزلة. يجب أن تخرج من تقوقعك الخاصّ وتلقي نظرةً على العالم والوجود. أنت بهذه الطريقة تريد أن تفوّت على نفسك فرصة تذوُّق ما في طعم الحياة من لذّةٍ.

فقال ريردن لنفسه: هذه هي طريقة فيليب المفضّلة للتعبير عن الاهتمام: مواجهة الغضب. ثمّ أضاف أنّ من الظلم استياءَه من ردود أفعالهم: فهم جميعًا يحاولون إظهار اهتمامهم به، وتمنّى ألّا تكون هذه هي الأشياء التي اختاروها لإبداء اهتمامهم.

أجاب مبتسمًا: فيليب، اليوم أمضيت وقتا طيّبا جدًّا.

ثمّ تساءل لماذا لم يسأله فيليب عمّا مرّ به أثناء يومه ذاك.

وتمنّى أن يسأله أحدهم. كان يجد صعوبة في التركيز، فمشهد المعدن السائل لا يزال يحترق في ذهنه، يملأ وعيه، ولا يترك أيّ مجال لأيّ شيء آخر.

ثمّ فاجأه صوت والدته: ربّما كان عليك أن تعتذر، حتّى وإن كنت أعلم أنّ الأفضل لي ألّا أتوقّع ذلك منك. فالتفت إليها. كانت تنظر إليه نظرةَ امرأة مكلومةٍ نفد صبرها. ثمّ قالت وهي توبّخه:

ـ السيّدة بيتشام كانت هنا لتناول العشاء معنا.

ـ ماذا؟

ـ السيّدة بيتشام. صديقتي السيّدة بيتشام.

ـ نعم؟

ـ لقد سبق أن أخبرتك عنها مرّاتٍ عديدةً، لكنّك لا تتذكّر أيّ شيء أقوله لك. السيّدة بيتشام كانت متلهّفة إلى مقابلتك، لكنّها اضطُرّت إلى المغادرة بعد العشاء، لم تستطع الانتظار. السيّدة بيتشام امرأةٌ مشغولة جدًّا. أرادت أن تخبرك الكثير عن العمل الرائع الذي نقوم به في مدرستنا الأبرشيّة، وعن الفصول الدراسيّة المختصّة في الحِرَف المعدنيّة، وعن مقابض أبواب الحديد الليّن التي صُنِعت بأنامل أطفال الأحياء الفقيرة.

احتاج منه الأمر إلى أن يستجمع كلّ مشاعره ليدفع نفسه إلى الإجابة على نحوٍ منصفٍ: أمّي، أنا آسف إنْ خيّبت أملك.

ـ أنت لا تتأسّف. كان يمكن أن تكون هنا لو بذلت قليلًا من الجهد. لكن متى كنت تبذل جهدًا من أجل أيّ شخص عدا نفسك؟ لستَ مهتمًا بأيٍّ منّا أو بأيّ شيء نفعله، أنت تعتقد أنّه يكفيك دفعُ الفواتير، أليس كذلك؟ المال! هذا كلّ ما تعرفه. وكلّ ما تقدّمه لنا هو المال. هل وهبتنا وقتَك من قبل؟

قال في نفسه: إن كان هذا يعني أنّها افتقدته، فهو من باب المودّة الخالصة، وإن كان من باب المودّة، فليس من العدل أن يعيش شعورًا ثقيلًا وغامضًا أبقاه في أغواره بصمتٍ خشيةَ أن يخون صوتُه ذلك الشعور بالاشمئزاز.

ـ أنت لا تهتمّ.

ثمّ واصلت بصوت بدا شطره الأوّل نفثًا، وشطره الآخر تسوّلًا واستعطافًا: اليوم احتاجت إليك ليليان في مناقشة مشكلة مهمّة جدًّا، لكنّني أخبرتها بأن لا فائدة تُرجى من انتظارك.

فقالت ليليان: أوه، أمّي، إنّه أمرٌ غير مهمّ! لن يكون مهمًا عند هنري.

فاستدار هنري إليها، ثمّ وقف في وسط الغرفة، وهو لا يزال يرتدي معطفه، كما لو أنّه محاصرٌ بوهمٍ يستحيل أن يصبح واقعًا.

فقالت ليليان: الأمر تافهٌ جدًّا. لم يستطع معرفة ما إذا كان صوتها يحمل اعتذارًا أم

تبجّحًا.

ثمّ أضافت: هو أمرٌ لا يتعلّق بالعمل. إنّه غير تجاريّ محض.

ـ ما هو؟

ـ هي مجرّد حفلة أخطّط لتنظيمها.

ـ حفلة؟

ـ أوه، لا تُبدِ خوفَك، فهي لن تكون في ليلة الغد. أعلم أنّك مشغول جدًّا، لكنّني أستعدّ لتنظيمها بعد ثلاثة أشهر من الآن، وأريد أن يكون لها شأنٌ كبيرٌ ومميّزٌ جدًّا، فهل تعدني بأن تكون هنا في تلك الليلة وليس في مينيسوتا أو كولورادو أو كاليفورنيا؟

كانت تنظر إليه بطريقة غريبة، تتحدّث بخفّةٍ وعن قصدٍ في آنٍ واحدٍ، وابتسامتها تبالغ في التأكيد على جوّ البراءة منبئةً بشيء مثل ورقة رابحة خفيّة.

قال: بعد ثلاثة أشهر من الآن؟ لكنّك تعلمين أنّني لا أستطيع التنبّؤ بما يطرأ من أعمالٍ عاجلةٍ قد تحدث إثر أيّ اتّصال بي من خارج المدينة.

ـ أعلم! ولكن ألا يمكنني تحديد موعدٍ رسميٍّ معك، على نحو مسبقٍ، تمامًا مثل أيّ مديرٍ لشركة سكك الحديد، أو أيّ صانع للسيّارات أو الخردة، أعني، تجّار الخردة؟ يقولون إنّك لا تفوّت موعدًا أبدًا، بطبيعة الحال سأدعك تختار التاريخ المناسب الذي يريحك.

كانت تنظر إليه بنظرة اكتست مسحةً خاصّةً من الجاذبيّة الأنثويّة، وقد أرسلتها من تحت جبهتها المنخفضة بالقياس إلى طوله الفارع. ثمّ سألته، على نحو استثنائيّ يشوبه الحذر الشديد: التاريخ الذي خطر ببالي هو العاشر من ديسمبر، ولكن هل تفضّل التاسع أو الحادي عشر؟

ـ لا فرق عندي.

قالت بلطف: هنري، العاشر من ديسمبر هو ذكرى زواجنا.

وأخذ الجميع يراقبون وجهه؛ كانوا يتوقّعون نظرةً تحمل شعورًا بالذنب، لكنّه خيّب أفق انتظارهم، حين لاحظوا ابتسامةً خافتةً مرحةً. كان يعتقد أنّها لم تقصد باقتراحها نصبَ فخٍّ، لأنّه يستطيع الهروب من ذلك بسهولةٍ، من خلال رفضه أيّ لومٍ على نسيانه، وبالنتيجة صدّها. كانت تعلم أنّ شعوره تجاهها هو سلاحها الوحيد. وكان يعتقد أنّ الدافع الذي يحرّكها هو محاولة غير مباشرةٍ لاختبار شعوره واعترافها له بأحاسيسها الجيّاشة. لم تكن الحفلة شكلَ الاحتفال المفضّل عنده، لكنّها الشكل المفضّل عندها. فالحفلة لا تعني أيَّ شيءٍ في قاموسه، لكنّها تمثّل في قاموسها أفضلَ تكريمٍ يمكن أن تهديه إليه وإلى زواجهما. اعتقد أنّ عليه احترام نيّتها، حتّى إن لم يشاركها المعايير نفسها، وحتّى إن لم يعرف ما إذا كان يهتمّ بَعْدُ بأيٍّ تكريم منها. وظنّ أنّ عليه تركَها تفوز، لأنّها ألقت بنفسها تحت رحمته.

ابتسم لها ابتسامةً منفتحةً مسالمةً في اعترافٍ بانتصارها وقال بهدوءٍ: حسنًا ليليان، أعدك بأن أكون هنا في ليلة العاشر من ديسمبر.

ردّت: شكرًا لك يا عزيزي، وأرفقت شكرها بابتسامةٍ باهتةٍ وغامضةٍ. أمّا هو فتساءل عن سبب الانطباع الذي راوده لحظةً، إذ فكّر أنّ موقفه قد خيّب آمالهم جميعًا.

ثمّ قال في نفسه: لو أنّها تثق به، ولو أنّ شعورها تجاهه لا يزال على قيد الحياة، لكان توافق مع تلك الثقة، وكان عليه أن يقول ذلك. كانت الكلمات عدسةً لتركيز عقل المرء، ولكنّه لم يستطع استخدام الكلمات لأيّ شيءٍ آخر في تلك الليلة: ليليان، أنا آسف لأنّني عدتُ في وقتٍ متأخّرٍ، ولكنّنا اليوم سكبنا في المطاحن الشرارةَ الأولى من معدن ريردن.

وبعد لحظة من الصمت، قال فيليب: حسنا، هذا لطيف.

أمّا الآخرون فلم يقولوا شيئًا.

وضع يده في جيبه ليتحسّس السوار، ولمّا وقعت عليه وجدَ في ملمسه ما ذهب بكلّ شيءٍ آخر. لقد استعاد الشعور ذاته الذي انتابه لحظةَ كان المعدن السائل ينسكب من أعلى الفضاء أمام ناظريه. ثمّ قال: ليليان، لقد أحضرت لك هديّةً.

لم يكن يعلم أنّه يقف باستقامةٍ وأنّ لفتة ذراعه كانت حركةَ فارسٍ صليبيّ عائدٍ يُهدي كأسه إلى حبيبته، حينما أسقط سلسلة صغيرةً من المعدن في حضنها.

التقطتها ليليان ريردن، بطرفَيْ إصبعين مستقيمين ورفعتها إلى الضوء. كانت الروابط ثقيلةً، ومصنوعةً على نحوٍ فجٍّ، وكانت للمعدن الساطع صبغة غريبة لونها أزرق مخضرّ.

سألته: ما هذا؟

أجاب: هذا أوّل شيءٍ صُنِع من أولى شرارات الطلبيّة الأولى لشركة ريردن للفولاذ.

قالت: هل تعني أنّ قيمتها تُعادل قيمة قطار لسكك الحديد؟

فنظر إليها وقد أحاط به الفراغ.

أخذت ليليان تحرّك السوار محدثةً جلجلةً، ثمّ رفعته تحت الضوءِ لترى لمعانَه، قبل أن تقول: هنري، إنّه في منتهى الروعة! ما هذه الأصالة! سيجعلني ارتداؤه أشعر بما تشعر به مدينة نيويورك، وهي تزدان بالمجوهرات المصنوعة من الأشياء نفسها مثل عوارض الجسور، ومحرّكات الشاحنات، ومواقد المطابخ، والآلات الكاتبة. وماذا كنت تسمّي ذلك الشيء في ذلك اليوم، حبيبي؟ قدور الحساء؟

قال فيليب: يا الله، كم أنت متعجرف يا هنري!

ـ ضحكت ليليان، وقالت: إنّه عاطفيّ مثل كلّ الرجال. ولكن يا عزيزي، أنا أقدّر ذلك. وأعلم أنّ الهديّة لا تهمّ بقدر ما تهمّ النيّة.

قالت والدة ريردن: لو وجّهت إليّ السؤال لأجبتك؛ النيّة هي الأنانيّة الواضحة. فلو أنّ رجلًا آخر أراد أن يقدّم لزوجته هديّةً لأهداها سوارًا من الألماس، لأنّه

سيفكّر في إسعادها لا في سعادته الشخصيّة. أمّا هنري فهو لا يفكّر إلّا في النوع الجديد الذي صنعه من القصدير. لماذا؟ لأنّ في قاموسه أنّ القصدير يجب أن يكون أغلى من الألماس عند الجميع، فقط لأنّه هو الذي صنعه. هذه هي الطريقة التي كان عليها منذ الخامسة من عمره، كان أكثر طفل شقيّ مغرور رأيته في حياتي، وكنت أعرف أنّه سيكبر ويصير أكثر المخلوقات أنانيّةً على أرض الله.

فقالت ليليان: لا، إنّه حلو، إنّه ساحر. ثمّ أسقطت السوار على الطاولة ونهضت، ووضعت يديها على كتفَي ريردن، ثمّ رفعت نفسها على أطراف أصابع قدمَيها، ورسمت قبلة على خدّه، وهي تقول: شكرًا لك يا عزيزي.

غير أنّه لم يتحرّك، ولم يحنِ رأسه إليها. وبعد فترة، استدار وخلع معطفه وجلس بجانب موقد النار، صارفًا النظر عن الآخرين. لم يشعر بشيء سوى الإرهاق الهائل.

لم يستمع إلى حديثهم. بصعوبةٍ سمع أنّ ليليان دخلت في جدلٍ مع والدته دفاعًا عنه.

وكانت والدته تقول: أنا أعرفه أكثر منك. هانك ريردن لا يهتمّ بالإنسان أو الحيوان أو النبات إلّا إذا ارتبط، على نحوٍ مّا، به وبعمله، هذا كلّ ما يهتمّ به. لقد بذلت قصارى جهدي لأعلّمه بعض التواضع، حاولت طوال حياتي، لكنّني فشلت.

لقد عرض على أمّه وسائل غير محدودة للعيش كما يحلو لها في المكان الذي يحلو لها. وتساءل: لماذا تصرّ على العيش معه. كان يعتقد أنّ نجاحه سيعني لها شيئًا. ومتى تحقّق ذلك، فلعلّه يُوطّد الرابط الذي يجمعهما، وهو النوع الوحيد من الروابط التي اعترف بها. إذا أرادت مكانًا في منزل ابنها الناجح، فلن ينكر ذلك عليها.

فتدخّل فيليب قائلا: يا أمّي، أن تجعلي من هنري قدّيسًا هو أمرٌ لا فائدة منه، لا يفترض به أن يكون كذلك.

قالت ليليان: أوه، يا فيليب، أنت مخطئ! أنت مخطئ جدًّا! هنري يحظى بجميع الصفات التي يمكن أن تجعل منه قدّيسًا. هذه هي المشكلة.

قال ريردن في نفسه: ماذا يريدون منه؟ ما الذي يسعون وراءه؟ فهو لم يطلب منهم شيئًا قطّ؛ بل إنّه لم يطلب أيّ شيء. لقد كانوا هم من يرغبون في مَسْكه، وضغطوا عليه بالمطالب، ويبدو أنّ الطلب عندهم يأخذ شكلًا من أشكال المودّة، ولكنّه وجد صعوبة في تحمّله أكثر من تحمّل أيّ نوع من أنواع الكراهية. كان يحتقر المودّة بلا سببٍ، تمامًا كما يحتقر الثروة التي لا تأتي بعرق الجبين. لقد كانوا يعلنون أنّهم يحبّونه لسبب غير معلوم، لكنّهم تجاهلوا كلّ الأشياء التي رغب في أن يكون محبوبًا من أجلها. وتساءل عن الاستجابة التي يمكن أن يأملوا في الحصول عليها منه بهذه الطريقة، إذا كان ردّه هو ما يريدونه. وتساءل وهو غارق في التفكير؛ وإلّا لماذا كلّ تلك الشكاوى والاتّهامات المستمرّة حول لامبالاته؟ لماذا هذا الجوّ المزمن المليء بالشكّ، كما لو أنّهم كانوا ينتظرون الأذى؟ إنّه لا يسعى البتّة إلى إيذائهم، ولكنّه كان يشعر دائما بتوقّعاتهم الدفاعيّة اللوّامة؛ لقد بدوا مجروحين بكلّ ما قاله، غير أنّ المسألة لم تكن في أقواله أو أفعاله، بل كانت تقريبًا... كما لو أنّهم جُرحوا من حقيقة كينونته لا غير. ثمّ قال في نفسه بحدّة: لا تبدأ في تخيّل أشياء غير معقولة لمواجهة اللّغز بأقصى ما لديك من حرصٍ على العدالة، ذاك الشعور الذي لا يرحم. إنّه لا يستطيع إدانتهم من دون فهمٍ، غير أنّه لا يستطيع أن يفهم.

هل كان يحبّهم؟ في قرارة نفسه يقول: لا. كان يريد أن يحبّهم، وهو أمر مختلف لا يعني الشيء نفسه. لقد أراد ذلك باسم بعض الإمكانات غير المعلنة التي توقّع أن يراها في أيّ إنسانٍ. لا يشعر بشيء تجاههم الآن، لا شيء سوى اللّامبالاة التي لا ترحم، ولا حتّى الندم على الخسارة. هل كانت به حاجة إلى أيّ شخصٍ بوصفه جزءًا من حياته؟ هل كان يفتقد الشعور الذي أراد أن يحسّ به؟ في قرارة نفسه يقول: لا. هل افتقده من قبل؟ يجيب: نعم، ربّما في شبابه ولكن ليس بعد الآن.

وكان شعوره بالإرهاق يتزايد؛ فأدرك أنّه أصبح فريسةً للملل. لقد كان مدينًا لهم بمجاملة إخفائه، ثمّ جلس بلا حراك، يصارع رغبة النوم التي تحوّلت إلى ألمٍ جسديٍّ.

كانت عيناه لا تكادان تغمضان، عندما شعر بإصبعين ناعمين ورطبين يلمسان يده: إنّه بول لاركين وقد سحب كرسيًّا إلى جانبه وكان يرغب في إجراء محادثة خاصّة معه.

ـ هانك، لا يهمّني ما تقوله الصناعة بخصوص هذا الموضوع، أنت تملك أعظم منتوج في شركة ريردن للفولاذ، منتوج عظيم فعلًا، إنّه سيجلب لك ثروة طائلة، مثل كلّ شيء تضفي عليه بصماتك الفريدة.

قال ريردن: نعم، سيفعل ذلك.

ـ أنا... آمل فقط ألّا تواجه المشاكل.

ـ أيّ مشاكل؟

«أوه، أنا لا أعلم... الطريقة التي تسير بها الأمور في الوقت الحاضر... هناك أناس، هم... ولكن كيف يمكننا أن نقول ذلك؟ أيّ شيء يمكن أن يحدث...».

ـ عن أيّ مشاكل تتحدّث؟

جلس لاركين منحنيًا، ينظر إلى أعلى بعينيه اللطيفتين المتوسّلتين. لقد كان قصيرًا، ممتلئ الجسم، يبدو دائما وكأنّه يفتقد الحماية ويشعر بالنقص، وكما لو أنّه في حاجة إلى صَدَفَةٍ تحميه من أدنى لمسةٍ. غير أنّ عينيه الحزينتين، وابتسامته الضائعة العاجزة والجذّابة كانت بديلًا من تلك الصَّدَفَة. تبدو ابتسامته قادرةً على انتزاع أيّ سلاح، مثل ابتسامة طفلٍ يلقي بنفسه تحت رحمة عالم غير مفهوم. لقد كان في الثالثة والخمسين من عمره.

قال لاركين: إنّ علاقاتكم العامّة ليست جيّدة جدًّا، يا هانك. لطالما كانت صورتك سيّئة في الإعلام والصحافة.

ـ وما المشكل في ذلك؟

ـ أنت لست مشهورًا، يا هانك.

ـ أنا لم أسمع من قبل أيّ شكاوى من زبائني.

ـ أنا لا أقصد هذا الأمر. عليك توظيف وكيل صحفيّ جيّدٍ ليسوّق للجمهور صورة جميلة عنك وعن أعمالك.

ـ وما الغاية؟ فأنا أسوّق الفولاذ ولا أسوّق نفسي.

ـ لكنّك لا تريد أن تؤلّب الجمهور ضدّك. الرأي العامّ، كما تعلم، يمكن أن يعني لك الكثير.

ـ لا أعتقد أنّ الجمهور يقف ضدّي. ولا أعتقد أنّ ثمّة لعنةً قد تلحقني.

ـ الصحف تقف ضدّك.

ـ لأنّ لهم ما يكفي من وقتٍ ليضيّعوه، أمّا أنا فلا وقت عندي أضيّعه.

ـ هانك، هذا الأمر لا يعجبني. إنّه ليس بالأمر الجيّد.

ـ ماذا؟

ـ ما يكتبونه عنك.

ـ ماذا يكتبون عنّي؟

ـ حسنا، أنت تعرف كلّ شيء. يقولون إنّك عصيٌّ جامحٌ، ولا ترحم أحدًا، ولن تسمح لأيّ شخص أن يشاركك إدارة المطاحن الخاصّة بك، وإنّ هدفك الوحيد هو صنع الصلب وكسب المال.

ـ لكن هذا هو هدفي الوحيد.

ـ لكن يجب ألّا تقول ذلك.

ـ إذَن؟ ماذا يفترض بي أن أقول؟

ـ أوه، أنا لا أعلم... لكن مطاحنك..

ـ إنّها مطاحني، أليس كذلك؟

ـ نعم، ولكن يجب ألّا تقول ذلك للناس بصوت عالٍ جدّا... أنت تعلم كيف تسير الأمور في الوقت الحاضر... هُم يعتقدون أنّ موقفك يعادي المجتمع.

ـ أنا لا أكترث إطلاقًا لكلّ ما يقولون وكلّ ما يعتقدون.

تنهّد بول لاركين.

ـ بول، ما المشكل؟ إِلَامَ تلمّح؟ ثمّ أضاف: لا شيء... لا شيء على وجه الخصوص. فالمرء لا يعلم أبدا ما يمكن أن يحدث في مثل هذه الأوقات... على المرء أن يكون حذرًا جدًّا...

وضحك ريردن ضحكةً مكتومةً، وتساءل: أنت قلق عليّ، أليس كذلك؟

ـ كلّ ما في الأمر أنّني صديقك، يا هانك. أنا صديقك. وأنت تعلم كم أحبّك.

لم يكن بول لاركين محظوظًا قطُّ. فما اقترب من شيء إلّا وجاءت النتيجة غير سارّة، وبقدر عدم نجاحه لم يكن فاشلًا. كان رجل أعمال، لكنّه لا يستمرّ طويلا في جميع المجالات التي اقتحمها. في هذه اللحظة، كان يدير بصعوبة وبتعثّرٍ مصنعًا متواضعًا ينتج معدّات التعدين.

لقد تشبّث بريردن سنواتٍ، وأعجب به إعجابًا رهيبًا. يأتي لزيارته طلبًا للمشورة، والقروض الماليّة في بعض الأحيان، ولكن ليس في أحيانٍ كثيرةٍ. كانت القروض متواضعة وكان يسدّدها دائمًا، ولكن ليس في الوقت المحدّد دومًا. ويبدو أنّ ما يدفعه إلى الاستمرار في هذه العلاقة يشبه حاجة شخص هزيل يتلقّى نوعًا من نقل الدم الحيّ فقط من مجرّد مشاهد حيويّة مفرطة في الوحشيّة.

لقد أحسّ ريردن، من خلال مراقبة جهود لاركين، بالشعور نفسه عندما شاهد نملةً تكافح تحت حمولة عصا عود الثقاب. فقال في نفسه إنّ الأمر صعب على لاركين، لكنّه سهل جدًا عندي. لذلك لم يبخل عليه بالنصيحة والاهتمام اللبق والصبور كلّما كان بحاجة إليه.

ـ أنا صديقك، يا هانك.

نظر إليه ريردن مستخبرًا.

حاد لاركين بنظره بعيدًا، كما لو أنّه كان يناقش أمرًا في ذهنه. وبعد فترةٍ، سأل بحذرٍ:

ـ كيف حال رَجُلِكَ في واشنطن؟

ـ في تقديري، إنّه جيّد.

ـ يجب أن تكون متأكّدا من ذلك. إنّه أمرٌ مهمّ.

نظر إلى ريردن، وكرّر بنوعٍ من الإصرار المُجهِد، كما لو أنّه سيؤدّي واجبًا أخلاقيًّا مؤلمًا:

ـ هانك، إنّه أمر مهمّ جدًّا.

ـ أفترض ذلك.

ـ في الواقع، أنا هنا فقط لأخبرك به.

ـ لأيّ سبب خاصّ؟

نظر لاركين في الأمر، وقرّر أنّه قد أوفى بواجبه فقال: لا.

لقد كره ريردن الموضوع. فهو يعلم أنّ من الضروريّ وجود رجل يحميه من الهيئة التشريعيّة؛ وكان على جميع الصناعيّين توظيف هؤلاء الرجال. ولكنّه لم يولِ هذا الجانب من عمله اهتمامًا كبيرًا؛ بل إنّه لم يستطع إقناع نفسه تمامًا بأنّ ذلك كان أمرًا ضروريًا. ثمّ أوقفه نوع لا يمكن تفسيره من النفور، كان في جانب منه شعورًا بصعوبة الإرضاء وفي جانبه الآخر شعورًا بالملل، وكان يوقفه كلّما حاول النظر في ذلك الأمر.

قال وهو يفكّر بصوت عالٍ: المشكلة، يا بول، أنّ الرجال الذين يجب على الواحد منّا اختيار أحدهم لمثل هذا المنصب تافهون جدًّا.

نظر لاركين بعيدًا وقال: هذه هي الحياة.

ـ اللعنة، لماذا هي كذلك؟ هل يمكنك أن تقول لي لماذا؟ ما خطب هذا العالم؟

تجاهله لاركين بحزن: لماذا أجدك تطرح أسئلةً لا فائدة ترجى منها؟ من قبيل: ما مدى عمق المحيط؟ ما مدى ارتفاع السماء؟ من هو جون جالت؟

جلس ريردن باستقامة، وقال بحدّةٍ: لا داعي إلى أن يكون شعورك على هذا النحو.

نهض، وزال كلّ تعبه بمجرّد تحدّثه عن عمله، فشعر بطفرة مفاجئة من التمرّد، وحاجةٍ إلى استعادة تأكيد التحدّي وإعادته ضمن وجهة نظره الخاصّة إلى الوجود. هذا الشعور الذي كان قد ساوره أثناء عودته إلى المنزل الليلة مشيًا على القدمين، والذي يبدو الآن مهدّدًا بطريقة مجهولةٍ.

وأخذ يجوب الغرفة بخطًى حثيثة. يبدو أنّه قد استعاد كلّ طاقته. ثمّ أخذ يحدّق في كلّ أفراد عائلته. لقد كان ينظر إليهم كأنّهم أطفال حائرون وتعساء، حتّى والدته نظر إليها على هذا النحو. ولو أنّه استاء من عدم كفاءتهم لكان ضربًا من الجنون؛ فذاك أمرٌ متأتٍّ من عجزهم، وليست من المكر. لقد كان من المفروض عليه أن يعلّم نفسه كيف يفهمهم، مادام يمتلك الكثير ليعطي، ومادامو لا يستطيعون مشاركته الشعور ذاته بالقوّة البهيجة المطلقة.

ألقى نظرةً خاطفة في جميع أنحاء الغرفة، وكانت والدته وفيليب يتناقشان بحماسٍ؛ لكنّه لاحظ أنّهما ليسا متحمّسين حقًّا، بل كانا متوتّرين. كان فيليب جالسًا على كرسيّ منخفض، وبطنه إلى الأمام، ويرزح تحت وزنٍ زائد على لوحَي كتفيه، كما لو أنّ الإزعاج البائس في مشهد جلوسه كان يهدف إلى معاقبة المتفرّجين.

فسأله ريردن، وهو يقترب منه: ما المشكلة يا فيليب؟ يبدو أنّك مُنهَكٌ.

ردّ فيليب متجاهلًا: لقد مررت بيومٍ عصيبٍ.

قالت والدته: أنت لست الوحيد الذي يعمل بجدٍّ. كلّ الناس يعانون من المشاكل، حتّى لو لم تكن مشاكل عابرة للقارّات وبمليارات الدولارات مثل

مشاكلك.

ـ لمَ لا؟ فمثل تلك الأعمال تعتبر أمرًا جيّدا. لطالما اعتقدت أنّ فيليب يجب أن يجد بعض الاستثمارات من تلقاء نفسه.

ـ جيّد؟ أتعني أنّك تحبّ أن ترى أخاك وهو يتصبّب عرقا ويهدر كامل صحّته من أجل تلك الأعمال؟ سيكون الأمر مسلّيًا بالنسبة إليك، أليس كذلك؟ بل أنا متأكّدة من أنّ الأمر سيكون على هذا النحو.

ـ لمَ لا، يا أمّي؟ أودّ مساعدته.

ـ لا داعي إلى أن تساعده. ليس عليك أن تشعر بأيّ شيء تجاه أيّ واحدٍ منّا.

لا يملك هنري ريردن أدنى فكرة عن عمل أخيه، ولا عمّا يرغب في القيام به. لقد أَرسله إلى الكلّيّة في السابق، ولكنّ فيليب لم يكن قادرا على اتّخاذ قرار بشأن أيّ طموح محدّدٍ. ووفقًا لمعايير ريردن، كان هناك شيء خاطئ في تركيبة أخيه، فهو رجل لا يبحث عن أيّ عمل مربح، لكنّه لن يفرض معاييره عليه؛ كان يستطيع تحمّل نفقات أخيه دون أن يعيرها أدنى اهتمام. وكان يقول في نفسه لسنوات عديدة: يا هنري دعه يأخذ الأمور بسهولة، دعه يكتشف كلّ الفرص حتّى يختار حياته المهنيّة دون إجهاد أو نضال من أجل كسب لقمة العيش.

سأله بصبر: ماذا كنت تفعل اليوم يا فيليب؟

ـ ما أفعله لن يثير اهتمامك.

ـ بالعكس، إنّه يثير اهتمامي. ولهذا السبب أنا أسألك.

ـ كان عليّ لقاء عشرين شخصًا مختلفا في كلّ مكان، من هنا إلى ريدينغ، ثمّ إلى ويلمنجتون.

ـ ما الذي يجمعك بهم؟

ـ كنت أحاول جمع الأموال لمنظّمة أصدقاء التقدّم العالميّ.

لم يتمكّن ريردن من حفظ أسماء جميع المنظّمات التي كان فيليب ينتمي إليها، ولا الحصول على فكرة واضحة عن أنشطتها. كان قد سمع فيليب يتحدّث بشكل غامض عن تلك المنظّمة على امتداد الأشهر الستّة الماضية. ويبدو أنّه كان منكبًّا على نوع من المحاضرات المجّانيّة عن علم النفس والموسيقى الشعبيّة والفلاحة التعاونيّة. وكان ريردن يشعر بالازدراء تجاه هذه الجماعات، ولا يرى سببًا مقنعًا لإجراء بحث دقيق عن طبيعتها.

لقد ظلّ صامتًا. فأضاف فيليب من دون دافع: نحن بحاجة إلى عشرة آلاف دولار من أجل برنامج حيويّ، لكنّ محاولة جمع الأموال والتبرّعات مهمّة عسيرة تمامًا كمهامّ الشهداء. وللأسف لم تتبقّ في ضمائر الناس ذرّةٌ من الوعي الاجتماعيّ. عندما أفكّر في ذلك النوع من أكياس المال الضخمة التي رأيتها اليوم أسائل نفسي، لماذا ينفقون أكثر من ذلك على أيّ نزوة، في مقابل عجزي عن الضغط عليهم لاستجداء مائة دولار فقط منهم، وهو كلّ ما طلبته. إنّهم لا يملكون أيّ شعور بالواجب الأخلاقيّ، لا... ما يضحك؟ سأله بحدّةٍ. لقد وقف ريردن أمامه وظلّ مبتسمًا.

قال ريردن في نفسه: ما كلّ هذا الصراخ الصبيانيّ، وكلّ هذه الفظاظة العاجزة والتلميحات والإهانة التي تتدفّق على مَسمَعي. سيكون من السهل جدًّا عليّ أن أسحق فيليب ردًّا للإهانة، لكنّ ردّ الإهانة سيكون قاتلا، فهو لا يستطيع أن ينبس بكلمة مهينة. لا شكّ أنّ هذا الأحمق المسكين يدرك أنّه رَهن رحمتي، ويدرك أيضًا أنّه سيتقبّل الإهانة بكلّ رحابة صدر، لهذا لن أفعل ذلك، وعدم فعلي ذلك هو أفضل جواب لي، وهو ما لن يكون قادرًا على تفويته. أيّ نوع من البؤس يعيش فيه حقًّا، ليمسَخ نفسه بهذه الحدّة؟

فجأةً اعتقد ريردن أنّه قادر على اختراق تعاسة فيليب المزمنة ولو لمرّة واحدة، وأنّ في وسعه أن يَهبَه صدمة من المتعة، ذلك الإشباع غير المتوقّع لرغبة ميؤوس منها. ثمّ قال في نفسه: لماذا سأهتمّ برغبته؟ إنّها رغبته، تمامًا كما كانت رغبتي في الحصول على

معدن ريردن، لا شكّ أنّها تعني له ما تعنيه رغبتي لي، دعنا نرَه سعيدًا لمرّة واحدة فقط، قد يعلّمه هذا الأمر شيئًا مّا، ألم أقل إنّ السعادة هي وكيل التطهير؟ أنا بصدد الاحتفال هذه الليلة، لذا دعه يتقاسم معي هذا الاحتفال الذي سيعني له الكثير، على العكس منّي تمامًا.

فقال مبتسمًا: فيليب اتّصل بالآنسة إيفز في مكتبي غدًا. ستجد عندها شيكا لك بعشرة آلاف دولار.

أخذ فيليب يحدّق في أخيه وفمُه فاغر من الدهشة؛ لقد كان شعوره مزيجًا غير مفهومٍ، شعور لا يشي بالصدمة تمامًا ولا يشي بالفرح أيضًا، إنّه مجرّد تحديق فارغٍ من عَينين تبدوان مثل الزجاج.

قال فيليب: أوه، ثمّ أضاف: نحن نقدّر ذلك كثيرًا. لم تكن في صوته عاطفة، ولا حتّى مجرّد جشع.

لم يستطع ريردن فهم شعوره الخاصّ: كان كما لو أنّه شيء ثقيل وكئيب وفارغ ينهار بداخله، لقد أحسّ بثقل الوزن والفراغ معًا. كان يعلم أنّها خيبة أمل، لكنّه تساءل لماذا كان شعوره رماديًّا وقبيحًا جدًّا؟

قال فيليب ببرودٍ: إنّها لفتة كريمة ولطيفة جدًّا منك يا هنري. أنا مندهش حقًّا. لم أتوقّع ذلك منك.

قالت ليليان، بصوتٍ واضح فيه طربٌ غريب: فيليب، ألا تفهم ذلك؟ لقد سكب هنري معدنه اليوم. ثمّ التفتت إلى ريردن: هل نعلنها عطلة وطنيّة رسميّة يا عزيزي؟ وأضافت: أنت رجل جيّد يا هنري، لكن ليس بما فيه الكفاية في بعض الأحيان.

ظلّ ريردن ينظر إلى فيليب كما لو أنّه ينتظر أمرًا مّا.

نظر فيليب بعيدًا، ثمّ رفع عينيه ولمح نظرات ريردن، كما لو أنّه يُقاسمه التفكير من تلقاء نفسه.

سأله فيليب: أنت لا تكترث حقًا لمساعدة المحرومين، أليس كذلك؟ سمعه ريردن والصدمة تعتلي محيّاه، لم يكن قادرًا على تصديق ما سمعه، إذ كانت نبرة صوت أخيه مَشُوبةً باللوم والعتاب.

ـ لا، فيليب، أنا لا أهتمّ بذلك على الإطلاق. أردتك فقط أن تكون سعيدًا.

ـ لكنّ هذا المال ليس لي. لم أجمَعْه لأيّ دافع شخصيّ. وليس لي في هذه المسألة أيّ مصلحة ذاتيّة مهما يكُن نوعها.

كان صوته باردًا، يتخلّله شيءٌ من الوعي بالفضيلة. التفت ريردن كي لا ينظر إلى أخيه، ثمّ ابتعد. لقد شعر بكراهية مفاجئة، لا لأنّ الكلمات كانت نفاقًا، بل لأنّها حقيقيّة؛ وقد عناها فيليب فعلًا.

أضاف فيليب: هنري، بالمناسبة، هل تمانع إذا طلبت منكَ أن أتسلّم المال نقدًا من الآنسة إيفز؟

فعاد ريردن إليه، وهو في حيرة من أمره. وواصل فليب استفزازه:

ـ كما ترون، أصدقاء منظّمة التقدّم العالميّ هم مجموعة تقدّميّة جدًّا. يا هنري، لقد أكّدوا دائمًا أنّك تمثّل العنصر ذا السمعة الأكثر سوادا من بين جميع رجال الأعمال والممثّل المنحطّ للتراجع الاجتماعيّ في البلاد، لذلك فإنّ من المحرج لنا، كما تعلم، أن يكون اسمك على قائمة المساهمين لدينا، فقد يتّهمنا شخصٌ مّا بأنّنا قبضنا رشوةً من هانك ريردن لتلميع صورته.

أراد صفع وجه فيليب ولكنّ شعورًا باحتقارٍ لا يطاق جعله يتجاهله.

ردّ عليه هانك بهدوءٍ: حسنا، يمكنك الحصول عليه نقدًا.

ثمّ تحوّل ليبقى عند أبعد نافذة في الغرفة، وظلّ يراقب وهج المطاحن من بعيدٍ.

سمع صوت لاركين يصرخ وراءه: هانك، اللعنة، لم يكن يتوجّب عليك أن تعطيه المال!

ثمّ سمع صوت ليليان، بفتورٍ ومرح مألوفٍ: ولكن أنت مخطئ يا بول، مخطئ جدًّا! ماذا سيلحق بكبرياء هنري لو أنّه لم يَرْمِ الصدقات علينا؟ ماذا سيحدث لقوّته إذا لم يجد أشخاصًا أضعف يسيطر عليهم؟ ماذا كان سيفعل بنفسه لو أنّه لم يُبقِنا في الجوار كأتباع مخلصين له؟ لا بأس، حقًّا أنا لا أنتقده، إنّه قانون الطبيعة البشريّة.

أخذت السوار المعدنيّ وأمسكت به، وتركته يلمع في ضوء المصباح. ثمّ أضافت: سلسلة. إنّها مناسبة، أليس كذلك؟ إنّها السلسلة التي يشدّنا بها جميعًا إلى عبوديّته.

الفصل الثالث

القمّة والسفح

كان السقف أشبه ما يكون بسقف دهليز، كان ثقيلًا ومنخفضًا حتّى إنّ الناس ينحنون عند عبور الغرفة، كما لو أنّ وزن القبو سيقع على أكتافهم. لقد بُنِيت المقصورات الدائريّة، التي تشبه في لونها لونَ الجلد الأحمر الداكن، بجدرانٍ من الحجر بدَت متآكلةً بسبب القِدم والرطوبة. لم تكن بها نوافذ، فقط بقعٌ من الضوء الأزرق تتسلّل من شقوقٍ في البناء، ذلك الضوء المميت الذي يُستخدَم في حالات انقطاع التيّار الكهربائيّ. ويمكن الدخول إلى المكان عن طريق المشي بخطواتٍ ضيّقة ومتقاربة تؤدّي إلى أسفل، كما لو أنّها تنحدر إلى عمق الأرض. لقد كانت هذه أغلى حانةٍ في نيويورك بُنِيت على سطح ناطحة سحاب.

جلس أربعة رجال إلى طاولة. إنّهم يجلسون على ارتفاع ستّين طابقًا فوق المدينة. كانوا لا يتحدّثون بصوتٍ عالٍ كما يفعل الناس عادةً حين يكونون على ارتفاع شاهقٍ. لقد أبقوا أصواتهم منخفضة حتّى تتلاءم مع طبيعة ذلك القبو.

قال أورين بويل: الأحوال والظروف يا جيم... الأحوال والظروف خارجة تمامًا عن سيطرة الإنسان. كلّ الأشياء عن ذلك القطار كانت مرسومة وفق خارطة واضحة أمامنا، ولكن حصلت تطوّرات غير متوقّعةٍ لم يكن في وسع أيّ أحدٍ منّا منعَ وقوعها. فقط لو تمنحنا فرصة أخرى، يا جيم.

قال جيمس تاجارت متشدّقًا: الانقسام.. يبدو أنّه السبب الأساسيّ لجميع المشاكل الاجتماعيّة. لأختي نوعٌ من التأثير يشوبه ضربٌ خاصٌّ من النفوذ عند حملة الأسهم لدينا. ولا يمكننا دائمًا هزم تكتيكاتهم التخريبيّة.

ـ لقد قلتها يا جيم. الانقسام والتشرذم، هذه هي المشكلة. ورأيي المطلق هو أنّه لا يمكن لأيّ مؤسّسة تجاريّة أن تنجح، في مجتمعنا الصناعيّ المعقّد، دون أن تتقاسم عبء المشاكل مع المؤسّسات الأخرى.

أخذ تاجارت رشفةً من شرابه المفضّل، ثمّ وضع كأسه فوق الطاولة مجدّدًا وقال: أتمنّى أن يطردوا ذلك الساقي.

ـ دعونا ننظر في شأن شركة مجمّع الفولاذ. لدينا أحدث مصنع في البلاد وأفضلها تنظيمًا، ويبدو لي أنّ هذه حقيقة لا جدال فيها، لأنّنا حصلنا على جائزة الكفاءة الصناعيّة لمجلّة الغلوب في العام الماضي. إذَن، يمكننا تأكيد أنّنا فعلنا ما في وسعنا وليس لأحدٍ أن لومنا. ولكنّنا لا نستطيع تجاوُز مشكلة الفولاذ الخام لأنّها مشكلة وطنيّة. لم نتمكّن من الحصول على الخام يا جيم.

لم يقل تاجارت شيئًا. كان جالسًا وهو يفتح مرفقيه على مصراعَيهما ويُشرعهما عند أعلى الطاولة. كانت الطاولة صغيرة على نحو غير مريحٍ، وهذا ما جعلها أكثر إزعاجًا لرفاقه الثلاثة، ولكن يبدو أنّهم لم يشكّكوا في امتيازه.

قال بويل: لا أحد يمكنه الحصول على الخام بعد الآن. لأنّ هناك...، كما تعلمون، أسبابًا عديدة كالإرهاق الطبيعيّ للمناجم، وتردّي المعدّات، ونقص الموادّ، وصعوبات النقل، وغيرها من الظروف التي لا يمكن تجنّبها.

ـ صناعة الخام تنهار. هذا ما يقضي على تجارة معدّات التعدين.

قال أورين بويل: لقد ثبت علميًّا أنّ كلّ عمل يعتمد على عمل آخر. لذلك يجب على الجميع أن يتقاسموا الأعباء.

قال ويسلي ماوتش: أعتقد أنّ هذا صحيح.

لكن لا أحد كان يكترث لمواقف ويسلي ماوتش.

فقال أورين بويل: إنّ هدفي يتلخّص في الحفاظ على اقتصاد حرّ. ومن المسلّم به عمومًا أنّ الاقتصاد الحرّ على المحكّ الآن. وإذا لم يثبت ذلك قيمتَه الاجتماعيّة ويتحمّل مسؤوليّاته الاجتماعيّة، فإنّ الشعب لن يقبل بذلك. وإذا لم يطوّر روحًا اجتماعيّة عامّة، تلك الروح التي صُمّم من أجلها، فإنّه سينتهي. فلا تقعوا في الخطإ.

لقد لمع اسم أورين بويل من العدم قبل خمس سنوات. ومنذ ذلك الحين أصبحت صوره تغزو غلاف كلّ مجلّة إخباريّة وطنيّة. كان عصاميًّا، بدأ حياته المهنيّة بمائة ألف دولار من حُرّ ماله دَعَمَها بقرضٍ قيمتُه مائتا مليون دولار من الحكومة. أمّا الآن فهو يترأّس شركة عظيمة ابتلعت الكثير من الشركات الصغيرة. وكان يريد القول إنّ هذا يثبت أنّ القدرة الفرديّة لا تزال تملك فرص النجاح في العالم.

قال أورين بويل: إنّ المبرّر الوحيد للممتلكات الخاصّة هو الخدمة العامّة.

فردّ ويسلي ماوتش: هذا أمرٌ لا جدال فيه.

أحدث أورين بويل نوعًا من الضوضاء، وهو يبتلع مشروبه الكحوليّ. كان رجلًا ضخمًا ذا إيماءات تعلن عن فحولةٍ كبيرة وبارعة. كلّ شيء عن شخصه كان مليئا بالحياة، باستثناء تجاعيد وشقوق سوداء صغيرة تغزو أسفل مقلتَيه.

قال: جيم، يبدو أنّ شركة ريردن للفولاذ تقوم بنوع هائل من الاحتيال.

فردّ تاجارت: اه، هاه.

ـ سمعت أنّه لا يوجد أيّ خبير قدّم تقريرا إيجابيّا عن تلك الشركة.

ـ لا، لا أحد.

ـ لقد حسّنّا قطارات الصلب على مدى أجيالٍ، وزدنا من وزنها. الآن، هل صحيح أنّ هذا المعدن الذي تسعى شركة ريردن إلى تطويره سيكون أخفّ وزنًا وأرخص تكلفةً من كلّ أنوع الحديد الأخرى؟

فقال تاجارت: هذا صحيح، سيكون أخفّ وزنًا.

ـ لكنّ هذا الأمر سخيف، يا جيم. بل إنّه مستحيل فيزيائيّا. فهو لا يناسب مسارات خطّك الرئيسيّ الخاصّ بالخدمة الشاقّة والسرعة العالية.

ـ هذا صحيح.

ـ لكنّك جلبت كارثة أخرى.

ـ نعم أختي هي الكارثة.

مسك تاجارت نظّارتَيه ببطءٍ بين إصبعين. ثمّ خيّم الصمت لحظةً. واستأنف أورين بويل الحديث قائلًا:

ـ لقد أصدر المجلس الوطنيّ للصناعات المعدنيّة قرارًا بتعيين لجنةٍ لدراسة مسألة شركة ريردن للفولاذ، مادام استخدامها قد يشكّل خطرًا عامًّا حقيقيًّا.

فردّ ويسلي ماوتش: هذا قرار حكيم.

قال تاجارت بنبرة حادّةٍ بعد أن استعاد صوته فجأة: عندما يتّفق الجميع، عندما يُجمِع الناس على اتّفاقٍ، فكيف لرجلٍ واحد أن يتجرّأ على المعارضة؟ بأيّ حقّ؟ هذا ما أريد معرفته؟

اندفعت عينا بويل تبحثان عن وجه تاجارت، لكنّ ضوء الغرفة الخافتَ جعل رؤية الوجوه بوضوحٍ أمرًا مستحيلًا، فلم يرَ فيه سوى مسحة شاحبة تميل إلى زرقة.

فقال بويل بهدوء: عندما نفكّر في الموارد الطبيعيّة، ونحن نعاني من النقص الحادّ، عندها نفكّر في الموادّ الخام الحاسمة التي تُهدَر على تجربة خاصّة غير مسؤولة، وعندما نفكّر في الخام...

لم ينهِ بويل كلامه. لقد أخذ في النظر مجدّدًا إلى تاجارت ولكن يبدو أنّ هذا الثاني على علمٍ بأنّ بويل كان ينتظر من يقاطعه حتّى يلوذ بالصمت. ولأنّ أحدًا لم يقاطعه واصل الكلام: «الشعب، يا جيم، يحظى بحصّة حيويّة من الموارد الطبيعيّة مثل خام

الحديد. لا يمكن للشعب أن يظلّ صامتًا عن هَدْر متهوّر وأنانيّ يمارسه فردٌ معادٍ للمجتمع. فالملكيّة الخاصّة ينبغي أن تكون آخر الأمر في خدمة المجتمع ككلّ».

نظر تاجارت إلى بويل وابتسم له. كانت ابتسامة ثاقبة، ويبدو أنّها تقول إنّ شيئا مّا في كلماته يمثّل جوابًا على شيء مّا في كلمات بويل، ثمّ قال: «الخمور التي يقدّمونها هنا رديئة جدًّا. أعتقد أنّ هذا هو الثمن الذي يجب أن ندفعه كي لا نختلط بجميع أنواع الرّعاع. لكنّي أتمنّى أن يدركوا أنّهم يتعاملون مع خبراء من أمثالنا. ومادمتُ أمسك بسموط محفظتي، فأنا أتوقّع أن أحصل على قيمة أموالي وأجعلها على ذمّة متعتي».

لم يجبه بويل؛ لقد أصبح وجهه متجهّمًا ثمّ أخذ يتكلّم بكثافة: اسمع يا جيم...

ابتسم تاجارت: ما خطبك؟ أنا بصدد الاستماع إليك.

ـ جيم، أنت ستوافق، وأنا متأكّد من ذلك. لا يوجد شيء أكثر تدميرًا من الاحتكار.

ردّ عليه تاجارت: نعم، من ناحية، أنا أتّفق معك. لكن من ناحية أخرى، توجد آفة المنافسة الجامحة.

ـ هذا صحيح جدًّا. وفي رأيي أنّ المسار الصحيح يكون دائمًا في الوسط. لهذا أعتقد أنّ على المجتمع اجتثاث التطرّف، أليس كذلك؟

ـ نعم، هو كذلك.

ـ فلنلقِ نظرة على حال تجارة الحديد الخام. يبدو أنّ الناتج الوطنيّ يتراجع بمعدّلٍ فاحشٍ. إنّه يهدّد وجود صناعة الصلب بأكملها، فمصانع الصلب تُغلق في جميع أنحاء البلاد. ثمّة شركة تعدين واحدةٌ فقط محظوظةٌ لأنّها لم تتأثّر بالظروف العامّة. ويبدو أنّ ناتجها وفيرٌ ومتاح دائمًا في الموعد المحدّد. ولكن مَن يستفيد منها؟ لا أحد ماعدا مالكها . هل بوسعك أن تقول إنّ هذا أمر عادلٌ؟

ـ لا، إنّه غير عادل.

ـ معظمنا لا يملك مناجم للحديد. كيف يمكننا التنافس مع رجل يملك حصّة في

موارد الله الطبيعيّة؟ ليس عجيبًا أن نجده جاهزا دومًا لتسليم الصلب، أمّا نحن فيجب أن نناضل ونصبر وننتظر ونفقد عملاءنا ونستقيل من العمل؟ هل من المصلحة العامّة أن ندع رجلًا واحدًا يدمّر صناعةً بأكملها؟

ـ لا، إطلاقًا.

ـ يبدو لي أنّ على السياسة الوطنيّة إتاحةَ فرصةٍ للجميع حتّى ينالوا نصيبَهم العادل من خام الحديد، بهدف الحفاظ على الصناعة ككلّ. ألا تعتقد ذلك؟

ـ نعم، أعتقد ذلك.

تنهّد بويل ثمّ قال بحذرٍ: لكنّني أعتقد أنّه لا يوجد في واشنطن أناسٌ كثيرون قادرون على فهم سياسة اجتماعيّة تقدّميّة.

فقال تاجارت ببطءٍ: لا، هم موجودون، لكن ليسوا بالعدد الكثير، وليس من السهل إلقاء اللوم عليهم، ولكنّهم موجودون ويمكنني الاتّصال بهم.

رفع بويل كأس نبيذه وعَبَّها في جرعةٍ واحدة، كما لو أنّه سمع كلّ ما أراد سماعه.

قال تاجارت: بخصوص الحديث عن **السياسات التقدّميّة**، يا أورين، قد تسأل نفسك عمّا إذا كان في زمن نقص وسائل النقل والشحن، وحينما يفلس الكثير من شركات القطارات وتُترك مناطق واسعة من دون خدمة سكك الحديد، هل من المصلحة العامّة أن تتسامح مع **الازدواجيّة** المبذّرة للخدمات والمنافسة المدمّرة، منافسة تشبه نهش الكلاب بعضها بعضًا، منافسة القادمين الجدد من المناطق حيث الشركات تحظى بأسبقيّة تاريخيّة.

فردّ بويل بسرور: حسنًا، يبدو أنّها مسألة مثيرة للاهتمام. قد أناقش الأمر مع بعض الأصدقاء في التحالف الوطنيّ للسكك الحديديّة.

قال تاجارت بنبرة فيها تجريدٌ خامل: الصداقات أكثر قيمة من الذهب. ثمّ التفت إلى لاركين بشكل غير متوقَّع وخاطبه: ألا تعتقد ذلك يا بول؟

فقال لاركين، مندهشًا: لماذا؟ نعم، بطبيعة الحال.

ـ أنا أعتمد على صداقتك.

ـ هاه؟

ـ أنا أعتمد على صداقاتك الكثيرة.

كانوا جميعا يدركون السبب الذي جعل لاركين يتأخّر في الإجابة؛ وبدا وكأنّ كتفيه تنكمشان بمحاذاة الطاولة: إذا توحّد الجميع لخدمة هدفٍ مشترك، عندها لن يتأذّى أحدٌ! ثمّ صرخ فجأة، في نبرة يأسٍ غير متناسقة، فلاحظ أنّ تاجارت كان يراقبه فأضاف قائلًا: أتمنّى ألّا نؤذي أحدًا.

فردّ تاجارت متشدّقًا: هذا هو موقف المعادي للمجتمع. فالناس الذين يهابون التضحية بشخص مّا لا يحظون بأيّ شأن أثناء الحديث عن هدف مشترك.

فردّ لاركين على عجلٍ: لكنّني طالب في التاريخ. أنا أدرك الحتميّة التاريخيّة.

قال تاجارت: هذا جيّد.

ـ لا يمكن أن يُتَوَقَّع منّي مخالفة اتّجاه العالم كلّه، أليس كذلك؟ وبدا وكأنّ لاركين كان يرافع مثل المحامين، لكنّ التماسه لم يكن موجّهًا إلى أيّ شخص من الحاضرين، ثمّ أضاف: هل يمكنني ذلك؟

قال ويسلي ماوتش: لا يمكنك ذلك، يا سيّد لاركين. أنت وأنا لا يمكن أن نُلام، إن نحن...

حرّك لاركين رأسه بعيدًا في ما يشبه الرعشة، إنّه لم يتحمّل النظر إلى ماوتش.

فوجّه تاجارت سؤالًا بصوت عالٍ وعلى نحو مفاجئ: هل قضّيت، يا أورين، وقتا طيّبا في ولاية المكسيك؟

كانوا جميعا يعلمون أنّ الغرض من هذا الاجتماع قد تحقّق، وأنّ الغموض الذي غشّى كثيرًا من القضايا قد تبدّد الآن.

أجاب بويل بِمرَحٍ: ولاية المكسيك، إنّها مكان رائع، مثير جدًّا، ومحفّز على

التفكير. وجباتهم الغذائيّة رائعة، على الرغم من أنّني أُصِبْت بوعكة هناك. لكنّ المكسيكيّين أناس يعملون بجدٍّ حتّى يضعوا ولايتهم على السكّة الصحيحة.

ـ كيف تسير الأمور هناك؟

ـ رائعة جدًّا كما يبدو لي، إنّها رائعة جدًّا. لكنّهم في الوقت الحاليّ... ولكنّ ما يهدفون إليه هو المستقبل. لشعب ولاية المكسيك مستقبلٌ عظيمٌ. سوف يهزموننا جميعًا في غضون سنوات قليلة.

ـ هل ذهبت إلى مناجم سان سيباستيان؟

وجلست الشخصيّات الأربع على الطاولة باستقامة وحكمة؛ لقد استثمروا جميعا، وبكثافة، في مخزون مناجم سان سيباستيان.

لم يجب بويل في حينه، فقد بدا صوته غير متوقَّع وعاليًا على نحوٍ غير طبيعيّ، ثمّ انفجر: أوه، بالتأكيد، هذا أكثر ما أردت رؤيته.

ـ و..؟

ـ وماذا؟

ـ كيف تسير الأمور؟

ـ رائعة. رائعة جدًّا. لا شكّ في أنّهم يملكون أكبر مخزون للنحاس على وجه المعمورة، داخل ذلك الجبل!

ـ هل يبدون مشغولين؟

ـ لم أرَ في حياتي مكانًا يضاهي ذاك المكان من حيث الشغل.

ـ بمَ كانوا مشغولين حقًّا؟

ـ حسنا، وكما تعلم، إنّ لهم مشرفًا يتكلّم اللّغة الإسبانيّة، لم أستطع فهمَ نصف ما كان يتحدّث عنه، لكنّهم بالتأكيد مشغولون.

ـ هل لاحظت وجود أيّ... مشكلة من أيّ نوع؟

ـ مشكلة؟ لا توجد مشاكل في سان سيباستيان. إنّها ملكيّة خاصّة، وآخر قطعة متبقّية في ولاية المكسيك، ويبدو أنَّ ذلك يُحدث فرقًا؟

فسأله تاجارت بحذر: وماذا عن تلك الشائعات التي تفيد بأنّهم يخطّطون لتأميم مناجم سان سيباستيان يا أورين؟

فردّ بويل بغضب: إنّها مجرّد افتراءات متعجرفة ومغرضة. أنا على يقين من ذلك. لقد تناولت العشاء مع وزير الثقافة ووجبات الغداء مع بقيّة الفتيان.

قال تاجارت بتجهُّمٍ: يجب أن يوضع قانون ضدّ القيل والقال والشائعات غير المسؤولة... دعونا نشرب نخبًا آخر.

ثمّ لوّح بتوتّر إلى أحد النُّدُل. لقد كانت هناك حانة صغيرة في زاوية مظلمة من الغرفة، يقف فيها نادل لفترات طويلة من الزمن دون حراكٍ، كان طاعنًا في السنّ وتبدو عليه أمارات الحكمة. وعندما استُدعي، تحرّك ببطء شديد يثير الاحتقار. تتلخّص مهمّته في أن يكون خادمًا يسهر على متعة استجمام الرجال، ولكنّ أسلوبه ينمّ عن سلوك كاهن دجّال متكدّر بمرارة في مواجهة وباء أثيم.

جلس الرجال الأربعة في صمت حتّى عاد النادل بمشروباتهم. كانت النظّارات التي تحوم حول الطاولة مثل أربع بقع من اللمعان الأزرق الخافت في شبه الظلام، أو مثل أربع طائرات نفّاثة ضعيفة تشتغل بلهيب الغاز. تناول تاجارت كأسه وابتسم فجأةً. ثمّ قال وهو ينظر إلى لاركين:

ـ دعونا نشرب نخب التضحيات المقدّمة من أجل الحتميّة التاريخيّة.

ثم خيّمت لحظة سكون؛ كان يمكن أن يقع في تلك الغرفة المضيئة نزالٌ بين رجلين تشابكت نظرات عيونهما. كانا يكتفيان بتبادل التحديق أحدهما في الآخر. ثمّ التقط لاركين كأسه. فقال تاجارت، وهو يَعُبُّ الكأس في جوفه: يا أيّها الرجال، إنّها حفلتي.

لم يجد أيّ منهم أيّ شيء آخر ليتفوّه به، إلى أن تحدّث بويل بفضولٍ غير مبالٍ:

ـ قل لي يا جيم. أريد أن أسألك. بحقّ السماء، ما هي مشكلة خدمات القطار الخاصّة بك على خطّ سان سيباستيان؟

ـ لماذا، ماذا تعني؟ ما المشكلة في ذلك؟

ـ حسنا، لا أعلم، ولكنّ تشغيل قطار ركّاب واحد فقط في اليوم يعتبر...

ـ قطار واحد؟

ـ يبدو لي أنّها خدمة بائسة جدًّا، ويا له من قطار! لا شكّ أنّك ورثت تلك العربات عن جدّك الأكبر، ولا شكّ أنّه استنزفها بقوّة. ومن أين حصلت على تلك القاطرة الخشبيّة المحترقة؟

ـ الخشبيّة المحترقة؟

ـ نعم هذا ما قلته، الخشبيّة المحترقة. لم أرَ واحدةً مثلها من قبل، إلّا في الصور الفوتوغرافيّة. من أيّ متحفٍ سحبتها؟ لا تتصرّف الآن كما لو أنّك لم تكن على عِلمٍ بذلك، فقط أخبرني عن تلك القاطرة الطُّرْفَة؟

قال تاجارت على عجل: نعم، طبعًا، كنت على علمٍ بذلك. لقد كان فقط... كلّ ما في الأمر أنّك اخترت أسبوعًا صادف أن واجهنا فيه مشكلة صغيرة في قاطرتنا. طلبيّتنا المخصّصة لقطار جديد تعاني من تأخير طفيف، أنت تعرف نوع ما نواجهه من مشاكل مع الشركات التي تصنع القاطرات، ومع ذلك فهي مشاكل مؤقّتة.

ردّ بويل: بطبيعة الحال، لا يمكن توقّع ذلك النوع من التأخير. إنّه أغرب قطار ركبته على الإطلاق، لقد كاد يسبّب لي ارتجاجًا في أحشائي.

وبعد بضع دقائق، لاحظوا أنّ تاجارت أصبح صامتًا. بدا مشغولًا بمشكلة خاصّة به عندما نهض فجأة، دونما اعتذار. فنهضوا هم أيضًا، وتقبّلوا الحدث كأنّما هو أمرٌ.

ـ تمتم لاركين مبتسمًا ابتسامة عريضةً: لقد كان من دواعي سروري لقاؤك يا جيم. هذه هي الطريقة التي تولد بها المشاريع العظيمة، إنّها تولد على نخبٍ مع الأصدقاء.

ردّ تاجارت ببرود: الإصلاحات الاجتماعيّة بطيئة. من المستحسن أن نكون صبورين وحذرين. ثمّ التفت لأوّل مرّة إلى ويسلي ماوتش فقال له: ما يعجبني فيك يا ماوتش هو أنّك لا تتحدّث كثيرًا.

كان ويسلي ماوتش رجل ريردن في واشنطن.

عندما ظهر تاجارت وبويل معًا في الشارع أدنى مبنى الشركة، كانت لا تزال هناك بقايا ضوء لغروب الشمس في السماء. لقد كان الانتقال صادما بالنسبة إليهما وبنسق خافت، فقد ألقتهما غرفةُ الحانة المغلقةُ في ظلام منتصف الليل. بدا لهما مبنى طويلًا شامخًا بخطوط عريضة ممتدّة في اتّجاه السماء، كان حادّا ومستقيما مثل سيف مرفوع. وعلى مسافةٍ منه، علّقت روزنامة التقويم.

تخبّط تاجارت بتهيّجٍ وهو يعالج طوق معطفه، فأغلق أزراره اتّقاءَ بردِ الشوارع. لم يكن ينوي العودة إلى المكتب الليلةَ، لكن كان عليه أن يعود. عليه أن يرى أخته.

قال بويل: أمامنا مهمّة صعبة يا جيم، مهمّة صعبة، فمع المخاطر والتعقيدات الكثيرة، توجد أمورٌ كثيرةٌ على المحكّ...

أجابه جيمس تاجارت بتُؤَدةٍ: كلّ هذا يعتمد على معرفة الناس الذين يستطيعون جَعلَ الأمر ممكنًا... هذا ما يجب أن يكون معروفًا، من يجعل ذلك ممكنًا.

***

كانت داغني تاجارت في التاسعة من عمرها عندما قرّرت أنّها ستدير يومًا مّا شركة تاجارت لسكك الحديد العابرة للقارّات. لقد كانت تذكّر نفسها بذلك كلّما وقفت وحدها فوق قضبان خطّ سكك الحديد، وبحثت في الخطّين المستقيمين من الصلب اللّذَين يشقّان المسافات الطويلة ليلتقيا في نقطة واحدة. ما شعرت به كان متعة كبرياء كلّما راقبت مسار القطار الذي يعبر من خلال الغابة: كان شعورًا لا ينتمي إلى حضن الأشجار القديمة، بين الأغصان الخضراء التي علقت كالرماح تلبية لنداء الغابة الخضراء وحياة الوحدة البرّيّة السرمديّة، ولكنّه شعورٌ ينتمي إلى هناك

حيث القطارات. لقد كان الخطّان الفولاذيّان يبدوان رائعين في الشمس، وكانت الروابط السوداء التي تشدّهما إلى الأرض وتوثق أحدهما بالآخر مثل درجات السلّم الذي كان عليها أن تتسلّقه لتحقّق حلمها.

لم يكن قرارها وقتئذٍ مفاجئًا، ولكن كان فقط بمثابة ختمٍ نهائيّ من الكلمات طُبع على شيءٍ خبرته منذ زمن طويل. وفي سياق فهمٍ غير معلن قالت، كما لو أنّها ملزمة بنذر لم يكن من الضروريّ البتّة أن تأخذه، إنّها وإيدي ويلرز قد وهبا حياتهما لخدمة شركة السكك الحديديّة منذ أيّام الوعي الأولى من طفولتهما.

شعرت بلامبالاةٍ مملّة تجاه العالم المباشر من حولها، تجاه الأطفال والبالغين على حدّ سواء. وقالت في نفسها إنّها تعتبر أشياء من قبيل تحمّل التنقّل بصبرٍ لفترة من الوقت مثل السجينة بين الحمقى حدثًا مؤسفًا. وإنّها قد التقطت لمحة عن عالم آخر كانت تعلم أنّه موجود في مكان مّا، ذلك العالم الذي خلق القطارات والجسور وأسلاك التلغراف وأضواء الإشارات الرفافّة في الليل. كان عليها أن تنتظر، وتكبر إلى أن تبلغ ذلك العالم.

لم تحاول شرحَ السبب الذي يجعلها تحبّ السكك الحديديّة. ومهما يكن شعور الآخرين، فإنّها على يقينٍ بأنّ لها عاطفةً فريدة ليس عند بقيّة البشر شيءٌ يشبهها أو ردٌّ يناسبها. لقد شعرت بالعاطفة نفسها في المدرسة، في حصص الرياضيّات، تلك الدروس الوحيدة التي عشقتها. فشعرت بالحماس عند حلّ المسائل، والبهجة الجريئة المصاحبة لاتّخاذ قرار قبول التحدّيات وتجاوزها من دون جهدٍ، والحرص على مواجهة آخر اختبار صعبٍ. كانت تشعر، في الآن نفسه، باحترام متزايد للخصم، ولعلم الرياضيّات الذي تعتبره علمًا نظيفًا جدًّا، وصارمًا جدًّا، وعقلانيًّا على نحو مشرق. قالت في نفسها، وشعور الإعجاب يعتريها بخصوص دراستها للرياضيّات: «كم هو عظيم هذا العلم الذي اخترعه البشر وكم هو رائع ذاك الشعور الذي يخالجني حين أعلم أنّني كنت متميّزة جدًّا في تلك المادّة». لقد اختلطت بذهنها فرحة الإعجاب والتقدير ونمَت فيه. وكان عشقها للسكك الحديديّة يشبه تمامًا عشقها

للرياضيّات: عبادة المهارة التي اختارت ممارستها، والتي تنمّ عن براعة عقل نظيف ومفكّر، تلك العبادة التي تصاحبها ابتسامةٌ سرّيّة تعلن أنّها ستجعلها أفضل في يوم من الأيّام. لقد أضحت مثل طالبٍ متواضع متعلّق بمسارات القطارات ومستودعاتها، ولكنّ التواضع كان يخالطه شعور فخر بالمستقبل، فخر يجب عليها كسبه.

«أنت مغرورة بشكل لا يطاق»، كانت هذه إحدى جملتين سمعتهما طوال طفولتها، على الرغم من أنّها لم تتحدّث قطّ عن قدرتها الخاصّة. الجملة الأخرى كانت: أنت أنانيّة. وسألت عمّا هو مقصود بتَينك الجملتين، ولكنّها لم تتلقَّ جوابًا إلى حدّ الآن. كانت تنظر إلى الكهول متسائلةً: كيف يمكن لهم تخيُّل أنّها ستشعر بالذنب من اتّهامٍ غير محدّد مثل ذلك؟

كانت في الثانية عشرة حين أخبرت إيدي ويلرز أنّها ستدير شركة السكك الحديديّة عندما يكبران. ولمّا بلغت سنّ الخامسة عشرة خطر ببالها لأوّل مرّة أنّ النساء ليس بوسعهنّ إدارة شركات سكك الحديد وأنّ الناس قد يعترضون. لكنّها قالت في نفسها، فليذهب كلّ ما يقولونه إلى الجحيم ولم تقلق مرّة أخرى بهذا الشأن منذ ذلك الحين.

ثمّ التحقت للعمل بشركة تاجارت العابرة للقارّات في سنّ السادسة عشرة. لقد سمح لها والدها بذلك: كان مسلّيًا وعلى شيءٍ من الفضول. بدأت حياتها المهنيّة مشغّلًا ليليًّا في محطّة ريفيّة صغيرة. وكان عليها أن تعمل ليلًا في السنوات القليلة الأولى، وتدرس نهارًا بكليّة الهندسة في آنٍ واحدٍ.

في ذلك الوقت نفسِه بدأ أخوها جيمس تاجارت حياتَه المهنيّة بقسم إدارة العلاقات العامّة بشركة سكك الحديد. كان في الحادية والعشرين من العمر وقتئذٍ.

وبين الرجال الذين يديرون شركة تاجارت العابرة للقارّات كان ارتقاء داغني المهنيُّ سريعًا ومستحقًّا. لقد تقلّدت مناصب المسؤوليّة، لأنّه لم يكن ثمّة شخص آخر يستطيع تقلُّدها، وكان من حولها عدد قليل من الرجال ذوي المواهب النادرة، لكنّ

عددهم يتقلّص أكثر فأكثر كلّ عام، إلى أن أضحوا عملةً نادرة جدًّا. وبدا رؤساؤها، الذين كانوا يتمتّعون بالسلطة، خائفين من ممارستها، فقضوا جلّ وقتهم في تجنّب القرارات، إذ كانت تطلب من الناس ما يجب القيام به، ثمّ يفعلون ذلك. وفي كلّ درجة من درجات سلّم ترقياتها، كانت تكتسب خبرة كافيةً مسبقةً عن الخطّة التي ستتحوّل إليها قبل فترة طويلة من منحها المنصبَ الجديد. كان ارتقاؤها يشبه التقدّم من خلال غرف فارغة. لم يعارضها أحدٌ، ومع ذلك لم يوافق أحدٌ على تقدّمها.

بدا والدها مندهشًا وفخورا بها في الآن نفسه، لكنّه كان كتومًا، فلم يقل لها شيئًا، وإن كان الحزن باديًا في عينيه كلّما نظر إليها في المكتب. كانت في التاسعة والعشرين من عمرها عندما مات والدها فكانت آخر كلماته لها: «سيوجد دومًا فردٌ آخر من آل تاجارت يقوم على تشغيل السكك الحديديّة». كان ينظر إليها بلمحة غريبة فيها نوع من التحيّة والعطف معًا.

لقد أُوكلت إلى جيمس إدارة المخازن لشركة تاجرت العابرة للقارّات. كان في الرابعة والثلاثين حين أصبح رئيسًا للشركة. وقد توقّعت داغني أن ينتخبه مجلس الإدارة، ولكنّها لم تكن قادرةً قطّ على فهم سبب الحماس الذي ينتابها تجاهه. تحدّثوا عن التقاليد، وأنّ الرئيس يجب أن يكون دائمًا من نصيب الابن الأكبر لعائلة تاجارت. انتخبوا جيمس تاجارت بالطريقة نفسها، ورفضوا النظر إلى مَن هو دونه في سلّم الوظائف، متوقّعين حدوث النوع ذاته من الخوف الذي كان يصيبهم حين يواجهونها. تحدّثوا عن موهبته في جعل شركة السكك الحديديّة شعبيّةً وذات سمعة جيّدة عند الصحافة، وعن قدرته المشابهة للرئيس جورج واشنطن. وبدا ماهرا بشكل غير عاديّ في الحصول على خدمات متنوّعة من الهيئة التشريعيّة.

لم تكن داغني تعلم شيئًا عن مجال «قدرة الرئيس واشنطن» أو ما تعنيه تلك القدرة. ولكن يبدو أنّها كانت قدرة ضروريّة، لذلك أقصت تلك الفكرة من ذهنها وعوّضتها بفكرة وجود أنواعٍ كثيرةٍ من الأعمال الهجوميّة ولكنّها ضروريّة من قبيل تنظيف المجاري؛ فشخص مّا في الشركة كان عليه أن يفعل ذلك، وبدا أنّ الفكرة قد

أعجبت جيم.

كانت تقول إنّها لم تطمح قطّ إلى الرئاسة؛ بل إنّ شغلها الوحيد هو إدارة العمليّات. كان رجال السكك الحديديّة القدامى، أولئك الذين يكرهون جيم، يقولون عنها حينما تلتحق للعمل في الخارج معهم: سيكون هناك دائمًا فرد آخر من آل تاجارت يقوم على تشغيل السكك الحديديّة. وينظرون إليها النظرة نفسها التي كانت تعتري والدها. كانت مصمّمة على مواجهة جيم من خلال الاقتناع بأنّه ليس ذكيًّا بما فيه الكفاية حتّى يطوّر السكك الحديديّة، بل إنّه قد يضرّ بها أكثر من اللّازم، غير أنّها ستكون دائمًا قادرةً على تصحيح أيّ ضررٍ يتسبّب فيه.

تتذكّر أنّها كانت، في سنّ السادسة عشرة، تجلس إلى مكتبها من موقع المشغّلة الليليّة تراقب النوافذ المضاءة لقطارات تاجارت وهي تمرّ. وظنّت أنّها دخلت عالمها الخاصّ. وفي السنوات الموالية، علمت أنّها لم تكن كذلك. فالخصم الذي وجدت نفسها مرغمةً على مقارعته لم يكن يستحقّ التوافق، بل الضرب؛ لم يكن يتمتّع بقدرة التفوّق، لذلك لم ترَ في الأمر مبرّرًا لشرف التحدّي؛ لقد كانت ميزته هي عدم الكفاءة، ذلك التمدّد الرماديّ للقطن الذي يبدو ليّنًا وبلا شكلٍ، والذي لا يمكن أن يظهر أيّ مقاومة لأيّ شيء أو أيّ شخصٍ، ومع ذلك استطاع أن يكون حاجزًا يعترض طريقها. وقفت منزوعة السلاح أمام هذا اللغز المحيّر الذي جعل أمر عرقلتها ممكنًا، لكنّها لم تجد له جوابًا.

في بعض الأحيان لا يعتريها ذلك الشعور بالرغبة في الصراخ بصمتٍ، إلّا في السنوات القليلة الأولى، من أجل بريق من القدرة البشريّة، ذلك البريق المتفرّد من الكفاءة النقيّة والصلبة والمشعّة. كانت تشعر بنوبات من الشوق المعذِّب إلى صديق أو عدوٍّ يحمِلُ عقلًا أفضل من عقلها. لكنّه بدا شعورًا عابرًا. لقد كان أمامها عمل لتُنجزه ولم تكن أحيانًا تملك وقتًا للشعور بالألم.

كانت الخطوة الأولى من السياسة التي انتهجها جيمس تاجارت في إدارته لشركة سكك الحديد هي بناء خطّ سان سيباستيان. وكثير من الرجال مسؤولون عن ذلك؛

ولكنّ اسمًا واحدًا بقي عالقًا بذهن داغني، مكتوبًا في سجلّ هذا المشروع، وهو الاسم الذي قضى على أسماء الآخرين كلّهم أينما رأته. لقد صمد خمس سنوات من النضال، وأميالًا من المسارات الضائعة، مواجهًا أوراقًا كثيرة بقائمات طويلة حملت أسماء الشخصيّات التي سجّلت خسائر شركة تاجرت العابرة للقارّات مثل دم ينزُّ من جرح لا يُرجى شفاؤه، مثل وشم صمد وظلّ مكتوبًا في البورصة على شريط مؤشّر مبادلات الأسهم المتبقّية في العالَم. لقد ظلّ شامخًا يعتلي مداخن الوهج الأحمر من أفران إذابة النحاس، ومكتوبًا بالبنط العريض في جلّ عناوين صحف الفضائح، ومرسومًا على صفحات الرقّ تسجيلًا لنبل القرون، وراسخًا على البطاقات التي تُعلَّق على باقات الزهور لتزيين مخادع النساء المنتشرة في أنحاء القارّات الثلاث.

كان الاسم هو **فرانسيسكو دانكونيا**.

في سنّ الثالثة والعشرين، عندما ورث ثروته، كان فرانسيسكو دانكونيا مشهورًا بوصفه ملكًا للنحاس في العالم. أمّا الآن، وهو في السادسة والثلاثين، فقد أصبح مشهورًا بوصفه أغنى رجل وأكثر إنسان مستهتر لا قيمة لوجوده على وجه الأرض. إنّه آخر أحفاد إحدى أنبل الأسر في الأرجنتين. كان يملك مزارع الماشية ومزارع البنّ ومعظم مناجم النحاس في الشيلي. وعلى سبيل التغيير البسيط في مجالات استثماره، بات يملك نصف أمريكا الجنوبيّة والمناجم المتنوّعة المنتشرة في أنحاء الولايات المتّحدة.

عندما اشترى فرانسيسكو دانكونيا فجأة أميالا من الجبال العارية في المكسيك، تسرّبت أنباء عن اكتشافه مخزونًا ضخمًا من النحاس. ولم يبذل أيّ جهد لبيع الأسهم في مشروعه؛ تقدّم الجميع لشراء أسهمه، لكنّه اختار فقط أولئك الذين رَغِب في تفضيلهم من بين المتقدّمين. لقد كانت موهبته الماليّة تعتبر ظاهرة هائلة. لم يسبق لأحدٍ أن هزمه في أيّ صفقة، فراكم إلى ثروته المذهلة كلَّ صفقةٍ كسبها وكلّ خطوة قام بها حينما يقرّر تكبّد عناء القيام بها. وكان أغلب الناس الذين ذمّوه هم أوّل من اغتنم فرصة الركوب على الأحداث واستغلال موهبته، طمعًا في حصّة من ثروته

الجديدة. كان جيمس تاجارت وأورين بويل وأصدقاؤهم من بين أهمّ حملة الأسهم في المشروع الذي أطلق عليه فرانسيسكو دانكونيا اسم مناجم سان سيباستيان.

لم تتمكّن داغني مطلقًا من اكتشاف الدوافع التي حملت جيمس تاجارت على بناء فرع للسكك الحديديّة من تكساس حتّى صحراء سان سيباستيان. بدا من الراجح أنّه حتّى هو لم يكن يعرف المبرّر: لقد بدا منفتحًا على أيّ تيّارٍ، مثل حقل بلا حواجز لصدّ الرياح. حتّى المبلغ النهائيّ حُدّد بالصدفة. ولم يواجه اعتراضًا على المشروع إلّا من قبل عدد قليل من مديري شركة تاجارت العابرة للقارّات. كانت الشركة تحتاج إلى جميع مواردها لإعادة بناء خطّ ريونورتيي؛ غير أنّها لم تستطع تحقيق الاثنين معًا. لكنّ جيمس تاجارت هو الرئيس الجديد المحدّد لنهج الشركة. كانت سنته الأولى من إدارتها. لقد فاز.

كان أهالي ولاية المكسيك متحمّسين للتعاون، فوقّعوا عقدا بضمان مدّته مائتا عامٍ كحقّ ملكيّةٍ لشركة تاجارت العابرة للقارّات ببلدٍ لا توجد فيه حقوق ملكيّة. وكان فرانسيسكو دانكونيا قد حصل على الضمانة نفسها لمناجمه.

كانت داغني تخوض حربًا ضدّ بناء خطّ سان سيباستيان. لقد كافحت بمساندة كلّ من استمع إليها، لكن ثمّة عوامل عديدة حالت دون أن يصيخ إليها الآخرون السمع، مثل منصبها. فهي ليست سوى مساعدةٍ بلا سلطات في قسم إدارة العمليّات، فضلًا عن صغر سنّها.

لم تكن قادرة، آنذاك أو منذ ذلك الحين، على فهم دوافع أولئك الذين قرّروا بناء الخطّ. وفي أحد اجتماعات مجلس الإدارة، جلست كمتفرّجة عاجزة، كعضوٍ أقلّيّ، فشعرت بمراوغة غريبة في فضاء القاعة، في كلّ خطاب، وفي كلّ حجّة، وكأنّ السبب الحقيقيّ لقرارهم لم يُذكر قطّ، بل ربّما كان واضحا للجميع إلّا هي.

كانوا يتحدّثون عن أهمّيّة مستقبل التجارة مع المكسيك، وعن الثراء الذي سيتدفّق من وسائل الشحن، وعن الإيرادات الكبيرة المضمونة لمن سيكون الناقل الحصريّ للإمدادات التي لا تنضب من النحاس. وقد أثبتوا ذلك بالاستشهاد

بإنجازات فرانسيسكو دانكونيا السابقة. ولم يذكروا أيّ وقائع تتعلّق بمناجم سان سيباستيان. ولم تتوفّر لديهم سوى حقائق قليلة؛ المعلومات التي نشرها دانكونيا لم تكن بالدقّة المطلوبة؛ ولكن يبدو أنّهم ليسوا في حاجة إلى الحقائق.

وتحدّثوا بإسهاب عن فقر المكسيكيّين وحاجتهم الماسّة إلى السكك الحديديّة.

- لم تسنح لهم الفرصة قطُّ، من واجبنا أن نساعد دولةً محرومة على التطوّر. فالوطن، كما يبدو لي، هو الحارس لجيرانه.

جلست للاستماع، وفكّرت في الكثير من خطوط الفرع التي كان على شركة تاجرت العابرة للقارّات أن تتخلّى عنها. فعائدات هذه الشركة العظيمة كانت تنخفض ببطء على مدى سنوات عديدة. ثمّ تبادر إلى ذهنها التفكير في الحاجة الملّحة إلى الإصلاحات، تلك التي أهملت بشكل سيّئ نظامًا بأكمله. لم تكن سياستهم بشأن مشكلة الصيانة سياسةً، بل لعبةً يبدو أنّهم يلعبونها بقطعة من المطّاط يمكن أن تتمدّد قليلًا، ثمّ إلى أكثر من ذلك بقليل.

- يبدو لي أن المكسيكيّين شعبٌ مجتهد جدًّا، غير أنّهم مسحوقون من قبل اقتصادهم البدائيّ. كيف يمكن أن تصبح ولاياتهم صناعيّة إذا لم يمدّ لها أحدٌ يد المساعدة؟ عند النظر في استثمار مّا، ينبغي لنا، حسب اعتقادي، أن نخاطر بالإنسان، بدلًا من العوامل المادّيّة البحتة.

كان فكرها مشغولًا بالمحرّك الذي أهمل في خندق بجانب خطّ ريونورتيي، لأنّ قضيب الوصل قد تصدّع. ثمّ فكّرت في الأيّام الخمسة التي توقّفت فيها حركة المرور على خطّ ريونورتيي، لأنّ جدار الحماية انهار، وانهارت معه أطنان من الصخور عبر المسار.

- بما أنّ على الإنسان التفكير في الخير لأخيه الإنسان قبل التفكير في الخير لوطنه، يبدو لي أنّ على الأمّة أن تفكّر في جيرانها قبل أن تفكّر في نفسها.

ثمّ راودها التفكير مجدّدًا في الوافد الجديد المدعوّ **إليس وايت** الذي بدأ الناس في

ملاحظة تطوّره، لأنّ نشاطه مثّل أوّل تدفّقٍ لسيول من السلع على وشك أن تشكّل فيضًا نابعا من امتداد المساحات المتهالكة لولاية كولورادو. وفي مقابل ذلك يُسمَح لخطّ ريونورتيي بالمرور السريع إلى طريق الانهيار النهائيّ، في وقت كانت فيه كفاءته الكاملة على وشك أن تبلغَ أمسَّ حاجة إلى الناس عامّة وإلى مستخدميه بالخصوص.

ـ الجشع المادّيّ ليس كلّ شيء. هناك مُثُل غير مادّيّة يجب أخذها بعين الاعتبار.

ـ أشعر بالعار حينما أفكّر في أنّنا نملك شبكة ضخمة من السكك الحديديّة، والحال أنّ الشعب المكسيكيّ ليس لديه سوى خطٍّ واحد أو اثنين غير مناسبين. لقد نُسِفت النظريّة القديمة للاكتفاء الذاتيّ الاقتصاديّ منذ فترة طويلة. فمن المستحيل على بلد واحدٍ أن يزدهر في خضمّ عالمٍ يتضوّر جوعًا.

وقالت في نفسها إنّها ترى الحلَّ لإعادة شركة تاجارت العابرة للقارّات إلى ما كانت عليه في سالف عهدها، واستعادة مجد السنين الغابرة، كامنًا في الحاجة إلى كلّ السكك الحديديّة المتاحة، وإلى كلّ فلس أو دولار، ولكن للأسف لم يتوفّر سوى القليل من ذلك.

وفي الجلسة نفسها، وبالخطب نفسها، تحدّثوا عن كفاءة الحكومة المكسيكيّة التي بسطَت سيطرتَها الكاملة على كلّ شيءٍ. وقالوا إنّ مستقبلًا عظيمًا ينتظر المكسيك، وستصبح منافسًا خطيرا في غضون سنوات قليلة. «المكسيك تملك حسّ الانضباط». ظلّ رجال المجلس يتكلّمون، بشيءٍ من الحسد في أصواتهم.

لقد كان جيمس تاجارت يخطب فيهم ويفهمهم بجملٍ غير مكتملةٍ وتلميحات غير محدّدة أنّ أصدقاء له في واشنطن، لم يذكر أسماءهم قطّ، يرغبون في رؤية خطّ سكك حديد يُشيَّد في المكسيك، وأنّ مثل هذا الخطّ سيقدّم عونًا كبيرًا للشؤون الدبلوماسيّة الدوليّة، وأنّ حسن نيّة الرأي العامّ في العالم سيكون أكثر من ردّ الجميل لشركة تاجارت العابرة للقارّات مقابل استثماره.

لقد صوّتوا لبناء خطّ سان سيباستيان بتكلفة تناهز ثلاثين مليون دولار.

وعندما غادرت **داغني** قاعة الجلسة وسارت في غمار هواء الشوارع النظيف البارد، سمعت كلمتين تتكرّران بوضوح، وبإصرار في الفراغ المخدّر من عقلها: اخرجي ... اخرجي...

كانت تستمع بذعر. لم تكن فكرة مغادرة شركة تاجارت العابرة للقارّات ضمن الأشياء التي يمكن أن تتصوّرها. ثمّ أحسّت برعبٍ لم يكن سببه تلك الفكرة، بل السؤال الذي دفعها إلى التفكير على هذا النحو. هزّت رأسها بغضبٍ ثمّ قالت لنفسها إنّ شركة تاجارت العابرة للقارّات بحاجة ملحّة إليها الآن أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

واستقال اثنان من المديرين؛ وكذلك فعل نائب الرئيس المسؤول عن العمليّات وتمّ تعويضه بصديق لجيمس تاجارت.

لقد وُضِعت **السكك الحديديّة الفولاذيّة** عبر الصحراء المكسيكيّة، وفي مقابل ذلك أُصدِرت أوامر للحدّ من سرعة القطارات على خطّ ريونورتيي، لأنّ المسار كان معطّبًا. وبُنِي مستودع من الخرسانة المسلّحة، مع أعمدة رخاميّة ومرايا وسط غبار ساحةٍ غير معبّدة في قرية مكسيكيّةٍ، في حين تحوّل قطار عربات الشحن وصهاريجه، تلك التي كانت تحمل النفط باندفاع أسفل الجسر، إلى كومة خردة مشتعلة، لأنّ السكك الحديديّة بخطّ ريونورتيي قد انقسمت. ولم ينتظر **إليس وايت** أن تقرّر المحكمة ما إذا كان الحادث قدرًا إلاهيًّا كما ادّعى جيمس تاجارت. لقد نقل وايت شحن نفطه إلى شركة فينيكس-دورانغو، وهي شركة صغيرة غامضة كانت تكافح، وبشكلٍ جيّدٍ. وكان هذا بمثابة صاروخ الإقلاع والنجاح الذي أرسل إلى شركة فينيكس- دورانغو. ومنذ ذلك الحين، نمَت بالتوازي مع نموّ شركة وايت أويل، ونموّ المصانع في الوديان القريبة، ونموّ مجموعة من قضبان سكك الحديد وروابطها، بمعدّل ميلين في الشهر، عبر حقول الذرة المكسيكيّة المتعرّجة.

كانت **داغني** في الثانية والثلاثين من عمرها، عندما أخبرت **جيمس تاجارت** أنّها ستستقيل. وقد شغلت إدارة العمليّات على مدى السنوات الثلاث الماضية، دون

سند ملكيّة أو ائتمان أو سلطة. لقد هزمتها لوثة ساعاتٍ وأيّام وليالٍ كان عليها أن تهدرها لتتحايل على تدخّل صديق جيم الذي حمل لقب نائب الرئيس المسؤول عن العمليّة. وهو رجلٌ يفتقر إلى سياسة واضحة، وأيّ قرار يتّخذه كان دومًا قرارَها، لكنّه لا يتّخذه إلّا بعد بذل كلّ جهد ممكن لجعل الأمر مستحيلًا. لقد كان ما سلّمته لأخيها بمثابة إنذار نهائيّ لاهث.

ـ لكن يا داغني، أنتِ امرأة! امرأة نائبة للرئيس؟ هذا أمر لم يسمع به أحد من قبل! المجلس لن ينظر في هذا الأمر!

فأجابته: إذَن اعتبرني في عداد المستقيلين.

لم تفكّر بما ستفعله بقيّةَ حياتها، فمواجهة ترك **شركة تاجارت العابرة للقارّات** كان بمثابة انتظار بتر ساقيها؛ لقد ظنت أنّها ستسمح بحدوث ذلك، ثمّ تأخذ على عاتقها حمل كلّ التبعات.

ولم تفهم مطلقًا سبب تصويت مجلس الإدارة بالإجماع لتخويل نائب رئيسها صلاحيّات المسؤوليّة عن العمليّات.

كانت هي من أشرف أخيرًا على إتمام خطّ **سان سيباستيان**. وعندما تولّت مقاليد الحكم، كان البناء جاريًا منذ ثلاث سنوات؛ وقد وُضع ثلث مساره. كانت التكلفة حتّى تلك اللحظة قد تجاوزت المبلغ المأذون به. فطردت أصدقاء جيم وكلّفت مقاولًا آخر بإكمال المهمّة في عامٍ واحدٍ.

خطّ **سان سيباستيان** يعمل الآن، لكن لا تدفّقات أتت من التجارة عبر الحدود، ولا أيّ قطارات محمّلة بالنحاس. وكلّ ما في الأمر عدد قليل من عربات الشحن كانت تتنقّل لفترات طويلة وتبعثر الأحمال أسفل الجبال من سان سيباستيان. لقد أخبرهم فرانسيسكو دانكونيا أنّ المناجم مازالت في مرحلة التطوير. وهكذا تواصلت عمليّة استنزاف شركة تاجرت العابرة للقارّات.

جلست الآن في مكتبها، مثلما كانت تجلس في أمسيات عديدةً، في محاولة لإيجاد

حلٍّ للمشكل ومعرفة أيّ فرع من الفروع سيتمكّن من إنقاذ نظام الشركة وكم سنة سيستغرق فعل ذلك.

كان يمكن لخطّ ريونورتيي، عند إعادة بنائه، تعويض بقيّة الخطوط. وبينما كانت داغني تنظر إلى أوراق البيانات التي تعلن عن الخسائر والمزيد من الخسائر، لم تفكّر بما في المشروع المكسيكيّ من عذاب طويل بلا معنى. لقد فكّرت فقط في إجراء مكالمة هاتفيّة: هانك، هل يمكنك إنقاذنا؟ هل يمكنك أن توفّر لنا القطار في أقصر إشعار وبأطول ائتمان ممكن؟ فأجابها بصوت هادئ وثابت: بالتأكيد.

كانت فكرة الحلّ ترتكز على إيجاد نقطة دعمٍ. ثمّ عكفت على أكوام الأوراق في مكتبها، فوجدت فجأةً أنّ من السهل استعادة التركيز. وفي ذهنها كان هناك شيء واحدٌ على الأقلّ يمكن الاعتماد عليه، واختارت عدم الانهيار حتّى في أقصى حالات الضرورة.

قصد جيمس تاجارت غرفة مكتب داغني وهو لا يزال يحمل نوعًا من الثقة التي شعر بها بين رفاقه في الحانة قبل نصف ساعة. وعندما فتح باب مكتبها، اختفت تلك الثقة. لقد دخله مثل طفل يجرّونه إلى العقاب، مقرّرًا كبت مخزون الاستياء لكلّ سنواته المقبلة.

رأى رأسًا منكبًّا على الأوراق، وضوء مشكاة المكتب يسطع على خصلات شعرها المتلبّدة، وقميصًا أبيض يلتصق بكتفيها، توحي طيّاته الفضفاضة بنحافة جسدها.

ـ ما الأمر، يا جيم؟

ـ ما الذي تحاولين سحبه من مشروع خطّ سان سيباستيان؟

ـ رفعت رأسها وردّت: سحب ماذا؟ ولماذا؟

ـ ما طبيعة الجدول الزمنيّ الذي نسير وفقه هناك وإلى أيّ نوع من القطارات نحتاج؟

ضحكت قبل أن تجيب بصوت مرحٍ وفيه شيءٌ من الإرهاق: يا جيم، يجب عليك

حقًّا قراءة التقارير التي تُرسَل إلى مكتب الرئيس بين فينةٍ وأخرى.

ـ ماذا تعنين؟

ـ لقد كنّا ندير ذلك الجدول الزمنيّ وتلك القطارات على متن سان سيباستيان خلال الأشهر الثلاثة الماضية.

ـ قطار ركّاب واحدٍ في اليوم؟

ـ في الصباح. وقطار شحن واحد في كلّ ليلة أخرى.

ـ يا إلهي! كلّ هذا الضغط على فرع مهمّ مثل هذا؟

ـ الفرع المهمّ لا يستطيع أن يدفع حتّى لهذين القطارين.

ـ ولكنّ الشعب المكسيكيّ ينتظر منّا خدمة حقيقيّة!

ـ أنا متأكّدة من أنّهم يستفيدون بالفعل من ذلك.

ـ إنّهم بحاجة إلى قطارات!

ـ من أجل ماذا؟

ـ من أجل... مساعدتهم على تطوير صناعاتهم المحلّيّة. كيف تتوقّعين منهم أن يتطوّروا إذا لم نمدّهم بوسائل النقل؟

ـ أنا لا أتوقّع منهم أن يتطوّروا.

ـ هذا رأيك الشخصيّ. لا أستوعب الحقّ الذي سمح لك بأن تأخذي على عاتقك قطع التزامنا بجداولنا الزمنيّة هناك. لماذا؟ فحركة النحاس وحدها قادرة على دفع ثمن كلّ شيء.

ـ متى؟

ظلّ ينظر إليها؛ كان وجهه يحمل علامات رضا شخصٍ على وشك أن ينطق بشيء فيه قدرة على الأذى، ثمّ قال: هل تشكّين في نجاح مناجم النحاس تلك، أليس كذلك؟ خصوصا عندما يكون فرانسيسكو دانكونيا هو من يديرها؟ لقد شدّد على

الاسم وبات يراقبها.

قالت: قد يكون صديقك، لكن..

قاطعها: صديقي؟ اعتقدت أنّه صديقك أنت.

ردّت بثباتٍ: ليس على مدى السنوات العشر الماضية.

ـ هذا أمر سيّئ جدًّا، أليس كذا؟ ولكنّه، مع ذلك، يظلّ أحد أذكى المشغّلين على وجه الأرض. لم يفشل قطّ في أيّ مشروع -أعني مشروعًا تجاريًّا- وأغدق ملايين كثيرةً من أمواله الخاصّة في تلك المناجم، وهكذا فإنّ بإمكاننا الاعتماد على وجهة نظره.

ـ متى ستدرك أنّ فرانسيسكو دانكونيا قد تحوّل إلى متشرّد لا قيمة له؟

وبعد أن ضحك ضحكة مكتومة قال: لطالما اعتقدت أنّ هذا ما كان عليه، في ما يتعلّق بطباعه الشخصيّة. لكنّك لا تشاركينني الرأي، فموقفك يناقض دومًا مواقفي. يا إلهي، لماذا كلّ هذا الخلاف! بالتأكيد تتذكّرين شجاراتنا حول هذا الموضوع؟ هل أقتبس بعض الأشياء التي قلتها عنه؟ لا يسعني إلّا أن أخمّن بعض الأشياء التي فعلتها.

ـ هل ترغب في مناقشة أمر فرانسيسكو دانكونيا؟ هل هذا ما جئت من أجله؟

عَلَتْ وجْهَه مسحةُ غضب تنمّ عن فشل، أمّا وجهها فظلَّ محايدا: أنت تعرفين جيّدًا ما جئت من أجله! ثمّ أضاف حين تأكّد من اهتمامها: لقد سمعت ببعض الأمور المذهلة عن قطاراتنا في المكسيك.

ـ ما هي تلك الأمور؟

ـ أيّ نوع من الأسهم المتداولة توظّفينها هناك؟

ـ أسوأ نوع.

ـ أنت تعترفين بذلك إذَن؟

ـ لقد ذكرت ذلك في أوراق التقارير التي أرسلتها إليك.

ـ هل صحيح أنّك تستخدمين قاطرات وقودها حرق الخشب؟

ـ إيدي وجدها لي بمنزل شخص مهجور في لويزيانا. لم يستطع حتّى معرفة اسم شركة السكك الحديديّة التي تمتلك تلك القطارات.

ـ وهذا ما كنت تشغّلينه طوال الوقت من قطارات لصالح شركة تاجارت؟

ـ نعم.

ـ ما هي الفكرة العظيمة التي دفعتك إلى فعل ذلك؟ ما هذا بحقّ الجحيم؟ ماذا يحدث؟ أريد أن أعرف ما الذي يجري!

ـ أجابته بإنصاف وحكمة وهي تنظر إليه مباشرة: إذا كنت تريد أن تعرف، فإنّني لم أجد أمامي من حلّ سوى خردة قطار خطّ سان سيباستيان، واستعماله لقليل من الوقت قدر الإمكان. لقد نقلت كلّ ما يمكن نقله، من محرّكات التبديل وأدوات التسوّق وحتّى الآلات الكاتبة والمرايا، إلى ولاية المكسيك.

ـ ولماذا كلّ هذه السرعة؟

ـ حتّى لا يجد اللصوص الكثير ممّا يُنهَب عندما يؤمّمون الخطّ.

قفز بقدميه وردّ عليها: لن تفلتي من هذا! ستكون هذه هي المرّة التي لن تفلتي فيها! أن تكون لديك الجرأة لسحب مثل هذا الأمر الدنيء، الذي لا يوصف... فقط بسبب بعض الشائعات الشرّيرة المغرضة، ونحن لدينا عقد لمدّة مائتي سنة و...

ردّت بهدوءٍ: افهم يا جيم، لا توجد في أيّ مكان عربة أو محرّك أو طن من الفحم يمكننا توفيره في إطار النظام.

ـ لن أسمح بذلك، لن أسمح على الإطلاق بمثل هذه السياسة الشائنة تجاه شعب ودودٍ يحتاج إلى مساعدتنا. الجشع المادّيّ ليس كلّ شيء. ففي كلّ الأحوال، هناك اعتبارات غير مادّيّة يجب أخذها بعين الاعتبار، على الرغم من أنّك لن تفهميها!

قالت داغني بعد أن سحبت لوحة إلى الأمام والتقطت قلمًا رصاصًا: حسنا، يا جيم. كم عدد القطارات التي ترجو أن أسيّرها على خطّ سان سيباستيان؟

ـ هاه؟

ـ أيُّ الرحلات تودّ أن ألغيها وعلى أيّ خطّ من خطوطنا من أجل الحصول على عربات شحن الديزل والصلب؟

ـ لا أريدك أن تلغي أيّ رحلات!

ـ إذَن، من أين سأحصل على المعدّات للمكسيك؟

ـ هذا أمر عليك إيجاد حلّ له. إنّها مهمّتك.

ـ أنا غير قادرة على فعل ذلك. يجب أن تقرّر أنت.

ـ هذه حيلتك الفاسدة والمعتادة: تحويل المسؤوليّة إليّ!

ـ أنا في انتظار أوامرك يا جيم.

ـ لن أدعك تحاصرينني هكذا!

ـ خاطبته بعد أن أسقطت القلم الرصاص: إذَن سيبقى جدول سان سيباستيان كما هو.

ـ انتظري حتّى اجتماع مجلس الإدارة الشهر المقبل. سأطالب بقرار منّي، مرّة واحدة وإلى الأبد، بشأن مدى سماح إدارة العمليّات لك بتجاوز سلطتها. يجب أن تجيبي على هذا.

ـ سأجيب على ذلك حينها.

ثمّ استأنفت عملها قبل أن يغلق جيمس تاجارت الباب ويغادر.

وحين انتهت، دفعت الأوراق جانبًا وأخذت تنظر إلى أعلى، لقد عمّ الظلام السماء من وراء زجاج النافذة، وانتشر ضوء متوهّج في أنحاء المدينة تسرّب لها عبر زجاج مُضاءٍ دون المبنى. فنهضت على مضضٍ. لقد ساءتها الهزيمة الصغيرة بسبب التعب،

لكنّها على علمٍ بأنّها منهَكة جدًّا في تلك الليلة.

كان المكتب الخارجيّ مظلمًا ومقفرًا؛ وقد خلا المكان إذ غادره كلّ موظّفيها. وحدَه إيدي ويلرز كان لا يزال هناك، بمكتبه، في مرفق خاصّ له مقسَّم بالزجاج بدا وكأنّه مكعّب من الضوء في زاوية من الغرفة الكبيرة. فلوّحت له وهي في طريقها للخروج.

لم تستقلّ المصعد إلى بهو المبنى، ولكنّها اختارت الذهاب إلى ساحة محطّة تاجارت. كانت تحبّ أن تمرّ من خلال ذلك المكان وهي في طريقها إلى المنزل.

لطالما شعرت أنّ المحطّة تبدو كالمعبد حتّى أثناء مجرّد إلقاء نظرة خاطفة إلى السقف البعيد، رأت أقبيةً خافتة مدعومة بأعمدة الجرانيت العملاقة، وأعاليَ النوافذ الشاسعة المزجّجة بالظلام. كان السلام يخيّم على القبو وكأنّه سلامُ كاتدرائيّةٍ مقدّسٌ انتشر ليقدّم حماية عالية لما يُبديه مستعملو المحطّة من نشاطٍ متسرّع.

لقد هيمن على المحطّة تمثال ناثانيل تاجارت، وقد تجاهله المسافرون بوصفه مشهدًا معتادًا، وظلّ صامدًا باعتباره رمزًا لمؤسّس شركة تاجارت لسكك الحديد. كانت داغني هي الشخص الوحيد الذي ظلّ على وعيٍ بوجوده، فرفضت أن تعتبره مجرّد شيء بديهيّ. فواظبت على النظر إلى ذلك التمثال كلّما عبرت المحطّة، إنّه الشكل الوحيد للصلاة التي تعرفها.

كان ناثانيل تاجارت مغامرًا مفلسًا جاء من مكان مّا من ولاية إنجلترا الجديدة وبنى سكّة حديديّة عابرة للقارّة، أيّامَ تأسيس القضبان الفولاذيّة الأولى. لا يزال خطّه الحديدي قائمًا وقد تحوّلت معركة بنائه إلى أسطورة، لأنّ الناس يفضّلون عدم فهمها أو الإيمان بأنّها ممكنة.

كان رجلًا لا يقبل البتّة تلك العقيدة التي تقول إنّ للآخرين الحقَّ في إيقافه. لقد حدّد هدفه وتوجّه نحوه، فكان طريقه مستقيمًا مثل قضيب من قضبانه. ولم يسع قطّ إلى الحصول على أيّ قروض أو سندات أو إعانات أو منح أرض أو خدمات

تشريعيّة من الحكومة. حصل على المال من الرجال الذين يملكونه ويذهبون من بابٍ إلى بابٍ من أبواب المصرفيّين، المصنوعة من خشب الماهوجني، إلى الأبواب الخشبيّة للمزارع المعزولة. لم يتحدّث قطّ عن الصالح العامّ، واكتفى بقوله للناس إنّهم سيحقّقون أرباحا كبيرة من سككه الحديديّة، وحدّثهم عن السبب الذي جعله يتوقّع الأرباح وقال إنّه قد أخذ بأسبابه. كانت لديه أسباب وجيهة عبر جميع الأجيال التي تلت ذلك، فكانت شركة تاجارت العابرة للقارّات واحدةً من بين شركات السكك الحديديّة القليلة التي لم تفلس قطُّ والوحيدة التي بقي مخزونها مهيمنًا محفوظًا بين أيدي أحفاد ذلك الأب المؤسّس.

لم يشتهر اسم «نات تاجارت» طيلة حياته، وكان في مقابل ذلك سيّئ السمعة. لقد كان اسمًا يتكرّر ذكره على كلّ لسان، لا من أجل تكريمه ومدحه، بل بدافع الفضول والاستياء؛ وإذا أُعجِب به أيّ شخص، فإنّ ذلك من قبيل إعجاب المرء بقاطع طريق ناجح، على الرغم من عدم حصوله على أيّ قرش من ثروته بالقوّة أو الاحتيال؛ لم يكن مذنبًا في شيء، لأنّه كسب ثروته الخاصّة من كدّ يمينه ولم ينسَ البتّة أنّ تلك الثروة كانت من حرّ ماله.

لقد نُسِجَت قصص كثيرة عنه. فقيل مثلًا إنّه قتل مشرّعا حكوميًّا في صحراء الغرب الأوسط. لقد حاول ذلك المشرّع إلغاء ميثاق مُنح له، فأراد استرداد حقّه عندما وضعت السكك الحديديّة في منتصف الطريق عبر الولاية. بعض المشرّعين كانوا يخطّطون لكسب ثروة من الاستثمار في أسهم شركة تاجرت، ثمّ التخلّص منها عبر البيع بعد مدّة قصيرة. اتُّهم نات تاجارت بجريمة القتل، لكنّها تهمة لا يمكن إثباتها أبدًا. ومنذ ذلك الحين لم يكن لديه أيّ مشكل مع المشرّعين.

وقيل إنّ نات تاجارت قد راهن بحياته على شركة سكّة الحديد مرّات عديدة؛ ولكنّه، راهن ذات مرّة بأكثر من حياته. وأمام يأسه من الحصول على التمويل المادّيّ، وإثر تعليق أشغال بناء خطّه الجديد، اضطرّ إلى الاستغناء عن ثلاث رحلات مدرجة لقطاراته مقابل قرض من الحكومة قدّمه له رجل محترم متميّز. ثمّ رهن زوجته

كضمان للحصول على قرض من مليونير يكرهه وأُعجب بجمالها. فسدّد القرض في الوقت المحدّد ولم يكن عليه أن يتنازل عن تعهّده. وقد تمّت الصفقة بموافقة زوجته. لقد كانت ذات جمال أخّاذ وتنتمي إلى عائلة عريقة ونبيلة في تلك الولاية الجنوبيّة، حرمتها عائلتها من الميراث لأنّها هربت مع نات تاجارت عندما كان مجرّد شابّ مغامر وذي طبعٍ خشن.

ندمت داغني في بعض الأحيان لأنّ نات تاجارت كان سلفها. فما تكنّه له من مشاعر لم يكن ينتمي إلى خانة العواطف العائليّة التي لا يختارها المرء. لم تُرِد أن يكون شعورها هو ذاك الشعور المحدّد الذي يُفتَرض أن يدين به المرء لعمّ أو جدٍّ. لم تكن قادرةً على أن تمنح أيّ كائنٍ حبًّا لا يكون من محض اختيارها، بل وتستاء من أيّ شخص يطلب ودّها وحبّها. ولكن لو كان لها أن تختار سلفًا من أسلافها، لاختارت نات تاجارت، كلمسة تكريم عفويّ وعربون امتنان وعرفان.

لقد نُسِخ تمثال **نات تاجارت** عن رسمٍ أنجره له فنّان، وكان ذلك الرسم هو السجلّ التاريخيّ الوحيد المحتفظ بملامحه. ولو أنّه عاش حتّى بلغ سنّ الشيخوخة، لما أمكن أن يرسخ في ذهن المرء عنه سوى ما احتفظ به ذلك الرسم من صورة الشابّ. لقد مثّل تمثاله **لداغني** زمن طفولتها أوّل مفهوم للتمجيد. وعندما كانت ترسل إلى الكنيسة أو إلى المدرسة، كانت تسمع الناس وهم يستخدمون تلك الكلمة، اعتقدت أنّها تعرف ما تعنيه: **فكّرت حينها في التمثال.**

كان التمثال لشابّ طويل القامة نحيفٍ وذي وجه حادّ الملامح. يمسك برأسه كما لو أنّه واجه تحدّيًا ووجد الفرح في قدرته على المواجهة. وكلّ ما أرادته داغني طيلة حياتها كانت تحتويه الرغبة في الإمساك برأسها كما فعل جدّها.

الليلةَ نظرت إلى التمثال أثناء مرورها عبر ساحة المحطّة. لقد كانت لحظة راحة وهناء. ووجدت في الأمر كمثل عبءٍ عجزت عن تسميته فزال أو كمثل تيّارٍ خافتٍ من الهواء يلمس جبهتها.

في زاوية المحطّة عند المدخل الرئيسيّ، كان هناك كشك صغير يبيع الصحف. وهو

على ملك رجل عجوز هادئ الطباع، دمث الأخلاق، وذي تربية عالية. ظلّ هذا العجوز خلف نُضد كشكه لمدّة عشرين عامًا. لقد امتلك سابقا مصنعًا للسجائر لكنّه أفلس، فاعتزل واعتكف في كشكه المظلم المعزول وسط دوّامة أبديّة من الغرباء. لا يملك عائلة أو أصدقاء على قيد الحياة. كانت متعته الوحيدة هي جمع السجائر من جميع أنحاء العالم وإضافتها إلى مجموعته الخاصّة. وكان يعرف كلّ العلامات التجاريّة المصنوعة في ذلك الزمن أو حتّى تلك التي راجت في الماضي.

كانت داغني تحبّ التوقّف عند ذلك الكشك أثناء خروجها. بدا وكأنّه جزء من محطّة تاجارت، مثل برج مراقبة قديم ضعيف جدًّا ولا يقدر على حمايتها، ولكنّه يوفّر لها الاطمئنان من خلال وجوده. وكان الشيخ يحبّ أن يراها قادمة، لأنه الوحيد الذي يعرف أهمّيّة تلك الشابّة، إذ تمرّ مرتديةً معطفا رياضيّا وقبّعة مائلة، ثمّ تقبل عليه مسرعةً من خلال الحشد دون الكشف عن هويّتها.

في تلك الليلة توقّفت كالعادة لشراء علبة السجائر فسألته:

ـ كيف حال مجموعة السجائر؟ هل توجد أيّ عيّنات جديدة؟

ابتسم ابتسامة حزينة، ثمّ هز رأسه قائلًا: لا يا آنسة تاجارت، لا توجد أيّ علامات تجاريّة جديدة مصنوعة في أيّ مكان من العالم. حتّى العلامات القديمة انقرضت واحدةً تلو أخرى، ولم يتبقَّ منها الآن للبيع سوى خمسة أنواع أو ستّة. كان يوجد منها العشرات، لكنّ الناس لم يصنعوا أيّ شيء جديد. بكلّ تأكيد سيصنعون علامات جديدة في المستقبل. إنّه أمر مؤقّت فقط.

لمحها ولم يجب. ثمّ قال: أنا أحبّ السجائر يا آنسة تاجارت. أحبّ أن أفكّر في النار التي تُضرم في سيجارةٍ تمسكها أصابع يد إنسان، كلّ تلك القوّة الخطيرة تروّض في متناول يديه. كثيرًا ما أتساءل عن الساعات التي يجلس فيها رجلٌ وحيدًا، يراقبُ بتأمّلٍ دخانَ سيجارةٍ. أتساءل عن الأشياء العظيمة التي تجلبها مثل تلك الساعات. عندما يفكّر المرء، تكون هناك بقعة من النار على قيد الحياة في ذهنه، ومن المناسب أن تكون لديه نقطة تُحرَق بسيجارته كتعبير عن ذلك.

سألته بكل عفويّةٍ: هل البشر يفكّرون أثناء تدخينهم أكثر من أيّ وقت آخر؟

ثمّ توقّفت. لقد كان السؤال يمثّل تعذيبها الشخصيّ الوحيد ولم ترغب في مناقشته.

بدا الرجل العجوز كما لو أنّه لاحظ توقّفها المفاجئ ففهمها. لكنّه لم يأخذ في مناقشتها؛ قال، بدلًا من ذلك:

ـ آنسة تاجارت، أنا لا أحبّ الشيء الذي يحدث للناس في هذه الأيّام.

ـ وما هذا الشيء؟

ـ لا أعلم، لا أعلم. لكنّني شاهدتهم هنا لعشرين عامًا ورأيت التغيير، كانوا يهرعون من هنا، ووجدت في مشاهدتهم شعورًا رائعًا، كان اندفاعًا لأناسٍ يعرفون إلى أين هم ذاهبون وكانوا حريصين على الوصول إلى هناك. الآن هم في عجلة من أمرهم لأنّهم خائفون. لا هدف يدفعهم سوى الخوف. لن يذهبوا إلى أيّ مكان، إنّهم يهربون. ولا أظنّهم يعلمون ما يريدون الهرب منه. إنّهم لا يبادلون النظرات. يتجنّب بعضهم بعضًا عندما يلتقون. يبتسمون كثيرًا، لكنّه نوع قبيح من الابتسام: إنّه لا يعكس الفرح، بل يشي بالتوسّل. لا أعلم ما الذي يحدث للعالم.

ثمّ تجاهل أن يسألها: أوه حسنا، من هو جون جالت؟

ـ إنّه مجرّد عبارة لا معنى لها!

لقد أذهلتها حدّة صوتها، فأضافت في اعتذارها: لا أحبّ تلك القطعة الفارغة من اللّغة الدارجة. ماذا تعني؟ من أين أتت؟

أجابها بهدوءٍ: لا أحد يعرف.

ـ لماذا يستمرّ الناس في قولها؟ لا أحد يبدو قادرًا على شرح ما تعنيه، ومع ذلك فهم جميعًا يستخدمونها كما لو أنّهم يعرفون المعنى.

ـ وما يزعجكِ في الأمر؟

ـ لا أرغب في سماع ما يبدو أنّهم يعنونه عندما يقولون ذلك.

ـ ولا أنا أيضًا يا آنسة تاجارت.

***

تناول إيدي ويلرز عشاءه في كافتيريا الموظّفين بمحطّة تاجارت. كان هناك مطعمٌ في المبنى، يرعاه المديرون التنفيذيّون لشركة تاجارت، لكنّه لم يكن يعجبُه. وبدت الكافتيريا جزءًا من السكك الحديديّة، وهو ما زاد شعوره بعدم الرضا حتّى عندما كان في المنزل.

كانت الكافتيريا تحت الأرض. وهي عبارة عن غرفة كبيرة بجدران من البلاط الأبيض يتألّق من انعكاساتِ الأضواء الكهربائيّة التي بدت وكأنّها ديباج الفضّة. كان سقفها عاليًا، بعدّادات لّماعة من الزجاج والكروم، ممّا يضفي شعورًا بأنّ المرء يسبح في الفضاء والضوء.

كان هناك عامل سكّة حديد يلقاه إيدي ويلرز أحيانًا في الكافتيريا. لقد أحبّ إيدي ملامح وجهه. فقد جمعتهما فرصة، فأُعجِبا بالمحادثة، ومنذ ذلك الحين تعوّدا على تناول الطعام معًا كلّما جمعهما لقاء.

ومع توطّد الألفة والصداقة تغافل إيدي عن سؤال العامل عن اسمه، بل ونسي حتّى ما إذا كان قد طلب منه في السابق ذِكْرَ اسمه أو طبيعة وظيفته؛ واستنتج أنّ عمل هذا الرجل ليس على درجة كبيرة من الأهمّيّة، فملابسه كانت خشنة وملطّخة بالشحوم. لم يكن الرجل شخصًا ملائمًا بالنسبة إليه، بل إنّه لم يجد فيه غير حضور صامت لاهتمام هائل بالشيء الوحيد الذي يضفي معنى على حياته الخاصّة في شركة تاجارت العابرة للقارّات.

الليلة، وبعد نزوله في وقتٍ متأخّر إلى الكافتيريا، رأى إيدي العاملَ وهو جالس إلى طاولة في زاوية نصف مهجورة من الغرفة. ابتسم له إيدي معبّرا عن سعادته برؤيته وأخذ يلوّح له، وحمل صينيّة طعامه واتّجه إلى الطاولة التي كان الآخر يجلس

عندها.

لقد شعر إيدي بالراحة والاسترخاء بعد يوم شاقٍّ من العمل عند إحساسه بخصوصيّة الزاوية التي تجمعهما. كان بإمكانه أن يتحدّث لأنّه لا يتحدّث في أيّ مكانٍ آخر، ويعترف بأشياء لن يعترف بها لأيّ شخص، ويفكّر بصوت عالٍ، وينظر عبر الطاولة إلى عينَي العامل المنتبهتَين.

فقال إيدي ويلرز: إنّ خطّ ريونورتيي هو أملنا الأخير، هذا الخطّ سينقذنا. سيكون لدينا على الأقلّ فرع واحد في حالة جيّدة حين تشتدّ الحاجة إليه، وهذا سيساعد على إنقاذ بقيّة الخطوط... إنّه أمر مضحك، أليس كذلك؟ التحدّث عن الأمل الأخير لشركة تاجارت العابرة للقارّات. هل بوسعك أن تأخذ الأمر على محمل الجدّ إذا أخبرك شخص مّا أنّ نيزكًا سيدمّر الأرض؟... ولا أنا... «من المحيط إلى المحيط، إلى الأبد»، هذا ما سمعناه طوال طفولتنا، أنا وهي. لا، لم يقولوا «إلى الأبد»، ولكن هذا ما كان يعنيه كلامهم... أنا لست رجلًا عظيمًا وما كان لي أن أبني مثل هذه الشركة، ولو أنّها تنهار وتزول فلن أكون قادرا على إعادة مجدها. يجب أن أذهب معها... لا تكترث لأمري، فأنا لا أعلم السبب الذي جعلني أقول مثل تلك الأشياء، أعتقد أنّ بي شيئًا من التعب هذه الليلة... نعم، عملت إلى وقتٍ متأخّر. هي لم تطلب منّي البقاء، لكنّ ضوءًا كان يتسلّل من تحت بابها، بعد فترة طويلة من رحيل الآخرين... نعم، هي الآن في طريق العودة إلى منزلها... مشكله؟ أوه، هناك دائمًا مشكلة في المكتب. لكنّها ليست قلقة، هي تعلم أنّها تستطيع سَحْبَنا من خلال... بالطبع، إنّه أمر سيّئٌ. نحن نتعرّض لحوادث أكثر ممّا تتصوّر. لقد فقدنا عربتَيْ ديزل مجدّدًا في الأسبوع الماضي. الأولى انهارت بسبب قِدمها، والأخرى فُقِدت في حادث تصادم مباشر... نعم، لدينا طلبيّة بمحرّكات ديزل من الشركة المتّحدة للقاطرات والأشغال، لكنّنا انتظرناها مدّةَ عامين. أنا لا أعلم ما إذا كنّا سنحصل عليها أم لا... يا الله، ما أحوجنا إلى تلك القاطرة! تلك القوّة الدافعة لا يمكنك تخيّل مدى أهميّة الأمر. هذا هو جوهر الموضوع. لماذا أراك تبتسم؟ ما المضحك في الأمر؟... حسنًا،

كما كنت أقول، إنّ الوضع في غاية السوء. ولكن على الأقلّ سَيُجَهَّز خطّ ريونورتيي. فأوّل شحنة للسكك سوف تصل إلى الموقع في غضون أسابيع قليلة. وفي غضون عامٍ، سنشغّل أوّل قطار على سكّة جديدة. لا شيء سيوقفنا هذه المرّة... بالتأكيد، أعلم من سيباشر أشغال تركيب السكّة الحديديّة، إنّه السيد مكنمارا من مدينة كليفلاند، المقاول الذي أنهى خطّ سان سيباستيان من أجلنا هناك، على الأقلّ يوجد رجل يعرف وظيفته معرفةً دقيقةً. لذلك نحن بأمان. يمكننا الاعتماد عليه، لا يوجد كثير من المقاولين الجيّدين... نحن في عجلة من أمرنا، ولكن أنا أحبّ الانتظار على أحرّ من الجمر. لقد كنت آتي إلى المكتب قبل الدوام وقبل الجميع بساعةٍ ممّا تعوّدتُ عليه، لكنّها كانت دائمًا سبّاقة، لذلك أجدها هي الأولى هناك دومًا... ماذا؟ لا أعلم ماذا تفعل في الليل، لا شيء على ما أعتقد... لا، إنّها لا تخرج مطلقًا مع أيّ شخص. تكتفي بالجلوس في المنزل، غالبًا، وتستمع إلى الموسيقى. إنّها تستمع إلى تسجيلات الموسيقي... وما الذي يهمّك في الأمر، هل تهتمّ مثلا لنوع التسجيلات الموسيقيّة التي تنصت إليها؟ هي تحبّ موسيقى ريتشارد هالي. وهذا هو الشيء الوحيد الذي تحبّه خارج شركة السكك الحديديّة.

الفصل الرابع

الدوافع المحرّكة الأولى

قالت داغني في نفسها، وهي تبحث عن مبنى تاجارت في الشفق: قوّة الدافع هذا هي كلّ ما أحتاج إليه في البداية. قوّة الدافع، للحفاظ على المبنى واقفا، والحركة للحفاظ على ثباته. لم يكن ثبات المبنى قائمًا على أكوام الجرانيت، بل على المحرّكات التي كانت تطوي الأرض طيًّا عبر القارات.

شعرت بلمسة غامضةٍ من القلق. لقد عادت لتوّها من رحلةٍ إلى مصنع الشركة المتّحدة للقاطرات والأشغال في ولاية نيوجيرسي، إذ ذهبت لرؤية رئيس الشركة شخصيًّا. وقالت إنّهم لم يخبروها بشيءٍ: لا عن سبب التأخير ولا أيّ إشارة إلى التاريخ الذي سيتمّ فيه إنتاج محرّكات الديزل. تحدّث إليها رئيس الشركة مدّة ساعتين. لكنّ جميع إجاباته كانت بعيدة عن مضمون أسئلتها. وكلّما حاولت جعل المحادثة محدّدة ودقيقة، استشفّت من طريقته في الكلام إشارةً غريبةً من لومٍ متعالٍ وجدت فيها كمثل الدليل على سوء التربية، إذ كان فيها كسرٌ لبعض النواميس التي يلتزم بها الجميع.

وفي طريقها إلى المصنع، قالت في نفسها: إنّها رأت قطعةً هائلة من الآلات تُركت مهجورةً في زاوية الفناء. كانت آلةً دقيقةً، استُعملت في السابق فترةً طويلةً، وهي من النوع الذي لا يمكن شراؤُه من أيّ مكان في العالم الآن. لم تكن باليةً لتُرْمَى هكذا؛ بل تُرِكت لتتعفّن بسبب الإهمال، ويأكلها الصدأ وقطرات النفط السوداء القذرة.

أدارت داغني وجهها بعيدًا عن تلك الآلة، فمثل هذا المشهد كان يُسبّب لها العمى دومًا، جرّاء بلوغ الغضب العنيف درجةً حادّةً. وذكرت أنّها لم تكن تعلم السبب؛ لم تتمكّن من تحديد شعورها الخاصّ. كانت لا تعرف سوى أنّ هناك صرخة احتجاج ضدّ الظلم تكتسي شعورها، وأنّ سلوكها رَدٌّ فعل تجاه شيء أبعد بكثير من مجرّد قطعة قديمة من الآلات.

وعند دخولها مكتبَها، لاحظت مغادرة بقيّة موظّفيها، باستثناء إيدي ويلرز الذي كان لا يزال هناك ينتظرها. وللحظة أدركت أنّ شيئًا مّا قد حدث، من خلال طريقة نظر إيدي والطريقة التي تبعها بها في صمتٍ إلى مكتبها.

ـ ما الأمر يا إيدي؟

ـ لقد غادرنا السيّد مكنمارا.

قالت والدهشة تعلو وجهها: ماذا تعني بـ"غادرنا"؟

ـ لقد غادر. تقاعد. توقّف عن العمل.

ـ مكنمارا، مقاولنا؟

ـ نعم.

ـ ولكن هذا مستحيل!

ـ أنا أعرف ذلك.

ـ ماذا حدث؟ لماذا؟

ـ لا أحد يعلم.

أخذت داغني قليلا من الوقت عمدًا، ثمّ فكّت أزرار معطفها، وجلست إلى مكتبها. ثمّ بدأت بسحب قفّازَيها وقالت: أوّلًا، اجلس يا إيدي.

فأخذ إيدي في الكلام بهدوءٍ، لكنّه ظلّ واقفًا:

ـ لقد تحدّثت إلى كبير مهندسيه من بعيدٍ. اتّصل بنا رئيس المهندسين من كليفلاند

ليخبرنا بالأمر وهذا كلّ ما قاله، لا علم له بأيّ شيءٍ آخر.

ـ ماذا قال؟

ـ قال إنّ مكنمارا أنهى عمله وغادر.

ـ إلى أين؟

ـ إنّه لا يعلم. لا أحد يعلم.

لاحظت فجأةً أنّها كانت تحمل بيدٍ إصبعين خاويين من القفّاز، لكنّها نسيت سحبه فظلّ نصفه مسحوبًا ونصفه الآخر منسيًّا. فسحبته وأسقطته على المكتب.

قال إيدي: لقد غادر وترك كومةً من العقود بحجم ثروة طائلة. كانت لديه قائمة انتظار طويلةٌ بما يكفيه من عملاء للسنوات الثلاث المقبلة...

لم تنبس داغني ببنت شفةٍ. فاسترسل إيدي في كلامه وأضاف بصوت منخفضٍ:

ـ لو كنت أستطيع فهم سبب مغادرته لما شعرت بكلّ هذا الفزع.... ولكنّه غادر بلا سبب واضح... لقد كان أفضل مقاول في البلاد.

نظر أحدهما إلى الآخر. كانت تريد أن تقول: يا إلهي، يا إيدي، لكنّها بدلًا من ذلك، قالت: لا تقلق. سنجد مقاولًا آخر لخطّ ريونورتيي.

كان الوقت متأخّرًا عندما غادرت مكتبها. ثمّ توقّفت، في الخارج على رصيفٍ عند باب المبنى، وهي تنظر إلى الشوارع. شعرت فجأةً بأنّها كانت مفرغةً من الطاقة والرغبة تمامًا مثل محرّكٍ تعطّل وتوقّف.

كان نورٌ خافت يتدفّق من وراء المباني في السماء، وانعكاسٌ آخر لنور الآلاف من الأضواء غير المعروفة، لقد مثّلت العصب الكهربائيّ الحيويّ للمدينة. أرادت أن ترتاح، ففكّرت في العثور على المتعة بمكان مّا.

كان عملها هو همّها الوحيد أو كلَّ ما أرادت. لكن كانت هناك لحظات، كشأن تلك الليلة، تشعر فيها بذلك الفراغ المفاجئ والغريب. لم يكن في الحقيقة فراغًا، بل

صمتًا، ولم يكن يأسًا، بل جمودًا وتسمّرًا، كأنّ شيئًا دُمّر بداخلها، ولكنّ كلّ شيء لا يزال قائمًا. ثمّ شعرت برغبة في العثور على لحظة فرحٍ في الخارج، ورغبةٍ في البقاء كمتفرّج سلبيّ مع قليلٍ من العمل أو الاكتفاء بمشهد العظمة. ثمّ قالت في نفسها: أبحث عن الفرح، ليس ليأتي، ولكن لأقبله. ليس للبدء، ولكن للردّ. ليس للخلق، ولكن للإعجاب. أريد الفرح لأنّه يسمح لي بالمواصلة، لأنّ الفرح هو وقود الإنسان.

كانت دائمًا تغمض عينيها مطلقةً ابتسامةً خفيفةً يمتزج فيها الفرح والألم، وتلك هي القوّة التي تستدرج سعادتها. لقد أرادت مرّة أن تشعر بنفسها مدفوعةً بفضل قوّة إنجاز شخصٍ آخر. مثلما يحبّ الناس رؤية النوافذ المضاءة لقطار مارٍّ أمامهم وهُم بالمروج المظلمة، كان إنجازها، ومشهد القوّة والغرض الذي يمنحهم الطمأنينة في خضمّ الأميال الفارغة والليل، لذلك أرادت أن تشعر به للحظة، كتحيّة قصيرة، للمحة واحدة، فقط لتلوّح بذراعها وتقول: هل يوجد شخص مّا يودّ الذهاب إلى مكان مّا...

بدأت تمشي ببطءٍ، واضعةً يدَيها في جيبَي معطفها، في حين كان ظلّ قبّعتها يميل عبر وجهها. وكانت المباني التي تحيط بها تُشبه في ارتفاعها الشاهق تلك المرتفعات التي تحجب عنها رؤية السماء. فقالت في نفسها: لقد كلّف أمر بناء هذه المدينة عناءً كبيرًا، وينبغي أن تكون لهذه المدينة أشياء كثيرة لتقدّمها لها.

على باب أحد المتاجر وُضع راديو كان يلقي الأصوات في الشوارع من خلال الثقب الأسود في مكبّر صوته. كانت أصوات حفلة سيمفونيّة نُظّمت في مكان مّا من المدينة. وكانت تلك الأصوات تشبه صرخةً طويلة بلا شكل، مثل صوت التمزيق العشوائيّ للقماش والجلد. لقد تناثرت بلا لحنٍ، ولا انسجامٍ، ولا إيقاع. لكن إذا كانت الموسيقى هي العاطفة ومصدر العاطفة الفكر، فإنّ ما سمعته من أصواتٍ لم يكن سوى صرخة متأتّيةٍ من الفوضى، ومن اللّاعقلانيّ، ومن العجز، ومن تنازل الإنسان عن نفسه.

استمرّت داغني في مسيرها ثمّ توقّفت عند نافذة متجرٍ للكتب. لقد عرضت النافذة هرمًا من الألواح بسترات بنّيّة أرجوانيّة، نقش عليها عنوان كتاب: النسر الذي يبدّل ريشه. وأعلنت إحدى اللّافتات «روائيّ هذا القرن». «الدراسة الثاقبة عن جشع أحد رجال الأعمال. كشف جريء عن فساد الإنسان».

ثمّ مرت بصالة سينما مسحت أضواؤها نصفَ الحيّ، ولم تترك سوى صورة ضخمة وبعض الحروف المتوهّجة معلّقةً في الجوّ. كانت الصورة لامرأة شابّةٍ مبتسمةٍ. وبالنظر إلى وجهها، يشعر المرء بالإرهاق من رؤيتها لمدّة طويلة، فما بالك برؤيتها للمرّة الأولى. وجاء في الحروف: في دراما بالغة الأهمّيّة تعطي إجابة لأعتى المشاكل: هل ينبغي للمرأة أن تقول؟

ثمّ مرّت من أمام باب ملهًى ليليّ. نزل زوجان رائعان من سيّارة أجرة. كان للفتاة عينان مبهرتان، ووجه متعرّقٌ. وقد ارتدت عباءةً قُدَّت من فرو حيوانٍ، وفستانَ سهرةٍ جميلًا انزلق من إحدى كتفيها مثل رداء حمّام متّسخ لربّة منزل، ممّا كشف عن جزءٍ من صدرها، ولكن ليس على نحو جريء، بل في هيئة لامبالاة من إنسان متعب. قادها مرافقها ممسكًا بذراعها العارية؛ لم تكن تقاسيم وجهه تحمل تعابير رجلٍ يتوقّع مغامرة رومانسيّة، ولكن كان ذا نظرة حكيمة جعلته أبعد ما يكون عن الشبّان الذين يهوون كتابة البذاءات على الأسوار.

ثمّ تساءلت داغني، ما الذي كانت ترجو وجوده؟ واستمرّت في المشي. لقد كانت تلك الأمور التي عاينتها خلال تجوالها في تلك الليلة بمثابة أشياء يعيشها الناس، بوصفها تعبيرًا عن خصوصيّاتهم الروحيّة والثقافيّة وأساليبهم في المتعة والترفيه. لم تجد وسيلة مرحٍ أخرى في أيّ مكان من البلاد، واستمرّ الأمر سنوات عديدةً.

اشترت صحيفةً من كشكٍ عند زاوية الشارع الذي كانت تسكن فيه، وعادت إلى المنزل.

كانت شقّتها تتكوّن من غرفتين في أعلى طابق من ناطحة سحابٍ. وكان يتهيّأ للناظر إلى الشقّة، من خلال زجاج نافذة الزاوية من غرفة جلوسها، أنّه أمام مقدّمة

سفينة متحرّكة. كانت أضواء المدينة منتشرةً مثل انتشار الشرر الفوسفوريّ على أمواج الصلب والحجارة السوداء. وعندما أنارت مصباح الغرفة، قطعت مثلّثاتٌ طويلةٌ من الظلّ خطوطَ الجدران العارية، في شكلٍ هندسيّ من أشعّة الضوء التي كسرها عدد قليل من الزوايا المؤثّثة.

وقفت في وسط الغرفة، وحيدةً بين السماء والمدينة. ثمّة شيءٌ واحدٌ فقط يمكن أن يلهمها الشعور الذي رغبت في تجربته تلك الليلة؛ لقد كانت صيغة التمتّع الوحيدة التي وجدتها أمامها. فتحوّلت إلى مكان الفونوغراف ووضعت عليه أسطوانة من موسيقى ريتشارد هالي.

كان رابعَ كونشرتو لهالي، وهو يُعَدّ آخر عمل ألّفه. وبعيدًا عن تفكيرها، اجتاح وقعُ أوتار الموسيقى الافتتاحيّة مشاهدَ الشوارع. كان الكونشرتو صرخة تمرّد عظيمة. إنّه بمثابة كلمة «لا» تُقذف في إطار عمليّة تعذيب واسعة النطاق، وإنكارٍ للمعاناة يحمل في طيّاته معاناة النضال من أجل التحرّر. كانت الأنغام كالصوت القائل: لا ضرورة للألم، فلماذا، إذَن، يحتفظ بأسوإ ألمٍ مَن لا يقبل بضرورته؟ نحن معشر من يحملون الحبّ وسرّ الفرح، أيّ عقاب سُلِّطَ علينا؟ ومن قبل من؟... ثمّ أضحت أصوات التعذيب أكثر تحدّيًا، وأصبح بيان العذاب ترنيمةً لرؤية بعيدة من أجلها يستحقّ كلّ شيء أن يدوم، حتّى هذا الأمر. كانت أغنية الانتفاض والسعي اليائس.

فظلّت جالسة ساكنة، تستمع بعينين مغمَضتَين.

لم يكن أحدٌ يعلم بما حدث لـريتشارد هالي أو لماذا كانت قصّة حياته مثل ملخّصٍ مكتوبٍ لعظمةٍ ملعونةٍ من خلال إظهار ما قد يدفعه المرء من ثمنٍ جرّاء تلك العظمة. لقد كان ثمرة سلسلة امتدّت سنواتٍ طويلةً في الأعالي والطوابق السفليّة، سنواتٍ ذهبت بالصبغة الرماديّة للجدران وسجنت الرجل ففاضت موسيقاه بلون عنيف. كان صراعًا رماديًّا في مواجهة الرحلات الطويلة عبر سلالم المسكن المظلم، وضدّ نظام إمداد المياه والسباكة المتجمّدة، وضدّ سعر شطيرة من متجرٍ للأطعمة

يطلق روائح كريهةً، وضدّ وجوه الرجال الذين استمعوا إلى الموسيقى بعيونٍ فارغة. لقد كان كفاحًا لا يخفّف من العنف، وليس فيه اعتراف بوجود عدوّ واعٍ، كلّ ما في الأمر أنّه كان ضدّ جدارٍ أصمّ خُلق ليضرب، جدارٍ بُنِيَ بدقّة متناهية تعزلُ الصوت: تلك اللّامبالاة، التي تبتلع الضربات والحبال والصراخ ومعركة الصمت، لرجل يمكن أن يمنح الأنغام بلاغة أكثر ممّا كانت تحمله في أيّ وقتٍ مضى، صمت الغموض، وصمت الوحدة، وصمت الليالي حين تعزف بعض الأوركسترات النادرة أيَّ عمل من أعماله بينما هو ينظر إلى الظلام، ويعلم أنّ الارتعاش ألمّ بروحه، ليوسّع دوائر الإنصات من خلال برج الراديو عبر أثير المدينة، ولكن للأسف لم يكن هناك من سامعٍ متقبّل ضبط مسامعه لتلقّي تلك الأنغام.

قال أحد النقّاد: موسيقى ريتشارد هالي تضجّ بنفحةٍ بطوليّةٍ. لقد تجاوز عصرُنا مثل هذه الأشياء. وقال ناقد آخر: موسيقى ريتشارد هالي تغرّد خارج السرب في عصرنا الحاليّ. فيها نبرة من النشوة. ولكن من يهتمّ بالنشوة في وقتنا الحاضر؟

لقد كانت حياته ملخّصا لحياة جميع البشر الذين يرون أنّ أعظم مكافأة يمكن أن يحظوا بها هي أن يُقام لهم نصبٌ تذكاريّ في حديقة عامّة بعد مائة عام من الزمن، غير أنّ ريتشارد هالي لم يمت بعدُ بما فيه الكفاية. عاش ليرى ليلةً ما كان يُفتَرض أن يراها. كان في الثالثة والأربعين من عمره، وكانت ليلة افتتاح فايثون، وهي أوبرا ألّفها في سنّ الرابعة والعشرين. كان قد غيّر الأسطورة اليونانيّة القديمة وفق رؤيته وتمثّله الخاصّ: فايثون، الابن الصغير لهيليوس، سرق عربة والده وحاول، بجرأة طموحة، أن يقود الشمس عبر السماء، ولم يهلك، كما هلك في الأسطورة. في أوبرا هالي، نجح فايثون. كانت الأوبرا قد قدّمته آنذاك، قبل تسعة عشر عامًا، وأغلقت بعد أداءٍ واحدٍ على أصوات الاستهجان والتهريج. في تلك الليلة، سار ريتشارد هالي في شوارع المدينة حتّى الفجر، محاولًا العثور على إجابة لسؤالٍ لم يجده.

ليلةَ قدّمته الأوبرا مرّةً أخرى، بعد تسعة عشر عامًا من ذلك الحدث، اصطدمت الأنغام الأخيرة من الموسيقى بأصواتٍ أكبر من التصفيق الذي لم تشهده دار الأوبرا

من قبل مطلقًا. لم تكن الجدران القديمة قادرةً على احتواء التصفيق، وانفجرت أصوات الهتاف لتصل إلى الردهات والدرج والشوارع، وبلغت مسامع الصبيّ الذي كان يمشي في تلك الشوارع قبل تسعة عشر عامًا.

كانت داغني من بين الجمهور الذي حضر في تلك الليلة. وهي من القلائل الذين عرفوا موسيقى ريتشارد هالي في وقت سابقٍ. لكنّها لم تَرَه من قبل. فرأته حينها وهو يُدفع إلى خشبة المسرح، رأته يواجه انتشارًا هائلًا لتلويحات الأذرع وهتافات الرؤوس. وقف هو بلا حراك، كان رجلًا طويل القامة، هزيلا، وبشعر رماديّ. لم ينْحنِ، ولم يبتسم. وقف هناك ينظر إلى الحشد وكانت تقاسيم وجهه تنبئ بنظرة هادئة وجادّة تنمّ عن رجلٍ يحدّق متسائلًا.

صباح اليوم التالي كتب ناقدٌ: موسيقى ريتشارد هالي تنتمي إلى البشريّة جمعاء. إنّها تعبّر عن عظمة الشعب. وقال أحد الوزراء: في حياة ريتشارد هالي درسٌ ملهمٌ. لقد خاض صراعًا رهيبًا، لكن ما أهمّيّة ذلك؟ كان من النبل أن يتحمّل المعاناة والظلم والإساءة على أيدي إخوته، من أجل إثراء حياتهم وتعليمهم تقدير جمال الموسيقى العظيمة.

في اليوم الذي تلا الافتتاح، أعلن ريتشارد هالي عن تقاعده.

ولم يقدّم أيّ تفسيرٍ. واكتفى بأن قال لناشريه إنّ حياته المهنيّة قد انتهت. باعهم حقوق أعماله مقابل مبلغٍ متواضعٍ، على الرغم من علمه بأنّ أتاواته ستجلب له الآن ثروةً. انسحب بعيدا، ولم يترك أيّ عنوان. كان ذلك قبل ثماني سنوات، ولم يرَه أحدٌ منذ ذلك الحين.

كان رأس داغني متدلّيًا إلى الخلف وعيناها مغمضتين وهي تستمع إلى الكونشرتو الرابع، كانت ترقد نصف ممدودة عبر زاوية الأريكة، وجسدها مسترخٍ وثابت؛ ولكنّ التوتّر أَطبق على شكل فمها في وجهها الثابت، فرسم شكلا حسّاسًا وخطوطًا تذكّر بخطوط الشوق.

وبعد فترة فتحت عينيها فلاحظت الجريدة التي ألقتها على الأريكة. مدّت يدها إليها بشكلٍ سخيفٍ، لتُبعد عناوين الأخبار المبتذلة عن نظرها. فسقطت الجريدة مفتوحةً. رأت صورة وجه تعرفه جيّدًا، ورأت أيضًا عنوان القصّة. فأغلقت الصفحات وألقت الجريدة جانبًا.

كان وجه فرانسيسكو دانكونيا. أمّا العنوان فيقول إنّه وصل إلى نيويورك. قالت في نفسها، وما المزعج في ذلك الأمر؟ هي غير مضطرّة إلى مقابلته حتّى وإن كانت لم تره منذ سنوات.

جلست تنظر إلى الجريدة التي تستلقي على الأرض دون أن تقرأها. وقالت في نفسها، لا تطالعيها، بل لا تنظري إليها ولو نظرة خاطفة. لكنّها ظنّت أنّ ملامح وجه الرجل لم تتغيّر. فكيف يمكن للوجه أن يبقى كما هو حينما يختفي كلّ شيء آخر؟ تمنّت لو أنّهم لم يلتقطوا له صورةً وهو يبتسم. فذلك النوع من الابتسامة لا ينتمي إلى عالم الصحف. كانت ابتسامة رجلٍ قادر على رؤية مجد الوجود ومعرفته وخلقه. كانت بمثابة ابتسامة ساخرة متحدّية تنمّ عن ذكاء عبقريّ. ثمّ نبع صوت من الداخل يحذّرها مجدّدا: لا تقرئيها، ليس الآن، ليس مع تلك الموسيقى، أوه، ليس مع تلك الموسيقى!

ثمّ امتدّت يدها إلى الجريدة وفتحتها.

تقول القصّة إن السيّد فرانسيسكو دانكونيا أتاح للصحافة مقابلةً في جناحه بفندق واين-فولكلاند. وصرّح أنّه جاء إلى نيويورك لسببين هامّين: فتاة تفقّد القبّعات في نادي الأشبال، ونقانق الكبد بمطعم موديليكاتسن في الجادّة الثالثة. لم يُدلِ بأيّ تصريحٍ في خصوص جلسة الطلاق القادمة للسيّد والسيّدة غيلبرت فيل. كانت السيّدة فيل من عائلةٍ نبيلةٍ ومحبوبة على نحو استثنائيّ، أطلقت النار على زوجها الشابّ المميّز قبل بضعة أشهر، مصرّحةً علنًا أنّها ترغب في التخلّص منه بهدف الزواج من عشيقها، فرانسيسكو دانكونيا. وقد أدلت للصحافة برواية مفصّلة عن قصّة غرامها الرومانسيّة، بما في ذلك وصفُ ليلة رأس السنة الأخيرة التي قضّتها في

فيلا دانكونيا بجبال الأنديز. وقد نجا زوجها من الطلقة ورفع دعوى طلاق. تقدّمت هي باعتراضٍ على تلك الدعوى مقابل نصف ما يملك زوجها من ملايين، مهدّدة إيّاه بنشر قصّةٍ عن حياته الخاصّة التي قالت إنّها ستجعلها تبدو بريئة. كلّ هذه التفاصيل نُشِرت في الصحف لأسابيع، لكنّ السيد دانكونيا لم يصرّح بأيّ شيءٍ يخصّ هذا الموضوع في اللقاء الصحفيّ حين سأله أحد المراسلين: هل ستنكر قصّة السيّدة فيل؟ فأجاب: أنا لا أنكر أيّ شيء. وقد اندهش المراسلون من وصوله المفاجئ إلى المدينة؛ وفكّروا أنّه لن يرغب في أن يُوجَد هناك عندما تكون أسوأ فضيحة على وشك الانفجار في الصفحات الأولى من الصحف ولكنّهم كانوا مخطئين. ثمّ أضاف فرانسيسكو دانكونيا تعليقًا آخر على أسباب وصوله فقال: أردت أن أكون شاهدًا على المهزلة.

تركت داغني الجريدة تنزلق وتسقط على الأرض. ثم جلست وانحنت برأسها على ذراعيها. لم تكن تتحرّك، لكنّ خصلات الشعر التي تنساب على ركبتيها كانت ترتعش في هزّات مفاجئة من حين إلى آخر.

ثمّ استأنفت الأوتار العظيمةُ لموسيقى هالي أنغامَها، لقد ملأت الغرفة، واخترقت زجاج النوافذ وتسرّبت إلى أرجاء المدينة. وكانت تنصت إلى الموسيقى: إنّها مسعاها وبكاؤها.

****

أخذ جيمس تاجارت يُجيل نظرَه في أنحاء غرفة الجلوس بشقّته، متسائلًا عن الوقت؛ لم يشعر بالرغبة في التحرّك للعثور على ساعته. جلس على كرسيّ، يرتدي بيجامة مجعّدة، حافي القدمين؛ لقد واجه متاعب كثيرةً أثناء بحثه عن نعليه. آذى ضوءُ السماء الرماديّة المتسرّبُ من النوافذ عينَيه اللتين يثقلهما النوم. ثمّ أحسّ بثقل فظيعٍ داخل جمجمته كاد أن يتحوّل إلى صداع. وتساءل بغضب عن سبب تعثّره أثناء تنقّله في غرفة الجلوس. نعم، ها قد تذكّر، لقد كان بصدد البحث عن معرفة الوقت.

ثمّ انهار بشكل مائلٍ فوق ذراع الكرسيّ واسترق النظر إلى ساعة حائطيّة في مبنى

بعيدٍ: لقد كانت تشير إلى عشرين دقيقة بعد منتصف النهار.

ومن خلال باب غرفة النوم المفتوح، استرق السمع إلى صوت بيتي بوب وهي تغسل أسنانها في الحمّام الخلفيّ. كان حزامها ملقًى على الأرض، بجانب كرسيٍّ مع بقيّة ملابسها. وكان حزامًا ورديًّا باهتًا، بخيوطٍ مكسورة من المطّاط.

فدعاها بغضبٍ: أسرعي؟ عليَّ أن أرتدي ثيابي.

لم تجبه. وكانت قد تركت باب الحمّام مفتوحًا؛ حتّى إنّه ظلّ يسمع صوت الغرغرة.

وقال في نفسه لماذا عليّ أن أفعل مثل هذه الأشياء؟ ثمّ تذكّر أحداث الليلة الماضية. ولكن كان من الصعب عليه إيجاد إجابة.

ثمّ أقبلت بيتي بوب إلى غرفة الجلوس، وهي تسحب طيّات عباءةٍ حريريّة مزركشةٍ باللون البرتقاليّ والأرجوانيّ. لقد بدت ضامرةً وهي تلبس تلك العباءة، بينما كان تاجارت يظنّ أنّها تبدو أجمل بكثيرٍ وهي تمارس رياضة ركوب الخيل في صورها المنشورة بالصحف في قسم صفحات المجتمع. كانت فتاةً نحيفةً، بعظامٍ ومفاصل مرتخيةٍ لا تتحرّك في انسجام. أمّا ملامح وجهها فكانت مألوفة ببشرة سيّئة ونظرة تعالٍ وقحٍ تستمدّه من انتمائها إلى إحدى أفضل العائلات.

قالت بامتعاض وهي تمدّد جسدها برشاقةٍ: أوه، بحقّ السماء! جيم، أين مقصّ أظفارك؟ يجب أن أقلّم أظفار أصابع قدميّ.

ـ لا أعلم، لا أعلم. أشكو من صداع. ابحثي عنه في المنزل.

فردّت بلامبالاةٍ: مظهرك هذا الصباح يدفع الإنسان إلى هجر الطعام. إنّك تبدو كالحلزون.

ـ لماذا لا تصمتين؟

تجوّلت بيتي بلا هدفٍ في أرجاء الغرفة. ثمّ قالت دون أن تبدي شعورًا خاصّا: لا أريد العودة إلى المنزل. أنا أكره الصباح. يوم آخر يأتي ولا شيء عليّ فعله. حسنًا،

لديّ جلسة شاي بعد ظهر اليوم في منزل ليز بلاين، قد يكون الأمر ممتعًا، لأنّ ليز عاهرة.

ثمّ التقطت كأسًا وتجرّعت ما بقي فيها من شراب أمس، وأضافت: لماذا لم تطلب منهم إصلاح مكيّف الهواء؟ هذا المكان رائحته كريهة.

سألها: هل فرغت من الحمّام؟ يجب عليّ أن أرتدي ملابسي. لديّ التزام بموعد مهمّ اليوم.

ـ تفضّل بالدخول مباشرةً، فأنا لا أمانع مشاركتك الحمّام. أكره أن يستعجلني أحدٌ.

وبينما كان يحلق ذقنه، رآها وهي ترتدي ملابسها أمام باب الحمّام المفتوح. لقد أخذت وقتًا طويلًا وهي تلوي حزام عباءتها حول خصرها، ثمّ شدّت أربطة إلى جورَبيها، وسحبت من فوقها بدلةً مكلفة على نحو فاحشٍ قُدّت من نسيج التويد الصوفيّ. كانت تعتقد أنّ تلك العباءة الرقشاء، التي اختارتها بعد اطّلاعها على إعلانٍ في أرقى مجلّة من مجلاّت الأزياء، هي الزيّ الرسميَّ الذي يلائم على نحوٍ متوقّع مناسبات معيّنة، تمامًا مثل بقيّة الملابس التي كانت ترتديها بتفانٍ لغرضٍ محدّدٍ ثمّ تتخلّص منها بعد ذلك.

لقد كانت علاقتهما من طبيعة واحدةٍ، لا عشق فيها، ولا رغبة، ولا أيّ متعة فعليّة، ولا حتّى الشعور بالحياء. ولا تغيّر علاقتهما الحميمة معنى الفرح ولا الخطيئة. إنّها لا تعني لهما شيئًا يذكر. لقد سمعا أنّ الرجال والنساء يفترض بهم النوم معًا، ولهذا السبب فعل هو ذلك.

سألته: جيم، لماذا لا تأخذني إلى المطعم الأرمنيّ الليلة؟ أحبّ الشيش كباب.

أجابها بغضبٍ ورغوةُ الصابون تغطّي وجهه: لا أستطيع. ينتظرني يوم يضجّ بالمشاغل.

ـ لماذا لا تلغيه؟

ـ ماذا تقولين؟

ـ يمكن إلغاؤه وإن يَكُن بالغ الأهمّيّة.

ـ يا عزيزتي، إنّه أمر مهمّ جدًّا. إنّه اجتماع لمجلس إدارتنا.

ـ أوه، لا تكترث لشأن شركة سكّة حديدك اللعينة. إنّها مملّة. أنا أكره رجال الأعمال. إنّهم حمقى.

التزم الصمت ولم يجبها.

فظلّت تراقبه بمكرٍ وتكتّم، ثمّ أخذت تخاطبه بتشدّقٍ وقد اكتسى صوتها بنبرة أكثر حيويّة، ثمّ أضافت: على أيّة حال لقد قال جوك بنسون إنّك تلقّيت مفاجأة خفيفةً في شركة السكك الحديديّة، لأنّ أختك هي من تدير الأعمال كلّها.

ـ أوه، هو قال هذا الأمر، أليس كذلك؟

ـ أعتقد أنّ أختك فظيعة. وأظنّ أيضًا أنّه أمرٌ مثير للاشمئزاز أن تتصرّف امرأة مثل قرد مترهّل بالشحوم وتقدّم نفسها كمدير تنفيذيّ كبير. إنّه أمر لا ينتمي إلى الأنوثة في شيءٍ. على أيّة حال مَن هي لتعتقد أنّها كذلك؟

تجاوز تاجارت عتبَة الحمّام. ثمّ اتّكأ على عضادة الباب وظلّ يراقب بيتي بوب بتفحُّصٍ. ثمّ ارتسمت على تقاسيم وجهه ابتسامةٌ خفيفةٌ، كانت ساخرةً وواثقة، فلطالما اعتقد أنّ رابطًا مّا مشتركًا يجمعهما.

قال: يا عزيزتي، قد يهمّك معرفة أنّني بصدد ترتيب مصيبةٍ ستقود أختي بعد ظهر اليوم إلى الهاوية. إنّها ستنزلق وتتهاوى.

فردّت باهتمامٍ: لا؟ حقًّا؟

ـ هذا هو السبب الذي جعلني أخبرك بأنّ هذا الاجتماع في غاية الأهمّيّة.

ـ هل ستطردها حقًّا؟

ـ لا. هذا ليس ضروريًّا ولا يُنصَح به. سأضعها فقط في مكانها المناسب. إنّها

الفرصة التي كنت أنتظرها.

ـ هل تملك أدلّة تدينها؟ أو أيّ فضيحة؟

ـ لا، إطلاقًا. ليس في وسعك أن تستوعبي ما أنا بصدد إعداده. لا بدّ أن تتلقّى أختي صفعةً لائقة هذه المرّة لأنّها تمادت كثيرًا. لقد حَاكَتْ نوعًا لا يُغتفَر من الحيل دون استشارة أيّ شخص. إنّها جريمة خطيرة في حقّ جيراننا المكسيكيّين. وحين يسمع المجلس بذلك، ستصدُر بعض القرارات عن إدارة العمليّات، ممّا سيجعل أمر التحكّم في أختي أسهل قليلًا.

ـ أنت ذكيّ جدًّا يا جيم.

ـ من الأفضل أن أرتدي ملابسي.

بدا مسرورًا فالتفت مرّة أخرى إلى حوض الغسيل، مضيفًا بمرحٍ: قد نخرج معًا هذه الليلة وأشتري لك بعض الشيش كباب.

رنّ جرس الهاتف، فرفع السمّاعة. لقد أعلن له مشغّل الاتّصالات أنّها مكالمة بعيدة المدى قادمة من مكسيكو سيتي.

كان الصوت الهستيريّ الآتي من السماعة صوتَ السياسيّ الذي يعوّل عليه في المكسيك. وكان لا يكاد يبتلع ريقه وهو يقول:

ـ يا جيم، لم أستطع منع ذلك! لم أستطع منع ذلك!... لم نتلقَّ أي تحذيرٍ، أقسم بالله، لا أحد يشتبه في تورّطه في ذلك، لا أحد رأى ذاك الأمر الداهم، لقد بذلت قصارى جهدي، يا جيم لا يمكنك إلقاء اللوم عليّ، لقد حدثت الصاعقة من فراغ! صدر المرسوم هذا الصباح، قبل خمس دقائق فقط من الآن، نزل علينا الخبر مثل الصاعقة، دون أيّ إشعارٍ! لقد عمدت حكومة ولاية المكسيك الشعبيّة إلى تأميم مناجم سان سيباستيان وسكّة حديد سان سيباستيان.

***

ـ... ولذلك، يمكنني أن أؤكّد لسادة المجلس المحترمين أنّه لا يوجد مبرّر للذعر.

ما حدث هذا الصباح تطوّرٌ مؤسف، لكنّني أثق تمامًا -استنادًا إلى معرفتي بالعمليّات الداخليّة التي تشكّل سياستنا الخارجيّة في واشنطن- بأنّ حكومتنا سوف تتفاوض لإيجاد تسوية عادلة مع حكومة دولة المكسيك الشعبيّة، وبأنّنا سنتلقّى تعويضًا كاملًا وعادلًا عن ممتلكاتنا.

وقف جيمس تاجارت أمام الطاولة الممتدّة، مخاطبًا مجلس الإدارة. كان صوته دقيقًا ورتيبًا؛ وقد قصد به إلى إرساء الطُمَأنينَة في نفوس الحاضرين.

ـ ومع ذلك، يسعدني إبلاغكم بأنّني تنبّأت بإمكانيّة حدوث مثل هذا التحوّل في الأحداث واتّخذت كلّ الاحتياطات اللّازمة لحماية مصالح شركة تاجارت العابرة للقارّات. قبل بضعة أشهر، أوعزت إلى إدارة العمليّات لدينا بخفض الجدول الزمنيّ على خطّ سان سيباستيان إلى قطارٍ واحد في اليوم، وإزالة أفضل قوّة دافعةٍ لدينا ومخزون الأسهم المتداولة، فضلًا عن كلّ قطعة من المعدّات التي يمكن نقلها. ولم تتمكّن الحكومة المكسيكيّة من الاستيلاء إلّا على بضع سيّارات خشبيّة وقاطرة واحدة كانت قد أحيلت على المعاش. لقد وفّر قراري للشركة ملايين الدولارات. سأحصل على الأرقام الدقيقة المحسوبة وسأوافيكم بها لاحقًا. ومع ذلك، أشعر بأنّ للمساهمين الحقَّ في مطالبة أولئك الذين دافعوا عن هذا المشروع بأن يتحمّلوا مسؤوليّة إهمالهم. ولذلك، أقترح أن نطلب استقالة السيّد كلارنس إدينغتون، مستشارنا الاقتصاديّ، الذي أوصى ببناء خطّ سان سيباستيان، والسيّد جول موت، ممثّلنا في مكسيكو سيتي.

جلس الرجال حول الطاولة الممتدّة، يستمعون. لم يكن عليهم التفكير في ما يتعيّن عليهم فعله، بل في ما يجب أن يقولوه للرجال الذين يمثّلونهم. وقد منحَهم خطاب تاجارت ما يحتاجون إليه.

***

عندما عاد تاجارت إلى مكتبه وجد أورين بويل في انتظاره. وما إن أصبحا وحيدَين حتّى تغيّرت طريقة تاجارت. اتّكأ على المكتب في حالة استرخاءٍ، وكانت

ملامح وجهه تشي بشحوب وبياض.

سأله: حسنًا، ما العمل؟

قال بويل وهو باسط يديه بشكل ينمّ عن عجز فادح: لقد تحقّقت من الأمر، يا جيم. كلّ شيء على ما يرام: خسر دانكونيا خمسة عشر مليون دولار من أمواله الخاصّة في تلك المناجم. لا، لم يكن هناك أيّ شيء زائف بخصوص ذلك، إنّه لم يمارس أيّ نوعٍ من الخداع، لقد أسرف من ماله الخاصّ في هذا المشروع وها قد خسره الآن.

ـ حسنًا، ماذا سيفعل حيال ذلك؟

ـ لا علم لي بأمر هذه الخسارة، ولا أحد يعلم أيضًا.

ـ لن يسمح لنفسه بالسرقة، أليس كذلك؟ إنّه ذكي جدًّا، ولعلّ في جعبته حلولًا.

ـ آمل ذلك بالتأكيد.

ـ لقد تفوّق على أمهر تشكيلة من جامعي الأموال على وجه الأرض. هل سينال منه حفنةٌ من السياسيّين بهذا المرسوم؟ لا بدّ أن يكون قد أمسك أشياء كثيرة ضدّهم، وستكون له الغلبة والكلمة الأخيرة، وينبغي علينا أيضًا أن نصطفّ إلى جانبه!

ـ جيم، الأمر يعود إليك. أنت صديقه.

ـ إنّه صديق ملعون! أكره جرأته.

ثمّ ضغط على كبسة زرّ طالبًا سكرتيره. دخل السكرتير وعلامات الريبة والحزن باديةٌ عليه. كان شابًّا، يبدو في الظاهر أنّه تجاوز مرحلة الشباب، بوجهٍ شاحبٍ وسلوكٍ مهذَّبٍ ينمّ عن دماثة أخلاق الفقراء.

ـ ردّ عليه تاجارت بعنفٍ: هل حصلت لي على موعد مع فرانسيسكو دانكونيا؟

ـ لا يا سيّدي.

ـ لعنك الله، ألم أطلب منك أن تُجرِي مكالمة هاتفيّة مع..

ـ لم أستطع الاتّصال به يا سيّدي. لقد حاولت.

ـ حسنًا، حاول مرّة أخرى.

ـ سيّد تاجارت، لم أتمكّن من الحصول على الموعد.

ـ وما السبب؟

ـ لقد رفض ذلك.

ـ هل تعني أنّه رفض مقابلتي؟

ـ نعم، سيّدي، هذا ما أعنيه.

ـ لن يقابلني إذَن؟

ـ لا يا سيّدي، لن يفعل.

ـ هل تحدّثت إليه شخصيًّا؟

ـ لا يا سيّدي، لقد تحدّثت مع سكرتيرته.

ـ وما أخباره؟ فقط انقل لي، ماذا قال؟

تردّد الشابّ وبدا أكثر تعاسة فكرّر تاجرت السؤال: ماذا قال؟

ـ ذكرت سكرتيرته أنّ السيّد دانكونيا قال إنّك مملٌّ ومصدر إزعاج يا سيّد تاجارت.

***

كان الاقتراح الذي وافقوا عليه يعرف باسم «قاعدة مكافحة أكل الكلب للكلب». وعندما صوّتوا لصالحه، جلس أعضاء التحالف الوطنيّ للسكك الحديديّة بقاعة كبيرة في ظلام دامس حتّى وقت متأخّر من مساء يوم خريفيّ، ولم يتبادلوا حتّى النظرات.

لقد كان التحالف الوطنيّ للسكك الحديديّة منظمةً تشكّلت، كما زُعِم، لحماية رفاهية صناعة السكك الحديديّة. وكان من المقرّر تحقيق ذلك بتطوير أساليب

التعاون لغرضٍ مشترك، وأيضًا عن طريق تعهّد كلّ عضو بإخضاع مصالحه الخاصّة لمصالح الصناعة ككلّ، وهي مصالح تتحدّد بأغلبيّة الأصوات، ويتعهّد كلّ عضو بالالتزام بأيّ قرار تتّفق عليه الأغلبيّة.

وقال منظّمو هذا التحالف: «إنّ أعضاء المهنة نفسها أو الصناعة ذاتها يجب أن يلتزموا معًا» وأضافوا: «إنّنا نتقاسم جميعا المشاكل نفسها وكذا المصالح والأعداء. إنّنا نهدر طاقتنا في قتال بعضنا بعضا، بدلا من تقديم جبهة مشتركة للعالم. يمكننا جميعا أن ننمو ونزدهر معًا، إذا تكاتفت جهودنا». فتساءل أحد المشكّكين: «ضدّ من يُنظَّم هذا التحالف؟» وكان الجواب: لماذا؟ هو ليس ضدّ أيّ شخص. ولكن إذا كنت ترغب في تشخيص الموقف بهذه الطريقة، فلِم لا يكون تحالفًا ضدّ الشاحنين أو أرباب التوريد أو أيّ شخص قد يحاول الاستفادة منّا. ضدّ منظّمي أيّ نقابة؟ فقال المتشكّك: لقد كان سؤالي في هذا الموضوع تحديدًا.

وعندما عُرِض قرار «قاعدة مكافحة أكل الكلب للكلب» للتصويت من قبل جميع أعضاء التحالف الوطنيّ للسكك الحديديّة في اجتماعه السنويّ، كانت المرّةَ الأولى التي يأتي فيها ذكر هذه القاعدة في الأماكن العامّة. ولكنّ جميع الأعضاء سمعوا بها؛ وينبغي أن يكون عدد الأصوات كبيرًا. وقد نُوقشت على انفراد لفترة طويلة، وبإلحاح بالغ في الأشهر القليلة الماضية. لقد مثّل الرجال الجالسون في القاعة الكبيرة للاجتماعات رؤساء شركات السكك الحديديّة. لم تعجبهم تلك القاعدة. كانوا يأملون في ألّا تُطرح للتصويت أبدًا. ولكن حين طرحت، صوّتوا لصالحها.

وفي الخطب التي سبقت التصويت لم تذكر أيّ شركة للسكك الحديديّة بالاسم. ولم تتناول الخطب سوى الحديث عن الرفاه العامّ. وقيل إنّه حين كانت الرعاية العامّة مهدّدة بنقص وسائل النقل، كانت شركات السكك الحديديّة يدمّر بعضها بعضًا من خلال المنافسة الشرسة، وفقًا لـ«السياسة الوحشيّة: كلب يأكل كلبًا». وفي حين توجد مناطق موبوءة توقّفت فيها خدمة السكك الحديديّة، توجد في الوقت نفسه مناطق كبيرة تتنافس فيها شركة للسكك الحديديّة أو أكثر على حركة مرور،

وهي لا تكاد تكفي لشركة واحدة فقط. وقيل إنّ هناك فرصًا كبيرة لشركات السكك الحديديّة الأصغر سنّا في المناطق المنكوبة. صحيح أنّ هذه المناطق لا تقدّم حافزًا اقتصاديًّا يذكر في الوقت الحاضر، إلّا أنّ شركات السكك الحديديّة ذات الروح العامّة، كما قيل، ستتعهّد بتوفير النقل للسكّان المكافحين، لأنّ الهدف الرئيسيّ من السكك الحديديّة هو الخدمة العامّة وليس الربح.

وقيل أيضا إنّ شبكات السكك الحديديّة الكبيرة ضروريّة للرفاه العامّ؛ وإنّ انهيار أيّ منها سيكون بمثابة كارثة وطنيّة، وإنّه إذا ما تكبّد أحد هذه الأنظمة خسارة ساحقة في محاولة عامّة للمساهمة في النوايا الحسنة الدوليّة، فمن حقّه الحصول على دعم عامّ لمساعدته في البقاء على قيد الحياة.

لم تُذكَر أيّ شركة للسكك الحديديّة بالاسم. ولكن عندما رفع رئيس الاجتماع يدَه، كإشارة رسميّة إلى أنّهم كانوا على وشك التصويت، نظر الجميع إلى دان كونواي، رئيس فينيكس-دورانغو.

لم يكن هناك سوى خمسة معارضين صوّتوا ضدّ هذا القرار. ولكن عندما أعلن رئيس الجلسة أنّ الإجراء قد مرّ، لم يَعْلُ هتاف، ولا أصوات موافقة، ولا حركة، ولا أيّ شيء سوى صمت رهيب. وحتّى أثناء بلوغ اللحظة الأخيرة، كان كلّ واحد منهم يأمل أن ينقذهم شخص مّا من ذلك.

وُصف قرار «قاعدة مكافحة أكل الكلب للكلب» بأنّه مقياس «للتنظيم الذاتيّ الطوعيّ»، وهو تنظيم يهدف إلى «تطبيق أفضل» للقوانين منذ فترة طويلة من قبل الهيئة التشريعيّة في البلاد. نصّت القاعدة على أنّ أعضاء التحالف الوطنيّ للسكك الحديديّة مُنعوا من الانخراط في ممارسات تُعرف بـ«المنافسة المدمّرة»، ونصّت أيضًا على الترخيص بتشغيل أكثر من خطّ واحد للسكك الحديديّة في المناطق التي أعلنت أنّها محظورة، وأنّ الأولويّة فيها لأقدم شركات السكك الحديديّة التي تعمل هناك حاليًّا، وأنّ الوافدين الجدد إلى هذا المجال، والذين اعتدوا على أراضيها بشكل غير عادل، سيعلّقون العمليّات في غضون تسعة أشهر بعد أمرهم بذلك؛ وأنّه تمّ

تفويض المجلس التنفيذيّ للتحالف الوطني للسكك الحديديّة للبحث، حسب تقديره الخاصّ، في المناطق التي سيتمّ حظرها.

وعندما رفعت الجلسة، عجّل الرجال بالمغادرة. ولم تكن هناك نقاشات خاصّة، ولا أدنى عبث ودّي بين الأصدقاء. وبشكل غير عاديّ أصبحت القاعة الكبرى مهجورةً في وقت قصير. لم يتحدّث أحد إلى دان كونواي أو ينظر إليه.

التقى جيمس تاجرت بأوريل بويل في بهو المبنى. لم يحدّدا موعدًا مسبقًا للقائهما، لكنّ تاجارت رأى شخصيّة ضخمة الحجم واضحة المعالم بقرب الجدار الرخاميّ فحزّر مَن كان قبل أن يرى وجهه. قال بويل بعد أن اقترب أحدهما من الآخر وقد لاحت عليه ابتسامة غير مطمئنة كالمعتاد:

ـ لقد سلّمت أمري. جيم، إنّه دورك الآن.

فردّ عليه تاجرت بوقاحةٍ: لم يكن عليك أن تأتي إلى هنا. لماذا قدمت إلى هنا؟

فأجاب بويل: أوه، أتيت فقط من أجل المتعة.

جلس دان كونواي وحدَه بين صفوف المقاعد الفارغة. كان لا يزال هناك عندما جاءت الخادمة لتنظيف القاعة. وحين أعلت من شأنه، قام بطواعية ومشى بتثاقل نحو الباب. وبمجرّد اقترابه منها في الممرّ، تلمّس جيبه وسلّمها -في صمت وبتواضع لم يسمح له حتّى بالنظر إلى وجهها- ورقةً نقديّة بقيمة خمسة دولارات. لا يبدو أنّه كان يدري بما يفعله؛ لقد تصرّف كما لو كان يعتقد أنّه في مكان مّا يقتضي الكرم قبل المغادرة.

كانت داغني لا تزال في مكتبها عندما دُفِع بابه بقوّة واندفع جيمس تاجرت. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يدخل فيها بتلك الطريقة. لقد بدا وجهه محمومًا.

لم ترَه منذ زمن تأميم خطّ سان سيباستيان. ولم يسع إلى مناقشة هذا الموضوع معها، ولم تقل هي شيئًا عن ذاك القرار. لقد اعتقدت أنّها أثبتت صحّة كلامها ببلاغة واضحة. وهكذا، فأيّ تعليقات أخرى ستكون غير ضروريّة. لقد اختلطت عليها

الأحاسيس، فهي تشعر بأنّها تجامل، وتشفق عليه في الوقت ذاته، وهذا ما منعها من التفوّه بالنتيجة التي يمكن استخلاصها من تلك الأحداث. وأمام كلّ الأسباب وإحقاقًا للحقّ والعدالة، لم يكن أمامه سوى استنتاج واحدٍ يمكن أن يستخلصه. أمّا داغني فقد سمعت عن خطابه أمام مجلس الإدارة، فتجاهلته، مستمتعةً بنظرة ازدرائها؛ فلو كان الأمر يصبّ في صالح خدمة هدفه، مهما يكُن ذاك الهدف، لوجد إنجازاتها تتناسب عندئذٍ مع مصلحته الخاصّة، وإذا لم يكن هناك سبب آخر، فإنّه سيتركها حرّة في تحقيق ما تريد، من الآن فصاعدًا.

ـ هل تعتقدين أنّك الشخص الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ هذه الشركة؟

نظرت إليه بحيرةٍ. لقد كان صوته حادًّا. وقف أمام مكتبها متوتّرًا ومستفزًّا. ثمّ خاطبها بصراخ:

ـ أنت تعتقدين أنّي دمّرت الشركة، أليس كذلك؟ والآن أنت الوحيدة القادرة على إنقاذنا؟ هل تعتقدين أنّه ليس لديّ طريقة للتعويض عن الخسارة المكسيكيّة؟

فسألته بهدوء: ماذا تريد؟

ـ أريد أن أطلعك على بعض الأخبار. هل تتذكّرين اقتراح تحالف شركات السكك الحديديّة الذي يناهض (أكل الكلب للكلب) الذي أخبرتك عنه منذ أشهر؟ لم تعجبك الفكرة. لم تعجبك على الإطلاق.

ـ أذكره جيّدا. وماذا عنه؟

ـ لقد تمّ تمريره.

ـ ما الذي تمّ تمريره؟

ـ قاعدة مكافحة أكل الكلب للكلب. لقد مُرِّر هذا الاقتراح قبل بضع دقائق فقط في الاجتماع. وبعد تسعة أشهر من الآن، لن يكون هناك ذكر لشركة سكّة حديد فينيكس ـ دورانجو في كولورادو!

فوقعت منفضة السجائر الزجاجيّة من فوق مكتبها على الأرض وتحطّمت بسبب

قفزها وغضبها وردّت:

ـ أيّها الأوغاد الفاسدون!

وقف بلا حراك. لقد كان يبتسم.

عرفت أنّها كانت ترتعش، عارية بلا دفاع، وأنّ هذا هو المشهد الذي يستمتع برؤيته، ولكنّها لم تكترث لهذا الأمر. ثمّ رأت ابتسامته، وفجأةً اختفى الغضب الأعمى. لم تشعر بشيء. ظلّت تدرس تلك الابتسامة بفضولٍ باردٍ لا خصوصيّة فيه.

وَقَفَا متواجهَين. وبدا كأنّه ليس خائفًا منها، وهي المرّة الأولى التي يشعر فيها بذلك. كان يحترق. وكان الحدث يعني له شيئًا أكثر بكثير من تدمير منافسٍ. لم يكن انتصارًا على دان كونواي، بل عليها. ولم تكن هي تعرف السبب أو الكيفيّة، لكنّها على يقين بأنّه يعلم.

وفي لحظة خاطفة، اعتقدت أنّ أمرًا مّا هنا أمامها يتعلّق بجيمس تاجارت وبتلك الابتسامة. لقد كان سرًّا لم تشكّ فيه مطلقًا، وكان من المهمّ جدًّا أن تتعلّم فهمه. لكنّ الفكرة كانت مجرّد وميض سرعان ما اختفى.

ثمّ التفتت نحو باب الخزانة وأخذت معطفها.

فانخفض صوت تاجرت، بدا وكأنّه يشعر بخيبة أملٍ وقلق ضعيف، فقال: إلى أين أنت ذاهبة؟

هرعت إلى خارج المكتب دون أن تنبس ببنت شفة.

***

دان، عليك أن تحاربهم. سأساعدك. سأقاتل من أجلك بكلّ ما أوتيت من قوّة.

هزّ دان كونواي رأسه.

ثمّ جلس إلى مكتبه. كان امتداد فضاء الطاولة فارغًا إلّا من نشّافةٍ باهتةٍ أمامه، ومصباحٍ واحد ضعيف مُضاءٍ في زاوية من الغرفة. وكانت داغني قد هرعت مباشرة

إلى مكتب مدينة فينيكس ـ دورانغو. وكان كونواي هناك، ولا يزال جالسًا. ابتسم عند دخولها وقال: إنّه لأمرٌ مضحك، كنت متأكّدا أنّك ستأتين. بدا صوته لطيفًا. لم تكن بينهما معرفة جيّدة، لكنّهما التقيا مرّات عديدةً في كولورادو.

فقال: لا، لا فائدة يرجى منها.

ـ هل تقصد اتّفاقيّة التحالف التي وقّعتها؟ لن تصمد كثيرًا. إنّها عمليّة نزع ملكيّة بحتة. لا توجد محكمة ستؤيّد ذلك. وإذا حاول جيم الاختباء وراء شعار اللصوص المعتادين «الرفاه العامّ»، فسأذهب إلى المنصّة وأقسم أنّ شركة تاجارت العابرة للقارّات لا تستطيع بمفردها التعامل مع كامل حركة المرور بكولورادو. ولو أصدرت أيّ محكمة حكمًا ضدّك، فيمكنك الاستئناف والاستمرار في الاستئناف مرارًا وتكرارًا على مدى السنوات العشر المقبلة.

فقال: نعم، يمكنني... لست متأكّدًا من أنّني سأفوز، لكن يمكنني المحاولة ويمكنني التمسّك بشركة السكك الحديديّة لأطول مدّةٍ، لكن... لا، ما يزعج تفكيري ليست النقاط القانونيّة، فالأمر ليس كذلك، بشكل أو بآخر.

ـ ماذا إذَن؟

ـ لا أريد أن أحارب شركتكم يا داغني.

نظرت إليه متشكّكةً. وكانت تلك هي الجملة الوحيدة التي شعرت بأنّها متأكّدة من كونه لم ينطق بها من قبل؛ فالرجل لا يمكن أن يناقض نفسه وهو في هذه السنّ المتقدّمة.

كان دان كونواي في الخمسين من العمر، وذا وجه عريض متبلّدٍ عنيد لمهندس شحن صارم، أكثر من كونه وجه رئيس شركة. كان يملك ملامح وجه مقاتلٍ، ببشرة سمراء يافعة وشعر رماديّ. استولى على شركة صغيرة مهتزّة للسكك الحديديّة في ولاية أريزونا. كان صافي إيراداتها حينما استلمها أقلّ بكثير من دَخْلِ متجر بقالة ناجحٍ. لكنّه أحسن بناءها فحوّلها إلى أفضل شركة للسكك الحديديّة في الجنوب

الغربيّ. كان قليل الكلام، ونادرًا ما يقرأ الكتب، ولم يذهب إلى الكلّيّة مطلقًا. وكلّ ما أحاط به من مساعٍ بشريّة، باستثناء مسعًى واحد، تركه دون اهتمامٍ ولم يبالِ به: فهو لم يحظَ بتلك اللمسةِ التي تعرف عادة بين الناس بالثقافة. لكنّه كانٍ يعلم الكثير عن السكك الحديديّة.

ـ لماذا لا تريد القتال؟

ـ لأنّ لهم الحقَّ في فعل ذلك.

ـ دان، هل فقدت صوابك؟

ردّ بصوت خالٍ من أيّ نبرةٍ: لم أتراجع قطّ عن كلمة أصدرتها من قبل في حياتي، لا يهمّني ما ستقرّره المحاكم. لقد وعدت بالانصياع لقرارات الأغلبيّة ويجب عليّ أن أذعن لذلك.

ـ هل كنت تتوقّع من الأغلبيّة أن تفعل هذا بك؟

ـ لا.

كان وجهه المتبلّد يحمل نوعًا من التشنّج الخافت. لقد كان يتحدّث بهدوء، من دون النظر إليها، الدهشة العاجزة لا تزال خاما بداخله:

ـ لا، لم أكن أتوقّع ذلك. سمعتهم يتحدّثون في الأمر لأكثر من عام، لكنّني لم أصدّق ذلك. حتّى عندما كانوا يصوّتون، لم أصدّق.

ـ ماذا كنت تتوقّع؟

ـ لقد فكّرت... قالوا إنّ علينا جميعًا الاصطفاف من أجل الصالح العامّ، ظننتُ أنّ كلّ ما فعلته هناك في كولورادو كان جيّدا للجميع.

ـ أوه، اللعنة، كم أنت أحمق! ألا ترى أنّك تُعاقَب بسبب عملك الجيّد؟

قال بعد أن رفع رأسه: لا أفهم ذلك. لكنّني لا أرى مخرجًا.

ـ هل وعدتهم بالموافقة على تدمير نفسك؟

ـ لقد صارت الخيارات شبه معدومة.

ـ ماذا تعني؟

ـ داغني، إنّ العالم يعيش اليوم حالةً رهيبةً. أنا لا أعلم ما هو الخطأ في ذلك، ولكن يوجد خطبٌ مّا خاطئ جدًّا. يجب أن يَجتمع الناس معًا بحثا عن مخرج. ولكن من ذا الذي في وسعه أن يقرّر أيّ طريق يجب أن نسلك، إلّا إذا كان الأغلبيّة؟ أعتقد أنّ هذه هي الطريقة العادلة الوحيدة لاتّخاذ أيّ قرار، وأنا لا أرى أيّ حالة أخرى. لا بدّ من التضحية بشخص مّا. وإذ كان هذا الشخص هو أنا، فإنّني لا أملك الحقّ في الشكوى والاعتراض. هذا رأي الأغلبيّة. ويجب على الناس أن يتّحدوا.

بذلت داغني جهدا لتتحدّث بهدوء، لأنّها كانت ترتجف من الغضب:

إذا كان هذا هو ثمن البقاء معًا، فسأكون ملعونةً إذا أردت العيش على الأرض نفسها مع البشر! وإذا كان بقيّتهم لا يستطيعون البقاء إلّا بتدميرنا، فلماذا نتمنّى لهم البقاء على قيد الحياة؟ لا شيء يمكن أن يجعل التضحية بالنفس أمرًا وجيهًا. ليس لهم الحقّ في تحويل البشر إلى أكباش فداء. إنّ تدمير الأفضل ليس فعلا أخلاقيًّا بالمرّة. لا يمكن معاقبة المرء لأنّه صالحٌ وناجحٌ. وإذا كان هذا صحيحًا، فمن الأفضل أن نبدأ بذبح بعضنا بعضا، لأنّه لا يوجد أيّ حقّ على الإطلاق في العالم!

لم يجبها. بل نظر إليها بلا حول أو قوّة.

سألته: إذا كان هذا هو العالم، فكيف يمكننا أن نعيش فيه؟

همس: أنا لا أعلم ...

ـ دان، هل تعتقد حقّا أنّ العالم كذلك؟ فكّر في كلّ الحقائق، هل تعتقد أنّ هذا الأمر صحيحٌ؟

أجاب مغمض العينين: لا.

ثمّ نظر إليها فرأت في ملامحه، لأوّل مرّة، نظرةَ حُرقةٍ وتعذيب.

ـ هذا ما كنت أحاول فهمه وأنا جالسةٌ هنا. أعلم أنّ عليّ الاعتقاد بصحّة الأمر، ولكن لا أستطيع. كما لو أنَّ لساني لا يطاوعني على الكلام. وأظلّ أرى كلّ رابط بمسار السكك هناك، وكلّ إشارة ضوء، وكلّ جسر، وكلّ ليلة قضّيتها هناك.

قال متحسّرًا: يا إلهي، إنّه ظلم لعين جدًّا!

ـ دان، يجب أن تقاتل.

رفع رأسه وكانت عيناه خاليةً من المعنى، ثمّ قال: لا. سيكون ذلك خطأ. أنا مجرّد رجل أنانيّ.

ـ اللعنة على تلك الكرش الفاسدة! أنت تعرف حلولًا أفضل من تلك!

أجابها بصوت متعب جدًّا: لا أعلم... كنت جالسًا هنا، أحاول التفكير في الأمر... لقد اختلطت عليّ الأمور... لا أعتقد أنّني ما أزال أكترث لأيّ شيء.

أدركت فجأةً أنّ كلّ الكلمات الأخرى كانت بلا جدوى وأنّ دان كونواي لن يُبدِي أيّ ردّ فعل مجدّدًا. لم تكن تعلم ما الذي جعلها متأكّدةً من أمره فخاطبته متسائلة: لم تستسلم أبدًا أثناء مواجهتك لأيّ معركة من قبل؟

أجابها بذهول هادئ وغير مبالٍ: لا، أعتقد أنّني لم... لقد واجهت العواصف والفيضانات والانزلاقات الصخريّة وتصدّعات السكك الحديديّة... وخبرت سُبُل مواجهة ذلك، وأحبّ المواجهة ... لكن هذه المعركة لا أستطيع خوضها.

ـ لماذا؟

ـ لا أعلم. من يدري لماذا آل العالم إلى هذا الوضع؟ أوه، ومن هو جون جالت؟

ـ ردّت بفزع: ماذا ستفعل؟

ـ لا أدري، لا أعلم... أعني...

غير أنّها توقّفت عن الكلام، لكنّه كان على بيّنة ممّا تعنيه، فقال دون أن يكون مقتنعًا:

ـ أوه، يوجد دائمًا شيء يجب فعله...أعتقد أنّهم سيعلنون الحظر فقط على ولايتَي كولورادو ونيو مكسيكو. وأنا مازلت أسير خطأً في أريزونا... إنّني لن أتغيّر، سأكون كما كنت عليه قبل عشرين عامًا... حسنًا، سيشغلني ذلك. أنا متعب يا داغني. لم أتفطّن إلى ذلك بسرعةٍ، لكن أعتقد أنّني متعب فعلًا.

لم يكن بوسعها قول شيء. فاسترسل في الكلام بالصوت نفسه ودون مبالاة:

ـ لن أبني خطًّا في إحدى مناطقهم الموبوءة. هذا ما وهبوني إيّاه كجائزة لإرضاء الخواطر، ولكن أعتقد أنّه مجرّد كلام. لا يمكنك بناء خطّ للسكك الحديديّة حيث لا يوجد شيء لمئات من الأميال سوى مزارعين عاجزين عن تنمية حقولهم بما يكفي لإطعام أنفسهم. لا يمكنك أن تبني طريقًا ثمّ تسعى إلى أن يعوّضك ماديًّا. وإذا لم تَسْعَ إلى ذلك، فمن سيفعل؟ لا يبدو الأمر لي معقولًا. هم فقط لا يدركون ما كانوا يقولون.

ـ أوه، إلى الجحيم، هم ومناطقهم الفاسدة الموبوءة! أنا أفكّر فيك.

الحقُّ أنّها كانت ستقول: ماذا ستفعل بنفسك؟

ـ أنا لا أعلم... حسنًا، ثمّة أشياء كثيرة لم أقم بها لضيق الوقت، مثل صيد السمك. لطالما أحببت الصيد. ربّما سأبدأ بقراءة الكتب، التي رغبت دومًا في قراءتها. أعتقد أنّني سآخذ الأمر بسهولة الآن. أظنّ أنّني سأذهب للصيد. توجد بعض الأماكن الجميلة في ولاية أريزونا، أماكن هادئة ولا تحتاج فيها إلى رؤية إنسان...

وأضاف بعد أن نظر إلى وجهها:

– انسي هذا الأمر. لماذا يجب عليك أن تقلقي بشأني؟

قالت فجأة: الأمر لا يتعلّق بك، إنّه... دان، ليتَك تعلم أنّني لا أفعل هذا من أجلك، أنا أريد فقط أن أمدّ لك يد العون في معاركك.

قال بعد أن رسم ابتسامة خافتة: أعلم ذلك.

ـ أنا لا أفعل هذا الأمر من باب الشفقة أو الصدقة أو غيرها من الأسباب. انظر يا

دان، كنت أنوي أن أهبَك معركة حياتك هناك في كولورادو. كنت أنوي جَعْلَك تُوقِف أعمالك هنا والضغطَ عليك للخروج من أسوار هذه الجدران، واقتيادَك إلى هناك إذا لزم الأمر.

ثمّ ضحكت بلطف؛ لقد كانت ابتسامة تقدير.

ردّ عليها: لقد حاولت وعلى نحو جيّدٍ القيام بذلك.

ـ فقط لم أعتقد أنّ هذا الأمر سيكون ضروريًّا. ظننتُ أنّ هناك مساحة كافية لكلّ منّا.

ـ نعم، ثمّة بالفعل مساحة.

ـ ومع ذلك، إذا اكتشفت أنّها غير موجودة فسأكون عندئذ قد قاتلتك. وإذا أردت أن أجعل طريقي أفضل من طريقك، فسأُفسد طريقك ولن أعير اهتمامًا لما سيحلّ بك. لكن هذا... دان، لا أعتقد أنّني أريد إلقاء نظرةٍ على خطّنا في ريونورتي الآن. أنا... يا إلهي، دان، لا أريد أن أكون لصّةً!

ـ نظر إليها بصمتٍ للحظة. كانت نظرة غريبة، كما لو أنّها أُرسِلَت من مسافة بعيدة. ثمّ قال بهدوءٍ:

ـ أيّتها الفتاة! كان يجب عليك أن تولدي قبل حوالي مائة عامٍ من الآن. عندها فقط كان يمكن أن تحظَي بفرصة.

ـ فليذهب كلّ ذلك إلى الجحيم. أنا أريد أن أصنع فرصتي الخاصّة.

ـ هذا ما كنت أرغب فيه وأنا في مثل عمرك.

ـ لقد نجحت.

ـ هل نجحت فعلا؟

جلست بثبات وتسمّرت، حتّى أحسّت فجأة أنّها لم تعد قادرة على الحركة. أمّا هو فجلس باستقامة وقال بحدّةٍ، كما لو أنّه سيصدر أوامر:

ـ من الأفضل لك أن تهتمّي بخطّ ريونورتي الخاصّ بك، ومن الأفضل أن تفعلي ذلك بسرعةٍ. جهّزيه قبل خروجي من العمل، لأنّك إن لم تفعلي ذلك، فستكون هذه نهاية إليس وايت ونهاية البقيّة هناك، وهم أفضل ما بقي في هذه البلاد. لا يمكنك ترك ذلك يحدث. كلّ شيء يقع على كتفيك الآن. ما من فائدة تُرجَى من محاولة شرح هذا الأمر لأخيك، لأنّه سيزداد استعصاء عليك في غياب تنافسي معه هناك. ولكن أنا وأنت نعلم ذلك. لذا اذهبي نحو ذلك الخطّ. فمهما فعلت، لن تكوني لصّةً. لا يمكن لأيّ سارق تشغيل خطّ سكة حديديّة في ذلك الجزء من البلاد والاستمرار فيه. ومهما فعلت هناك، فستربحيه. أخوك، الذي يشبه القمل، لا ينبغي أن تحسبي له حسابًا بأيّ حال من الأحوال. الأمر متروك لك الآن.

جلست تنظر إليه، متسائلة: ما الذي هزم رجلًا من هذا النوع؛ وكانت تعلم أنّ مَن هزمه لم يكن جيمس تاجارت. رأته ينظر إليها، كما لو أنّه يصارع علامة استفهام خاصّة به. ثمّ أطلق ابتسامة كانت ترى فيها أمارات الحزن والشفقة.

قال: من الأفضل لك ألّا تشعري بالأسف من أجلي. أعتقد أنّك وحدكِ من سيواجه ظروفًا شاقّة في المستقبل. وأعتقد أنّك ستتحسّنين أكثر ممّا أنت عليه.

***

اتّصلت داغني بالمطاحن وحدّدت موعدًا للقاء هانك ريردن بعد ظهر ذلك اليوم. وما إن وضعت سمّاعة الهاتف حتّى انحنت على خرائط خطّ ريونورتيي التي تنتشر في كلّ مكان داخل مكتبها، إلى أن فتح الباب. بدت مذهولة، لأنّها لم تكن تتوقّع أن يفتح أيّ شخص باب مكتبها دون إذْن مسبق.

كان الرجل الذي دخل دون استئذان شخصًا غريبًا. هو شابّ طويل القامة، بعينين داكنتين، وشعر أشعث. يرتدي ملابس باهظة الثمن دون أن يعيرها أدنى اهتمام، أمّا ملامح وجهه فتَشي بالعنف.

قال: أنا إليس وايت.

فقفزت على نحو غير إراديّ. لقد فهمت لماذا لم يوقفه أحدٌ أو يتمكّن من إيقافه بالمكتب الخارجيّ.

قالت مبتسمة: اجلس يا سيّد وايت.

أجابها وقد غابت عن محيّاه الابتسامة: ليس ضروريّا. أنا لا أعقد مؤتمرات طويلة.

جلست ببطء، وأخذت عن قصدٍ بعض الوقت، ثمّ انحنت إلى الوراء، وأخذت تنظر إليه.

سألته: حسنا، ما خطبك؟

ـ جئت للقائك، لأنّني أدرك أنّك الشخص العاقل الوحيد في هذه الجماعة الفاسدة.

ـ ما الخدمة التي يمكنني أن أسديها لحضرتك؟

تحدّث بصراحة، ممّا أضفى وضوحًا غير عاديّ على كلّ جملة: هل بوسعك الاستماع إلى إنذار نهائيّ. بعد تسعة أشهر من الآن، أتوقّع أن تدير شركة تاجارت العابرة للقارّات القطارات في كولورادو، لأنّ جميع أعمالي ترتبط بتشغيل ذلك الخطّ. إذا كان قومك قد ابتدعوا حيلةً زائفة لتحديد أعمال شركة فينيكس ـ دورانغو بغرض إنقاذك من ضرورة الجهد والعناء، فإنّ حضوري هنا هو لمنحك إشعارًا بأنّك لن تفلتي من ذلك. لم أتقدّم بأيّ طلبات لكم، لأنّني على يقين تامّ من أنّكم لا تستطيعون أن تقدّموا لي الخدمات التي أحتاج إليها. لقد عثرت على شخص يمكنني أن أعوّل عليه. الآن أنتم ترغبون في إجباري على التعامل معكم. إنّكم تتوقّعون أن تُملوا شروطكم عليّ دون أن تتركوا لي حرّيّة الاختيار. ثمّ إنّكم تنتظرون منّي أن أقلّل من مستوى الإنتاج حتّى يتلاءم مع قدراتكم البسيطة. لقد جئت لأقول لك إنّكم أسأتم التقدير وأخطأتم في حسابتكم.

خاطبته بهدوءٍ وعناء: هل تسمح لي بإطلاعك على ما أنوي فِعله في كولورادو؟

ـ لا، أنا لا تهمّني المناقشات والنوايا. كلّ ما أتوقّع أن نفتح فيه نقاشًا هو موضوع

النقل. ماذا ستفعلين لتوفيره؟ وكيف ستفعلين ذلك؟ هذه مشكلتك وليست مشكلتي. أنا جئت فقط لأحذّرك. فكلّ من يرغب في التعامل معي، يجب أن يفعل ذلك وفقًا لشروطي وإلّا فلا داعي للتعامل معي أصلًا. أنا لا أتعامل مع أناس تعوزهم الكفاءة. فإذا كنتم تتوقّعون كسب المال عن طريق شحن النفط الذي أستخرجه، فعليكم أن تكونوا أكفاء في عملكم مثلما أتقن عملي. أتمنّى أن يُفهَم هذا الأمر.

قالت بهدوء: أنا أفهم ذلك.

ـ لن أهدر مزيدًا من الوقت لأؤكّد لكم ضرورة أَخذ هذا الإنذار على محمل الجدّ. إذا كنت ذكيّة وتريدين المحافظة على عمل هذه المؤسّسة الفاسدة فإنّه ينبغي أن تكوني أيضًا ذكيّة في الحكم بنفسك على ما أقول. كلانا نعلم أنّه إذا كانت شركة تاجارت العابرة للقارّات ستدير القطارات في كولورادو مثلما كانت تفعل قبل خمس سنوات، فإنّ ذلك سيدمّرني. أعلم أنّ هذا ما يخطّط له قومك. إنّكم تخطّطون لافتراسي في انتظار ضحيّة أخرى. هذه هي سياسة معظم البشريّة اليوم. لذا فهذا هو إنذاري النهائيّ: أعلم أنّ في وسعكم الآن تدميري؛ ربّما يتوجّب عليّ أن أنصرف. ولكن إذا انصرفت وانتهى أمري، فسأنتقم منكم جميعًا.

أحسّت في مكان مّا بداخلها، إثر وقع اللوم والجلد، انتشارَ نقطة صغيرة من الألم، حارّة مثل ألم الاحتراق. وودّت أن تخبره بالسنوات التي قضّتها في البحث عن رجال مثله لكي يعملوا معها. لقد أرادت أن تخبره بأنّ أعداءه هم أعداؤها، وأنّهما يخوضان المعركة ذاتها. ثمّ ودّت أن تبكي وتشتكي إليه: أنا لست واحدة منهم! لكنّها كانت تعلم أنّها غير قادرة على ذلك، فقالت إنّها تتحمّل المسؤوليّة عن شركة تاجارت العابرة للقارّات وعن كلّ ما فُعِل باسمها؛ لا تملك الآن الحقّ في إيجاد تبريرات لنفسها.

جلست باستقامةٍ، وكانت نظراتها الثاقبة مثل نظراته تحمل الثبات نفسه، ثمّ أجابته بإنصاف: سيّد وايت، سوف تتحصّل على وسائل النقل التي تحتاج إليها.

رأت في تقاسيم وجهه تلميحًا خافتًا ينمّ عن دهشة. فليس هذا الجواب هو ما كان ينتظره. لعلّ ما أدهش وايت هو الكلام الذي تتفوّه به. إنّها لم تُظهِر أيّ دفاع، ولم تَسُق أيّ أعذار. كان يتملّى في ملامحها بصمتٍ قبل أن يقول بصوت أقلّ حدّة:

ـ إذن كلّ شيء على ما يرام. شكرًا. أتمنّى لك يومًا موفّقًا.

فطأطأت رأسها. أمّا هو فانحنى وغادر المكتب.

***

ـ هذه هي تفاصيل القصّة، يا هانك، وهذا كلّ ما في الأمر. كنت قد وضعت جدولًا زمنيًّا. من المستحيل أن نكمل خطّ ريونورتيي في اثني عشر شهرًا. لكن يجب الآن أن أنجز ذلك في تسعة أشهر فقط. فبعد أن كان عليك أن توفّر لنا القطار والسكك الحديديّة بعد انقضاء سنة واحدة، هل يمكنك أن توفّره لنا في غضون تسعة أشهر فقط؟ إذا كانت هناك أيّ طريقة إنسانيّة لفعل ذلك، فلا تتردّد وافعل. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فسأتدبّر بعض الوسائل الأخرى التي قد تساعد في إنهاء ذلك الأمر.

جلس ريردن خلف مكتبه. وكانت عيناه الزرقاوان الباردتان تقطعان الفضاء أفقيًّا عبر تقاسيم وجهه المتعب. وظلّت نظرة عينيه أفقيّةً، غير مبالية ونصف مغلقة؛ فقال بإنصاف، من غير تأكيد:

ـ سأفعل ذلك.

اتّكأت داغني مرّة أخرى على كرسيّها. كانت تلك الجملة القصيرة بمثابة الصدمة لا لمجرّد التخفيف: بل هو الإدراك المفاجئ بأنّه لا توجد حاجة إلى أيّ شيء آخر لضمان تحقيق ذلك؛ لم تكن بحاجة إلى براهين، أو إلى أسئلة، أو تفسيرات. فأكثر المشاكل تعقيدًا يمكن حلّها بأمانٍ من خلال ثلاثة مقاطع صوتيّة فقط تُنطَق بوضوح من قبل رجل يعرف ما كان يقوله.

ـ خاطبها صوته الساخر: لا تتظاهري بأنّك مرتاحة. فالأمر لم يتوضّح بعدُ.

كانت عيناه الضيّقتان تراقبانها بابتسامة غير كاشفة، ثمّ أضاف:

ـ أظنّ أنّني قادر على توفير طلبيّة شركة تاجارت العابرة للقارّات.

ـ أنت تدرك ذلك، على أيّة حال.

ـ سألبّي طلبكم في الوقت المحدّد. لكنّك ستدفعين فاتورةً إضافيّةً ثمنًا لذلك.

ـ أتوقّع ذلك. كم؟

ـ عشرون دولارًا إضافيّة للطن الواحد على حساب رصيدكم مقابل تسليم الطلبيّة وفقا لما سنتّفق عليه بعد اليوم.

يا هانك، ثمن مشجّع جدّا، هل هذا أفضل سعر يمكنك عرضه؟

ـ لا. لكن هذا هو المبلغ الذي سأحصل عليه. يمكنني أن أستغلّ ظروفكم وأطلب ضعف هذا المبلغ، وأنا على يقين تامّ من أنّك ستدفعين.

ـ نعم، أعلم ذلك. ويمكنك ذلك. لكنّك لن تفعل.

ـ لماذا أنت متأكّدة من أنّني لن أفعل؟

ـ لأنّك بحاجة إلى بناء خطّ ريونورتيي. إنّه أوّل عرض لمعدن ريردن يُقدَّم لك.

قال بعد أن أطلق ابتسامة باهتة: هذا صحيح. أحبّ التعامل مع شخصٍ واقعيّ ليست لديه أوهام الحصول على أيّ امتيازات أو فضائل.

ـ هل تعلم ما الذي يجعلني أشعر بالارتياح في التعامل معك؟

ـ ما سبب هذا الارتياح؟

ـ السبب هو إدراكي أنّني أتعامل، لأوّل مرّة في حياتي، مع شخص لا يتظاهر بأنّه يقدّم حسناتٍ.

ابتسم، ولكنّ ابتسامته كانت من النوع الواضح الآن: إنّها تنمّ عن استمتاع.

سألها: يبدو أنّك دائمًا تعالجين الأمور بصراحة وانفتاح، أليس كذلك؟

ـ لم ألاحظ البتّة أنّك تفعل خلافَ هذا.

ـ اعتقدت أنّني الوحيد الذي يستطيع فعل ذلك.

ـ أنا لم أتحطّم بعدُ بهذا المعنى، يا هانك.

ـ أعتقد أنّني سأحطّمك يومًا مّا بهذا المعنى.

ـ لماذا؟

ـ لطالما أردت ذلك.

ـ ألا تملكين ما يكفي من الجبناء من حولك؟

ـ إطلاقًا.. أنت الاستثناء الوحيد.

ـ أراك تعتقدين أنّني ألهث وراء الأرباح على حساب حالة الطوارئ التي تعانين منها؟

ـ بالتأكيد. أنا لست حمقاء. لا أعتقد أنّك طيّب جدّا لتدير مجال الأعمال التجاريّة من أجل توفير راحتي.

ألا تتمنّين لو كنت كذلك؟

ـ أنا لا أتسوّل أحدًا، يا هانك.

ـ ألن تواجهي صعوبة في الدفع؟

ـ إنّها مشكلتي لا مشكلتك. أريد تلك السكّة الحديديّة.

ـ بعشرين دولارا إضافيّة للطن الواحد؟

ـ حسنا، يا هانك، ستحظى بما تطلب.

ـ حسنًا، لا بأس. سوف تحصلين على الطلبيّة. قد أحصل على أرباحي الباهظة، وقد تفلس شركة تاجارت العابرة للقارّات قبل أن أجمعها.

ـ إذا لم أحصل على هذا الخطّ الذي سيتمّ بناؤه في تسعة أشهر، فإنّ شركة تاجارت

العابرة للقارّات ستفلس فعلًا.

ـ لن تفلس أبدًا، مادمتِ أنت من يديره.

حين لا يبتسم يبدو وجهه ميّتًا، وحدَهما عيناه تظلّان على قيد الحياة، تبقيان نشطتين على الرغم من بعض البرود الذي يعتريهما، ممّا ينمّ عن وضوح في الرؤية وصفاء الذهن.

قال: لقد بذلوا قصارى جهدهم لكي يصعّبوا الأمر عليك، أليس كذلك؟

ـ نعم. كنت أعتمد على خطّ كولورادو لإنقاذ نظام شركة تاجارت. الأمر متروك لي الآن لإنقاذه. بعد تسعة أشهر من الآن، دان كونواي سيغلق خطّ سككه الحديديّة. إذا جهز خطّي، فلن تكون هناك جدوى لإنهائه. لا يمكنك ترك هؤلاء الرجال دون وسائل نقل ليومٍ واحد، أو لأسبوع أو شهر. وبالمعدّل الذي كانوا يتطوّرون وفقه، لا يمكنك أن تعطّلَهم. ومن ثمّ، تتوقّع منهم أن يستمرّوا. إنّ الأمر مثل صرير الفرامل على محرّك يسير بسرعة مائتي ميل في الساعة.

ـ أعلم ذلك.

ـ يمكنني تشغيل سكّة حديديّة جيّدة. غير أنّي لا أستطيع تشغيلها عبر قارّة مليئة بحاصدي الأسهم الذين لا يجدون نفعًا حتّى في زراعة اللفت بنجاحٍ. يجب أن يكون لديّ رجال مثل إليس وايت لإنتاج شيء يملأ القطارات التي أديرها، لذا يجب أن أمنحه قطارًا ومسارًا بعد تسعة أشهر من الآن، حتّى لو كلّفني فعلُ ذلك تفجيرَ كلينا في الجحيم!

قال مبتسمًا: أنت متحمّسة وبقوّة لهذا الموضوع، أليس كذلك؟

ـ وماذا عنك، ألست متحمّسًا أيضًا؟

تفادى الردّ عليها، منشغلًا بالحفاظ على الابتسامة.

ـ سألت بغضبٍ: ألست قلقًا بشأن مشروعي هذا؟

ـ لا.

ـ إذَن أنت لا تدرك ما يعنيه؟

ـ أدرك أنّني سأجهّز قطار السكك الحديديّة وأنّك ستحصلين على كلّ شيء في غضون تسعة أشهر.

ابتسمت، ثمّ استرخت بعد أن وخزها الإرهاق الذي كان يخالطه إحساسٌ بالذنب.

قالت: نعم. وأنا أعلم أنّنا سننجز ذلك. وأعلم أيضًا أنّه لا طائل من الغضب على أناسٍ مثل أخي جيم وأصدقائه. ليس لدينا أيّ وقت لذلك. أوّلًا، يجب عليّ أن أبطل ما قاموا به ثمّ بعد ذلك...

لكنّها توقّفت متسائلةً، ثم هزّت رأسها وتجاهلت الأمر وأضافت:

ـ مستقبلًا، لن يهمّني أمرهم في شيء.

ـ هذا صحيحٌ. لن يهمّك أمرهم في شيء. عندما سمعت عن ذلك الأمر، الذي أطلقوا عليه (مكافحة أكل الكلب للكلب) شعرت بالغثيان. لكن لا تقلقي بشأن أولئك الأوغاد الملعونين.

لقد بدت الكلمتان عنيفتَين بشكلٍ صادمٍ، لأنّ وجهه وصوته ظلّا هادئين.

أضاف قائلًا: أنا وأنت سنكون دائمًا هناك لإنقاذ البلاد من عواقب أفعالهم.

نهض مسرعًا في اتّجاه المكتب، وقال:

ـ خطّ كولورادو لن يتوقّف. سوف تنتشلينه من الوقوع. ثمّ سيعود دان كونواي وآخرون. كلّ هذا الجنون مؤقّتٌ ولا يمكن أن يدوم. إنّه ضرب من الخبل، لذا عليه أن يهزم نفسه بنفسه. سيتعيّن علينا أنا وأنت العملُ بجدٍّ أكثر لبعض الوقت، هذا كلّ ما في الأمر.

ظلّت تراقب خياله الطويل وهو يتحرّك في أرجاء المكتب. وكان المكتب يناسبه؛

فهو لا يحتوي على شيء سوى قطعٍ قليلة من الأثاث التي يحتاج إليها، وقد رُتّبت كلّها ببساطةٍ ويُسرٍ لتحقيق غرضها الأساسيّ، وكانت كلّها مكلفة جدًّا من حيث نوعيّة الموادّ التي صُنعت منها ومهارة التصميم. بدت القاعة مثل محرّكٍ، ذلك المحرّك الذي يوضع داخل صندوق زجاجيّ من النوافذ العريضة. لكنّها انتبهت إلى تفصيل واحدٍ مذهل: المزهريّة الرابضة فوق خزانة الملفّات، وقد قُدّت من حجر اليشم. كانت المزهريّة مصنوعة من حجر أخضر داكنٍ صلبٍ منحوت وفق أسطح عاديّة. أمّا مادّة منحنياته المصقولة على نحوٍ سلس فكانت تثير رغبةً لا تُقاوَم في لَمسِها. بدا الأمر مذهلًا في ذلك المكتب، متنافرًا مع قسوة ما تبقّى في المكان: كانت لمسة اشتهاءٍ.

قال: كولورادو مكان عظيم. سيكون المكان الأعظم في البلاد كلّها. لست متأكّدًا من أنّني قلق بشأن ذلك؟ وقد أصبحت تلك الولاية أحد أفضل زبائني، ومتى كان عندك بعض الوقت للاطّلاع على تقارير حركة الشحن الخاصّة بك فذاك أمرٌ يجب أن تعلميه.

ـ أنا أعلم ذلك. لقد قرأتها.

ـ كنت أفكّر في بناء مصنع هناك في غضون سنوات قليلة، كي أوفّر لهم رسوم الشحن الخاصّة بك.

أضاف بعد أن حدّق في ملامحها:

إذا فعلت ذلك فإنّك ستفقدين الكثير من أموال شحن الصلب.

ـ امضِ قُدُمًا في مشروعك ولا تهتمّ. سأكون راضية عن حمل إمداداتك الخاصّة، وتمويلات عمّالك، وشحن المصانع التي ستتبعك إلى هناك، وربّما لن يكون أمامي متّسع من الوقت لأشعر أنّني فقدت نقل الصلب الخاصّ بك... ما السبب الذي يجعلك تضحك؟

ـ إنّه أمر رائع.

ـ ما الرائع في الأمر؟

ـ هو أنّك لا تتفاعلين مع الأمورِ كما يفعل جميع الناس في هذا الزمان.

ـ ومع ذلك، يجب أن أعترف بأنّكَ أهمّ شاحن يمثّل شركة تاجرت العابرة للقارّات في الوقت الراهن.

ـ ألا تعتقدين أنّني أعرف ذلك؟

ـ لذلك لا أستطيع أن أفهم لماذا جيم...

توقّفت عن الكلام، فأتمّ ما كانت تودّ قوله:

ـ يبذل قصارى جهده لإيذاء أعمالي؟ لأنّ جيم أحمق.

ـ إنّه كذلك. لكنّ الأمر أكثر من هذا بكثيرٍ. ثمّة شيء أسوأ من الغباء بخصوص هذا الموضوع.

ـ لا تضيّعي وقتك في محاولة معرفته. دعه يبصق. إنّه لا يشكّل خطرًا على أحدٍ. أمثال جيم تاجارت خلقوا فقط لإرباك العالم.

ـ نعم، أوافقك الرأي.

ـ بالمناسبة، ماذا كنت ستفعلين لو قلت إنّني لا أستطيع تسليم القضبان الخاصّة بك في أسرع وقتٍ ممكنٍ؟

ـ كنت سأستنزف بعض الخطوط الجانبيّة أو أغلق بعض الخطوط الفرعيّة، وكنت سأستخدم كلّ السكك الحديديّة لإنهاء مسار ريونورتيي في الوقت المحدّد.

أخذ هانك في الضحك، ثمّ قال:

ـ وهذا ما يجعلني لا أقلق بشأن مصير شركة تاجارت العابرة للقارّات. مادمت أعمل، فلن تضطرّي إطلاقا إلى الحصول على السكك الحديديّة من الخطوط الفرعيّة.

أحسّت فجأة أنّها أخطأت حين اعتقدت أنّه يفتقر إلى العاطفة، لقد كانت النغمة الخفيّة لطريقته في الكلام هي نغمة الاستمتاع. أدركت أنّها تشعر دومًا بالاسترخاء الخفيف أثناء حضوره وأنّه يشاركها ذلك. كان الرجلَ الوحيد الذي تعرفه والذي يمكنها التحدّث معه دون إجهاد أو عناءٍ. وكانت تعتقد أنّ هذا هو العقل الذي يستحقّ

الاحترام، والخصم الذي يستحقّ المهادنة. ومع ذلك، كانت تشعر دومًا بأنّ هناك حواجز تقف بينهما. لا يمكن إطلاقا الوصول إلى ما يستلقي في أغواره السحيقة.

توقّف عند النافذة ينظر إلى الخارج. ثمّ سألها:

ـ هل تعلمين أنّ أوّل حمولةٍ من السكك الحديديّة ستسلّم إليك اليوم؟

ـ بالطبع، أعلم بذلك.

ـ تعالي إلى هنا.

اقتربت منه فأشار إليها بصمت نحو شيء في الخارج. فرأت على بعد مسافة كبيرة، وراء هياكل الطاحونة، سلسلةً من عربات السكك الحديديّة تنتظر في مسار جانبيّ، وجسرَ رافعةٍ علويّة قطع السماء فوقها. كانت الرافعة تتحرّك وبها مغناطيس ضخم يرفع حمولة من القضبان ملتصقة بقرصٍ بفضل قوّة الاحتكاك. لم يكن هناك أيّ أثر للشمس بسبب انتشار الغيوم الرماديّة، ومع ذلك لمعت القضبان، كما لو أنّ المعدن خطف النور من الفضاء. كان المعدن أزرق يميل إلى الخضرة. توقّفت السلسلة العظيمة فوق سيّارةٍ، ونزلت، واهتزّت في تشنّج قصير وتركت القضبان تنزل في السيّارة. ثمّ انتقلت الرافعة مرّةً أخرى في لامبالاةٍ مهيبةٍ؛ وبدت كأنّها رسم عملاق لنظريّة هندسيّة تتحرّك فوق الرجال والأرض.

وقفَا عند النافذة، يراقبان، عن قصدٍ المشهدَ بصمت. لم تتحدّث، حتّى جاءت حمولة أخرى من المعدن الأخضر والأزرق تتحرّك عبر السماء. ثمّ تفوّهت بالكلمات الأولى، غير أنّها لم تكن حول السكك الحديديّة أو المسار أو أمر الإيفاء بالطلبيّة في الوقت المحدّد. قالت، كما لو أنّها كانت تحيي ظاهرة جديدة في الطبيعة:

ـ معدن ريردن ...

لقد لاحظ ذلك، لكنّه لم يقل شيئًا. نظر إليها، ثمّ عاد إلى النافذة.

ـ هانك، هذا أمر عظيم.

ـ نعم.

قالها ببساطة وصراحة. لم يكن هناك استمتاع بالإطراء في صوته، ولا حتّى نبرة التواضع. كانت تعلم أنّ هذا الحدث تكريمٌ لها، أندر شعور يمكن لشخص أن يمنحه شخصًا آخر: تكريم الشعور بالاعتراف الحرّ بعظمة الفرد، وبمعرفة أنّه تكريم مفهوم وواضح للعيان.

قالت: يا هانك، عندما أفكّر في الأشياء التي سيجعلها هذا المعدن ممكنة التحقّق... هذا هو أهمّ شيء يحدث في العالم اليوم، لكن لا أحد منهم يعلم ذلك.

ـ نحن نعلم ذلك.

لم ينظر أحدهما إلى الآخر. وقفا يراقبان الرافعة على الجزء الأماميّ من القاطرة، وقالت إنّها تستطيع تبيّن الحرفين الأوّلين من شركتها "ت. ت" اللذين يرمزان إلى شركة تاجارت العابرة للقارّات. وقالت إنّها تستطيع تبيّن عربات الشحن الصناعيّة التي ستكون الأكثر ازدحامًا في نظام تاجارت.

أضافت: بمجرّد أن أتمكّن من العثور على مصنع قادر على القيام بذلك، سأطلب عربات الديزل المصنوعة من معدن ريردن.

ـ ستحتاجين إليها بكلّ تأكيد. ما مدى سرعة تشغيل قطاراتك على مسار ريونورتيي؟

ـ الآن؟ نحن محظوظون إذا تمكّنّا من تحقيق عشرين ميلًا في الساعة.

قال مشيرًا إلى العربات: عندما يتمّ وضع هذا القطار، سيكون بوسعك تشغيله بسرعة 250 كلم في الساعة، إن رغبت في ذلك.

ـ سأرغب في ذلك طبعًا، وفي غضون سنوات قليلة، عندما نملك عربات من شركة ريردن للفولاذ التي ستكون بنصف وزن الحديد، وستضاعف مستوى الأمان في الحركة.

ـ ربّما ستحوّلين اهتمامك إلى تأسيس شركة للخطوط الجويّة. بالمناسبة، نحن نعمل على طائرة من شركة ريردن للفولاذ بوزن خفيفٍ وستكون قادرةً على رفع أيّ شيء. ستشهدين اليوم الذي تكون فيه الرحلات الجويّة الطويلة والشحن الثقيل.

ـ لقد كنت أفكّر في ما سيفعله هذا المعدن للمحرّكات، وأيّ نوع من الأشياء يمكن للمرء تصميمها الآن.

ـ هل فكّرت في ما ستفعله لأقنّة الدجاج؟ فقط سياج من أسلاك أقنّة الدجاج العاديّة، مصنوعة من شركة ريردن، التي لن تكلّف إلّا بضعة بنسات بحساب الميل وتستمرّ لمائتي سنة من العمر، وأدوات الطبخ التي ستُشتَرى في متجر الدايم وتنتقل من جيل إلى جيل، وبطانات المحيط التي لن يتمكّن المرء من خرقها حتّى لو استعمل طوربيدا.

ـ هل سبق أن أخبرتك بأنّني أُجرِي اختبارات لصنع أسلاك اتّصالات من معدن ريردن؟

ـ أنا أُجري اختبارات كثيرةً إلى درجة أنّني لا أستطيع الانتهاء أبدًا من إفهام الناس ما يمكن أن نحقّقه بواسطة هذا المعدن وكيفيّة إنجازه.

وظلّا يتحدّثان عن المعدن والاحتمالات التي لا يستطيعان استنفادها. كان الأمر كما لو أنّهما يقفان على قمّة جبل، ويَرَيَان سهلًا دون حدّ وطرقًا مفتوحة في جميع الاتّجاهات. لكنّهما تحدّثا فقط عن الأرقام الرياضيّة والأوزان والضغوط والمقاومة والتكاليف.

لقد نسيت أخاها وتحالفه الوطنيّ، وقالت إنّها نسيت كلّ مشكلةٍ وشخصٍ وحدثٍ خلفها؛ كانوا دائمًا يخيّمون على بصرها، وودّت لو يتمّ التعجيل بالزمن، ويتمّ تجاهلهم نهائيًا وإلى الأبد. وقالت في نفسها هذا هو الواقع، ذلك الشعور بالخطوط العريضة الواضحة، بالهدف، وبالصفاء والأمل. هذه هي الطريقة التي كانت تتوقّع أن تعيش بها، فقد أرادت ألّا تقضي أيّ ساعةٍ دون أن تتّخذ أيّ إجراءٍ من شأنه أن يعني أقلّ من ذلك.

نظرت إليه في اللحظة نفسها التي التفت فيها للنظر إليها. لقد وقفا متقاربَين جدًّا. رأت في عينيه أنّه يبادلها المشاعر ذاتَها. فقالت في نفسها: إذا كان الفرح هو الهدف وجوهر الوجود، وإذا كان ذلك الأمر الذي يمنح فرحة واحدة يحرسه دائما كأعمق سرّ في الفرد، فإنّهما يكونان بذلك قد تبادلا النظرات في عراء تامّ أثناء تلك اللحظة.

ثمّ تراجع هانك خطوةً إلى الوراء وقال بلهجة غريبة:

ـ نحن زوج من الأوغاد، أليس كذلك؟

ـ لماذا؟

لا نملك أيّ أهداف أو صفات روحيّة. كلّ ما نسعى إليه هو أشياء مادّيّة، هذا كلّ ما نهتمّ به.

نظرت إليه، وهي غير قادرة على الفهم. لكنّه كان ينظر إلى الأمام مباشرة نحو الرافعة التي تقبع على مسافة بعيدة. تمنّت لو أنّه لم يقل ذلك. ولم يزعجها ذلك الاتّهام، ولم تفكّر قطّ في أغوار ذاتها بتلك العبارات، وكانت عاجزة تمامًا عن الشعور بالذنب. لكنّها شعرت بمخاوف غامضة لا تستطيع تحديد مصادرها. الإيحاء بوجود شيءٍ من العواقب الوخيمة التي جعلته يتلفّظ بتلك العبارات، أمرٌ يمثّل خطرًا عليه. لم يَقُل ذلك عرضًا. ولكن لم يكن في صوته أيُّ شعور، لا استجداء ولا حتّى مشاعر حياء. قال كلّ ذلك بلا مبالاة، كأنّه بيان حقيقةٍ.

اختفى توجّسها، بينما كانت تراقبه. كان ينظر إلى مطاحنه خارج النافذة. لم تكن ملامح وجهه تشي بأيّ إحساس بالذنب، ولا بأيّ شكوك. لا شيء سوى هدوء الثقة بالنفس غير المنتهكة.

قال: داغني، مهما يكن أمرنا، فنحن من يحرّك العالم ونحن من سينقذه في أحلك الظروف.

الفصل الخامس

أوج قوّة عائلة دانكونيا

كان أوّل شيء لاحظته عندما دخل إيدي مكتبَها هو الجريدة الممسوكة بإحكامٍ في يده. ثمّ تطلّعت إلى ملامح وجهه: لقد كان متوتّرًا وحائرًا.

ـ داغني، هل أنت مشغولة جدًّا؟

ـ لماذا؟

ـ أعلم أنّك لا تحبّين الحديث عنه. ولكن يوجد شيءٌ هنا أعتقد أنّ عليك الاطّلاع عليه.

مدّت يدها بصمتٍ لتناول الجريدة.

لقد أعلنت القصّة المنشورة على الصفحة الأولى أنّ حكومة ولاية المكسيك الشعبيّة، بعد تأميمها لمناجم سان سيباستيان، اكتشفت أنّ هذه المناجم لا تحظى بأيّ قيمةٍ، وأنّه لم يكن هناك ما يبرّر إسراف خمس سنوات من العمل وكلّ الملايين التي أنفقت عليها. لا شيء في هذه المناجم سوى حفريّات فارغة، وعمليّات تنقيب شاقّة بلا جدوى. وحتّى آثار النحاس القليلة لا تستحقّ عناء استخراجها. لا توجد رواسب كبيرةٌ من المعادن، ولا حتّى مؤشّرات تنبئ بوجودها، ثمّ إنّه توجد مؤشّرات يمكن أن تسمح بخداع أيّ شخص. وكانت حكومة ولاية المكسيك الشعبيّة تعقد جلسات طارئة بشأن اكتشافها، في ضجّة من السخط؛ لقد شعروا بأنّهم تعرّضوا

للغشّ.

وأثناء مطالعتها للخبر، رأى إيدي أنّ داغني جلست تتصفّح الجريدة فترةً طويلةً بعد انتهائها من القراءة. كان يعلم أنّه أصابَ في شعوره بالخوف، على الرغم من أنّه لم يستطع الكشف عن المخاوف التي تسلّلت إليه من تلك القصّة.

وظلّ ينتظرها إلى أن رفعت رأسها. ولكنّها لم تنظر إليه. كانت عيناها ثابتتين، وهي غارقةٌ في التركيز، كما لو أنّها تحاول استقراء شيءٍ على بعد مسافة كبيرة.

قال بصوت منخفض: فرانسيسكو ليس رجلًا أحمق. قد يكون أيّ نوع آخر من الرجال، وبغضّ النظر عن الفساد الذي غرق فيه فهو ليس أحمق. لا يمكن أن يرتكب خطأً من هذا النوع، هذا غير ممكن. أنا لا أفهم ذلك.

ـ لقد بدأت أستوعب الأمر.

جلست، ثمّ اهتزّت فجأة على نحوٍ مستقيم، إلى درجة بدا من خلال جسدها شيء كالرعشة.

قالت: اتّصل به في واين فوكلاند وأخبر هذا الوغد أنّني أريد مقابلته.

ردّ بحزنٍ وعتاب: داغني، إنّه فرانسيسكو دانكونيا.

ـ لقد أصبح في خبر كان.

***

سارت عند ساعات الشفق المبكّر بين شوارع المدينة حتّى بلغت فندق واين فوكلاند. وكان إيدي قد قال لها:

– يقول، إنّه مستعد لمقابلتك في أيّ وقت يناسبك.

ثمّ ظهرت الأضواء الأولى في عددٍ قليل من النوافذ العالية تلوح من تحت الغيوم. وبدت ناطحات السحاب مثل منارات مهجورة ترسل إشارات ضعيفةً ومثيرةً للقلق إلى بحرٍ خالٍ لم تعد السفن تمخر عبابه. وسقطت بعض رقاقات الثلج، من

أعلى النوافذ المظلمة للمتاجر الفارغة، لتذوب في وحل الأرصفة. وقطعت سلسلة من الفوانيس الحمراء الشارع، وامتدّت نحو مسافة غامضة.

تساءلت داغني عن سبب هذا الشعور الذي يدفع بها إلى الرغبة في الجري والركض، ثمّ قالت في نفسها: لا، لا أحبّ الركض في هذا الشارع؛ أنا أهوى الركض أسفل التلال الخضراء تحت أشعّة الشمس الحارقة في الطريق على حافّة نهر هدسون، عند سفح عقّارات شركة تاجارت. هذا هو المسار الذي كانت تفضّله دائمًا أثناء الجري. كانت تتعقّب هذا المسار الذي يقودها إلى صياح إيدي، إنّه فرانسيسكو دانكونيا! فيسرعان كلاهما إلى أسفل التلّ، إلى السيّارة التي كانت تقترب من الطريق السفليّ.

كان فرانسيسكو هو الضيف الوحيد الذي يُعتَبر وصوله حدثًا في طفولتهما، بل هو أكبر حدثٍ بالنسبة إليهما. وكان الركض لمقابلته جزءا من مسابقة بين ثلاثتهم. لقد كانت هناك شجرة البتولا على سفح التلّ، في منتصف الطريق بين المسلك والمنزل. فحاولت داغني وإيدي تجاوز الشجرة، قبل أن يتمكّن فرانسيسكو من الوصول أوّلًا إلى أعلى التلّ للقائهما. وفي أغلب أيّام وصوله، في جميع فصول الصيف العديدة، لم يتمكّن كلّ من داغني وإيدي بلوغ شجرة البتولا؛ لقد كان فرانسيسكو هو من يصل أوّلًا دائمًا، ثمّ يوقفهما ويتجاوزهما بعيدًا. كان هو الفائز دائمًا في هذا السباق، مثلما يفوز بكلّ شيء دومًا.

كان والداه صديقين قديمين لعائلة تاجارت. وكان هو ابنهما الوحيد الذي يتنقّل معهما كلّما سافرا إلى جميع أنحاء العالم، ويُحكى أنّ والده أراد منه أن يعتبر العالم كلّه مجاله المستقبليّ. لم تكن داغني وإيدي على يقينٍ بأنَّ فرانسيسكو سيقضي معهما فصل الشتاء، لأنّه يزورهما في كلّ صيف مرّةً واحدة رفقة معلّمه الصارم أصيل أمريكا الجنوبيّة الذي كان يحضره لمدّة شهر إلى عقّارات تاجارت.

كان فرانسيسكو يرى أنّ من الطبيعي أن يتّخذ أطفال تاجارت أصدقاء، لأنّهم ورثة عرش شركة تاجرت العابرة للقارّات، مثلما كان هو الوريث الوحيد لشركة

دانكونيا للنحاس. لقد قال ذات مرّة لداغني، وهو في الرابعة عشرة من عمره: نحن نمثّل الطبقة الأرستقراطيّة الوحيدة المتبقّية في العالم، أرستقراطيّة المال. إنّها الأرستقراطية الحقيقيّة الوحيدة الباقية على وجه البسيطة، فقط لو يدرك الناس ما تعنيه هذه الطبقة، لكنّهم للأسف لا يفقهون.

كان يحمل في ذهنه نظامًا طبقيًّا خاصّا به. فبالنسبة إليه، لم يكن جيم وداغني هما طفلَي آل تاجارت، بل داغني وإيدي. ونادرًا ما يهتدي عَرَضًا إلى ملاحظة وجود جيم.

سأله إيدي ذات مرّة: فرانسيسكو، أنت تنتمي إلى نوع من أعلى طبقة في النبلاء، أليس كذلك؟

أجاب: ليس بعدُ. والسبب يعود إلى أنّ عائلتي ستقضي فترة طويلة حتّى يُسمح لأيّ منّا باعتقاد أنّه ولد في آل دانكونيا. ومن المتوقّع أن نصبح بعض أفراد تلك العائلة.

كان ينطق باسمه كما لو أنّه يتمنّى أن يصدم مستمعيه فيشعرهم بمعنى الفروسيّة بين ثنايا دويّ الحروف.

كان سلفه، سيباستيان دانكونيا، قد غادر إسبانيا منذ قرون عديدة، في وقت كانت فيه إسبانيا أقوى بلدٍ على وجه الأرض. وكان من بين أكثر الشخصيّات التي يفتخر بها هناك. لقد غادر، لأنّ رئيس محاكم التفتيش لم يوافق على طريقة تفكيره واقترح، في مأدبةٍ بالمحكمة، أن يغيّرها. فألقى سيباستيان دانكونيا ما احتوته كأس نبيذه على وجه رئيس محاكم التفتيش، وهرب قبل أن يتمكّنوا من إلقاء القبض عليه. لقد ترك وراءه ثروته وتَرِكَتَه وقصرَه الرخاميّ والفتاةَ التي كان يحبّها، وأبحر إلى عالمٍ جديدٍ.

كانت أولى عقّاراته في الأرجنتين كوخًا خشبيًّا في سفوح جبال الأنديز. وكانت الشمس تشتعل مثل منارة على معطفه الفضّيّ، المسمّر على باب الكوخ، وهو معطف حمل قماشه ما لآل دانكونيا من شعارات النبل ونياشينه، بينما كان سيباستيان دانكونيا

يحفر أوّل منجم نحاس له. لقد أمضى سنوات، والمعول بين يديه، يكسر الصخور من شروق الشمس إلى حلول الظلام، بمساعدة عددٍ قليل من المهاجرين المنبوذين من أوطانهم مثل الفارّين من جيوش موطنهم الأمّ، والمدانين الفارّين، والهنود الجائعين.

وبعد خمسة عشر عامًا من مغادرته إسبانيا، أرسل **سيباستيان دانكونيا** من يأتيه بالفتاة التي أحبّها، وكانت هي تنتظره بفارغ الصبر. وعندما وصلت، وجدت المعطف الفضّيّ معلّقًا فوق مدخل قصر من الرخام، ورأت حدائق في عقّار كبير، وجبالًا حوّلها إلى حفر من الخام الأحمر بدت شامخة على مسافة بعيدة. فحملها بين ذراعيه عبر عتبة منزله، فبدا أصغر سنًّا ممّا كان عليه عندما رأته آخر مرّة.

قال فرانسيسكو لداغني: لو التقى أجداد إيدي وأجدادك، لكان بينهم حبٌّ.

لقد عاشت داغني، خلال سنوات طفولتها، وهي تتطلّع إلى المستقبل، وإلى عالم توقّعت أن تجده، ولن تضطرّ فيه إلى الشعور بالازدراء أو الملل. لكنّها عاشت الحرّيّة شهرًا واحدًا من كلّ عام. وكانت هذه المدّة كافية كي تعيش حاضرها. أمّا سباقها أسفل التلّ لمقابلة **فرانسيسكو دانكونيا**، فكان كسباق من يحظى بسراح من عقوبة السجن.

ـ مرحبًا، أيّتها السبيكة!

ـ مرحبا، فريسكو!

في البداية استاء كلّ منهما من تلك الأسماء المستعارة.

فسألته بغضب: ماذا تظنّ أنّك تعني حين تناديني بالسبيكة؟

أجابها: إن كنت لا تعرفين، فـ«سبيكة» تعني حريقًا كبيرًا في فرن القاطرة.

ـ ومن أين التقطت ذلك المعنى؟

ـ من السادة على طول سكك حديد شركة تاجارت.

كان يتقن خمس لغات، يتحدّث الإنجليزية بطلاقةٍ، وبدقّة مُزِجت عمدًا بالعامّيّة

ممّا يدل على ثقافته الواسعة. لقد كانت تنتقم منه حين تناديه فريسكو. فيردّ ضاحكًا ومنزعجًا في الوقت نفسه:

ـ إذا كنتم يا معشر البرابرة تزدرون اسمَ مدينة عظيمة، فيجب عليكم في الأقلّ الامتناع عن فعل ذلك معي.

لكنّهما كبرا وأحبّا تلك الأسماء المستعارة.

وبدأ الأمر في أيّام الصيف الثاني لهما معًا، عندما كان عمره اثني عشر عامًا وكانت هي في العاشرة من عمرها. في ذلك الصيف، بدأ فرانسيسكو يختفي كلّ صباح لسببٍ مّا لم يستطع أحدٌ اكتشافه. كان يمتطي درّاجته قبل بزوغ الفجر، فيذهب ولا يعود إلّا في الوقت المناسب، ثمّ يظهر على طاولة الكريستال البيضاء لتناول طعام الغداء على الشرفة. لقد كان أسلوبه دقيقًا ومنضبطا في الوقت المحدّد ومهذّبا بقليل من البراءة. وعندما تحاول داغني وإيدي معرفة سبب اختفائه كان فريسكو يضحك دون أن يشفي غليلهما. وفي إحدى المرّات حاولا أن يتعقّباه، في جنح ظلام الفجر البارد، غير أنّهما سرعان ما تخلّيا عنه. لا أحد كان باستطاعته تعقّبه عندما لا يريد هو أن يتعقّبه أحد.

وبعد مدّة، بدأت السيّدة تاجارت تشعر بالقلق فقرّرت التحقيق في الأمر. لم تدرك قطّ كيف أمكن لفرانسيسكو تجاوز جميع قوانين الأطفال وآدابهم، لكنّها وجدته يعمل، من خلال صفقةٍ غير رسميّة مع أحد المراسلين، كصبيّ اتّصال لشركة تاجرت العابرة للقارّات، عند نقطة تقسيم على بعد عشرة أميال. وقد أصيبت المراسلة بالذهول عندما زارها فريسكو شخصيًّا. لم تكن تعرف أنّ هذا الصبيّ ينزل ضيفا في منزل آل تاجارت. كان الصبيّ معروفًا عند طواقم السكك الحديديّة المحلّيّة باسم فرانكي، وكانت السيّدة تاجارت آثرت ألَّا تطلعهم على اسمه الكامل. واكتفت بالقول إنّه يعمل دون إذن فطلبت منهم أن يقيلوه من العمل دفعةً واحدةً. أحسّ أحد المراسلين بالأسف على فقدانه. قال إنّ فرانكي كان أفضل صبيّ اتّصال لديهم على الإطلاق.

ـ أودّ بالتأكيد أن يبقى معنا. ربّما يمكننا عقد صفقة مع والديه؟

ردّت السيدة تاجارت: لا، هذا أمرٌ مستحيل.

وما إن رجع إلى المنزل سألته:

ـ فرانسيسكو، لو علم والدك بما فعلته، ماذا تحسبه يقول؟

ـ ربّما كان سيسألني عمّا إذا كنت جيّدًا في العمل أم لا. هذا كلّ ما يريد معرفته.

ـ تعالَ إلى هنا الآن، أنا لا أمزح.

كان فرانسيسكو ينظر إليها بأدبٍ، وكانت طريقته المهذّبة توحي بقضاء أعوام في قاعات التربية والرسم. ولكنّ شيئًا مّا في عينيه جعلها تشعر بعدم اليقين من سرّ ذلك التهذيب.

أجابها: في الشتاء الماضي، اشتغلت صبيَّ شحنٍ بالمقصورة في باخرة البضائع التي تحمل نحاس دانكونيا. بحث والدي عنّي ثلاثة أشهر، ولكنّ هذا كلّ ما طلبه منّي عندما عدت.

قال جيم تاجارت مبتسما: هكذا كنت تقضي فصول الشتاء؟

لقد كانت في ابتسامة جيم مسحة من الانتصار، انتصار إنسان يبحث عن سبب لإذلال إنسان آخر.

أجاب فرنسيسكو بسرور: كان ذلك في الشتاء الماضي.. لقد قضّيت فصل الشتاء قبل الماضي في مدريد، بمنزل الدوق ألبا.

ـ سألته داغني لماذا تريد أن تعمل في السكك الحديديّة؟

وظلّ الاثنان يتبادلان النظرات؛ هي تبدي له نظرة إعجاب، أمّا هو فيبادلها نظرة تضجّ سخريّة. ولكنّها لم تكن سخريّة تنمّ عن مكرٍ، بل هي عبارة عن ضحك من قبيل التحيّة.

أجابها: أيّتها السبيكة، أنت تريدين منّي أن أذكر لك طبيعة عملي هناك، وأخبرك

بأنّني حصلت قبلك على وظيفة لدى شركة تاجرت العابرة للقارّات.

أمضت داغني وإيدي فصول الشتاء في محاولة إتقان بعض المهارات الجديدة، من أجل إذهال فرانسيسكو والانتصار عليه ولو مرّةً واحدة في الحياة. ولكنّهما لم ينجحا قطُّ. فحين علّموه كيفيّة تسديد الكرة بالمضرب، مثلا، وهي لعبة لم يسبق أن لعبها من قبل، شاهدهم لبضع دقائق، ثمّ قال:

ـ أعتقد أنّني فهمت الفكرة. دعاني أحاول.

أخذ المضرب وأرسل الكرة تحلّق فوق خطّ من أشجار البلّوط بعيدا في نهاية الملعب.

وعندما تلقّى جيم قاربًا مزوّدا بمحرّك هديّةً بمناسبة عيد ميلاده، وقف الجميع بجانب النهر، لمشاهدة درس تعلّم قيادة ذلك القارب، في حين كان مدرّب جيم يبيّن له كيفيّة تشغيله. لم يسبق لأيّ منهم أن قاد قاربًا. فكان ذلك الزورق الأبيض المتلألئ، على شكل رصاصة، يتمايل على نحوٍ مذهلٍ فوق الماء، إلى أن أحدث تشغيله مسارًا طويلًا من الارتجاف، بمحرّكه الذي يرسل دخانًا خانقًا، وقد جلس المدرّب بجانب جيم، ممسكًا بدفّة القيادة بين يديه. ودون سببٍ واضح، رفع جيم رأسه فجأة وصرخ في وجه فرانسيسكو:

ـ هل تعتقد أنّك تستطيع فعلَ ذلك أفضل منّي؟ انظر كيف يمكنني أن أفعل ذلك، هل ترغب في أن تجرّب!

وحين بلغ القارب اليابسة وغادره الذين كانوا على متنه، انزلق فرانسيسكو خلف عجلة القيادة. ثمّ قال للمدرّب الذي بقي على اليابسة:

ـ انتظر لحظةً. دعني أُلْقِ نظرةً على هذا الزورق.

وحتّى لا يتيح للمدرّب فرصةً لإبداء ردّ فعل، شغّل القارب وتوجّه وسط النهر، كما لو أنّه كان بصدد إطلاق رصاصة من مسدّس. كان الماء يتناثر بعيدًا وهم في حيرة وذهول ممّا يرون. لقد سار بعيدا إلى أن أخذت المسافة وأشعّة الشمس في التقلّص،

وعلقت بذهن داغني صورة ثلاثة خطوط مستقيمة: أعقاب القارب، وضجيج محرّكه الطويل، وهدف السائق وراء عجلة القيادة.

ثمّ أخذت تراقب تعابير وجه والدها الغريبة وهو ينظر إلى القارب السريع الذي توارى عن الأنظار. لم يقل شيئًا، ظلّ فقط يراقبه. ثمّ تذكّرت أنّها رأته من قبل في مثل هذه الحال. حدث ذلك وهو بصدد تفقّد نظام معقّدٍ من البكرات اخترعها فرانسيسكو، الذي كان وقتئذٍ يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنةً. لقد أقامها لصنع مصعدٍ إلى أعلى صخرة؛ كان يُعَلِّمُ داغني وإيدي الغوصَ بالقفز من فوق الصخرة إلى نهر هدسون. وكانت أوراق فرانسيسكو التي دوّن عليها ملاحظاته الحسابيّة للوصول إلى إنجازه لا تزال مبعثرة على الأرض؛ فالتقطها والدها ونظر إليها ثمّ سأل:

ـ فرانسيسكو، كم سنةً درست علم الجبر؟

ـ سنتين.

ـ ومن علّمك إنجاز كلّ هذه الأمور؟

ـ هذا أمر اكتشفته.

لم تكن تعلم حينها أنّ ما التقطه والدها من تلك الأكوام من الأوراق كان النسخة الخام من معادلة تفاضليّة.

كان لورثة سيباستيان دانكونيا خطّ لا ينقطع من الأبناء الأوائل، الذين خبروا كيف يحملون اسمه. وكان للعائلة تقليد أن يُحرم الوريث من ثروة دانكونيا، متى ألحق العار بها. وبتعاقب الأجيال، لم يأتِ أحدٌ بمثل هذا العار. لقد ذكرت الأسطورة الأرجنتينيّة أنّ يد آل دانكونيا كانت تتمتّع بما للقدّيسين من قوّة خارقةٍ، إنّها يدٌ تنتج وتبدع حتّى إن هي لم تشف أحدًا.

وكان ورثة آل دانكونيا رجالًا غير عاديّين، ولكن لا أحد منهم يمكن أن يتطابق مع ما وعد به فرانسيسكو دانكونيا بأن يصبح عليه. وكأنّ القرون والسنين قد

غربلت صفات الأسرة من خلال شبكة دقيقة، وتجاهلت الآخرين من الضعفاء، ولم تدع شيئًا إلّا الموهبة الخالصة؛ كما لو أنّها كانت محض صدفة، لمرّة فقط حقّقت كيانا خاليا ممّا هو عَرَضِيّ.

يمكن لـفرانسيسكو أن ينجز أيّ شيء تعهّد به، ويمكنه أن يفعل ذلك أفضل من أيّ شخص آخر، وقد يفعله دون جهدٍ أو عناء. لم يكن يتباهى بطريقته وبمستواه المعرفيّ، ولم يَسْعَ إلى إظهار تفوّقه على الآخرين. لم يكن يقول: يمكنني أن أفعل ذلك أفضل منك، بل يقول ببساطة: يمكنني فِعل ذلك. وما كان يراهن دومًا على التفوّق.

وبغضّ النظر عن الانضباط الذي تتطلّبه خطّة والده الصارمة في تعليمه، وبغضّ النظر عن الموادّ التي أمره بدراستها، فإنّ فرانسيسكو أتقنها بيُسرٍ وهو يتسلّى. لقد عشقه والده، لكنّه أخفى حبّه بعنايةٍ، كما أخفى فخر معرفته بأنّه مثّل ظاهرة وقّادة في نسل الأسرة الرائعة. وقيل إنّ فرانسيسكو كان من المقرّر أن يكون في أوج قوّة آل دانكونيا.

قالت السيّدة تاجارت ذات مرّة: أنا لا أعرف أيّ نوع من الشعارات ترفع عائلة دانكونيا تعبيرًا عن عرف أسرهم، ولكنّني متأكّدة من أنّ فرانسيسكو سيغيّر ذلك إلى سؤال: ما الهدف؟

كان هذا هو أوّل سؤال يطرحه في أيّ نشاط يُقتَرَح عليه، ولا يشرع في العمل إذا لم يجد الإجابة الصحيحة. لقد دَأب على أن يحلّق خلال أيّام الصيف مثل الصاروخ، ولكن إذا رغب أحدهم في إيقافه عند منتصف الرحلة، فإنّه سيتمكّن دائمًا من تسمية الهدف في كلّ لحظة طائشةٍ يعيشها. كان هناك أمران يستحيل عليه أن يقوم بهما: الوقوف بلا هدف أو التحرّك بلا هدف.

دعونا نكتشف، هذه هي الجملة التي كان يفتتح بها أيّ عمل يسعى إلى إنجازه بمعيّة داغني وإيدي، وفي بعض الأحيان يستعيض عنها بجملة دعونا ننجزه. كان لا يلقى المتعة إلّا في هذه الأشكال.

أستطيع أن أفعل ذلك، هذه هي الجملة التي تفوّه بها عندما كان يبني مصعده، متشبّثًا بجانب منحدر، يقود أسافين معدنيّة إلى الصخر، وذراعاه تتحرّكان بإيقاعِ خبيرٍ، وقطرات من الدم تتسرّب منزلقةً، دون أن يلاحظها أحدٌ، من تحت ضمّادةٍ على معصمه.

ـ لا، لا يمكننا أن نتناوب يا إدي، لم تكبر بعدُ بما فيه الكفاية حتّى تتعامل مع المطرقة. فقط انقل الأعشاب الطفيليّة بالعربة ونظّف لي الطريق، وسأُنجز الباقي... أيّ دمٍ؟ هذا لا شيء، مجرّد جرح بسيط أُصِبتُ به أمس. داغني، اركضي إلى المنزل وأحضري لي ضمّادةً نظيفةً.

كان جيم يراقبهم. لقد تركوه وحيدًا، لكنّهم غالبا ما رأوه يقف على بعد مسافةٍ، يشاهد فرانسيسكو بنوع غريب من الشدّة والحماس.

ونادرا ما تحدّث جيم في حضور فرانسيسكو، لكنّه كان يحشر داغني في الزاوية ويبتسم بسخريّة، قائلًا:

ـ أنت تتظاهرين بأنّك امرأة حديديّة بعقلٍ متميّز! أنت مجرّد خرقة بالية تصلح لتنظيف الصحون، هذا كلّ ما أنت عليه. إنّه لأمرٌ مقزّزٌ تلك الطريقة التي تركت بها ذلك الشرير المغرور يطلب منك الضمّادة. يمكنه أن يديرك مثل الخاتم حول إصبعه الصغير. ليس لديك أيّ كبرياء على الإطلاق. وطريقة ركضك نحوه حين صفّر لك وانتظارك له! لمَ لا تلمّعين حذاءهُ في الأثناء؟

أجابته: لأنّه لم يطلب منّي ذلك.

لقد كان بإمكان فرانسيسكو الفوز بأيّ مباراة في أيّ مسابقة محلّيّةٍ. لكنّه لم يشارك في أيّ مسابقة مطلقًا. لم يقترب البتّة من ناديهم، متجاهلًا محاولاتهم المتلهّفة لتسجيل شخصٍ مثله كأشهر وريث في العالم ينتمي إلى ذلك النادي. كانت داغني وإيدي صديقَيه الوحيدين. ولم يتمكّنا من معرفة ما إذا كانَا يمتلكان بعضه أو يمتلكانه بالكامل؛ لا فرقَ: أيّ مفهوم سيجعلهما سعيدَين.

لقد كانوا ثلاثتهم يرتّبون كلّ صباح للقيام بمغامرات من النوع الذي يفضّلونه. ذات مرّة، رآهم أستاذ الأدب، وكان طاعنًا في السنّ ومن أصدقاء السيّدة تاجارت، وهم فوق كومة في ساحة خردة، يفكّكون هيكل سيّارة. توقّف وهزّ رأسه وقال لفرانسيسكو:

ـ يجب على شابّ مثلك أن يقضي جلّ وقته في المكتبات، ويبتلع جميع ثقافة العالم.

سأله فرانسيسكو: وماذا تحسبُني أفعل الآن؟

لم تكن في الحيّ مصانع، ولكنّ فرانسيسكو علّم داغني وإيدي كيفيّة الركوب خلسةً في قطارات شركة تاجارت إلى المدن البعيدة، فيتسلّقون الأسوار إلى ساحات الطاحونة أو يتعلّقون بعتبات النوافذ، أو يشاهدون الآلات، بينما كان الأطفال الآخرون يشاهدون الأفلام. وكانت داغني تقول في بعض الأحيان:

ـ عندما سأقوم على تشغيل شركة تاجرت العابرة للقارّات...

يردّ فرانسيسكو: عندما سأدير شركة دانكونيا للنحاس...

لم يكن عليهما قطُّ أن يخوضا في التفاصيل. لأنّ كلًّا منهما يعرف أهداف الآخر ودوافعه.

وكان مراقبُ السكك الحديديّة يمسكهم من حين إلى آخر. وأحيانًا أخرى يتعرّف عليهم مدير المحطّة على بعد مائة ميل فيتّصل بالسيّدة تاجارت قائلًا:

ـ لدينا ثلاثة صعاليك صغار هنا يقولون إنّهم...

تقول السيّدة تاجارت بعد أن تتنهّد: نعم، إنّهم كذلك. يُرجَى إعادتهم.

سأله إيدي مرّة حين وقفوا إلى جانب مسارات محطّة تاجارت:

ـ فرانسيسكو، لقد زرت كلّ مكان في العالم. ما هو أهمّ شيء على وجه الأرض؟

أجابه فرانسيسكو مشيرًا إلى شعار «ت. ت» الذي طبع على الجزء الأماميّ من أحد محرّكات شركة تاجارت: هذا الشيء، أتمنّى لو كان بإمكاني أن ألتقي نات

تاجارت.

لاحظ أنّ داغني تنظر إليه. لم يقل شيئًا آخر، ولكن عندما مرّوا عبر الغابة، في مسارٍ ضيّق من الأرض الرطبة، مليءٍ بنباتات السرخس وأشعّة الشمس، قال:

ـ داغني، سوف أنحني دائمًا أمام شعار النُّبْل. سأعبد دائمًا رموز النبلاء أليس من المفترض أن أكون أرستقراطيًّا؟ أنا فقط لا أهتمّ بالأبراج العتيقة الملعونة التي قد تزيّن برسوم الفراشات وطائر البراق. إنّ شعارات النُّبل في يومنا هذا توجد على اللوحات الإعلانيّة وفي إعلانات المجلّات الشعبيّة.

سأله إيدي: ماذا تعني؟

أجابه: العلامات التجاريّة الصناعيّة، يا إيدي.

كان فرانسيسكو في الخامسة عشرة من عمره في ذلك الصيف، حين قال:

ـ عندما سأدير شركة دانكونيا للنحاس... سأدرس التعدين والمعادن، لأنّ عليّ أن أكون مستعدًّا للوقت الذي سأدير فيه شركة دانكونيا للنحاس... سأدرس الهندسة الكهربائيّة، لأنّ شركات الطاقة هي أفضل عملاء شركة دانكونيا للنحاس... سأدرس الفلسفة، لأنّني سأحتاج إليها في حماية شركة دانكونيا للنحاس...

سأله جيم ذات مرّة: ألا تفكّر في أيّ شيء سوى شركة دانكونيا للنحاس؟

ـ لا.

ـ يبدو لي أنّ هناك أشياء أخرى مهمّة في العالم.

ـ دع الآخرين يفكّرون فيها.

ـ أليس هذا موقفًا أنانيًّا جدًّا؟

ـ إنّه كذلك.

ـ ما الذي تبحث عنه؟

ـ المال.

ـ ألا تملك منه ما يكفي؟

ـ لقد رفع كلّ واحدٍ من أسلافي إنتاج شركة دانكونيا للنحاس بنحو عشرة في المائة. وأنا أعتزم رفعها إلى مائة في المائة.

سأله جيم مقلّدًا هذه المرّة نبرتهُ الساخرة: وما الهدف من ذلك؟

ـ عندما أموت، آمل أن أدخل الجنّة، أريد أن أوفّر صَكَّ الدخول إليها.

ردّ عليه جيم بكبرياء: الفضيلة هي ثمن الدخول إلى الجنّة.

ـ جيم، هذا ما أعنيه تمامًا. لذلك أريد أن أكون مستعدًّا للمطالبة بأكبر فضيلة على الإطلاق، أن أكون رجلًا كسب مالًا كثيرًا.

ـ أيّ مقامر يستطيع أن يكسب المال.

ـ جيم، يجب أن تكتشف يومًا مّا أنّ للكلمات معنًى دقيقًا.

ابتسم فرانسيسكو على نحوٍ ساخرٍ ومتعالٍ. وأثناء مشاهدتهما على هذا النحو، لاحظت داغني فجأةً البون الشاسع بين فرانسيسكو وشقيقها جيم. فكلاهما ابتسما بسخريّة، ولكن يبدو أنّ فرانسيسكو كان يسخر من بعض الأمور، لأنّه رأى أشياء أخرى أعظم منها بكثير. أمّا جيم فكان يسخر كما لو أنّه أراد ألّا يبقى أيّ شيء عظيمًا.

مرّةً أخرى، لاحظت نوعيّة خاصّة من الابتسامة عند فرانسيسكو، حدث ذلك في ليلة من الليالي، عندما جلست معه وإيدي قرب موقدٍ أقاموه في الغابة. لقد طوّقهم وهج النار داخل سياجٍ من الشرائط المكسورة والمتحرّكة التي كانت تمسك بقطع من جذوع الأشجار والأغصان والنجوم البعيدة. فشعرت كما لو أنّه لا يوجد شيء وراء هذا السياج، لا شيء سوى الفراغ الأسود، حيث تضيق الأنفاس وتنتشر المخاوف... مثل المستقبل. ولكنّ المستقبل، كما اعتقدت، سيكون مثل ابتسامة فرانسيسكو. وفجأةً شعرت بسعادة لا تطاق، لا تطاق لأنّها كانت مشحونة جدًّا ولم تجد وسيلة للتعبير عنها. لقد نظرت إلى إيدي، الذي كان هو أيضًا ينظر إلى

فرانسيسكو بطريقة هادئة من تلقاء نفسه، فبادلها الشعور نفسه.

سألته بعد أسابيع، بعد أن كان فرانسيسكو قد رحل: لماذا تحبّ فرانسيسكو؟

بدا إيدي مندهشًا، لم يخطر بباله قطُّ أنّ الشعور يمكن أن يكون موضع تساؤل فقال:

ـ إنّه يجعلني أشعر بالأمان.

ـ أمّا أنا فهو يجعلني أتوقّع الإثارة والخطر.

كان فرانسيسكو سيُنهي السادسة عشرة من عمره في الصيف المقبل، وهو اليوم الذي وقفت فيه وحدها معه على قمّة منحدر على ضفاف النهر، كانا يرتديان سروالين قصيرين وقميصَين ممزّقين وهما يصعدان إلى القمّة. وقفا ينظران إلى أسفل نهر هدسون. كانا قد سمعا أنّه يمكن للمرء رؤية نيويورك حتّى على بعد مسافة أيّام تكون الأجواء صافيةً. لكنّهما لم يريا سوى سديمٍ مصنوع من ثلاثة أنواع مختلفة من الضوء اندمجت معًا: النهر والسماء والشمس.

جثت على صخرة، وهي تميل إلى الأمام، في محاولة للقبض على بعض ملامح المدينة، والرياح تحرّك خصلات شعرها عبر عينيها. نظرت مرّة أخرى خلف كتفها، فلاحظت أنّ فرانسيسكو لم يكن ينظر إلى المسافة التي تفصلهما عن المدينة: بل وقف ينظر إليها. كانت نظراته غريبة، مصمّمة وغير مبتسمة. بقيت ساكنة لحظةً، وانتشرت يداها باستواءٍ على الصخرة، وذراعاها تدعمان وزن جسدها بتوتّر. ولسبب غير مفهوم، جعلتها نظراتُه تنتبه إلى وضعيّتها الجسديّة، وتنبّهت إلى كتفها الظاهرة من خلال قميص ممزّق، وإلى ساقها الطويلة المخدوشة، التي لسعتها أشعّة الشمس والتي تنحني من الصخرة في اتّجاه الأرض. وقفت بغضب وتراجعت عنه. وبينما كانت تلقي برأسها إلى أعلى، ومشاعر الاستياء في عينيها تواجه قسوته، وحين تأكّدت من أنّ نظرته كانت تنمّ عن الإدانة والعداء، سمعت نفسها تسأله بلهجة التحدّي:

ـ ما الذي يعجبك فيّ؟

ضحك فرانسيسكو، أمّا هي فتساءلت بذهول عن السبب الذي ورّطها في التفوّه بهذا الأمر.

أجاب مشيرًا إلى القضبان المتلألئة من بعيدٍ في محطّة تاجارت: ما يعجبني فيك هناك.

قالت بخيبة أمل: إنّها ليست لي.

ـ ما يعجبني فيك هو أنّها ستكون لك في يومٍ مّا.

ابتسمت، واعترفت بفوزه لأنّها سعيدة. وقالت إنّها لا تعرف لماذا نظر إليها بغرابةٍ، لكنّها شعرت أنّه رأى شيئًا من التواصل -وهو أمر لم تتمكّن من فهمه- بين جسدها وشيءٍ داخلها من شأنه أن يمنحها القوّة لحكم تلك القضبان في يوم من الأيّام.

قال بفظاظة: دعينا نَرَ ما إذا كنّا نستطيع رؤية نيويورك.

هزّها من ذراعها حتّى حافّة الهاوية. فظنّت أنّه يلاحظ التواء ذراعها بطريقة غريبة، كان يحملها من الأسفل على امتداد جانبه؛ بهيئة جعلتها تقف مضغوطةً في التصاقٍ شديد به، وشعرت بدفء الشمس في تشابك جلد ساقيه بساقيها. ثمّ نظرا بعيدًا في المدى الشاسع، لكنّهما لم يَرَيَا شيئًا أمامهما باستثناء سديم الضوء.

عندما غادر فرانسيسكو في ذلك الصيف، اعتقدت أنّ رحيله كان مثل عبور الحدود التي أنهت طفولته: في ذلك الخريف، كان من الضروريّ أن يبدأ دراسته الأكاديميّة. أمّا دورها في الانتقال إلى الجامعة فإنّه سيأتي لاحقًا. لقد نفد صبرها وساورتها المخاوف، كما لو أنّه كان سيقفز إلى خطر غير معروف. كان الأمر أشبه بتلك اللحظة التي رأته فيها يغوص في نهر هدسون، ورأته يختفي تحت الماء المعتم وظلّ هناك، وهي تعلم أنّه سيظهر مجدّدًا في لحظةٍ مّا وأنّ دورها في الغطس سيكون بعده.

طردت مشاعر الخوف من ذهنها؛ فالمخاطر عند فرانسيسكو ليست أكثر من فرص لأداءٍ آخر رائع؛ لم تكن هناك معارك يمكن أن يخسرها، لا أعداء باستطاعتهم هَزمه. ثمّ فكّرت في ملاحظةٍ سمعتها قبل بضع سنواتٍ. كانت ملاحظةً غريبةً، وكان من الغريب أنّ الكلمات ظلّت عالقةً في ذهنها، على الرغم من أنّها حسبتها غير ذات معنًى في ذلك الوقت. الرجل الذي صدرت عنه تلك الملاحظة كان أستاذا قديمًا في مادّة الرياضيات، وكان أيضًا صديقًا لوالدها قَدِم إلى منزلهم الريفيّ لزيارتهم، وكانت أوّل زياراته لهم وآخرها. لقد أحبّت وجهه. واستطاعت أن ترى حزنًا غريبًا لا يزال في عينيه، عندما قال لوالدها ذات مساء، أثناء جلوسهما بشرفة الحديقة تحت ضوء خافت، وهو يشير إلى شخصيّة فرانسيسكو:

ـ ذلك الصبيّ حسّاس وغير حصين. يتمتّع بقدرة كبيرة جدًّا على الفرح. ماذا سيفعل بها في عالم لا توجد به إلّا فرص ضئيلة للفرح؟

التحق فرانسيسكو بمدرسة أمريكيّة عظيمة، اختارها له والده منذ فترة طويلةٍ. كانت تُدعَى جامعة باتريك هنري بمدينة كليفلاند، وهي المؤسّسة التعليميّة الأكثر تميّزًا من بقيّة المؤسّسات في العالم. لم يأتِ لزيارتها في نيويورك ذلك الشتاء، على الرغم من أنّه لا يبعد عنها أكثر من رحلة ليلةٍ. لم يتبادلا رسائل، ولم يفعلا ذلك مطلقًا. لكنّها كانت تعلم أنّه سيعود إلى البلاد لمدّة شهر صيفيّ واحد.

وفي مناسبات عديدة من ذلك الشتاء، شعرت داغني بتوجّسٍ غير محدّد: لقد ظلّت كلمات الأستاذ تتردّد في عقلها كتحذير لم تستطع تفسيره. فقرّرت طرد كلّ تلك الهواجس حينما فكّرت في فرانسيسكو، وشعرت بإيمان ثابت أنّها ستحظى بشهر آخر كتسبقة لمواجهة المستقبل، وكدليل على أنّ العالم الذي رأته في المستقبل كان حقيقيًّا، على الرغم من أنّه لم يكن عالم المحيطين بها.

ـ مرحبا، سبيكة!

ـ مرحبا، فريسكو!

كانت واقفةً على سفح التلّ، عند اللحظة الأولى من رؤيته مجدّدًا، فاستوعبت فجأة طبيعة ذلك العالم الذي كانا يمسكان به معًا في مواجهة الآخرين. كانت لحظةً عابرةً، شعرت خلالها بخفقان تنّورتها القطنيّة على ركبتيها بسبب الرياح، وبتأثير أشعّة الشمس على جفونها، والاندفاع التصاعديّ لمثل هذا الارتياح الهائل المتأتّي من وضع قدميها في العشب تحت نَعليْها، إذ ظنّت أنّها قد ترتفع، من دون وزن، بفعل الريح.

كان شعورا مفاجئًا بالحرّيّة والسلامة، إذ أدركت أنّها لم تكن تعرف أيّ شيء عن أحداث حياته، ولم تعرف مطلقًا ولن تحتاج إلى المعرفة. فعالم الحظّ الذي يشمل الأسر ووجبات الطعام والمدارس وكلّ البشر الذين يعيشون بلا هدفٍ ويسحبون وراءهم حمولة ذنبٍ غير معروفٍ لم يكن لهما، ولم يكن باستطاعته تغييره، ولا يمكن أن يكون عالمًا مهمًّا. لم يتحدّثا قطّ عن الأشياء التي حدثت لهما، بل اكتفيا بما كانا يعتقدان أنّه سيقع وبما سيفعلان... نظرت إليه في صمتٍ، كما لو أنّ صوتًا بداخلها كان يقول: ليست الأهمّيّة للأشياء في حدّ ذاتها، ولكنّها تكمن في الأشياء التي سنصنعها. لا يفترض بنا أن نتوقّف، أنت وأنا... اغفر لي خوفي، إن كنتُ فكّرت في أنّني أستطيع أن أفقدك بسببهم، اغفر لي شكوكي. إنّهم لن يصلوا إليك أبدًا. أنا لن أخاف عليك مجدّدًا.

وقف فرنسيسكو أيضًا ينظر إليها لحظةً، وبدت تلك النظرة كأنّها لم تكن نظرةَ تحيّةٍ بعد غياب، ولكن نظرة شخص فكّر بها في كلّ يوم من تلك السنة. غير أنّها لم تكن متأكّدة، فهي ليست أكثر من لحظة عابرة قصيرةٍ إلى درجة أنّها ما إن التقطتها، حتّى تحوّل هو إلى نقطة في شجرة البتولا وراءه ليقول في لهجة عفوية ذكّرتها بلعبتهما المفضّلة زمن طفولتهما:

ـ أتمنّى أن تتعلّمي الركض أسرع. يجب عليّ أن أنتظرك دائمًا.

سألته بمرح: هل ستنتظرني؟

أجاب دون أن يبتسم: دائمًا.

وبينما كانا يَصّعّدان التلّ باتّجاه المنزل، تحدّث فرانسيسكو إلى إيدي، وكانت هي تسير بصمتٍ إلى جانبه. شعرت بوجود تكتّم جديد بينهما، والغريب في الأمر أنّه كان نوعًا جديدًا من الألفة والحميميّة.

لم تسأله عن الجامعة. سألته فقط بعد أيّام عمّا إذا كان يحبّ ذلك المكان.

أجابها: إنّهم يعلّموننا كثيرًا من التخاريف في الوقت الحاضر، ومع ذلك يوجد عدد من الدروس التي أحبّها.

ـ هل كوّنتَ بعض صداقات هناك؟

ـ فقط اثنتين.

لم يخبرها بشيء آخر. كان جيم في ذلك الوقت يقترب من سنته الأخيرة في كلّيّة بنيويورك. وقد زاده تعلّمه هناك شراسةً وأسلوبًا من العدوانيّة الغريبة والمنفعلة، كما لو أنّه عثر على سلاح جديد. خاطب فرانسيسكو ذات مرّة بلهجة عنيفة:

ـ أعتقد أنّك، الآن وقد بلغت سنّ طالب بالجامعة، يجب أن تتعلّم شيئًا عن المثل العليا. لقد حان الوقت لتنسى جشعك وأنانيّتك، وتفكّر في مسؤوليّاتك الاجتماعيّة، فأنا أظنّ أنّ كلّ تلك الملايين التي سترِثها لن تكون من أجل متعتك الشخصيّة، بل هي أمانة لصالح المحرومين والفقراء، وأرى أنّ الشخص الذي لا يدرك ذلك هو أكثر أنواع البشر فسادًا.

أجابه فرانسيسكو بلباقة: لا ينصح بمثل هذه الأمر إلّا من لا يرغب فيها، يا جيم. ويجب أن تُعفي نفسك من الاكتشاف المحرج لقيمتها الدقيقة عند سامعك.

سألته داغني وهما يبتعدان: هل يوجد رجال كثيرون من أمثال جيم في العالم؟

أجاب فرانسيسكو ضاحكًا: هم موجودون وبأعدادٍ كبيرةٍ.

ـ وهل يقلقك هذا الأمر؟

ـ لا، ليس عليّ التعامل معهم. ولماذا تسألين؟ لأنّني أعتقد أنّهم يشكّلون خطرًا

بطريقة مّا... أنا لا أعلم كيف... يا إلهي! يا داغني! هل تتوقّعين منّي أن أخاف كائنًا مثل جيم؟

وبعد أيّام، وهما وحيدان في الغابة يسيران بمحاذاة النهر، سألته:

ـ فرانسيسكو، ما هو النوع الأكثر فسادا من البشر؟

ـ رجلٌ بلا هدفٍ.

كانت تنظر إلى أعمدة الأشجار المستقيمة التي وقفت تواجه انتشار ضوء الفضاء العظيم المفاجئ والساطع الذي وراءها. كانت الغابة مظلمة وباردة، ولكنّ الأغصان الخارجيّة التقطت أشعّة الشمس الفضّيّة الساخنة إثر انعكاسها في الماء. وتساءلت عن سبب استمتاعها برؤية المشهد، والحال أنّها لم تنتبه قطُّ إلى خصائص الريف من حولها. لم تكن ترغب في النظر إلى فرانسيسكو لأنّها شعرت بأنّ حضوره يبدو أكثر واقعيّة عندما تبعد عينيها عنه، تقريبًا كما لو أنّ وعيها المجهد مستمدٌّ منه، مثل انعكاس ضوء الشمس في الماء.

سألها: ألا تعتقدين أنّك جيّدة في كلّ شيء؟

أجابته بتحدٍّ ودون أن تلتفت: لطالما كنت كذلك.

ـ حسنًا، سأراقبك وأنت تثبتين ذلك. دعيني أرَ إلى أيّ مدى ستَرتَقين بشركة تاجارت العابرة للقارّات. ومهما يكُن حُسن تدبيرك، فأنا أتوقّع منك أن تستنزفي كلّ ما تملكين لكي تكوني أفضل. وعندما ستستنزفين نفسك لبلوغ الهدف، أتوقّع منك أن تعيشي معاناة تحقيق هدف آخر.

ـ أنا لست مضطرّة إلى إثبات أيّ شيء لك؟

ـ هل تريدين منّي أن أجيب؟

قالت بهمس وعيناها ترقبان الجانب الآخر من النهر: لا.

ثمّ سمعته وهو يضحك، فقال بعد هنيهة:

ـ داغني، لا يوجد شيءٌ مهمّ في الحياة باستثناء مدى حسن عملك. لا شيء، لا شيء غير ذلك. وأيّ شيء آخر ستكونين عليه، سيستمدّ معناه من ذلك. إنّه المقياس الوحيد للقيمة البشريّة. جميع مدوّنات الأخلاق التي سيحاولون حشوها في عقلك هي مجرّد حيلٍ ينتهجونها لنهب فضائل الناس. ويبقى قانون الكفاءة هو النظام الأخلاقيّ الوحيد الذي ينبني على معيار من الذهب. عندما تكبرين، ستدركين ما أعنيه.

ـ أنا أدرك ذلك الآن. لكن... يا فرانسيسكو، لماذا أنا وأنت الوحيدان اللّذان يعلمان ذلك؟

ـ ولماذا يجب عليك أن تهتمّي بالآخرين؟

ـ لأنّني أحبّ فَهْمَ الأشياء، وثمّة شيء في الناس لا أستطيع فهمه.

ـ ما هو ذلك الشيء؟

ـ حسنًا، لم أكن يومًا محبوبة في المدرسة، ولا حظيت بأيّ شعبيّة، غير أنّ ذلك لم يكن يزعجني، لكنّني الآن اكتشفت السبب. إنّه سبب تافه جدًّا. إنّهم يكرهونني، لا لأنّني كنت أؤدّي الأشياء على نحو سيّئ، ولكن على العكس من ذلك لأنّني كنت أنجزها على نحو جيّد. إنّهم يكرهونني لأنّني أحصل دومًا على أفضل الدرجات في الصفّ. بل لم يكن يتوجّب عليّ حتّى تكبّد عناء الدراسة، فأنا أحصل دائمًا على أفضل العلامات. هل يفترض بي أن أحاول الحصول على علامات سيّئة كي أحدث تغييرًا وأصبح الفتاة الأكثر شعبيّة في المدرسة؟

تسمّر فرانسيسكو في مكانه، ينظر إليها، ثمّ صفعها على وجهها.

ما شعرت به احتوته لحظةٌ واحدةٌ، حين اهتزّت الأرض تحت قدميها، في انفجار واحد للعاطفة بداخلها. هي تعلم أنّها كانت ستقتل أيّ شخص آخر يضربها؛ شعرت بالغضب العنيف الذي كان من شأنه أن يمنحها القوّة على ذلك، وشعرت أيضًا بسرور عنيف لأنّ فرانسيسكو هو مَن فعل ذلك. لقد شعرت بمتعةٍ من الألم

الحارّ الآسن في خدّها ومن طعم الدم في زاوية من فمها. وشعرت أيضًا بالسرور في ما فهمته فجأةً عنه، وعن نفسها وعن دوافعه.

استعدّت قدماها لإيقاف الدوخة، فأمسكت رأسها مباشرةً ووقفت في وجهه قويّة، وهي تشعر للمرّة الأولى أنّهما متساويان، ثمّ نظرت إليه بابتسامة ساخرة تنمّ عن الانتصار.

سألته: هل جرحتك إلى هذا الحدّ؟

بدا مندهشًا؛ فالسؤال والابتسامة لم يكونا من قبيل ردود الأفعال الصبيانيّة. ثمّ أجاب:

ـ نعم، إذا كان هذا الأمر يرضيك.

ـ إنّه كذلك.

لا تفعلي ذلك مرّة أخرى أبدًا. أنا لا أحبّ هذا النوع من المزاح.

ـ لا تكن أحمق. فمهما كان الأمر الذي دفعك إلى هذا الاعتقاد، فلتَعلم أنّني لا أهتمّ إطلاقًا بأن أكون شعبيّة؟

- عندما تكبرين، ستدركين أنّ ما تفوّهت به هو من الأشياء التي لا توصف.

ـ أنا أدرك ذلك الآن.

التفت فجأةً، فرأته يخرج منديله ويغمسه في مياه النهر ثمّ أمرها:

ـ تعالَي إلى هنا.

قالت بعد أن ضحكت وتراجعت إلى الخلف: أوه، لا. أريد أن يندمل الجرح. أتمنّى أن يندمل أكثر، فأنا أحبّ ذلك.

نظر إليها برهةً طويلةً. ثمّ قال ببطء وبجدّيّة:

ـ داغني، أنت إنسانة رائعة.

أجابته بصوت متعجرف: ظننت أنّك تعتبرني كذلك دومًا.

وحين عادت إلى المنزل، أخبرت والدتها بأنّ شفتها قد جرحت نتيجة السقوط من الصخرة. كانت الكذبةَ الوحيدةَ التي حاكتها في حياتها. وهي لم تفعل ذلك لحماية فرانسيسكو؛ بل فعلته لأنّها شعرت، لسببٍ مّا لم تتمكّن من معرفته، بأنّ الحادث كان سرًّا ثمينًا جدًّا لا يمكن تقاسُمه مع أيّ أحدٍ.

وفي الصيف القادم، عندما جاء فرانسيسكو، كانت في السادسة عشرة من عمرها. بدأت تركض أسفل التلّ للقائه، لكنّها توقّفت فجأةً. رآها، فتوقّف هو أيضًا، ووقفا لحظةً، يتبادلان النظرات على مسافة منحدر أخضر طويل. كان هو مَن يسير نحوها، فمشى ببطءٍ شديدٍ، أمّا هي فوقفت تنتظره.

وعندما اقترب، ابتسمت ببراءة، كما لو أنّها كانت فاقدةً الوعيَ من تأثير الفرح بالمشاركة في مسابقة مّا أو من تأثير الفوز بها. ثمّ قالت:

ـ أزفّ إليك خبر حصولي على وظيفة مشغّل ليليّ بمحطّة روكديل للسكك الحديديّة.

قال بعد أن ضحك: حسنًا، الآن دخلت شركة تاجارت العابرة للقارّات في سباقٍ. دعنا نرَ مَن سيكرم شركة عائلته أكثر، أنت احتفاءً ببنات تاجارت، أم أنا احتفاءً بسيباستيان دانكونيا؟

في ذلك الشتاء، اختصرت حياتها ببساطة مشرقة في رسم هندسيّ: بضعة خطوطٍ مستقيمة، من كلّيّة الهندسة كلّ يومٍ وإليها، ثمّ من وظيفتها في محطّة روكديل كلّ ليلة وإليها، وأخيرًا الدائرة المغلقة في غرفتها، وهي غرفة مليئة بالرسوم البيانية للمحرّكات، ومخطّطات الهياكل الفولاذيّة، وجداول السكك الحديديّة.

كانت السيّدة تاجارت تراقب ابنتها في حيرةٍ. لقد كان بإمكانها أن تغفر لها كلّ زلّاتها، باستثناء واحدة: لم تُظهر داغني أيَّ علامة من علامات الاهتمام بالرجال، ولا ميلًا رومانسيًّا مهما يكن نوعه. ولم توافق السيّدة تاجارت على مثل هذا التطرّف. كانت على استعداد للتعامل مع التطرّف من النوع المعاكس، إذا لزم الأمر؛ فوجدت

أنّ تطرّف داغني هذا هو الأسوأ. وكانت تشعر بالحرج عندما تضطرّ إلى الاعتراف بأنّ ابنتها، التي بلغت السابعة عشرة من عمرها، لا تملك أيّ معجبٍ.

قالت مبتسمة بحزنٍ، ردًّا على فضول بعض أصدقائها: داغني وفرانسيسكو دانكونيا؟

ـ أوه، لا. إنّها ليست رومانسيّة. إنّه نوع مّا من الكارتيل الصناعيّ الدوليّ. هذا كلّ ما يبدو أنّهم يهتمّون به.

لقد سمعت السيّدة تاجارت ابنَها جيمس يقول في إحدى الأمسيات، بحضور الضيوف، في نبرةٍ غير معهودة من الارتياح:

ـ داغني، على الرغم من أنّك سُمّيت باسم جدّتك، فأنت تبدين أقرب إلى جدّك نات تاجارت منه إلى داغني تاجارت الجدّة، بجمالها الشهير.

لم تدرك السيّدة تاجارت أيّ أمرٍ ساءها أكثر: هل هو جيمس الذي أبدى تلك الملاحظة أم داغني التي قبلتها بصدر رحب على أنّها ضربٌ من المجاملة.

لقد اعتقدت السيّدة تاجارت أنّها لن تحظى بفرصةِ بناءِ تصوّرٍ واضحٍ حول ابنتها. وكانت داغني من منظور أمّها مجرّدَ شخصيّة لا تتقن إلّا الانتقال جيئة وذهابا إلى الشقّة على عجلٍ. فهي نحيفة الجسد، ترتدي سترةً جلديّةً، بطوقٍ منصوب، وتنّورة قصيرة وساقين طويلتين مثل سيقان عارضات الأزياء. كانت تمشي، وهي تقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، بخطواتٍ ذكوريّةٍ خشنةٍ، ولكنّها تتمتّع برونق مميّز في حركتها، إذ كانت سريعة، ومتوتّرة وغريبة الأطوار، بأنوثة متحدّية.

وفي بعض الأحيان، عندما تلقي نظرة على وجه داغني، تلتقط السيّدة تاجارت التعبير الذي لم تتمكّن من تحديده تمامًا، كان أكثر بكثيرٍ من تعبير عن الفرح، مظهره يشبه نقاء الفرح الأصليّ الذي لم يلمس، وهو ما كانت تعتبره أمرًا غير طبيعيّ. لا يمكن أن تكون فتاةٌ شابّةٌ مثلها عديمةَ الإحساس إلى درجة أنّها لم تكتشف أيّ حزن في الحياة. وخلصت إلى أنّ ابنتها لا تملك فيضًا من العواطف.

سألتها في إحدى المناسبات: داغني، ألا تريدين أن تحظي بوقت ممتع؟

أجابت داغني بعد أن نظرت إليها بريبة: ما الخطب الذي تعتقدين أنّني أمرّ به؟

لقد قرّرت السيّدة تاجارت إعطاء ابنتها الفرصة لأوّل ظهور رسميّ بمناسبة حفلة كانت ستنظّمها لصالحها، فكلّفها الأمر قدرا كبيرا من التفكير والقلق. ولم تعلم ما إذا كانت تقدّم إلى مجتمع نيويورك الآنسة داغني تاجارت ذات السجلّ الاجتماعيّ المعروف أم أنّها بصدد تقديم المشغّل الليليّ لمحطّة روكديل، وكانت تميل إلى اعتقاد أنّها أقربُ حقًّا إلى هذا التقديم الأخير؛ وأيقنت أنّ داغني سترفض فكرة هذه المناسبة. لكنّها دهشت عندما قبّلتها ابنتُها بلهفةٍ لا يمكن تفسيرها. للمرّة الأولى أحسّت أنّها تتمتّع بحماس الأطفال.

لقد اندهشت مجدّدًا، عندما رأت داغني ترتدي ملابس خاصّة بهذه الحفلة. كان أوّل فستان أنثويّ ارتدته على الإطلاق؛ ثوب من الشيفون الأبيض متناسق مع تنّورة واسعة كانت تطفو بداخلها مثل السحابة. توقّعت السيّدة تاجارت أن يبدو مظهرها مثيرًا للسخريّة. لكنّ داغني بدت كملكة جمال. فأظهرت قدرًا كبيرًا من النضج ولمسةً مشرقةً من البراءة غير المعتادة. وكان وقوفها أمام المرآة يذكّر بهيئة زوجة نات تاجارت.

قالت السيّدة تاجارت بلطفٍ وعتاب: داغني، ألا ترين مقدار جمالك عندما تريدين ذلك؟

ردّت داغني غير مندهشة: نعم.

زُيِّنت قاعة الاحتفالات في فندق واين - فوكلاند بتوجيهٍ من السيّدة تاجارت؛ كانت تملك ذوق الفنّانين، وبدا لها الإعداد لتلك الأمسية بمثابة التحفة.

قالت: داغني، ثمّة أشياء أودّ منك أن تتعلّمي ملاحظتها من قبيل: الأضواء، والألوان، والزهور، والموسيقى. إنّها أشياء غير تافهة كما قد تعتقدين لأوّل وهلة.

أجابتها داغني بسرور: لم أعتقد يومًا أنّها أشياء تافهة.

ولأوّل مرّة، أحسّت السيّدة تاجارت أنّ ثمّة رابطًا قويًّا يَصِل بينهما. كانت داغني تنظر إليها بثقة الأطفال وامتنانهم.

قالت السيدة تاجارت: إنّها الأشياء التي تجعل الحياة جميلة. أريدك أن تستمتعي بهذا المساء الجميل يا داغني. فحفلة الباليه الأولى هي الحدث الأكثر رومانسيّة في حياة المرء.

وكانت المفاجأة الكبرى عند السيّدة تاجارت هي اللحظة التي رأت فيها داغني واقفةً تحت الأضواء تنظر إلى قاعة الرقص. لم تكن داغني تبدو مثل تلك الطفلة الصغيرة أو الفتاة الشابّة، بل تشبه امرأة ناضجةً ذات قوّة واثقة وخطيرة إلى درجة أنّ السيدة تاجارت حدّقت إليها بإعجابٍ مصدومٍ. ففي عصرٍ يهيمن عليه اليوميّ الساخر والروتين الفاتر بين الناس الذين كانوا يمسكون بذواتهم كما لو أنّهم لم يكونوا جسدًا، بل مجرّد لحوم، فإنّ ما حملته داغني بدا غير لائق تقريبًا، لأنّ طريقة ظهورها هي الطريقة نفسها التي كانت المرأة تواجه بها قاعة الاحتفال منذ قرون من الزمن، حين كان فعل عرض جسد المرأة على نحو نصف عارٍ لإثارة إعجاب الرجال فعلًا على قدر كبير من الجرأة، وحين كان الجسد يحمل معنى، ولكن معنى واحدًا، اعترف به الجميع بوصفه مغامرة عالية. لقد كانت السيّدة تاجارت تعتقد أنّ هذه الفتاة خالية من القدرة الجنسية، لذلك شعرت بارتياح هائلٍ، وشيء من التسلية تجاه فكرة أنّ اكتشافًا من هذا النوع يجب أن يجعلها تشعر بالارتياح.

لم يدم شعورها بالارتياح سوى ساعات قليلة. وفي نهاية المساء، رأت داغني في إحدى زوايا قاعة الرقص، جالسةً على درابزين وكأنّها سياج سكّة حديديّة، وساقاها تتدلّيان من تحت تنّورة الشيفون كما لو أنّها ترتدي سروالًا. كانت تتحدّث إلى شابّين عاجزين بملامح فارغة تنمّ عن ازدراء.

لم تنبس داغني والسيّدة تاجارت ببنت شفةٍ وهما في طريق العودة إلى المنزل معًا. ولكن بعد ساعات، وعلى نحو مفاجئ، ذهبت السيّدة تاجارت إلى غرفة ابنتها. فوجدت داغني واقفةً بجانب النافذة، ولا تزال مرتديةً ثوب المساء الأبيض. لقد بدا

الثوب وكأنّه سحابةٌ تدعم جسدًا يبدو الآن نحيفًا جدًّا بالقياس إليه، في هيئة صغيرة بترهّل في الكتفين. وراء النافذة، كانت الغيوم رماديّة تحجب أوّل نور من ضوء الصباح.

عندما التفتت داغني، رأت السيّدة تاجارت وعلامات حيرة العجز تعلو ملامح وجهها. كان وجهها هادئًا، ولكنّ شيئًا مّا ألمّ بها جعل السيّدة تاجارت تتمنّى ألّا يكون الحزن قد استبدّ بابنتها.

سألتها داغني: أمّي، هل يعتقدون أنّ الشكل المضبوط لتلك الأشياء يكون بوضعها في الاتّجاه المعاكس؟

سألتها السيّدة تاجارت محتارةً: عن أيّ أشياء تتحدّثين؟

ـ الأشياء التي حدّثتني عنها في الحفلة من أضواء وزهور. هل يعتقدون أنّ هذه الأشياء هي ما يجعلهم أكثر رومانسيّة أو العكس؟

ـ عزيزتي، ماذا تعنين بهذا؟

ردّت بنبرةٍ موضوعيّة تعوزها الحياة: لم يكن هناك شخص يستمتع بتلك الأشياء، أو حتّى فكّر في أيّ شيء أو شعر به على الإطلاق. لقد كان الناس يتحرّكون، ويلوكون الأشياء نفسها التي يتفوّهون بها دومًا في أيّ مكان. أحْسَبُهُم يظنّون أنّ الأضواء هي التي ستجعلهم رائعين.

ـ عزيزتي، أنت تأخذين كلّ شيء على محمل الجدّ. فلا يفترض بالمرء أن يكون مثقّفًا في مثل هذه الحفلات. يفترض بالمرء أن يكون ببساطة سعيدًا.

ـ كيف؟ هل ينبغي أن يكون المرء غبيًّا؟

ـ ألم تستمتعي بلقاء هؤلاء الرجال؟

ـ أيّ رجالٍ؟ لم يكن هناك رجلٌ في الحفلة، وإلّا لكنت سحقت عشرة منهم.

وبعد أيّامٍ، جلست داغني في مكتبها بمحطّة روكديل، فشدّها الحنين إلى المنزل.

كانت تفكّر في الحفلة، لكن سرعان ما تجاهلت تلك الأفكار واستبدلت بها مشاعر اللوم وخيبة الأمل. نظرت إلى أعلى: كان الربيع وكانت هناك أوراق على أغصان الأشجار في الخارج حيث يرخي الظلام سُدُولَه. كان الهواء ثابتًا ودافئًا. وسألت نفسها عمّا توقّعته من تلك الحفلة. لم تكن تعلم، لكنّها شعرت بها الآن مرّةً أخرى هنا، بينما تسترخي على مكتبٍ بالٍ وتنظر إلى الظلام: واعترى جسدَها شعورٌ بالاستشراف دون وجود موضوع واضح مثل سائل دافئ. ثمّ نزلت بكسلٍ إلى الأمام عبر المكتب، لم تكن تشعر بالإرهاق ولا بالرغبة في العمل.

وعندما جاء فرانسيسكو في ذلك الصيف، أخبرته عن الحفلة وعن خيبة أملها. استمع إليها بصمتٍ، وكأنّه ينظر إليها للمرّة الأولى بتلك النظرة الساخرة الثابتة التي كان يعيرها للآخرين، نظرةٍ بدا أنّها ترى الكثير. وشعرت كما لو أنّه سمع، في كلماتها، أكثر ممّا قالته.

رأت في عينيه النظرة نفسها التي واجهتها ذات مساء عندما تركته في وقت مبكّرٍ جدًّا. كانا وحدَهما جالسين على ضفاف النهر. وأمامها ساعة أخرى قبل أن يحين موعد التحاقها بالعمل في محطّة روكديل. وكانت هناك شرائط طويلةٌ ورقيقةٌ من النار في السماء، والشرر الأحمر يطفو بكسلٍ على الماء. وظلّ صامتًا فترةً طويلةً، عندما نهضت فجأة وأخبرته أنّ عليها الذهاب. لم يحاول إيقافها. بل انحنى إلى الوراء، مستلقيًا على العشب، ونظر إليها دون أن يتحرّك؛ يبدو أنّ نظراته كانت تقول إنّه يعرف دافعها. فتساءلت بغضب وهي في عجلةٍ من أمرها تسير إلى أعلى المنحدر باتّجاه المنزل، عن الشيء الذي جعلها تغادر؛ لم تكن تملك إجابةً. لقد شعرت فجأةً بعدم الارتياح، لكنّها لم تستطع تحديد مصدر هذا الإحساس.

كانت تستقلّ سيّارتها كلّ ليلة نحو العمل لمسافة خمسة أميال من منزلها الريفيّ إلى محطّة روكديل، وتعود عند الفجر لتنام بضع ساعات قبل أن تنهض لقضاء بقيّة الشؤون المنزليّة. لم تكن تشعر بالرغبة في النوم. تخلع ملابس النوم مع أشعّة الشمس الأولى، فتحسب أنَّ صبرها قد نفد، هذا الإحساس الذي اعتراها جاء ممزوجًا بنوع

من التوتّر والفرحة.

رأت نظرة فرانسيسكو الساخرة مجدّدًا، من خلال شبكة ملعب تنس. لم تكن تتذكّر في البدء هذه اللعبة، كانا قد لعبا التنس معًا في أحيان كثيرة، وعادةً ما يتوّج هو فائزا بجميع اللقاءات. لم تكن تعرف اللحظة التي عقدت فيها العزم على الفوز عليه، وحين علمت بذلك، تحوّل هذا الأمر إلى مجرّد قرارٍ أو أمنية، ولكنّه كان بمثابة الغضب الهادئ الذي يفور بداخلها. لم تعرف لماذا كان يتوجّب عليها الفوز؛ لم تعلم لماذا بدا الأمر ضرورةً ملحّة إلى هذا الحدّ، لكنّها عرفت فقط أنّها يجب أن تفوز وأنّها ستفوز.

بدا اللعب سهلًا: كان الأمر كما لو أنَّ إرادتها قد اختفت وحضرت قوّة شخص مّا ليلعب عوضًا عنها. لقد شاهدت شخصيّة فرانسيسكو، بجسده الطويل والسريع، وذراعيه اللتين لفحتهما أشعّة الشمس. استبدّت بها الرغبة في رؤية مهاراته في الحركة، لأنّ ذلك هو الشيء الذي كانت ستهزمه، حتّى أصبحت كلّ حركاته المحترفة تمثّل فوزًا لها، وأصبحت كفاءة جسده الرائعة هي انتصارها.

أحسّت بإرهاق تملّكها على شكل وخزاتٍ وطعناتٍ مفاجئة جعلتها تدرك للحظة جزءًا من جسدها، وتنساه في اللحظة الموالية: كان يقبض على ذراعها، ولوحتي كتفيها، وردفيها بسروالها القصير الأبيض الملتصق ببشرتها، وعضلات ساقيها وهي تقفز لمواجهة الكرة. لكن لم تتذكّر ما إذا كانت نزلت للمس الأرض مجدّدًا. وقد ظلّ ذلك السلك الرقيق الساخن المنطلق من كاحلها حتّى ظهرها يسدّد مباشرة عبر الهواء، ليقود الكرة نحو وجه فرانسيسكو... فشعرت بالمتعة والانتشاء، لأنّ كلّ طعنة ألمٍ فُتحت في جسدها كان يجب أن تنتهي في جسده، لأنّه مرهق مثلها تمامًا. وما فعلته بنفسها، كانت تفعله أيضًا في نفسه، وهذا ما شعر به. لم تكن تشعر بألمها أو بجسدها، ولكن في الحقيقة كانت تشعر به هو.

حين نظرت إلى وجهه، وجدته يضحك. كان ينظر إليها كما لو أنّه يحاول أن يفهم. كان يلعب، لا بهدف الفوز، بل ليصعّب عليها الفوز، ويسدّد ضرباته بوحشيّة

لجعلها تركض، فيخسر النقاط قصد رؤية التواء جسدها الموجع من خلال مؤخّرة يدها، ثمّ يقف ثابتًا، ليتيح لها شعورًا مضلّلًا بأنّه يضيّع الفرص، إلّا أنّه يتدارك الأمر فيطلق العنان لذراعه فيسدّد ضربات عرضيّة في اللحظة الأخيرة ويرسل الكرة مرّةً أخرى بقوّة رهيبة، فتدرك هي أنّها سوف تخطئ إصابة الهدف. ثمّ شعرت وكأنّها لن تستطيع الحراك مجدّدًا، ولكن ليس لمدّة أكثر من المُدَد السابقة، وكان من الغريب أن تجد نفسها تهبط فجأة في الجانب الآخر من الملعب، فتردّ الكرةَ في اللحظة المناسبة ردًّا ساحقًا، وتدكّها كما لو أنّها ترغب في أن تنفجر إلى أشلاء، أو تريد أن يكون ما تسحقه هو وجه فرانسيسكو.

قالت في نفسها: فقط مرّةً أخرى، حتَّى لو كان الثمن تحطيم عظام ذراعها... مرّة واحدة فقط مجدّدًا، حتّى لو كان الهواء الذي أجبرت على تنفّسه في لهاث ضيّق، سيتسبّب لها في تورّم حلقها، أو توقّفه تمامًا... لم تحسّ بأيّ شيء، لم تحسّ بأيّ ألمٍ، كانت فقط تفكّر في أن تراه منهكًا ومنهارًا، وبعد ذلك ستكون حرّة لتموت في اللحظة الموالية.

لقد فازت. ربّما كانت ضحكته هي التي جعلته يخسر لأوّل مرّة. فمشى إلى الشبكة، بينما وقفت هي ساكنة، ثمّ ألقى مضربه عبر الشبكة، ليصل عند قدميها، كأنّما عرف أنّ هذا هو ما أرادت. خرج من الملعب وارتمى على العشب منهارًا.

اقتربت منه ببطءٍ. وقفت عند رأسه، تنظر إلى جسده وهو ممدّد عند قدميها، وتنظر إلى قميصه المبتلّ بالعرق وخصلات شعره المتدلّية عبر ذراعه. ثمّ رفع رأسه، فانتقلت نظراته ببطء من خطّ ساقيها، إلى سروالها القصير، ثمّ إلى قميصها، وصولًا إلى عينيها. لقد كانت نظرة ساخرة، نظرة تقول بمعنًى مّا إنّه تُوِّج فائزا.

في تلك الليلة، جلست بمكتبها في روكديل وحيدةً بمبنى المحطّة القديمة، تنظر إلى السماء من خلال النافذة. كانت الساعة التي تحبّها أكثر هي عندما تصبح الأجزاء العليا من النافذة أخفّ وزنًا، وتصبح قضبان المسار في الخارج خيوطًا من الفضّة غير واضحة عبر الأجزاء السفليّة. أطفأت مصباح المكتب وظلّت تراقب حركة النور

الواسعة التي يصدر منها أيّ صوت أو أيّ حركة فوق الأرض. ثمّ سكنت كلّ الأشياء من حولها، ولم ترتجف حتّى أوراق الأغصان، بينما كانت السماء تفقد لونها ببطء وتستحيل إلى فسحة تشبه انتشار الماء المتلألئ.

كان هاتفها صامتًا في تلك الساعة، وكأنّ الحركة توقّفت في كلّ مكان على طول النظام. ثمّ سمعت فجأةً خطوات تقترب من الباب. لقد قدم فرانسيسكو، ثمّ دخل. لكنّه لم يأتِ إلى هنا من قبل، ومع ذلك لم تكن مذهولة لرؤيته.

سألته: ماذا تفعل في هذه الساعة المتأخّرة؟

ـ لقد جفاني النوم.

ـ كيف وصلت إلى هنا؟ أنا لم أسمع هدير سيّارتك.

ـ لقد جئتك مشيًا على القدَمَين.

مرّت لحظات قبل أن تدرك أنّها لم تسأله عن سبب مجيئه وأنّها لا تريد سؤاله عن ذلك.

تجوّل في أرجاء القاعة، وكان يمسح بعينيه مجموعةً من شهادات الشحن التي عُلّقت على الجدران، في روزنامة تحمل صورةً لقطار النجم المذنّب لشركة تاجارت العابرة للقارّات. لقد التُقِطت له وهو يتحرّك كالبرق فتنبعث منه موجةُ فخرٍ تتجّه إلى عين المتفرّج. شعر وكأنّه في المنزل، أو بأنّه يجد المكان ملكًا لهما، مثلما كانا يشعران دائمًا أينما ذهبا معًا. ولكن يبدو أنّه لا يرغب في الحديث. لقد طرح بعض أسئلة حول وظيفتها، ثمّ التزم الصمت.

ومع بزوغ أولى خيوط الضوء في الخارج، نَمَت الحركة على الخطّ وبدأ الهاتف يرنّ مخترقًا الصمت. فتحوّلت إلى عملها. أمّا هو فجلس في الزاوية، ملقيًا إحدى ساقيه على ذراع الكرسيّ.

كانت تعمل بسرعةٍ، لأنّها تشعر بوضوح مفرط. فوجدت متعة في دقّة سرعة يديها. وركّزت على صوت الهاتف الحادّ والواضح، وعلى بيانات أرقام القطارات

والعربات وأرقام الطلبات. لم تكن واعيةً بأيّ شيءٍ آخر.

ولكن عندما رفرفت ورقةٌ رقيقةٌ وسقطت على الأرض عزمت على التقاطها، وفجأة وجدت نفسها واعيةً بتلك اللحظة بالذات عن قصدٍ، واعية بنفسها وحركتها الخاصّة. انتبهت إلى تنّورتها الرماديّة المصنوعة من الكتّان، والكُمّين المتدلّيَين من قميصها الرماديّ، وكانت ذراعها عاريةً تصل إلى أسفل الورقة. شعرت بقلبها يكاد يتوقّف بلا سببٍ أمام ذاك النوع من اللهاث الذي يشعر به المرء أثناء لحظات الترقّب. ثمّ أخذت الورقة وعادت إلى مكتبها.

كان ضوء النهار مكتملًا تقريبًا حين مرّ قطار بالمحطّة دون أن يتوقّف. في نقاء ضوء الصباح، انصهر الخطّ الطويل من أسطح السيّارات وأصبح عبارة عن شريطٍ فضّيٍّ، وبدا القطار معلّقًا فوق الأرض، وكأنّه لم يلمسها مطلقًا، بل مرّ عبر الهواء. ارتعشت أرضيّة المحطّة، واهتزّ زجاج النوافذ. راقبت داغني رحلة القطار بابتسامة مثيرةٍ. ثمّ نظرت إلى فرانسيسكو، كان ينظر إليها ويبادلها الابتسامة نفسها.

وعندما وصل المشغّل النهاريّ، سلّمته أمر المحطّة، وخرجا في هواء الصباح. الشمس لم تشرق بعدُ أمّا الهواء فكان مشعًّا. لم تشعر بأيّ إرهاق، بل شعرت فقط كما لو أنّها تستفيق من النوم.

قصدت سيّارتها، لكنّ فرانسيسكو أوقفها قائلًا:

ـ دعينا نَسِرْ إلى المنزل مشيًا على الأقدام. سنعود إلى السيّارة لاحقًا.

ـ حسنًا، لك ذلك.

لم تكن مندهشةً ولم تمانع في احتمال المشي لمسافة خمسة أميال. بدا الأمر طبيعيًّا؛ طبيعيًّا، أمام لحظة غريبة كانت واضحة بشكلٍ حادٍّ، ولكنّها قطعت مع كلّ شيء. كانت لحظةً فوريّةً مباشرةً، ولكنّها منفصلةٌ، مثل جزيرةٍ مشرقةٍ في جدارٍ من الضباب، أو واقعٍ متأزّمٍ لا يرقى إليه الشكّ. وذاك شعورٌ قد يجده المرء حينما يكون في حالة سكرٍ.

كانت الطريق تمرّ عبر الغابة. فتركا الطريق السريعة واختارا السير في مسلك قديم مرورًا بين الأشجار عبر أميالٍ من الريف النقيّ. لم تكن حولهما آثارٌ لوجود بشريٍّ. فالدرب القديم ملأته الأخاديد، وتضخّم نموّ العشب فيه، فجعل الوجودَ البشريّ يبدو أكثر بعدًا، مضيفًا مسافة السنوات إلى مسافة الأميال. بقي سديم الشفق على الأرض. ولكن في فواصل بين جذوع الأشجار كانت هناك أوراقٌ معلّقة في بقعٍ من الخضرة الساطعة التي يبدو أنّها تضيءُ الغابة. لا تزال الأوراق معلّقة، بينما هما يمشيان بمفردهما ويتحرّكان عبر عالم لا حركة فيه. لاحظت فجأةً أنّهما لم ينبسا ببنت شفة منذ فترة طويلة.

وصلا إلى أرض مقطوعة الشجر في الغابة. كانت عبارة عن أرض مجوّفة صغيرة في الجزء السفليّ من قناةٍ صنعتها سفوح التلال الصخريّة المستقيمة. وتقطعها سيول جدول عبر العشب، وانسياب أغصان الأشجار التي تنخفض على الأرض، مثل ستارةٍ من السائل الأخضر. كان صوت الماء يلحّ على مزيد من الصمت. وكانت السماء المفتوحة بانقطاعها البعيد تجعل المكان يبدو أكثر سرّيّة. وبعيدًا عن تلك الأرض، نحو الأعلى على قمّة تلّة، التقطت إحدى الأشجار أشعّة الشمس الأولى.

توقّفا وأخذا يتبادلان النظرات. وعلمت، أنّه ما إن يقرّر تقبيلها حتّى تعرف أنّه يريدها فعلا. فضمّها إليه، وأحسّت بشفتيها في فمه، وبذراعيها تمسكانه كإجابة عنيفة، وشعرت لأوّل مرّة كم كانت تريده أن يفعل ذلك.

شعرت بلحظة تمرّد وشيءٍ من الخوف. أمسك بها، وأخذ يضغط بجسده على طول جسدها في إصرارٍ متوتّرٍ وهادفٍ، ويدُه تلامس نَهْدَيها كما لو أنّه يتعلّم حميميّة امتلاك جسدها. كانت حميميّة صادمة لا تحتاج إلى موافقة أو إِذْنٍ منها. حاولت أن تسحب نفسها بعيدًا، لكنّها اكتفت بالانحناء إلى الوراء في مقابل ذراعيه فترةً تكفي لرؤية وجهه وابتسامته، تلك الابتسامة التي أخبرتها أنّها منحته الإذنَ منذ فترة طويلة. ظنّت لحظةً أنّها يجب أن تهرب؛ لكنّها بدلًا من ذلك، كانت هي من يسحب رأسه إلى أسفل بحثًا عن فمه مجدّدًا.

كانت تعلم أنّه لا فائدة من الخوف، وأنّه سيفعل ما يشاء، وأنّ القرار قراره، وأنّه لم يترك لها شيئًا ممكنًا باستثناء الشيء الذي تريده أكثر من غيره. لم تكن تدرك هدفه، وألغت كلّ معرفتها الغامضة به، ولم تكن تملك القوّة لكي تصدّق ما وقع في تلك اللحظة. كانت تعلم فقط أنّها تشعر بالخوف، وقد قالت في نفسها: لا تسألني عن ذلك، أوه، لا تسألني، افعل ذلك!

لقد أعدّت قدميها لتلك اللحظة، حتّى تقاوم، لكنّه ضغط بفمه على فمها ثمّ نزلا إلى الأرض معًا، دون التوقّف عن القبلات الحارّة. استقرّت تحته بلا حراكٍ، ثمّ كان الارتعاش وكأنّه حركة بسيطة قام بها، بلا تردّدٍ، كأنّه حقّ، حقّ المتعة اللّامتناهية التي وهبها لهما ذلك الارتعاش.

وفي الكلمات الأولى التي أصدرها بعد ذلك، ذكر ما يعنيه لهما الأمرُ الذي عاشاه. قال:

ـ يجب على الواحد منّا أن يتعلّمه من الآخر.

نظرت إلى جسده الطويل الممتدّ على العشب بجانبها، وكان يرتدي بنطلونًا وقميصًا أسودَين، توقّفت عيناها على الحزام مشدودًا عبر خصره النحيل، وشعرت بوخزةٍ عاطفيّة تشبه شهقة الفخر، فخر بأنّها امتلكت جسدَه. استلقت على ظهرها، تنظر إلى السماء، ولم تكن تحسّ بالرغبة في التحرّك أو التفكير أو معرفة أنّه يوجد أيّ زمن بعد تلك اللحظة.

عندما عادت إلى المنزل، وما إن استلقت على السرير عاريةً، حتّى كان آخرُ ما فكّرت فيه هو الأوقات التي أرادت التعبير عنها ولم تجد أيّ سبيل إلى ذلك. حدث هذا لأنّ جسدها أصبح أكثر خصوصيّة بطريقة غير مألوفة ونادرةٍ جدًّا، حتّى إنّها لم تلمس ثوب النوم. لقد منحتها تلك الطريقة متعةَ الشعور بأنّها عاريةٌ وبأنّ ملاءات السرير البيضاء لمست جسد فرانسيسكو عندما خيّل لها أنّها لن تنام. فهي لا تريد أن ترتاح وتفقد أروع إرهاقٍ عرفته على الإطلاق. كانت تشعر بشيء أكبر من السعادة، إنّه شعور بمباركة الفرد على الأرض كلّها، الشعور بالحبّ في حقيقة وجود المرء في

هذا النوع من العالم؛ واعتقدت أنّ الفعل الذي تعلّمته هو السبيل التي يمكن للمرء التعبير بها عن ذلك. وإذا كانت هذه الفكرة ذات أهمّيّة بالغة، فهي لم تكن تعلمها؛ لا شيء يمكن أن يكون خطيرًا في كونٍ انقرض فيه مفهوم الألم؛ لم تكن واعيةً لتقيِّمَ استنتاجها؛ كانت نائمة، وعلى وجهها ابتسامةٌ خافتة، في غرفة صامتة مضيئة ومليئة بنور الصباح.

في ذلك الصيف، التقت به في الغابة، عند زوايا مخفية بجانب النهر، على أرضيّة كوخٍ مهجورٍ، في قبو المنزل. كانت تلك هي الأوقات الوحيدة التي تعلّمت فيها الإحساس بالجمال من خلال النظر إلى العوارض الخشبيّة القديمة أو مشاهدة الصفيحة الفولاذيّة لآلةِ تكييف الهواء التي كانت تدور بشكل متقطّع وموقَّعٍ فوق رأسيهما. كانت ترتدي البنطلونات أو الفساتين الصيفيّة القطنيّة، لكنّ أنوثتها لا تكون صارخةً إلّا وهي تقف بجانبه، متدلّية على ذراعيه، واهبةً نفسها ليفعل أيّ شيء يريده. وكان ذلك اعترافًا صريحًا بقدرته على إشعارها بالعجز من خلال المتعة التي كانت رهن سلطته، فيمنحها إيّاها. لقد علّمها كلّ دروب الحسّ وسبل الشهوانيّة التي أمكن له أن يخترعها.

قال لها ذات مرّةٍ وبكلّ بساطة: **ألَيْس من الرائع أنّ في وسع أجسادنا أن تمنحنا الكثير من المتعة؟**

كانا سعديين وبريئين. ولم يَقْدِرَا معًا على تصوّر أنّ الفرح هو الخطيئة.

لقد احتفظا بسرّهما دون معرفة الآخرين، لا لأنّ ما جمعهما فعلٌ يشبه الذنب المخزي، ولكنّه كان شيئًا عزيزًا عليهما، يتجاوز حقّ أيّ شخص في مناقشته أو تقييمه. فالعقيدة العامّة تزدري الجنس، وتراه ضعفًا قبيحًا في طبيعة الإنسان الدنيا، ومن هنا يجب التغاضي عنه بكلّ أسفٍ. لقد عانت من مشاعر العفّة التي جعلتها تقلّص لا من حجم رغبات جسدها، ولكن من أيّ اتّصالٍ بالعقول التي تحمل ذاك المذهب.

في ذلك الشتاء، قدم فرانسيسكو لرؤيتها في نيويورك، وكان يزورها من حين إلى

آخر لفترات غير متوقَّعة. كان يستقلّ الطائرة من كليفلاند، دون سابق إنذار، مرّتَين في الأسبوع، أو ربّما يختفي أحيانًا لأشهر. ستكون عندئذٍ جالسةً على أرضيّة غرفتها، محاطةً بالجداول والمخطّطات، وستسمع طرقًا على بابها ثمّ تصرخ:

ـ أنا مشغولة!

ـ هل أنت مشغولة حقًّا؟

تقفز من الفرح لفتح الباب على مصراعيه، فتجده واقفًا هناك. كانا يذهبان إلى شقّة استأجرها في المدينة، وهي شقّة صغيرة في حيّ هادئ. سألته ذات مرّة، في دهشة مفاجئة:

ـ فرانسيسكو، أنا عشيقتك، أليس كذلك؟

أجاب بعد أن ضحك: هذا ما أنت عليه.

شعرت بالفخر الذي يفترض أن تعيشه امرأةٌ عند منحها لقبَ الزوجة. وفي الأشهر التي يغيب فيها، لم يحدث البتّة أن ساورتها الشكوك. كانت تؤمن أنّه صادق معها. لقد خبرت ذلك، على الرغم من أنّ سنّها كانت أصغر بكثير من معرفة السبب. إنّ الرغبة العشوائيّة والانغماس غير الانتقائيّ ممكنٌ فقط لأولئك الذين يعتبرون الجنس وأنفسهم شرًّا.

ومع ذلك لم تكن تعلم غير القليل عن حياة فرانسيسكو. كانت سنته الأخيرة في الكلّيّة. ونادرًا ما تحدّث عن حياته الجامعيّة، أمّا هي فلم تسأله قطُّ عنها. اشتبهت في أنّه كان يعمل بجدّ، لأنّها رأت أحيانًا في ملامح وجهه نظرةً مشرقة بشكل غير طبيعيّ، توحي بمظهر البهجة التي تأتي من دفع طاقة المرء خارج حدودها. ضحكت منه في إحدى المرّات، متفاخرةً بأنّها كانت موظّفة قديمة في شركة تاجرت العابرة للقارّات، بينما لم يبدأ هو بعدُ في العمل من أجل لقمة العيش. فقال:

ـ والدي يرفض أن أعمل لدى شركة دانكونيا للنحاس حتّى أتخرّج.

ـ ومتى تعلّمت أن تكون مطيعًا؟

ـ يجب أن أحترم رغباته. إنّه صاحب شركة دانكونيا للنحاس... لكنّه لا يملك جميع شركات النحاس في العالم.

لم تعلم بالقصّة حتّى جاء الخريف التالي، عندما تخرّج وعاد إلى نيويورك بعد زيارة والده في بوينس آيرس. ثمّ أخبرها بأنّه تلقّى دورتين دراسيّتين خلال السنوات الأربع الماضية؛ واحدة في جامعة باتريك هنري، والأخرى في مسبك نحاسيّ بضواحي كليفلاند.

قال: أحبّ أن أتعلّم الأشياء بنفسي.

لقد بدأ العمل في المسبك صبيَّ فرنٍ، عندما كان في السادسة عشرة من عمره. وها هو الآن، وهو في سنّ العشرين، يمتلك ذلك المسبك. لقد حصل على لقبه الأوّل في شهادة الملكيّة، بفضل مساعدة بعض أخطاء من صميم عمره، ويومَ حصل على الدبلوم الجامعيّ، أرسل الشهادتين إلى والده.

تقاسم معها صورة المسبك. كان مكانًا صغيرًا قاتمًا، سيّئ السمعة ومتهاويًا بسبب قِدَمه، ومحطّمًا بسنوات من الصراع الخاسر. على بوّابة الدخول عُلّقت لافتة، مثل علمٍ جديدٍ على سارية مهجورة، كُتِبَ عليها: شركة دانكونيا للنحاس.

لّما علم رجل العلاقات العامّة بمكتب والده في نيويورك بالأمر، أصدر أنّات الغضب وقال:

ـ لكن، دون فرانسيسكو، لا يمكنك فعل ذلك! ماذا سيقول عامّة الناس؟ لا يعقل أن يعلّق هذا الاسم في لافتة على مصبّ نفايات من هذا النوع؟

أجابه فرانسيسكو: إنّه اسمي.

كان مكتب والده في بوينس آيرس عبارةً عن قاعة كبيرة دقيقةٍ وحديثةٍ مثل المُختَبر، بصورٍ لممتلكات شركة دانكونيا للنّحاس، وعلى جدرانها لم تُعلَّق للزينة سوى صورٍ لأعظم المناجم، وأحواض الخام وفروع المسابك الأخرى في أنحاء العالم. ولّما دخله رأى، في مكانِ علامات الشرف، وهو يواجه مكتب والده، صورةً

لمسبك كليفلاند مع اللّافتة الجديدة فوق بوّابته.

انتقلت عينا والده من الصورة إلى وجه فرانسيسكو بينما كان يقف أمام المكتب.

سأله والده: أليس هذا مبكّرًا؟

ـ لم أستطع تحمّل أربع سنوات من اللّاشيء سوى المحاضرات.

ـ من أين حصلت على المال لتسدّد أوّل دفعة من ثمن هذا العقّار؟

ـ من خلال اللعب في بورصة نيويورك.

ـ ماذا؟ من علّمك فِعل ذلك؟

ـ الحكم على المشاريع الصناعيّة، أيّها سيربح وأيّها سيخسر، ليس بالأمر الصعب.

ـ من أين حصلت على المال لتدخل البورصة؟

ـ من الإعانة التي كنت ترسلها إليّ ومن مرتّباتي الشهريّة.

ـ ومنذ متى كنت تملك وقتًا لمراقبة سوق الأسهم؟

ـ بينما كنت أكتب أطروحة حول ما لنظريّة أرسطو عن المتحرّك الذي لا يتحرّك من أثرٍ على الأنظمة الميتافيزيقيّة اللّاحقة.

في ذلك الخريف، كانت إقامة فرانسيسكو بنيويورك قصيرة. وكان والده يعدّ لإرساله إلى ولاية مونتانا مساعدَ مديرٍ لمنجم دانكونيا.

قال لداغني مبتسمًا: حسنًا، والدي لا يرى أنّ من الجيّد لي الارتقاء بسرعة كبيرة. لن أطلب منه أن يصدّقني فقط بدافع الإيمان. إذا كان يريد برهنة ملموسةً على ما يمكنني فعله، فسأمتثل.

وفي الربيع، عاد فرانسيسكو رئيسًا لمكتب نيويورك بشركة دانكونيا للنحاس.

لم تقابله كثيرًا في العامين التاليَين. وحتّى أثناء لقائه فإنّها لا تعلم في اليوم الموالي حتّى بمكان وجوده، وفي أيّ مدينة أو في أيّ قارّة كان. لطالما كان يأتي إليها بشكل غير متوقَّع، وقد أحبّت ذلك، لأنّه جعله حضورًا مستمرًّا في حياتها، مثل أشعّة النور

الخفيّ التي يمكن أن تبهرها في أيّ لحظةٍ.

وكلّما رأته في مكتبه، فكّرت في يديه كما رأتهما على عجلة قيادة الزورق الذي كان هديّة عيد ميلاد جيم: كان يدير أعماله بالسرعة السلسة والخطيرة والمتقنة نفسها. ولكن علقت بذهنها حادثةٌ واحدةٌ صغيرةٌ باتت تشبه الصدمة: لم تكن تلك الحادثة ملائمة له. ذات مساء، شاهدته واقفا عند نافذة مكتبه وهو ينظر إلى الشفق الشتويّ البنّيّ أعلى المدينة. لم يتحرّك لفترة طويلة. بدت ملامح وجهه تشير إلى القسوة والضيق. لقد كان يملك نظرة عاطفيّة لم تعتقد أنّها يمكن أن تساوره: نظرة الغضب المرير العاجز. فقال:

ـ يوجد شيء خاطئ في العالم. لطالما كان هناك دائمًا. شيء لم يحظ باسم أو تفسيرٍ على الإطلاق.

لكنّه تكتّم ولم يخبرها بما كان عليه. وعندما رأته مرّة أخرى، لم تجد أيّ أثر لذلك الحادث، ولا لتلك الطريقة في التفكير. وعندما حلّ الربيع، وَقَفَا معًا على شرفة أحد المطاعم، حيث كانت الريح تهبّ على الحرير الخفيف لثوب السهرة الذي كانت تلبسه وهي قبالة جسده الطويل في ملابس سوداء رسميّةٍ، ينظران إلى المدينة. وفي غرفة الطعام خلفهما، كانت أصوات الموسيقى تشير إلى حفل موسيقيّ لريتشارد هالي. لم يكن اسم هالي معروفًا عند كثيرين، لكنّهم اكتشفوه وأحبّوا موسيقاه.

قال فرانسيسكو: ليس علينا البحث عن ناطحات السحاب من بعيدٍ، أليس كذلك؟ لقد وصلنا إليها.

قالت مبتسمة: أعتقد أنّنا سنتجاوزها... أخشى ربّما... نحن في مصعد يمضي بشيءٍ من السرعة.

ـ بالتأكيد. لكن، لماذا أنت خائفة؟ فليُسرع. وهل من الضروريّ أن توجد حدود؟

كان في الثالثة والعشرين من عمره عندما توفّي والده وذهب إلى بوينس آيرس لتولّي ملكيّة شركة دانكونيا. وهي الآن على ملكه. أمّا داغني فلم تره لمدّة ثلاث

سنوات.

في البداية، كان يكتب لها الرسائل على فترات متباعدة. كتب لها عن شركة دانكونيا للنحاس، وعن السوق العالميّة، وحول القضايا التي تؤثّر على مصالح شركة تاجارت العابرة للقارّات. وكانت رسائله قصيرةً، ومكتوبةً بخطّ اليد، ويكتبها عادةً في الليل.

لم تكن حزينة في غيابه. لأنّها انشغلت بخطواتها الأولى تجاه السيطرة على مملكتها المستقبليّة. سمعت أحد قادة الصناعة، من بين أصدقاء والدها، يقول إنّ من الأفضل للمرء أن يراقب وريث شركة دانكونيا الصغير. إذا كانت شركة النحاس هذه رائعة من قبل، فإنّها ستكتسح العالم الآن، في ظلّ النجاحات التي وعدت إدارتها بتحقيقها. فابتسمت داغني دون ذهول. ثمّة لحظات كانت تشعر فيها بشوق مفاجئ وعنيف إلى فرانسيسكو، لكنّها تتمثّل ذلك على أنّه وجه من وجوه نفاد الصبر وليس شيئًا من قبيل الألم. طردت كلّ تلك المشاعر من مخيّلتها، لأنّها تعلم علم اليقين أنّهما يعملان من أجل مستقبلٍ من شأنه أن يجلب لهما كلّ ما يريدانه، بما في ذلك جلب أحدهما إلى الآخر. ثمّ توقّفت رسائله.

كانت في الرابعة والعشرين من عمرها في ذلك اليوم الربيعيّ عندما رنّ هاتف مكتبها بمبنى شركة تاجارت.

قال صوت مألوفٌ: داغني، أنا في فندق واين-فوكلاند. تعالي لتتناولي العشاء الليلة.

قالها دون تحيّةٍ، كما لو أنّهما لم يفترقا إلّا أمس وليس منذ شهور طويلة. ولأنّها استغرقت لحظة لاستعادة فنّ التنفّس، أدركت لأوّل مرّة مدى ما يعنيه لها ذلك الصوت.

أجابته: حسنًا... فرانسيسكو.

كانا يحتاجان إلى عدم قول أيّ شيءٍ آخر. ظنّت، وهي تضع سمّاعة الهاتف لتقفل

الخطّ، أنّ عودته طبيعيّة مثلما توقّعت حدوث ذلك دومًا، باستثناء حاجتها المفاجئة إلى نطق اسمه أو نبضة السعادة التي شعرت بها عند نطقها.

عندما دخلت غرفته في الفندق ذلك المساء، توقّفت لحظةً. فقد كان واقفًا في منتصف الغرفة، ينظر إليها، ورأت ابتسامة ارتسمت ببطءٍ، بشكل لاإراديّ، كما لو أنّه فقد القدرة على الابتسام واستغرب من استعادة ابتسامته. نظر إليها بشكل لا يصدَّق، ولم يصدّق تمامًا ما كانت عليه أو ما شعرت به. كان نظره مثل النداء، مثل صرخة لمساعدة رجلٍ لا يستطيع البكاء. عند دخولها، بدأت بتحيّتهما القديمة، وبدأ بقول: مرحبًا، لكنّه لم يكملها. وبدلًا من ذلك، وبعد لحظة، قال دون ثقة:

ـ داغني، أنت جميلة.

ـ فرانسيسكو، أنا....

هزّ رأسه، كي لا يسمح لها بنطق الكلمات التي لم يتفوّه بها أحدهما للآخر مطلقًا، على الرغم من أنّهما كانا يعرفان أنّ كليهما صرّحا بها ضمنا وسمعاها في تلك اللحظة.

اقترب منها، وأخذها بين ذراعيه، وقبّل ثغرها وأمسكها لفترة طويلة. عندما نظرت إلى ملامح وجهه، وجدته يبتسم لها بثقة وسخريّة. أخبرتها ابتسامته أنّه كان مسيطرًا على نفسه وعليها وعلى كلّ شيءٍ، وأمرتها بنسيان ما رأته في تلك اللحظة الأولى. فقال:

ـ مرحبا سبيكة.

لم تكن متأكّدة من أيّ شيءٍ سوى أنّها يجب ألّا تطرح عليه أسئلة. ابتسمت وقالت:

ـ مرحبا فريسكو.

كان بإمكانها فهم أيّ تغيير، لكنّها تستطع فهم الأشياء الظاهرة التي رأتها. ليس في تقاسيم وجهه بريقُ الحياة، ولا أمارات المرح. فقد بدت ملامحُ وجهه توحي بأنّه أصبح عنيدًا. ولم يكن التماس ابتسامته الأولى نداء ضعفٍ؛ فقد اكتسب مسحةً من

العزم الذي يبدو بلا رحمة. لقد تصرّف تصرّفَ رجل واقف باستقامة تحت وطأة عبءٍ لا يطاق. رأت ما لم تكن تحسبه ممكنًا: وجود خطوط مرارة في ملامح وجهه وكونه يبدو معذّبًا.

قال: داغني، لا تندهشي من أيّ شيء أفعله، أو من أيّ شيء سأفعله في المستقبل.

وكان هذا هو التفسير الوحيد الذي منحها إيّاه، ثمّ شرع في التصرّف كما لو أنّه لا يوجد شيءٌ يحتاج إلى تفسير.

لم تشعر إلّا بقلق خافت؛ كان من المستحيل أن يتسلّل الخوف إلى مصيره أو أثناء حضوره. وعندما ضحك، اعتقدت أنّهما عادا إلى الغابة بجانب نهر هدسون: لم يتغيّر ولن يتغيّر أبدًا.

قُدِّم لهما العشاء في غرفته، فوجدت أنّ من الممتع الجلوس قبالته عبر طاولة رُتِّبت وفق الشكليّات الجليديّة المتعلّقة بالكُلفة المفرطة، في غرفة فندق مصمّمةٍ كقصر أوروبيّ.

كان فندق واين-فوكلاند هو الأكثر تميّزًا في كلّ القارّات. وبدا أسلوبه الموغل في الترف، من الستائر المخمليّة والألواح المنحوتة ومن أضواء الشموع، متناقضًا مع وظيفته: فهو لا يقبل استضافة أحدٍ باستثناء الرجال الذين جاؤوا إلى نيويورك من أجل الأعمال التجاريّة، ولتسوية المعاملات التي تشمل العالم. لاحظت داغني أنّ طريقة النُّدُل الذين جلبوا لهما العشاء توحي باحترام خاصّ لهذا الضيف المميّز في الفندق، وأنّ فرانسيسكو لم يلاحظ ذلك. لم يكن مباليًا وبدا كأنّه في المنزل. لقد اعتاد منذ فترة طويلة على حقيقة أنّه سيّد عائلة دانكونيا ومالك شركة دانكونيا للنحاس.

لكنّها اعتقدت أنّ من الغريب عدم حديثه عن عمله. كانت تتوقّع أن يكون اهتمامه الوحيد وأوّل شيء سيشركها في الحديث عنه، لكنّه لم يذكر ذلك. وبدلًا من هذا الأمر، قادها إلى الحديث عن وظيفتها، وتقدّمها، وما شعرت به تجاه شركة تاجارت العابرة للقارّات. فتحدّثت عن ذلك لأنّها ببساطة كانت تتحدّث إليه على

الدوام، مع العلم أنّه الإنسان الوحيد الذي يمكنه أن يتفهّم حرصها الكبير على العمل في شركة تاجارت. ولكنّه لم يُدلِ بأيّ تعليق، بل اكتفى بالاستماع إليها في اهتمامٍ.

ثمّ شغّل نادلٌ الراديو لإسماعهما موسيقى العشاء؛ لم يوليا ذلك أيّ اهتمام. ولكن فجأةً، اصطدما بصوتِ تَحطُّم شيءٍ مّا بالغرفة، كما لو أنّ انفجارًا تحت الأرض قد ضرب الجدران فارتجفت. وكانت الصدمة، لا بسبب الصخب، بل من نوعيّة الأنغام التي صدرت عن ذلك التحطّم. لقد كان كونشرتو هالي الجديد، الذي كُتب مؤخّرًا: **الكونشرتو الرابع.**

جلسا في صمتٍ، واستمعا إلى بيان التمرّد، نشيد انتصار الضحايا العظماء الذين يرفضون قبول الألم. كان فرانسيسكو يستمع متأمّلًا المدينة.

ودون مقدّمات، سألها بلهجة غريبة:

ـ داغني، ماذا ستقولين لو طلبت منك مغادرة شركة تاجارت العابرة للقارّات والذهاب إلى الجحيم مثلما سيكون الحال مع شقيقك؟

أجابت بغضبٍ: ماذا سأقول لو طلبت منّي أن أفكّر في الانتحار؟

ظلّ صامتًا. فقاطعت صمته بصوت عالٍ:

ـ لماذا قلت ذلك؟ ما كنتُ أحسبك تمزح معي بمثل هذه الموضوعات. هذا ليس من طبعك.

أجابها بهدوء وحدّة: لا. طبعًا. يجب ألّا أكون كذلك.

ثمّ أتت على الأسئلة التي تتّصل بعمله فأجاب عليها؛ لم يختلق شيئًا. أمّا هي فكرّرت على مسامعه تعليقات الصناعيّين حول الآفاق الرائعة لشركة دانكونيا للنحاس تحت إدارته. فقال بصوت يخلو من الحماس:

ـ هذا صحيح.

وبسبب قلق مفاجئ سألته:

ـ فرانسيسكو، لماذا جئت إلى نيويورك؟

أجابها بهدوء: جئت لرؤية صديق تلقّيت منه دعوة.

ـ أهي دعوة عمل؟

كان ينظر إليها، كأنّما يجيب على فكرة خاصّة به، مبتسمًا ابتسامة خفيفة بمرحٍ مرير على ملامح وجهه، ولكنّ صوته كان يضجّ حزنًا، وأجابها:

ـ نعم.

كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل بكثيرٍ عندما استيقظت في السرير بجانبه. لم تأتِ أيّ أصوات من المدينة. لقد خيّم السكون على الغرفة، فجعل الحياة تبدو معلّقةً لفترة من الوقت. وبسبب استرخائها في السعادة والإرهاق الكامل، التفتت لإلقاء نظرة عليه. كان مستلقيًا على ظهره متّكئًا على وسادةٍ. رأت صورته مقابل اندفاع ضباب سماء الليل في النافذة. كان مستيقظًا وعيناه مفتوحتان، وكان يغلق فمه كرجلٍ يعاني ألمًا لا يطاق، فتحمَّله ولم يحاول إخفاءه.

كانت خائفةً جدًّا من أيّ حركةٍ. فأحسّ بنظرتها والتفت إليها. فارتجف فجأة، وألقى البطّانيّة جانبًا، ونظر إلى جسدها العاري، ثمّ سقط إلى الأمام ودفن وجهه بين نهدَيها. أمسك بكتفيها، وهو مشدود إلى تشنّجها. وسمعت الكلمات بهمسٍ، كلّما ضغط بفمه على بشرتها:

ـ لا أستطيع التخلّي عنه! لا أستطيع!

ـ عن ماذا؟

ـ عنك أنت.

ـ لماذا يجب عليك..

ـ وعن كلّ شيء.

ـ لماذا يجب أن تتخلّى عنه؟

ـ داغني! ساعدني على البقاء. على الرفض. وإن كان على حقّ!

ـ فرانسيسكو، رفض ماذا؟

لم يجب، اكتفى بِدَسِّ وجهه بين نهدَيها بقوّة أكبر. وبقيت هي ثابتة وغير واعية بأيّ شيء سوى الحاجة إلى الحذر. كان قد وضع رأسه على صدرها، ويدها تداعب شعره بلطفٍ، وهي مستلقية تنظر إلى سقف الغرفة، إلى الأكاليل المنحوتة المرئيّة بشكل خافت في الظلام، وكانت تنتظر جوابه وهي مخدَّرة بالخوف.

كان يشتكي قائلًا:

ـ هذا صحيح، ولكن من الصعب جدًّا القيام به! يا إلهي، إنّه صعب جدًّا!

وبعد فترة، رفع رأسه. ثمّ جلس وتوقّف عن الارتعاش.

ـ فرانسيسكو،عمَّ تتحدّث؟

ـ لا أستطيع إخبارك.

جاء صوته سَلِسًا، ومنفتحًا، ومن دون محاولة لإخفاء المعاناة، لكنّه كان صوتًا يُطاوعه الآن.

ـ أنت لست مستعدّة بعد لسماع ذلك.

ـ أريد مساعدتك.

ـ لا يمكنك ذلك.

ـ لقد طلبت منّي أن أساعدك على الرفض.

ـ لا أستطيع الرفض.

ـ إذن اسمح لي أن أتقاسم معك هذا الأمر.

هزّ رأسه. ثمّ جلس ينظر إليها، كأنّما يزن كلامه استعدادًا لطرح سؤالٍ. ثمّ هزّ رأسه مجدّدًا، وكأنّه يجيب نفسه. وقال:

ـ مادمتُ غير متأكّد فأنا لا أستطيع إخبارك.. كيف يمكن لك ذلك؟

قالت بهدوء وجهد، في محاولة منها لتفادي الصراخ: فرانسيسكو، يجب أن أعرف.

ـ هل ستسامحينني؟ أعرف أنّك مرعوبة، وأنّ الأمر قاسٍ. ولكن هل ستفعلين هذا من أجلي، هل ستنسَين الأمر، فقط انسيه، ولا تسأليني عن أيّ شيء؟

ـ أنا؟

ـ هذا كلّ ما يمكنك فِعْله من أجلي. هل يمكنك ذلك؟

ـ نعم، فرانسيسكو.

ـ لا تقلقي بشأني. لقد حدث ذاك الأمر لي هذه المرّة فقط، ولن أسمح بتكرّره مجدّدًا. سيكون أسهل بكثير... في وقت لاحقٍ.

ـ إذا كنت أستطيع...

ـ ما من داعٍ. اخلدي للنوم عزيزتي.

وكانت تلك المرّة الأولى التي يستخدم فيها كلمة من ذاك القبيل: عزيزتي.

في الصباح، واجهها علنًا، ولم يتجنّب نظرتها القلقة، لكنّه لم يقل شيئًا عن ذلك الأمر. رأت خليطًا من الصفاء والمعاناة في هدوء ملامح وجهه، وهو تعبير يشبه ابتسامة الألم، على الرغم من أنّه لم يكن يبتسم. والغريب في الأمر أنّ ذلك الحدث جعله يبدو أصغر سنًّا. لم يكن يبدو الآن رجلًا ناضجًا قادرًا على تحمّل العذاب، بل رجلًا يهتمّ بما يجعل التعذيب جديرًا بالتحمّل.

لم تستجوبه قبل مغادرتها. سألته فقط:

ـ متى أراك مجدّدًا؟

ـ لا أعلم. لا تنتظريني يا داغني. في المرّة القادمة التي سنلتقي فيها لن ترغبي في رؤيتي. سيكون لديّ سببٌ للأشياء التي سأفعلها لكن لا أستطيع إخبارك بالسبب. وستكونين محقّةً في لعني. لن أرتكب أيّ فعل دنيء بقصد طلب تصديقي. عليك أن

تعيشي استنادا على معرفتك وحكمك. سوف تلعنينني. سوف يكون الأمر موجعًا وسيصيبك الأذى منه. حاولي ألّا تدعيه يؤذيك كثيرًا وتذكّري أنّي قلت لك هذا وأنّه كان كلّ ما يمكن أن أقوله لك.

لم تسمع منه شيئًا أو عنه لمدّة عامٍ. وعندما بدأت تسمع القيل والقال والشائعات وطالعت بعض القصص الصحفيّة، لم تصدّق في البداية أنّهم كانوا يشيرون إلى فرانسيسكو دانكونيا. وبعد فترةٍ، كان عليها أن تصدّق الأمر.

قرأت قصّة الحفلة التي أقامها على يخته، في ميناء فالبارايسو. إذ ارتدى الضيوف بدلات السباحة، وكانت أمطارُ الشمبانيا وبتلات الزهور تتساقط على الطوابق طوال الليل.

ثمّ قرأت قصّة الحفلة التي أقامها في منتجع صحراويّ بالجزائر. لقد بنى جناحًا خاصًّا من صفائح رقيقة من الجليد ومنح كلّ ضيفةٍ لحافًا قُدَّ من فرو القاقم، هديّةً لارتدائه في المناسبات، بشرط إزالة أطواقهنّ، ثمّ فساتين السهرة، ثمّ كلّ ما تبقّى من ملابسهنّ، في تناغمٍ مع ذوبان جليد الجدران.

وقرأت روايات عن المشاريع التجاريّة التي اضطلع بها على فترات طويلة؛ كانت المشاريع ناجحة بشكل مذهل ودمّرت كلّ منافسيه، لكنّه انغمس فيها مثل انغماسه في أيّ رياضة عرضيّة، وكان يشنّ هجمات مفاجئة، ثمّ يختفي من المشهد الصناعيّ لمدّة عامٍ أو عامين، فيترك شركة دانكونيا للنحاس لإدارة موظّفيه.

قرأت مقابلة صحفيّة قال فيها: لماذا يجب عليّ أن أرغب في كسب المزيد من المال؟ أملك ما يسمح لثلاثة أجيال من أحفادي بأن يستمتعوا مثلي زمنًا.

ثمّ رأته مرّةً في حفل استقبالٍ أقامه أحد السفراء في نيويورك. فانحنى لها بلطفٍ، وابتسم، وألقى في اتّجاهها نظرةً لا تحمل أيّ ماضٍ. فسحبته جانبًا وقالت:

ـ فرانسيسكو، لماذا؟

ردّ السؤال بسؤال آخر: لماذا، ماذا؟

قال وهي تغادر: لقد حذّرتك.

لم تحاول منذ ذلك الحين أن تلتقي به مرّة أخرى. لقد نجَت من تلك الصدمة. كانت تستطيع أن تبقى على قيد الحياة، لأنّها لم تؤمن بالمعاناة. لقد واجهت بسخطٍ مدهشٍ حقيقة الشعور بالألم القبيحة، ورفضت أن تَدَعَه يشغلها. كانت المعاناة حادثًا لا معنى له، ولم تكن جزءًا من الحياة كما رأتها. وقالت إنّها لن تسمح للألم بأن يصبح همَّها. لم تعرف اسمًا لنوع المقاومة التي قدّمتها، ولا عرفت اسم العاطفة التي جاءت منها تلك المقاومة. ولكنّ الكلمات التي انتصبت في عقلها مثل مرادفٍ لها كانت: لا يهمّ، ينبغي ألّا يؤخذ على محمل الجدّ. كانت تعرف أنّ هذه هي الكلمات المناسبة، حتّى في اللحظات التي لم يبق فيها شيءٌ بداخلها سوى الصراخ، وتمنّت لو أنّها تفقد ملكة الوعي حتّى لا تخبرها بأنّ ما لا يمكن أن يكون صحيحًا، كان في واقع الأمر صحيحًا. ينبغي ألّا يؤخذ على محملّ الجدّ، وهو اليقين غير المنقول داخلها باستمرار وبتكرار، الألم والقبح لا ينبغي أبدًا أن يؤخذا على محمل الجدّ.

لقد حاربته حتّى تعافت وساعدتها السنين على الوصول إلى ذلك اليوم الذي كانت فيه تواجه ذكرياتها بلامبالاةٍ، ثمّ اليوم الذي لم تشعر فيه بأيّ ضرورة لمواجهتها. لقد انتهى الأمر وما عاد يهمّها بعد الآن.

لم يكن في حياتها رجالٌ آخرون، وقالت إنّها لا تعلم ما إذا كان هذا قد يجعلها غير سعيدة. لم يكن لديها وقت لتعلم لأنّها وجدت إحساسًا نظيفًا ورائعًا بالحياة التي أرادتها في عملها، وقد عوّضها ذلك عن كلّ شيء. في الماضي وهبها فرانسيسكو شعورًا ينتمي إلى عملها وفي عالمها. أمّا الآن، فالرجال الذين قابلتهم منذ ذلك الحين كانوا مثل الرجال الذين قابلتهم في حفلتها الأولى.

لقد ربحت المعركة ضدّ ذكرياتها ولكنّ أحد أشكال التعذيب ظلّ راسبًا، لم يختفِ مع تعاقب السنين، فكلمة "لماذا؟" التي تفوّه بها فرانسيسكو في ذلك اللقاء ما تفتأ تعذّبها.

مهما يكُن حجم المأساة التي عاناها، لماذا اتّخذ فرانسيسكو أقبح طريقة للهروب،

كطريقة مدمن الكحول الرخيصة؟ فالفتى الذي كانت تعرفه لا يمكن أن يصبح جبانًا عديم الفائدة. وعقله الذي لا يضاهيه أيّ عقلٍ لا يمكن أن يحوّل براعته إلى اختراع ذوبان قاعات الرقص. ومع ذلك فقد فعل وفعل، ولم يكن هناك تفسير منطقيّ قابلٌ للتصوّر يفسّر ما أقدم عليه ويتركها تنساه في سلام. إنّها لا تستطيع أن تشكّ في حقيقة ما كان عليه؛ ولا يمكن أن تشكّ في حقيقة ما أصبح عليه؛ ومع ذلك فإنّ كلّ حقيقة جعلت من الأخرى أمرًا مستحيلًا. في بعض الأحيان، كانت تشكّ تقريبًا في عقلانيّتها الخاصّة أو وجود أيّ عقلانيّة في أيّ مكان؛ ولكنّه شكٌّ لم تكن تسمح به لأيّ أحد. ومع ذلك لم يكن هناك تفسير، ولا سبب، ولا دليل على أيّ سبب يمكن تصوّره، وفي جميع أيّام السنوات العشر التي قضّتها بعده لم تجد أيّ تلميح إلى الجواب.

قالت في نفسها وهي تسير إلى فندق واين فوكلاند، والشفق الرماديّ يمرّ من خلال نوافذ المتاجر المهجورة: لا، لا يمكن أن يكون هناك جواب. وقالت أيضًا إنّها لن تسعى إلى ذلك. الأمرُ لا يهمّ الآن.

أمّا بقايا العنف، والعاطفة التي ترتفع مثل رعشة رقيقة بداخلها، فهي ليست للرجل الذي كانت ستراه؛ بل هي صرخة احتجاج ضدّ تدنيس المقدّسات، وضدّ تدمير ما كان عظيمًا.

وفي استراحة بين المباني، رأت أبراج فندق واين فوكلاند. فشعرت بهزّة طفيفة، في رئتيها وساقيها، أوقفتها لحظةً. ثمّ واصلت المشي باعتدال.

ومع مرور الزمن الذي مشت فيه خلال الردهة الرخاميّة، ثمّ إلى المصعد، ثمّ نزولها إلى ممرّات فندق واين فوكلاند الواسعة والعازلة للصوت، التي فرشت بِزَرابيّ مخمليّة، لم تشعر داغني إلّا بموجة غضب باردة ازدادت برودةً مع كلّ خطوة من خطواتها.

وازداد يقينها من الغضب الذي اعتراها حين طرقت بابه وسمعت صوته، وهو يجيبها:

ـ ادخلي.

دفعت الباب ودخلت. ووجدت فرانسيسكو دومينغو كارلوس أندريس سيباستيان دانكونيا جالسًا على الأرض يلعب بكرات البلي.

لم يتساءل أحدٌ عمّا إذا كان فرانسيسكو دانكونيا حسَنَ المظهر أم لا. بدا غير مهتمّ بهذا السؤال؛ وحين يدخل أيّ غرفة، كان من المستحيل أن ينظر إلى أيّ شخصٍ آخر. كان طويل القامة، نحيل الجسم بلمسة من التميّز، أصيلًا جدًّا بشكل لا يتلاءم مع الحداثة، ويتحرّك كما لو أنّه يمتلكُ رأسًا عائمًا وراءه في مهبّ الريح. فسّره الناس بالقول إنّ لديه حيويّة حيوانٍ سليم البنية، لكنّهم كانوا يعرفون بغباوةٍ أنّ ذلك أمر غير صحيح. فهو يملك حيويّة إنسان سليمٍ، على نحوٍ نادر جدّا إلى درجة أنّه لا يمكن لأحدٍ التعرّف عليه. كان يملك قوّة اليقين.

لم يصف أحدٌ مظهره بأنّه لاتينيّ، ومع ذلك فإنّ الكلمة تنطبق عليه، ليس بمعناها الحديث، بل بمعناها القديم، لأنّها لا تتعلّق بإسبانيا، بل بروما القديمة. بدا جسده مصمَّمًا ليتماشى مع مظهره، وهو مظهرٌ يجمع بين النحافة والعضلات المفتولة والساقين الطويلتين والحركات السريعة. كانت في ملامحه دقّةٌ بديعة تشبه دقّة النحّات. وكان شعره أسود ورطبًا. وقد كثّفت سمرة بشرته لون عينيه المذهل: الأزرق الصافي والواضح. كان وجهه عريضًا، تعكس ملامحه تغيّرات مزاجه السريعة للتعبير عن كلّ ما يشعر به، كما لو أنّه لا يملك ما يخفيه. كانت العينان الزرقاوان ثابتتين لا تتغيّران، فلا توحيان مطلقًا بما كان يفكّر فيه.

جلس على أرضيّة غرفة الرسم، مرتديًا بيجامةً من الحرير الأسود الرقيق. وكانت كرات البلي منتشرة على السجّادة التي صُنعت من أحجار شبه كريمة من بلده الأصليّ: من العقيق والكريستال الصخريّ. لم ينهض عندما دخلت داغني، بل ظلّ جالسًا ينظر إليها، وسقط رخامٌ بلوريّ مثل دمعةٍ من يده. ابتسم ابتسامته الباهرة الوقحة التي لم تتغيّر منذ طفولته.

ـ مرحبا سبيكة!

سمعت نفسها تجيب، بلا مقاومةٍ، بلا حول أو قوّة، وبسعادة:

ـ مرحبا فريسكو!

نظرت إلى ملامح وجهه. لقد كان الوجه نفسه الذي تعرفه. لم يكن يحمل أيّ علامة تشير إلى نوع الحياة التي يعيشها، ولا على ما رأته معه في الليلة الماضية. لم يكن هناك أيّ مؤشّرٍ على المأساة، ولا المرارة، ولا التوتّر، وحدها السخريّة المشعّة، نضجت واشتدّت، بنظرة المرح التي لا يمكن التنبّؤ بها بشكل خطير، وصفاء الروح العظيم غير المذنب. ولكن هذا، كما اعتقدت، كان مستحيلًا؛ هذا أكثر فظاعةً من كلّ ما تبقّى منه.

كانت عيناه تدرسانها بدقّة: المعطف البالي الذي أبقته مفتوحًا، ونصف الانزلاق من كتفيها، والجسد النحيل في بدلة رماديّة تبدو وكأنّها زيّ مكتبيّ.

ـ إن كنتِ قدمتِ إلى هنا مرتديةً مثل هذه الملابس حتّى لا تسمحي لي بملاحظة مدى جمالك، فأنا أعلمك أنّك أخطأت التقدير. أنت جميلة. أتمنّى أن أخبرك بمدى الارتياح الذي أجده حين أرى وجهًا ذكيًّا على الرغم من أنّه وجه امرأة. لكن أظنّ أنّك لا ترغبين في سماع كلّ هذا الكلام، فهو ليس ما جئت من أجله.

كانت الكلمات غير لائقة من نَواحٍ عديدةٍ، ومع ذلك قيلت باستخفافٍ إلى درجة أنّها أعادتها إلى الواقع، إلى الغضب وإلى الهدف من زيارتها. وظلّت واقفةً، تنظر إليه نظرة دونيّة، بوجهها الخالي، وترفض أيّ اعتراف بالجانب الشخصيّ منه، أو حتّى بقدرته على الإساءة إليها. ثمّ قالت:

ـ لقد جئت إلى هنا لأسألك سؤالًا واحدًا.

ـ استرسلي في الحديث.

ـ عندما أخبرت هؤلاء الصحفيّين بأنّك جئت إلى نيويورك لتشهد المهزلة، فأيّ مهزلة تقصد؟

ضحك بصوت عالٍ، مثل أيّ رجل نادر ينتهز الفرصة للاستمتاع بما هو غير

متوقّع.

ـ هذا ما يعجبني فيك، يا داغني. يوجد سبعة ملايين شخص بمدينة نيويورك، في الوقت الحاضر. من بين سبعة ملايين شخص، أنت الوحيدة التي يمكن أن تعترضني وتقول إنّني لم أكن أتحدّث عن فضيحة طلاق السيّد فايل.

ـ ما الذي كنت تتحدّث عنه؟

ـ أيّ كارثة أخرى حلّت بك وترغبين في مناقشتها؟

ـ كارثة سان سيباستيان.

ـ هذه أكثر تسليةٍ من فضيحة طلاق فيل، أليس كذلك؟

ـ ردّت بلهجة رسميّة قاسية تشبه لهجة المدّعي العامّ: قد فَعَلتَ ذلك بوعي وبدمٍ باردٍ وعن سبق إضمار وترصّد.

ـ ألا تعتقدين أنّ من الأفضل أن تخلعي معطفك وتجلسي؟

كانت تعلم أنّها ارتكبت خطأ عندما خانت التشديد على الغضب في كلامها. فالتفتت ببرودٍ، ونزعت معطفها ورمت به جانبًا. لم ينهض لمساعدتها في نزع معطفها. ثمّ جلست على كرسيّ. وظلّ هو جالسًا فوق الأرضيّة على مسافة منها، ولكن بدا كما لو أنّه كان يجلس عند قدميها.

تساءل: ما الأمر الذي دبّرته عن سبق إضمار وترصّد؟

ـ مشروع سان سيباستيان كان بأكمله خديعة.

ـ وما دخلي أنا في هذا الأمر؟

ـ هذا ما أريد معرفته.

ضحك ضحكة مكتومةً، كما لو أنّها طلبت منه أن يبسط في محادثة قصيرة أحدَ العلوم الأكثر تعقيدًا والتي يتطلّب التمكّن منها عمرًا طويلًا.

قالت: كنت تعلم أنّ مناجم سان سيباستيان لا قيمة لها. كنت تعلم ذلك من قبل

أن تنطلق في ذاك العمل البائس بأكمله.

ـ فلماذا انطلقت فيه؟

ـ لا تحاول إخباري بأنّك لم تكسب شيئًا. أنا أعلم ذلك. أعلم أنّك خسرت 15 مليون دولار من ثروتك ومع هذا تعمّدت فِعلَ ذلك.

ـ هل يعقل أن يورّط المرء نفسَه، عن قصد، في الخسارة؟

ـ لا. هذا أمر غير معقول.

ـ أنت تفترضين أنّ لي عقلا عظيمًا ومعرفة كبيرة وقدرة إنتاجيّة عاليةً، ممّا يعني أنّ أيّ شيءٍ أقوم به يجب أن يكون بالضرورة ناجحًا. ثمّ تدّعين أنّني لم أكن أرغب في بذل قصارى جهدي من أجل ولاية المكسيك الشعبيّة، وأنّ هذا أمر لا يمكن تخيّله، أليس كذلك؟

ـ كنت تعلم، قبل أن تشتري تلك الممتلكات، أنّ المكسيك ترزح تحت رحمة حكومة اللصوص. لم يكن عليك أن تدشّن مشروع تعدين لصالحهم.

ـ لا، لم يكن عليّ فِعلُ ذلك.

ـ أنت لم تكن تكترث أصلًا للحكومة المكسيكيّة البغيضة، لأنّ...

ـ أنت مخطئة في ذلك.

ـ لأنّك كنت تعلم أنّهم سيصادرون تلك المناجم عاجلًا أم آجلًا. ما كنت تلاحقه وتهتمّ به هو حملة الأسهم الأمريكيّة الخاصّة بك.

كان ينظر إليها مباشرة، لم يكن يبتسم، بل بَدَت ملامح وجهه جادّةً. ثمّ قال:

ـ هذا صحيح... هذا جزء من الحقيقة.

ـ وما هو الجزء الآخر؟

ـ لم أكن أسعى وراء كلّ ما تتّهمينني به.

ـ وما الذي كنت تسعى إليه باستثناء ذلك؟

ـ هذا ما يجب أن تكتشفيه.

ـ جئت إلى هنا لأنّي أردتك أن تعلم أنّي بدأت أدرك هدفك.

قال مبتسما: لو كنت تدركين ما أصبو إليه، لما أتيت إلى هنا أصلا.

ـ هذا صحيح. أنا لم أدرك بعدُ وربّما لا يتوجّب عليّ أن أدرك البتّة، لكنّني بدأت أرى جزءًا ممّا تصبو إليه.

ـ أيّ جزء؟

ـ بعد أن استنفدتَ كلّ أشكال الفساد، تسعى الآن إلى تحقيق إثارة جديدة من خلال خداع الناس أمثال جيم وأصدقائه، من أجل مشاهدتهم وهم مرتبكون ومعذّبون. لا أعلم أيّ نوع من الفساد يمكن أن يجعل أيّ شخص يتمتّع بذلك، ولكن هذا ما جئت إلى نيويورك لرؤيته في الوقت المناسب.

ـ لقد كانوا بالفعل مرتبكين ومعذّبين، ولاسيّما أخوك جيمس.

ـ إنّهم حمقى فاسدون، لكنّ جريمتهم الوحيدة هي أنّهم وثقوا بك. لقد وثقوا باسمك وشرفك.

لمحت في وجهه علامات الجدّيّة من جديد، وعلمت مرّة أخرى على وجه اليقين أنّ جدّيّته حقيقيّة، عندما قال:

ـ نعم. لقد وثقوا بي. أنا أعلم ذلك.

ـ وهل تجد هذا الأمر مسلّيًا؟

ـ لا أجد فيه أيّ تسلية.

واصل اللعب بكرات البلي الرخاميّة، دون أن يركّز معها، كان يكتفي بإلقاء نظرة خاطفة عليها من حينٍ إلى آخر. فلاحظت فجأة دقّةً لا تشوبها شائبة في هدفه، وفي مهارة يديه. لقد كان يحرّكها في معصمه ويرسلها عبر السجّاد لتسقط فوق الأخرى فتنقرها بحدّة. هذا الأمر جعلها تتذكّر أيّام طفولته والتنبّؤات بأنّ أيّ شيء قد ينجزه

سيتمّ بشكل رائع.

قال: لا أجد الأمر مسلّيًا. فأخوك جيمس وأصدقاؤه لا يملكون أدنى فكرة عن صناعة تعدين النحاس، ولا فكرة لديهم عن طرق كسب المال، ثمّ إنّهم لم يسعَوا إلى المعرفة، المعرفة التي كانوا ينظرون إليها على أنّها ترفٌ زائد وأنّ ملكة الحكم غير أساسيّة. لقد لاحظوا أنّني كنت هناك في العالم وأنّني سخّرت شرفي لأعرف. كانوا يثقون بشرفي، وبأنّ المرء لا يخون أمانة من هذا النوع، أليس كذلك؟

ـ ثمّ خنت هذه الثقة عمدًا.

ـ أنت من ينبغي أن يحكم على هذا الأمر. أنت مَن تحدّث عن ثقتهم وشرفي. لم أعد أؤمن بمثل هذه المصطلحات مطلقًا... أنا لا أهتمّ لأمر أخيك جيمس وأصدقائه. ليست نظريّتهم جديدةً، لقد نجحت لقرون، لكنّها غير مضمونة دومًا. هناك فقط نقطة واحدة تغافلوا عنها، وهي أنّهم كانوا مخطئين حين اعتقدوا أنّ من السهل استغلالي، لأنّهم افترضوا أنّ هدف رحلتي هو الثروة. كلّ حساباتهم بُنيت على أساس أنّني ألهث وراء الثروة. ماذا لو لم أفعل ذلك من أجل الثروة؟

ـ وإذا لم تكن تلهث وراء الثورة، فماذا الذي كنت تسعى إليه؟

ـ لم يطلبوا منّي ذلك قطّ. كان عدم الاستفسار عن أهدافي أو دوافعي أو رغباتي جزءًا أساسيًّا من نظريّتهم.

ـ إذا لم تكن تسعى إلى كسب المال، فما الدافع الذي كان يحرّكك؟

ـ استثمار المال.

ـ وهل نستثمر المال في مشاريع فاشلة؟

ـ كيف لي أن أعلم أنّ تلك المناجم كانت فاشلة تمامًا؟

ـ كيف يمكنك المساعدة في معرفة أنّها كانت فاشلة؟

– بكلّ بساطة. من خلال عدم التفكير فيها.

ـ هل دشّنت هذا المشروع دون التفكير فيه بشكل مسبّق؟

ـ لا، ليس بالضبط. لكن لنفترض أنّني أخطأت التقدير؟ لست في النهاية سوى إنسان. ارتكبت خطأ، ففشلت.

ثم حرّك معصمه مجدّدًا، ورمى بكرة بلي صُنعت من رخام الكريستال، عبر الأرضيّة لتصدم بعنفٍ كرةً أخرى بنّية اللّون في الطرف الآخر من الغرفة.

قالت: لا أصدّق ذلك.

ـ لا؟ لكن أليس من حقّي أن أخطئ كما يخطئ الآخرون؟ هل يجب أن أدفع ثمن أخطاء الجميع؟ ألا يغفرون لي ولو خطأ واحدًا؟

ـ هذا ليس من طباعك.

ـ لا؟

مدّد جسده على كامل طول السجادة في تكاسل واسترخاء، ثمّ قال:

ـ هل كنت تريدين تنبيهي إلى أنّني لو فعلت ذلك عن قصد، فإنّك ستمنحينني بالنتيجة الفضلَ في أن يكون لي هدف؟ إذَن، أنت لا تزالين عاجزة عن قبولي بوصفي متسوّلًا؟

أغمضت عينيها. وهي تستمع لضحكاته بصوت كان الأكثر شذوذًا في العالم. ثمّ فتحتهما على عجلٍ. ولكن لم تكن هناك أيّ ملامح من القسوة في تقاسيم وجهه، فقط الضحك النقيّ.

ـ ما الدافع الذي قد يجعلني أفعل ذلك يا داغني؟ أنت لا تريدين أن تقتنعي بأنّه شيء في غاية البساطة، إنّه بكلّ يُسرٍ حافز اللحظة.

قالت في نفسها: لا، هذا ليس صحيحًا. خصوصا حين يضحك على هذا النحو، وحين يبدو بتلك الملامح. فقدرته على الاستمتاع غير الغائم لا تنتمي بأيّ حال من الأحوال إلى عالم الحمقى غير المسؤولين؛ وسلام روحه الذي لم يُنتَهك لا يمكن أن

يكون من قبيل إنجازات الرحّالة التائه؛ فأن يكون قادرًا على الضحك بهذا الشكل هو النتيجة النهائيّة للتفكير الأكثر عمقًا، والأكثر جلالًا.

وبالنظر إلى جسده الممدّد على السجّادة عند قدميها، حاولت على نحوٍ شبه عاطفيّ، مراقبةَ ما قد تجلبه الذاكرة استنادًا إلى ذلك الموقف: البيجاما السوداء شدّدت على الخطوط الطويلة من جسده، وأظهرت الياقة البيضاء المفتوحة بشرة ناعمة وشابّة، لَفَحَتْها أشعّة الشمس. ثمّ عادت بها الذاكرة إلى هيئته وهو يرتدي سروالا أسود وقميصًا وهي ممدّدة بجانبه على العشب عند شروق الشمس. لقد كانت تشعر بالفخر حينها، الفخر بمعرفة أنّها تملك جسده؛ إنّها لا تزال تشعر بذلك. وتذكّرت فجأة على وجه التحديد الأفعالَ المفرطة لحميميّتها؛ ربّما تكون الذاكرة قد جرحتها في تلك اللحظة، لكنّها لم تكن كذلك. فشعورها بالفخر لا يزال قائما، دون ندمٍ أو أملٍ، بعاطفةٍ لا تملك القدرة على بلوغها ولا تملك القدرة على تدميرها.

وعلى نحوٍ مجهول، ظلّت خاضعة لتداعي الأفكار الذي أذهلها، وتذكّرت ما نقله إليها في الآونة الأخيرة من أحاسيس البهجة البارعة نفسها التي عاشها هو.

سمعت صوتها الداخليّ يقول بلطفٍ: فرانسيسكو، كلانا أحببنا موسيقى ريتشارد هالي...

ـ مازلت أحبّها.

ـ هل سبق أن قابلته؟

ـ نعم. لماذا؟

ـ هل تعرف ما إذا كان قد ألّف الكونشرتو الخامس؟

بقي ساكنًا تمامًا. كانت تظنّ أنّه منيع ومحصّن من الصدمات؛ غير أنّه لم يكن كذلك. لكنّها لم تستطع التفكير في كلّ الأشياء التي قالتها، يجب أن يكون هذا أوّل ما وصل إليه. لقد كانت مجرّد لحظة. ثمّ سألها بموضوعيّة:

ـ ما الذي يجعلك تعتقدين أنّه ألف الكونشرتو الخامس؟

ـ حسنا، هل ألّفه فعلًا؟

ـ أنت تعرفين أنّ هالي لم يؤلّف غير أربعة كونشيرتوات.

ـ نعم. لكنّني أودّ أن أعرف ما إذا كان قد ألّف كونشرتو آخر.

ـ لقد توقّف عن الكتابة.

ـ أعرف ذلك.

ـ ما الذي جعلك، إذَن، تسألين عن هذا؟

ـ مجرّد فكرة قديمة. ماذا يفعل الآن؟ أين هو؟

ـ لا أعلم، لا أعلم. لم أرَه منذ زمن طويل. ما الذي يجعلك تعتقدين أنَّ هالي ألّف الكونشرتو الخامس؟

ـ أنا لم أقل إنّ الكونشرتو الخامس موجودٌ. أنا فقط أتساءل عن ذلك.

ـ لماذا فكّرت في ريتشارد هالي الآن؟

قالت والانهيار يستبدّ بتلابيبها: لأنّ ذهني لا يستطيع أن يقفز من موسيقى ريتشارد هالي إلى ... إلى فضيحة السيّدة جيلبرت فيل.

قال بعد أن ضحك بارتياحٍ: أوه، هذا كلّ ما في الأمر؟... بالمناسبة، إذا كنت تتابعين إعلاناتي الإشهاريّة، هل لاحظت تناقضًا قليلًا ومضحكًا في قصّة السيّدة جيلبرت فيل؟

ـ أنا لا أتابع مثل هذه الإعلانات.

ـ يجب عليك متابعتها. لقد قدّمت السيّدة فايل ذلك الوصف الجميل لليلة رأس السنة الماضية، وقد قضّيناها معًا بالفيلا التي أملكها في جبال الأنديز. كان ضوء القمر يضيء قمم الجبال، والزهور الحمراء بألوان الدماء معلّقة على الكروم في النوافذ المفتوحة. هل ترين أيّ شيء خاطئ في هذه الصورة؟

قالت بهدوءٍ: أنا من يفترض به أن يسألك عن هذا الأمر، لكنّني لن أفعل.

ـ أوه، لا أرى أيّ خطإٍ فيها باستثناء أنّني كنت ليلةَ رأس السنة الماضية بمدينة في ولاية تكساس أترأّس افتتاح خطّ سان سيباستيان لشركة تاجارت العابرة للقارّات، إذا لم تخنّي الذاكرة. علمًا أنّني لم أكن أرغب في حضور تلك المناسبة، ومع ذلك فقد التقطت صورةً لي وذراعي حول أخيك جيمس والسيّد أورين بويل.

شهقت متذكرةً أنّ ذاك المشهد حقيقيّ، وأنّه سبق لها أن اطَّلعت على قصّة هذه السيّدة في الصحف.

ـ فرانسيسكو، ماذا... ماذا يعني ذلك؟

قال بعد أن ضحك ضحكة مكتومةً: لك أن تستخلصي ما شئت، يا داغني... لماذا فكّرت في تأليف هالي للكونشرتو الخامس؟ لماذا لم تسألي عمّا إذا كتب أيّ سيمفونيّة أو أوبرا جديدة؟ لماذا الكونشرتو بالتحديد؟

ـ ولماذا يزعجك ذلك؟

ـ إنّه لا يزعجني البتّة يا داغني. مازلت أحبّ موسيقاه، لكنّه ينتمي إلى عصر آخر. فعصرنا هذا يوفّر نوعًا مختلفا من الموسيقى.

انقلب على ظهره وتمدّد متكئًا على يديه، ينظر إلى أعلى كما لو أنّه يشاهد مقطعا هزليًّا من فيلم يعرض على سقف الغرفة.

ـ داغني، ألم تستمتعي بمشهد سلوك حكومة ولاية المكسيك الشعبيّة في ما يخصّ مناجم سان سيباستيان؟ هل قرأت خطابات حكومتهم وافتتاحيّاتها في صحفهم؟ يقولون إنّني خائن عديم الضمير احتلتُ عليهم، في الوقت الذي كانوا فيه يتوقّعون نجاحهم في صناعة التعدين، ثمَّ الاستيلاء عليها بعد ذلك. ما كان ينبغي عليَّ أن أخيّب آمالهم على هذا النحو. هل قرأت عن ذلك البيروقراطيّ الصغير الذي هدّدني بالمتابعة القضائيّة؟

ضحك، مستلقيًا على ظهره؛ ملقيًا ذراعيه على السجّادة الواسعة، مكوّنًا صليبًا بجسده؛ بدا شابًّا مسترخيًا ومنزوع السلاح.

ـ كان يستحقّ كلّ ما كلّفني. يمكنني تحمّل ثمن ذلك العرض. لو أنّني نظّمت ذلك عمدًا، لكنتُ تغلّبت على سجلّ الإمبراطور نيرون. فهل تصحّ مقارنة مشهد حرق مدينة بأكملها، بمجرّد تمزيق غطاء للجحيم والسماح للناس برؤيته؟

لقد حمّس نفسه، فالتقط بعض كرات الرخام وجلس يهزّها بإهمالٍ في يده. وكان النقر عليها يُصدر صوتا واضحا يدلّ على أنّها من الحجر الجيّد. أدركت داغني فجأة أنّه يلعب بتلك الكرات، لأنّه لا يستطيع البقاء دون نشاط لفترة طويلة.

قال: لقد أصدرت حكومة ولاية المكسيك الشعبيّة إعلانا تطلب فيه من الشعب أن يتحلّى بالصبر وأن يواجه هذه الصعوبات لفترة قد تطول قليلًا. ويبدو أنّ ثروة النحاس من مناجم سان سيباستيان كانت جزءًا من خطط مجلس التخطيط المركزيّ. وكان ذلك لرفع مستوى معيشة الجميع وتوفير لحم الخنزير المشويّ كلّ يوم أحد لكلّ رجل وامرأة وطفل. يطلب المخطّطون الآن من الشعب ألّا يلوم الحكومة، وإنّما فساد الأغنياء، إذ تبيّن لهم أنّني رجل مستهتر وغير مسؤول، بدلًا من ذلك الرأسماليّ الجشع الذي كانوا يتوقّعون. قد يتساءلون، كيف لهم معرفة أنّني سأخذلهم؟ فعلا، فالأمر بدا صحيحًا بما فيه الكفاية. كيف لهم أن يعرفوه؟

لقد لاحظت الطريقة التي كان يضع بها إصبعه على كرات البلي في يده. لم يكن واعيًا بذلك، بل كان ينظر إلى مسافة قاتمة، لكنّها كانت على يقين بأنّ هذا الفعل يشعره بالارتياح أو ربّما بالتوتّر. كانت أصابعه تتحرّك ببطء، وهي تتلمّس بمتعة الحسّ في الحجارة. وبدلًا من أن تجد حركاته فجّة، وجدتها جذّابة بشكل غريب. فكّرت فجأة، فوجدتها كما لو أنّ الشهوانيّة ليست جسديّة على الإطلاق، بل جاءت من تمييز دقيق للروح.

أضاف: هذا ليس كلّ ما كانوا يجهلونه. إنّهم يحتاجون إلى مزيد من المعرفة. توجد تلك المستوطنة السكنيّة لعمّال سان سيباستيان. إنّها تكلّف مبلغ ثمانية ملايين دولار. منازل ذات قوالب فولاذيّة، مجهزّة بإمدادات الماء والكهرباء والتبريد. ومزوّدة أيضًا بمدرسة وكنيسة ومستشفى وسينما. لقد بنيت المستوطنة للأشخاص الذين عاشوا في

أكواخ مصنوعة من الخشب العائم وعلب القصدير الطائشة. ومكافأتي على بنائها كانت أن أُمنَح امتياز الفرار بجلدي، وهو امتياز خاصّ بسبب حادث يتمثّل في أنّني لم أكن مواطنًا من مواطني ولاية المكسيك الشعبيّة. وكان توطين العمّال أيضا جزءًا من خططهم. وهو مثال نموذجيّ للإسكان التدريجيّ للدولة. حسنًا، تلك المنازل ذات القوالب الفولاذيّة هي أساسًا من الورق المقوّى، بطلاء من الشيلاك في تقليدٍ جيّد جعلها تبدو مثل الفولاذ. لن يصمدوا سنةً أخرى. أمّا أنابيب السباكة فقد اشتُرِيت، وكذلك معظم معدّات التعدين لدينا، من التجّار الذين كان مصدر إمداداتهم الرئيسيّ هو نفايات المدن مثل بوينس آيرس وريو دي جانيرو. سأمنح تلك الأنابيب خمسة أشهر أخرى والنظام الكهربائيّ حوالي ستّة أشهر. أمّا عن الطرق الرائعة التي هيّأناها لصالح ولاية المكسيك الشعبيّة على مسافة أربعة آلاف قدم من الصخور، فلن تستمرّ إلى ما بعد فصلين من فصول الشتاء: إنّها منجزة من إسمنت رخيص ومن دون أساس، ودعامات المنعطفات السيّئة هي مجرّد لوح مطليّ. أمّا الكنيسة، فأعتقد أنّها ستصمد. ربّما سيحتاجون إليها.

همست: فرانسيسكو، هل فعلت ذلك عن قصد؟

حين رفع رأسه تملّكها الذهول وقد لاحظت أنّ ملامح وجهه تدلّ على تعب متواصل.

قال: سواء فعلت ذلك عن قصد أو بسبب الإهمال، أو بسبب الغباء، ألا تفهمين أنّ هذا لا يحدث أيّ فرق؟ لأنّ العنصر نفسه سيكون مفقودًا.

كانت ترتجف، ثمّ بكت في كلّ قراراتها، وقالت:

ـ فرانسيسكو! إذا رأيت ما يحدث في العالم، وإذا كنت تدرك كلّ الأشياء التي قلتها، فلماذا كنت تسخر منها! من بين جميع الرجال، أنت الوحيد الذي يجب عليه محاربتهم!

ـ من سأحارب؟

اللصوص، وأولئك الذين يجعلون النهب العالميّ ممكنًا. المخطّطون المكسيكيّون ومن على شاكلتهم.

ـ لا يا عزيزتي. من يجب أن أحاربه هو أنت.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أريد أن أقول إنّ مستوطنة العمّال في سان سيباستيان كلّفت ثمانية ملايين دولار. كان الثمن المدفوع لتلك المنازل التي شُيِّدت بالورق المقوّى هو السعر الذي كان يمكن أن يشتري هياكل فولاذيّة. وكذلك الثمن المدفوع لكلّ مستلزم آخر. لقد ذهب هذا المال إلى الرجال الذين يزدادون ثراءً بمثل هذه الأساليب. مثل هؤلاء الرجال لا يبقون أغنياء لفترة طويلة. المال سوف يذهب إلى القنوات التي سوف تحمل ذلك، ليس إلى الأيدي الأكثر إنتاجيّة، ولكن إلى الأيدي الأكثر فسادا. ووفقًا لمعايير عصرنا، فإنّ الإنسان الذي لا يملك إلّا القليل ليقدّمه سيكون هو المنتصر في النهاية. وستختفي هذه الأموال في مشاريع مثل مناجم سان سيباستيان.

سألته بجهد: هل هذه هي الحالة التي ستكون عليها مستقبلا؟

ـ طبعًا.

ـ هل هذا هو ما تجده مسلّيًا؟

ـ نعم.

قالت وهي على يقين بأنّ لومها لن يجدي نفعًا: كنت بصدد التفكير في اسمك وسمعتك، يبدو أنّ الأمر تقليد عائليّ، وأنّ عائلة دانكونيا كلّها تترك دومًا ثروة أكبر من تلك التي ترثها عن سابقتها.

ـ نعم، كانت لأجدادي قدرة رائعة على فعل الشيء الصحيح في الوقت المناسب، وعلى القيام بالاستثمارات الصحيحة. بطبيعة الحال، الاستثمار هو مصطلح نسبيّ. إنّه يعتمد على ما ترومين إنجازه. فعلى سبيل المثال، انظري إلى مشروع سان سيباستيان. لقد كلّفني خمسة عشر مليون دولار، ولكنّ هذا المبلغ لا يعني شيئا أمام الأربعين

مليون التي خسرتها شركة تاجرت العابرة للقارّات، والخمسة والثلاثين مليونا التي خسرها المساهمون من أمثال جيمس تاجارت وأورين بويل، ومئات الملايين الأخرى التي ستضيع في عواقب ثانويّة. هذا ليس عائدًا سيّئًا في الاستثمار، أليس كذلك يا داغني؟

خاطبته وجها لوجه: هل تدرك ما تتفوّه به؟

ـ أوه، تماما! هل أصدمك أكثر وأحصي أسماء العواقب التي كنت ستلومينني عليها؟ أوّلًا، لا أعتقد أنّ شركة تاجارت العابرة للقارّات ستتعافى من خسارتها على خطّ سان سيباستيان العبثيّ. ربّما تعتقدين أنّه سيكون كذلك، لكنّه لن يتحقّق. ثانيًا، لقد ساعد خطّ سان سيباستيان أخاك جيمس في تدمير شركة فينيكس-دورانغو، التي أوشك أن تكون شركة السكك الحديديّة الجيّدة الوحيدة المتبقّية في أيّ مكان.

ـ هل كنت على دراية بكلّ هذه الأشياء؟

ـ نعم، بل أكثر.

ـ هل أنت...

صمتت، لم تعرف لماذا كان عليها أن تقول ذلك، إلّا أنّ ذكرى ملامح الوجه في الظلام، والعينين العنيفتين اللتين كانتا تحدّقان فيها اضطرّتها إلى ذكر الاسم، ثمّ نطقت السؤال:

ـ هل تعرف إليس وايت؟

ـ بالتأكيد.

ـ هل تعلم ما قد يفعل به هذا الأمر؟

ـ نعم. هو الذي سيُمحى بعد ذلك.

ـ هل... تجد ذلك... مسلّيًا؟

ـ إنّه أكثر تسلية بكثير من خراب المخطّطين المكسيكيّين.

ظلّت واقفة. لقد كانت تنعته بالفساد لسنوات؛ لكنّها كانت تخشى ذلك الأمر، لقد فكّرت فيه، وحاولت نسيانه وعدم التفكير فيه مجدّدًا. لكنّها لم تشكّك قطّ في مدى استشراء الفساد.

لم تكن تنظر إليه؛ لم تعلم أنّها قالت ذلك بصوت عالٍ، نقلا لشواهد من كلماته في الماضي:

ـ من سيكون أكثر تكريمًا لأسلافه، أنت احتفاءً بـنات تاجارت، أم أنا احتفاء بسيباستيان دانكونيا...

ـ ولكن أتدركين أنّي سمّيت تلك المناجم تكريمًا لسلفي العظيم؟ أعتقد أنّه تكريمٌ سيعجبه.

استغرق الأمر منها لحظة لاستعادة بصرها؛ لم تكن تعلم البتّة ما المقصود بالكفر أو ما الذي يشعر به المرء عند مواجهته؛ إنّها تدرك ذلك الآن.

نهض ووقف بلباقة، مبتسمًا لها. كانت ابتسامة باردةً لا توحي بأيّ شيء. أمّا هي فكانت ترتجف، لكن كلّ هذا لا يهمّ. لم تكترث لما رآه أو خمّن فيه أو ضحك منه.

قالت له بنبرة محايدة ودون أن تبدو غاضبة: لقد جئت إلى هنا لأنّني كنت أريد أن أعرف سبب ما فعلته لحياتك.

أجابها بحدّة: لقد أخبرتك بالسبب، ولكنّك لا تريدين تصديقه.

ـ ما أزال أراك كما كنت. لم أستطع نسيان ذلك. كان يجب عليك أن تصبح ما أنت عليه، وهذا أمر لا ينتمي إلى الكون العقلانيّ.

ـ لا؟ وهل العالم، كما تَرَينه من حولك، يدرك ذلك أيضًا؟

ـ أنت لم تكن من النوع الذي يُكسَر من قبل أيّ نوع من العالم.

ـ هذا الأمر صحيح.

ـ لماذا تغيّرت إذَن؟



قال موجّهًا الحوار إلى جهة أخرى: من هو جون جالت؟

أوه، لا تستخدم لغة الحضيض!

كان يراقبها وشفتاه تحملان تلميحًا بابتسامة، لكنّ عينيه كانتا لا تزالان جادّتين، وللحظة، أصبحتا أكثر إدراكًا على نحوٍ مقلق.

كرّرت: لماذا؟

أعاد الجواب نفسه الذي تفوّه به ليلة اجتمعا في الفندق نفسه منذ عشر سنوات خَلَت: أنت لست مستعدّة لسماع ذلك.

وهمّت بالخروج، لكنّه لم يتبعها إلى الباب. وضعت يدها على المقبض حين التفتت وتوقّفت، كان هو واقفًا عند الجانب المقابل في الغرفة، ينظر إليها، بدَت نظرة موجّهة إلى شخصها بالكامل؛ وكانت تعرف معناها فأوقفتها بلا حراك.

قال: مازلت أرغب في النوم معك. لكنّني لست رجلًا سعيدًا بما يكفي لفعل ذلك.

كرّرت عباراته محتارةً: لستَ سعيدًا بما يكفي؟

أجابها بعد أن أطلق ضحكة: هل من اللائق أن يكون ذلك هو أوّل شيء تجيبينني عنه؟

كان ينتظر ردّها، لكنّها بقيت صامتة. ثمّ أضاف:

ـ أنت ترغبين فيه أيضًا، أليس كذلك؟

كانت على وشك الإجابة بـ"لا"، لكنّها أدركت أنّ الحقيقة أسوأ من ذلك. فأجابته ببرود:

ـ نعم، لكن لم أعد أكترث، إنّها لم تعد رغبة بالغة الأهمّيّة.

ابتسم في تقدير صريح، معترفًا بالقوّة التي احتاجت إليها في قول ذلك، لكنّه لم يكن يبتسم عندما فتحت الباب لتغادر فقال:

ـ لديك الكثير من الشجاعة يا داغني. في يوم مّا سيكون لديك ما يكفي منها.

ـ الكثير من ماذا؟ الشجاعة؟

لكنّه لم يجبها.

الفصل السادس

اللّا-تجاريّ

ضغط ريردن جبهته على المرآة وحاول ألّا يفكّر. قال في نفسه إنّ تلك الوضعيّة هي الطريقة الوحيدة التي ستمكّنه من فعل ذلك. وركّز على ما قد تجلبه لمسة البرود في المرآة من ارتياحٍ، متسائلًا: كيف يمكن للمرء أن يتمادى فيجبر نفسه على التفكير في الفراغ، ولاسيّما بعد أن عاش عمرًا على فكرة أنّ الوظيفة الثابتة والأوضح والأكثر قسوة لملكة التفكير هي واجبه الأوّل. وتساءل لماذا لا يستطيع الآن أن يمتلك بعض القوّة لتزرير بعض الأزرار من اللؤلؤ الأسود في مقدّمة قميصه الأبيض النشويّ، وهو الذي لم يكن يعجز مطلقًا عن إبداء أيّ جهد حتّى ولو كان يتجاوز قدراته.

كانت تلك الليلة ذكرى زواجه وقد علم مسبقًا ولمدّة ثلاثة أشهر مضت أنّ الحفلة ستُقام في تلك الليلة، مثلما رغبت ليليان. لقد وعدها بها، بعد أن أمّنا الوقت الكافي لمعرفة أنّ موعد الحفلة سيكون بعيدًا جدًّا وأنّه سيحضرها، وأنّه عندما يحين الوقت المناسب لها، سيكون قد أنجز كلّ مهمّة مدرجة في جدول أعماله المثقل بالأنشطة. وخلال ثلاثة أشهر بمعدّل ثماني عشرة ساعة عمل يوميًا، نسي الموعد بسرور، حتّى أوشكت الحفلة على البدء قبل نصف ساعة، حين دخل سكرتيره إلى مكتبه، وقال بحزم:

ـ يا سيّد ريردن، هذا يوم الحفلة.

ـ قفز من الجزع وصرخ: يا إلهي!

سارع في العودة إلى المنزل، وصعد السلالم على عجلٍ، وبدأ في نزع ملابسه ثمّ انتقل إلى ارتداء الملابس على نحوٍ روتينيّ، مدركًا فقط حاجته إلى السرعة، لا إلى الهدف. وحين أصابه الإدراك الكامل للهدف مثل صفعة مفاجئة، توقّف.

قال في نفسه: أنت لا تهتمّ بأيّ شيء سوى الأعمال.

إنّها الجملة نفسها التي كان يسمعها طوال حياته، وأصدر في شأنها حكمًا باللعنة. لقد كان يعلم دائمًا أنّ العمل يُنظر إليه على أنّه نوع من العبادة السرّيّة الشائنة، التي لم يفرضها المرء على الأشخاص العاديّين الأبرياء، والتي يعتقد الناس أنّها ضرورة قبيحة، يجب إنجازها ولكنّها لا تذكر مطلقًا، فأن تتحدّث إلى صاحب متجرٍ مثلا كان يعتبر إهانة ضدّ الحساسيّات العالية. فمثلما يغسل المرء يديه من شحوم المكنات قبل العودة إلى المنزل، فإنّه يُفترض به أيضا أن يطهّر ذهنه من لوثة العمل قبل الدخول إلى غرفة الاستقبال. لم يكن لديه في قناعاته مثل هذه العقيدة مطلقًا، لكنّه قَبِلَهَا كأمر طبيعيّ تمسّكت به عائلته. لقد اعتبره من المسلّمات من دون أيّ كلام أو نقاش، ثمّ كرّس نفسه للعمل، مثل شهيد لدين ظلاميّ، في سبيل خدمة إيمان كان هو حبّه المتّقد، ولكنّ اعتقاده ذلك جعله منبوذًا بين الرجال الذين لم يكونوا يتعاطفون معه.

لقد قبل فكرة أنّ من واجبه مَنْحَ زوجته شكلاً من أشكال الوجود لا علاقة له بالأعمال التجاريّة. لكنّه لم يجد القدرة على فعل ذلك أو حتّى تجربة الشعور بالذنب. إذ لا يمكنه أن يجبر نفسه على تغييرها أو إلقاء اللوم عليها إذا اختارت إدانته.

لم يمنح ليليان شيئًا من وقته على امتداد شهور، بل سنين؛ مدّة ثماني سنوات من زواجهما. لم يكترث باهتماماتها، ولم يكن يسعى أصلا إلى معرفة تلك الاهتمامات. لقد كانت لديها دائرة كبيرة من الأصدقاء، وقد سمعها تقول إنّ أسماءهم تمثّل جوهر

ثقافة البلاد، ولكن لم يكن لديه وقت لمقابلتهم أو حتّى الاعتراف بشهرتهم من خلال معرفة الإنجازات التي حقّقوها. كان يعلم فقط أنّه غالبًا ما رأى أسماءهم على أغلفة المجلّات والجرائد في أكشاك بيع الصحف. وإذا استاءت ليليان من موقفه، بدا له أنّها على حقّ. وإذا كانت طريقتها في توجيه اللوم مرفوضة، فهو يستحقّ ذلك. وإذا نعتته أسرته بأنّه بلا قلب، فإنّ ذلك صحيح.

لم يدّخر قطّ أيّ جهد في خوض أيّ قضيّة. فحين ظهرت مشكلة في المطاحن، كان اهتمامه الأوّل هو اكتشاف الخطإ الذي ارتكبه. لم يبحث عن خطإ أيّ شخص آخر ولكن عن خطئه؛ كان يطالب نفسه بالكمال. وكان لا يرحم نفسه منذ ذلك الحين؛ فتقبّل اللوم. ولكنّ ما وقع في المطاحن دفعه إلى العمل باندفاعٍ فوريٍّ لتصحيح الخطإ. الآن، لم يعد لكلّ تلك الأشياء أيّ تأثير... فقال في نفسه باستدراك، وهو واقف أمام المرآة بعينين مغمضتين: فلتبقَ هكذا فقط لبضع دقائق أخرى.

لم يكن بوسعه أن يوقف الشيء الذي عشّش في ذهنه واستمرّ في إلقاء الكلمات عليه؛ لقد كان الأمر شبيها بمحاولة سدّ حنفيّة مكسورة بيدين عاريتين. فواصلت تلك النفاثات اللّاذعة، من كلمات وصور، تصويبَ نيرانها إلى دماغه... وقال في نفسه إنّ ذلك الأمر سيستغرق ساعات، ساعات سيقضيها وهو يراقب عيون الضيوف التي ستصاب بالتثاقل جرّاء الملل إذا كانت صاحية أو ترمق تحديق معتوه إذا لم تكن كذلك، وأضاف أنّه سيتظاهر بعدم ملاحظة أيّ شيء منها، وسيضغط على ذهنه لقول شيء مّا لها، بينما هو في الحقيقة لا يملك ما يقول. فكلّ ما كان يحتاج إليه هو ساعات من البحث للعثور على خليفة يعوّض المشرف على مطاحن المناوبة الذي استقال فجأة دونما تعليل. كان عليه أن يفعل ذلك في آن واحدٍ، وكان من الصعب عليه العثور على رجل من هذا النوع. وإذا حدث أيّ شيء يعطّل تدفّق مطاحن المناوبة فإنّ شركة تاجارت للسكك الحديديّة هي التي ستتعطّل...ثمّ تذكّر اللوم الصامت، ونظرة الاتّهام، والصبر الطويل والاحتقار، التي كان يراها دائما في عيون أفراد عائلته حين يلتقطون بعض الأدلّة على شغفه بأعماله ومبرّر صمته العقيم. كان

يأمل في أنّهم لن يعتقدوا بأنّ شركة ريردن تعني له الكثير، مثل مخمورٍ يتظاهر بعدم اكتراثه بالخمور بين الناس الذين يشاهدونه بتسلية واحتقار لمعرفتهم الكاملة بضعفه المخزي.

قالت له والدته على مائدة العشاء: لقد تنبّهت الليلة الماضية إلى عودتك إلى المنزل في الثانية فجرًا، أين كنت؟

أجابتها ليليان: لا جدوى من هذا السؤال، لقد كان في المطاحن بكلّ تأكيد.

كانت لزوجة أخرى أن تقول: في الصالون بالزاوية... أو ربّما ستسأله ليليان بنصف ابتسامة حكيمة على وجهها:

ـ ماذا كنت تفعل في نيويورك بالأمس؟

ـ كانت مأدبة مع الفتيان.

ـ مأدبة عمل؟

ـ نعم.

ـ بالطبع.

تلتفت ليليان وتذهب بعيدا، لا شيء أكثر من ذلك، باستثناء الإدراك المخزي أنّه كان يأمل تقريبا في أن تَحسَبه حضر نوعا من الحفلات السامرة الفاحشة... لقد سقطت ناقلة للشحن بآلاف الأطنان من خام معدن ريردن إثر عاصفة ضربت بحيرة ميشيغان، كانت تلك القوارب تنهار، وإذا لم يأخذ على عاتقه مساعدتهم في الحصول على ما احتاجوا إليه من قوارب بديلة، فإنّ أصحاب الخطّ سيفلسون، ولم يكن هناك خطّ آخر في العمليّة على بحيرة ميشيغان... ذلك الركن؟ قالت ليليان، مشيرة إلى مقاعد وطاولات قهوة مرتّبة في غرفة الاستقبال الخاصّة بهم. لمَ لا، يا هنري، فالأمر ليس بجديدٍ عليك، ولكن أظنّ أنّ عليك الشعور بالإطراء لأنّ تغيير ديكور الغرفة استغرق ثلاثة أسابيع من وقتك الثمين لتتنبه إليه. إنّها تهيئتي الخاصّة لغرفة الصباح اقتباسًا عن قصر فرنسيّ شهير، ولكنّ أشياء من هذا القبيل لا يمكن

أن تثير اهتمامك يا حبيبي، فهي لا تحتوي على إيرادات من سوق الأسهم، لا شيء مهما كان... لم يتمّ تسليم طلبيّة النحاس، التي كان قد حدّدها قبل ستّة أشهر، وكان تاريخ التسليم الموعود قد تأجّل ثلاث مرّات، لا يمكننا منع ذلك يا سيّد ريردن. كان عليه أن يجد شركة أخرى للتعامل معها، فإمدادات النحاس أصبحت غير مؤكّدة على نحو متزايد... لم يبتسم فيليب، حينما التفت إلى هنري وهو يلقي خطابا على أحد أصدقاء والدتهم عن بعض التنظيمات التي انضمّ إليها، ولكن كان هناك شيء يوحي بابتسامة التفوّق في عضلات وجهه المرتخية حين قال:

ـ لا يا هنري، يجب ألّا تهتمّ لهذا الأمر، لأنّه ما من علاقة تربطه بالأعمال التجاريّة، وبالتجارة على الإطلاق، إنّه مسعى غير تجاريّ بحت.

ذلك المقاول من ديترويت، المكلّف بمهمّة إعادة بناء مصنع كبير، والذي كان يفكّر في الأشكال الهيكليّة لشركة ريردن، يجب عليه أن يقلّ الطائرة إلى ديترويت ويتحدّث إليه شخصيًّا، كان يجب عليه أن يفعل ذلك قبل أسبوع من الآن، وكان أيضًا يستطيع أن ينجز هذا الأمر هذه الليلة.

قالت والدته على مائدة الإفطار: أنت لا تستمع. وذلك عندما سرح بعقله مفكّرًا في الرقم القياسيّ الحاليّ لأسعار الفحم الحجريّ، بينما كانت هي تخبره عن الحلم الذي راودها في الليلة الماضية، قالت:

ـ أنت لم تستمع قطّ إلى أيّ روح حيّة. أنت لست مهتمًا بأيّ شيء عدا نفسك، أنت لا تهتمّ بالناس، ولا بأيّ مخلوق بشريّ واحد على أرض الله.

كانت الورقات المكتوبة الملقاة على طاولة مكتبه تمثّل تقريرًا عن اختبارات لمحرّك طائرة مصنوع من معدن ريردن. كان هذا المشروع أكثر شيء يرغب في قراءته في تلك اللحظة، فقد وُضِع على مكتبه، ولم يقترب منه لمدّة ثلاثة أيّام، لم يكن يملك متّسعا من الوقت لقراءته، لماذا لا يقرؤه الآن؟

هزّ رأسه بعنف، وفتح عينيه، وتراجع من أمام المرآة. حاول الوصول إلى أزرار

القميص. رأى يده تصل، بدلًا من ذلك، إلى كومة رسائل البريد التي رُميت على خزانة ملابسه. لقد كانت رسائل عاجلةً جلبها معه لأنّها تستوجب الردّ، وكان لا بدّ له من قراءتها في تلك الليلة، ولكن لم يكن يملك ما يكفي من الوقت لقراءتها في المكتب. لقد حشرها سكرتيره في جيبه وهو في طريقه للخروج، وكان قد ألقاها هناك وهو يخلع ملابسه.

ثمّ رفرفت قصاصة جريدة على الأرض. كانت مقالا افتتاحيًّا وضع عليه سكرتيرة علامة غاضبة بقلم أحمر تحت عنوان تكافؤ الفرص. قرأ في هذا المقال ما يلي: لقد كان هناك حديث كثير عن هذه المسألة في الأشهر الثلاثة الماضية، وهو أمر مشؤوم أكثر من اللازم.

قرأ تلك الأسطر، حينما تسلّل إلى مسامعه صخبُ جلبة وضحكٌ قادم من الطابق السفليّ، ذكّرته هذه الأصوات بقدوم الضيوف، وبأنّ الحفلة بدأت وأنّه سيواجه نظرات عائلته المريرة المعبّرة عندما ينزل.

أعلنت افتتاحيّة الجريدة: في الوقت الذي يتضاءل فيه الإنتاج وتنكمش الأسواق وتتلاشى فرصُ كسب العيش، فإنّه ليس من العدل السماح لرجل واحد بامتلاك شركات تجاريّة عديدة، بينما لا يملك الآخرون أيّ عمل. إنّه لَأمرٌ مدمّر أن يسمح للقليل من الشركات في ركن مّا من هذه البلاد باستنزاف جميع الموارد، وترك الآخرين بلا أيّ فرصةٍ؛ فالمنافسة ضروريّة للمجتمع، ومن واجب المجتمع أن يرى أنّه لم يوجد في أيّ وقت مضى منافسٌ تطوّر أكثر من المدى المعقول متجاوزًا أيّ شخص يريد منافسته. وتوقّع المقال تمرير مشروع قانون تمّ اقتراحه، وهو مشروع يحظر على أيّ شخص أو شركة امتلاك أكثر من تخصّص تجاريّ واحدٍ.

كان ويسلي ماوتش، رجله في واشنطن، قد قال لريردن إنّه لا داعي للقلق؛ وقال إنّ المعركة ستكون قاسيةً، ولكنّ مشروع القانون سوف يسقط في الأخير. لم يفهم ريردن شيئًا عن هذا النوع من القتال فتركه لماوتش وموظّفيه. فهو لم يكد يستطيع إيجاد الوقت لتصفّح تقاريرهم من واشنطن والتوقيع على الشيكات التي طلبها

ماوتش للمعركة.

لم يصدّق ريردن أنّ مشروع القانون سيمرّ. كان غير قادر على تصديق ذلك. فبعد أن تعامل مع الواقع النظيف للمعادن والتكنولوجيا والإنتاج طوال حياته، اكتسب قناعةً بأنّ على المرء أن يشغل نفسه بكلّ ما هو عقلانيّ، ويترك كلّ ما هو مجنون، وأنّ على المرء أن يبحث عن الصواب، لأنّ الإجابة الصائبة تنتصر دائمًا، وأنّ اللّامعنى والخطأ والحيف البشع لا يمكن أن تنطلي على الجميع. كلّها غير ناجحة، ولا يمكن أن تفعل شيئًا سوى هزيمة نفسها. والمعركة ضدّ شيء مثل هذا القانون تبدو منافية للعقل ومحرجة له على نحو ضعيف، كما لو كان يطلب منه فجأة التنافس مع رجل يحسب الخلطات المعدنيّة بصيغ علم الأرقام.

وقال في نفسه إنّ المسألة تبدو خطيرة. ولكنّ الصراخ المحتدم القادم من أسطر المقال الهستيريّ لم يثر فيه أيّ عاطفة. وكان الاختلاف في الأعداد بعد الفاصلة العشريّة في تقارير المختبر الذي عمل على معدن ريردن جعله يقفز من الحماس أو التحفّظ. لم تكن لديه طاقة يذخرها لأيّ شيء آخر.

ثنى مقال الجريدة بعنفٍ وألقاه في سلّة المهملات. وشعر بنفس الثقل المخلوط بالإرهاق الذي شعر به لّمّا فرغ من العمل، إرهاق كأنّما كان فقط ينتظره ليستبدّ بجسده في اللحظة التي كان يلتفت فيها إلى مشاغل أخرى. لم يشعر بأيّ رغبة سوى الشوق إلى النوم.

قال مخاطبا نفسه: إنّ عليه حضور الحفلة، وإنّ من حقّ عائلته أن تطالبه بهذا الأمر، وإنّ عليه تعلُّم حبّ هذا النوع من المتعة، على الأقلّ ليرضي خواطرهم.

وتساءل: لماذا لا يحفّزه هذا الدافع على مثل هذه الأمور؟ فطوال حياته، اقتنع بأنّه كلّما كان مسار العمل على ما يرام وفي الطريق الصحيح، فإنّ الرغبة التي تتبعه ستتحقّق على نحو أوتوماتيكيّ. ما خطبه هذه الليلة إذَن؟ هكذا تساءل في أعماقه. لقد حاصره الصراع المستحيل إذ شعر بالتردّد في فعل ما هو صحيح. هل كان ما يمرّ به هو الصيغة الأساسيّة للفساد الأخلاقيّ؟ أن ندرك ذنب المرء، ومع ذلك لا نشعر

بشيء إلّا اللامبالاة الأكثر برودًا وعمقًا أم هو الشعور بخيانة كلّ تلك الأشياء التي كانت تحرّك عجلة حياته وتنثر فخره؟

لم يمنح نفسَه أيّ وقت للوصول إلى الأجوبة. وبكلّ قسوة أنهى ارتداء الملابس سريعًا. ثمّ انتصب قائمًا، تحرّك بجسده الطويل بلا انقباض، تقوده الثقة المتأنّية المستمدّة من سلطته المعتادة، ومنديل أبيض يلوح في الجيب الصغير من جهة صدره على سترة العشاء السوداء. مشى ببطء من أسفل الدرج إلى غرفة الاستقبال، ينظر إلى الارتياح الذي يبدو على ملامح العجائز من الأرامل وهنّ يراقبنه مثل شخصيّة مثاليّة لرجل صناعة عظيم.

رأى ليليان عند أسفل الدرج. وقد أبرزت الخطوط الأرستقراطيّة، من ثوب سهرة إمبراطوريّ أصفر كلون الليمون. كانت رشيقة، وظلّت واقفة مثل شخص يسيطر بفخرٍ على خلفيّته الاجتماعيّة المناسبة. فابتسم هنري؛ كان يحبّ أن يراها سعيدة؛ لأنّ سعادتها هي ما يضفي معنًى على هذه الحفلة.

دنا منها، ثمّ توقّف. في العادة كانت ترتدي المجوهرات بشكلٍ يدلّ على ذوق رفيع. لم تكن يومًا تفرّط في ارتداء المجوهرات. لكنّها ارتدت في هذه الليلة حلّةً بهيّةً تتألّف من قلادة الماس وأقراط وخواتم والكثير من البروشات المزخرفة. وفي مقابل ذلك بدت ذراعاها عاريَتَين بشكل واضح. إذ كانت ترتدي سوار معدن ريردن على معصمها الأيمن فقط. ولكنّ الأحجار الكريمة المتلألئة جعلت المشهد يبدو نشازًا وكأنّ ذلك السوار قطعة قبيحة من المجوهرات اشترتها من متجر بعشرة سنتات.

وحين انتقل بنظره من معصمها إلى وجهها، وجدها تنظر إليه. وكانت نظرة عينيها ضيّقة، لذلك لم يستطع فهمَ المعاني التي تتدفّق منها. لقد بدت نظرة متوارية وهادفة على حدّ سواء، نظرة تخفي شيئًا من التكبّر والتباهي لتحميها من الانكشاف.

أراد أن يمزّق ذلك السوار من معصمها. لكنّه بدلًا من ذلك، أبدى خنوعًا لصوتها المبتهج وهي تقدّم أرملةً عجوزا رافقتها، فانحنى لتلك الأرملة التي وقفت بجانبها، وملامح وجهه ساكنة لا تحمل أيّ تعبير.

قال الدكتور بريتشيت لمجموعة من الضيوف: الإنسان؟ ما هو الإنسان؟ إنّه مجموعة من الموادّ الكيميائيّة التي اختلطت بأوهام العظمة.

اختار الدكتور بريتشيت بعض المقبلات من الخبز المحمّص بالكافيار عرضت عليه في طبق بلّوريّ، وأمسك قطعة الخبز بين إصبعين مستقيمين وأودعها كلّها في فمه.

أضاف: إنّ ادّعاءات الإنسان الميتافيزيقيّة تنافي العقل. إنّها بائسة بقليل من البروتوبلازم، مليئة بالمفاهيم الصغيرة القبيحة التي تعني القليل من العواطف في حين تتصوّر نفسها مهمّة! حقًّا، كما تعلمون، هذا هو أصل كلّ المشاكل في العالم.

سألته رئيسة الممرّضات التي كان زوجها يملك مصنعًا للسيّارات سؤالًا جادًّا: لكن، يا أستاذ، ما هي المفاهيم التي سلمت اليوم من القبح أو اللؤم؟

ـ لا شيء، الإنسان لا يقدر على أيّ شيء.

سأله شابّ بتردّد: لكن إذا كنّا لا نملك مفاهيم جيّدة، فكيف لنا أن نتبيّن المفاهيم القبيحة؟ أعني، ما المعايير التي يمكن أن نتّكئ عليها لنميّز بعضها من بعض؟

ـ لا توجد أيّ معايير.

أسكت هذا التصريح جمهوره. فقال الدكتور بريتشيت:

ـ كان فلاسفة الماضي سطحيّين. علينا في هذا القرن أن نحدّد مجدّدًا الهدف من الفلسفة. ليس الهدف منها أن تساعد البشر في العثور على معنى الحياة، بل هو أن تثبت لهم، على النقيض من ذلك، أنّ الحياة تخلو من أيّ معنى.

سألته بسخطٍ امرأة شابّة جذابة، كان والدها يملك منجم فحم: ومن يستطيع أن يخبرنا بذلك؟

ـ أنا أحاول أن أضطلع بهذه المهمّة.

كان الدكتور بريتشيت رئيسًا لقسم الفلسفة بجامعة باتريك هنري على مدى

السنوات الثلاث الماضية. اقتربت منهم ليليان ريردن وكانت مجوهراتها متلألئة بفعل الأضواء.

أضاف الدكتور بريتشيت: إنّ إصرار الإنسان على المعنى هو ما يجعله صعب المراس. فإذا أدرك أنّه لا يحظى بأيّ قيمة داخل هذا الكون الواسع، وأنّه لا يمكن أن يضفي أيّ معنى ممكنًا على أفعاله، وأنّ موته وحياته سواء، فإنّه سيصبح بعد ذلك أكثر إذعانًا.

ثمّ تجاهلهم ومدّ يده ليتناول قطعة خبزٍ أخرى. فقال أحد رجال الأعمال الحاضرين على نحو غير مريح:

ـ يا أستاذ، كنت قد سألتك عن موقفك من مشروع قانون تكافؤ الفرص.

ردّ الدكتور بريتشيت: أوه، ذلك القانون؟ أعتقد أنّه سبق لي قول إنّني أؤيّد هذا القرار، فأنا من مؤيّدي الاقتصاد الحرّ. الاقتصاد الحرّ لا يمكن أن يقوم من دون منافسة. ولهذا السبب ينبغي إجبار الناس على المنافسة.

ـ ولكن، أليس في هذا الكلام نوع من التناقض؟

ـ ليس بالمعنى الفلسفيّ. يجب أن تتعلّم النظر في ما وراء التعريفات الثابتة للتفكير القديم. لا شيء ثابت في الكون، كلّ شيء متحوّل.

ـ ولكن من المنطقي أنّه إذا..

ـ يا زميلي العزيز العقل هو أكثر الخرافات سذاجةً. وقد تمّ الاعتراف به، على الأقلّ، في عصرنا.

ـ لكنّني لا أفهم تماما كيف يمكننا...

ـ أنت تعاني من الوهم، وهم أنّ جميع الأمور قابلة للفهم. أنت لا تدرك حقيقة أنّ الكون يتناقض باستمرار.

سألته رئيسة الممرّضات: مع من يتناقض؟

ـ يتناقض مع ذاته.

ـ وكيف يتمّ هذا الأمر؟

ـ سيّدتي العزيزة، ليس من مهمّة المفكّرين تفسير الظواهر، بل البرهنة على أنّ الظواهر غير قابلة للتفسير. إنّ الغرض من الفلسفة ليس البحث عن المعرفة، بل إثبات أنّ المعرفة مستحيلة.

سألته شابّة: ولكن عندما نثبت ذلك، ماذا سيتبقّى؟

أجابها الدكتور بريتشيت بوقار: الغريزة.

وفي الطرف الآخر من الغرفة، كانت هناك مجموعة أخرى تنصت إلى بالف يوبانك. لقد جلس منتصبًا على حافّة كرسيّ، لمواجهة مظهر وجهه وجسده، الذي كان يميل إلى الانبساط عندما يشعر بالاسترخاء.

قال بالف يوبانك: الأدب القديم كان بمثابة احتيال سمج. إنّه تبييض للحياة من أجل إرضاء تجّار المال. الأخلاق، والإرادة الحرّة، والإنجاز، والنهايات السعيدة، والإنسان بوصفه نوعًا من الوجود البطوليّ، كلّ هذه الأشياء تثير الضحك اليوم. لقد أضفى عصرنا لأوّل مرّة عمقًا على الأدب من خلال فضح جوهر الحياة الحقيقيّ.

سألته باستحياءٍ فتاةٌ صغيرة جدًّا تلبس فستان سهرةٍ أبيض: وما هو جوهر الحياة الحقيقيّ يا سيّد يوبانك؟

ـ الهزيمة والمعاناة، لكن... لماذا؟ فالناس قد يكونون سعداء... في بعض الأحيان... أليسوا كذلك؟ لكنّ هذا الأمر مجرّد وهمٍ لأولئك الذين يتمتّعون بعواطف سطحيّة.

احمرّ وجه الفتاة خجلًا. ثمّ سألته امرأة ثريّة ورثت مصفاة للنفط سؤالًا ينطوي على إحساس بالذنب:

ـ كيف يمكن أن ننمّي الذوق الأدبيّ عند الجمهور يا سيّد يوبانك؟

ردّ بالف يوبانك: إنّ هذه لَمشكلةٌ اجتماعيّة كبيرة.

كان السيّد يوبانك ينعت بالزعيم الأدبيّ في هذا العصر، لكنّه لم يكتب قطُّ كتابًا تجاوزت عدد مبيعاته أكثر من ثلاثة آلاف نسخة.

أضاف: أنا شخصيًّا أعتقد أنّ مشروع قانون تكافؤ الفرص الذي سينطبق على الأدب سيكون حلًّا.

ـ أوه، هل توافق أنت أيضًا على هذا القانون الذي سيؤطّر الصناعة؟ أنا لا أزال في حيرة من أمري حين أفكّر في هذا القانون.

ـ بالتأكيد، أنا موافق على ذلك. لقد غرقت ثقافتنا في مستنقع المادّيّة. وفَقَد البشر كلّ القيم الروحيّة في سعيهم إلى الإنتاج المادّيّ والخداع التكنولوجيّ. إنّهم مرتاحون جدًّا، سيعودون إلى حياة أنبل إذا علّمناهم تحمُّل الحرمان. لذلك يجب أن نضع حدّا لهذا الجشع المادّيّ.

قاطعته المرأة معتذرةً: لم أفكّر في الأمر بهذه الطريقة.

سأل مورت ليدي: كيف يمكن تطبيق قانون تكافؤ الفرص على الأدب، يا رالف؟ إنّي أرى هذا الأمر في غاية الطرافة.

ردّ يوبانك بغضبٍ: اسمي بالف... هي فكرة جديدة عليك لأنّها فكرتي الخاصّة.

ـ حسنًا، حسنًا، أنا لست في شجار معك، هل أبدو كذلك؟ أنا فقط أطرح سؤالًا لا غير.

ابتسم مورت ليدي وأمضى معظم وقته وهو يبتسم بعصبيّةٍ. كان ملحّنًا يؤلّف الطراز القديم من الموسيقى الخلفيّة للصور المتحرّكة، والسيمفونيّات الحديثة للجماهير المتناثرة هنا وهناك.

قال بالف يوبانك: مثل هذا القانون سينجح ببساطة كبيرة. إذ ينبغي أن يوجَد قانونٌ يحدّ من بيع عشرة آلاف نسخة من أيّ كتابٍ. وهذا الأمر سيجعل السوق الأدبيّة تُفتَح أمام المواهب والأفكار الجديدة والكتابة غير التجاريّة. ولو مُنع الناس

من شراء مليون نسخة من قطعة القمامة نفسها، لاضطرّوا إلى شراء كتبٍ أفضل.

ردّ مورت ليدي: قد تستفيد من هذا القانون، ولكن ألن يؤثّر على عائدات المؤلّفين؟

ـ سيكون الأمر أفضل بكثيرٍ. لا ينبغي أن يقتحم مجالَ الأدب أولئك الرجالُ الذين يلهثون وراء المال.

سألته فتاةٌ صغيرة ترتدي فستانًا أبيض: لكن، يا سيّد يوبانك، ماذا لو وُجد أكثر من عشرة آلاف شخصٍ يريدون شراء الكتاب ذاته؟

ـ عشرة آلاف قارئ كافية لأيّ كتاب.

لا أعني هذا الأمر. أعني، ماذا لو تضاعف الطلب على الكتاب ذاته؟

ـ هذا الأمر لا يمتّ إلى موضوعنا بِصِلَةٍ.

ـ ولكن إذا كان الكتاب يحكي قصّة جيّدة والتي...

أجابها بالف يوبانك بازدراء: القصّة هي الابتذال البدائيّ في الأدب.

توقّف الدكتور بريتشيت، وكان في طريقه من الغرفة إلى الحانة، ليقول تعقيبًا على كلام يوبانك:

ـ تمامًا! مثل المنطق، فهو الابتذال البدائيّ في الفلسفة.

أضاف مورت ليدي: تمامًا! مثل اللحن فهو الابتذال البدائيّ في الموسيقى.

ثمّ سألتهم ليليان ريردن، حين اقتربت منهم بجواهرها المتلألئة:

ـ ما كلّ هذا الضجيج؟

ـ خاطبها بالف يوبانك بتشدّق: ليليان، يا ملاكي. هل أخبرتك سابقًا أنّي سأهديك روايتي الجديدة؟

ـ لِمَ لا؟ شكرًا لك عزيزي.

سألت المرأة الثريّة: ما هو عنوان روايتك الجديدة؟

ـ *القلب بائع حليب*.

ـ ما موضوعها؟

ـ الإحباط.

ثمّ سألته الفتاة الصغيرة ذات الفستان الأبيض، بيأسٍ ووجهها محمرّ من الخجل:

ـ إذا كان الإحباط هو كلّ شيء، فما الذي سنعيش من أجله، يا سيّد يوبانك؟

ـ ردّ بالف يوبانك بتشاؤمٍ: ينبغي أن نعيش من أجل الحبّ.

وقف بيرترام سكودر متراخيًا أمام منضدة الحانة وبدا وجهه الطويل الرقيق كما لو أنّه تقلّص إلى الداخل، باستثناء فمه وعينيه، وقد تُركت لتبرز كثلاث كرات أرضيّة ناعمة. لقد كان يشتغل رئيس تحرير بمجلّة *المستقبل*، وكان قد كتب مقالًا عن هانك ريردن بعنوان الأخطبوط.

التقط بيرترام سكودر كأسه الفارغة ودفعها بصمت نحو النادل، لتُملَأ. ثمّ أخذ جرعة من شرابه الطازج، ولاحظ الزجاجة الفارغة أمام فيليب ريردن، الذي وقف بجانبه، مشيرًا بحركةٍ من إبهامه آمرًا النادل بالتزام الصمت. لقد تجاهل الزجاجة الفارغة أمام بيتي بوب، التي وقفت قرب فيليب من الجانب الآخر.

قال بيرترام سكودر مخاطبًا فيليب: يا صاحِ، سواء أعجبك الأمر أم لا، فإنّ مشروع قانون تكافؤ الفرص يمثّل خطوةً كبيرةً إلى الأمام.

سأله فيليب بتواضعٍ: ما الذي يجعلك تعتقد أنّ هذا القانون لا يروق لي، يا سيّد سكودر؟

ـ حسنًا، إنّه سيحدث بالتأكيد صدمة، أليس كذلك؟ لأنّ ثمّة فئةً ستتضرّر منه.

ـ لماذا تفترض أنّني أعترض على هذا القانون؟

سأله بيرترام سكودر دون فضولٍ: هل أنت لا تعترض فعلًا؟

ردّ فيليب بحرارةٍ: أنا لا أعترض! لقد كنت أقدِّمُ دومًا المصلحة العامّة على

مصلحتي الشخصيّة. وبذلت وقتي وأموالي لمنظّمة أصدقاء التقدّم العالميّ في حملتها من أجل مشروع قانون تكافؤ الفرص. أعتقد أنّ من غير العادل تمامًا أن ينفرد إنسان واحد بالكعكة ويبقى الآخرون محرومين.

ظلّ بيرترام سكودر يراقبه بتأمّلٍ لكن دون أن يبدي اهتمامًا خاصًّا ثمّ قال:

ـ حسنًا، هذا لطف منك على غير العادة.

قال فيليب بنبرة فخرٍ: بعض الناس لا يأخذون القضايا الأخلاقيّة على محمّل الجدّ، يا سيّد سكودر.

سألتهما بيتي بوب: عمَّ يتحدّث فيليب؟ نحن لا نعرف أيّ شخص يملك أكثر من عمل واحدٍ، أليس كذلك؟

ـ ردّ بيرترام سكودر والملل يستبدّ به: أوه، كفّوا عن الكلام!

ردّت بيتي بوب بقوّة وبلهجة خبير في الاقتصاد: لا أفهم سبب كلّ هذه الجَلَبَة حول مشروع قانون تكافؤ الفرص. ولا أرى ما يمنع رجال الأعمال من الموافقة عليه. إنّ هذا القانون يخدم مصالحهم، لأنّه إذا كان الجميع فقراء، فإنّ بضائعهم ستبور في الأسواق. ولكن بشرط أن توقّفوا عن الأنانيّة ويتقاسموا السلع التي كدّسوها، لأنّ هذا الأمر سيتيح لهم فرصًا أكبر للعمل وإنتاج المزيد.

قال سكودر: لا أرى أيّ موجبٍ للاهتمام بالصناعيّين. فحين تكون الجماهير فقيرة والبضائع متوفّرة، سيكون من الغباء أن نتوقّع من الناس أن توقفهم خرقة من الورق تسمّى صكّ الملكيّة. إنّ حقوق الملكيّة خرافة. فالفرد يتمسّك فقط بملكيّته بفضل مجاملة من أولئك الذين لا يريدون الاستيلاء عليها. يمكن للناس اغتنامُها في أيّ لحظةٍ. وإذا كان هذا الأمر في مُتناوَلهم، فلماذا لا يجب عليهم الاستيلاء عليها؟

ردّ كلود سلاجينهوب: يجب أن يتسوّلوها. إنّهم بحاجة إليها. الحاجة هي الاعتبار الوحيد. إذا كانت بالناس حاجةٌ، فيجب أن نستولي على الأمور أوّلًا ثمّ نتحدّث عنها بعد ذلك.

كان كلود سلاجينهوب قد اقترب منهم وتمكّن من الضغط على نفسه ليجلس بين فيليب وسكودر، فدفع سكودر جانبًا بشكل غير ملحوظ. لم يكن سلاجينهوب طويل القامة أو ضخم الجثّة، ولكنّه يتمتّع بجسد عريض مكتنز، وأنف مكسور. وكان رئيسا لمنظّمة أصدقاء التقدّم العالميّ.

قال كلود سلاجينهوب: إنّ الجوع لا يرحم أحدًا. الأفكار مجرّد هواء ساخن. أمّا البطن الفارغ فهو حقيقة صلبة. لقد قلت في كلّ خطاباتي إنّه ليس من الضروريّ التحدّث كثيرًا. في الوقت الحاليّ، يعاني المجتمع كثيرًا بسبب نقص فرص العمل. ولهذا السبب، نحظى بالحقّ في أن نغتنم الفرص الموجودة. فالحقّ هو كلّ جيّدٍ للمجتمع.

بكى فيليب فجأة، وصرخ بصوت شديد، ثمّ قال:

ـ إنّه لم يحفر هذا الخام بيد واحدة، أليس كذلك؟ لو سمح باستخدام مئات العمّال لفعلوا ذلك. لماذا يعتقد أنّه جيّد جدًّا؟

نظر إليه الرجلان، فرفع سكودر حاجبه، أمّا كلود سلاجينهوب فظلّ محايدًا.

قالت بيتي بوب وهي تتذكّر: أوه، يا عزيزي!

وقف هانك ريردن في خلوة معتمةٍ عند نافذة في نهاية غرفة الاستقبال. وأعرب عن أمله في ألّا ينتبه إليه أحدٌ لبضع دقائق. لقد هرب للتوّ من امرأة في منتصف العمر كانت تخبره عن تجاربها النفسيّة. وقف ينظر بعيدًا إلى المسافة التي تفصله عن المطاحن، وهي تنقل التوهّج الأحمر من صلب ريردن في السماء. لقد شاهده بحثًا عن لحظة من الارتياح. ثمّ التفت لينظر إلى غرفة الاستقبال. لم يحبّ منزله قطُّ. كلّ شيء فيه كان من اختيار ليليان. لكنّ الألوان المتغيّرة لفساتين السهر أغرقت مظهر الغرفة، في هذه الليلة، وأكسبته جوًّا من البهجة الرائعة. كان يحبّ أن يرى فرحة الناس، رغم أنّه لا يفقه أيّ شيء في هذه الطريق التي يسلكها الجميع في الاستمتاع.

أخذ ينظر إلى الزهور، وإلى شرارات الضوء المنعكسة على بلّور كؤوس

الكريستال، وحدّق في أذرع النساء العاريات وأكتافهنّ. في الخارج كانت رياح باردة تجتاح مساحاتٍ خاليةً من الأرض. فرأى الأغصان الرقيقة لشجرة ملتوية مثل الأسلحة تلوّح بنداء للحصول على المساعدة. لقد وقفت الشجرة حاجبةً توهّج المطاحن.

لم يستطع أن يسمّي هذه المشاعر التي اجتاحته فجأةً، لأنّه لا يعرف سببها ولا معناها. كان يحسّ بفرح احتفاليّ.

وحين عاد إلى الحشد، كان يبتسم. ولكنّ هذه الابتسامة تبخّرت حين رأى داغني تاجارت قادمةً.

وقفت ليليان لمقابلتها، وهي تتفحّصها بفضولٍ. كانتا قد اجتمعتا من قبل، في مناسبات نادرة، فوجدت أنّ من الغريب رؤية داغني تاجارت وهي ترتدي فستان سهرةٍ. لقد ارتدت ثوبًا أسود بصدريّة سقطت مثل رداءٍ على ذراع واحدةٍ وكتف واحدة، وتركت الأجزاء الأخرى عاريةً؛ وكانت الكتف العارية بمثابة زخرفة الفستان الوحيدة. لا يستطيع المرء أن يفكّر أبدًا في جسد داغني تاجارت عند رؤيتها ترتدي مثل تلك البدلات. لقد بدا الفستان الأسود كاشفًا بشكل مفرط، لأنّه كان من المدهش أن نكتشف ما في خطوط كتفها من هشاشة وجمالٍ، وأنّ الطاقم الماسيّ على معصم ذراعها العاري منحها أنوثةً قصوى.

قالت ليليان ريردن والابتسامة ترتسم على محيّاها: آنسة تاجارت، إنّها لَمفاجأةٌ رائعةٌ جدًّا أن نراك هنا. لقد تجرّأت حقًّا حين رجوت أنّ دعوةً منّي ستجلبك من بعيد وتأخذك من مشاغلك الكثيرة. أرجوك لا تأخذي هذا الكلام على أنّه مجاملة.

دخل جيمس تاجارت ليرافق أخته فابتسمت له ليليان، وألقت عليه التحيّة قائلة:

ـ مرحبا جيمس. هذه هي عقوبة الشهرة، فالمرء يميل إلى غَضِّ الطرف عنك في حضور أختك.

أجابها مبتسمًا: لا أحد يمكن أن يضاهيك في الشهرة، يا ليليان. وأتمنّى ألّا أغضّ

عنك الطرف أبدًا.

ـ أنا؟ لكنّني مستسلمة تمامًا لأحصل على المركز الثاني وراء ظلّ زوجي. فأنا أدرك بتواضعٍ أنّ زوجة رجل عظيم يجب أن تكون راضيةً عن المجد الذي ينعكس عليها، ألا توافقينني الرأي يا آنسة تاجارت؟

ـ بلى، أنا لا أوفقك الرأي.

ـ أهذا إطراء أم توبيخ يا آنسة تاجارت؟ لكن تقبّلي اعتذاري، لأنّ ما بيدي حيلةٌ. من ترغبين في أن أقدّمه لك؟ أخشى ما أخشاه أنّه ليس لديّ من أحد سوى الكتّاب والفنّانين لأقدّمهم لك، وأنا متأكّدة أنّهم لن يثيروا اهتمامك مطلقًا.

ـ أودّ أن أرى هانك وألقي عليه التحيّة.

ـ ولكن... طبعًا، بكلّ سرور. تعالَ يا جيمس، هل تذكر ما قلته لي من أنّك تودّ مقابلة بالف يوبانك؟ أوه نعم، إنّه هنا، سأخبره أنّني سمعتك تهذي حول روايته الأخيرة في عشاء السيّدة ويتكومب!

ثمّ تساءلت داغني وهي تتجوّل في الغرفة، لماذا قالت إنّها تريد العثور على هانك ريردن، وما منعها من الاعتراف بأنّها قد رأته لحظة دخولها.

وقف ريردن في الجانب الآخر من الغرفة الطويلة ينظر إليها، ثمّ شاهدها وهي تقترب، لكنّه لم يتقدّم للقائها.

ـ مرحبًا، هانك.

ـ مساء الخير.

انحنى بلطف، فتطابقت حركة جسده مع الشكليّات المتميّزة في ملابسه. لكنّه لم يبتسم.

قالت بسرورٍ: شكرا على الدعوة.

ـ ليليان هي التي دعتك، لكنّي كنت أعلم أنّك ستأتين.

ـ أوه؟ إذَن أنا سعيدة لأنّ السيّدة ريردن فكّرت فيّ. لذلك لبّيت الدعوة استثناءً.

ـ استثناء؟

ـ أنا لا أذهب إلى الحفلات في أحيانٍ كثيرةٍ.

ـ يسرّني أنّك جعلت هذه المناسبة استثناءً.

كان رسميًا في معاملتها، لذلك لم تنسجم معه.

قالت: أردت أن أحتفل.

ـ الاحتفال بذكرى زواجي؟

ـ هل هي ذكرى زواجك؟ لم أعلم بذلك. تهانيّ الحارّة يا هانك.

ـ وما الذي كنت ترغبين في الاحتفال به؟

ـ لقد أردت أن أجود على نفسي بقليل من الراحة. احتفال خاصّ بي على نخب شرفك وتكريمًا لي.

ـ ولأيّ سبب؟

كانت تفكّر في المسار الجديد للسكك الحديديّة على المدرّجات الصخريّة لجبال كولورادو، وهو ينمو ببطءٍ نحو الهدف البعيد لحقول وايت للنفط. كانت ترى وهجَ القطارِ الأزرقَ المائلَ إلى الخضرة على الأرضيّة المتجمّدة، بين الأعشاب المجفّفة، والصخور العارية، والأكواخ المتعفّنة للمستوطنات نصف الجائعة.

أجابته: على نخب أوّل ستّين ميلًا من مسار معدن ريردن.

ـ أنا أقدّر ذلك.

كان لنبرة صوته أن تكون مناسبةً لو أنّه قال:

ـ لم أسمع بهذا الخطّ من قبل.

لم تجد شيئًا آخر لتقوله، لقد شعرت كما لو أنّها تتحدّث إلى شخص غريب. ثمّ كسر صوتٌ بشوشٌ صمتها قائلًا:

ـ لماذا، يا آنسة تاجارت؟ هذا ما أعنيه عندما أقول إنّ هانك ريردن يمكن أن يحقّق أيّ معجزة!

كان صوتًا لرجل أعمال عرفا أنّه يقترب منها مبتسمًا في ذهولٍ وسعادةٍ. وكان الثلاثة قد عقدوا في أحيانٍ كثيرةٍ مؤتمراتٍ طارئةً حول أسعار الشحن وتسليم الصلب. هو الآن ينظر إليها بملامح وجهٍ توحي بتعليقٍ مفتوح على التغيير في مظهرها، ذلك التغيير الذي اعتقدت أنّ ريردن لم يلاحظه.

ضحكت وردّت تحيّة الرجل. ثمّ تبادلت معه بعض الجمل. وعندما نظرت من حولها وجدت هانك ريردن قد رحل.

قال بالف يوبانك لجيمس تاجارت، وهو ينظر إلى داغني تتنقّل في أرجاء الغرفة:

ـ هذه هي أختك الشهيرة؟

قال تاجارت متلعثمًا: لم أكن أعلم أنّ أختي مشهورة إلى هذا الحدّ.

ـ لكنّ أختك ظاهرة خارقة في مجال علم الاقتصاد، أيّها الرجل الطيّب، لذلك عليك أن تتوقّع من الناس التحدّثَ عنها. أختك هي أحد أعراض مرض يستفحل في هذا القرن. لقد دمّرت الآلات إنسانيّة الإنسان، وأخذته بعيدًا عن أرضه، وسلبته فنونَه الطبيعيّة، وقتلت روحه وحوّلته إلى روبوت مثل امرأة تدير شركة السكك الحديديّة، بدلًا من ممارسة حرفة النسيج يدويًّا والاعتناء بتربية الأطفال.

تنقّل هانك ريردن بين الضيوف، محاولًا تفادِي أيّ نقاش. ثمّ أخذ ينظر إلى الغرفة فلم يرَ أحدًا يرغب في الاقتراب منه.

ـ حدّثني يا هانك ريردن، أنت لست شخصًا سيّئًا على الإطلاق، خصوصًا حين نراك تقترب من عرين الأسد. يجب أن تمنحنا مؤتمرًا صحفيًّا من حين إلى آخر، ربّما ستكسب ودّنا بشكل نهائيّ.

التفت ريردن ونظر إلى المتكلّم بريبةٍ. كان صحفيًّا شابًّا يطفح منه البؤس، وهو يعمل في صحيفة شعبيّة راديكاليّة. لقد اختار أن يكون وقحًا، لأنّه يعلم أنّ ريردن لا

يحبّ مخالطة أمثاله.

لم يكن ريردن ليسمح له بدخول المطاحن، ولكنّ الرجل كان ينزل ضيفًا عند ليليان؛ لهذا السبب تمالك أعصابه، ثمّ سأله بجفافٍ:

ـ ماذا تريد؟

ـ أنت لست سيّئًا جدًّا. أنت تملك موهبة تكنولوجيّة. لكن، أنا لا أتّفق معك بخصوص توجّهات شركة ريردن.

ـ أنا لم أطلب يومًا موافقتك.

ـ حسنا، لقد قال بيرترام سكودر إنّ سياستكم...

بدأ الرجل يشير بعدوانيّة نحو منضدة الحانة، ولكنّه توقّف، كما لو أنّهُ انزلق إلى أبعد ممّا كان ينوي.

نظر ريردن إلى هيئة شخص غير مرتّب واقف بتراخٍ أمام منضدة الحانة. لقد سبق لليليان أن قدّمته له، لكنّه لم ينتبه إلى الاسم. التفت بحدّة وسار بعيدا، على نحوٍ منع ذلك الشابّ المتشرّد من تعقّبه.

لمحت ليليان وجه زوجها، عندما اقترب منها وهي في وسط مجموعة من الضيوف، ودون أن ينبس بكلمة، جذبها على حِدَةٍ حيث لا يمكن لأحدٍ أن يسمعهما. ثمّ سألها مشيرا إلى رجل:

ـ هل هذا هو سكودر من مجلّة المستقبل؟

لماذا تسأل، نعم هو سكودر بلحمه وشحمه.

نظر إليها صامتًا، لم يكن يستطيع تصديق ما رآه، وظلّ يراقبه قبل أن يسألها:

ـ لماذا دعوت سكودر إلى الحفلة؟

ـ لا تكن سخيفًا، يا هنري، ولاسيّما في هذه اللحظة من الحفلة. لا تكن ضيّق الأفق، أليس كذلك؟ يجب أن تتعلّم تقبّل آراء الآخرين واحترام حرّيّة التعبير.

ـ في منزلي؟

ـ أوه، لا تكن متعجرفًا!

كان هانك صامتًا، لأنّ وعيه انحصر، لا في التصريحات المتماسكة لصحفيّ محترفٍ، بل في صورتين ظلّتا عالقتين ولم تفارقا خياله في إصرارٍ وعناد. ورأى مقال الأخطبوط لصاحبه بيرترام سكودر، لم يكن المقال تعبيرًا عن أفكار، بل دَلْوًا من الوحل أُفرِغ أمام العموم. لم يكن المقال يحتوي ولو على حقيقة واحدة. بل كان تيّارا جارفًا من السخريّة والصفات التي تنمّ عن قذارة خبيثة دون النظر في الأدلّة الضروريّة. ثمّ أخذ ينظر إلى خطوط ملامح ليليان، إلى النقاء الذي افتخر به وارتآه في الزواج بها.

وحين راقبها مجدّدًا، أدرك أنّ ما رآه من ملامحها كان مجرّد صورة في عقله، لأنّها التفتت إليه لتراه وجها لوجه. في لحظة مفاجئة من العودة إلى الواقع، كان يعتقد أنّ ما رآه في عينيها متعة لا توصف. لكن في اللحظة التالية ذكّر نفسه بأنّه رجل عاقل وأنّ ما شعر به لا يمكن أن يكون ممكنًا.

استخدم كلمة فاحشة بدقّة مجرّدة من كلّ العواطف ليقول:

ـ إنّها المرة الأولى التي تستدعين فيها ذلك... إلى منزلي، ستكون المرّة الأخيرة.

كيف تجرؤ على استخدام مثل هذه الكلمات.

لا تجادليني، يا ليليان. وإذا فعلت، فإنّي سأطرده الآن.

منحها لحظة للإجابة، أو للاعتراض، أو حتّى للصراخ عليه لو ودّت ذلك. لكنّها بقيت صامتة، لا تنظر إليه، وحدَهما خدّاها الناعمان بَدَوَا مجذوبين بشكل خفيف إلى الداخل كما لو أنّهما كانا يتقلّصان.

ابتعد على نحوٍ أعمى متنقّلا من خلال لفائف الأضواء والأصوات والعطور، فشعر بلمسة باردة من الفزع. كان يعلم أنّ عليه التفكير بليليان ليجد الإجابة على لغز شخصيّتها، لأنّ تلك الإجابة ستلهمه الأمرَ الذي لم يتمكّن من تجاهله؛ لكنّه لم

يفكّر فيها. كان يشعر بالرعب، لأنّه يعلم أنّ الجواب لم يعد مهمًّا له منذ فترة طويلة.

ثمّ بدأ طوفان الإرهاق في الارتفاع مجدّدًا. وشعر كما لو أنّه يستطيع رؤية ذلك الإرهاق تقريبًا على شكل موجات سميكةٍ؛ ليس بداخله، بل منتشرة في الخارج. وفي لحظة مّا، أحسّ كما لو أنّه تائه وحدَه في صحراء مقفرة يطلب المساعدة وهو على يقين تامّ بأنّها لن تأتي.

توقّف وقتًا قصيرًا في المدخل المضيء فرأى جسمًا مختالًا طويل القامة لرجل وقفَ لحظةً قبل الدخول. لم يسبق له أن التقى ذلك الرجل مطلقًا، ولكنّه ربّما صادفه في تلك الوجوه السيّئة السمعة التي لطالما تناثرت في صفحات الجرائد بشكل فوضويّ، فكان هو من بين الأشخاص الذين احتقرهم. إنّه فرانسيسكو دانكونيا.

لم يكن ريردن يكترث كثيرًا لرجال من أمثال بيرترام سكودر. ولكنّه يهتمّ بمرور كلّ ساعة من حياته التي يمتزج فيها الإرهاق والفخر بكلّ لحظة عاشتها عضلاته أو عقله. ومع كلّ خطوة خطاها للخروج من مناجم مينيسوتا وتحويل جهوده إلى الذهب، مع احترامه العميق للمال ومعناه، فإنّه احتقر المبذّر الذي يجهل كيفيّة الاستفادة ممّا في الثروة الموروثة من هبةٍ عظيمةٍ. كان يعتقد أنّ هؤلاء يمثّلون أكثر أنواع الناس حقارةً.

رأى فرانسيسكو دانكونيا وهو يدخل منحنيًا لليليان، ثمّ مشى بين الحشد وكأنّه يمتلك الغرفة التي لم يدخلها من قبل. وكانت الرؤوس تلتفت لرؤيته، كما لو أنّه جذبهم بأوتار في أعقابه.

اقترب ريردن من ليليان مجدّدًا، وخاطبها بلطفٍ:

ـ لم أكن على علمٍ بأنّك تعرفين ذلك الرجل.

ـ لقد التقيته في عدد قليل من الحفلات.

ـ هل هو من أصدقائك أيضًا؟

ردّت بنبرة تضجّ بالاستياء الحادّ: بالتأكيد، لا!

ـ ولماذا أرسلت إليه دعوة؟

ـ حسنًا، لا يمكنك إقامة حفلة مهمّةٍ من دون دعوته أثناء وجوده في هذا البلد. إنّه مصدر إزعاج إذا حضر، لكنّه إذا لم يحضر سيكون غيابه نقطة سوداء على الصعيد الاجتماعيّ.

ضحك ريردن. أمّا هي فقد فقدت جميع احتياطاتها؛ فهي لا تعترف في العادة بأشياء من هذا القبيل. ثمّ خاطبها بضجرٍ:

ـ انظري، لا أريد أن أفسد حفلتك. ولكن أبعِدي هذا الرجل عنّي. لا أريد أن تقدّميه لي، فأنا لا أرغب في لقائه. لا أعلم كيف ستتصرّفين، لكنّني أثق في أنّك مضيّفة خبيرة، لذا احرصي على ذلك.

توقّفت داغني عن المشي حين رأت فرانسيسكو يقترب منها. انحنى لها وهو يمرّ، لكنّه لم يتوقّف. كانت تعلم أنّ زمن الوقوف عنده لا يحدث في غير ذهنه. ثمّ راقبته وهو يبتسم قليلًا في تأكيدٍ متعمّدٍ لما استوعبه، لكنّه اختار عدم التصريح به أو الاعتراف. ثمّ استدارت. لقد كانت تأمل في ألّا تلتقي به مجدّدًا هذا المساء.

انضمّ بالف يوبانك إلى المجموعة التي تحيط بالدكتور بريتشيت، ثمّ أخذ في الحديث بلامبالاةٍ:

ـ ... لا، لا يمكنك توقُّع أن يفهم الناس النطاق الأعلى للفلسفة. يجب أن تُؤخذ الثقافة من أيدي الذين يطاردون الدولار. نحن بحاجة إلى دعم وطنيّ للأدب. فمن الشائن أن يُعامَل الفنّانون مثل الباعة المتجوّلين وأن تُباع الأعمال الفنّيّة مثل الصابون.

سأله فرانسيسكو دانكونيا: هل تقصد أنّها لا تُباع بالثمن نفسه الذي يُباع به الصابون؟

لم يتنبّهوا إلى اقترابه. فتوقّفت المحادثة، كما لو أنّها قُطِعت؛ فمعظمهم لم يلتقوا به قطُّ، لكنّهم جميعًا تعرّفوا عليه في الحال.

كان بالف يوبانك يتحدّث بغضب، لكن سرعان ما توقّف عن الكلام حين لاحظ الاهتمام الذي بدا على وجوه جمهوره، لكنّه لم يكن اهتمامًا بالفلسفة.

قال فرانسيسكو، منحنيًا للدكتور بريتشيت: ولماذا؟ أهلا ومرحبًا يا أستاذ!

لم تبدُ علامات السرور ظاهرةً على ملامح وجه الدكتور بريتشيت حينما ردّ التحيّة ومعها بعض المقدّمات.

قالت رئيسة الممرّضات الجادّة: كنّا نناقش فقط موضوعًا في غاية الأهمّية، لقد كان الدكتور بريتشيت يخبرنا بأنّ اللّاشيء هو أيّ شيء.

أجاب فرانسيسكو بجدّية: لا شكّ أنّ علمه بذلك الأمر يفوق علم أيّ شخص آخر.

قالت: يا سيّد دانكونيا، لم أكن أعلم أنّك تعرف الدكتور بريتشيت جيّدًا.

ثمّ تساءلت عن سبب استياء الأستاذ من ملاحظتها.

قال دانكونيا: أنا خرّيج المدرسة العظيمة التي يعمل فيها الدكتور بريتشيت في الوقت الحاضر، جامعة باتريك هنري. لكنّني درست على يد أحد أسلافه هيوأكستون.

ردّت الشابّة الجذّابة بذهول: هيوأكستون! ولكن لا يبدو عليك ذلك يا سيّد دانكونيا! فأنت ما تزال شابًّا. كان هيوأكستون أحد الأسماء العظيمة... في القرن الماضي.

ـ ربّما هو فقط شباب الروح يا سيّدتي. ولكنّني ليست كذلك في الحقيقة.

ـ لكن أعتقد أنّه مات منذ سنوات.

ـ لمَ لا تعتقدين أنّه ما يزال على قيد الحياة.

ـ إذَن، لماذا لم نعد نسمع عنه الآن؟

ـ لقد تقاعد منذ تسع سنوات.

ـ أليس هذا حدثًا غريبًا؟ فعندما يتقاعد سياسيّ أو نجم سينمائيّ، نقرأ عنه قصصًا على الصفحة الأولى في الجرائد وبالبنط العريض. ولكن عندما يتقاعد فيلسوف، لا، لا أحد يكترث.

ـ هم يهتمّون، لكن بعد فوات الأوان.

قال شابّ مندهشًا: كنت أعتقد أنّ هيوأكستون من تلك المراجع الكلاسيكيّة التي لم يعد أحدٌ يدرسها إلّا في تاريخ الفلسفة. لقد قرأت مؤخّرًا مقالًا يؤكّد أنّ هيوأكستون هو آخر المناصرين العظماء للعقل.

سألته رئيسة الممرّضات الجادّة: وماذا علّمكم هيوأكستون؟

أجاب فرانسيسكو: لقد علّمنا أنّ اللّاشيء هو أيّ شيء.

قال الدكتور بريتشيت بجفافٍ: إنّ ولاءك لأستاذك لَهُوَ أمرٌ جدير بالثناء يا سيّد دانكونيا، هل لنا أن نعتبرك مثالا حيّا للنتائج العمليّة لأفكاره؟

ـ نعم، أنا مثال على ذلك.

اقترب جيمس تاجرت من المجموعة وكان ينتظر أن يلاحظ الجميع حضوره بينهم.

ـ مرحبًا، فرانسيسكو.

ـ مساء الخير يا جيمس.

ـ إنّها لَمصادفة رائعة أن أراك هنا! لقد كنت في شوق كبير إلى الحديث معك.

ـ هذا أمر طريف لم أعهده فيك. لم تكن دائما كما أنت اليوم.

ـ لا شكّ أنّك تمزح كَحَالِكَ في الأيّام الخوالي.

كان تاجارت يتحرّك ببطء بعيدًا عن المجموعة، ويأمل في جذب فرانسيسكو إلى حديث ثنائيّ بعيدًا عنهم، ثمّ قال:

ـ أنت تعلم أنّ ما من شخص في هذه الغرفة إلّا وهو راغب في التحدّث إليك.

ـ حقًّا؟ كنت أعتقد عكس ذلك.

تفوّه فرانسيسكو بهذه الجملة وهو يلحق بتاجارت طوعًا، لكنّه توقّف على بعد مسافة قصيرة ليستمرّ في سماع الآخرين.

قال تاجرت: لقد حاولت بكلّ الطرق الممكنة الاتّصال بك، ولكن... لكن كلّ محاولاتي باءت بالفشل.

ـ هل تغضّ الطرف عن رفضي الالتقاء بك؟

ـ حسنا... هذا يعني... أقصد... لماذا رفضت لقائي؟

ـ لم أستطع التكهّن بالموضوع الذي تودّ الحديث فيه معي.

ـ مناجم سان سيباستيان بطبيعة الحال!

ـ لماذا، وما خطبها؟

ـ هذا أمر خطير يا فرانسيسكو. إنّها كارثة غير مسبوقة لا يمكن لأيّ شخص أن يفهمها. لقد عطّلت قدرتي على التفكير. أنا لم أستوعب الأمر مطلقًا، ومن حقّي أن أعرف.

ـ حقًّا؟ هل أنت رجل من الطراز القديم يا جيمس؟ ولكن ما الذي ترغب في معرفته؟

ـ حسنًا، قبل كلّ شيء، ما الذي ستفعله إزاء أمر تأميم هذه المناجم؟

ـ لا شيء.

ـ أنت بالتأكيد لا تريدني أن أُبدِي أيّ ردّ فعل إزاء هذا الإجراء، لقد استولوا على مناجمي وسكك حديدك بإرادة شعبيّة. أنت لا تريدُني أن أعارض إرادة الشعب، أليس كذلك؟

ـ فرانسيسكو، هذا الأمر ليس مسألة دعابة وضحك!

ـ أنا لا أنظر إلى ذلك على هذا النحو.

ـ من حقّي أن تقدّم لي الشروح والإيضاحات! فأنت مدين لأصحاب الأسهم الخاصّة بك بحسابٍ كاملٍ لهذه القضيّة الشائنة! لماذا اخترت منجمًا عديم القيمة؟ لماذا أهدرت كلّ تلك الملايين؟ ما كلّ هذا الاحتيال الفاسد؟

وقف فرانسيسكو ينظر إليه في دهشةٍ، ثمّ قال:

ـ لأنّني ببساطة كنت أعتقد أنّك ستوافق على الأمر، يا جيمس.

ـ أوافق؟!

ـ كنت أعتقد أنّك ستعتبر مناجم سان سيباستيان بمثابة تحقيقٍ عمليٍّ لمثاليّةٍ تفوق النظام الأخلاقيّ. تذكّر أنّنا اختلفنا كثيرًا في الماضي بشأن هذا الأمر، فظننت أنّك ستكون ممتنًّا وأنت تراني أطبّق مبادئك.

ـ عمَّ تتحدّث؟

هزّ فرانسيسكو رأسه بأسف، وقال:

ـ أنا، لا، لا أعلم السبب الذي يجعلك تصف سلوكي بالفاسد. كنت أعتقد أنّك سترى فيها محاولة صادقة لممارسة ما يبشّر به العالم كلّه. ألا يعتقد الجميع أنّ من الشرّ أن تكون أنانيًّا؟ كنت غير أنانيّ تمامًا في ما يتعلّق بمشروع سان سيباستيان. أليس من الشرّ السعي وراء مصلحة شخصيّة؟ لم تكن تحرّكني أيّ مصلحة فرديّة. أليس من الشرّ العمل من أجل الربح؟ لم أعمل من أجل الربح. ألا يتّفق الجميع على أنّ الهدف والمبرّر للمشروع الصناعيّ لم يكن الإنتاج، ولكن أن يكون مصدر رزق لموظّفيه؟ كانت مناجم سان سيباستيان أكثر المشاريع نجاحًا في التاريخ الصناعيّ: لم تنتج النحاس، لكنّها وفّرت مصدر رزق لآلاف الرجال الذين لم يتمكّنوا من تحقيق مُعادلٍ لما حصلوا عليه في يوم عمل واحد، لم يستطيعوا تحقيق ذلك. أليس من المتّفق عليه بشكل عامّ أنّ المالك طفيليٌّ ومستغِلّ، وأنّ العمّال هم الذين ينجزون العمل كلّه ويجعلون المنتوج ممكنًا؟ لم أستغلّ أحدًا ولم أثقل كاهل مناجم سان سيباستيان بحضوري غير المجدي؛ لقد تركتها أمانةً بين أيدي رجال يعوَّل عليهم. أنا لم أحكم

على قيمة تلك الممتلكات. اكتفيت بتسليمها إلى أخصائيّ التعدين. وللأسف لم يكن أخصائيًّا جيّدًا جدًّا، لكنّه كان في أمسّ حاجة إلى هذه الوظيفة. أليس من المسلّم به عمومًا أنّك عندما توظّف رجلًا للعمل، فإنّ حاجته هي التي تهمّ وليست قدرته؟ ألا يعتقد الجميع أنّه من أجل الحصول على البضائع، يكون كلّ ما عليك فعله هو الحاجة إليها؟ لقد نفّذت كلّ مبدإ أخلاقيّ في عصرنا. توقّعت الامتنان وشهادة التكريم والشرف. أنا لا أفهم لماذا تلعنونني.

وأمام صمت أولئك الذين استمعوا لما دار من حديث بين جيمس وفرانسيسكو، كان التعليق الوحيد هو الصراخ والضحك المفاجئ من جهة بيتي بوب: لم تفهم شيئًا، لكنّها رأت علامة غضب عاجز على وجه جيمس تاجارت.

كان الناس ينظرون إلى تاجارت، متوقّعين إجابة. لم يكونوا مبالين بالموضوع، بل وجدوا متعةً فقط في مشهد إحراج شخصٍ مّا. ابتسم تاجارت ابتسامة تعالٍ ثمّ سأله: هل تتوقّع منّي أن آخذ هذا الأمر على محمل الجدّ؟

أجابه فرانسيسكو: في لحظة مّا لم أعتقد أنّ أيّ شخص يمكن أن يأخذ الأمر على محمل الجدّ. لقد كنت مخطئًا.

قال تاجرت بصوت مرتفع: هذا أمر شنيع! إنّه لَأمرٌ شنيع جدًّا أن تتعامل مع مسؤوليّاتك العامّة دون تفكير!

التفت على عجلٍ. لكنّ فرانسيسكو تجاهله، ثمّ قال:

ـ ألا ترى؟ لم أكن أعتقد أنّك ترغب في إثارة هذا الموضوع معي.

وقف ريردن وحيدًا في الطرف الآخر من الغرفة. وتنبّه فيليب إلى ذلك فاقترب من ليليان وجذبها للحديث معها على انفرادٍ.

قال مبتسما: ليليان، لا أعتقد أنّ هنري يستمتع بهذه الحفلة.

لا يمكن للمرء الجزمُ بأنّ ابتسامة فيليب تنطوي على ازدراءٍ سواء من ليليان أو من ريردن. ثمّ أضاف:

ـ ألا يمكن أن نفعل شيئًا حيال ذلك؟

قال ريردن: أوه، ما هذا الهراء!

قالت ليليان: أتمنّى لو كنت أعلم ما يتوجّب عليّ فِعلُه حيال ذلك، يا فيليب، لطالما تمنّيت أن يتعلّم هنري الاسترخاء. إنّه في غاية الجدّيّة بشأن كلّ شيء. إنّه تطهيريّ متشدّد وجامد. لطالما أردت فقط رؤيته في حالة سُكْر لمرّة واحدة. لكنّني استسلمت. ماذا تقترح عليّ؟

ـ أوه، لا أعلم! لكن ينبغي ألّا يظلّ وحيدًا.

قال ريردن: دعوه وشأنه، انسَوا هذا الأمر.

لم يكن يريد إيذاء مشاعرهما، لكنّه فشل في ذلك، ثمّ قال:

ـ أنتما لا تدركان المعاناة التي أكابدها وأنا أقف وحيدًا.

ـ ابتسمت ليليان في وجه فيليب وقالت: انظر إلى هناك، ألا ترى؟ الاستمتاع بالحياة والناس لا يقارن بصبّ طن من الفولاذ. إنّ المساعي الفكريّة لا تُعَلَّم في السوق.

قال فيليب ضاحكًا: لست قلقًا بشأن المساعي الفكريّة. إلى أيّ مدى أنت متأكّدة من تلك الأشياء التي ترتبط بعقيدة زوجك التطهيريّة؟ لو كنت مكانك، لما تركته حرًّا، لأنّ في هذه الحفلة نساء جميلات كثيرات.

ـ هل تتوقّع من هنري أن يستمتع بأفكار الخيانة الزوجيّة؟ بهذه الطريقة أنت تمدح هنري. أراك تبالغ في تصوير شجاعته.

ابتسمت لريردن ببرود لحظةً قصيرةً، ثمّ ابتعدت. بينما نظر هو إلى شقيقه ثمّ قال:

ـ ماذا تفعل بحقّ السماء؟

ـ أوه، توقّف عن لعب دور المتديّن والزاهد! ألا يمكنك أن تمزح قليلا؟

تحرّكت داغني بلا هدف بين الحشد، ثمّ تساءلت: لماذا قبلت هذه الدعوة. أدهشها

الجواب: قبلت الدعوة لأنّها ترغب في رؤية هانك ريردن. وحين شاهدته وسط الحشد، أدركت التناقض لأوّل مرّةٍ. بدت وجوه الآخرين وكأنّها مجموعة سماتٍ قابلة للتبديل، كلّ وجه يضمحلّ ويتمازج مع تلاشي هويّته ليشبه الكلّ، وبدا الجميع كأنّهم يذوبون. وجه ريردن، ذو الملامح الحادّة، والعينين الزرقاوين الشاحبتين، والشعر الأشقر الرماديّ، كانت في ثبات الجليد. إنّ الوضوح الذي لا يشعّ من وجهه جعله يبدو، من بين الآخرين، كما لو أنّه كان يتحرّك من خلال ضباب.

ظلّت عيناها تعودان إلى الخلف في اتّجاهه بشكل لاإراديّ. لم تضبطه قطٌّ بصدد إلقاء نظرة خاطفة في اتّجاهها. لم تصدّق أنّه كان يتجنّبها عن قصد. فلا يمكن أن يوجد سبب محتمل لذلك؛ ومع هذا شعرت يقينًا أنّه كذلك. أرادت الاقتراب منه وإقناع نفسها بأنّها مخطئة. لكنّ شيئًا مّا أوقفها. لم تستطع فهم تردّدها الخاصّ.

تحمّل ريردن بصبرٍ محادثةً مع والدته وامرأتين كانت تتمنّى أن يمتعهما بقصص عن شبابه ونضاله. فاستجاب قائلًا في نفسه إنّها فخورة به على طريقتها الخاصّة. لكنّه شعر كما لو أنّ شيئًا مّا في أسلوبها ظلّ يوحي بأنّها أرضعته إيّاه خلال كفاحه وأنّها كانت مصدر نجاحه. كان سعيدًا عندما تركته يذهب. ثمّ هرب مرّة أخرى إلى الراحة بالقرب من النافذة.

وقف هناك بعضَ الوقت، مستندًا إلى شعوره بخصوصيّته، كما لو أنّها كانت دعمًا بدنيًّا.

قال صوت هادئ لغريب كان جالسًا بجواره: سيّد ريردن، هل تسمح لي بأن أقدّم نفسي. اسمي دانكونيا.

التفت ريردن بذهول؛ لقد كان لأسلوب دانكونيا وصوته جودةٌ نادرًا ما واجهها من قبل، كانت نبرة احترام حقيقيّ.

أجابه: كيف حالك؟

ردّ عليه دانكونيا بصوت خشن وجافّ: لقد لاحظت أنّ السيدة ريردن كانت

تتجنّب أن تقدّمني لك، ويمكنني أن أخمّن سبب ذلك. هل تفضّل أن أغادر منزلك؟

كان فعل تسميةِ مشكلةٍ مّا بدلًا من التهرّب منها، على عكس السلوك المعتاد لجميع الرجال الذين عرفهم، عبارةً عن ارتياح مفاجئ ومباغت، إلى درجة أنّ ريردن ظلّ صامتًا لحظةً، يدرس ملامح وجه دانكونيا. لقد قال فرانسيسكو ذلك بكلّ بساطة، لا على سبيل العتاب أو النداء، ولكن بطريقة اعترفت على نحو غريب بكرامة ريردن وكرامة دانكونيا.

قال ريردن: لا، مهما خمّنت، فأنا لم أقل ذلك.

ـ شكرا لك. في هذه الحال، ستسمح لي بالتحدّث إليك.

ـ ولماذا تودّ التحدّث إليّ؟

ـ دوافعي لا يمكن أن تهمّك في الوقت الحاضر.

ـ أمّا دوافعي فلا أظن أنّها من نوع المحادثة التي قد تهمّك على الإطلاق.

ـ أنت مخطئ في حقّي وحقّك يا سيّد ريردن. جئت إلى هذا الحفل فقط من أجل لقائك.

كانت هناك نغمة باهتة من التسلية في صوت ريردن. وها هو يتصلّب الآن في تلميح من الازدراء فقال:

ـ لقد بدأت باللعب المباشر. فتمسّك بهذا المنهج.

ـ أنا دائما كذلك.

ـ لماذا ترغب في لقائي؟ أَمِنْ أجل أن أخسر المال؟

قال فرانسيسكو دانكونيا وهو ينظر إليه مباشرة: في نهاية المطاف، نعم.

ـ ما الذي يشغلك هذه المرّة؟ أهو منجم ذهب؟

هزّ فرانسيسكو رأسه ببطء؛ لقد منحه ما في الحركة من تأنٍّ واعٍ جوًّا يكاد يكون حزينًا. فقال:

ـ لا، لا أريد أن أبيعك أيّ شيء. في الواقع، لم أحاول بيع منجم النحاس لجيمس تاجارت أيضًا. لقد جاءني من أجل ذلك. أنت لن تفعل هذا أيضًا.

قال ريدين ضاحكا: إذا استوعبت الأمر جيّدا، فلدينا على الأقلّ أساس معقول للحوار. فلنمضِ قُدُمًا في ذلك. إذا لم يكن لديك أيّ استثمار خياليّ، فلماذا تريد لقائي؟

ـ فقط من أجل التعرّف عليك.

ـ هذا ليس جوابا. إنّها طريقة أخرى لقول الشيء نفسه.

ـ ليس الأمر كذلك، يا سيّد ريدين.

ـ لعلّك هنا من أجل كسب ثقتي؟

ـ لا. لا أحبّ الأشخاص الذين يتحدّثون عن كسب ثقة أيّ شخص أو يفكّرون في ذلك. إذا كانت أفعال المرء صادقةً، فهو لا يحتاج إلى الثقة المسبّقة في الآخرين، بل إلى إدراكهم العقلانيّ. إنّ الشخص الذي يتوق إلى شيك أخلاقيّ على بياضٍ من هذا النوع هو شخصٌ يملك نوايا غير شريفةٍ، سواء اعترف بذلك لنفسه أم لم يعترف.

كانت نظرة ريردن المذهلة إليه تشبه الدفع اللّاإراديّ لإمساك يدٍ في حاجة ماسّة إلى الدعم. فخانته النظرة في أن يرى نوع هذا الرجل الذي اعتقد أنّه يراه. ثمّ خفض ريدين عينَيه، وأغلقهما بشيءٍ من البُطء، وأغلق مجال الرؤية والحاجة. كان وجهه قاسيًا، وبدا عليه تعبيرٌ مليءٌ بالشدّة، شدّة داخليّة موجّهة إلى نفسه؛ لقد بدا متشدّدًا ووحيدًا. ثمّ قال:

ـ حسنًا، إذا لم تكن هنا من أجل كسب ثقتي، فماذا تريد إذَن؟

ـ أريد أن أتعلّم فَهْمَكَ.

ـ لماذا؟

ـ لسبب خاصّ بي لا داعي إلى القلق منه في الوقت الحاضر.

ـ ماذا تريد أن تفهم عنّي؟

نظر فرانسيسكو بصمت إلى الظلام في الخارج. كانت نار الطواحين تخبو. لم يكن هناك سوى مسحةٍ باهتة من اللون الأحمر الباقي على سطح الأرض، فقط ما يكفي لإظهار أعمدة من الغيوم مزّقتها معركة عاصفة طاحنة في السماء. استمرّت الأشكال الخافتة في اجتياح الفضاء والتلاشي، وكذا الأشكال التي كانت فروعًا، لكنّها بدت كما لو أنّ غضب الريح جعلها مرئيّة.

قال فرانسيسكو دانكونيا: إنّها ليلة رهيبة لأيّ حيوان يُصْطادُ دون حماية في ذلك السهل. هذا هو الوقت المناسب الذي يجب على المرء أن يدرك فيه معنى أن يكون رجلًا.

لم يجبه ريردن في تلك اللحظة. ثمّ قال بنبرةٍ تضجّ تعجّبًا كأنّها يردّ على: هذا أمر مضحك...

ـ ماذا؟

لقد أخبرتني بما كنت أفكّر فيه منذ فترة...

ـ كنت تفكّر فيه؟

ـ ... فقط لم أكن أملك الكلمات المناسبة لذلك.

ـ هل أخبرك ببقيّة الكلمات؟

ـ تفضّل.

ـ لقد وقفت هنا وشاهدت العاصفة بفخرٍ كبيرٍ لا يمكن للمرء أن يشعر به على الإطلاق، لأنّك كنت قادرًا على أن تنعم بزهور الصيف ونساء نصف عاريات في منزلك خلال ليلة حافلة كهذه، لتُظهر انتصارَك على تلك العاصفة. وإذا لم يكن ذلك من أجلك، فسيكون معظم أولئك الموجودين هنا في وضعٍ حرجٍ تحت رحمة تلك الرياح في منتصف بعض تلك السهول.

ـ كيف علمت بذلك؟

في وقت سؤاله بالذّات، أدرك ريردن أنّ ما ذكره هذا الرجل لم يكن مجرّد أفكاره، بل هي عواطفه الشخصيّة الخفيّة؛ وهو الذي لم يعترف قطُّ بمشاعره لأيّ شخص، اعترف بذلك في سؤاله. ثمّ رأى وميضًا خافتًا في عينَي فرانسيسكو، كان يشبه الابتسامة أو علامة الاختيار.

تساءل ريردن بحدّة، كما لو أنّ ازدراء السؤال الثاني يمكن أن يمحو ثقة السؤال الأوّل:

ـ وماذا تعرف عن هذا النوع من الفخر؟

ـ هذا ما شعرت به مرّة حين كنت صغيرًا.

نظر ريردن إليه. لم تكن تقاسيم وجه فرانسيسكو تدلّ على ملامح الاستهزاء أو الشفقة. كان سطح وجهه منحوتًا بوضوح وجمالٍ والعينان الزرقاوان الصافيتان تحملان هدوءًا متّزنًا، وكان وجهه مستعدًا لأيّ صفعة بثبات لا يتزعزع.

سأله ريردن مدفوعًا بلحظة الشفقة المتردّدة: لماذا تريد التحدّث عن ذلك؟

ـ فقط من باب الامتنان.

ـ هل الامتنان لي؟

ـ نعم، إذا كنت ستقبله.

فتصلّب صوت ريردن ثمّ قال:

ـ لم أطلب الامتنان يومًا، وما بي إلى ذلك حاجةٌ.

ـ لم أقل إنّ بك حاجةً إلى الامتنان. ولكن من بين جميع الذين ستنقذهم من عاصفة الليلة، أنا الوحيد الذي سأكون ممتنًّا لك.

وبعد لحظة من الصمت، سأل ريردن بصوت منخفض وبنبرة تهديدٍ:

ـ أخبرني، ما الذي تحاول أن تُقْدم عليه؟

ـ إنّني أوجّه انتباهك إلى طبيعة أولئك الذين تعمل لصالحهم.

ـ لعلّ رجلًا لم ينجز عملاً صادقًا في أيّ يوم من أيّام حياته، سيستغرق منه الأمر أن يفكّر أو يقول ذلك.

كانت وراء الازدراء في صوت ريردن ملاحظةٌ توحي بالارتياح؛ لقد نزع سلاحه بسبب شكٍّ في حكمه على شخصيّة خصمه؛ ها هو اليقين يعاوده الآن، ثمّ أضاف:

ـ لن تفهم الأمر إذا أخبرتك بأنّ الرجل الذي يعمل إنّما يعمل من أجل نفسه، حتّى لو كان سيحمل على كاهله مجموعة بائسة من أمثالك. سأخمّن الآن في ما كنت تفكّر فيه: استرسل في الحديث، وقل إنّني شرّير وأنانيّ ومغرور وقاسٍ. أنا كذلك. أنا لا أريد أن أكون جزءًا من أولئك الرجال الذين يعملون لصالح الآخرين. أنا لست كذلك.

وللمرّة الأولى، رأى نظرة ردّ فعل شخصيّ في عينَي فرانسيسكو، وشيئًا من مظهر الشابّ المتحمّس.

أجاب فرانسيسكو: الشيء الوحيد الخاطئ في ما قلته هو أنّك تسمح لأيّ شخص بأن يصف ذلك الأمر بالشرّ.

وفي وقفة من الصمت المذهل، أشار ريردن إلى الحشد في غرفة الاستقبال قائلًا:

ـ ولماذا أنت على استعداد للقضاء عليهم جميعًا؟

ـ لأنّهم مجموعة من الأطفال البائسين الذين يكافحون من أجل البقاء على قيد الحياة، يائسون وسيّئون جدًّا، أمّا أنا فلم أتنبه حتّى إلى العبء.

ـ لماذا لا تخبرهم بذلك؟

ـ بمَ أخبرهم؟

ـ بأنّك تعمل من أجل مصلحتك الشخصيّة وليس من أجل مصالحهم.

ـ إنّهم يعرفون ذلك.

ـ أوه نعم، إنّهم يعرفون ذلك. كلّ واحد منهم هنا يعرف ذلك. لكنّهم لا يعتقدون أنّك تعرف ذلك. والهدف من كلّ جهودهم هو منعك من معرفة ذلك.

ـ لماذا يجب عليّ أن أهتمّ بما يفكّرون فيه؟

ـ لأنّها معركة ويجب على المرء أن يوضّح فيها موقفه.

ـ معركة؟ ما المعركة؟ أنا أحمل دائمًا سوطًا بيدي. فأنا لا أقاتل وأنا منزوع السلاح.

ـ وماذا عنهم؟ هم يملكون ما يكفي من أسلحة ليحاربوا ضدّك. إنّه سلاحهم الوحيد، لكنّه سلاح رهيب. اسأل نفسك لبعض الوقت ما هو ذلك السلاح؟

ـ أين ترى دليلهم على ذلك؟

ـ في الحقيقة التي لا تغتفر بأنّهم غير سعداء مثلك.

يمكن لريردن أن يقبل أيّ شكل من أشكال اللوم والإساءة والعقاب الذي قد يختاره أيّ شخص لإلقائه عليه؛ لكنّ ردّ الفعل البشريّ الوحيد الذي لا يقبله هو الشفقة. ثمّ أعادته طعنة الغضب المتمرّد البارد إلى سياق اللحظة الحاضرة. فتكلّم، وهو يقاوم شعور عدم الاعتراف بطبيعة العاطفة المتصاعدة في داخله:

ـ ما هذه الوقاحة التي تنغمس فيها؟ وما الذي يدفعك إليها؟

ـ لمنحك الكلمات التي تحتاج إليها، متى وجدتَ نفسك في حاجة إليها.

ـ ولماذا تودّ الحديث معي حول في الموضوع؟

ـ على أمل أن تتذكّر ذلك.

ظنّ ريردن أنّ ما شعر به كان غضبًا نابعًا من حقيقة غير مفهومة هي أنّه سمح لنفسه بالاستمتاع بتلك المحادثة. لقد شعر بإحساس خفيف من الخيانة، تلميحًا إلى خطر مجهول. ثمّ سأله وهو يعلم أنّ ما ذكره هو، في الوقت نفسه، الشيءُ الذي نسِيَه:

ـ هل تتوقّع منّي أن أنسى ما أنت عليه؟

ـ لا أتوقّع أن تفكّر بي على الإطلاق.

وتحت وطأة غضبه، بقيت المشاعر التي لم يعترف بها ريردن غير معلنة وغير مفهومة؛ كان يعرف ذلك فقط بوصفه مؤشّرًا على الألم. لو واجهه، لكان قد علم أنّه مازال يسمع صوت فرانسيسكو وهو يقول:

ـ أنا الوحيد الذي سيعرض... عليك إذا قبلتها...

سمع هذه الكلمات والتعبيرَ الرسميّ الغريب عن الصوت الهادئ وإجابةً لا يمكن تفسيرها. شيء مّا بداخله يريد البوح بكلمة نعم والقبول، لإخبار ذلك الرجل أنّه قبله، وأنّه بحاجة إليه، على الرغم من عدم وجود اسمٍ لما كان يحتاج إليه. إنّه ليس الامتنان. وعلم أنّه لم يكن ذلك الامتنان الذي قصده ذاك الرجل. ثمّ قال بصوتٍ عالٍ:

ـ لم أحاول التحدّث إليك. أنت من طلبت ذلك وستسمع منّي ما يلي: أمّا أنا فلا أرى غير نموذجٍ واحدٍ للفساد البشريّ وهو: رجل بلا هدفٍ.

ـ هذا صحيح.

ـ يمكنني أن أسامح كلّ هؤلاء المدعوّين، فهم ليسوا أشرارا، إنّهم مجرّد عَجَزَةٍ. ولكنّك من النوع الذي لا يمكن أن أصفح عنه.

ـ أردت أن أحذّرك من خطيئة المغفرة والصفح.

كنت تملك أكبر فرصة للحياة. ماذا فعلت بها؟ لو كان لك عقلٌ لاستيعاب كلّ ما قلته، فكيف يمكنك التحدّث معي أصلًا؟ كيف يمكنك مواجهة أيّ شخص بعد ذلك النوع من الدمار غير المسؤول الذي ارتكبته في ذلك المشروع المكسيكيّ؟

ـ من حقّك أن تدينني إذا كنت ترغب في ذلك.

وقفت داغني بجانب زاوية من فسحة النافذة، وهي تسترق السمع دون أن يلاحظا وجودها. لقد رأتهما معًا فاقتربت، يحدوها دافعٌ لم تستطع تفسيره أو مقاومته؛ بدا من المهمّ جدًّا أن تعرف ما يتحدّث فيه هذان الرجلان على انفرادٍ.

لقد سمعت جُمَلَهُما القليلة الأخيرة. لم تعتقد قطُّ أنّ من الممكن أن ترى

فرانسيسكو يتعرّض للشتم بتلك الطريقة، لأنّ في وسعه أن يحطّم أيّ خصم مهما يكُن شكل اللقاء. ومع ذلك وقف، ولم يبدِ أيّ مقاومة. عرفت أنّ ما أبداه ليس نوعًا من اللّامبالاة. لقد خبرت تقاسيم وجهه جيّدًا بما يكفي لرؤية الجهد الذي كلّفه هذا الهدوء.

قال ريردن: من بين كلّ أولئك الذين يقتاتون على جهد الآخرين، فأنت الشخص الطفيليّ الحقيقيّ.

ـ لقد قدّمت لك أسبابًا للتفكير في ذلك.

ـ ثمّ بأيّ حقٍّ تتحدّث عن معنى أن تكون رجلًا؟ وأنت الشخص الذي خان معنى الرجولة.

ـ أنا آسف إذا أسأت إليك.

انحنى فرانسيسكو وهمّ بالمغادرة. فقال ريردن بشكل لاإرادي، دون أن يعلم أنّ سؤاله لا يعكس الغضب الذي يفور في أعماقه، بل كان مجرّد التماس لإيقاف هذا الرجل واحتجازه:

ـ ماذا تريد أن تتعلّم لتفهم من أكون؟

التفت فرانسيسكو وتعابير وجهه لم تتغيّر. كان لا يزال يكنّ له نظرة احترام مهذّبة جدًّا. ثمّ أجاب:

ـ لقد تعلّمت ذلك.

وقف ريردن يراقبه وهو ينصرف إلى الحشد. لقد أخفى جسم الخادم الشخصيّ وهو يحمل طبق الكريستال، وكذلك جسم الدكتور بريتشيت وهو ينحني لاختيار قطعة خبز أخرى. ثمّ ساح ببصره في الخارج الذي زحف عليه الظلام، لكنّه لم يرَ شيئًا سوى الريح.

تقدّمت داغني إلى الأمام، عندما عاد ريردن من فسحة النافذة. ابتسمت ودَعَتْه لمحادثة علنيّة، فتوقّف. وبدا لها أنّه توقّف على مضضٍ. فتحدّثت على عَجَلٍ، لكسر

الصمت:

ـ هانك، لماذا دعوت كلّ هؤلاء المثقّفين الذين يبدون استعدادا لخدمة اللصوص؟ لو كنت مكانك لما أدخلتهم منزلي.

لم يكن هذا ما أرادت أن تُنبِئه به. لكنّها لم تعلم ما كانت تودّ قوله؛ لم تشعر من قبل بأنّ الكلمات لن تسعفها في حضوره.

رأت عينيه شبه مغمضتين مثل باب يكاد يوصد. فأجاب ببرود:

ـ لا أرى أيّ سبب يمنع المرء من دعوتهم إلى الحفلة.

ـ أوه، لم أقصد أن أنتقد اختيارك للضيوف. لكن... حسنًا، كنت أحاول عدم معرفة أيّ منهم ولاسيّما بيرترام سكودر. إذا اقترب منّي، سأصفع وجهه. لا أريد أن أربك المشهد، لكنّني لست متأكّدة من أنّني سأقدر على التحكّم بنفسي. لم أستطع تصديق ذلك عندما أخبرني أحدهم أنّ السيّدة ريردن هي التي أرسلت إليه الدعوة.

ـ لا، أنا من دعاه.

قالت بصوت منخفض: ولكن... لماذا؟

ـ أنا لا أهتمّ أصلا بمثل هذه المناسبات.

ـ أنا آسفة، يا هانك. لم أكن أعلم أنّك متسامح جدًّا. فأنا لست كذلك.

لم يُبدِ أيّ رد فعل ولم ينبس بأيّ كلمة. ثمّ أضافت:

ـ أعلم أنّك لا تحبّ الحفلات، مثلي تمامًا. ولكن في بعض الأحيان أتساءل... ربّما أنا وأنت من يجدر بهما أن يكونا قادرين على الاستمتاع بها.

ـ أنا لا أملك مثل هذه القدرة.

ـ ليس إلى هذا الحدّ. ولكن هل تعتقد أنّ أيًّا من هؤلاء الأشخاص يستمتع بها؟ إنّهم يحاولون فقط أن يكونوا بلا معنى أو هدف أكثر من المعتاد. أن يشعروا بالخفّة والتفاهة... أعتقد أنّ المرء إذا شعر فقط بأهمّيّة كبيرة، فيمكنه أن يشعر حقًّا بأنّه

خفيف.

ـ لا أعلم ذلك.

ـ إنّها مجرّد فكرة تزعجني من حين إلى آخر... فكّرت في أوّل حفلة باليه أقيمت لي... مازلت مقتنعة بأنّ الحفلات تهدف إلى أن تكون احتفالات، ويجب أن تكون الاحتفالات فقط لأولئك الذين يملكون شيئًا للاحتفال به.

ـ لم أفكّر في هذا الأمر من قبل.

لم تستطع اجتراح كلمات تتلاءم مع أسلوبه الصارم. لم تستطع تصديق ذلك. لقد كانا دائمًا مرتاحين معًا في مكتبه. أمّا الآن فهو مثل رجل يرتدي سترة ضيّقة.

ـ هانك، انظر إلى الأمر. إذا لم تكن تعرف أيًّا من هؤلاء الأشخاص، ألن يبدو المشهد أكثر جمالاً؟ الأضواء والملابس وكلّ الخيال الذي جعله ممكنًا...

كانت تنظر إلى الغرفة. لم تلاحظ أنّه لم يتبع نظرتها. كان ينظر إلى الظلال على كتفها العارية، والظلال الزرقاء الناعمة المصنوعة من الضوء الذي سقط من خلال خصلات شعرها. ثمّ أضافت:

ـ لماذا تركنا كلّ هذا للحمقى؟ كان يجب أن يكون لنا.

ـ بأيّ طريقة؟

ـ لا أعلم... كنت أتوقّع دائمًا أن تكون الحفلات مثيرةً ورائعةً تمامًا كأيّ خمرة معتّقة.

ضحكت، لكنّ مسحة من الحزن غشيت ابتسامتها. ثمّ استدركت:

ـ لكنّي لا أشرب الخمور أيضًا. هذا مجرّد رمز آخر لا يعني ما كان يعنيه قديمًا.

كان صامتًا. ثم أضافت:

ـ لعلّ في الأمر شيئًا فقدناه.

ـ أنا لست على علم بذلك.

وفي ومضة من الفراغ المفاجئ، وجدت نفسها سعيدةً لأنّها لم تفهم أو لأنّها استجابت، وشعرت على نحوٍ خافت بأنّها كشفت الكثير، لكنّها لم تعرف ما كشفته. ثمّ تجاهلت الأمر، بحركةٍ صدرت من خلال منحنى كتفها مثل التشنّج الخافت، وقالت بلامبالاةٍ:

ـ إنّها مجرّد وَهْمٍ قديم، مجرّد مزاج يأتي مرّة كلّ عام أو عامين. دعني أرَ أحدث مؤشّر لأسعار الصلب وسأنسى كلّ شيء عن هذا الشعور.

لم تكن تعلم أنّ عينيه كانتا تلاحقانها وهي تبتعد عنه. ثمّ تحرّكت ببطء عبر الغرفة، ولم تكن تنظر إلى أحد حتّى لاحظت مجموعةً صغيرةً متجمّعة قرب الموقد في مكان غير مُضَاء. لم تكن الغرفة باردةً، لكنّهم جلسوا كما لو أنّهم كانوا يشعرون بالراحة من فكرة وجود حريق غير موجود.

ـ أنا لا أعلم لماذا، لكنّني أصبحت خائفة من الظلام. ليس الآن، لكن فقط عندما أكون بمفردي. ما يخيفني هو الليل. الليل على هذا النحو.

تلفّظت بهذا الكلام عانس مسنّة. وضمّت المجموعة ثلاث نساء ورجلين يرتديان ملابس جيّدة، وكان جلد وجوههم يميل إلى النعومة، ولكنّ لديهم طريقةً من الحذر جعلت أصواتهم أقلّ تنغيمًا من المعتاد وطمست الاختلافات في أعمارهم، ممّا منحهم جميعًا المظهر الرماديّ نفسه. وكانت تلك هي الصورة التي قد يشاهدها المرء في مجموعات من الأشخاص المحترمين في كلّ مكان. توقّفت داغني وأخذت تستمع إليهم.

سألها أحدهم: ولكن يا عزيزتي، لماذا يخيفك الليل؟

أجابته المرأة العانس: لا أدري. أنا لست خائفةً من المتصيّدين أو من عمليّات السطو أو أيّ شيء من هذا القبيل. لكنّني أبقى مستيقظة طوال الليل. لا أنام إلّا عندما أرى السماء وهي تتحوّل إلى الشحوب. إنّه أمر غريب جدًّا. كلّ مساء، عندما يحلّ الظلام، أشعر أنّ هذه الليلة ستشهد نهايتي، وأنّ ضوء النهار لن يطلع مجدّدًا.

قالت إحدى السيّدات: ابن عمّي الذي يقطن في سواحل ولاية ماين كتب لي عن هذا الموضوع.

ـ الليلة الماضية، بقيت مستيقظةً بسبب إطلاق النار. كانت هناك أصوات لأعيرة ناريّة تُطلَق طوال الليل في الطريق عند البحر. أعيرة لم تخلّف وميضًا ولا أيّ شيء، فقط تلك التفجيرات على مسافات بعيدة في مكان مّا في الضباب على المحيط الأطلسيّ.

ـ لقد قرأت شيئًا عن هذه الحادثة في الجريدة هذا الصباح. إنّها مناورات عسكريّة لقوّات خفر السواحل.

قالت العانس بلامبالاةٍ: لمَ لا يقولون الحقيقة، إنّ كلّ الذين يقطنون بجانب الشاطئ يعرفون ما كان يحدث. لقد كان خفر السواحل يحاول القبض على راجنار دانسكولد.

قالت امرأة بعد أن أطلقت شهقة: راجنار دانسكولد في خليج ديلاوير؟

ـ نعم بالتأكيد. يقولون إنّها ليست المرّة الأولى.

ـ هل قبضوا عليه؟

ـ لا.

قال أحد الرجال: لا أحد يستطيع القبض عليه.

ـ لقد عرضت دولة النرويج الشعبيّة مكافأةً بمليون دولار لمن يلقي عليه القبض.

ـ هذا مبلغ ضخمٍ مقابل رأس القراصنة.

ـ ولكن كيف سنحصل على أيّ نظامٍ أو أمن أو تخطيط في العالم، بوجود قرصان مثله حرًّا طليقًا يعربد في جميع أنحاء البحار السبعة؟

قالت العانس: هل تعلمون ما اختطفه في الليلة الماضية؟ لقد نهب السفينة الكبيرة التي تحمل إمدادات إغاثة كانت في طريقها إلى شعب فرنسا.

ـ وكيف يتصرّف في البضائع التي يسطو عليها؟

ـ آه، هذا أمر لا أحد يعرفه.

ـ قابلت ذات مرّة بحّارًا يعمل في سفينة هاجمها ذلك القرصان، ورآه رأي العين. لقد قال إنّ راجنار دانسكولد يملك شعرا ذهبيّا صافيّا، ووجها مرعبًا أكثر من أيّ وجه آخر على وجه البسيطة، إنّه وجه يخلو من أيّ عاطفة. أخبرني هذا البحّار أنّه إذا وُجِد رجلٌ وُلِد بلا قلب، فإنّه سيكون راجنار.

ـ لقد رأى ابن أخي سفينة راجنار دانسكولد في إحدى الليالي قبالة سواحل أسكتلندا. فكتب لي أنّه لم يستطع تصديق ما رأته عيناه. لقد كانت أفضل سفينة تابعة لبحريّة إنجلترا الشعبيّة.

ـ يقولون إنّه يختبئ في أحد تلك المضايق النرويجيّة حيث لا يعثر عليه لا الشيطان ولا الإنسان. إنّه يختبئ في المكان الذي كان الفايكنج يلجؤون إليه في العصور الوسطى.

ـ ثمّة مكافأة أخرى لمن يلقي القبض عليه من البرتغال وتركيا الشعبيّة.

ـ يقولون إنّه يمثّل فضيحة وطنيّة في النرويج. فهو ينحدر من أفضل عائلاتهم. فقدت الأسرة أموالها منذ أجيالٍ، ولكنّ لقبها ينتمي إلى طبقة النبلاء. فأنقاض قلعتهم لا تزال موجودة. ووالده يعمل أسقفًا هناك. لقد تبرّأ والده منه وحرمه من ميراثه. لكنّ هذا الأمر لم يؤثّر عليه إطلاقا.

هل تعلمون أنّ راجنار دانسكولد كان يتردّد على المدرسة في ذلك البلد؟ وأنا متأكّدة أنّها جامعة باتريك هنري.

ـ هذا ليس صحيحًا؟

ـ نعم بالتأكيد. يمكنك أن تنظر إلى أعلى وتنكر هذا الأمر.

ـ ما يزعجني... تعلمون، أنا لا أحبّ ذلك. أنا لا أحبّ أن يظهر الآن هنا في مياهنا. اعتقدت أنّ أشياء كهذه يمكن أن تحدث فقط في الأراضي القاحلة. فقط في

أوروبا. لكنّ شخصًا خارجًا عن نطاق القانون من هذا النوع يمارس جُرمَه في ولاية ديلاوير في يومنا وعصرنا هذا!

ـ لقد شاهدوه قبالة نانتوكيت أيضًا، وبالضبط في حانة الميناء. وقد طُلب من الصحف ألّا تكتب عنه.

ـ لماذا؟

ـ هم لا يريدون أن يعلم الناس أنّ القوّات البحريّة لا تستطيع التعامل معه.

ـ أنا لا أحبّ ذلك. إنّه شعور مضحك. إنّه أمر يرجعنا إلى العصور المظلمة.

نظرت داغني إلى أعلى. لقد رأت فرانسيسكو دانكونيا يقف على بعد خطوات قليلة. كان ينظر إليها بنوع من الفضول المُجهَد وعينين ساخرتين.

قالت العانس بصوت منخفض: إنّنا نعيش في عالم غريب.

قالت إحدى النساء: قرأت مقالًا يقول إنّ الأوقات العصيبة جيّدة للإنسان، وإنّ من الجيّد أن يزداد الناس فقرا، وإنّ قبول الخصومات فضيلة أخلاقيّة.

قال رجل آخر دون إدانة واضحة: أفترض ذلك.

ـ يجب ألّا نقلق. لقد سمعت خطابًا يؤكّد لا جدوى القلق أو إلقاء اللوم على أيّ شخص. فلا أحد يستطيع فعل أيّ شيء. إنّه القدر، وهكذا تسير الأمور. لا يوجد شيء يمكننا فعله حيال أيّ شيء. يجب أن نتعلّم تحمّله.

ـ ما الفائدة على أيّة حال؟ ما هو مصير الإنسان؟ أليس هناك دائمًا أمل، ولكن لن يتحقّق أبدًا؟ فالإنسان الحكيم هو من لا يحاول أن يأمل في أيّ شيء.

ـ ذاك هو الموقف الصحيح.

ـ لا أدري، لا أعلم... لم أعد أعلم ما هو الصواب... كيف يمكننا أن نعلم؟

ـ حسنًا، من هو جون جالت؟

استدارت داغني بهدوءٍ وبدأت تنسحب بعيدا عنهم. تبعتها إحدى النساء. ثمّ

قالت المرأة بنبرة ناعمة وغامضة وكأنّها تريد أن تسرّ لها بشيء:

ـ أتعلمين؟ أنا أعرف من هو جون جالت.

توقّفت داغني ثمّ سألتها على نحو متكرّر:

ـ من هو جون جالت؟

ـ أعرف رجلاً قابل جون جالت شخصيًّا. هذا الرجل صديق قديم لخالتي. لقد كان هناك وشاهد ذلك الحدّ. هل تعرفين أسطورة أطلانطس، يا آنسة تاجارت؟

ـ أسطورة ماذا؟

ـ أطلانطس.

ـ لماذا تسألين؟ أحمل فكرة عامّة عنها.

إنّها الجزر المباركة. هذا ما أطلقه الإغريق عليها منذ آلاف السنين. وقالوا إنّ أطلانطس كانت مكانًا تعيش فيه أرواح الأبطال في سعادةٍ لا يعلم بها باقي سكّان الأرض، مكانًا لا تدخله إلّا أرواح الأبطال، فتصل إليه دون أن تموت، لأنّها تحمل سرّ الحياة بداخلها. وتاهت أطلانطس عن بني البشر منذ ذلك الحين. لكنّ الإغريق كانوا يعرفون أنّها موجودة فحاولوا العثور عليها. فقال بعضهم إنّ أطلانطس كانت تحت اليابسة مخبّأة في قلب الأرض. لكنّ معظمهم قالوا إنّها جزيرة، جزيرة مشعّة في المحيط الغربيّ. لعلّ ما كانوا يفكّرون به هو أمريكا. لكنّهم لم يجدوها قطُّ. وبعد ذلك بقرون، قال الناس إنّها كانت مجرّد أسطورة. لم يصدّقوا ذلك، لكنّهم لم يتوقّفوا البتّة عن البحث عنها، لأنّهم عرفوا أنّ هذا ما كان عليهم أن يجدوه.

ـ حسنا، وماذا عن جون جالت؟

ـ لقد عثر على أطلانطس.

قالت داغني وهي تبدي اهتمامًا منقطع النظير بهذا الموضوع: ومن هو جون جالت هذا؟

كان جون جالت مليونيرًا، ورجلًا لا يقدّر بثمنٍ. كان في إحدى الليالي يبحر على متن يخت في منتصف المحيط الأطلسي، ويقاتل أسوأ عاصفة مدمّرة للعالم، حين وجد أطلانطس. لقد رآها في عمق، حيث غرقت هربًا من البشر. رأى أبراج أطلانطس المشرقة في قاع المحيط. لقد كان مشهدًا فريدًا حتّى إنّه عندما شاهده، لم يعد بإمكانه النظر إلى بقيّة الأرض. فأغرق جون جالت سفينته وغرق معه كامل أفراد طاقمه. لقد اختاروا جميعهم الغرق. وكان صديقي هو الوحيد الذي نجا من تلك الكارثة.

ـ إنّها قصّة مثيرة للاهتمام.

قالت المرأة: لقد وقع ذلك منذ سنوات خلت، رأى صديقي ما حدث فيها بأُمِّ عينه. لكنّ عائلة جون جالت تسترّت على القصّة.

ـ وماذا حدث لثروته؟ لا أذكر أنّني سمعت عن ثروة جون جالت.

ـ لقد غرقت معه، لست مجبرة على تصديق ذلك.

قال فرانسيسكو دانكونيا: آنسة تاجارت لا تصدّقي هذه القصّة، أمّا أنا فأصدّقها.

استدارتا وابتعدتا عنه، فتبعهما ووقف ينظر إليهما بوقاحة وجدّيّة مبالغ فيها.

سألته المرأة بغضبٍ: هل تثق في أيّ شيء، يا سيّد دانكونيا؟

ـ لا يا سيّدتي.

ضحك على رحيلها المفاجئ. ثمّ سألته داغني ببرودٍ:

ـ ما المضحك في هذا الأمر؟

ـ المضحك في هذا الأمر هو أنَّ تلك المرأة الحمقاء لا تعلم أنّها كانت تقول لك الحقيقة.

ـ هل تتوقّع منّي أن أصدّق ذلك؟

ـ لا.

ـ إذَن ما الذي يُسَلِّيك في هذا الأمر؟

ـ أوه، توجَد أشياء كثيرة رائعة هنا. أليس كذلك؟

ـ لا.

ـ حسنًا، كان أمر تلك المرأة أحد الأشياء التي أجدها مسلّيةً.

ـ فرانسيسكو، هلّا تتركني بمفردي؟

ـ ولكنّي فعلتُ ذلك. ألم تلاحظي أنّك أنت من بادرت بالحديث إليّ في هذه الليلة؟

ـ لماذا تستمرّ في مراقبتي؟

ـ إنّه حبّ الاطّلاع والفضول.

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

ـ ردّ فعلك تجاه الأشياء التي لا تجدينها مسلّيةً.

ـ ولماذا يجب أن تهتمّ بردود أفعالي تجاه أيّ شيء؟

ـ هذه هي طريقتي لقضاء وقت ممتع، وهو أمر تفتقدينه. بالمناسبة، يا داغني، إلى جانب ذلك، أنت المرأة الوحيدة التي تستحقّ المراقبة هنا.

وقفت متحدّيةً، لأنّ الطريقة التي نظر بها إليها تطلّبت منها هروبًا غاضبًا. فوقفت كما فعلت دائمًا بشكل مستقيم ومشدود، رافعةً رأسها بكثير من الصبر. لقد كانت وقفتها خاليةً من الأنوثة، مثل وقفة مدير تنفيذيّ. لكنّ كتفها العارية خانت هشاشة الجسد الذي كان تحت الفستان الأسود، فحوّلت وقفتها إلى وقفة امرأة حقيقيّة. لقد أصبحت قوّة الفخر عندها تتحدّى القوّة المتفوّقة عند أيّ شخص، وصارت الهشاشة تذكيرًا بأنّ ذلك التحدّي يمكن أن يتحطّم. لم تكن واعية بذلك ولم تلتق بأحد قادر على رؤيته.

قال وهو ينظر إلى جسدها: داغني، يا لها من خسارة رائعة!

كان عليها أن تستدير وتهرب. لقد شعرت بالخجل، إذ عرفت فجأة أنّ الجملة التي قالها فرانسيسكو تذكّرها فعلا بما شعرت به طوال المساء.

فهربت حتّى لا تفكّر في هذا الأمر إلى أن استوقفتها الموسيقى. لقد كانت بمثابة انفجار مفاجئ صادر من الراديو. ثمّ تنبّهت إلى أنّ مورت ليدي هو من شغّله ملوِّحًا بيديه إلى مجموعة من الأصدقاء وهو يصرخ:

ـ هذا كلّ ما في الأمر! هذا هو كلّ شيء! فقط أريدكم أن تسمعوا!

كان الاندفاع الصوتيّ الكبير مقدّمةً موسيقيّة للكونشرتو الرابع لريتشارد هالي. لقد ارتفع اللحن في انتصار معذّب، وتحدّث عن إنكاره للألم، وكانت ترانيمه توحي برؤية بعيدة. ثمّ انكسرت الأنغام. بدا الأمر كما لو أنّ حفنة من الطين والحصى قُذِفت في الموسيقى، وما تبع ذلك هو صوت التدحرج والغربلة. لقد تحوّل كونشرتو هالي إلى لحن شعبيّ. وبدا لحن هالي مقطّعا إلى أشلاء، وأصبح بيان الفرح العظيم للكونشرتو مثل القهقهات التي تملأ فضاء الحانات. ومع ذلك، كانت بقايا لحن هالي هي التي أضفت عليه شكلا ورونقًا؛ فكان اللحن الذي دعمه مثل النخاع الشوكيّ.

كان مورت ليدي يبتسم لأصدقائه بتفاخر وعصبيّة قائلًا:

جيّد جدًّا؟ جيّد جدًّا، إيه؟ أفضل نتيجة لفيلمٍ هذا العام. بفضله نلت جائزة وقدّموا لي عقدًا طويل الأمد. نعم، كانت هذه نتيجتي في جنّة الفناء الخلفيّ الخاصّة بكم.

وقفت داغني، تحدّق في أرجاء الغرفة، كما لو أنّ إحساسًا يمكن أن يحلّ محلّ آخر، أو أنّ البصر يمكن أن يمحو الصوت. حرّكت رأسها في دائرة بطيئة، محاولةً إيجاد مرساة نهائيّة في مكان مّا. ثم شاهدت فرانسيسكو وهو مكتوف اليدَين يتّكئ على عمود. كان ينظر إليها مباشرة والضحك يندلق منه. فقالت في نفسها لا ترتجفي هكذا، اخرجي من هنا. لقد كان ذلك ضربًا من الغضب الذي لم تستطع السيطرة عليه. ثمّ قالت في نفسها مجدّدًا: لا تقولي له شيئًا. امشِي بثبات، ثمّ انصرفي.

كانت تمشي بحذر وببطء شديد. لكنّها سمعت كلمات ليليان فتوقّفت. يبدو أنّ ليليان قد ردّدت ما قالته في مرّات عديدة ذلك المساء، ردًّا على السؤال نفسه، لكنّها كانت المرّة الأولى التي سمعتها فيها داغني.

كانت ليليان تخاطبهم وهي تمدّ ذراعها إلى السوار المعدنيّ كي تتفحّصه امرأتان في كامل أناقتهما:

ـ انظروا إلى هذا السوار؟ ما المانع، لم أقتنِ هذا السوار من متجر الخردة، إنّه هدية خاصّة جدًّا من زوجي. أوه، نعم، بالطبع إنّه يبدو بشعا. لكن ألا ترون؟ إنّه لا يقدَّر بثمن. وبطبيعة الحال، سأستبدل به سوارًا ماسيًّا تقليديًّا في أيّ وقت، ولكن بطريقة مّا لن يقدّم لي أحدٌ هديّةً تضاهيه، على الرغم من أنّه نفيس جدًّا. لماذا؟ يا أعزّائي، إنّه أوّل شيء يصنع من معدن ريردن.

لم تعد داغني ترى الغرفة. وما عادت تسمع الموسيقى. بل كانت تشعر بضغط السكون المميت على طبلة أذنها. لم تكن تعرف اللحظة التي سبقتها، أو اللحظات التي ستليها. ولم تعرف من هم المتورّطون، أكانت هي نفسها أم ليليان أم ريردن أم معنى ما قامت به من فعل؟ كانت لحظة واحدة فقط خارجة عن السياق. وكانت تستمع وهي تنظر إلى سوار المعدن الأخضر المائل إلى الزرقة.

ثمّ شعرت بحركة شيءٍ تمزّق من معصمها، وسمعت صوتها يقول في سكون عظيم، وبهدوء شديد، صوت بارد مثل هيكل عظميّ، خالٍ من المشاعر:

ـ لو لم تكوني جبانةً لفكّرت في استبدال سوارك الماسيّ.

ثمّ مدّت راحة يدها، لقد كانت تمدّ سوارها الماسيّ إلى ليليان. فجاء صوت امرأة من بين الحضور:

ـ أنت لست جادّة، يا آنسة تاجارت؟

لم يكن الصوت صوت ليليان. أخذت عَيْنَا ليليان تنظر إليها مباشرة. فعرفت أنّها جادّة.

قالت داغني وهي ترفع راحة يدها إلى أعلى، فيتألّق الطاقم الماسيّ فيها: أعطني ذاك السوار.

صرخت بعض النساء: هذا فظيع!

كان من الغريب أن يصرخ الجميع تلك الصرخة الحادّة. ثمّ أدركت داغني وجود أشخاص يقفون حولهم وأنّهم جميعًا وقفوا في صمت. لقد أصبحت تسمع الأصوات الآن، وحتّى الموسيقى؛ كان كونشيرتو هالي المشوّه يتردّد في مكان بعيد.

رأت وجه ريردن. فبدا الأمر كما لو أنّ شيئًا بداخله كان مشوّهًا تماما مثل تلك الموسيقى، لم يعرف ما الذي شوّهه وهو الذي كان يراقبهم.

تحوّل فم ليليان إلى هلال مقلوب راسمًا ما يشبه الابتسامة. فَتحَت قفلَ السوار المعدنيّ، وضعت السوار في كفّ داغني وأخذت الطقم الماسيّ. ثمّ قالت:

ـ شكرًا آنسة تاجرت.

أغلقت أصابع داغني حول المعدن. شعرت به في يدها؛ ولم تشعر بشيء آخر. ثمّ ابتعدت ليليان لأنّ ريردن اقترب منها وأخذ سوار الماس من يدها ثمّ شَبَكَه على معصمها، ورفع يدها إلى شفتيه وقبّلها. لم ينظر إلى داغني. أمّا ليليان، فضحكت بمرح وجاذبيّة، ممّا أعاد الغرفة إلى مزاجها الطبيعيّ. ثمّ قالت:

ـ يمكنك أن تستعيدي سوارك حين تغيّرين رأيك، يا آنسة تاجارت.

ابتعدت داغني. وهي تحسّ بالهدوء والحرّيّة. لقد زال الضغط الذي كان يدفعها إلى مغادرة الحفلة.

ربطت السوار المعدنيّ على معصمها. لقد أحبّت الشعور الذي خلّفه وزنه على جلدها. لسبب غير مفهوم، شعرت بلمسة من الغرور الأنثويّ، وهو النوع الذي لم تختبره من قبل: الرغبة في أن ينظر إليها وهي ترتدي ذلك المعدن الخاصّ.

سمعت من بعيد أضغاث أصوات ساخطة:

ـ أكثر حركة هجوميّة رأيتها على الإطلاق... لقد كانت شرّيرة... أنا سعيدة لأنّ ليليان أخذته منها... لقد أعطتها الحقّ، إذ شعرت برمي بضعة آلاف من الدولارات.

ظلّ ريردن طوال بقيّة السهرة بجانب زوجته. يتقاسم معها أحاديثها ويضحك مع أصدقائها، لقد أصبح فجأةً ذلك الزوج المخلص واليقظ والذي يثير الإعجاب.

كان يعبر الغرفة، ويحمل صينيّة مليئةً بالمشروبات التي طلبها شخصٌ مّا في مجموعة ليليان، وهو عمل غير رسميّ لا يليق به. حين اقتربت داغني منه. توقّفت ونظرت إليه، كما لو أنّهما وحدَهما في مكتبه. وقفت مثل مديرةٍ رافعةً رأسها. فأخذ يتطلّع إليها من أسفل إلى أعلى. وكان يرى في خطّ نظره، من أطراف أصابع يدها إلى وجهها، جسدها عاريًا إلّا من سواره المعدنيّ. ثم قالت:

ـ أنا آسفة يا هانك، ولكن كان عليّ فِعلُ ذلك.

ظلّت عيناه فارغَتين من أيّ تعبير. ومع ذلك تأكّدت سريعًا من أنّها تعرف ما كان يشعر به، لقد كان يريد أن يصفع وجهها.

أجابها ببرود: لم يكن ذلك ضروريًا. ثمّ انصرف.

***

كان الوقت متأخرًا جدًّا عندما دخل ريردن إلى غرفة نوم زوجته. كانت لا تزال مستيقظة، والمصباح مشتعلٌ على طاولة سريرها.

استلقت على السرير، مستندة إلى وسائد من الكتّان الأخضر الفاتح. كانت سترة نومها من الحرير الأخضر الباهت، وحين ارتدتها بدت طيّاتها اللّامعة شبيهة بما تبقّى من طيّات المناديل الورقيّة. ومن براعم شجرة التفّاح في الخارج، تسلّل ضوء مظلّل إلى طاولة تحمل كتابًا، وكوبًا من عصير الفاكهة، وإكسسوارات زينة الحمّام المصنوعة من الفضّة المتلألئة مثل أدوات طبّ الجراحة. لقد كان بذراعيها شيءٌ يشبه تألّق الخزف. وكانت على فمها آثار أحمر شفاه ورديّ شاحب. لم تظهر عليها أيّ علامة من

علامات الإرهاق بعد الحفلة ولا أدنى علامة على أنّها أنهكت حياتها. كان المكان عبارة عن عرض ديكور لسيّدة مهيّأة للنوم من دون إزعاج.

أمّا هانك فكان لا يزال يرتدي ثيابه؛ كانت ربطة عنقه منحلّة فضفاضة، وخصلة من شعره عالقة على وجهه. نظرت إليه من غير دهشة، كما لو أنّها عرفت ما فعلته به تغييرات الساعة الأخيرة لديكور غرفته.

نظر إليها بصمتٍ. لم يدخل غرفتها منذ مدّة طويلة. كان يتمنّى لو أنّه ما دخل إليها الآن.

ـ أليس من المعتاد التحدّث يا هنري؟

ـ لِمَ لا؟ إذا كنت ترغبين في ذلك.

أتمنّى أن ترسل أحدَ خبراء مطاحنك الرائعين لإلقاء نظرة على موقد غرفة استقبالنا. هل تعلم أنّه انطفأ خلال الحفلة وأمضى سيمونز وقتًا طويلا لإعادة تشغيله؟ لقد أخبرتني السيّدة وستون أنّ أفضل إنجاز لدينا كان ما أعدّه الطبّاخ، وقد أعجبتها المقبلات... أمّا بالف يوبانك فقد قال شيئًا مضحكًا جدًّا عنك، قال إنّك كنت مثل صليبيّ يمتلك مصنعًا بمدخنةٍ تنفث أعمدة من الدخان... أنا سعيدة لأنّك لم تعجب بفرانسيسكو دانكونيا، فأنا أيضًا لم أستطع تحمُّلَه.

لم يهتمّ بتبرير حضوره أو إخفاء الهزيمة أو الاعتراف بها عبر الرحيل. وبشكل مفاجئ لم يعد يكترث بما فكّرت فيهِ أو شعرت به. مشى نحو النافذة وظلّ واقفا ينظر إلى الخارج.

قال في نفسه: لماذا تزوّجت بي؟

لم يطرح هذا السؤال على نفسه يوم زفافهما قبل ثماني سنواتٍ. منذ ذلك الحين، وهو يعيش في وحدةٍ معذّبةٍ، ويطرح السؤال نفسه مرّات عديدةً دون أن يهتدي إلى جواب.

كان يقول في نفسه: هي لم تتزوج بي من أجل المنصب ولا من أجل المال، لأنّها

تنحدر من عائلة عريقة مثل عائلتي تمامًا.

لم يكن اسم عائلتها من بين الأسماء الأكثر تميّزًا، وكانت ثروتها متواضعةً، ولكنّ تقارب كلا العائلتين سمح لها بالانضمام إلى الدوائر العليا في مجتمع نيويورك حيث التقى بها. قبل تسع سنوات، لمع اسم هانك في سماء نيويورك بسبب نجاح شركة ريردن للفولاذ، وهو نجاحٌ رآه الخبراء في المدينة مستحيلًا. كانت لامبالاته هي ما جعلَه مذهلًا. لم يعلم أنّه كان يُتَوقَّع منه أن يحاول شقّ طريقه في المجتمع وأنّهم توقّعوا متعة رفضه. ولم يجد الوقت لملاحظة خيبة أملهم.

لقد حضر على مضضٍ بعض مناسباتٍ اجتماعيّةٍ دعاه إليها الرجال الذين كانوا يعملون لصالحه. لم يكن يعلم، وكانوا هم يعلمون، أنّ أخلاقه وتأدّبه اللطيف مثَّل تنازلًا تجاه الأشخاص الذين توقّعوا رفضه، الأشخاص الذين قالوا إنّ زمن الإنجاز قد ولّى وفات.

كان تقشّف ليليان هو ما جذبه إليها، ذلك الصراع بين تقشّفها وسلوكها هو الذي أثاره. لم يكن يحبّ أحدًا البتّةَ ولا توقّع أن يكون محبوبًا. فوجد نفسه ممسكًا بمشهد امرأة لاحقته بشكلٍ واضحٍ ولكن مع تردّد واضح، كما لو أنّه كان ضدّ إرادتها، أو كأنّها تحارب رغبة استاءت منها. لقد خطّطت هي للالتقاء به، ثمّ واجهته ببرود، وكأنّها لا تهتمّ بأنّه على علمٍ بذلك. تحدّثت قليلا؛ فَبَدَت ذات هالةٍ من الغموض أخبرته بأنّه لن يكسر اعتدادها المتباهي بالاستقلاليّة، وذات مرحٍ يسخر من رغبتها الخاصّة ورغبته.

لم يكن يعرف نساء كثيرات. لقد تحرّك نحو هدفه، وجرف كلّ شيء لا يتعلّق به في العالم وفي نفسه. كان تفانيه في عمله مثل أحد الحرائق التي تعامل معها، حريق أتى على كلّ عنصر أقلّ منه، وكلّ الشوائب من تيّار أبيض لمعدن واحد. كان غير قادر على مواجهة مخاوف منتصف الطريق. ولكنّه شعر في بعض الأوقات بوصول مفاجئ للرغبة، رغبة عنيفة جدًّا، حتّى إنّه لا يمكن أن يمنح ذاك الوصول لقاءً غير رسميّ. لقد استسلم لها، في مناسبات نادرة قليلة على مرّ السنين، مع النساء اللواتي

اعتقد أنّه يحبّهنّ. ترك شعورًا بالفراغ الغاضب، لأنّه سعى إلى إحراز إنجاز، على الرغم من أنّه لم يكن يعرف طبيعته، لكنّ الاستجابة التي تلقّاها كانت مجرّد قبول المرأة لمتعة غير رسميّة، وكان يعرف بوضوح أنّ ما فاز به ليس له معنى. في آخر الأمر لم يحظَ بفرح الإنجاز، وإنّما بقرح الذلّ. وكبر فنما بداخله شعور الكره تجاه رغبته، فحاربها. وانتهى به الأمر إلى الإيمان بعقيدة أنّ تلك الرغبة كانت جسديّة بالكامل، رغبة غير نابعة من الوعي، بل من المادّة، وتمرّد ضدّ فكرة أنّ جسده يمكن أن يكون حرًّا في الاختيار وأنّ اختياره كان عصيًّا على إرادة عقله. لقد قضى حياته في المناجم والطواحين، وصاغ مادّةً لرغباته من خلال قوّة فكره، ووجد أنّ من غير المتبول ألّا يستطيع التحكّم في أمر جسده. فحاربه. لقد كسب كلّ معاركه ضدّ الطبيعة الجامدة. ولكن تلك كانت معركته الوحيدة التي خسرها.

كانت صعوبة الامتلاك هي التي جعلته يرغب في ليليان. بدت وكأنّها امرأة توقّعت قاعدةً واستحقّتها؛ وهذا ما جعله يرغب في جرّها إلى سريره. جرّها إلى أسفل، تلك كانت الكلمات التي عشّشت في ذهنه؛ لقد منحته تلك الكلمات متعة مظلمة بمعنى الفوز المستحقّ.

لم يستطع فهم السبب. كان يعتقد أنّه صراع فاحش، وعلامة على بعض الفساد الفاضح بداخله، لكن لماذا شعر، في الآن نفسه، بفخرٍ عميقٍ تجاه فكرة منح امرأة لقبَ زوجته؟ كان الشعور مهيبًا ومشرقًا؛ إذ بدا الأمر كما لو أنّه وجد رغبةً في تكريم امرأة بفعل امتلاكها. بدت ليليان مناسبة جدًّا للصورة التي لم يكن يعرف أنّه يحملها في ذهنه، أو أنّه يرغب في العثور عليها؛ فرأى النعمة والكبرياء والنقاء؛ أمّا باقي الخصال فكانت في ذاته؛ لم يعلم أنّه كان ينظر إلى مجرّد انعكاس لصورة في ذهنه.

وتذكّر اليوم الذي جاءت فيه ليليان من نيويورك إلى مكتبه، وطلبت منه أن يأخذها إلى مصانعه. لقد سمع نبرة ناعمة ومنخفضة. سمع نبرة إعجاب تنمو في صوتها، حين سألته عن عمله وحين نظرت إلى المكان من حولها. فنظر إلى جسدها الرشيق الذي كان يتحرّك في انسجام مع رشقات شعلة الفرن، وفي الخطوات

السريعة الخفيفة من كعبها العالي الذي يتعثّر بسبب انجرافات زبد المعدن السائل، وهي تمشي بحزم إلى جانبه. كانت النظرة في عينيها، عندما شاهدت حرارة سكب الفولاذ، وكأنّها شعور خاصّ جعله يتلفّت إلى جمالها. وعندما تحرّكت عيناها إلى وجهه، رأى المظهر نفسه، لكنّه تكثّف إلى درجة أنّها بدت عاجزة وصامتة. وفي عشاء تلك الليلة طلب منها الزواج.

استغرق منه الأمر بعض الوقت إثر زواجه قبل أن يعترف لنفسه بأنّ ذلك الزواج كان فاتحة عذابات عديدة. كان لا يزال يتذكّر الليلة عندما اعترف بذلك الشعور بالخيبة. كان يقف بجانب السرير ينظر إلى ليليان عندما أخبر نفسه بأنّه يستحقّ هذه العذابات وأنّه سيتحمّلها. لم تكن ليليان تنظر إليه. كانت تعدّل خصلات شعرها. فسألته:

ـ هل يمكنني الآن أن أخلد للنوم؟

لم تعترض قطُّ؛ لم ترفضه قطّ. لقد خضعت له كلّما رغب في ذلك. خضعت بطريقة الامتثال لقاعدة أنّ من واجبها، في بعض الأحيان، التحوّلَ إلى شيءٍ جامدٍ يُسلَّم لخدمة زوجها.

لم تنتقده. لقد أوضحت أنّها اعتبرت أنّ للرجل غرائز مهينةً تشكّل الجزء السرّيّ القبيح من الزواج. كانت متسامحة جدًّا. وابتسمت في نفورٍ مسلٍّ من شدّة ما عاناه. قالت له ذات مرّة: إنّها أكثر تسلية مهينة عرفتُها، لكنّي لم أستمتع من خلالها بوهم أنّ الرجال يتفوّقون على الحيوانات.

افتقد الرغبة فيها منذ الأسبوع الأوّل من زواجهما. وما تبقّى منها كان مجرّد حاجة لم يتمكّن من تدميرها. لم يسبق له أن دخل بيتَ دعارة؛ كان يعتقد في بعض الأحيان أنّ كراهية الذات التي سيختبرها لن تكون أسوأ ممّا شعر به عندما دُفع إلى دخول غرفة نوم زوجته.

كان كلّما دخل غرفة نومها وجدها تطالع في الغالب كتابًا. تضعه جانبًا، بشريط

أبيض لتبيّن الصفحات. وعندما يستبدّ به الإرهاق يغمض عينيه وهو يتنفّس في لهاث، فتُشعل هي الأنوار، وتلتقط الكتاب وتواصل قراءتها.

قال لنفسه إنّه يستحقّ التعذيب لأنّه لم يودّ لَمسَها مرّة أخرى لكنّه لم يتمكّن من الحفاظ على قراره. احتقر نفسه بسبب ذلك. لقد احتقر الحاجة التي لم تخلُ من فرحة أو معنى، والتي أصبحت مجرّد حاجة إلى جسد امرأة، جسد مجهول ينتمي إلى امرأة كان يجب أن ينساه أثناء مسكه. فأصبح مقتنعًا بأنّ الحاجة كانت فسادًا.

لم يدنُ من ليليان. شعر باحترام كئيب وغير مبال تجاهها. وقد جعله كرهُه لرغبته الخاصّة يتقبّل عقيدة أنّ النساء طاهرات وأنّ المرأة الطاهرة لا تقدر على المتعة الجسديّة.

ومن خلال العذاب الهادئ لسنوات زواجه، كانت هناك فكرة واحدة لم يسمح لنفسه بالنظر فيها: فكرة الخيانة الزوجيّة. لقد وعد نفسه بأن يكون مخلصًا، وكان مصرّا على الالتزام بهذا الوعد.

لم يرغب في أن يجنّب ليليان العارَ. إنّه يفكّر في ذلك الآن واقفًا أمام النافذة. لم يرغب في الدخول إلى غرفتها. كان يصارع هذه الفكرة. لقد صارع، بشراسة أكبر، لكي لا يعرف السبب الذي جعله ضعيفًا تلك الليلة. ثمّ بعد رؤيتها، عرف فجأةً أنّه لن يلمسها، وأنّ السبب الذي دفعه إلى هناك في تلك الليلة هو السبب نفسه الذي جعل من معاشرتها أمرًا مستحيلًا عليه.

وقف ساكنًا، فارغًا من أيّ من رغبة. كان يشعر براحة قاتمة من اللّامبالاة تغزو جسده، وعدم اكتراث بتلك الغرفة، وحتّى تجاه حضوره هناك. لقد ابتعد عنها. اعتقد أنَّ ما يجب أن يشعر به هو الاحترام؛ لكنّ ما شعر به في الواقع كان نوعًا من الازدراء.

ـ ... لكنّ الدكتور بريتشيت قال إنّ ثقافتنا تحتضر، لأنّ جامعاتنا يجب أن تعتمد على الشَّرَاكات مع شركات تعليب اللحوم، وشركات الحدادة والفولاذ وموردي

حبوب الإفطار.

قال في نفسه مجدّدًا: لماذا تزوّجت بي؟ لم يعد صوتها ذلك الصوت المشرق والناصع الذي يتحدّث بشكل عشوائيّ. لقد عرفت السبب الذي من أجله جاء إلى هنا. وتعرف ما ستفعله به رؤيتُها تلتقط صاقل الأظافر الفضّيّ وتواصل الحديث بمرح، وهي تلمّع أظافرها. كانت تتحدّث عن الحفلة. لكنّها لم تذكر بيرترام سكودر أو داغني تاجارت.

ما الذي كانت تسعى إليه من وراء هذا الزواج؟ اعتقد أنّ بعض الأهداف دفعتها إلى هذا الزواج، لكنّه لم يجد شيئًا لإدانتها. لم تحاول قطُّ استغلاله. ولم تطالبه بأيّ مطالب. لم تجد أيّ رضا في هيبة قوّته الصناعيّة، لقد رفضت ذلك الأمر، وفضّلت دائرة أصدقائها. ولم تكن تسعى وراء المال، فقد أنفقت القليل منه، ولم تكن أيضًا غير مبالية بنوع الإسراف الذي يستطيع تحمّله. لم يملك الحقّ في اتّهامها أو تحطيم ما يربطهما. فهي امرأة شريفة ملتزمة بزواجهما. ولم تكن تريد أيّ شيء منه.

استدار ونظر إليها بضجرٍ، ثمّ قال:

ـ في المرّة القادمة حين تقرّرين تنظيم حفلة، التزمي بحشدك ولا تستدعي أيّ واحد من أصدقائي. فأنا أكره لقاءهم خارج إطار العمل.

ضحكت بإعجاب وسرور، ثمّ قالت:

ـ أنا لا ألومك، عزيزي.

خرج، دون أن يضيف أيّ شيء آخر. وظلّ يقول في نفسه: ماذا كانت تريد منه؟ ما الذي كانت تبحث عنه فيه؟ غير أنّه لم يجد أيّ إجابة في الكون الذي عرفه.

الفصل السابع
المُستغِلُّون والمُستغَلُّون

ارتفعت قضبان سكك الحديد من خلال الصخور إلى أبراج النفط، وارتفعت أبراج النفط إلى السماء. وقفت داغني على الجسر، تنظر إلى قمّة التلّ حيث انعكست أشعّة الشمس في بقعةٍ من المعدن على قمّة أعلى التجهيزات. لقد بدت مثل تلك الشعلة البيضاء المُضاءة على الثلج، الشعلة التي تنتشر على حوافّ حقل وايت للنفط.

كانت تعتقد أنّ المسار سيلتقي بالخطّ الذي ينمو نحوه من شايان بحلول الربيع. لقد تركت عيناها تتبعان القضبان الخضراء المائلة إلى الزرقة التي بدأت من الأبراج، ونزلت، ثم مرّت عبر الجسر وتجاوزته. ثمّ أدارت رأسها لمتابعة الخطّ، من خلال أميالٍ من الهواء النقيّ، وهو يمرّ في منحنيات كبيرة معلّقة على جانبَي الجبال إلى نهاية المسار الجديد. هناك تحرّكت رافعة القاطرة مثل ذراع عارية من العظام والأعصاب، لتشقّ بحدّةٍ عباب السماء.

ومرّ بجانبها جرّار كان محشوّا ببراغيّ زرقاء تميل إلى الخضرة. وبعيدًا في الأسفل قدم صوت المثاقب بأزيز يشبه قشعريرةً ثابتة، حيث تأرجح الرجال على الكابلات المعدنيّة أسفل المسار. كان بالإمكان رؤيتهم وهم يعملون، بأيادٍ متصلّبة وعضلات متوتّرة تمسك بمقابض القيود الكهربائيّة.

قال لها بن نيلي: إنّها العضلات، يا آنسة تاجرت، العضلات هي كلّ ما نحتاج إليه

لبناء أيّ شيء في العالم.

يبدو أنّه لا يوجد في أيّ مكان من أصقاع العالم مقاولٌ يضاهي ماكنامارا. لقد تحصّلت على أفضل فريق عمل موجود على وجه البسيطة. فليس في طاقم شركة تاجرت مهندسٌ يمكن الوثوق به للإشراف على المشروع، فجميعهم كانوا متشكّكين بشأن المعدن الجديد.

قال كبير مهندسيها: بصراحة يا آنسة تاجارت، بما أنّها تجربة لم يقدم عليها أحد من قبل، فليس عدلًا أن تُلْقَى مسؤوليّتها على عاتقي.

أجابته: إنّها مسؤوليّتي الشخصيّة.

كان رئيس السائقين رجلًا في الأربعينات من عمره، مازال يحافظ على الطريقة الممتعة التي تعلّمها في الكلّيّة التي تخرّج منها. قديما، كان لشركة تاجرت العابرة للقارّات رئيس لسائقي القطارات، وهو رجلٌ هادئٌ، ذو شعر رماديّ، عصاميّ التكوين، لا يمكن أن يضاهيه أيّ رئيس آخر بأيّ شركة للسكك الحديديّة. لكنّه استقال قبل خمس سنوات.

ثمّ نظرت أسفل الجسر. كانت تقف على دعامة رفيعة من الفولاذ فوق وادٍ شقَّ الجبال إلى عمقٍ ناهز ألفا وخمس مائة قدم. بعيدا في القاع، استطاعت أن تميّز الخطوط العريضة الخافتة لسرير الوادي الجافّ، من الصخور المتكومة، والأشجار الملتوية لقرون من الزمن. وتساءلت عمّا إذا كان بإمكان تلك الصخور وجذوع الأشجار وعضلات الرجال أن تسدّ ذلك الوادي. وتساءلت أيضًا لماذا وجدت نفسها تفكّر فجأةً في أنّ سكّان الكهف عاشوا سنواتٍ عُراةً في قاع ذلك الوادي.

ثمّ جالت بنظرها في حقول وايت للنفط. لقد اقتحم المسار جوانب الآبار. فرأت الأقراص الصغيرة للمفاتيح تبدو مثل النقاط المنتشرة على الثلج. إنّها مفاتيح معدنيّة من النوع الذي كان مبعثرا بالآلاف في جميع أنحاء البلاد، دون أن يلاحظه أحدٌ، لكنّها بَدَت تلمع في الشمس وكانت الشرارات زرقاء تميل إلى الخضرة. ما عَنَتْه تلك

المفاتيح لداغني هو ثمرة ساعاتٍ طويلة من الحديث بهدوء، وبانتظام وصبر، في محاولة لتحقيق الهدف الذي يتمحور حول شخص واحد هو السيّد موين، رئيس الشركة المندمجة للمفاتيح والإشارات الكهربائيّة من ولاية كونيتيكت:

ـ لكن، يا آنسة تاجارت، يا عزيزتي! لماذا كانت شركتي في خدمة شركتكم على مدى أجيال؟ لأنّ جدّك ببساطة كان الزبون الأوّل لجدّي. وهكذا، لا ينبغي أن تساورك الشكوك، لأنّنا مستعدّون لتقديم أيّ شيء تطلبينه.

ـ نعم.

ـ لكن، يا آنسة تاجارت! تأمّلي في ما يعنيه العمل بذلك المعدن. هل تعلمين أنّ تلك المادّة لن تذوب إلّا في حرارة لا تقلّ عن أربعة آلاف درجة؟ عظيم؟ حسنًا، لعلّ ذلك عظيم عند صانعي المحرّكات، لكنّ ما أفكّر به هو أنّ ذلك يعني نوعًا جديدا من الأفران، فالعمليّة جديدة كلّيًّا وتحتاج إلى تدريب للرجال، والتعامل مع الجداول الزمنيّة المتقلّبة، ورسمٍ لقواعد العمل، فكلّ شيء يتضخّم، وحده الله يعلم ما إذا كنّا سننجز العمل بشكلٍ صحيح أم لا!... كيف لك أن تعلمي بكلّ هذه التفاصيل يا آنسة تاجرت؟ كيف يمكنك أن تكوني متأكّدة من نجاحها علمًا أنّ مثل هذه التجارب غير مسبوقة؟ حسنا، لا أستطيع الجزم بأنّ هذا المعدن جيّد ولا أستطيع الجزم بعكس ذلك... حسنًا، لا أستطيع أن أقول ما إذا كان نتاج عبقريّة، كما تقولين، أم مجرّد حالة غشّ كما يقول عدد كبير من الناس يا آنسة تاجرت... حسنًا، أنا لا أستطيع القول إنّه أمر مهمّ بطريقة أو بأخرى، فمن أنا لأحظى بفرصة عمل من هذا النوع؟

لقد ضاعفت سعر طلبيّتها، وأرسل ريردن اثنين من المختصّين في المعادن لتدريب رجال موين، وتعليمهم وتقديم عروض تطبيقيّة، وشرح كلّ خطوة من العمليّة، ودفع رواتب رجال موين أثناء تدريبهم.

نظرت إلى مسامير السكّة الحديديّة عند قدميها. كانت تلك المسامير تعني الليلة التي سمعت فيها، أثناء مداولات مؤتمر قمّة السباكة بولاية إلينوي، أنّ الشركة

الوحيدة التي ترغب في صناعة المسامير من معدن ريردن قد أفلست، وأنّ نصف طلبيّاتها لم يسلّم. فسافرت جوّا إلى شيكاغو في تلك الليلة نفسها، وحصلت على ثلاثة محامين وقاضٍ ومشرّع حكوميّ أخرجته من فراش نومه وقدّمت رشوة لاثنين منهم وهدّدت الآخرين، وحصلت على ورقة تحتوي ترخيصًا قانونيًّا استعجاليًّا لا أحد سيكون قادرا على حلّه. ثمّ فتحت أبواب مصنع قمّة السباكة، بطاقم عشوائيّ من العمّال نصفه يرتدي الملابس ويعمل في المصاهر قبل أن تتحوّل النوافذ إلى اللون الرماديّ مع ضوء النهار. واستمرّت الطواقم في العمل، تحت إشراف مهندس شركة تاجرت وخبير مختصّ في معادن شركة ريردن. فلم يتعطّل العمل على إعادة بناء خطّ ريونورتيي.

استمعت إلى صوت الحفّارات. لقد تمّ تعليق العمل لمرّة واحدة فقط، عندما أُوقِف الحفر من أجل وضع دعامات الجسر.

قال بن نيلي مستاءً: لم يكن بوسعي فعلُ أيّ شيء، يا آنسة تاجارت. أنت تعلمين مدى سرعة تآكل رؤوس الحفر. لقد حصلت عليها عند الطلب، لكنّ الشركة المندمجة للتجهيزات واجهت مشكلة صغيرة، ولم يتمكّنوا من مواجهتها أيضًا، فتأخّرت شركة مجمع الفولاذ في تسليم الصلب إليهم، لذلك لا يوجد شيء يمكننا فعله سوى الانتظار. لا فائدة من الانزعاج يا آنسة تاجارت. أنا أبذل قصارى جهدي.

ـ لقد استأجرتك لأداء عملٍ مّا، وليس لتقديم أفضل ما لديك مهما كان.

ـ ما تتفوّهين به يدعو إلى الضحك. إنّه موقف لا يحظى بالشعبيّة يا آنسة تاجارت، إنّه فعلا لا يحظى بشعبيّة كبيرة.

ـ دعك من أمر الشركة المندمجة للتجهيزات وانسَ الفولاذ. ثمّ اطلب رؤوس الحفر المصنوعة من معدن ريردن.

ـ لست المكلّف بذلك. لقد واجهت ما يكفي من المتاعب مع الأشياء اللعينة في

سكّة القطار الخاصّة بك. لن أفسد أجهزتي الخاصّة.

ـ رأس الحفر المصنوع من معدن ريردن سيقاوم الحفر أكثر من ثلاثة رؤوس من الفولاذ.

ـ ربّما.

ـ مُرْهُمْ بطلب رؤوس الحفر المصنوعة من معدن ريردن.

ـ من سيدفع ثمنها؟

ـ أنا.

ـ من سيجد شخصًا لصنعها؟

لقد سبق لـداغني أن اتّصلت بهانك ريردن. فوجد مصنع أدوات مهجور، كان متوقّفًا عن العمل منذ فترة طويلة. وفي ساعة من الزمن، اشتراه من أقارب مالكه. وفي مدّة يوم واحد، فُتح المصنع مجدّدًا. وفي غضون أسبوع واحد، سُلّمت رؤوس الحفر من معدن ريردن إلى الجسر في كولورادو.

نظرت إلى الجسر. لقد كان يمثّل مشكلةً حُلّت في السابق على نحو سيّئ، ولكن كان عليها قبولها. لقد بُنِي الجسر، الذي يبلغ طوله 1200 قدم من الفولاذ عبر تلك الفجوة السوداء في أيّام ابن نات تاجرت. ومرّ وقت طويل على انقضاء فترة الضمان؛ وتمّ ترقيعه بدعائم من الفولاذ، ثمّ من الحديد، ثمّ من الخشب؛ كان لا يكاد يستحقّ الترقيع. لقد فكّرت في جسر جديد من معدن ريردن. فطلبت من كبير مهندسيها أن ينجز تصميمًا لهذا الجسر وأن يقدّر تكلفته المادّيّة. كان التصميم الذي أنجزه مخطّطًا لجسر فولاذيّ قُلِّصت فيه القوّة الأكبر للمعدن الجديد بشكلٍ سيّءٍ؛ وقد جعلت التكلفةُ النظرَ في المشروع أمرًا مستحيلًا.

قال: أرجو معذرتك يا آنسة تاجارت. أنا لا أعلم ماذا تقصدين عندما تقولين إنّني لم أستخدم المعدن. هذا التصميم عبارة عن اقتباس لأفضل الجسور المسجّلة. ماذا كنت تتوقّعين؟

ـ طريقة جديدة في البناء.

ـ ماذا تقصدين بطريقة جديدة في البناء؟

ـ أعني أنّه عندما حصل الرجال على الفولاذ الهيكليّ، لم يستخدموه لبناء نسخٍ فولاذيّة من الجسور الخشبيّة. أحضر لي تقريرًا تقديريًّا في ما سنحتاج إليه لجعل جسرنا القديم يدوم خمس سنوات أخرى.

ردّ بسرور: حاضر يا آنسة تاجرت. إذا عزّزناها بالصلب...

ـ لا، سنعزّزها باستخدام معدن ريردن.

ردّ ببرود: حاضر، يا آنسة تاجرت.

نظرت إلى الجبال التي اتّشحت بالثلج. بدت مهمّتها في نيويورك صعبة أحيانًا. كانت تتوقّف في منتصف مكتبها للحظات فراغ رهيبة، وقد شلّها اليأس في جمود الوقت الذي لم تستطع تمديده أكثر من ذلك. منذ يوم تعاقبت فيه المواعيد العاجلة، فقد ناقشت قاطرات الديزل البالية، وعربات الشحن المتعفّنة، وفشل أنظمة الإشارة، وانخفاض الإيرادات. وأثناء التفكير في أحدث حالة طوارئ في بناء خطّ ريونورتي، رأت خطّين من قطع المعدن الأخضر والأزرق يمرّان عبر خيالها؛ وعندما قاطعت المناقشات، مدركةً فجأةً لماذا أزعجها خبرٌ معيّن، مسكت بسمّاعة الهاتف للاتّصال بمقاولها البعيد عنها بمسافات طويلة لتقول:

ـ من أين تحصل على الطعام لرجالك؟... أنا أظنّ ذلك. حسنًا، بالأمس أفلس بارتون وجونز من مدينة دنفر. من الأفضل العثور على مُورِّد آخر في الحال، إذا كنت لا تريد حدوث مجاعة في صفوفكم.

لقد كانت تبني الخطّ من مكتبها في نيويورك وبدا الأمر صعبًا. لكنّها الآن تنظر إلى المسار وهو يتطوّر وينمو. سيتمّ ذلك في الوقت المحدّد.

سمعت خطى حادّة وسريعة، فاستدارت. كان هناك رجلٌ يقترب من المسار. كان طويلًا وشابًا، ويرتدي سترة عمّال جلديّة، لكنّه لا يبدو مثل العامل، فقد أظهرت

طريقة مشيه ثقةً ثابتةً. لم تستطع التعرّف على ملامح الوجه إلى أن اقترب منها. إنّه إليس وايت. فهي لم تره منذ تلك المقابلة في مكتبها. اقترب، ثمّ توقّف، ونظر إليها مبتسمًا، ثمّ قال:

ـ مرحبًا داغني.

وفي صدمة عاطفيّة واحدة، عرفت كلّ شيء عن القصد الذي ودّت تَينك الكلمتان إخبارها به. كانتا تعنيان المغفرة والتفهّم والاعتراف. كانتا تحملان معنى التحيّة.

ضحكت مثل الطفلة الصغيرة، وغمرتها السعادة لأنّ الأمور يجب أن تكون على هذا النحو.

قالت وهي تمدّ يدها للتسليم عليه: مرحبا.

أمسك بيدها مدّة طويلة أكثر ممّا تقتضيه التحيّة عادةً. لقد كان توقيعهم للعقد تحت درجة تسوية وفهم.

قال: أخبري نيلي بوضع أسيجة ثلجيّة جديدة لمسافة ميلٍ ونصف على ممرّ غرناطة. فالأسيجة القديمة صارت باليةً ولن تصمد أمام عاصفة أخرى. أرسلي إليه جرّافة دوّارة، لأنّ جرّافته مجرّد قطعة خردة عاجزة حتّى عن اجتياح الفناء الخلفيّ لمنزله، فما بالك بالثلوج الكثيرة التي قد تسقط في أيّ يوم.

ـ نظرت إليه لحظةً ثمّ سألته:كم مرّة كنت توصيني بذلك؟

ـ ماذا تعنين؟

ـ كم مرّة جئت فيها لتشاهد تقدّم العمل.

ـ بين فينة وأخرى، حين يكون لديّ وقت. لماذا؟



ـ هل كنت هنا ليلةَ انزلاق الصخور؟

ـ نعم.

ـ لقد فوجئت بمدى ما تحقّق به مسح المسار من سرعة وجودة، عندما تلقّيت تقارير حول ذلك. ممّا جعلني أعتقد أنّ نيلي رجل أفضل بكثير ممّا كنت أتخيّل.

ـ إنّه ليس كذلك.

ـ هل أنت من رتّب نظام نقل إمدادات يومه إلى الخطّ؟

ـ بالتأكيد. كان رجاله يقضون نصف وقتهم في البحث عن الأشياء. قولي له أن يراقب خزّانات المياه، فالمياه ستتجمّد هناك في إحدى الليالي المقبلة. انظري ما إذا كان يمكنك الحصول على آلة حفر جديدة. لا أثق في ما يبديه هذا الشخص من مظهر خادع، لذلك تحقّقي من نظام الأسلاك الخاصّ به.

نظرت إليه زمنا، ثمّ قالت:

ـ شكرًا إليس.

ابتسم ومشى. راقبته وهو يمشي عبر الجسر، حيث بدأ يعبر المرتفع الطويل نحو الرافعات.

ـ هو يعتقد أنّه يمتلك المكان، أليس كذلك؟

فالتفتت بذهول. كان بن نيلي يقترب منها؛ مشيرًا بإبهامه إلى إليس وايت.

ـ أيّ مكان؟

ـ السكك الحديديّة يا آنسة تاجارت. السكك الحديديّة الخاصّة بك. أو ربّما العالم كلّه. هذا ما يعتقده.

بن نيلي رجلٌ ضخم ذو وجه ناصع متجهّم، وعينين عنيدَتين وخاليتين من أيّ جمال، وفي جلده مسحة من لون الزبدة في زرقة ضوء الثلج.

قال: لماذا يتسكّع باستمرار هنا؟ وكأن لا أحد يعرف تفاصيل أعماله إلّا هو. إنّه يتباهى بشكل متهوّر. من يظنّ نفسه؟

ردّت داغني بحكمةٍ، دون أن ترفع صوتها: لعنك الله.

لم يتمكّن بن نيلي مطلقًا من معرفة ما جعلها تقول ذلك. لكنّ جزءًا منه، بطريقة أو بأخرى، عرف ذلك: أمّا الشيء الذي صدمها فهو أنّه لم يُصدَم ولم يُبْدِ ردّ فعل ولم يقل شيئًا.

قالت بدهاء مشيرة إلى عربة سكّة الحديد القديمة، وكانت تقع على بعد مسافة من داعمة العمود: دعنا نذهب إلى أقسام عملك، هل يوجد شخص ليدوّن الملاحظات.

ردّ على عجل وهما يسيران في اتّجاه العربة: بخصوص القضبان، يا آنسة تاجارت، لقد تفقّدها السيّد كولمان من مكتبك وقال إنّها على ما يرام. لم يقل أيّ شيء بشأن استعمال الكثير من لحاء الشجر. لا أفهم لماذا تعتقدين أنّها...

ـ لقد أمرتك بأن تغيّرها.

عندما خرجت من العربة منهكةً بعد ساعتين من الجهد في التوجيه والشرح، رأت سيّارة متوقّفة على الطريق الترابيّ في الأسفل، كانت سيّارة سوداء ذات مقعدين، متألّقةً وجديدة. وكانت السيّارات الجديدة مشهدًا مدهشًا في أيّ مكان؛ إذ قلّما يراها الناس.

كانت تتلهّف إلى رؤية الرجل الطويل القامة الذي نزل من السيّارة ووقف عند سفح الجسر. إنّه هانك ريردن؛ لم تتوقّع أن تراه في كولورادو. كان يبدو منغمسا في الحسابات، ماسكًا بيده قلما رصاصا ودفترا. لقد لفتت ملابسه الانتباه، مثلما فعلت سيّارته؛ كان يرتدي معطفًا خفيفًا وقبّعة ذات حافّة مائلة، لكنّها من نوعيّة جيّدة، ومكلفة جدًّا إلى درجة أنّها بدت فاخرة بين الملابس الرديئة التي تلبسها الحشود في هذا المكان، وأكثر أبّهة لأنّه كان يرتديها بشكل طبيعيّ.

ولاحظت فجأة أنّها كانت تسير نحوه. لقد فقدت كلّ أثر للإرهاق. ثمّ تذكّرت أنّها لم تره منذ الحفلة، فتوقّفت.

رآها، فلوّح لها بإيماءة وتحيّة، وسار إلى الأمام للقائها. كان يبتسم. ثمّ قال:

ـ مرحبا. هل هي رحلتك الأولى لتفقّد الأشغال هنا؟

ـ إنّها الرحلة الخامسة في غضون ثلاثة أشهر.

ـ لم أكن أعلم أنّك تأتين إلى هنا. لم يخبرني أحد.

ـ كنت أعتقد أنّك ستنهار في يوم من الأيّام.

ـ سأنهار؟

ـ يكفي أن ترى هذا المشهد لتنهار. انظر هناك إلى معدنك. ما رأيك فيه؟

قال بعد أن ألقى نظرة: إذا قرّرت في أيّ وقت إنهاء أعمالك بالسكّة الحديديّة والاستقالة، فأخبريني بذلك.

ـ هل ستمنحني وظيفة؟

ـ في أيّ وقت.

قالت بعد أن نظرت إليه زمنًا: أنت تمزح فحسب. أعتقد أنّك ترغب في ذلك، دعني أسألك عن وظيفة. تريدني موظّفة بدلًا من أن أكون أحد زبائنك، لكي تأمر وأنا أطيع.

ـ نعم. أودّ ذلك.

ردّت بجدّيّة: لا تترك تجارة الصلب، لأنّني لن أضمن لك فرصة عمل في خطوط السكّة الحديديّة.

ردّ ضاحكًا: لا تحاولي فعل ذلك.

ـ أحاول ماذا؟

ـ كسب أيّ معركة أحدّد شروطها.

لم تجبه. لقد صعقتها تلك الكلمات؛ لم تكن عاطفيّة، بل كان إحساسًا جسديًّا بالمتعة، إلى درجة أنّها لم تستطع تسميته أو فهمه.

قال: بالمناسبة، هذه ليست رحلتي الأولى. كنت هنا بالأمس.

ـ لماذا كنت هنا؟

ـ أوه، لقد أتيت إلى كولورادو في زيارة عمل، لهذا السبب انتهزت هذه الفرصة لكي ألقي نظرة على سير الأشغال هنا.

ـ ولماذا انتهزت الفرصة لتلقي نظرة على سير الأشغال؟

ـ لماذا تفترضين وجود غاية من وراء ذلك؟

ـ أنت لن تضيّع وقتك في إلقاء نظرة على سير الأشغال دون أن يحرّكك دافع مّا. ولاسيّما أنك فعلت ذلك أكثر من مرّة.

قال مشيرًا إلى الجسر: هذا صحيح، إنّ غايتي هي ذلك الجسر.

ـ ماذا عن الجسر؟

ـ هل هو جاهز لتلك الكومة من الخردة.

ـ هل تفترض أنّني لا أعلم ذلك؟

ـ لقد اطّلعت على مواصفات طلبك لأعضاء شركة ريردن بخصوص هذا الجسر. أنت تهدرين أموالك. إنّ الفرق قليل نسبيًّا بين ما تخطّطين لإنفاقه على تغيير مؤقّتٍ يدوم لبضع سنوات وتكلفةِ جسرٍ من معدن ريدين الجديد، ولا أفهم لماذا تصرّين على الاحتفاظ بالجسر القديم.

ـ لقد فكّرت في جسر من معدن ريردن الجديد. وطلبت من أحد المهندسين أن يعدّ تقريرا يقدّر فيه تكلفته.

ـ وماذا تقول تقديراته؟

ـ تقول إنّه سيكلّف مليوني دولار.

ـ يا إلهي!

ـ وما هي تقديراتك أنت؟

ـ ثماني مائة ألف فقط.

أخذت تنظر إليه. علمت أنّه لا يتحدّث البتّة من فراغ، ثمّ سألته وهي تحاول أن

تبدو هادئة:

ـ كيف ذلك؟

ـ مثل هذه التقديرات...

أظهر لها دفتر ملاحظاته. لقد شاهدت الرموز المنفصلة التي صنعها، والكثير من الأرقام، وبعض الرسومات التقريبيّة. ففهمت مخطّطه قبل أن ينتهي من شرحه. لم تلاحظ أنّهما كانا جالسين، بل وجالسين على كومة من الأخشاب المجمّدة، وأنّها كانت تضغط بساقيها على الألواح الخشنة حتّى أحسّت بالبرد يتسلّل إليها من خلال جورَبيها الرقيقين. وقد انحنيا معًا على دراسة عدد قليل من قصاصات الورق كانت تستطيع جعل شحن آلاف الأطنان أمرًا ممكنًا عبر مساحة فارغة. بدا صوته حادًّا وواضحًا، وهو يوضّح التوجّهات، والسحب، والأحمال، وضغوط الرياح. وكان من المفترض أن يكون الجسر امتدادًا واحدًا يبلغ طوله 1200 قدم. لقد ابتكر نوعًا جديدًا من دعامات البناء لم يُصنَع من قبل ولا يمكن صنعه إلّا بالعناصر التي تتمتّع بها في معدن ريدين من قوّة وخفّة.

سألته: هانك، هل اخترعت كلّ هذا في يومين؟

ـ قطعًا لا. لقد اخترعته قبل وقت طويل من حصولي على معدن ريردن. اكتشفت ذلك أثناء صنع الفولاذ للجسور. كنت أرغب في معدن يمكن للمرء من خلاله فِعلُ ذلك. جئت إلى هنا فقط لأرى شخصيًا مشكلتك الخاصّة.

وضحك، عندما رأى حركة يدها البطيئة من خلال نظرة عينيها وخطّ المرارة في فمها، كما لو أنّها كانت تحاول مسح الأشياء التي قاتلت ضدّها في مثل هذه المعركة المرهقة والمبهجة.

قال: هذا مجرّد مخطّط تقريبيّ، لكنّني أعتقد أنّك ترين ما يمكن فعله؟

ـ لا أستطيع أن أخبرك بكلّ ما أراه، يا هانك.

ـ لا يهمّ. أنا أعرف كلّ شيء.

ـ أنت تحاول، للمرّة الثانية، إنقاذ شركة تاجرت العابرة للقارّات.

ـ عَهِدْتُك عالمة نفس أفضل من هكذا بكثير.

ـ ماذا تعني؟

ـ لماذا يجب أن أهتمّ بإنقاذ شركة تاجارت؟ ألا تعلمين أنّي أريد أن يكون لديّ جسر من شركة ريردن للفولاذ كي أُظهره للبلد؟

ـ نعم يا هانك. أعلمُ ذلك.

ـ يوجد أشخاص كثيرون يقولون صارخين إنّ سكك شركة ريردن للفولاذ غير آمنة. لذلك عزمت على أن أقدّم لهم شيئًا حقيقيًّا ليكثر عواؤهم. دعيهم يَرَوا جسرًا من معدن ريردن.

نظرت إليه وضحكت بصوت عالٍ في فرحة خفيفة. ثمّ سألها:

ـ ومن هذا الذي يستطيع فِعْلَ ذلك؟

ـ لا أعرف أيّ شخص في العالم قد يفكّر في الردّ على الناس بمثل هذه الإجابة في مثل هذه الظروف باستثنائك أنت.

ـ وماذا عنك؟ هل تضمّين صوتك إلى صوتي لنواجه معًا كلّ هذا الصراخ؟

ـ أنت تعلم أنّني سأفعل ذلك بكلّ سرور.

ـ نعم. كنت أعلم ذلك.

نظر إليها. ولم يضحك كما فعلت، لكنّ النظرة كانت مكافأة. ثمّ تذكّرت فجأة اجتماعهما الأخير في الحفلة. لقد بدت مثل ذكرى لا تصدّق، وبالخصوص سهولة تواصلهما معًا، ذلك الشعور الغريب الخفيف، الذي عرفا من خلاله أنّه الشعور الوحيد الذي كان بسهولة لم يجدها أيّ منهما في أيّ مكان، و هو ما جعل فكرة العداء مستحيلة. لكنّها علمت أنّ أحداث الحفلة قد ولّت وأصبحت من الماضي؛ أمّا هو فكان يتصرّف وكأنّ الحفلة مازالت لم تنته بعد.

سارا معًا إلى حافّة الوادي. ونظرا معًا إلى ذلك المنحدر المظلم، وفي صعود الصخور التي خلفه، وفي أشعّة الشمس على حقول وايت للنفط. وقفت، وقدماها متباعدتان على الحجارة المجمّدة من الثلج، راسختان في الأرض بقوّة ضدّ الرياح. يمكنها أن تشعر بخطّ صدره خلف كتفها دون لمسه، وبالريح وهي تضرب معطفها على ساقيه.

ـ هانك، هل تعتقد أنّنا يمكن أن نشيّد الجسر في الوقت المناسب؟ لم تتبقّ سوى ستّة أشهر.

ـ بالتأكيد. سيستغرق وقتًا وعمالةً أقلّ من أيّ نوع آخر من الجسور. دعيني أطالب مهندسي بوضع المخطّط الأساسيّ وتقديمه لك. لا التزام من جانبك. ما عليك سوى إلقاء نظرة عليه ومعرفة ما إذا كنت ستتمكّنين من تبنّيه. ستفعلين ذلك حتمًا، ثمّ يمكنك السماح للأولاد في الكلّيّة بالحصول على التفاصيل.

ـ ماذا عن المعدن؟

ـ سيكون جاهزًا.

ـ هل ستحصل عليه في مدّة قصيرة جدًّا؟

ـ هل سبق لي أن أخلفت مواعيد طلبيّات أخرى؟

ـ لا. لكن الطريقة التي تسير بها الأمور في الوقت الحاضر، قد تضطرّك إلى الإخلال بالوعود.

– هل تعتقدين أنّك تتحدّثين إلى أورين بويل؟

قالت بعد أن ضحكت: حسنًا، دعني أحصل على الرسومات في أقرب وقت ممكن. سألقي نظرةً ثمّ أخبرك في غضون ثمانٍ وأربعين ساعةً. أمّا أبنائي في الكلّيّة، فقد..

توقّفت مبدية بعض التجهّم ثمّ أضافت:

ـ هانك، لماذا يصعب العثور على رجال صالحين للعمل في الوقت الحاضر؟

ـ لا أدري، لا أعلم...

نظر إلى خطوط الجبال المقطوعة عبر السماء. كانت هناك نُفاثة رقيقة من الدخان تتصاعد من وادٍ بعيد.

سألها: هل رأيت مدن كولورادو الجديدة ومصانعها؟

ـ نعم.

ـ إنّه لأمرٌ رائع، أليس كذلك؟ لنرَ نوع الرجال الذين اجتمعوا هنا من كلّ ركن من أركان البلاد. كلّهم صغار، كلّهم يبدؤون على جبال متقلّبة ومتحركّة.

ـ إلى أيّ جبل قرّرت التنقّل؟

ـ لماذا؟

ـ ماذا تفعل، إذَن، في كولورادو؟

ردّ مبتسمًا: أرغب في امتلاك بعض المناجم.

ـ أيّ نوع منها؟

ـ مناجم النحاس.

ـ يا إلهي، أليس لديك ما يكفي من أشغال؟

ـ أعلم أنّها مهمّة معقّدة. لكنّ إمدادات النحاس لم يعد يعوّل عليها مطلقًا. لا يبدو أنّه لم يبقَ في النشاط التجاري بهذا البلد سوى شركة واحدة من الدرجة الأولى، ولا أريد التعامل مع شركة دانكونيا للنحاس. أنا لا أثق في ذلك المستهتر.

ـ أنا لا ألومك.

ـ لذا إذا لم يبق أيّ شخص كفء لفعل ذلك، فسوف يتعيّن عليّ استخراج النحاس الخاصّ بي، فأنا سأعمل على تعدين خام الحديد الخاصّ بي. لا يمكنني تحمّل أيّ فرص للقبول بسبب كلّ هذه الإخفاقات والنقص. أحتاج إلى قدر كبير من النحاس

لمعدن ريردن.

ـ هل اشتريت المنجم؟

ـ ليس بعد. هناك بعض المشاكل يجب حلّها مثل الحصول على الرجال والمعدّات ووسائل النقل.

ضحكت ثمّ قالت: أوه...! وكأنّي بك تلمّح إليّ من خلال حديثك عن بناء خطّ فرعيّ آخر؟

ـ ربّما. لا حدَّ لما هو ممكن في هذه الحال. هل تعلمين أنّ لديهم كلّ نوع من أنواع الموارد الطبيعيّة التي تنتظرنا هنا دون مساس؟ والطريقة التي تنمو بها مصانعهم! أشعر أنّني أغدو أصغر بعشر سنوات كلّما جئت إلى هنا.

ـ أمّا أنا فلا.

كانت تنظر شرقًا، متجاوزة الجبال، ثمّ أضافت:

ـ أفكّر بالتباين في جميع أنحاء نظام شركة تاجارت. هناك بضائع قليلة للشحن، وحمولة قليلة تنتج في كلّ عام. يبدو الأمر كما لو... هانك، ما الخطأ في هذا البلد؟

ـ لا أدري، لا أعلم.

ـ مازلت أفكّر في ما أخبرونا به في المدرسة عن فقدان الشمس للطاقة وتزايد البرودة كلّ عام. أتذكّر أنّني كنت أتساءل: كيف ستكون الحال في آخر أيّام العالم. أعتقد أنّه سيكون... مثل هذا. تزايد البرودة وتوقّف الأشياء.

ـ لم أصدّق هذه القصّة قطُّ. كنت أعتقد أنّه عندما يحلّ وقت استنفاد الشمس، سيجد الناس بديلًا.

ـ أنت وجدت البدائل؟ إنّه لَأمرٌ مضحك. أعتقد ذلك أيضًا.

قال مشيرًا إلى عمود دخان: هناك سيكون شروقٌ جديدٌ لشمسك. سيغذّي ذلك الشروق بقيّة البشر.

ـ طبعًا، هذا إذا لم يتوقّف.

ـ هل تعتقدين أنّه يمكن إيقافه؟

قالت وهي تنظر إلى السكّة تحت قدميها: لا..

ابتسم ونظر إلى أسفل السكّة الحديديّة، ثمّ جال ببصره على طول المسار، وعلى جانبَي الجبال، ثمّ إلى الرافعة البعيدة. أمّا هي فرأت شيئين، خطوط ملامحه الشخصيّة والوتر المعدنيّ الأخضر المائل إلى الزرقة الملتفّ في الفضاء.

قال: لقد أنجزناه، أليس كذلك؟

الثمن الذي دفع مقابل كلّ جهدٍ، لكلّ ليلة بلا نوم، مقابل كلّ دفعة صامتة ضدّ اليأس، كانت ثمرته هذه اللحظة التي نَشَدَتْها.

قالت: نعم. لقد فعلنا ذلك.

نظرت بعيدًا، ولاحظت رافعة قديمة على أحد الجوانب، واعتقدت أنّ كابلاتها قد اهترأت وستحتاج إلى تغييرها: كان هذا الوضوح الكبير نتاج تجاوزها للعاطفة، بعد مكافأة الشعور بكلّ ما يمكن للمرء أن يشعر به. وفكّرت في إنجازهما، ولحظة الاعتراف به، وامتلاكه معًا. أيّ حميميّة أكبر من تلك يمكن للمرء أن يشارك فيها أحدًا؟ لقد أصبحت الآن حرّة من أبسط اهتمامات اللحظة وأكثرها شيوعًا، لأنّه لا شيء يمكن أن يكون بلا معنى في نظرها.

وتساءلت عمّا جعلها متأكّدة من أنّه يبادلها الشعور نفسه. ثمّ التفت فجأةً وهمّ بالسير نحو سيّارته. فتبعته. لم يتبادلا النظر.

قال: أنا مضطرّ إلى المغادرة نحو الشرق في غضون ساعة.

ـ أشارت إلى السيّارة. من أين حصلت على هذه؟

ـ هنا. إنّها من نوع هاموند، من إنتاج مصنع هاموند في كولورادو، هم الأشخاص الوحيدون الذين لا يزالون يصنعون سيّارات جيّدة. اشتريتها فقط قبل هذه

الرحلة..

ـ عمل رائع.

ـ نعم، أليس كذلك؟

ـ هل ستستقلّها إلى نيويورك؟

ـ لا. سأشحنها. لقد سافرت بطائرتي إلى هنا.

ـ أوه، هل فعلت ذلك؟ أمّا أنا فقد سافرت بالسيّارة إلى شايان، لقد كان عليّ أن أرى الخطّ، لكنّي حريصة على العودة إلى المنزل في أسرع وقت ممكن. هل ستأخذني معك؟ هل يمكنني أن أعود معك في الطائرة؟

لم يُجبها على الفور. فلاحظت برهةَ التوقّفِ الخالية من الإجابة. ثمّ قال:

ـ أنا آسف.

فتساءلت عمّا إذا كانت تتخيّل صوت المفاجأة في صوته، ثمّ استأنف الكلام:

ـ لست عائدًا إلى نيويورك. أنا ذاهب إلى مينيسوتا.

ـ حسنًا، سأحاول أن أستقلّ الطائرة إذا نجحت في العثور على واحدة اليوم.

شاهدت سيّارته تختفي في الطريق المتعرّجة. ثمّ توجّهت بسيّارتها إلى المطار بعد ساعةٍ. كان المكان عبارة عن حقل صغير وسط فجوة في سلسلة الجبال المهجورة. كانت هناك بقع من الثلج على الأرض الصلبة والمليئة بالحفر. وقف قطب منارة المطار على أحد جوانب الطريق، تبعته الأسلاك على الأرض. أمّا القطبان الآخران فقد دمّرتهما عاصفة.

جاء المشرف على المطار وحيدًا للقائها. فقال بأسف:

ـ لا يا آنسة تاجرت، لا تقلع أيّ طائرة من هنا إلّا بعد غدٍ. كما تعلمين، توجد طائرة واحدة عابرة للقارّات كلّ يومين. والطائرة التي كانت ستصل هذا اليوم حطّت رحالها في أريزونا. وتعطّلت كالعادة هناك بسبب مشكلة في المحرّك. من

المؤسف أنّك لم تصلي إلى هنا باكرًا. لقد أقلع السيّد ريردن إلى نيويورك، على متن طائرته الخاصّة.

ـ ريردن ليس متوجّها إلى نيويورك، أليس كذلك؟

ـ بلى، هو متوجّه، كما قال، إلى نيويورك.

ـ هل أنت متأكّد؟

ـ لقد قال لي إنّه على موعد هناك هذه الليلة.

نظرت إلى السماء باتّجاه الشرق دون معنًى وبلا حراك. لم تكن لديها أيّ فكرة عن السبب، لم يكن هناك موطئ قدم يهبها مبرّرا لما وقع، لا شيء يمكن أن تزن به ذلك الحدث أو تحاربه أو تفهمه.

***

قال جيمس تاجرت: اللعنة على هذه الشوارع! سوف نتأخّر..

نظرت داغني إلى الأمام وهي السّيارة خلف السَّائقِ. بعيدًا باتّجاه الأمام، كانت هناك بقعة ضوء لفانوس أحمر، منخفض على الأرض، يشير إلى علامة أشغال حفرٍ بالشارع.

قال تاجرت بغضبٍ: ثمّة خطأ مّا في هذا الشارع. لماذا لا يباشرون عمليّة إصلاحه؟

استندت داغني إلى المقعد، وشدّت طوق معطفها بإحكام. كانت تشعر بالإرهاق بعد نهاية يوم بدأته في مكتبها على الساعة السابعة صباحًا، يوم أرجأت فيه العمل دون أن تفرغ منه، واندفعت صوب المنزل لتغيير ملابسها، لأنّها وعدت جيمس بحضور محادثات موعد العشاء بمجلس أعمال نيويورك. قال جيمس:

ـ إنّهم يريدوننا أن نحدّثهم عن معدن ريردن. يمكنك أن تفعلي ذلك بشكل أفضل منّي بكثير. ومن المهمّ جدًّا أن نقدّم توضيحًا جيدًّا عن المسألة، فالجدل حول

هذا الموضوع متواصل.

جلست بجانب أخيها في سيّارته، وأعربت عن أسفها، لأنّها وافقت على حضور ذلك العشاء. نظرت إلى شوارع نيويورك وفكّرت في السباق بين المعدن والوقت، بين سكك خطّ ريونورتيي وتسارع الأيّام. فشعرت كما لو أنّ أعصابها قد اجتُثّت بإحكامٍ بسبب سكون السيّارة وتأنيب الضمير بفعل هدر الوقت هذا المساء.

قال تاجارت: مع كلّ ما يسمعه المرء في كلّ مكانٍ من هجمات على ريردن، أظنّ أنّه يحتاج إلى بعض الأصدقاء.

نظرت إليه بشكل لا يصدّق، ثمّ قالت:

ـ أتقصد أنّك تريد أن تقف إلى جانبه؟

لم يجب على الفور. ثمّ سألها بصوت حزين:

ـ تقرير اللجنة الخاصّة للمجلس الوطنيّ للصناعات المعدنيّة... ما رأيك فيه؟

ـ أنت تعرف موقفي..

ـ لقد قالوا إنّ معدن ريردن يمثّل تهديدًا للسلامة العامّة. وقالوا أيضًا إنّ تركيبته الكيميائيّة غير سليمة، وإنّها هشّة، وتتحلّل جزئيًّا، وسوف تنشطر فجأة دون سابق إنذار...

ثمّ توقّف عن الكلام، كما لو أنّه كان يتوسّل الحصول على إجابة، لكنّها لم تجبه، فسألها بقلقٍ:

ـ أنت لم تغيّري رأيك حول هذا الأمر، أليس كذلك؟

ـ عمّ تتحدّث؟

ـ عن هذا المعدن.

ـ لا يا جيم، لم أغيّر رأيي.

ـ على الرغم من ذلك، إنّهم خبراء... رجال تلك اللجنة.. كبار الخبراء... كبار

علماء المعادن لأكبر الشركات، مع سلسلة من الدرجات من الجامعات في جميع أنحاء البلاد...

قال ذلك وهو حزين كما لو أنّه يتوسّل إليها لتجعله يشكّ في قرار هؤلاء الرجال وحكمهم.

لقد كانت تراقبه في حيرة. لأنّه بدا على غير عادته.

اهتزّت السيّارة إلى الأمام. لقد تحرّكت ببطء من خلال فجوة في حاجز لوح، بعد فتحة المياه المكسورة الرئيسيّة. فرأت الأنبوب الجديد مكدّسًا عبر الحفريّات، يحمل علامة تجاريّة كتبت بالبنط العريض: مسبك ستوكتون، كولورادو. فنظرت بعيدًا، لقد كانت تتمنّى ألّا يذكّرها بكولورادو.

ـ قال تاجرت بشكل بائس: لا أستطيع أن أفهم ذلك... كبار خبراء المجلس الوطنيّ للصناعات المعدنيّة...

ـ من هو رئيس المجلس الوطني للصناعات المعدنيّة يا جيم؟ أليس أورين بويل؟

لم يلتفت إليها، ثمّ قال متشدّقا دون أن ينهي كلامه:

ـ إذا كان ذلك السمين الساذج يعتقد أنّه يستطيع..

نظرت إلى مصباح الشارع في الزاوية. كان عبارة عن كرة من الزجاج مملوءة بالضوء. كانت معلّقة، وآمنة من العاصفة، وتبدو أمام إضاءة النوافذ المغطّاة والأرصفة المتشقّقة مثل حارسها الوحيد. وفي نهاية الشارع، عبر النهر قبالة وهج أحد المصانع، رأت آثارا رقيقة لمحطّة كهرباء. مرّت شاحنة مخفيةً عرضها. كانت هذه الشاحنة هي التي تغذّي محطّة الطاقة، شاحنة تحمل صهريجًا، بطلاء أخضر جديد مشرق لا يصدأ، كتب عليها بحروف بيضاء: حقول وايت للنفط، كولورادو.

ـ داغني، هل سمعت عن هذه المناقشة في اجتماع نقابة عمّال الصلب الهيكليّ في ديترويت؟

ـ لا. ما هو موضوع النقاش؟

ـ هو منشور في جميع الصحف. لقد ناقشوا ما إذا كان يجب السماح لأعضائهم بالعمل في شركة ريردن أم لا. ولم يتوصّلوا إلى قرار، لكنّ هذا بدا كافيًا للمقاول الذي كان سيغتنم فرصة على حساب شركة ريردن فألغى طلبيّته ولكن بسرعة! ماذا لو... ماذا لو قرّر الجميع ذلك؟

ـ دعهم يفعلوا ذلك.

كانت هناك نقطة ضوء ترتفع في خطّ مستقيم إلى أعلى برج غير مرئيّ. لقد كان مصعد فندق عظيم. تجاوزت السيّارة زقاق المبنى. وكان الرجال ينقلون قطعة ثقيلة من المعدّات من شاحنة إلى الطابق السفليّ. شاهدت الاسم وقد كتب على الصندوق: نيلسن للمحرّكات، كولورادو.

قال تاجارت: لا أحبّ هذا القرار الذي مرّرته جمعيّة معلّمي المدارس الابتدائيّة في نيو مكسيكو.

ـ ما مضمون هذا القرار؟

ـ لقد توصّلوا إلى أنّ موقفهم النهائيّ هو عدم السماح للأطفال بركوب قطار خطّ ريونورتي الجديد لشركة تاجارت العابرة للقارّات عند اكتماله، لأنّه غير آمن. ونشر في جميع الصحف. إنّها دعاية رهيبة ضدّنا، يا داغني، ماذا يمكننا أن نفعل للردّ عليهم؟

ـ أطلق أوّل قطار على خطّ ريونورتي الجديد.

بقي صامتًا لفترة طويلة. كان مكتئبًا على نحو غريب. لم تستطع فهم ذلك: لم يتبجّح أو يشمت كعادته، ولم يستخدم آراء سلطاته المفضّلة ضدّها، كان يبدو مثل من يستنجد بالطمأنينة.

مرّت سيّارة من أمامها، سيّارة فارهة تسير في حركة سلسة وواثقة. لقد تعرّفت على نوعها: هاموند، كولورادو.

قال بصوت تفوح منه رائحة الخوف: داغني، هل سنبني هذا الخطّ في الوقت

المحدّد؟

أجابت داغني: يا ربّ، إذا عجزنا عن بناء هذا الخطّ فساعد هذه المدينة!

تحوّلت السيّارة إلى زاوية. فوق أسطح المدينة المظلمة شاهدت صفحة التقويم، مصابة بوهج الضوء الأبيض تشير إلى: 29 يناير.

ـ دان كونواي نذل!

انفلتت الكلمات فجأة، وكأنّه لم يعد يستطيع الاحتفاظ بها.

ـ نظرت إليه بحيرة: لماذا؟

ـ لقد رفض بيع مسار كولورادو لشركة فينيكس ـ دورانجو.

ـ أنت لم...

توقّفت عن الكلام. ثمّ استأنفت الحديث بصوت باهت حتّى لا تصرخ:

ـ أنت لم تتقرّب منه ليفعل ذلك؟

ـ بالعكس، لقد حاولت بكلّ السبل!

ـ لم تتوقّع منه... أن يبيعك إيّاها؟

ـ لمَ لا؟

عاد إلى أسلوبه العدوانيّ الهستيريّ، ثمّ أضاف:

ـ لقد قدّمت له عرضًا مُجزيًا أكثر من أيّ شخص آخر. ما كنّا سنتكبّد تكاليف انتزاعها ونقلها، يمكننا استخدامها كما هي. وكان من الممكن أن تكون دعاية رائعة لنا، لو تخلّينا عن مسار معدن ريردن احترامًا للرأي العامّ. مسار كولورادو يستحقّ كلّ مليم يصرف عليه بحسن نيّة! لكنّ ابن العاهرة رفض. لقد أعلن صراحة أنّه لن يبيع شركةَ تاجارت العابرة للقارّات أيَّ شبر من السكك الحديديّة. إنّه سيبيعها بالتقسيط إلى أيّ قادم طائش، أو إلى شركة الجواد للسكك الحديديّة في أركنساس أو داكوتا الشماليّة. سيبيعها هذا الوغد بسعر أقلّ بكثير ممّا عرضته عليه! لا يريد حتّى

جني الأرباح! سترين يا داغني كيف ستنقضّ عليه تلك النسور! فهُم يعلمون أنّه لن تتاح لهم أبدًا فرصة للحصول على السكك الحديديّة في أيّ مكان آخر!

جلست منحنية الرأس. لم تستطع تحمّل النظر إليه.

ـ قال بغضب: أعتقد أنّها تتعارض مع أهداف (قاعدة مكافحة أكل الكلب للكلب)، أظنّ أنّ القصد من التحالف الوطنيّ للسكك الحديديّة هو حماية الأنظمة الأساسيّة، وليس الحفاظ على المياه النقيّة في داكوتا الشماليّة. ولكن لا يمكنني أن أجعل الحلف يصوّت عليه الآن، لأنّهم جميعًا في القاع يتنافسون فيما بينهم من أجل الظفر بهذه الشركة!

قالت بهدوءٍ، كما لو أنّها رغبت في ارتداء قفّازين للتعامل مع الكلمات:

ـ الآن فقط فهمت لماذا تريدُني أن أدافع عن معدن ريردن.

ـ أنا لا أعلم ما أنت...

ـ قاطعته بهدوء: اخرس يا جيم.

بقي صامتًا لحظةً. ثمّ سحب رأسه إلى الخلف وعدّل في جلسته وخاطبها بتحدٍّ:

ـ من الأفضل أن تدافعي باستماتة عن معدن ريردن، لأنّ بيرترام سكودر يمكن أن يُظهر سخريّة كبيرة.

ـ بيرترام سكودر؟

ـ سيكون أحد المتحدّثين الليلة.

ـ أحد... لم تخبرني أنّه سيكون هناك متحدّثون آخرون..

ـحسنًا... أنا... ما الفرق الذي سيحدثه ذلك؟ أنت لا تخافينه، أليس كذلك؟

ـ مجلس الأعمال في نيويورك... وأنت تدعو بيرترام سكودر؟

ـ لِمَ لا؟ ألا تعتقدين أنّه ذكيّ؟ لا يملك مشاعر عنيفة تجاه رجال الأعمال. لقد قبل الدعوة. نريد أن نكون منفتحين ونسمع كلّ الأطراف ولعلّنا نكسبه... حسنًا، ما

الذي تحدّقين إليه؟ ستتمكّنين من هزمه، أليس كذلك؟

ـ ... هزمه؟

ـ سيكون هناك بثّ إذاعيّ على الهواء مباشرة. ستناقشين معه السؤال الآتي: هل معدن ريردن منتج قاتل للجشع؟

انحنت إلى الأمام. سحبت الجزء الزجاجيّ من المقعد الأماميّ، ثمّ قالت:

ـ أوقف السيّارة!

لم تكن تسمع مَا يقوله تاجارت. لاحظت بغموض أنّ صوته ارتفع فصرخ قائلًا:

ـ إنّهم ينتظرون! خمسمائة شخص سيحضرون العشاء، وارتباطات وطنيّة!.. لا يمكنك أن تتخلّي عنّي في هذه اللحظة!

أمسك بذراعها وصرخ مجدّدا: لكن لماذا؟

ـ أيّها الأحمق، هل تعتقد أنّني أعتبر سؤالهم قابلًا للنقاش؟

توقّفت السيّارة، نزلت منها وركضت.

أوّل شيء لاحظته بعد فترة، كان نَعْلَيها. مَشَت ببطء، وكان من الغريب أن تشعر بالحجر المثلّج تحت بطانة نعلها التي قُدَّت من صقيل الساتان الأسود. دفعت شعرها إلى الوراء بعيدا عن جبهتها، وشعرت بقطرات من المطر تسيح على راحة يدها.

بدت هادئة الآن. لقد زال الغضب الأعمى. لم تشعر بشيء سوى الإرهاق وقليل من الوجع في رأسها، أدركت أنّها جائعة وتذكّرت أنّها كانت ستتناول العشاء في مجلس الأعمال. لكنّها استمرّت في المشي، لم ترغب في الأكل. كانت تظنّ أنّها ستحصل على فنجان قهوة في مكان مّا، ثمّ تأخذ بعد ذلك سيّارة أجرة إلى المنزل.

ألقت نظرة خاطفة حولها. لم تكن هناك سيّارات أجرة في الأفق. ولم تعرف الحيّ، ثمّ إنّه لا يبدو من الأحياء الجيّدة. رأت مساحة فارغة عبر الشارع، كان متنزّهًا مهجورا يحيط به خطّ متعرّج بدأ بناطحات السحاب البعيدة ونزل إلى مداخن المصانع؛

شاهدت بعض الأضواء في نوافذ المنازل المتهالكة، وبعض المتاجر الصغيرة مغلقةً بسبب حلول الليل، وضباب النهر الشرقيّ على بعد مبنيَين.

عادت نحو وسط المدينة. ارتفع الشكل الأسود للخراب أمامها. كان مبنى إداريًّا منذ فترة طويلة. شاهدت السماء من خلال الهيكل العاري للفولاذ وبقايا الطوب التي انهارت. في ظلّ الخراب، مثل ورقات عشبٍ تقاتل للعيش في جذور عملاق ميّت، كان هناك مطعم صغير. بدت نوافذه شريطًا مشرقًا من الزجاج والضوء. دخلته.

في الداخل، كانت هناك منضدة نظيفة، مع شريط لامع من الكروم عند الحوافّ، بالإضافة إلى غلّاية معدنيّة مشرقة تفوح منها رائحة القهوة. جلس عدد قليل من المهجّرين المنبوذين من المجتمع أمام المنضدة، ووقف خلفها رجلٌ مسنّ لفّ كُمَّي قميصه الأبيضين النظيفين إلى المرفقين. جعلها هواء المكان الدافئ تدرك، في امتنان بسيط، أنّها كانت باردة. سحبت برنسها المخمليّ الأسود بإحكام حولها وجلست على المنضدة.

قالت: من فضلك، فنجان قهوة.

نظر الرجال إليها دون فضول. لم يندهشوا عندما رأوا امرأة ترتدي ملابس سهرةٍ وتدخل أحد المطاعم الفقيرة. لا شيء يدهش أحدًا هذه الأيّام. التفت مالك المطعم بشكل غير ملائم لتسجيل طلبها؛ لقد كان هناك، في خضمّ تلك اللامبالاة البليدة، نوع من الرحمة التي لا تطرح أيّ أسئلة.

لم تستطع معرفة ما إذا كان الرجال الأربعة الجالسون أمام المنضدة متسوّلين أم عمّالًا؛ فلا الملابس ولا الطريقة تظهر الفرق في هذه الأيّام. وضع المالك كوبًا من القهوة أمامها. فأغلقت كلتا يديها حولها، ووجدت المتعة في دفئها.

ألقت نظرة من حولها، ثمّ سرحت تفكّر في الحسابات المهنيّة المعتادة. ما أروعَ شعور المرء بأنّ في وسعه أن يشتري أشياء كثيرة بقليل من المال. انتقلت عيناها من

أسطوانة الفولاذ الذي يقاوم الصدأ في غلّاية القهوة إلى صينيّة الحديد الزهريّة، والرفوف الزجاجيّة، والحوض المطليّ بالمنيا، وشفرات الكروم في الخلّاط. كان المالك يعدّ الخبز المحمّص. لقد وجدت متعة في مشاهدة براعة حزام مفتوح يتحرّك ببطء، ويحمل شرائح من الخبز لتمرّ عبر لفائف كهربائيّة متوهّجة. ثمّ رأت الاسم مختومًا على محمّصة الخبز: مارش، كولورادو.

انحنى رأسها على ذراعها فوق المنضدة.

قال متسوّل عجوز كان جالسا بجانبها: لا فائدة تذكر يا سيّدتي.

كان عليها أن ترفع رأسها، وأن تبتسم أيضًا لتُظهِر بعض التسلية أمامه وأمام نفسها.

سألته: أليس كذلك؟

ـ لا. انسي الأمر. أنت فقط تخدعين نفسك.

ـ بمَ أخدع نفسي؟

ـ الانخداع بأيّ شيء يستحقّ اللعنة. إنّه غبار يا سيّدتي، كلّ ذلك غبارٌ ودمٌ. لا تصدّقي الأحلام التي يحشرونها في عقولكم، فلن يمسسكم أيّ ضرر.

ـ عن أيّ أحلام تتحدّث؟

ـ القصص التي أخبروك عنها عندما كنت صغيرة، قصص الروح البشريّة. لا توجد أيّ روح بشريّة. الإنسان مجرّد حيوان دنيء لا فكر له، ولا روح، ولا فضائل أو قيما أخلاقيّة. إنّه حيوان يسعى إلى هدفين لا غير: الأكل والتكاثر.

بسبب وجهه الهزيل والعينين الجاحظتين كان يبدو مثل الهيكل المبشّر أو أستاذ علم الجمال الذي قضّى سنوات في تأمّل المتاحف الغامضة. وتساءلت عمّا دمّره، وأيّ خطإٍ في الطريق جلب الرجل إلى مثل ذلك الاستنتاج.

قال: تعيش الحياة وأنت تبحث عن الجمال والعظمة وبعض الإنجازات السامية.

فماذا تجد؟ تجد الكثير من الآلات التي تصنع السيّارات المنجّدة أو مراتب النوابض الداخليّة.

ـ ما الخطأ في مراتب النوابض الداخليّة؟

قال رجل يشبه سائق الشاحنة: اعذريه سيّدتي، فهو يحبّ أن يسمع نفسه يتحدّث. ولا يقصد أيّ ضرر.

قال المتسوّل العجوز: موهبة الإنسان الوحيدة هي مكر خبيث لتلبية احتياجات جسده. ولا يُطلَب في ذلك ذكاء. لا تصدّقي القصص التي تتحدّث عن عقل الإنسان وروحه ومُثُله العليا وإحساسه بالطموح اللّامحدود.

قال صبيّ صغير جلس عند نهاية المنضدة: أنا لا أصدّق تلك القصص.

كان يرتدي معطفًا ممزّقا عند إحدى كتفيه. يبدو أنّ فمه العريض قد تشكّل من مرارة العمر.

قال المتسوّل العجوز: الروح؟ لا توجد روح تشارك في التصنيع أو في الجنس. ولكن هذه هي هموم الإنسان الوحيدة. المادّة هي كلّ ما يعرفه البشر أو يهتمّون به. بوصفي شاهدًا على صناعاتنا العظيمة - الإنجاز الوحيد لحضارتنا المزعومة- التي بناها المادّيون المبتذلون بالأهداف والمصالح ومعنى الأخلاق عند الخنازير، فإنّ الأمر لا يتطلّب أيّ أخلاق لتشغيل شاحنة بعشرة أطنان على خطّ التجميع.

سألته: ما هي الأخلاق؟

ـ تمييز الصواب من الخطإ، واستبصار الحقيقة، وشجاعة التصرّف بناءً عليها، والتفاني في ما هو جيّد، والاستقامة في الوقوف إلى جانب الخير مهما كان الثمن. ولكن أين يجدها المرء؟

أصدر الصبيّ صوتًا يختلط فيه الضحك بالاستهزاء: من هو جون جالت؟

ارتشفت القهوة، دون أن تكترث لأيّ شيء سوى متعة الشعور كما لو أنّ ذلك السائل الساخن كان ينعش شرايين جسدها.

قال المتسوّل الصغير الشاحب الذي يرتدي قبّعة تتدلّى فوق عينيه: أستطيع أن أخبركم. فأنا أعرف جون جالت.

لم يسمعه أو يكترث أحد لما قاله. كان الصبيّ ينظر إلى داغني بنوع من العنف الذي لا يحرّكه أيّ هدف.

قال لها فجأة دون تفسير وبصوت صاخب تعوزه الحياة: أنت لست خائفة، أليس كذلك؟

قالت: لا، لست كذلك.

ردّ المتسوّل: أعرف من هو جون جالت. إنّه سرّ، لكنّني أعرفه.

سألته غير مبالية: من يكون جون جالت؟

قال المتسوّل: إنّه مستكشف. أعظم مستكشف عاش على الإطلاق. إنّه الرجل الذي وقع على ينبوع الشباب.

طلب كوبا آخر، ثمّ أضاف:

ـ أمضى جون جالت سنوات عديدة وهو يبحث عنه في المحيطات والصحاري، ونزل إلى مناجم منسيّة على بعد أميال تحت الأرض. لكنّه وجده في أعلى قمّة جبل. لقد استغرق منه تسلّق هذا الجبل عشر سنوات. كسر كلّ عظم في جسده، ومزّق بشرة يديه، وخسر منزله، وفرّط في سمعته وحبّه. لكنّه تسلّقه. فوقع على ينبوع الشباب، ثمّ أراد أن يأتي به إلى الناس في الأسفل لكنّه لم يعد.

سألته: لماذا لم يعد؟

ـ لأنّ هذا الينبوع لا يمكن إنزاله.

***

كانت للرجل الذي يجلس أمام مكتب ريردن ملامح غامضة وأسلوب خالٍ من التركيز، على نحوٍ لا يمكن معه للمرء أن يشكّل صورة محدّدة عن ملامح وجهه أو

يكتشف الدافع الذي يحرّك شخصيّته. وبدا أنّ هناك علامة وحيدة تميّزه هي أنفه المنتفخ، والكبير جدًّا بالمقارنة مع بقيّة البشر. لقد كانت تصرّفاته وديعة، لكنّ فيها تلميحًا استفزازيًّا، تلميح التهديد الذي بقي متعمّدًا، لكنّه كان يعتزم الاعتراف به. لم يفهم ريردن الغرض من زيارته. لقد كان الزائر هو الدكتور بوتر، الذي شغل منصبًا غير محدّد في معهد الدولة للعلوم.

سأله ريردن للمرّة الثالثة: ماذا تريد؟

قال الرجل بهدوءٍ: إنّما أطلب منك التفكير في الجانب الاجتماعيّ يا سيّد ريردن. أحثّكم على التفكير في العصر الذي نعيش فيه. إنّ اقتصادنا غير جاهز لذلك.

ـ لأيّ شيء هو غير جاهز؟

ـ إنّ اقتصادنا في حالة توازن هشّ جدًّا. علينا جميعًا أن نكثّف جهودنا لإنقاذه من الانهيار.

ـ حسنًا، ماذا تريد منّي أن أفعل؟

ـ هذه هي الاعتبارات التي طُلب منّي توجيه انتباهكم إليها. أنا من معهد علوم الدولة.

ـ لقد قلت ذلك من قبل. ولكن لماذا كنت ترغب في لقائي؟

ـ معهد الدولة للعلوم لا يؤيّد معدن ريردن.

ـ لقد قلت ذلك أيضًا.

ـ أليس هذا عاملًا يجب أن تأخذه بعين الاعتبار؟

ـ لا.

كان الضوء يزداد عتمة في نوافذ المكتب العريضة. لقد كان النهار قصيرًا. فرأى ريردن ظلّ الأنف غير السويّ على خدّ الرجل، وعينيه الشاحبتين تراقبانه. بَدَت اللمحة غامضة، ولكنّ وجهته هادفة.

ـ يمثّل معهد علوم الدولة أفضل المعاهد في البلاد.

ـ هذا ما قيل لي.

ـ من المؤكّد أنّك لا تريد وضع حكمك ضدّ حكمهم؟

ـ أنا سأفعل ذلك.

نظر الرجل إلى ريردن كما لو أنّه يتوسّل الحصول على المساعدة، أو كأنّ ريردن كان قد كسر رمزًا غير مكتوب استوجب عليه فهمه منذ فترة طويلة. لكنّه لم يقدّم أيّ مساعدة.

سأله: هل هذا كلّ ما تريد معرفته؟

قال الرجل بهدوء: إنّها مسألة وقت لا غير. مجرّد تأخير مؤقّت فقط لمنح اقتصادنا فرصة لتحقيق الاستقرار. لو أنّ بإمكانك أن تنتظر سنتين فقط.

ـ ضحك ريردن بمرح وازدراء، ثمّ قال:

ـ إذَن هذا كلّ ما تريده؟ تريد منّي أن أخرج المعدن من السوق، ولكن لماذا؟

ـ فقط لبضع سنوات. فقط حتّى..

قال ريردن: انظر، الآن سأطرح عليك سؤالًا: هل قرّر علماؤك أنّ معدن ريردن ليس جيّدًا كما أزعم؟

ـ نحن لم نلزم أنفسنا بذلك.

ـ هل وجدوا ذلك أمرًا سيّئا؟

ـ ما يجب مراعاته هو ما يحقّقه المنتج من أثر على المجتمع. نحن نفكّر في البلد ككلّ، نحن نهتمّ بالصالح العامّ والأزمة الرهيبة في الوقت الحاضر، والتي...

ـ هل معدن ريردن جيّد أم لا؟

ـ إذا نظرنا إلى المسألة من زاوية ما يشهده عدد المعطّلين عن العمل من ارتفاع مقلقٍ، وهو في الوقت الحاضر...

ـ هل معدن ريدين جيّد؟

ـ في الوقت الذي يتراجع فيه إنتاج الصلب بشكل حادّ، فإنّه لا يمكننا أن نسمح بتوسيع شركة الصلب التي تنتج الكثير، لأنّها قد تتخلّص من الشركات التي تنتج القليل جدًّا، وبذلك تخلق اقتصادًا غير متوازن، والذي من جهته...

ـ هلّا أجبتَ على سؤالي.

تجاهل الرجل السؤال وواصل حديثه قائلا:

ـ أسئلة القيمة نسبيّة. إذا لم يكن معدن ريردن جيّدا، فهذا سيمثّل خطرًا مادّيًّا على الشعب. أمّا إذا كان جيّدًا فانّه سيمثّل خطرًا اجتماعيًّا.

ـ إذا كنت تملك أدلّة تبرهن على الخطر المادّيّ لمعدن ريردن، فهاتِها ودعك من البروباغندا، فأنا لا أتحدّث تلك اللغة.

ـ ولكن، ثمّة مسألة تتعلّق بالرفاه الاجتماعيّ.

ـ دعك منها.

كان الرجل يبدو محتارا وضائعا، كما لو أنّ الأرض مادت من تحت قَدَمَيْه. فسأله في لحظة عجز:

ـ ولكن ما الذي يقلقك في الأصل؟

ـ السوق.

ـ وماذا تعني بذلك؟

ـ توجد سوق لمعدن ريردن وأعتزم الاستفادة منها بشكلٍ تامٍّ.

ـ أليست هذه السوق افتراضيّة إلى حدّ مّا؟ لم تكن استجابة عموم الناس لمعدنك مشجّعة. فباستثناء الطلب الصادر عن شركة تاجرت العابرة للقارّات، فإنّك لم تحصل على طلبات أخرى.

ـ حسنًا، إذا كنت تعتقد أنّ عامّة الناس لن يطلبوا معدني، فما الذي يقلقك في هذا

الموضوع؟

ـ إذا لم يقبل الناس على معدنك، فإنّك ستتكبّد خسارة فادحة.

ـ هذا ليس همّك.

ـ لكن حين ستتبنّى موقفا أكثر تعاونًا وتوافق على الانتظار لبضع سنوات.

ـ لماذا يجب عليَّ أن أنتظر؟

ـ لكن أعتقد أنّي أوضحت أنّ معهد الدولة للعلوم لا يوافق على ظهور معدن ريردن في المشهد المعدنيّ وبالخصوص في الوقت الحاضر.

ـ لماذا يجب أن أهتمّ بذلك؟

تنهّد الرجل ثمّ قال: أنت رجل صعب المراس جدًّا.

في وقت متأخّر من فترة ما بعد الظهر كانت السماء تزداد ثقلًا، كما لو أنّها استعارت سُمكَ زجاج النوافذ. ويبدو أنّ الخطوط العريضة التي تميّز شكل الرجل أخذت تتلاشى مثل فقاقيع بين أسطح الأثاث الحادّة والمستقيمة.

قال ريردن: ضربت لك هذا الموعد، لأنّك أخبرتني برغبتك في مناقشة شيء بالغ الأهمّيّة. إذا كان هذا هو كلّ ما تودّ قوله، فأرجو أن تعذرني الآن. فأنا مشغول جدًّا.

استرخى الرجل على كرسيّه، ثمّ قال:

ـ أعتقد أنّك قضّيت عشر سنوات من البحث لاكتشاف معدن ريردن. كم كلّفك هذا الاكتشاف؟

نظر ريردن إلى أعلى، لم يستطع فهم سبب انزلاق ذلك السؤال، ولكن كان في صوت الرجل هدفٌ غير مقنع، وكان الصوت قاسيًا.

قال ريردن: مليون دولار ونصفا.

ـ وكم تريد أن تقبض ثمنًا مقابل هذا الاكتشاف؟

كان على ريردن أن يترك لحظة تمضي. لم يكن يصدّق ما سمعه. ثمّ سأله بصوت

منخفض:

ـ ثمن ماذا؟

ـ ثمن جميع حقوق براءة اكتشاف معدن ريردن.

ـ أعتقد أنّ من الأفضل لك أن تخرج من هنا.

ـ لا يوجد داعٍ إلى مثل هذا الموقف. أنت رجل أعمال وأنا أطرح عليك عرضَ عملٍ. يمكنك أن تحدّد ثمنًا لجميع حقوق هذا الاكتشاف.

ـ إنّ حقوق معدن ريردن ليست للبيع.

ـ أنا في وضع يسمح لي بالحديث عن مبالغ كبيرة من المال. أموال الحكومة.

جلس ريردن دون حراك، كان يحسّ بِشَدٍّ عضليٍّ في خدّيه. لكنّ نظرته بدَت غير مبالية، وركّزت فقط على ما في فضول القاتل من جذبٍ خافتٍ.

ـ أنت رجل أعمال يا سيّد ريردن. هذا اقتراح لا يمكنك تجاهله. فأنت، من ناحية، تقامر ضدّ صعاب كبيرة، إذ تواجه رأيًا عامّا قويّا، وأمامك فرصة جيّدة لخسارة كلّ قرش صرفته في معدن ريردن. ومن ناحية أخرى، يمكننا أن نريحك من المخاطر والمسؤوليّة بربح مثير للإعجاب، ربحٍ فوريّ أكبر بكثير ممّا يمكن أن تأمل في تحقيقه من بيع المعدن للسنوات العشرين القادمة.

ـ معهد علوم الدولة مؤسّسة علميّة، وليس مؤسّسة تجاريّة. فما الذي تخشَوْنه؟

ـ أنت تستخدم كلمات قبيحة وغير ضروريّة. أقترح أن نناقش هذا الموضوع بشكل وديّ، لأنّه في غاية الخطورة.

ـ لقد بدأت أستوعب ذلك.

ـ بما أنّك تستوعب المسألة، فنحن نعرض عليك شيكًا على بياض لحساب غير محدود بإمكانك تقريره. ماذا تريد أيضًا؟ حدّد فقط المبلغ الذي تريده.

ـ بيع حقوق معدن ريردن ليس للنقاش. إذا كان لديك أيّ شيء آخر لتقوله،

فقله، ثمّ انصرف.

انحنى الرجل إلى الخلف، ونظر إلى ريردن بشكل لا يصدّق وسأله:

ـ ما غايتك من وراء كلّ هذا؟

ـ ما غايتي أنا؟ ماذا تعني؟

ـ أنت تعمل في التجارة لكسب المال، أليس كذلك؟

ـ طبعًا.

ـ تريد تحقيق أكبر ربح ممكن، أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد.

ـ إذَن، لماذا تريد النضال لسنوات، والضغط على مكاسبك في شكل بنسات للطن الواحد، بدلًا من موافقتك على جني ثروة من معدن ريردن؟ لماذا؟

ـ لأنّه ملكي. هل تفهم الكلمة؟

قال الرجل بعد أن أطلق تنهيدةً: آمل ألّا تندم على هذا العرض.

قال ريردن: طاب يومك.

ـ أعتقد أنّ عليّ إخبارك بأنّ معهد الدولة للعلوم قد يصدر بيانًا رسميًا يدين معدن ريردن.

ـ هذا هو امتيازهم الوحيد.

ـ مثل هذا البيان سيعقّد عليك الأمور أكثر.

ـ هذا ممّا لا شك فيه.

ـ في خصوص عواقب أخرى... هذا ليس عصر الأشخاص الذين يرفضون التعاون. هذا عصر يحتاج فيه المرء إلى الأصدقاء. أنت لست رجلًا مشهورًا.

ـ ما الذي تحاول التلميح إليه؟

ـ أنت تدرك ما أُلّمح إليه.

ـ لا.

ـ إنّ المجتمع بنية معقّدة. ثمّة قضايا مختلفة عديدة تتواشج بخيطٍ رفيع وتنتظر قرارك. لا يمكننا أبدًا معرفة متى يمكن البتّ في إحدى هذه القضايا وما هو العامل الحاسم في التوازن الدقيق. هل فهمت فكرتي؟

ـ لا.

انطلقت شعلة حمراء من الفولاذ. فانعكس توهّجٌ برتقاليّ في الجدار خلف مكتب ريردن. ثمّ انتقل بَريق التوهّج برفقٍ عبر جبهته. كان وجهه يتّسم بالهدوء والسكينة.

ـ معهد علوم الدولة منظّمة حكوميّة. في الهيئة التشريعيّة مشاريع قوانين معلّقة، ويمكن تمريرها في أيّ لحظة. رجال الأعمال ضعفاء بشكل كبير هذه الأيّام. أنا متأكّد من أنّك تفهمني.

نهض ريردن بقدمين ثابتتين. كان يبتسم، بدا وكأنّ التوتّر كلّه قد زال، ثمّ قال:

ـ لم أفهم شيئا، يا دكتور بوتر. ولو أنّي استوعبت ذلك، لكنت قتلتك.

مشى الرجل باتّجاه الباب، ثمّ توقّف ونظر إلى ريردن نظرة فضولٍ. وقف ريردن بلا حراك يواجه التوهّج المتحرّك على الحائط؛ وقف عَرَضًا ويداه في جيبيَه.

سأل الرجل: هل ستعترف، ولو بيني وبينك، بأنّه مجرّد فضول شخصيّ؟ لماذا لا تفعل ذلك؟

ـ أجاب ريردن بهدوء: سأعترف لك، لكن لن تفهموا. إنّ معدن ريردن جيّد.

***

لم تستطع داغني فهم دوافع السيّد موين. لقد أعلنت شركة مفاتيح التبديل والإشارات المندمجة فجأةً أنّها لن تكمل طلبها. لم يحدث شيء، ولم تجد مبرّرًا لذلك ولم يقدّموا أيّ تعليل.

فسارعت إلى ولاية كونيتيكت لرؤية السيّد موين شخصيًّا، لكن نتيجة المقابلة لم تكن مرضيّة، بل عمّقت من حيرتها. لقد ذكر السيّد موين أنّه لن يستمرّ في عمل مفاتيح من معدن ريردن. ثمّ قال معلّلًا هذا القرار:

ـ الكثير من الناس لا يحبّونه.

ـ ما الذي لا يحبّونه؟ أَهُو معدن ريردن أم صنع المفاتيح؟

ـ كِليهما، أعتقد أنّ الناس لا يحبّون ذلك، لا أريد أيّ متاعب.

ـ أيُّ نوع من المتاعب؟

ـ أيّ نوع.

ـ هل سمعت شيئًا واحدًا يدين معدن ريردن وكان على صواب؟

ـ عذرًا، من يعرف ما هو الصواب؟... قرار المجلس الوطنيّ للصناعات المعدنيّة قال:...

ـ اسمع، لقد اشتغلت في مجال المعادن طوال حياتك. واشتغلت على معدن ريردن في الأشهر الأربعة الماضية. ألا تعرف أنّه أعظم شيء تعاملت معه على الإطلاق؟

لم يجبها. ثمّ أضافت:

ـ ألا تعرف ذلك؟ ألا تعرف ما هو الصواب؟

ـ ما هذا الجحيم، أنا مجرّد شابّ، أريد فقط كسب المال.

ـ كيف تعتقد أنّ المرء يقدر على كسب المال؟

لكنّها علمت أنّ سؤالها كان بلا جدوى. وبالنظر إلى وجه السيّد موين، وفي العينين اللتين لم تستطع التقاطهما، انتابها الإحساس ذاته الذي راودها ذات مرّة في قسم وحيد من المسار، عندما فجّرت عاصفة أسلاك الهاتف، فقطعت الاتّصالات وأصبحت الكلمات أصواتًا لا تنقل أيّ شيء.

وقالت في نفسها: إنّه من غير المجدي أن نفتح نقاشًا مع الأشخاص الذين لا

يقدرون على دحض حجّة أو قبولها. ثمّ جلست غير مرتاحةٍ في قطار العودة إلى نيويورك، وأخبرت نفسها بأنّ أمر السيّد موين لم يعد مهمًّا، لا شيء يهمّ الآن، باستثناء العثور على شخص آخر لتصنيع المفاتيح. كانت تتصارع مع قائمة من الأسماء في ذهنها متسائلةً عمّن سيكون من الأسهل إقناعه أو التودّد إليه أو رشوته.

أثناء الدخول إلى مكتبها أحسّت أنّ شيئًا مّا قد حدث. لقد شاهدت سكونًا غير طبيعيّ، وكان الموظّفون يتحوّلون إليها بوجوههم كما لو أنّ دخولها هو اللحظة التي ينتظرها الجميع، اللحظة التي كانوا يأملون فيها ويهابونها في الآن ذاته.

حثّ إيدي ويلرز قدمَيه وبدأ يسير باتّجاه باب مكتبها، وكأنّه على علمٍ بأنّها ستفهم وتتبعه. لقد رأت وجهه، بغضّ النظر عن تعابير ملامحه، فكّرت وتمنّت أنّها لم تؤذِه بشدّة.

وعندما أصبحا بمفردهما في مكتبها قال إيدي بهدوء:

ـ لقد أصدر معهد الدولة للعلوم بيانًا يحذّر فيه الناس من استخدام معدن ريردن. وقد بثّ البيان في الراديو، ونشر في الصحف.

ـ ماذا قالوا؟

ـ داغني، هم لم يقولوا ذلك!.. لم يقولوا ذلك صراحةً، ومع ذلكَ كانَ الخبر واضحًا، وهذا هو السيّئ في الأمر.

حاول إيدي أن يلتزم الهدوء، لأنّه لم يعد قادرًا على التحكّم في كلماته.

ـ ماذا قالوا يا إدي؟

ـ إنّهم... يجب أن تطّلعي على البيان.

أشار إلى الجريدة التي تركها على مكتبها. ثمّ قال:

ـ لم يقولوا إنّ معدن ريردن سيّئ. لم يقولوا إنّه غير آمن. ما فعلوه هو...

قرأت في الجريدة ما فعلوه. قرأت ما يلي: يمكن، بعد فترة من الاستخدام

الكثيف، أن يظهر شقّ مفاجئ، وإن كان التنبّؤ به غير ممكن طوال هذه الفترة... لا يمكن أن يكون ردّ الفعل جزئيًّا، وإن كان الأمر غير معروف في الوقت الراهن، فاحتمال وروده منخفض بالكامل... إذا كان من الواضح أنّه يمكن إثبات قوّة الشدّ في المعدن، فإنّ بعض المسائل المتعلّقة بسلوكه تحت الضغط غير عاديّة ولا يمكن استبعادها... وعلى الرغم من عدم وجود دليل يدعم الادّعاء القائل إنّه يجب حظر استخدام المعدن، فإنّ إجراء مزيد من الدراسة لخصائصه سيكون مفيدا جدًّا.

ـ قال إيدي وهو يتباطأ في كلامه: لا يمكننا مجابهة مثل هذا البيان، ولا نستطيع الردّ عليه. ولا يمكننا مطالبتهم بالتراجع عنه. ليس في وسعنا أن نُرِيَهُم اختباراتنا أو نثبت أيّ شيء. لم يقولوا شيئًا. لم يقولوا شيئًا يمكن دحضه ويُتيح إحراجهم. ما فعلوه هو عمل إنسانٍ جبانٍ. يمكنك أن تتوقّعي ذلك من محتال أو مبتّز. ولكن، يا داغني! إنّه معهد الدولة للعلوم!

أومأت بصمت. بقيت عيناها مثبّتتين في نقطة مّا وراء النافذة. في نهاية شارع مظلم، كانت مصابيح الإشارة الكهربائيّة تواصل العمل على نحو متقطّع، تضيء وتنطفئ، كما لو أنّها تَطرِف في وجهها بشكل مزعجٍ.

جمع إيدي قوّته وقال في نبرة عسكريّة:

ـ لقد تحطّمت أسهم تاجرت. واستقال بن نيلي. ومنعت جماعة الإخوان الوطنيّين لعمّال الطرق ومسارات سكك الحديد أعضاءها من العمل على خطّ ريونورتي. وترك جيم البلدة.

خلعت قبّعتها ومعطفها، ومضت عبر الغرفة وجلست على مهلٍ في مكتبها. ثمّ لاحظت ظرفا بنّيًّا كبيرًا أمامها؛ يحمل ترويسة شركة ريردن للفولاذ.

قال إيدي: جاء ذلك عن طريق رسول خاصٍّ بعد مغادرتك مباشرة.

وضعت يدها على الظرف، لكنّها لم تفتحه. عرفت ما هو: رسومات الجسر. ثمّ بعد فترة، سألته:

ـ من أصدر هذا البيان؟

نظر إليها إيدي وابتسم ابتسامة سريعة بمرارة وهزّ رأسه، ثمّ قال:

ـ لا. فكّرت في ذلك أيضًا. اتّصلت بالمعهد الواقع على مسافة بعيدة وسألتهم. لا، لقد أُصدِر من قبل مكتب الدكتور فلويد فيريس، وهو، بالمناسبة، يشغل منصب منسّق المعهد.

لم تنبس ببنت شفة. فأضاف:

ـ لكن ما تزال هناك نقطة أخيرة! دكتور ستادلر هو رئيس هذا المعهد. هو من يمثّله. لا شكّ أنّه اطّلع على البيان، وسمح بذلك. وإذا تحقّق الأمر، فإنّ البيان سيكون باسمه... دكتور روبرت ستادلر... هل تتذكّرينه... عندما كنّا في الكلّيّة... كيف كنّا نتحدّث عن الأسماء العظيمة في العالم... رجال الفكر الخالص... وكنّا دائمًا نختار اسمه بوصفه أحدهم، و..

توقّف قليلًا، ثمّ أضاف:

ـ أنا آسف يا داغني. أعلم أنّه لا فائدة من قول أيّ شيء. فقط...

جلست وضغطت بيدها على الظرف البنّيّ. ثمّ سألها بصوت منخفض:

ـ ماذا يحدث للناس؟ لماذا نجح هذا البيان؟ مثل هذه اللوثة الواضحة والفاسدة. هل كنت تعتقدين أنّ شخصًا محترمًا سيرميه في الحضيض. كيف يمكن ذلك؟ كيف يمكنهم قبول ذلك؟ ألم يقرؤوا؟ ألا يفكّرون؟ يا داغني! ما هو الشيء الذي يسمح لهم بفعل ذلك؟ وكيف يمكننا التعايش معه؟

قالت: اهدأ، يا إيدي، ولا تخَفْ.

***

يقع مبنى **معهد الدولة للعلوم** فوق نهر نيو هامبشاير، على جانب التلّ الوحيد، في منتصف الطريق بين النهر والسماء. كان يبدو من بعيدٍ وكأنّه نصبٌ متفرّد في غابة

عذراء. الأشجار فيه مزروعة بعناية، والطرق تشقّه مثل منتزه، ومنه يمكن رؤية أسطح منازل بلدة صغيرة في وادٍ على بعد أميال. لكن لم يُسمح لأيّ شيء بالاقتراب منه أو التقليص من مساحته.

لقد منحه رخامُ الجدران الأبيضُ عظمةً كلاسيكيّة؛ وأضفت عليه تركيبة كتله المستطيلة نظافةً وجمالًا يشبه جمال مصنع حديث. كان هيكلًا ملهمًا. نظر إليه الناس بوقارٍ من خلال النهر، وفكّروا فيه على أنّه نصب تذكاريّ لرجل حيّ ذي طابع نبيل من خطوط المبنى. عند المدخل، وضعت قطعة من الرخام كحجر تدشين كتب عليها: "إلى العقل الشجاع. إلى الحقيقة التي لا تُنْتَهَك". في ممرّ هادئ، بردهة مكشوفة، كانت هناك صفيحة نحاسيّة صغيرة، كشأن عشرات اللوحات التي تحمل أسماء أخرى على أبواب أخرى، كتب عليها: الدكتور روبرت ستادلر.

في سنّ السابعة والعشرين، كتب الدكتور روبرت ستادلر أطروحةً عن الأشعّة الكونيّة، وبها قَوَّض معظم النظريّات السابقة. وكلّ أولئك الذين بحثوا عنه وجدوا إنجازاته في مكان مّا بقاعدة بيانات أيّ محرّك بحث أنجزوه. وفي سنّ الثلاثين، اعترف به على أنّه أعظم فيزيائيّ في عصره. وفي الثانية والثلاثين من عمره، أصبح رئيسًا لقسم الفيزياء في جامعة باتريك هنري. وقد ذكر الدكتور روبرت ستادلر أنّ أحد الكتّاب قال: لعلّ من بين ظواهر الكون التي كان بصدد دراستها، لا شيء يمثّل معجزة تضاهي دماغ الدكتور روبرت ستادلر نفسه.

كان الدكتور روبرت ستادلر هو الذي صحّح خطأ أحد الطلّاب ذات مرّة قائلا: بحث علميّ حرّ؟ الصفحة الأولى تحتوي على إطناب زائدٍ.

في سنّ الأربعين، خاطب الدكتور روبرت ستادلر الدولة الوطنيّة، مؤيّدًا إنشاء معهد الدولة للعلوم. ونادى بـ«تحرير العلم من هيمنة الدولار». وعلّقت المسألة في شعار ميزان المحاكم؛ ثمّ أجبرت مجموعة غامضة من العلماء على تمرير مشروع قانون من خلال طريق طويل حتّى وصل الأمر إلى الهيئة التشريعيّة؛ كان هناك بعض التردّد العامّ حول مشروع القانون، وبعض الشكّ وعدم ارتياح لا يمكن لأحد تحديده.

فأثّر اسم الدكتور روبرت ستادلر على البلاد مثل الأشعّة الكونيّة التي درسها: لقد اخترق كلّ حاجز. وهكذا بنت الأمّة صرحَ الرخام الأبيض هديّةً شخصيّة لأحد أعظم رجالها.

كان مكتب الدكتور ستادلر في المعهد عبارةً عن غرفة صغيرة بدت وكأنّها مكتب كاتب حسابات شركة غير ناجحة. كان هناك مكتب رخيصٌ من خشب البلّوط الأصفر القبيح، وخزانة لحفظ الملفّات، وكرسيّان، وسبّورة كتبت عليها بالطباشير بعض الصيغ الرياضيّة. كان جالسًا على أحد الكراسي قبالة جدار فارغ. ظنّت داغني أنّ المكتب سيكون له حدّ من الأبّهة والأناقة، معًا: الأبّهة إذ يبدو أنّه يقصد الإشارة إلى أنّ للمالك ما يكفي من الرفعة حتّى يسمح لنفسه بمثل هذا الإعداد. والأناقة لأنّه لا يحتاج حقًّا إلى أيّ شيء آخر.

لقد التقت بالدكتور ستادلر في مناسبات قليلة، في الولائم التي قدّمها كبار رجال الأعمال أو الجمعيّات الهندسيّة الكبرى احتفالا بقضيّة رسميّة أو أخرى غير رسميّة. لقد حضرت المناسبات على مضض كما فعل هو أيضا، واكتشفت أنّه يحبّ التحدّث إليها. قال لها ذات مرّة:

ـ آنسة تاجرت، ما كنت أحسبُني ألتقي يومًا بالذكاء. لقد وجدت الذكاء مجسّدًا فيك، وهذا الأمر يريحني بشكل كبير.

لقد أتت إلى مكتبه لتتذكّر تلك الجملة. جلست تراقبه على طريقة العلماء، لم تكن تفترض شيئًا، بل تسعى فقط إلى الفهم.

قال بمرح: آنسة تاجرت، ينتابني الكثير من الفضول بشأنك. أشعر بالفضول عندما يكدّر أيّ شيء صفو شيء سابق عليه. قاعدتي في الحياة هي أنّ أمر الزوّار واجب مؤلم عندي. أنا بصراحةٍ مندهش للشعور بمتعة بسيطة عند رؤيتك هنا. هل تعرفين ذاك الشعور المفاجئ الذي ينتاب المرء عندما يستطيع التحدّث دونما إجهاد وهو يحاول إجبار نوع من الفهم على مغادرة الفراغ؟

جلس على حافّة مكتبه، بطريقته المرحة غير الرسميّة. لم يكن طويل القامة، ومنحته النحافة هالةً من الطاقة الشبابيّة تشبه الحماس الصبيانيّ. لم يكن وجهه النحيل يوحي بعمره، وكأنّه سرمديّ. بدا وجهًا مألوفًا، لكنّ الجبهة العظيمة والعينين الرماديّتين الكبيرتين توحيان بالذكاء حتّى إنّ المرء لا يمكنه ملاحظة أيّ شيء آخر غيره. في زوايا عينيه كانت هناك تجاعيد مخصوصة مرحة، وفي زوايا الفم خطوط مرارة باهتة. لم يكن يبدو مثل رجل في أوائل الخمسينات من عمره. وكان شعره المائل قليلًا إلى الرماديّ العلامةَ الوحيدة التي تدلّ على تقدّمه في العمر.

قال: أخبريني بالمزيد عن نفسك. كنت أنوي دائمًا أن أسألك عمّا تفعلين في مهنة غير متوقّعة مثل الصناعة الثقيلة وكيف يمكنك أن تقفي مع هؤلاء الأشخاص.

ـ دكتور ستادلر. لا أريد أن أضيّع وقتك في هذا الأمر، ولاسيّما أنّ الموضوع الذي أودّ مناقشته معك مهمّ جدًّا.

قال بعد أن أطلق ضحكة: إنّها علامة مألوفة عند جميع رجال الأعمال، هم يستعجلون دومًا طرح المواضيع المهمّة. حسنًا، على العموم لا تقلقي بشأن وقتي، إنّه وقتك. ما الموضوع الذي تودّين فَتْحَه معي؟ إنّه بالتأكيد معدن ريردن. وإن كنت لا أفقه كثيرًا في هذا الموضوع، فإنّه يمكنني أن أمدّ لك يد العون.

ـ هل سمعت بالبيان الذي صدر عن معهدكم بخصوص معدن ريردن؟

قال عابسًا: نعم ، لقد سمعت عنه.

ـ هل قرأت البيان؟

ـ لا.

ـ كان يهدف إلى منع استخدام معدن ريردن.

ـ نعم، نعم، لقد جمعت معلومات كثيرة.

ـ هل لك أن تقول لي لماذا؟

أشرع يديه، وكانتا طويلتين وعظيمتين في إظهار الطاقة والقوّة العصبيّة.

ـ أنا لا أريد أن أعرف. المسألة من اختصاص الدكتور فيريس. أنا متأكّد أنّ له أسبابًا. هل ترغبين في التحدّث إلى الدكتور فيريس؟

ـ لا. هل أنت على دراية بالخصائص المعدنيّة لمنتوج ريردن؟

ـ لماذا؟، نعم، قليلًا. ولكن أخبريني، لماذا أنت قلقة حيال ذلك؟

أومض بريق الدهشة في عينيها، ثمّ تلاشى منهما. أجابت دون تغيير نبرة صوتها:

ـ أنا أشيّد خطًّا فرعيًا من السكك الحديديّة باستخدام معدن ريردن، والتي...

ـ أوه! لقد سمعت عن هذا الأمر. أرجو أن تغفري جهلي بمثل هذه الأمور، فأنا لا أقرأ الصحف بانتظام. إنّها سكّة الحديد التي تُبْنَى في هذا الفرع الجديد، أليس كذلك؟

ـ يعتمد وجود سكك الحديد الخاصّة بي على اكتمال هذا الفرع، وأعتقد أنّ هذا البلد سيعتمد عليه أيضًا.

ـ وهل يمكنك أن تؤكّدي هذا الأمر؟ أنا لا أستطع .

ـ في هذه الحالة؟

ـ على كلّ حال. لا أحد يستطيع استشراف مستقبل البلد. إنّها ليست مسألة اتّجاهات محسوبة، ولكنّها فوضى تخضع لقاعدة اللحظة حيث كلّ شيء ممكن.

ـ هل تعتقد أنّ الإنتاج ضروريّ لنهضة الدولة؟

ـ لماذا؟، نعم، بالطبع.

ـ لقد توقّفت أشغال بناء خطّ فرعنا بسبب بيان معهدكم.

لم يبتسم ولم يردّ. ثم سألته:

ـ هل يحتوي هذا البيان على استنتاجاتك الشخصيّة حول طبيعة معدن ريردن؟

قال بنبرة حادّة: لقد قلت إنّني لم أقرأ البيان.

فتحت حقيبتها، وأخذت قصاصة من جريدة ونشرتها أمامه، ثمّ قالت:

ـ هلّا قرأته لتخبرني هل لغة هذا البيان تَمُتُّ للعلم بصلة؟

نظر إلى القصاصة، ثمّ ابتسم بازدراء وألقى بها جانبًا، ثمّ قال:

ـ أمر مقرف، أليس كذلك؟ ولكن ما الذي بوسعك فعلُه عندما تتعاملين مع الناس؟

نظرت إليه، دون أن تفهم ما كان يعنيه ثمّ قالت:

ـ أنت لا توافق على هذا البيان؟

قال: الموافقة أو الرفض أمر غير مهمّ.

ـ هل تشكّل عندك استنتاج حول معدن ريردن؟

ـ حسنا، المعادن ليست مجال تخصّصي.

ـ هل راجعت أيّ بيانات عن معدن ريردن؟

قال بنبرة تؤكّد نفاد صبره: آنسة تاجرت، لا جدوى من هذه الأسئلة.

ـ أودّ أن أعرف رأيك الشخصيّ في معدن ريردن.

ـ لأيّ هدف؟

ـ لكي أمدّ به الصحافة.

نهض وقال: هذا مستحيل.

قالت بصوت متوتّر يحاول فرض بعض التفسير: سأوافيك بجميع المعلومات التي تساعدك على بناء رأي قاطع.

ـ لا يمكنني إصدار أيّ بيانات عامّة حول هذا الموضوع.

ـ لماذا؟

ـ الوضع في غاية التعقيد، على نحوٍ لا يمكن تفسيره في مناقشة غير رسميّة.

ـ ولكن ماذا إذا وجدت أنّ معدن ريردن منتج قيّم جدًّا؟

ـ هذه النقطة لا تمتّ للموضوع بأيّ صلة.

ـ كيف ذلك؟

ـ ثمّة قضايا أخرى تكتنف الموضوع إلى جانب مسائل أخرى واقعيّة.

سألته وكأنّها لم تسمعه بشكل صحيح: ما هي القضايا الأخرى التي يهتمّ بها العلم، بالإضافة إلى أسئلة الواقع؟

قال بمرارة: أنت لا تفهمين قضايا العلماء، يا آنسة تاجرت.

قالت ببطء مفاجئ، وكأنّها أدركت أنّ كلماتها صدرت في الوقت المناسب: أعتقد أنّك تعرف قيمة معدن ريردن حقَّ المعرفة.

قال: نعم. أنا أعلم. من المعلومات التي اطّلعت عليها، يبدو أنّه شيء رائع. إنّه إنجاز رائع من الناحية التكنولوجيّة.

كان يسير بسرعة نحو المكتب وقد نفد صبره، ثمّ أضاف:

ـ الحقّ أنّي أودّ أن أطلب ذات يومٍ محرّكًا مخبريًّا خاصًّا يتحمّل درجات حرارة عالية مثل معدن ريردن. سيكون ذا قيمة كبيرة في ما يتعلّق بظواهر معيّنة أودّ ملاحظتها. لقد وجدت أنّه حين يتمّ تحريك الجسيمات بسرعة تقترب من سرعة الضوء، فإنّها...

سألته ببطء: دكتور ستادلر، أنت تعرف الحقيقة، ولكنّك لن تصرّح بها علنًا؟

ـ آنسة تاجرت، أنت تستخدمين مصطلحًا تجريديًّا، نحن نتعامل مع هذه المسألة من ناحية علميّة بحت.

ـ نحن نتعامل مع مسألة عمليّة.

ـ عمليّة؟ ألستِ تخلطين بين المعايير المعنيّة؟ لا يوجد في عالم العلم معيارٌ مطلق غير الحقيقة. وعندما نتعامل مع العلوم التطبيقيّة والتكنولوجيا، فإنّنا نتعامل مع

الناس. وحين نتعامل مع الناس، تدخل اعتبارات أخرى غير الحقيقة التي تسألين عنها.

ـ ما هي هذه الاعتبارات؟

ـ أنا لست بخبير تقنيّ، لا أملك أيّ موهبة أو ذوق للتعامل مع الناس. لا يمكنني المشاركة في ما يسمّى بالمسائل العمليّة.

ـ هذا البيان صدر باسمك.

ـ لا علاقة لي بهذا البيان!

ـ اسم هذا المعهد هو مسؤوليّتك.

ـ هذا افتراض لا مبرّر له على الإطلاق.

ـ يعتقد الناس أنّ شرف اسمك هو الضمان وراء أيّ عمل من أعمال هذا المعهد.

ـ لا يمكنني دعمُ اعتقادات الناس.

ـ لقد قبلوا إفادتك. لكنّها كانت كذبة.

ـ كيف يمكن للمرء أن يتعامل مع الحقيقة ولاسيّما حين يكون في مواجهة مع الجمهور؟

قالت بهدوء شديد: أنا لا أفهمك.

ـ إنّ مسائل الحقيقة لا تدخل في القضايا الاجتماعيّة. فليس لأيّ مبدإ من المبادئ أيّ تأثير على المجتمع.

ـ ما الذي يوجّه أفعال البشر إذَن؟

ـ نفعيّة اللحظة.

ـ دكتور ستادلر، أعتقد أنّ عليّ إخبارك بالعواقب الوخيمة التي ستنجم عن توقّف الأشغال في هذا الخطّ الفرعيّ. أنا توقّفت، باسم السلامة العامّة، لأنّني أستخدم السكك الحديديّة المنتجة على نحوٍ أفضل من أيّ وقت مضى. في غضون

ستّة أشهر، إذا لم أكمل ذلك الخطّ، فإنّ أفضل قسم صناعيّ في البلاد سيترك دون نقل. سيتمّ تدميره، لأنّه الأفضل ولأنّ هناك رجالًا يعتقدون أنّ من المناسب الاستيلاء على حصّة من ثروته.

ـ حسنا، قد يكون ذلك عملًا شرّيرًا وظالمًا وكارثيًّا، ولكن هذه هي الحياة في المجتمع. يوجد دومًا كبش فداء يضحَّى به، وتلك قاعدةٌ ظالمة؛ ولا توجد طريقة أخرى للعيش بين البشر. ماذا يمكن لأيّ شخص أن يفعل حيالها؟

ـ يمكنك أن تصرّح بالحقيقة في خصوص معدن ريردن.

لم يجبها. ثمّ أضافت:

ـ يمكنني أن أستجديك لتقول الحقيقة لأنّ ذلك هو ما سينقذني. يمكنني أن أتوسّل إليك لتفعل ذلك من أجل تجنّب كارثة وطنيّة، لكنّي لن أفعل، قد لا تكون هذه أسبابًا وجيهة. يوجد سبب واحد فقط: يجب أن تقولها لأنّها الحقيقة.

قال وهو يصرخ: لم أُسْتَشَر بشأن ذلك البيان! لم أكن لأسمح بذلك! أنا لم أستسغ الأمر مثلك! لكنّني لا أستطيع إصدار بيانٍ عامّ أنكر فيه ذلك!

ـ لم تُسْتَشَر؟ ألا يجب عليك معرفة الأسباب التي كانت وراء ذلك البيان؟

ـ لا أستطيع تدمير المعهد الآن!

ـ ألا يجب عليك معرفة الأسباب؟

ـ أعرف الأسباب! لن يخبروني، لكنّي أعرفها. وأنا لا ألومهم.

ـ ألا تخبرني بما تعلم؟

ـ سأقول لك، إذا كنت ترغبين. أنت تريدين معرفة الحقيقة، أليس كذلك؟ الدكتور فيريس لم يستطع مواجهة أولئك الحمقى الذين يصوّتون على التمويل المادّيّ لهذا المعهد ويصرّون على ما يسمّونه النتائج. هم غير قادرين على تصوّر شيء مثل العلم التجريديّ. ولا يمكنهم الحكم عليه إلّا من خلال أحدث أداة أنتجت لهم. لا

أعرف كيف تمكّن الدكتور فيريس من إبقاء هذا المعهد موجودًا، لا يسعني إلّا أن أتعجّب من قدراته العمليّة. ولا أعتقد أنّه كان عالمًا من الدرجة الأولى لكن يا له من خادم علميّ لا يقدّر بثمن. أعلم أنّه واجه مؤخّرًا مشكلة خطيرة، لقد أبقاني خارج الموضوع، وأنقذني من كلّ ذلك، لكنّي أسمع الإشاعات. لقد انتقد الناس المعهد، لأنّه، كما يقولون، لم ننتج ما يكفي. كان الشعب يطالب بالاقتصاد في أوقات كهذه، عندما تهدّدهم وسائل الراحة الصغيرة الضخمة، قد تكونين متأكّدة من أنّ العلم هو أوّل شيء يضحّي به الرجال. هذه هي المؤسّسة الوحيدة المتبقّية فعليًّا، ولن توجد مؤسّسات أبحاث خاصّة بعد الآن. انظري إلى الأشرار الجشعين الذين يديرون صناعاتنا لا يمكنك أن تتوقّعي منهم دَعْمَ العلم.

سألته بصوت منخفض: ومن يدعمك الآن؟

ـ المجتمع.

قالت بصعوبة: كنتَ ستخبرني بالأسباب التي تقف وراء ذلك البيان.

ـ ليس صعبًا عليك أن تستنتجي الأسباب. فإذا وضعت في اعتبارك الثلاث عشرة سنة التي قضّاها هذا المعهد بقسم بحوثه في مجال المنتجات المعدنيّة التي كلّفته أكثر من عشرين مليون دولار ولم ينتج شيئًا جديدًا سوى فضّة الصقل الجديدة والمستحضر الجديد المضادّ للتآكل، والتي أعتقد أنّها ليست جيّدة جدًّا مثل الموادّ القديمة، فيمكنك أن تتخيّلي ردّ فعل الشعب حين يخرج أحد الأفراد ومعه منتَج سيحدث ثورة في علم المعادن بأكمله ويبرهن على أنّ ذلك المنتج ناجح على نحو مثير!

انهار ت ولم تقل شيئا. ثمّ أضاف بغضب:

ـ أنا لا ألوم قسم المعادن بمعهدنا! أعلم أنّ نتائج من هذا النوع ليست مسألة وقت يمكن التنبّؤ به. لكنّ العامّة لن تفهم السبب. هل نضحّي بأنفسنا؟ من أجل قطعة ممتازة من الصلب أم نحافظ على آخر مركز للعلوم باقٍ على الأرض، ونحافظ

على المستقبل الكامل للمعرفة البشريّة؟ هذا هو البديل.

جلست منحنية. ثمّ قالت بعد فترة:

ـ حسنا يا دكتور ستادلر، لن أجادلك أكثر.

رآها تتحسّس حقيبتها كما لو أنّها تحاول تذكّر الحركات الآليّة اللّازمة للنهوض:

قال بهدوء: يا آنسة تاجرت.

كان يخاطبها بنبرة التماس. فنظرت إلى أعلى بوجه يوحي بالانكسار. فاقترب منها؛ وانحنى بيد واحدة على الجدار فوق رأسها، كأنّما رغب في حملها داخل دائرة ذراعه.

ـ آنسة تاجرت.

قالها مجدّدا بلهجة لطيفة، ثمّ أضاف:

ـ أنا أكبر منك سنًّا. صدّقيني، لا توجد طريقة أخرى للعيش على الأرض. فالناس ليسوا منفتحين على الحقيقة أو العقل. ولا يمكن الوصول إلى الحقيقة بحجّة عقلانيّة. العقل يقف عاجزا أمامهم، ومع ذلك علينا أن نتعامل معهم. وإذا أردنا إنجاز أيّ شيء، فإنّ علينا خداعهم ليسمحوا لنا بإنجازه أو إخبارهم بأنّهم لا يفهمون شيئًا آخر. لا يمكننا أن نتوقّع منهم دعمَ أيّ مسعى فكريّ وأيّ هدف روحيّ. ليسوا سوى حيوانات شرّيرة. هم جشعون، ومنغمسون في الملذّات، يطاردون الدولارات...

ردّت بصوت منخفض: أنا من مُطاردي الدولار يا دكتور ستادلر.

ـ أنت طفلة رائعة وغير عاديّة. لم ترَي ما يكفي من الحياة لفهم المقياس الكامل للغباء البشريّ. لقد كافحت طوال حياتي. أنا متعب جدًّا...

ابتعد عنها ببطء، ثمّ أضاف:

ـ منذ فترة طويلة نظرت إلى الفوضى المأسويّة التي صنعوها في هذه الأرض، وأردت أن أبكي وأتوسّل إليهم للاستماع. يمكنني أن أعلّمهم العيش على نحوٍ

أفضل بكثير ممّا فعلوا، ولكن لم يكن هناك أحد يسمعني. إنّهم لا يتمتّعون بالذكاء، الذكاء الذي أصبح شرارة نادرة وغير مستقرّة تومض للحظة في مكان مّا بين البشر، ثمّ تختفي. ولا يمكن للمرء أن يخبرنا بطبيعة ذلك الذكاء أو مستقبله... أو موته...

همّت بالنهوض.

ـ لا تذهبي يا آنسة تاجارت. أريدك أن تستوعبي الأمر جيّدًا.

رفعت وجهها مطيعةً. لم يكن وجهها شاحبًا، لكنّ قسماته برزت بدقّة عارية على نحوٍ غريب، كما لو أنّ بشرتها فقدت ظلال اللون.

قال: أنت شابّةٌ. في مثل عمرك، كنت أؤمن بقوّة العقل غير المحدودة. لقد خبرت الكثير منذ ذلك الحين. وشعرت بخيبة أمل في أحيان كثيرة... أودّ أن أخبرك بقصّة واحدة فقط.

وقف عند نافذة مكتبه. لقد أظلمت المدينة في الخارج. وبدا الظلام يتصاعد من أخدود أسود عند أسفل النهر. ارتعشت بعض الأضواء في الماء، من بين تلال الشاطئ الآخر. كانت السماء لا تزال شديدة الزرقة في المساء. وبدا النجم الوحيد، المنخفض على مستوى الأرض، كبيرًا على نحوٍ غير طبيعيّ فجعل السماء تبدو أكثر قتامة.

قال: أيّامَ جامعة باتريك هنري، كان لديّ ثلاثة طلبة. لقد كان لديّ الكثير من الطلّاب الأذكياء في الماضي، لكنّ هؤلاء الثلاثة هم من نوع المكافأة التي يصلّي المعلّم من أجلها. إذا كنت ترغبين في الحصول على هديّة العقل البشريّ في أفضل حالاتها، شابّةً ومسلّمةً بين يديك لتوجّهيها، فستكون تلك هي الهديّة. كان هذا هو نوع الذكاء الذي يتوقّع المرء أن يراه يغيّر مسار العالم في المستقبل. لقد جاؤوا من مشارب مختلفة جدًّا، لكنّهم كانوا أصدقاء لا ينفصلون. وكان اختيارهم في مجال الدراسات غريبًا. تخصّصوا في موضوعَين هما الفيزياء والفلسفة. وهي ليست من الاهتمامات التي قد يصادفها المرء عند الناس في الوقت الحاضر. كان هيو أكستون رجلًا متميّزًا

وعقلًا عظيمًا... على عكس المخلوق المذهل الذي وضعته الجامعة الآن في مكانه... شعرت أنا وأكستون بغيرة أحدنا من الآخر في خصوص هؤلاء الطلّاب الثلاثة. كانت مسابقة بيننا، مسابقة ودّيّة، لأنّ كلّا منّا فَهِم الآخر. سمعت أكستون يقول ذات يوم إنّه يعتبرهم أبناءه. غضبت منه قليلا... لأنّني كنت أعتبرهم ملكي...

استدار ونظر إليها. كانت خطوط العمر المريرة تتراءى واضحة الآن على وجهه، ثمّ أضاف:

ـ عندما صادقت على إنشاء هذا المعهد، كنت مسؤولًا على أحد هؤلاء الطلبة. لم أره منذ ذلك الحين. كان يزعجني في السنوات القليلة الأولى. تساءلت، من حين إلى آخر، عمّا إذا كان على حقٍّ... لقد توقّف عن إزعاجي منذ فترة طويلة.

ابتسم. رغم أنّ ابتسامته ووجهه لا يعبّران إلّا عن المرارة. ثمّ استرسل في الكلام:

ـ هؤلاء الرجال الثلاثة، هؤلاء الثلاثة كانوا يحملون كلّ آمال الدنيا. لقد كنّا نتوقّع منهم أن يصنعوا مستقبلا رائعًا لهذه الأمّة، أحدهم كان فرانسيسكو دانكونيا الذي أصبح مستهترًا فاسدًا. والآخر هو راجنار دانيسكولد الذي أصبح أحد قطّاع الطرق.

سألته: من يكون الثالث؟

ـ الثالث لم يحقّق حتّى هذا النوع من التميّز السلبيّ. اختفى دون أن يترك أثرًا إلى عالم الرداءة المجهول. وربّما يكون ثاني مساعد محاسب في مكان مّا.

***

صرخ جيمس تاجارت: إنّها كذبة! لم أهرب! جئت إلى هنا لأنّني كنت مريضًا. اسألي الدكتور ويلسون. إنّه نوع من أنواع الأنفلونزا. سوف يثبت ذلك. وكيف عرفت أنّني كنت هنا؟

وقفت داغني في منتصف الغرفة؛ وكان على طوق معطفها وحافّة قبّعتها ماءُ ثلجٍ ذائب. نظرت حولها، فشعرت بعاطفة من الحزن، ووددّت لو أنّها تملك الوقت الكافي

للاعتراف بها.

كانت غرفة في منزل عقّارات شركة تاجارت القديمة بالقرب من نهر هدسون. لقد ورث جيم هذا المكان، ولكنّه نادرًا ما يأتي إليه. في طفولتهم، كانت تلك الغرفة مكتبًا لوالدهم. الآن، أصبح يغلّفها هواء موحش لغرفة مستخدَمة، لكنّها غير مأهولة. انتشرت على جميع الكراسي أغطيةٌ، باستثناء كرسيّين، وكانت هناك مدفأةٌ باردة عوّضتها حرارةٌ كئيبة لسخّان كهربائيّ موصولٍ بسلك ملتوٍ على الأرض، ومكتبٌ بسطح زجاجيّ فارغ.

استلقى جيم على الأريكة، بمنشفة ملفوفة كالوشاح حول عنقه. شاهدت منفضة سجائر قديمة ومليئة وضعت على الكرسيّ بجانبه، وزجاجة ويسكي، وكوبا ورقيّا ذابلا، وصحفا متناثرة على الأرض، وصورة لجدّهم علّقت فوق الموقد، لقد كانت صورة شخصيّة كاملة، في خلفيّتها جسر للسكك الحديديّة مُتَلَاشٍ.

ـ جيم، لا أملك وقتا للنقاش؟

ـ لقد كانت فكرتك! آمل أن تعترفي للمجلس بأنّها فكرتك. هذا ما فعله بنا معدن ريردن! لو أنّنا انتظرنا أورين بويل...

سحب وجهه الملتحي الذي تدافع عليه خليط من العواطف: الذعر، الكراهية، بريق الانتصار، راحة الصراخ أمام الضحيّة، والنظرة الباهتة الحذرة، والتسوّل الذي يبحث عن أمل في المساعدة.

توقّف هو مبدئيًّا، لكنّها لم تجبه. وظلّت تشاهده ويداها في جيبَي معطفها.

قال بتنهّد: لا يوجد شيء يمكننا فعلُه الآن! لقد حاولت الاتّصال بواشنطن، لدفعهم إلى السيطرة على شركة فينكس-دورانجو وتسليمها لنا على جناح السرعة، لكنّهم لم يناقشوا موضوعها! يقولون إنّ الكثير من الناس يعترضون خوفًا من الوقوع في سابقة حمقاء أو أيّ شيء آخر!... لقد تمكّنت من إقناع التحالف الوطنيّ للسكك الحديديّة بتعليق الموعد النهائيّ والسماح لدان كونواي بتشغيل مساره لمدّة

عام آخر، كان ذلك سيمنحنا الكثير من الوقت، لكنّه رفض! حاولت أن أجعل إليس وايت ومجموعةً أصدقائه في كولورادو يطالبون واشنطن بأن تأمر كونواي بمواصلة العمليّات، لكنّهم رفضوا جميعا! ربّما تكون بشرتهم أسوأ من بشرتنا، فمن المؤكّد أنّهم لو نزلوا سيخفّفون من النزيف، لكنّهم رفضوا!

ابتسمت ابتسامة سريعةً، لكنّها لم تعلّق.

ـ الآن لم يتبقّ لنا شيء نفعله! لقد قُبض علينا. لا يمكننا التخلّي عن هذا الفرع ولا يمكننا إكماله. لا يمكننا التوقّف أو الاستمرار. ليس لدينا المال. لن يتواصل معنا أحد إلّا بأخذ مسافة أمان لا تقلّ عن عشر أقدام! ما الذي سيبقى لدينا من غير خطّ ريونورتي؟ لكن لا يمكننا الانتهاء منه. سيقاطعنا الجميع، وسنُدرَج في القائمة السوداء. اتّحاد عمّال السكك سيقاضينا، فهناك قانون يخصّ مثل هذه الحالات. لا يمكننا إكمال هذا الخطّ! يا إلهي! ماذا علينا أن نفعل؟

انتظرته حتّى أنهى كلامه ثمّ قالت:

ـ إذا كنت تبحث عن حلّ، فسأخبرك بما ينبغي علينا فِعلُه.

صمت، وأخذ ينظر إليها من تحت جفنيه اللّذين أنهكهما المرض. ثمّ أضافت:

ـ جيم، ما سأقدّمه لك ليس عرضًا، بل هو إنذارٌ نهائيٌّ، وما عليك سوى الاستماع والقبول. سأكمل بناء خطّ ريونورتي. سأنجز ذلك شخصيًّا، وليست شركة تاجرت العابرة للقارّات. سأغادر وآخذ إجازة من منصب نائب الرئيس. وسأؤسّس شركة باسمي الخاصّ. سيُحوَّل مجلس إدارة خطّ ريونورتي إليّ. سأعمل كمقاول خاصّ لصالحي، وأحصل على التمويل الخاصّ بي. وسأتحمّل المسؤوليّة الكاملة والمسؤوليّة الوحيدة. سأكمل الخطّ في الوقت المحدّد. بعد أن رأيت كيف يمكن لشركة ريردن الإيفاء بوعودها، سأعيد الخطّ مرّة أخرى إلى شركة تاجرت العابرة للقارّات وسأعود إلى عملي مجدّدًا. هذا كلّ ما في الأمر.

كان ينظر إليها بصمت، لم تفترض قطّ أنّ الأمل يمكن أن يبدو قبيحًا في وجه

الرجل، لكنّه كان كذلك: بدا ممزوجًا بالمكر. أبعدت عينيها عنه، متسائلةً كيف كان من الممكن أن يكون أوّل ما يفكّر فيه هذا الرجل في مثل تلك اللحظة هو البحث عن شيء لتعطيلها.

قال بنبرة حزينة: ولكن من سيدير شركة تاجرت العابرة للقارّات في غيابك؟

قالت وهي تضحك: إيدي ويلرز.

ـ أوه لا! لا يستطيع!

ضحكت مرّةً أخرى، ثمّ قالت:

ـ ظننتُ أنّك أذكى منّي في مثل هذه الأمور، سيتولّى إيدي لقب نائب الرئيس بالنيابة. سيشغل مكتبي ويجلس عليه. ولكن من تراه يستطيع إدارة شركة تاجارت العابرة القارّات؟

ـ لا أعرف...

ـ سأسافر يوميًّا بالطائرة بين مكتب إيدي وكولورادو. ولا تنسَ أنّ هناك هواتف قد تساعدني على إدارة الشركة عن بعدٍ. سأنجز الأشياءَ نفسها التي تعوّدت عليها. لن يتغيّر أيّ شيء باستثناء نوع العرض الذي ستقدّمه لأصدقائك... وفي حقيقة الأمر سيكون أكثر صعوبة بالنسبة إليّ.

ـ أيّ عرض؟

ـ أنت تفهمني، يا جيم. لا أملك فكرة عن نوع الألعاب التي قد تتورّط فيها أنت ومجلس إدارتك. لا أعلم عدد النهايات التي أغلبكم بصدد لعبها في الوسط وضدّ أطراف عديدة، أو عدد المزاعم التي يجب عليك التظاهر بمواكبتها في اتّجاهات متعاكسة كثيرة. لا أعلم ولا أهتمّ. يمكنكم جميعًا أن تختبئوا ورائي. إذا كنتم خائفين جميعًا، لأنّك أبرمت صفقات مع الأصدقاء الذين هدّدتهم شركة معدن ريردن. حسنًا، هذه هي فرصتك لكي تؤكّد لهم أنّك لم تعد مشاركًا في اللعبة، وأنّك لن تفعل ذلك مجدّدًا. أمّا أنا فسأنجز هذا الأمر. يمكنك مساعدتهم على لعني وإدانتي.

يمكنكم جميعًا البقاء في المنزل، وعدم المخاطرة وعدم صنع أعداء. ابتعدوا فقط عن طريقي.

قال ببطء: حسنًا... بالطبع، فسياسة أيّ نظام عظيم لسكك الحديد تنطوي على مشاكل معقّدة... في حين أنّ شركة صغيرة مستقلّة، تحمل اسم شخص واحد، يمكنها أن تتحمّل...

ـ نعم يا جيم، أعرف كلّ ذلك. في اللحظة التي ستعلن فيها عن تحويل خطّ ريونورتي إليّ شخصيًّا، سترتفع أسهم تاجارت. سيتوقّف بَقّ الفراش عن الزحف من الزوايا غير المتوقّعة، لأنّه لن يكون لها حافزُ عضٍّ من شركة كبيرة. وقبل أن يتّخذوا إجراء ضدّي، سنكون قد فرغنا من بناء الخطّ. أمّا أنا فلا أريد أن أجعلك أنت ومجلسك تنشغلون بالحسابات والنقاشات، واستجداء المعونة منهم. ليس هناك أيّ وقت لذلك إذا كنت سأنجز نوع العمل الذي يجب عليّ إنجازه. وسأفعل ذلك بمفردي.

ـ و... إذا فشلت؟

ـ إذا فشلت، فإنّي سأواجه مصيري بمفردي وسأختفي.

ـ أنت تدركين أنّ شركة تاجارت العابرة للقارّات لن تتمكّن من مساعدتك بأيّ شكل من الأشكال في مثل هذه الحال؟

ـ أنا أدرك هذا الأمر.

ـ ألن تعوّلي علينا؟

ـ لا.

ـ هل ستقطعين جميع الاتّصالات الرسميّة بنا، حتّى لا تنعكس أنشطتك على سمعتنا؟

ـ نعم.

ـ أعتقد أنّنا يجب أن نتّفق على أنّه في حالة الفشل أو الفضيحة العامّة... ستصبح إجازتك دائمة... لا تتوقّعي العودة إلى منصب نائب الرئيس.

أغلقت عينيها لحظةً ثمّ قالت:

ـ حسنا يا جيم. لن أعود في مثل هذه الحالة.

ـ قبل أن نمنحك ملكيّة خطّ ريونورتي، يجب عليك أن توقّعي معنا اتّفاقيّة تتعهّدين فيها بأنّك ستعيدين إلينا هذا الخطّ، وفيها سنحدّد كذلك حصّتك من الأرباح إذا نجح، لكي لا تضغطي بعد ذلك علينا، لأنّنا نحتاج إلى هذا الخطّ.

لم يكن في عينيها سوى أثر عابرٍ للصدمة، ثمّ قالت بلامبالاةٍ، فبدت الكلمات وكأنّها تلقي صدقات:

ـ وثّق هذا الأمر يا جيم.

ـ الآن في خصوص خليفتك المؤقّت...

ـ نعم.

ـ أنت لا تريدين حقًّا أن يكون إيدي ويلرز، أليس كذلك؟

ـ بالعكس، أنا أريد أن يضطلع إيدي بهذه المهمّة.

ـ لكنّه لا يستطع حتّى أن يتصرّف كما يتصرّف نائب الرئيس! إنّه لا يملك شخصيّة قويّة.

ـ إنّه يعرف عمله وأعمالي. ويعرف ما أريد، وأنا أثق به. سأكون قادرة على العمل معه.

ـ ألا تعتقدين أنّ من الأفضل اختيار أحد الشباب الأكثر تميّزًا، شخص من عائلة جيّدة، مع مزيد من التوازن الاجتماعيّ و..

ـ سيكون إيدي ويلرز.

ـ تنهّد وقال: حسنًا. فقط... فقط يجب أن نكون حذرين أمام ذلك... لا نريد أن

يشكّك الناس في أنّك من يدير عن بعدٍ شركة تاجرت العابرة للقارّات. لا أحد يجب أن يعرف ذلك.

ـ الجميع سيعرفون هذا. لكن بما أنّه لا أحد سيعترف بذلك علنا، فسيكون الجميع راضين.

ـ لكن يجب أن نحافظ على المظاهر.

ـ أوه، بالتأكيد! ليس عليك أن تحدّثني في الشارع إذا كنت لا تريد ذلك. يمكنك القول إنّك لم تلتقِ بي من قبل، وسأقول إنّني لم أسمع عن شركة تاجرت العابرة للقارّات.

بقي صامتًا، وهو يفكّر في هذا الأمر، ثمّ ظلّ يحدّق في الأرض.

التفتت داغني لتنظر إلى الأسوار وراء النافذة. كانت السماء شاحبةً. في الأسفل بعيدًا، على ضفاف نهر هدسون، شاهدت الطريق التي كانت تعبرها لمشاهدة سيّارة فرانسيسكو، وكذا شاهدت الجرف فوق النهر، حيث كانا يصعدان للبحث عن أبراج نيويورك. وفي مكان مّا خلف الغابة لاحَت الممرّات التي أدّت إلى محطّة روكديل. بدت الأرض مغطّاة بالثلج، وما تبقّى كان مثل الهيكل العظميّ للريف الذي تذكّرته، تصميم رفيع من أغصان أشجار عارية ترتفع من الثلج إلى السماء. كانت رماديّة وبيضاء، مثل صورة فوتوغرافيّة، صورة ميّتة يأمل المرء أن يتذكّرها، ولكن لا تملك القدرة على إعادة أيّ شيء.

ـ ماذا ستسمّينها؟

التفتت بذهولٍ وقالت: أسمّي ماذا؟

ـ ماذا ستسمّين شركتك؟

ـ أوه ... لماذا؟ خطّ داغني تاجارت على ما أعتقد.

ـ لكن... هل ترَين هذا الاختيار جيّدًا؟ قد يُساء فهمه...

قاطعته قائلة: حسنًا، ماذا تريدني أن أسمّيها؟ الآنسة لا أحد؟ السيّدة إكس؟ خطّ جون جالت؟

توقّفت عن الكلام، وابتسمت ثمّ أضافت:

سأسمّيه هكذا: خطّ جون جالت.

ـ يا إلهي لا!

ـ نعم.

ـ ولكنّها... إنّها مجرّد كلمات دارجة ورخيصة!

ـ نعم.

ـ لا يمكنك المزاح في مثل هذا المشروع الجادّ!... لا يمكنك أن تكوني في غاية الابتذال... وغير مهذّبة!

ـ لن أكون كذلك؟

ـ ولكن لماذا، بحقّ السماء؟

ـ لأنّ هذا الاسم سيصدم الجميع مثلما صدمتك.

ـ لم يسبق لك أن عملت على مُعطى الإثارة.

ـ سأفعل ذلك هذه المرّة.

قال بنبرة متشائمة: لكن... اسمعي، كما تعلمين، إنّه كذلك... إنّه طالع سيّئٌ... ما يرمز إليه هو...

ثمّ توقّف عن الكلام.

سألته: وماذا يعنيه هذا الاسم؟

ـ لا أدري، لا أعلم... لكن الطريقة التي يستعمل بها الناس هذا الاسم، يبدو أنّهم دائمًا يقولون ذلك للتعبير عن...

ـ الخوف؟ اليأس؟ العقم؟

ـ نعم ... نعم، هذا ما يحيل عليه ذاك الاسم.

ـ هذه هي المعاني التي أريد أن أقذف بها في وجوههم!

وبدا الغضب المشرق اللّامع في عينيها، وقد جعلته نظرتها الأولى إلى المتعة يفهم أنّ عليه البقاء ساكنًا.

قالت: أعِدّوا جميع الأوراق اللّازمة وكلّ الإجراءات الروتينيّة باسم خطّ جون جالت.

تنهّد وقال: حسنًا، إنّه خطّك.

ـ أتُراهِن أنّه سيكون كذلك!

نظر إليها بذهولٍ، لقد تخلّصت بسرعةٍ من أخلاق نائب الرئيس وأسلوبه. يبدو أنّها كانت تستكين بسعادة إلى الانحدار نحو مستوى أطقم الحظائر وعصابات البناء.

قال: في ما يخصّ الأوراق والجانب القانونيّ، قد تكون هناك بعض الصعوبات. ينبغي أن نتقدّم بطلبٍ للحصول على إذْنٍ...

التفتت لمواجهته، وهي ما تزال تحمل في ملامح وجهها شيئًا من المظهر المشرق العنيف. لكنّها لم تكن مبتهجة ولا مبتسمة. وبدا المظهر الآن بجودة بدائيّة غريبة. وحين شاهدها، كان يأمل ألّا يضطرّ إلى رؤيتها مجدّدًا.

قالت بنبرة غير مألوفة: اسمع يا جيم، ثمّة شيء واحد يمكنك القيام به كجزء من الصفقة، ومن الأفضل أن تفعل ذلك: إبقاء أولاد واشنطن بعيدًا. تأكّد من أنّهم سيمنحونني جميع التراخيص والتفويضات والمواثيق وغيرها من النفايات الورقيّة التي تتطلّبها قوانينهم. لا تدعهم يحاولون منعي. وإذا حاولوا... يقول الناس، يا جيم، إنّ سلفنا نات تاجارت قتل سياسيًّا حاول رفضَ إذنٍ لم يكن عليه أن يطلبه مطلقًا. لا أعرف ما إذا كان نات تاجارت فعل ذلك أم لا. لكن سأقول لك هذا: إن كان جدّنا قد فعل ذلك حقّا فأنا أعرف ما شعر به. وإن هو لم يفعل، فلعلّي أؤدّي

المهمّة من أجل إكمال أسطورة الأسرة.

***

جلس فرانسيسكو دانكونيا أمام مكتبها. وكانت ملامح وجهه عارية من أيّ معنى. وقد ظلّت على هذا النحو بينما كانت داغني توضّح له بنبرة واضحة ورسميّة، مثلما يحدث في أيّ مقابلة تجاريّة، تشكيلَ شركة السكك الحديديّة الخاصّة بها والغرض منها. فاستمع ولم ينطق بكلمة.

لم ترَ قطّ تقاسيم وجهه وقد عَلَتْها تلك النظرة السلبيّة المنهكة. لا استهزاء فيها ولا تسلية ولا عداء؛ كان الأمر كما لو أنّه لا ينتمي إلى لحظات الوجود تلك أو أنّه بعيد لا يمكن الوصول إليه. لكنّ عينيه نظرتا إليها باهتمامٍ. يبدو أنّهما كانتا تنظران إلى أبعد ممّا استطاعت أن تشتبه فيه؛ جعلاها تفكّر في الزجاج الأحاديّ الاتّجاه الذي يسمح بدخول أشعّة الضوء كلّها، ولكن لا شعاع منها يخرج.

قالت داغني: فرانسيسكو، طلبت منك أن تأتي إلى هنا، لأنّني أردتك أن تراني في مكتبي. فأنت لم ترَه من قبل. لقد كان في السابق يعني لك شيئا مّا.

تحرّكت عيناه ببطءٍ للنظر إلى المكتب. كانت جدرانه مكشوفة باستثناء وجود ثلاثة أشياء: خارطة شركة تاجرت العابرة للقارّات؛ والرسم الأصليّ لنات تاجارت، الذي كان بمثابة نموذج يحاكي تمثاله؛ وروزنامة سكّة حديديّة كبيرة بألوان خام بهيجة، من النوع الذي يُوزَّع في كلّ عام، مع تغيير صورتها، فتحمل في كلّ مرّة صورة محطّة على طول مسار خطوط شركة تاجارت، وهي من النوع الذي يُعلّق مرّةً واحدةً في مكان عملها الأوّل في روكديل.

نهض وقال بهدوء: داغني، لمصلحتك و..

تردّد قبل أن يضيف:

ـ لا تشفقي عليّ، لا تطلبي منّي أيّ شيء. لا تفعلي. اتركيني أنصرف الآن.

لم يكن في مزاجه المعتاد ولم تتوقّع أن تسمع منه أيّ شيء. فسألته بعد لحظة: لماذا؟

ـ لا أستطيع الإجابة. لا أستطيع الإجابة على أيّ سؤال. هذا أحد الأسباب التي قد تبرّر أنّ من الأفضل عدم مناقشة الأمر.

ـ أنت تعرف ما سأطلبه منك؟

ـ نعم.

كانت الطريقة التي نظرت بها إليه بمثابة سؤال بليغ ويائس، وكان ينبغي عليه أن يضيف:

ـ أنت تعلمين أنّني سأرفض.

ـ لماذا؟

ابتسم بطربٍ، مشرعًا يديه، كأنّما أراد أن يثبت لها أنّ هذا هو ما توقّعه وكان يريد تجنّبه.

قالت بهدوء: عليّ أن أحاول يا فرانسيسكو. لا بدّ لي من تقديم الطلب. هذا جزء منّي. ما ستفعله هو ما يعنيك. ولكن على الأقلّ سأكون قد حاولت بشتّى السبل.

بقي واقفًا، لكنّ رأسه كان يميل قليلا في إشارة بالموافقة، ثمّ قال:

ـ سأستمع، إذا كان ذلك يساعدك.

ـ أحتاج إلى خمسة عشر مليون دولار لإكمال خطّ ريونورتي. لقد حصلت على سبعة ملايين مقابل أسهم شركة تاجارت التي أمتلكها مجّانًا وبوضوح. لا يمكنني رفع أيّ شيء آخر. سأصدر سندات باسم شركتي الجديدة بمبلغ ثمانية ملايين دولار. اتّصلت بك هنا لأطلب منك شراء هذه السندات.

لم يجبها. فاسترسلت في الكلام:

ـ أنا ببساطة متسوّلةٌ، وها إنّي أستجديك طلبا للمال. لطالما ظننت أنّ المرء لا يستجدي في العمل. اعتقدت أنّ المرء يقف على أساس ما يجب أن يقدّمه من فعل، فيعطي قيمةً مقابل قيمة أخرى. لم يعد هذا الأمر كذلك، على الرغم من أنّني لا أفهم

كيف يمكننا التصرّف وفقًا لأيّ قاعدة أخرى والاستمرار في الوجود. إذا حكمنا على الأمر من خلال كلّ حقيقة موضوعيّة، فإنّ خطّ ريونورتي سيكون أفضل السكك الحديديّة في البلاد. وإذا حكمنا بكلّ المعايير المعروفة، فهو أفضل استثمار ممكن. وهذا ما يلحق بي اللعنة. لا يمكنني جمع الأموال من خلال تقديم مشروع تجاريّ جيّد للناس: إنّه في الحقيقة جيّد، لكنّ الناس سيرفضونه. لا يوجد بنك يشتري سندات شركتي. لذلك لا يمكنني أن أبيعها بشرف، وإنّما بالاستجداء.

كانت تتحدّث بنبرة رسميّة. ثمّ توقّفت في انتظار ردّه، لكنّه بقي صامتًا. فقالت:

ـ أعلم أنّه ليس لديّ ما أقدّمه لك. لا يمكنني التحدّث إليك في ما يتعلّق بالاستثمار. فأنت لا تهتمّ بكسب المال. المشاريع الصناعيّة لم تعد تثير اهتمامك منذ فترة طويلة. لذلك لن أتظاهر بأنّه تبادل عادل. إنّه مجرّد تسوّل.. أعطني هذا المال صدقةً، لأنّه لا يعني لك شيئًا.

قال: لا تفعلي ذلك.

ثمّ خفض صوته. لم تستطع معرفة ما إذا كانت نبرة صوته تدلّ على الألم أم الغضب. كان ينظر بعينيه إلى أسفل حين سألته:

ـ هل ستفعلها يا فرانسيسكو؟

ـ لا.

قالت بعد هنيهةٍ: اتّصلت بك، لا لأنّني اعتقدت أنّك ستوافق، ولكن لأنّك كنت الوحيد الذي يمكنه فهم ما سأقوله. لذلك كان عليّ أن أحاول.

كان صوتها ينخفض، كما لو أنّها تأمل أن يصعب عليه إدراك مشاعرها. ثمّ أضافت:

ـ كما ترى، لا أصدّق أنّك هجرتني حقًّا... فأنا أعلم أنّك مازلت قادرًا على سماعي. أعرف أنّ الطريقة التي تعيش وفقها فاسدةٌ. لكنّ الطريقة التي تتصرّف بها ليست كذلك. حتّى الصيغة التي تتحدّث بها، ليست... كان عليّ أن أحاول... لكن

لا يمكنني إرهاق نفسي في فهمك بعد الآن.

ـ سأقدّم لك تلميحًا. لا توجد تناقضات. كلّما اعتقدت أنّك تواجهين تناقضًا، تحقّقي من فرضيّاتك المنطقيّة. ستجدين إحداها خاطئة.

همست: فرانسيسكو، لماذا لا تخبرني بما حدث لك؟

ـ لأنّ الجواب، في هذه اللحظة، سيؤذيك أكثر من الشكّ.

ـ هل هو فظيع إلى هذه الدرجة؟

ـ إنّها إجابة يجب أن تخلصي إليها بنفسك.

ـ لا أعرف ما يجب عليّ أن أقدّمه لك. لم أعد أعرف أيّ الأشياء باتت ذات قيمة في قاموسك. ألا ترى أنّ المتسوّل نفسه يجب أن يقدّم شيئًا كمقابل للتسوّل، يجب أن يقدّم سببًا للمساعدة التي يطلبها؟... حسنا، اعتقدت...، ذات مرّة، أنّ النجاح يعني لك الكثير، وتحديدًا النجاح في مجال الصناعة. أَتَذْكُر كيف كنّا نتحدّث عنه؟ كنت قويًّا جدًّا، وكنت تتوقّع منّي الكثير. لقد أخبرتني أنّ من الأفضل أن أفي به وأعيش من أجله، وهذا ما فعلتُ. وبالتأكيد كنت تتساءل إلى أيّ مدى سأرتقي بشركة تاجارت العابرة للقارّات.

حرّكت يدها مشيرة إلى المكتب. ثمّ أضافت:

ـ هذه هي المسافة التي قطعتها إلى حدّ الآن... لذا فكّرت... ما إذا كانت ذكرى كلِّ شيءٍ قيّمٍ لا تزال تحظى عندك ببعض المعنى، أو ما إذا كان الأمر مجرّد تسلية أو لحظة حزن عابرة، أو ما شابه ذلك... مثل وضع الزهور على قبر... قد ترغب في إعطائي المال ... باسم كلّ تلك الأشياء.

ـ لا.

قالت بجهدٍ: هذا المال لا يعني لك شيئًا، لقد أهدرت الكثير منه في أشياء عديمة الجدوى، لقد أهدرت الكثير في مناجم سان سيباستيان...

نظر إليها نظرة مباشرة، فلمحت في عينيه الشرارة الأولى لاستجابة حيّة، كانت نظرةً مشرقة، ليس فيها أيّ معنى من معاني الشفقة، بل معاني الفخر بشكل لا يصدّق، كما لو أنّ ذلك كان اتّهامًا منحه القوّة.

قالت ببطء كأنّها تجيب على فكرته: نعم، أدرك ذلك. لقد لعنتك على تلك المناجم، وذممتك، وسخرت منك بكلّ الطرق الممكنة، والآن أعود إليك طلبًا للمال. مثل جيم، مثل أيّ مُتسوّل قابلته على الإطلاق. أعلم أنّه انتصار لك، وأعلم أيضًا أنّ بإمكانك أن تضحك منّي وتحتقرني. حسنًا، ربّما يمكنني تقديم ذلك لك. إذا كانت التسلية التي تريدها، إذا كنت تستمتع برؤية جيم والمخطّطين المكسيكيّين يزحفون، أليس من الممتع أن تحطّمني؟ ألن يمنحك ذلك السعادة؟ ألا تريد أن تسمعني أقرّ لك بأنّني تعرّضت للضرب منك؟ ألا تريد رؤيتي وأنا أزحف أمامك؟ أخبرني عن الشكل الذي تريده وسأخضع.

تحرّك بسرعةٍ لم تستطع معها ملاحظة كيفيّة بدئه بالحركة؛ بدا لها فقط أنّ حركته الأولى كانت مرتجفة. حام حول المكتب، وأخذ يدها ورفعها إلى شفتيه. لقد بدت كبادرة احترام، أو أنّه يريد أن يمنحها القوّة؛ ولكن عندما أمسك شفتيه، ثمّ ضغط بوجهه على يدها، علمت أنّه كان يسعى إلى أن يحصل منها على القوّة لنفسه.

أفلت يدها، ونظر إلى وجهها في سكون يبدي خوفًا من عينيها. ثمّ ابتسم دون أن يخفي المعاناة والغضب والحنان.

ـ داغني، هل تريدين الزحف؟ أنت لا تعلمين ما تعنيه تلك الكلمة ولن تعلمي أبدًا معناها. لا يزحف المرء من خلال الاعتراف بالزحف على نحوٍ صادق مثل ذلك. ألا تفترضين أنّني أعلم أنّ تسوّلك لي كان أشجع شيء يمكنك القيام به؟ لكن... لا تسأليني يا داغني.

ـ باسم أيّ شيء كنت أعنيه لك... أيّ شيء بقي بداخلك عنّي...

ولحظةَ اعتقدت أنّها قد شاهدت تلك النظرة من قبل، وأنّ تلك النظرة هي

الطريقة التي كان ينظر بها حين يواجه توهّج المدينة الليليّ، عندما كان ينام بجانبها للمرّة الأخيرة، حين سمعت صراخه، ذاك النوع من البكاء الذي مزّق مشاعرها من قبل، قالت:

ـ حبيبتي، لا أستطيع!

فصدما بصمتٍ مذهل، عندما نظر أحدهما إلى الآخر، ثمّ رأت تغيّر وجهه. كان الأمر مفاجئًا جدًّا كما لو أنّه ألقى مفتاحًا. فضحك، وابتعد عنها وقال بصوت مسيء على نحو صارخ وغير رسميّ تمامًا:

ـ من فضلك اعذري هذا المزيج من أنماط التعبير. كان يُفتَرض بي أن أقول ذلك لنساء كثيرات، ولكن في مناسبات مختلفة إلى حدّ مّا.

طأطأت رأسها وجلست القرفصاء، وعندما رفعته، نظرت إليه بلامبالاة: حسنا، فرانسيسكو. لقد كان فعلا جيّدًا. وقد صدّقت ذلك. إذا كانت هذه هي طريقتك الخاصّة في الحصول على هذا النوع من المرح الذي كنت أقدّمه لك، فقد نجحت. لن أطلب منك أيّ شيء.

ـ لقد حذّرتك.

ـ لم أكن أعرف الجهة التي تنتمي إليها. لم يكن ذلك ممكنًا، ولكن يبدو أنّك في صفّ أورين بويل وبيرترام سكودر وأستاذك القديم.

سألها بحدّة: أستاذي القديم؟

ـ دكتور روبرت ستادلر.

ضحك معلنًا ارتياحه وقال:

ـ أوه، ذلك الشخص؟ ذلك اللّص الذي يعتقد أنّ غايته تبرّر استيلاءه على وسائلي. هل تعلمين يا داغني، أودّ منك أن تتذكّري الجانب الذي تعتقدين أنّني أتموقع فيه. في يوم من الأيّام، سأذكّرك بذلك وأسألك عمّا إذا كنت تريدين تكراره.

ـ لن تضطرّ إلى تذكيري.

التفت وهمّ بالذهاب. ثمّ رفع يده في تحيّة غير رسميّة وقال:

ـ إذا كان يمكن بناؤه، أتمنّى لك حظًا سعيدًا في خطّ ريونورتيي.

ـ سيتمّ بناؤه. وسوف نطلق عليه خطّ جون جالت.

ـ ماذا؟!

كانت صرخته حقيقيّة؛ فضحكت ساخرة: خطّ جون جالت.

ـ بحقّ السماء، لماذا؟

ـ ألا يعجبك؟

ـ كيف خطر ببالك هذا الاسم؟

ـ يبدو أنّه أفضل من السيّد نيمو أو السيد زيرو، أليس كذلك؟

ـ داغني، لماذا هذا الاسم؟

ـ لأنّه يخيفك.

ـ في اعتقادك، علامَ يحيل؟

ـ المستحيل. وما هو بعيد المنال. وأنت خائف من الخطّ تمامًا كما تخاف من هذا الاسم.

أخذ يضحك. كان يضحك من دون أن ينظر إليها، فشعرت بأنّه ربّما نسي حضورها، وأنّه كان بعيدًا جدًّا. كان يضحك بمرح وغضب -على شيء لم يكن له دور فيه- وعندما التفت إليها، قال بجدّيّة:

ـ داغني، لو كنت مكانك لما اخترت هذا الاسم.

ـ قالت متجاهلة: جيم أيضًا لم يعجبه.

ـ ما الذي أعجبك فيه؟

ـ أنا أكرهه! أكره الهلاك والاستسلام الذي تنتظرونه جميعًا، كما أكره هذا السؤال الذي لا معنى له ويبدو دائمًا مثل استغاثة النجدة. لقد سئمت سماع الاستجداء لجون جالت. سأقاتله.

قال بهدوء: أنت تفعلين ذلك.

ـ سأبني خطّ سكّة حديد باسمه. دعه يأتِ ويطالب به!

ابتسم بحزن وأومأ برأسه وقال: سيأتي.

***

توهّج الفولاذ المصبوب عبر السقف وانفجر على أحد الجدران. جلس ريردن إلى مكتبه، على ضوء مصباح واحدٍ فوق الطاولة. وبعيدًا عن دائرة ضوء ذلك المصباح، امتزج ظلام المكتب بالظلام في الخارج. فشعر كما لو أنّ المكتب مساحة فارغة تتحرّك فيها أشعّة الأفران حسب رغبتها؛ أو أنّه كان طوّافة معلّقة في الجوّ، تمسك بشخصين وتسجنهما في زنزانة انفراديّة. جلست داغني أمام مكتبه.

خلعت معطفها، وجلست مواجهةً إيّاه بجسدها النحيف المتوتّر في حلّة رماديّة، وكانت تميل قطريًّا على الكرسيّ العريض. رأى ريردن ملامح الشحوب على وجهها، وهي ترتدي بلوزة بيضاء بطوق مثلّث مفتوح.

قالت: حسنًا هانك، نحن نمضي قدمًا في جسر ريردن المعدنيّ. هذا هو الأمر الرسميّ عند المالك الرسميّ لخطّ جون جالت.

ابتسم وهو ينظر إلى رسومات الجسر التي تنتشر على مكتبه. ثمّ قال:

ـ هل سنحت لك فرصةٌ لفحص المخطّط الذي قدّمناه؟

ـ نعم. لست بحاجة إلى تعليقاتي أو مجاملاتي. عقد الطلبيّة يشترط ذلك.

ـ ممتاز، شكرا لك. سأبدأ في صهر المعدن.

ـ ألا تريد أن تسأل عمّا إذا كان خطّ جون جالت في وضعٍ يمكّنه من تقديم

الطلبات أو العمل؟

ـ لست بحاجة إلى ذلك. لأنّ قدومك إلى هنا يوحي به.

قالت مبتسمة: صحيح. كلّ شيء جاهز. جئت لأخبرك بذلك وأناقش معك تفاصيل الجسر.

ـ حسنًا، أنا فضوليّ: من هم حَمَلة السندات في خطّ جون جالت؟

ـ لا أعتقد أنّ أيًّا منهم يمكنه تحمُّل ذلك. كلّ واحد منهم يملك شركات نامية. كلّهم بحاجة إلى أموالهم من أجل مشاغلهم الخاصّة. لكنّهم كانوا بحاجة إلى الخطّ ولم يطلبوا المساعدة من أيّ شخص.

أخرجت ورقة من حقيبتها ثمّ سلّمته إيّاها قائلةً: هذه هي شركة جون جالت.

كان يعرف معظم الأسماء في القائمة: إليس وايت ممثّل حقول وايت للنفط، في كولورادو؛ وتيد نيلسن عن شركة نيلسن موتورز، في كولورادو؛ لورانس هاموند، ممثّل شركة سيّارات هاموند، في كولورادو؛ أندرو ستوكتون عن شركة ستوكتون للسباكة، في كولورادو. كان هناك عدد قليل من الولايات الأخرى. لقد لاحظ وجود اسم: كينيث داناغر عن شركة داناغر للفحم، في بنسلفانيا. اختلفت مقادير اشتراكاتهم، من مبالغ ذات خمسة أرقام إلى أخرى ذات ستّة أرقام.

مدّ يده ليلتقط قلمه الحبر، وكتب في أسفل القائمة هنري ريردن، عن شركة ريردن للفولاذ، في بنسلفانيا، يساهم بمليون دولار. ثمّ مدّ الورقة إلى داغني.

قالت بهدوءٍ: هانك، لم أكن أرغب في أن تضيف اسمك إلى القائمة. لقد استثمرت الكثير في شركة معدن ريردن ممّا يجعل الأمر أسوأ عندك أكثر منه عند أيّ واحدٍ منّا. لا يمكنك تحمّل مخاطر أخرى.

أجاب ببرودٍ: أنا لا أستجدي الحسنات.

ـ ماذا تعني؟

ـ أنا لا أطلب من الناس أن يجازفوا في مغامراتي بفرصٍ أعظم ممّا أنجزه بنفسي. إذا كانت مقامرة، فسأراهن بالتساوي مثل أيّ شخص. ألم تقولي إنّ هذا المسار هو أوّل عرضٍ لي؟

مالت برأسها وقالت: حسنًا. شكرا لك.

قال بالمناسبة: لا أتوقّع أن أخسر هذا المال. أنا على دراية بالظروف التي يمكن بموجبها تحويلُ هذه السندات إلى أسهم حسب اختياري. لذلك أتوقّع أن أحقّق ربحًا كبيرًا، وستضمنينه لي.

ضحكت وقالت: يا إلهي، لقد تحدّثت إلى حمقى كثيرين حتّى إنّهم كادوا يقنعونني بأنّني سأتكبّد في بناء هذا الخطّ خسارة فادحة! شكرا لتذكيري. نعم، أعتقد أنّني سأجني لك ربحًا مهمًّا.

ـ إذا لم يكن من أجل الحمقى، فلن يكون هناك أيّ خطر على الإطلاق. لكن علينا أن نضربهم. سنفعل ذلك.

مدّ يده لمسك برقيّتين من بين الأوراق على مكتبه، ثمَّ استأنف كلامه:

ـ لا يزال هناك عدد قليل من الرجال.

ثم مدَّها بالبرقيّات قائلًا: أعتقد أنّك ترغبين في رؤيتها.

قرأ إحدى البرقيّات: كنت أنوي إنجازه في مدّة عامين، لكنّ بيان معهد الدولة للعلوم يجبرني على المضيّ قدمًا في الحال. ضع في اعتبارك أنّنا ملتزمون ببناء خطّ أنابيب مقاس 12 بوصة من معدن ريردن، 600 ميل، من كولورادو إلى مدينة كانساس. تتبّع التفاصيل. إليس وايت.

وقرأ في البرقيّة الأخرى: إعادة مناقشتنا لطلبي. انطلق. كين داناغر وأضاف شارحًا:

ـ لم يكن مستعدًّا للمضيّ قدمًا في الحال. إنّها ثمانية آلاف طن من معادن ريردن. معدن إنشائيّ. لمناجم الفحم.

تبادلا نظرةً وابتسما. لم يحتاجا إلى مزيد من التعليقات.

نظر إلى أسفل عندما أعادت إليه البرقيّات. بدت بشرة يدها شفّافة في الضوء على حافّة مكتبه، تمامًا مثل يد فتاة صغيرة بأصابع طويلة ورقيقة، مسترخية للحظة، بلا حماية.

قالت: شركة ستوكتون للسباكة في كولورادو، ستلبّي طلبي... ذلك الأمر الذي تهرّبت منه الشركة المندمجة للمفاتيح والإشارات. سيتّصلون بك في خصوص المعدن.

ـ لقد اتّصلوا بي فعلًا. ماذا فعلت بشأن أطقم البناء؟

ـ مهندسو نيلي باقون، وأفضل سائقي القطارات الذين أحتاج إليهم، ومعظم الروّاد أيضًا. لن يكون من الصعب استمرارهم. نيلي لم يكن مفيدا على أيّة حال.

ـ ماذا عن العمل؟

ـ طالبو الشغل هم أكثر ممّا أحتاج إليه. لا أعتقد أنّ النقابة ستتدخّل. معظم المتقدّمين يعطون أسماء مزيّفة. إنّهم أعضاء في النقابات. هم بحاجة ملحّة إلى العمل. سيكون لديّ بعض الحرّاس على الخطّ، لكنّي لا أتوقّع أيّ مشكلة.

ـ ماذا عن مجلس إدارة أخيك جيم؟

ـ إنّهم يتدافعون جميعًا للحصول على تصريحات في الصحف يؤكّدون فيها أنّه لا تجمعهم أيّ صلة بخطّ جون جالت ويستنكرون فيها التعهّدات التي يعتقدون أنّها مذمومة. لقد وافقوا على كلّ ما طلبته منهم.

بدا خطّ كتفيها مشدودًا، ولكنّها استرخت بسهولة إلى الوراء، كما لو أنّها تستعدّ للطيران. بدا توتّرها طبيعيًّا، لم يكن علامة على القلق، بل على المتعة؛ لقد اجتاح التوتّر كامل جسدها تحت البدلة الرماديّة التي يظهر نصفها في الظلام.

قالت: تولّى إيدي ويلرز منصب نائب الرئيس التنفيذيّ. إذا كنت بحاجة إلى أيّ شيء، سأتّصل به. سأغادر إلى كولورادو هذه الليلة.

ـ هذه الليلة؟

ـ نعم. علينا أن نرتّب أمورنا. لقد ضيّعنا أسبوعًا كاملًا.

ـ هل ستستقلّين طائرتك الخاصّة؟

ـ نعم. سأعود بعد حوالي عشرة أيّام. أنوي أن أكون في نيويورك مرّة أو مرّتين في الشهر.

ـ أين ستعيشين هناك؟

ـ في موقع الأشغال. في عربة السكك الحديديّة الخاصّة بي، في أيّ سيّارة من سيّارات إيدي التي سأستعيرها.

ـ هل ستكونين في أمان؟



ـ الأمان من ماذا؟

ضحكت بذهولٍ، ثمّ أضافت:

ـ لماذا يا هانك، إنّها المرّة الأولى التي تعتقد فيها أنّني لست رجلًا. بالطبع سأكون في أمان.

لم يكن ينظر إليها؛ كان ينظر إلى ورقة من الأرقام على مكتبه. ثمّ قال:

لقد طلبت من مهندسي إعدادَ تكلفة الجسر، وجدولًا زمنيّا تقريبيًّا للمدّة التي سيستغرقها البناء. هذا ما أردت مناقشته معك.

مدّها بالأوراق، ثمّ شرعت في قراءتها. سقط ضوء على وجهها. رأى الفم المحسوس الثابت في مخطّط حادّ. ثمّ انحنت قليلًا، ولم يرَ إلّا ملامحها والخطوط الداكنة من رموشها المنخفضة.

وقال في نفسه: ألم أفكّر في الأمر منذ الوهلة الأولى التي رأيتك فيها؟ أليس كذلك؟ ألم أفكّر في أيّ شيء آخر لمدّة عامين؟.. جلس بلا حراك، ينظر إليها. سمع الكلمات التي لم يسمح لنفسه قطّ بصياغتها، الكلمات التي شعر بها وعرفها، وتلك

التي لم يهمس بها بعدُ. كان يأمل في ألّا تنزلق منه تلك الكلمات الآن، بدا الأمر مفاجئًا وصادمًا كما لو أنّه يهمس لها بتلك الكلمات... منذ الوهلة الأولى التي رأيتك فيها... لا شيء غير جسدك، فمك، وطريقة نظر عينيك إليّ، لو... من خلال كلّ جملة قلتها لك، من خلال كلّ مؤتمر لنا كنت تعتقدين أنّه آمن جدًّا، من خلال أهمّيّة جميع القضايا التي ناقشناها...أنت وثقت بي، أليس كذلك؟ للتعرّف على عظمتك؟ للتفكير فيك كما تستحقّين وكأنّك كنت رجلًا؟ ألا تفترضين أنّني أعلم كم مرّة خنتك؟ أنت اللقاء المشرق الوحيد في حياتي، الشخص الوحيد الذي أحترمه، وأفضل امرأة أعمال أعرفها، أنت حليفي وشريكي في معركة يائسة... أدنى الرغبات مثل ردٍّ على أعلى رغبة واجهتها... هل تعرفين ما أنا عليه الآن؟ لقد فكّرت في الأمر، لأنّه كان يفترض بي ألّا أتصوّره. من أجل تلك الحاجة المهينة، التي لا ينبغي أن تمسّك أبدًا، لم أرغب قطّ في أيّ شخص غيرك... لم أكن أعرف كيف كانت الحال قبلك، وما كنت أريد، حتّى رأيتك للمرّة الأولى. كنت أفكّر: ليس أنا، لا شيء يستطيع تحطيمي... منذ ذلك الحين... ولمدّة عامين... دون راحة... هل تعلمين كيف يبدو الأمر؟ هل ترغبين في سماع ما فكّرت فيه عندما نظرت إليك... عندما كنت مستيقظًا في الليل...عندما سمعت صوتك عبر الهاتف... عندما حاولت طرده، لكنّني لم أستطع إلى ذلك سبيلا؟ للنزول بك إلى الأشياء التي لا يمكنك تصوّرها، ومعرفة أنّني أنا من فعلها. لاختزالك في الجسد، لتعليمك متعة الحيوان، لرؤيتك في حاجة إليها، لرؤيتك تطلبين منّي ذلك، لرؤية روحك الرائعة التي تعتمد على فُحْشِ حاجتك. لمشاهدتك كما أنت، وأنت تواجهين العالم بقوّتك النظيفة وما بها من فخرٍ، ثمّ لرؤيتك في سريري والخضوع لأيّ نزوة سيّئة السمعة قد أختلقها، الاستسلام لأيّ فعل سأقدم عليه لغرض وحيد هو مشاهدة غياب التشريف الخاصّ بك، والذي ستخضعين له من أجل إحساس لا يوصف... أريدك، وقد أكون ملعونًا على ذلك!...

كانت تقرأ الأوراق، مائلة إلى الخلف في الظلام، ثمّ رأى انعكاس لهيب النار

يلامس شعرها، ينتقل إلى كتفها، إلى أسفل ذراعها، إلى بشرة معصمها العاري.

هل تعرفين ما أفكّر به في هذه اللحظة؟ بدلتك الرماديّة والياقة المفتوحة... تبدين يافعة جدًّا، صارمة جدًّا، واثقةً من نفسك... كيف ستبدين لو ألقيت برأسك إلى الوراء، وتخلّصت من هذه البدلة الرسميّة، ورفعت تنّورتك؟

نظرت إليه. كان ينظر إلى الأوراق على مكتبه. ثمّ قال:

ـ التكلفة الفعليّة للجسر أقلّ من تقديراتنا الأوّليّة. ستلاحظين أنّ قوّة الجسر تسمح بإضافة مسارٍ ثانٍ في نهاية المطاف، وهو أمر أعتقد أنّ الناس في هذا الجزء من البلاد سيجدون له الأعذار خلال سنوات قليلة جدًّا. إذا وزّعت التكلفة على مدى...

تحدّث، فنظرت إلى ملامح وجهه في المصباح، في مواجهة مع الفراغ الأسود في المكتب. كان المصباح خارج مجال رؤيتها، فشعرت كما لو أنّ وجهه هو الذي أضاء الأوراق على المكتب. فكّرت في وجهه، والوضوح المشعّ في صوته وعقله، ودفعه نحو غرض واحدٍ. كان الوجه مثل كلماته أو كأنّه خطّ موضوع واحد يمتدّ من نظرة ثابتة في العينين، ومن خلال عضلات الخدّين الهزيلة، إلى منحنى الفم المزعج الضعيف، كان خطًّا زهدًا لا يرحم.

***

استهلَّ يومَه بخبر كارثيّ، فقد اصطدم قطار شحن لشركة جنوب المحيط الأطلسيّ اصطدامًا مباشرا بقطار ركّاب في نيو مكسيكو على منحنى حادٍّ في الجبال، ناشرًا عربات الشحن في جميع أنحاء المنحدرات. وكانت العربات تحمل خمسة آلاف طن من النحاس، متّجهةً من منجم في أريزونا إلى مصانع ريردن.

اتّصل ريردن بالمدير العامّ لشركة جنوب المحيط الأطلسيّ، لكنّ الجواب الذي تلقّاه كان:

ـ يا إلهي، ماذا يمكننا أن نقول حيال ذلك؟ وماذا يمكن لأيّ شخص أن يقول في

مثل هذا الموقف؟ وكم من الوقت ستستغرقه إزالة هذا الحطام؟ لقد كانت أسوأ كارثة شاهدناها على الإطلاق... لا أعرف يا سيّد ريردن. لا توجد خطوطٌ أخرى في أيّ مكان من هذا القسم. المسار ممزّق على مدى اثنتي عشرة مائة قدم. كان هناك انزلاق صخريّ. قطار الإنقاذ الخاصّ بنا لا يستطيع المرور. لا أعرف كيف ومتى سنعيد عربات الشحن تلك إلى القضبان. لا يمكن توقّع ذلك قبل أسبوعين... ثلاثة أيّام؟ مستحيل يا سيّد ريردن! ولكن لا، ليس بوسعنا تحقيق ذلك! ولكن بالتأكيد يمكنك أن تخبر عملاءك أنّه قضاء وقدر من الله! ماذا لو أوقفتهم؟ لا أحد يستطيع لَومَك في حالة من هذا النوع!

في الساعتين المواليتين، وبمساعدة سكرتيرته ومهندسين شابّين من قسم الشحن الخاصّ به، رتّب ريردن أسطولا من الشاحنات للذهاب إلى موقع الحطام، وسلسلةً من السيّارات الرباعيّة الدفع لمقابلتها في أقرب محطّة لشركة سكك جنوب المحيط الأطلسيّ. واستعار السيّارات الرباعيّة الدفع من شركة تاجارت العابرة للقارّات. استُقدِمت الشاحنات من جميع أنحاء نيو مكسيكو وأريزونا وكولورادو. وتصيّد مهندسو ريردن أصحاب الشاحنات الخاصّة عبر الهاتف وعرضوا عليهم مبالغ شحن مغرية جدًّا.

كانت الشحنة الثالثة من ثلاث شحنات نحاس توقّع ريردن وصولها. فلم يتمّ تسليم طلبيّتين: الشركة الأولى توقّفت عن العمل، والأخرى كانت تلتمس عذرًا بالتأخير الخارج عن نطاقها.

وحضر ريردن للأمر دون أن يخلَّ بسلسلة مواعيده، ودون أن يرفع صوته، دون علامة إجهاد أو عدم يقين أو تخوّف؛ لقد تصرّف بدقّة سريعة كما يتصرّف قائد عسكريّ تحت النيران المفاجئة، وقد ساعدته جوين إيفز، سكرتيرته، بهدوء أكبر. كانت فتاة في أواخر العشرينات من عمرها، وكان لوجهها المتناسق الهادئ الذي لا يمكن اختراقه جودةٌ تتناسب مع أفضل المعدّات المكتبيّة المصمّمة؛ كانت أحد أكثر موظّفيه كفاءة، توحي طريقتها في أداء واجباتها بنوع من الوضوح العقلانيّ الذي

يعتبر أيّ بُعدٍ من أبعاد العاطفة، أثناء العمل، بمثابة أخلاق لا تُغتَفر.

عندما انتهت حالة الطوارئ، كان تعليقها الوحيد:

ـ يا سيّد ريردن، أعتقد أنّنا يجب أن نطلب من جميع مورّدينا الشحنَ عبر شركة تاجرت العابرة للقارّات.

أجابها: أنا أفكّر في ذلك أيضًا.

ثمّ أضاف:

ـ أخبري واير فلامينج في كولورادو بأنّني اتّخذت قرارا بشأن ملكيّة منجم النحاس.

ثمّ عاد إلى مكتبه، وتحدّث إلى مديره على أحد الهواتف ولمدير المشتريات الخاصّ به على هاتف آخر. هناك كان يفحص كلّ التواريخ وكلّ ما في متناوله من أطنان الخام. لم يكن بإمكانه ترك الأشياء للمصادفة أو تحت تصرّف أيّ شخص آخر قد يتسبّب في احتمال تأخّر ساعة واحدة في تدفّق الفرن: كان آخر شحن لسكك خطّ جون غايت قد سُكِب عندما رنّ الجرس فأعلمه صوت الآنسة إيفز أنّ والدته بالخارج، تودّ رؤيته.

كان قد طلب من عائلته عدم القدوم إلى المطاحن من دون موعد مسبق. وأسعده أنّهم يكرهون المكان ونادرا ما ظهروا في مكتبه. أمّا ما شعر به الآن فكان دافعًا عنيفًا لإخراج والدته من المبنى. وبدلًا من ذلك، وبجهدٍ أكبر من مشكلة حطام القطار المطالب بحلّها، قال بهدوء:

ـ حسنًا. اطلب منها أن تدخل.

جاءت والدته مشحونة بطاقةٍ من دفاع عدائيّ. نظرت إلى مكتبه كما لو أنّها تعرف ما يعنيه له المكتب، وكأنّها تعلن استياءها من أن تكون لأيّ شيء أهمّيّةٌ أكبر من شخصها. استغرقت وقتًا طويلًا لتستقرّ على كرسيّ بذراعين، وترتّب حقيبتها، وقفّازَيها، وطيّات فستانها، وتعيد ترتيبها، وهي تدندن بأغنية، ثمّ قالت:

ـ إنّه لأمر جيّد أن تضطرّ الأمّ إلى الانتظار في الردهة وتطلب الإذنَ من عون الاستقبال قبل أن يسمح لها برؤية ابنها...

ـ أمّي، هل من شيء مهمّ؟ أنا اليوم مستعجل جدًّا.

ـ أنت لست الوحيد الذي يعاني من مشاكل. وما جئت من أجله مهمّ بطبيعة الحال. هل تعتقد أنّني سأتكبّد عناء السفر إلى هنا إذا لم يكن الأمر مهمًّا؟

ـ ما هو هذا الأمر المهمّ؟

ـ الأمر يخصّ فيليب.

ـ نعم، ما خطبه؟

ـ فيليب غير سعيد.

ـ حسنا، ثمّ ماذا؟

ـ هو يشعر أنّه ليس من الصواب أن يضطرّ إلى الاعتماد على مؤسّستك الخيريّة والعيش على الصدقات من غير أن يكون له دولار واحد خاصّ به يعتمد عليه.

قال مبتسمًا: حسنا! لقد كنت أنتظر منه أن يدرك ذلك.

ـ ليس من الصواب أن يكون رجل عاطفيّ في مثل هذا الموقف.

ـ بالتأكيد، هو ليس كذلك.

ـ أنا سعيدة لأنّك تتّفق معي. لذا ما ينبغي عليك فعله هو أن تمنحه وظيفة.

ـ أمنحه ماذا؟

ـ يجب أن تمنحه وظيفة هنا في المطاحن، لكن يجب أن تكون وظيفة جيّدة ونظيفة، بالطبع، وظيفة بمكتب وأجر لائق، فلا يضطرّ إلى أن يكون بين عمّال الأفران الذين تفوح منهم روائح كريهة.

كان يدرك ما سمعه، لكنّه لم يستطع تصديق ما قالته:

ـ أمّي، أنت لست جادّة.

ـ بالتأكيد أنا جادّة. شاءت الأقدار أن أكون على علم بما يبحث عنه.. ولكن إذا عرضت عليه العملَ وكأنّك تستجدي منه معروفًا فاعلم أنّه سيكون سعيدًا بقبول هذا العرض. لهذا السبب كان عليَّ أن آتي إلى هنا لأتحدّث إليك، كي لا يخمّن أنّني أنا من طلب منك ذلك.

لم يكن من طبيعة وعيه فهمُ طبيعة الأشياء التي يسمعها. لقد خطرت بباله إحدى الأفكار التي كانت بمثابة أضواء كاشفة، جعلته غير قادر على تصوّر السبب الذي جعله يفوّت فرصة الانتباه إليها. مرّت تلك الفكرة بذهنه وكأنّها صرخة حيرة:

ـ لكنّه لا يفقه أيَّ شيء في تجارة الصلب!

ـ إنّه فقط يحتاج إلى عمل.

ـ لكنّه لا يستطيع إنجاز هذا العمل.

ـ هو يحتاج فقط إلى الثقة بالنفس والشعور بالأهمّيّة.

ـ لكن لا خير يُرجَى منه مهما يكن الأمر.

ـ يحتاج إلى الشعور بأنّه مرغوب فيه.

ـ هنا؟ ما الذي سأحتاج إليه فيه؟

ـ أنت توظّف غرباء كثيرين.

ـ أوظّف الرجال الذين ينتجون. ما الذي يمكن أن يقدّمه لي؟

ـ إنّه أخوك، أليس كذلك؟

ـ ما علاقة ذلك بالعمل؟

أخذت تحدّق فيه بشكل لا يصدّق، وكانت هي أيضًا صامتة من وقع الصدمة. وللحظة، جلسا معًا يتبادلان النظرات، كما لو أنّهما كانا بعيدين بُعْدَ المسافة بين الكواكب.

قالت: إنّه أخوك.

كان صوتها مثل تسجيل الفونوغراف يكرّر صيغة سحريّة لا تستطيع السماح لنفسها بالشكّ فيها، ثمّ أضافت:

ـ إنّه بحاجة إلى مكانة في العالم. إنّه يحتاج إلى راتب، يحتاج إلى الإحساس بأنّه يستحقّ الأموال التي يحصل عليها لأنّه يكسبها بعرق جبينه.

ـ كما يستحقّ...؟ لكنّي لا أراه يستحقّ مليّما واحدًا.

ـ هل هذا ما تؤمن به أوّلًا؟ الربح الخاصّ بك؟ أطلب منك مساعدة أخيك، وأنت تفكّر في كيفيّة ربح المليّم منه، ولن تساعده ما لم يدرّ عليك وجودُه مالًا، هل هذا هو كلُّ شيء؟

شاهدت تعابير عينيه، ونظرت بعيدًا، لكنّها تحدّثت على عجل بصوت مرتفع:

ـ نعم، بالتأكيد، أنت تساعده كما لو أنّك تساعد أيّ شحّاذ ضالّ. أنت لا تعرف إلّا المساعدة. هل فكّرت في احتياجاته الروحيّة؟ إنّه لا يريد أن يعيش مثل الشحّاذ. بل يريد أن يكون مستقلًّا عنك.

ـ أي من خلال الحصول على راتب منّي يكسبه مقابل عمل لا يستطيع القيام به؟

ـ لا تفوّت هذه الفرصة. لديك هنا ما يكفي من الأشخاص الذين يدرّون عليك المال.

ـ هل تطلبين منّي مساعدته في احتيالٍ من هذا النوع؟

ـ ليس عليك أن تضعه في هذا الموقف.

ـ هل هي عمليّة احتيال أم لا؟

ـ لهذا السبب لا يمكنني التحدّث معك، لأنّك لست بشريًّا. أنت إنسان بلا قلب.

ـ هل هو احتيال أم لا؟

ـ أنت لا ترحم أحدًا.

ـ هل تعتقدين أنّ هذا النوع من الاحتيال سيكون عادلًا؟

ـ أنت أكثر رجل غير أخلاقيّ يعيش في الكون، لا تفكّر إلّا في العدالة! ولا تشعر بأيّ حبّ على الإطلاق!

نهض، ثمّ تحرّك فجأة بغلظة، مصدرًا حركةً تنهي المقابلة وتأمر الضيف بالمغادرة: أمّي، أنا أدير مصنعًا للصلب، وليس بيتا للدعارة.

صرخت ساخطة لأنّه لجأ إلى لغة تخدش الحياء: هنري!

ـ لا تتحدّثي معي مرّة أخرى عن وظيفة لفيليب. لن أعطيه وظيفة كنّاس للرماد. لن أسمح له بالدخول إلى مطاحن الصلب. أريدك أن تفهمي ذلك مرّة وإلى الأبد. يمكنك محاولة مساعدته بأيّ طريقة تريدينها، ولكن لا تدعيني أراك أبدًا تفكّرين في مطاحني كوسيلة لتحقيق هذه الغاية.

ارتخت تجاعيد ذقنها الناعم إلى ما يشبه السخريّة، ثمّ قالت:

ـ ألا يمكن لمطاحنك أن ترتقي إلى مرتبة معبد مقدّس من أيّ نوع؟

قال بهدوء وقد فاجأته الفكرة: بلى... ولماذا؟

ـ ألا تفكّر أبدًا في الناس وواجباتك الأخلاقيّة؟

ـ أنا لا أعرف كيف تختارين قبول الأخلاق. لا، أنا لا أفكّر في الأشخاص، إلّا أنّي إذا منحتُ فيليب وظيفةً، فلن أتمكّن من مواجهة أيّ رجل كفء يحتاج إلى عمل ويستحقّه.

نهضت. وهي تجذب رأسها إلى كتفيها، وبدا أنّ مرارة صوتها النزيه تدفع الكلمات إلى أعلى تجاه قامته الطويلة المستقيمة:

ـ أنت قاسٍ، هذا ما يسمّى بالدناءة والأنانيّة. لو أنّك تحبّ أخاك، فستمنحه وظيفة لا يستحقّها، وتحديدًا لأنّه لم يكن يستحقّها، هذا هو الحبّ الحقيقيّ والأخوّة. ماذا عن الحبّ؟ إذا كان الرجل يستحقّ وظيفة، فلا فائدة من منحه إيّاها. الفضيلة هي أن تعطي للذين لا يستحقّون.

كان ينظر إليها كطفل يعيش كابوسًا غير مألوف، بشكوك تمنعه من أن يصبح مرعبًا. ثمّ قال ببطء:

ـ أمّي، أنت لا تدركين ما تقولين. أنا لا أقدر البتّة على احتقارك بما يكفي لأصدّق أنّك تقصدين ذلك.

لقد أذهلته النظرة إلى ملامح وجهها أكثر من أيّ شيء آخر: كانت نظرةَ هزيمةٍ لا تخلو من دهاءٍ غريب ومكر وسخريّة، كما لو أنّها كانت تحمل لبعض الوقت بعضَ حكم الدّنيا التي تسخر من براءته.

عَلِقت بذهنه ذكرى تلك النظرة، مثل إشارة تحذير تخبره أنّه لمح مشكلة كان عليه أن يفهمها. لكنّه لم يستطع التعامل معها، ولم يستطع إجبار عقله على قبولها بوصفها تستحقّ التفكير، ولم يجد أيّ فكرة سوى عدم ارتياحه القاتم وصدّه، ولم يكن لديه وقت لَمْنحها أيّ اهتمام، ولم يستطع التفكير فيها الآن، كان يواجه المتّصل التالي الذي يجلس أمام مكتبه. ويستمع إلى رجل يلتمس حياته.

لم يذكر الرجل ذلك بمثل تلك المصطلحات، لكنّ ريردن كان يعلم أنّ هذا هو جوهر القضيّة. ما ضمّنه الرجل في الكلمات هو مجرّد التماس خمسمائة طن من الفولاذ.

كان السيّد وارد من شركة وارد هارفيستر في ولاية مينيسوتا. وهي شركة متواضعة ذات سمعة لا تشوبها شائبة، تعاني من ذلك النوع من المخاوف التجاريّة التي نادرًا ما تنمو بشكل كبير، لكنّها لا تُفشِلها أبدًا. مثّل السيّد وارد الجيل الرابع من عائلةٍ امتلكت المصنعَ وأعطته أفضل ما يمليه الضمير من القدرات.

كان رجلًا في الخمسينات من عمره ذا وجه عريض صلبٍ. وعند النظر إليه، يعرف المرء أنّه لن يجد من اللّائق أن يترك وجهه يُظهر المعاناة تمامًا مثل نزع ملابس في الأماكن العامّة. تحدّث بطريقة جافّة وشبه تجاريّة. وأوضح أنّه كان يتعامل دائمًا، شأنه في ذلك شأن والده، مع إحدى شركات الصلب الصغيرة التي استحوذت

عليها الآن شركة أورين بويل واسمُها شركة مجمّع الفولاذ. لقد انتظر آخر طلب له من الصلب مدّة عامٍ. وقضّى الشهر الماضي يكافح من أجل الحصول على لقاء شخصيّ مع ريردن.

قال: أعلم أنّ مصانعك تعمل بكفاءةٍ يا سيّد ريردن. وأعرف أنّك لست في وضع يتيح لك الاعتناء بالطلبات الجديدة. هل يتعيّن على العملاء القدامى أن ينتظروا دورهم، لأنّك الشركة الوحيدة الموثوق بها التي تعمل في مجال صنع الصلب في البلاد؟ لا أعرف السبب الذي دفعك إلى إلغاء طلبي. لم يتبقّ أمامي إلّا حلّ وحيد هو إغلاق مصنعي. وأنا لا أستطيع تحمّل ذلك... حتّى الآن... لذلك اعتقدت أنّني سأتحدّث معك، حتّى إن تكُن لديّ فرص كثيرة...، كان عليّ أن أجرّب كلّ شيء ممكن.

كانت هذه لغة يمكن لريردن فهمها، فقال:

ـ أرجو أن أتمكّن من مساعدتك، لكنّي أمرّ بأسوإ فترة بسبب ظرف كبير جدًّا وخاصّ جدًّا يحظى بالأسبقيّة على كلّ شيء.

ـ أعرف ذلك. لكن هل ستستمع إليّ على الأقلّ؟

ـ بالتأكيد.

ـ إذا كانت المسألة تتعلّق بالمال، فسوف أدفع لك أيّ مبلغ تطلبه. إذا كان بإمكاني أن أجعل الأمر يستحقّ ذلك بهذه الطريقة، فمن فضلك حمّلني أيّ مبلغ إضافيّ إن شئت، أو حتّى ضاعف السعر العاديّ، وفّر لي فقط الفولاذ. لا يهمّني إذا خسرت هذا العام لكي تبقى أبواب شركتي مفتوحة. لقد حصلت على ما يكفي لأقاوم الخسارة لبضع سنوات. أنا أعتقد أنّ الأمور لا يمكن أن تستمرّ على هذا النحو لفترة أطول، فالظروف ستتحسّن، بل يجب أن تتحسّن وإلّا سنكون... يجب عليها أن تتحسّن.

قال ريردن: ستتحسّن.

ثمّ خطرت فكرة خطّ جون جالت ببال ريردن، وكأنّ الأمر انسجم مع صوت كلماته الواثق. كان خطّ جون جالت يتقدّم. وقد توقّفت الهجمات على معدنه. وشعر كما لو أنّه كان بعيدًا بأميالٍ عن جميع أنحاء البلاد، فقد وقف هو وداغني تاجارت الآن في مساحة خالية، وتمّ تمهيد طريقهما، مجّانًا لإنهاء المهمّة. فقال في نفسه، إنّهم سيتركوننا وشأننا لتنفيذ ذلك. كانت الكلمات بمثابة ترنيمة معركة في ذهنه: سيتركوننا وشأننا.

قال السيّد وارد: إنّ طاقة المصنع تبلغ طاقة ألف آلة حصاد سنويًّا. في العام الماضي، طرحنا ثلاثمائة فقط. لقد دفعت ثمن الفولاذ دفعةً واحدة من مبيعات اضطرّني إليها الإفلاس، وتوسّلت بضعة أطنان من الشركات الكبرى، وصرت أتجوّل مثل الزبالة بين جميع أنواع الأماكن غير المحتملة. حسنًا، لن أثقل عليك، فقط لم أفكّر قطّ أنّه سيأتي عليّ زمن أعيش فيه لأرى العمل بهذه الطريقة. وطوال الوقت، كان السيّد أورين بويل يقسم لي أنّه سيرسل لي الفولاذ الأسبوع المقبل. ولكن مهما يَكُن حجم الفولاذ المنتَج، فإنّه سيذهب إلى الزبائن الجدد، لسبب لا أعرفه، سمعته فقط يهمس بأنّهم رجال يحظون بنوع من الاستقطاب السياسيّ. والآن لا يمكنني البتّة أن أصل إلى السيّد بويل. إنّه في واشنطن، وظلّ هناك لأكثر من شهر. وكلّ ما أخبرني به مكتبه هو أنّهم لا يستطيعون مساعدتي، لأنّهم لا يستطيعون الحصول على الخام.

قال ريردن: لا تضيّعوا وقتكم في الذهاب إليهم. لن تحصلوا على أيّ شيء من تلك الجماعة.

قال بنبرة مُكتشِف لم يكن يصدّق أنّه يستطيع التصريح بها:

ـ أعتقد، يا سيّد ريردن، أنّ هناك شيئًا مّا زائفًا في الطريقة التي يدير بها السيّد بويل أعماله. لا أستطيع إدراك غايته. يملك نصف أفران خاملة، ولكن في الشهر الماضي ظهرت كلّ تلك القصص الكبيرة عن شركة مجمّع الفولاذ في جميع الصحف، تتحدّث عن إنتاجهم؟! لمَ لا يتحدّثون عن مشروع الإسكان الرائع الذي بناه السيّد

بويل توًّا لعمّاله. في الأسبوع الماضي، كانت الأفلام الإشهاريّة الملوّنة التي أرسلها السيّد بويل إلى جميع المدارس الثانويّة توضّح كيفيّة صنع الفولاذ والخدمة الرائعة التي يقدّمها للجميع. ويحظى السيّد بويل الآن ببرنامج إذاعيّ، يتحدّثون فيه عن أهمّيّة صناعة الصلب للبلاد ويواصلون القول إنّه يجب علينا الحفاظ على صناعة الصلب عمومًا. لا أفهم ما يعنيه بالحفاظ على صناعة الصلب عمومًا.

ـ أنا أفهم هذا الأمر. انسَ ذلك، فهو لن يفلت من العقاب.

ـ أنت تعلم، يا سيّد ريردن، أنّني لا أحبّ الأشخاص الذين يتحدّثون كثيرًا عن كون كلّ ما يفعلونه هو فقط من أجل الآخرين. هذا ليس صحيحًا، ولا أعتقد أنّه سيكون صحيحًا حتّى إذا كان حقيقيًّا. لذلك سأقول إنّ ما أحتاج إليه من الفولاذ هو إنقاذ أعمالي الخاصّة، لأنّه ملكي، ولأنّه إذا اضطررت إلى إغلاقه... حسنًا، لا أحد يفهم ذلك في الوقت الحاضر.

ـ أنا أتفهّم ذلك.

ـ نعم ... نعم، أعتقد أنّك ستتحصّل على الفولاذ... وذلك هو همّي الأوّل. ولكن لا يزال هناك عملاء. لقد تعاملوا معي لسنوات، إنّهم يعتمدون عليّ. من المستحيل الحصول على أيّ نوع من الآلات في أيّ مكان. هل تعلم كيف سيكون الوضع في ولاية مينيسوتا، عندما لا يستطيع المزارعون الحصول على الأدوات، وعندما تتعطّل الآلات في منتصف موسم الحصاد دون أن تكون هناك قطع غيار أو بدائل... لا شيء سوى الأفلام الإشهاريّة الملوّنة للسيّد أورين بويل حول... أوه حسنا... ثمّ إنّ الأمر يتعلّق بعمّالي أيضًا. كان بعضهم معنا منذ زمن والدي. ولا يملكون مكانًا آخر يعملون فيه. على الأقلّ ليس الآن.

كان من المستحيل، كما يعتقد ريردن، الضغط على المطاحن لإنتاج مزيد من الفولاذ، إذ تمّت جدولة كلّ فرن وكلّ ساعة وكلّ طن مسبقًا للطلبات العاجلة، على مدى الأشهر الستّة المقبلة. لكن... أعتقد أنّه ما إن ينتهي خطّ جون جالت، إذا كان بإمكانه فعل ذلك، حتّى يمكنه فعل أيّ شيء من أجل بقيّة الطلبات... لقد شعر كما

لو أنّه كان يرغب في حلّ عشرة مشاكل جديدة في وقت واحدٍ. وشعر أيضا كما لو أنّه يعيش في عالم لا يعرف المستحيل.

قال وهو يتَّصل بالهاتف: اسمح لي أن أتحقّق مع مشرفتي وأرى فقط ما سنسكبه من فولاذ في الأسابيع القليلة القادمة. قد أجد طريقة لاستعارة بضعة أطنان من بعض الطلبات و...

أسرع السيّد وارد إلى نقل نظره بعيدًا عنه، لكنّ ريردن ألقى نظرة خاطفة على ملامح وجهه. ثمّ قال في نفسه، أعتقد أنّ هذا الأمر يعني له الكثير، على العكس منّي تمامًا، لكن لن أبخل عليه بمدّ يد المساعدة.

رفع سمّاعة الهاتف، ولكن كان عليه أن يعيدها إلى مكانها، لأنّ باب مكتبه فُتِح بعنفٍ واندفعت منه سيكرتيرته جوين إيفز.

بدا من المستحيل أن تسمح الآنسة إيفز لنفسها بخرق من هذا النوع، أو أنّ الهدوء في وجهها ربّما كان تشويهًا مصطنعًا وغير طبيعيّ، أو أنّ عينيها قد أصابهما العمى، أو أنّ خطواتها مجرّدة من الانضباط بعيدًا عن حركة التمايل. فقالت:

ـ اعذرني على المقاطعة، يا سيّد ريردن.

كان يعلم أنّها لم ترَ المكتب، ولم ترَ السيّد وارد، ولم ترَ شيئًا سواه. ثمّ أضافت:

ـ أعتقد أنّ عليّ إخبارك بأنّ الهيئة التشريعيّة قد أقرّت للتوِّ مشروع قانون تكافؤ الفرص.

كان السيّد وارد الذي تسمّر في مكانه يصرخ: اللهمّ لا! أوه، لا!

ثمّ أخذ يحدّق في ريردن الذي قفز من الفزع.

ظلّ ريردن منحنيًا بشكل غير طبيعيّ، وتدلّت إحدى كتفيه إلى الأمام. كانت مجرّد لحظة عابرة. ثمّ نظر من حوله، كأنّه يستعيد بصره، ثمّ قال:

ـ اعذرني.

نظر إلى الآنسة إيفز والسيّد وارد، ثمّ جلس مرّة أخرى. وسألها بصوت متّزنٍ وجافٍّ:

ـ لم يتمّ إبلاغنا بأنّ مشروع القانون المتداوَل طُرِح على أرض الواقع، أليس كذلك؟

ـ لا، يا سيّد ريردن. يبدو أنّها كانت خطوة مفاجئة واستغرقت خمسًا وأربعين دقيقة فقط.

ـ ألم يبلغكِ موتش بشيءٍ؟

ـ لا، يا سيّد ريردن، صبيّ المكتب في الطابق الخامس هو من ركض ليخبرني بأنّه سمع الخبر للتوِّ في الراديو. فاتّصلت بالصحف للتحقّق منه. حاولت الوصول إلى السيّد موتش في واشنطن لكنّ مكتبه لا يجيب.

ـ متى كانت آخر مكالمة منه؟

ـ قبل عشرة أيّام.

ـ حسنًا. شكرا لك جوين. حاولي الاتّصال بمكتبه مجدّدًا.

ـ حاضر.

خرجت جوين. بينما وقف السيّد وارد وقبّعته في يده. ثم هَمَّ بالمغادرة وتمتم ببعض كلمات:

ـ أعتقد أنّني أفضل.

قاطعه ريردن بشراسة: اجلس!

أطاعه السيّد وارد، وأخذ يحدّق فيه.

قال ريردن: كنّا بصدد مناقشة أمور العمل، أليس كذلك؟

لم يتمكّن السيّد وارد من تحديد المشاعر التي انحرفت من فم ريردن أثناء حديثه.

ـ ما التهمة التي يديننا بها أولئك الأوغاد الأشرار، يا سيّد وارد؟ أوه نعم، بسبب

شعارنا «العمل كالمعتاد». حسنًا، العمل كالمعتاد يا سيّد وارد!

التقط سمّاعة الهاتف وسأل المشرف:

ـ قل لي، اسمه بيت... ماذا؟ ... نعم، لقد سمعت. هل بوسعها... سنتحدّث عن ذلك لاحقًا. ما أريد معرفته هو هل يمكنك السماح لي بالحصول على خمسمائة طن إضافيّة من الفولاذ فوق الجدول الزمنيّ في الأسابيع القليلة القادمة؟... نعم أعلم... أعلم أنّها صعبة... أعطني التواريخ والأرقام.

لقد استمع بسرعة ودوّن الملاحظات على ورقة. ثمّ قال:

ـ صحيح. شكرًا لكم.

وأغلق الخطّ. ثمّ شرع يتأمّل الأرقام للحظات، مشيرًا إلى بعض الحسابات الموجزة على هامش الورقة. ثمّ رفع رأسه.

قال: حسنًا، يا سيّد وارد. سأمدّك بالفولاذ خلال عشرة أيّام.

عندما ذهب السيّد وارد، خرج ريردن إلى غرفة الانتظار. وخاطب الآنسة إيفز، وقد استعاد صوته العاديّ:

ـ واير فلامينج في كولورادو. سيعرف لماذا يجب عليّ إلغاء ذلك الخيار.

مالت برأسها مطيعةً دون أن تنظر إليه. ثمّ التفت إلى الضيف التالي وقال في إشارة ليدعوه إلى مكتبه:

ـ كيف حالك. تفضّل بالدخول.

فكّر في الأمر لاحقًا وقال في نفسه: يتحرّك المرء خطوة بخطوة ويجب عليه أن يستمرّ في التحرّك. في الوقت الحاليّ، وبوضوح غير طبيعيّ، وبتبسيط فظٍّ جعل الأمر سهلاً تقريبًا، لم يتضمّن وعيه سوى فكرة واحدة: يجب ألّا يوقفني. وعلقت الجملة وحدها، بلا ماض أو مستقبل. لم يفكّر في الشيء الذي يجب ألّا يمنعه، أو لماذا كانت تلك الجملة في غاية الحسم. علقت بذهنه فأطاعها. وقررّ الاستمرار خطوة بخطوة.

وأكمل جدول مواعيده كما كان مقرّرًا.

كان الوقت متأخرًا عندما غادر الضيف الأخير وخرج من مكتبه. وقد عاد باقي موظّفيه إلى المنزل. جلست الآنسة إيفز وحدها في مكتبها بغرفة فارغة. لقد جلست مستقيمة، لم تخفض رأسها، لكنّها ظلّت على صرامتها، وبدا وجهها متجمّدًا. كانت الدموع تنهمر على خدّيها دون صوتٍ وقد فقدت السيطرة عليها.

رأته، ثمّ قالت بنبرة تمتزج فيها مشاعر الذنب بمشاعر الاعتذار:

ـ أنا آسفة، يا سيّد ريردن.

لم تحاول إخفاء دموعها، فاقترب منها وقال برفق:

ـ شكرا لك.

نظرت إليه مندهشة. كان يبتسم قبل أن يقول:

ـ ولكن ألا تعتقدين أنّك تقلّلين من شأني؟ أليس من السابق لأوانه البكاء عليّ؟

همست: كان بإمكاني أن أتحمّل الباقي، لكنّهم...

أشارت إلى الصحف على مكتبها، ثمّ أضافت:

ـ يسمّونها انتصارًا لمكافحة الجشع.

ضحك بصوت عالٍ، ثمّ قالٍ:

ـ أستطيع أن أرى لماذا كان ذلك التشويه الصحفيّ في استعمال اللّغة الإنجليزيّة سببًا في غضبك. ولكن ماذا بعد؟

عندما نظرت إليه، استرخى فمها قليلًا. لقد كان السيّد ريردن هو الضحيّة التي لم تستطع حمايتها، ونقطة الطمأنينة الوحيدة في عالم يذوب من حولها.

حرّك يده برفق عبر جبهتها؛ كان خرقًا غير عاديّ للشكليّات الرسميّة وللبرتوكول، واعترافًا صامتًا بالأشياء التي لم يضحك عليها:

ـ عودي إلى المنزل يا جوين. لن أحتاج إليك الليلة. سأعود إلى المنزل بنفسي في

وقت قصير. لا، لا أريدك أن تنتظري أكثر.

مضى منتصف الليل، وهو لا يزال جالسًا بمكتبه، منحنيًا على مخطّطات جسر خطّ جون جالت، ثمّ أوقف عمله فجأة، لأنّ المشاعر تسلّلت إليه في طعنة مفاجئة، حتّى لا يهرب بعد الآن، كما لو أنّ مفعول التخدير قد زال.

مشى متثاقلا في منتصف الطريق، كان لا يزال يحافظ على بعض بقايا المقاومة، ثمّ جلس، وضغط صدره على حافّة المكتب ليُسنده، ورأسه متدلٍّ، وكأنّ الإنجاز الوحيد الذي كان لا يزال ممكنًا له هو عدم ترك رأسه يسقط على المكتب. جلس بتلك الطريقة لبضع لحظات، لم يكن واعيًا بأيّ شيء سوى الألم، ألم صراخ بلا محتوى أو حدّ، ثمّ جلس، لا يعرف ما إذا كان الوجع في ذهنه أم جسده، فاختزله في ألم قبيح يشلّ التفكير.

وفي لحظات قليلة، انتهى الأمر. رفع رأسه وجلس مستقيمًا بهدوء، ثمّ استلقى على كرسيّه. الآن رأى أنّه لم يكن مذنبا باختيار الهروب عندما أجّل تلك اللحظة لساعات: لم يفكّر في ذلك، لأنّه لا يوجد شيءٌ يفكّر فيه.

وقال لنفسه بهدوء: الفكر هو سلاح يستخدمه المرء من أجل العمل. لم يكن هناك أيّ إجراء ممكن. الفكر هو الأداة التي يختار المرء بها. لكنّه لم يبق له خيار. يحدّد الفكر هدف المرء وطريقة الوصول إليه. أمّا حياته التي تتمزّق بداخله قطعة بعد قطعة، فلم يكن لديه صوت، ولا غرض، بأيّة حال من الأحوال، ولا أدنى دفاع.

فكّر في ذلك مذهولًا. ورأى لأوّل مرّة أنّه لم يكن يعرف الخوف قطُّ، فأثناء مواجهة أيّ كارثة، كان يملك العلاج الجبّار القادر على الحلّ. ثمّ قال في نفسه: الشجاعة لا تكفي. إنّها لا تضمن النصر، من يستطيع أن يضمن النصر؟ هي فقط فرصة للعمل، وهو كلّ ما يحتاج إليه المرء. في تلك اللحظة كان يفكّر، بشكل غير ذاتيّ ولأوّل مرّة، في جوهر الرعب الحقيقيّ: تسليمه للدمار بيدين مقيّدتين خلف ظهره.

حسنًا، إذَن، استمرّ في ربط يديك. استمرّ في تقييدهما بالسلاسل. تابع. يجب ألّا يوقفك ذلك... ولكنّ صوتًا آخر كان يخبره بأشياء لا يريد سماعها، بينما يردّ، ويبكي ويعارضها: لا فائدة من التفكير في ذلك... لا فائدة... لماذا؟... دعه وشأنه!

لم يستطع كتم ذلك الصوت. جلس ساكنًا، يتطلّع إلى رسومات جسر خطّ جون جالت، وسمع الأشياء التي أطلقها ذلك الصوت؛ كان بعضها أصواتا وبعضها الآخر تنهّدات: لقد قرّروا ذلك الأمر من دونه... لم يتّصلوا به، ولم يسألوا، ولم يسمحوا له بالحديث... لم يكونوا ملزمين حتّى بواجب إخباره. ثمّ أعلموه من بعيدٍ أنّهم قطعوا جزءًا من حياته وأنّ عليه أن يكون جاهزًا للمشي مشلولًا... ومن بين جميع المعنيّين، على اختلافهم، ومهما يكن السبب، أو الحاجة، كان هو الشخص الوحيد الذي لم يضطرّوا إلى التفكير فيه.

كانت اللّافتة الموجودة في نهاية طريق طويلة تعلن: خام ريردن، معلّقة على طبقات سوداء من المعدن... واستمرّت صامدة على مرّ السنين والليالي... على مدار الساعات التي نبضت فيها قطرات من دمه... الدم الذي وهبه بكلّ سرور، مدفوعًا بغرابة إلى يوم بعيد وعلامة على طريق... لقد دفع ثمن ثماره بجهوده وقوّته وعقله وأمله... فدمّرتها نزوة بعض الرجال الذين جلسوا وصوّتوا... من يعرف بأيّ عقول فكّروا؟ من يدري أيّ قدر أوصلهم إلى السلطة؟ ما الدافع الذي حرّكهم؟ ما هي معرفتهم؟ من منهم يستطيع إخراج قطعة من خام الأرض من دون مساعدة؟... دمّرته نزوة الرجال الذين لم يروا قطع الخام ولم يروا طبقات المعدن... دمّروا كلّ شيء، لأنّهم قرّروا ذلك. لكن بأيّ حقٍّ؟

هزّ رأسه. كان يعتقد أنّ هناك أشياء لا يجب التفكير فيها. ثمّة شرّ فاحشٌ يلوّث عين المشاهد. ثمّة حدّ لما هو مناسب للرجل أن يراه. يجب عليه ألّا يفكّر في هذا، أو ينظر فيه، أو يحاول تعرُّف طبيعة جذوره.

شعر بالهدوء والفراغ، فأخبر نفسه أنّه سيكون بخير غدًا. سيغفر لنفسه ضعف تلك الليلة، ما عاشه كان يشبه الدموع المسموح بها في مراسم الجنازة، ثمّ سيتعلّم

المرء بعدها كيف يعيش بجرحٍ مفتوح أو بمصنع مشلول.

نهض ومشى إلى النافذة. بدت الطواحين مهجورةً لكنّها لا تزال صامدة. رأى بقعًا حمراء ضعيفة فوق الأقماع السوداء، ولفائف طويلة من البخار، وشبكة خيوط قطريّة مكوّنة من الرافعات والجسور.

شعر بوحدة مقفرة، من نوع لم يكن يعرفه من قبل. ظنّ أنّه كان في وسع جوين إيفز والسيّد وارد أن ينظرا إليه بعين الأمل، لإغاثته، وتجديد شجاعته. لكن، ماذا عنه؟ من سينقذه؟ هو أيضًا يحتاج إلى المساعدة ولو لمرّة واحدة. تمنّى لو كان يحظى بصديق يمكنه أن يسمح له برؤيته يعاني، دون ادّعاء أو حماية، صديق يمكن أن يتّكئ عليه لحظة، فقط ليقول، أنا متعب جدًّا، ويجد لحظة من الراحة. من بين جميع البشر الذين عرفهم، هل يوجد شخص يتمنّى أن يكون بجانبه الآن؟ سمع الجواب في ذهنه، فوريًّا وصادمًا: فرانسيسكو دانكونيا.

لكنّ ضحكة غضبه أعادته. دفعته سخافة الشوق إلى الهدوء. اعتقد أنّ هذا هو ما تَحصُل عليه عندما تنغمس في الضعف.

وقف عند النافذة وهو يتجنّب التفكير. لكنّه ظلّ يسمع الكلمات في ذهنه: شركة خام ريردن... شركة ريردن للفحم... شركة ريردن للصلب... معدن ريردن... ما الفائدة؟ لماذا أنجز كلّ ذلك؟ لماذا يجب عليه أن يحقّق أيّ شيء مجدّدًا؟

وتذكّر يومه الأوّل على أطراف مناجم الخام... اليوم الذي وقف فيه في مهبّ الريح، ينظر إلى أنقاض مصنع للصلب... في ذلك اليوم الذي وقف فيه هناك، في ذاك المكتب، قرب تلك النافذة، واعتقد أنّه يمكن أن يصنع جسرا لحمل أثقال لا تصدّق على عدد قليل من القضبان المعدنيّة، فقط لو أنّ أحدهم دمج دعامات البناء بالقوس، فقط لو أنّ أحدهم بنى دعامة قطريّة مع منحنيات كبار أعضاء...

توقّف عن التفكير ووقف ساكنًا. لم يفكّر في الجمع بين الدعامات والقوس في ذلك اليوم.

وفي اللحظة الموالية، كان أمام مكتبه، ينحني فوقه، بركبة واحدة على مسند الكرسيّ، دون أن يجد وقتًا للتفكير في الجلوس. كان يرسم خطوطًا ومنحنيات ومثلّثات، وجداول حسابات بشكل عشوائيّ على المخطّطات التي وضعت على مكتب النشاف، وعلى رسائل شخص مّا.

وبعد ذلك بساعة، كان يتّصل هاتفيًّا بخطّ للمسافات الطويلة، وينتظر رنين الهاتف على الضفّة المقابلة بجانب سريرٍ في عربة سكّة حديدٍ مركونة على جانب المسار، فقال:

ـ داغني! هل تتذكّرين ذلك الجسر الخاصّ بنا، يمكن أن ترمي كلّ الرسومات التي أرسلتها إليك في الرماد، أحرقيها لأنّ... ماذا لا أسمعك جيّدًا؟ أوه، ذلك؟ فليذهب إلى الجحيم! ناهيك عن اللصوص وقوانينهم! انسَي ذلك يا داغني. ما يهمّنا هو.. أنصتي جيّدًا! أنت تعرفين ذلك الاختراع الغريب الذي سمّيته دعامة ريردن، وهو اختراع أعجبت بها كثيرًا؟ إنّه لا يستحقّ إلّا اللعن. لقد اكتشفت دعامات البناء التي ستهزم كلّ بناءٍ على الإطلاق! سيحمل الجسر أربعة قطارات في آن واحد، وسيصمد لثلاثمائة سنة، وهو بالمناسبة يكلّفك أقلّ بكثير من تكاليف أرخص قناة لمجرى مائيّ. سأرسل إليك الرسومات خلال يومين، لكنّي أردت أن أخبرك عنها الآن. كما ترين، إنّها مسألة دمج الدعامات مع القوس. إذا أخذنا الدعائم القطريّة و... ماذا؟ لا أستطيع سماعك. هل أصبت بالبرد؟ ما الذي تشكرينني عليه عند هذا الحدّ؟ انتظري حتّى أشرح لك ذلك.

الفصل الثامن
خطّ جون جالت

ابتسم العامل وهو ينظر إلى إيدي ويلرز عبر الطاولة.

قال إيدي: أشعر وكأنّني مُلَاحَقٌ. وأعتقد أنّك تعرف لماذا لم أكن هنا منذ شهور. يُفتَرَض أنّني الآن نائب الرئيس المكلّف بالعمليّات. بربّك، لا تأخذ الأمر على محمل الجدّ. مارست هذه الوظيفة ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا، لكنّني لم أقدر عليها. ولهذا السبب اضطُرِرت إلى الهروب ولو لمرّة واحدة فقط. في المرّة الأولى التي جئت فيها إلى هنا لتناول العشاء، بعد ترقيتي المزعومة، كانوا يحدّقون بي كثيرًا، وأصبحت لا أجرؤ على العودة. ستقول لي حسنًا، دعهم يحدّقوا. لكنّني لا أستطيع فعل ذلك. أنا سعيد لأنّه لم يحدث أيّ فرق بالنسبة إليك... لا، لم أرَها منذ أسبوعَين. لكنّني أتحدّث معها عبر الهاتف كلّ يوم، وأحيانًا مرّتين في اليوم... نعم، أعلم كيف تشعر: إنّها تحبّ ذلك. ما الذي نسمعه عبر الهاتف غير اهتزازات صوتيّة، أليس كذلك؟ حسنًا، يبدو صوتُها وكأنّه يتحوّل إلى اهتزازات خفيفة، لو كنت تعرف ما أعنيه. إنّها تستمتع بإدارة تلك المعركة الرهيبة بمفردها والفوز... أوه نعم، إنّها تفوز! هل تعلم لماذا لم تقرأ أيّ شيء عن خطّ جون جالت في الصحف؟ لأنّ الأشغال هناك تسير على ما يرام... فقط... إنّ السكك الحديديّة المصنوعة من معدن ريردن ستكون أفضل المسارات التي بُنيت على الإطلاق، ولكن فيمَ ستستخدم، إذا لم يكن لدينا أيّ محرّكات قويّة بما يكفي للاستفادة منها؟ انظر إلى نوع القطارات التي كنّا نستعملها.

إنّها تعمل على مواقد الفحم المرقّعة التي تركناها، لا تكاد تتمكّن من جرّ ذاتها بها لسكك العربات القديمة من سرعة كافية... مازال الأمل موجودًا. لقد أفلست الشركة المتّحدة للقاطرات. هذه هي أفضل استراحة لدينا في الأسابيع القليلة الماضية، لأنّ دوايت ساندرز اشترى مصنعهم. إنّه مهندس شابّ رائع يمتلك مصنعًا للطائرات. وبالمناسبة، هو المصنع الوحيد الجيّد في البلاد. كان عليه أن يبيع أَخَاه مصنعَ الطائرات من أجل الاستحواذ على الشركة المتّحدة للقاطرات، وذلك بسبب مشروع قانون تكافؤ الفرص. بالتأكيد، إنّه مجرّد ترتيب بينهما، ولكن هل يمكنك إلقاء اللوم عليه؟ على أيّة حال، سنشهد الآن محرّكات الديزل تخرج من الشركة المتّحدة للقاطرات. سينطلق دوايت ساندرز ويطوّر الأمور... نعم، إنّها تعتمد عليه. لماذا سألت عن ذلك؟... نعم، إنّه الآن مهمّ جدًّا بالنسبة إلينا. لقد وقّعنا للتوِّ عقدًا معه لأوّل عشرة محرّكات ديزل سيُنتجها. عندما اتّصلت بها وأعلمتها بأنّ العقد وُقِّعَ، ضحكت وقالت: ترى؟ هل هناك أيّ سبب للخوف؟ قالت ذلك لأنّها تدرك هذا الأمر، أنا لم أخبرها مطلقًا، لكنّها تدرك أنّني كنت خائفًا... نعم، أنا... أنا لا أعلم... ما كان لي أن أخاف لو عرفتُ ما يمكنني فعله حيال ذلك. لكن ذلك... أخبرني، ألا تكرهني حقًّا لأنّي أشغل منصب نائب الرئيس؟ لكن ألا ترى أنّها شريرة؟ أيّ شرف؟ لا أعرف ما أنا عليه حقًّا: مهرّج، أو شبح، أو بديل، أو مجرّد عميل فاسد. عندما أجلس في مكتبها، وعلى كرسيّها، وأمام طاولتها، أشعر أنّني أسوأ من ذلك بكثير: أشعر أنّني مجرم قاتل.... بالتأكيد، أعلم أنّ من المفترض أن أكون أضحوكة بالنسبة إليها، وهذا الوضع سيكون شرفًا بالنسبة إليّ، لكن... لكنّي أشعر وكأنّني، بطريقة مروّعة لا يمكنني استيعابها تمامًا، أضحوكة لجيم تاجارت. لماذا يجب أن يكون لها عميل؟ لماذا عليها أن تختبئ؟ لماذا طردوها من المبنى؟ هل تعلم أنّها اضطّرت إلى الانتقال نحو حفرة أنيقة في الزقاق الخلفيّ، قبالة مدخلنا السريع ومدخل الأمتعة؟ يجب أن تلقي نظرة عليه في وقت مّا، هذا هو مكتب شركة جون جالت، ومع ذلك يعلم الجميع أنّها هي التي لا تزال تدير شركة تاجرت العابرة للقارّات. لماذا عليها إخفاء الوظيفة الرائعة التي تؤدّيها؟ لماذا لا يعطونها أيّ مكافأة؟

لماذا يهضمون حقوقها ويأتون بي بدلًا منها؟ لماذا يحولون بينها وبين النجاح في الوقت الذي تسعى فيه داغني إلى أن تنقذهم من الهلاك؟ لماذا يعذّبونها مقابل إنقاذ حيواتهم؟ما خطبك؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟ نعم، أعتقد أنّك تفهم... يوجد شيء مّا في كلّ شيء لا يمكنني تحديده، وهو شيء شرّير. لهذا السبب أخشى... لا أعتقد أنّه يمكن للمرء أن يفلت من ذلك... أنت تعرف، إنّه أمر غريب، لكن أعتقد أنّهم يعرفون ذلك أيضًا، جيم وحشده وجميعهم في المبنى. ثمّة شيء مذنب ومخادع يحوم حول المكان كلّه. إنّه شيء مذنب ومخادع ومميت. شركة تاجرت العابرة للقارّات هي الآن مثل رجل فقد روحه... خان روحه... لا، لا تهتمّ. آخر مرّة زارت فيها نيويورك، جاءت بشكل غير متوقّع، كنت في مكتبي، أعني مكتبها، وفجأة فُتِح الباب وكانت هناك. جاءت تقول: السيّد ويلرز، أنا أبحث عن عمل في خطّة مشغّل محطّة، هل يمكنك أن تتيح لي فرصة؟ أردت أن ألعنهم جميعًا، لكن كان عليّ أن أضحك، كنت سعيدًا جدًّا لرؤيتها وكانت تضحك بسعادة. لقد جاءت مباشرة من المطار، وكانت ترتدي البنطلون وسترة سفر. كانت تبدو رائعة، رغم أنّ بشرتها أصيبت بحروق شديدة بفعل أشعّة الشمس، كانت تبدو سمراء كمن عاد للتوِّ من عطلة الصيف. جعلتني أبقى جالسًا حيث كنت، على كرسيّها، وجلست هي على طاولة المكتب وتحدّثت عن الجسر الجديد لخطّ جون جالت... لا، لم أسألها مطلقًا لماذا اختارت هذا الاسم... أنا لا أعلم ماذا يعني لها ذلك الاسم. ربّما هو نوع من التحدّي في ما أعتقد... لا أعرف لمن... لا يهمّ، هذا لا يعني شيئًا، لا يوجد أيّ جون جالت، لكنّي تمنّيت لو أنّها لم تستخدمه. لا يعجبني ذلك الاسم، ماذا عنك؟ هل يعجبك؟ لكنّك لا تبدو سعيدًا جدًّا عندما تذكره.

***

كانت نوافذ مكاتب خطّ جون جالت تواجه زقاقًا مظلمًا. لم تستطع داغني رؤية السماء وهي تنظر إلى أعلى من داخل مكتبها، لم يكن هناك سوى جدار مبنى يرتفع فوق مجال رؤيتها. إنّه الجدار الجانبيّ لناطحة السحاب العظيمة لشركة تاجارت

العابرة للقارّات.

كان مقرّها الجديد يتكوّن من غرفتين في الطابق الأرضيّ من مبنى انهار نصفُه. لا يزال الهيكل قائمًا، ولكنّ الأشغال في طوابقه العليا لم تكن مأمونة. لقد كان المستأجرون الذين آوَوْهُم شبه مفلسين، ويعيشون على ذكريات الماضي التليد.

لقد أحبّت مكانها الجديد، لأنّه وفّر عليها تكاليف كثيرة. لا تحتوي الغرف على أثاث أو أشخاص غير ضروريّين. كان الأثاث يأتي من المتاجر غير المرغوب فيها. وكان الناس هم أفضل خيار يمكن أن تجده في المكان. في زياراتها النادرة إلى نيويورك، لم يكن لديها وقت لتلاحظ الغرفة التي تعمل فيها. لاحظت فقط أنّها تفي بغرضها.

لم تكن تعرف ما الذي جعلها تتوقّف في تلك الليلة وتنظر إلى خطوط المطر الرقيقة على زجاج النافذة عند جدار المبنى عبر الزقاق.

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل. لقد غادر صغار موظّفيها. وعند الساعة الثالثة صباحًا كانت في طريقها إلى المطار لتستقلّ طائرة العودة إلى كولورادو. كانت لديها أعمال قليلة لتؤدّيها، فقط القليل من تقارير إيدي لقراءتها. لكن داهمها انهيار مفاجئ في وتيرة تقدّمها، فتوقّفت غير قادرة على الاستمرار. يبدو أنّ التقارير تتطلّب جهدًا يتجاوز قوّتها. لقد فات أوان العودة إلى المنزل والنوم، ومن السابق لأوانه الذهاب إلى المطار. قالت في نفسها: أنت متعبة. ولاحظت أنّ مزاجها الخاصّ يشكو من عزلة شديدة، لكنّها كانت تدرك أنّها محنة ستزول.

سافرت إلى نيويورك بشكل غير متوقّع، ومرّت لحظات حتّى قال الصوت الإذاعي إنّ دوايت ساندرز اعتزل العمل فجأة دون سبب أو تفسير. كانت قد هرعت إلى نيويورك على أمل العثور عليه وإيقافه. لكنّها شعرت، أثناء الطيران عبر القارّة، أنّه لا أمل في العثور عليه.

علقت زخّات مطر الربيع في الهواء وظلّت ثابتة خلف النافذة مثل ضباب رقيق.

كانت تنظر عبر الكهف المفتوح من المدخل السريع للأمتعة في محطّة تاجارت. كانت هناك أضواء عارية في الداخل، بين عوارض السقف الفولاذيّة، وبعض أكوام الأمتعة على الخرسانة البالية. كان هذا المكان يبدو مهجورًا ومقفرًا.

نظرت إلى شقوق خشنة على جدار مكتبها. لم تسمع أيّ صوت. كانت تعلم أنّها وحدها في أنقاض المبنى. بدا الأمر كما لو أنّها وحدها في المدينة. وشعرت بعاطفة عادت بها إلى سنوات عديدة ماضية: إلى وحدة أبعد من تلك اللحظة، بعيدًا عن صمت الغرفة وفراغ الشارع الرطب المتلألئ؛ وحدة أرض قاحلة رماديّة حيث لا شيء يستحقّ الوصول إليه؛ وحدة طفولتها.

نهضت ومضت إلى النافذة. وبضغط وجهها على لوح زجاجها، تمكّنت من رؤية مبنى تاجارت كاملًا، حيث تتقارب خطوطه فجأةً مع قمّته البعيدة في السماء. نظرت إلى النافذة المظلمة بالغرفة التي كانت في مكتبها. شعرت كما لو أنّها في منفى لم تعد منه مطلقًا، أو أنّها مفصولة عن المبنى بأكثر من صفيحة زجاجيّة وستارة من المطر ومدّة بضعة أشهر.

وقفت في غرفة مبنيّة من الجصّ البالي، وضغطت على نافذة الزجاج، تنظر إلى الشكل غير القابل للتحقّق لكلّ شيء تحبّه. لم تعرف طبيعة وحدتها. الكلمات الوحيدة التي أطلقت عليه اسمًا هي: ليس هذا العالم هو ما كانت تحلم به.

ذات مرّة، وهي في السادسة عشرة من عمرها، كانت تنظر إلى امتدادٍ طويلٍ من مسار شركة تاجارت، إلى القضبان المتقاربة وإلى نقطة واحدة في المسافة، فأخبرت إيدي ويلرز أنّها شعرت دائمًا وكأنّ القضبان وُضِعت في يد رجل وراء الأفق. لا، لم يكن والدها أو أيّ واحد من الرجال في المكتب. وقالت إنّها ستقابل ذاك الرجل في يوم مّا.

هزّت رأسها وابتعدت عن النافذة.

عادت إلى مكتبها. حاولت الوصول إلى التقارير. ولكن فجأة انهارت على

المكتب، ورأسها بين يديها. وقالت في نفسها: لا تستسلمي يا داغني. لكنّها لم تنهض. لا فرق بين الاستسلام والنهوض مادام لا أحد يراها.

لقد كان حنينًا لم تسمح قطّ بالاعتراف به. وها هي تواجهه الآن. فقالت في نفسها: إن كانت العاطفة هي استجابة المرء للأشياء التي يقدّمها العالم، وإن كانت تحبّ فعلا قضبان سكك الحديد والبناء والمزيد من الأشياء فإنّ هناك جوابًا واحدا ليس في متناول يدها. ثمّ قالت في نفسها أيضًا: لإيجاد شعور يحتوي مجموع كلّ تلك الأمور، كتعبير نهائيّ، وكهدف من كلّ الأشياء التي أحبّتها على الأرض... وللعثور على وعي يشبه وعيها، ويكون بمثابة المعنى لعالمها، كما ستكون ... لا، لن يكون فرانسيسكو دانكونيا، ولا هانك ريردن، ولا أيّ رجل قابلته أو أعجبت به على الإطلاق... ربّما يكون رجلًا يوجد فقط في الجانب المعتم من لاوَعْيها، لكنّه كان سيهبها حياتها لتجربة مّا. التفتت إلى نفسها بحركة بطيئة وباهتة وضغطت بنهدَيها على المكتب. شعرت بالرغبة في عضلاتها، وفي كلّ أعصاب جسدها.

هل هذا كلّ ما تريده؟ وهل هو بهذه البساطة؟ كانت تفكّر، لكنّها تعلم أنّه ليس بسيطًا. كان هناك ارتباط غير قابل للكسر بين حبّها لعملها ورغبة جسدها، وكأنّ أحدهما أعطاها الحقّ في الآخر، منحها الحقّ والمعنى؛ وكأنّ أحدهما يكمّل الآخر، ولن تتحقّق الرغبة أبدا إلّا بوجود عظمة متساوية.

ضغطت وجهها على يدها، وحرّكت رأسها، وهزّته ببطء في إشارة نفيٍ. لن تجده أبدًا. كان تصوّرها الخاصّ حول ما يمكن أن تكون عليه الحياة، وهو كلُّ ما كانت ستحصل عليه من العالم الذي أرادته. فقط مجرّد التفكير في ذلك، وبعض اللحظات النادرة، مثل بعض الأضواء المنعكسة منها في طريقها، لتعرف وتَثْبُت وتتابع حتّى النهاية.

رفعت رأسها. في رصيف الزقاق، خارج نافذتها، رأت ظلّ رجلٍ يقف عند باب مكتبها. كان الباب على بعد خطوات قليلة. لم تستطع رؤيته أو رؤية ضوء الشارع خلفه، لم ترَ سوى ظلّه على حجارة الرصيف. كان واقفا تمامًا، قريبًا جدًّا من الباب،

مثل رجل على وشك الدخول، إلى درجة أنّها كانت تنتظر سماع طَرقٍ على الباب. وعلى العكس من ذلك، رأت الظلّ يترنّح فجأةً، وكأنّه ارتدّ إلى الخلف، ثمّ استدار وهرب. لم يكن هناك سوى شكل حافّة القبّعة والكتفين على الأرض، عندما توقّف. بقي الظلّ ساكنًا لحظةً، وتردّد، ونما لفترة أطول عندما عاد.

لم تشعر بالخوف. جلست في مكتبها من غير حراك، تشاهده بذهول. توقّف عند الباب ثمّ ابتعد عنه. ثمّ وقف في مكان مّا من منتصف الزقاق، ثمّ سار بلا توقّف، وتوقّف مرّة أخرى. تأرجح ظلّه مثل رقّاص ساعة غير منتظم عبر الرصيف، واصفًا مسار معركة لا صوت لها: كان رجلا يقاتل نفسه للدخول عبر ذلك الباب أو الهروب منه.

نظرت إليه بحيادٍ غريبٍ. لم تكن تملك القدرة على الردّ، بل فقط القدرة على المراقبة. تساءلت عن بعد وبلا إحساس: من يكون؟ هل كان يراقبها من مكان مّا في الظلام؟ هل رآها تتدلّى على مكتبها في النافذة المكشوفة المضيئة؟ وهل شاهد وحدتها الموحشة التي كانت تتأمّلها؟ لم تشعر بشيء. لقد كانا وحيدَين في صمت مدينة ميّتة. كانت تراه على بعد أميال مثل انعكاس لمعاناة بلا هويّة، أو زميل نجا من كارثة. تمشّى، ثمّ اختفى عن مجال بصرها، وعاد مرّة أخرى. جلست، ثمّ ظلّت تراقب على الرصيف المُتَلألِئ لزقاقٍ مظلمٍ ظلَّ عذابٍ مجهولٍ.

انتقل الظلّ بعيدا مرّة أخرى. انتظرت. ولم يعد. ثمّ قفزت من الهلع. لقد أرادت أن ترى نتيجة المعركة. الآن بعد أن فاز بها -أو خسر- أصيبت بالحاجة المفاجئة العاجلة إلى معرفة هويّته ودوافعه. ركضت عبر الردهة المظلمة، ثمّ فتحت الباب وألقت نظرة.

كان الزقاق فارغًا. وانحدر الرصيف بعيدًا مثل شريط من المرآة الرطبة تحت بعض الأضواء المتباينة. لا يوجد أحدٌ هناك. شاهدت الحفرة المظلمة في نافذة مكسورة بمتجر مهجور. وراءها، كانت هناك أبواب عدد قليل من المنازل والغرف. وتلألأت خطوط الأمطار عبر الزقاق، تحت ضوء يتدلّى فوق فجوة سوداء لباب

مفتوح يؤدّي إلى أنفاق شركة تاجرت العابرة للقارّات.

***

وقّع ريردن على الأوراق، ودفعها عبر المكتب ونظر بعيدًا، معتقدًا أنّه لن يضطرّ إلى التفكير فيها مرّة أخرى، متمنّيًا لو أنّه يُحْمَلُ إلى زمنٍ تكون فيه تلك اللحظة وراءه على مسافة بعيدة منه.

مدّ بول لاركين يده لالتقاط الأوراق بتردّد؛ كان يبدو عاجزًا. ثمّ قال:

ـ إنّها مجرّد مسائل تقنيّة قانونيّة، يا هانك. أنت تعرف أنّي سأعتبر هذه المناجم كمناجمك دومًا.

هزّ ريردن رأسه ببطء؛ كانت مجرّد حركة لعضلات رقبته؛ وبدا وجهه ثابتًا، كما لو أنّه يتحدّث إلى شخص غريب، ثمّ قال:

ـ لا، إمّا أن أمتلك عقّارًا وإمّا ألّا أمتلكه. أنت تعرف أنّه يمكنك الوثوق بي. لا داعي إلى القلق بشأن إمداداتك من الخام. لقد توصّلنا إلى اتّفاق. أنت تعرف أنّه يمكنك الاعتماد عليّ.

ـ أنا لا أعرف ذلك. آمل أن أتمكّن منه.

ـ لكنّي وعدتك.

ـ لم أكن تحت رحمة وعد أحدٍ من قبل.

ـ لماذا... لماذا تقول هذا الكلام؟ نحن أصدقاء سأفعل أيّ شيء تريده. ستحصل على كامل إنتاجي في المناجم. ليس ثمّة ما تخشاه منّي يا هانك، ما خطبك؟

ـ توقّف عن الكلام.

ـ لكن، ما خطبك؟

ـ لا أحبّ الضمانات. لا أريد أيّ ادّعاء حول مدى سلامتي. لقد توصّلنا إلى اتّفاق لا يمكنني فرضه. أريدك أن تعرف أنّني أتفهّم موقفي تمامًا. إذا كنت تنوي الإيفاء

بوعدك، فلا تتحدّث عن ذلك، ما عليك إلّا أن تُنجِزه.

ـ لماذا تنظر إليّ وكأنّ الأمر كان خطئي؟ أنت تعرف مدى سوء شعوري حيال ذلك. اشتريت المناجم فقط لأنّي اعتقدت أنّها ستساعدك في الخروج. كنت أعتقد أنّك تفضّل بيعَها لصديق بدلًا من أحد الغرباء. إنّها ليست غلطتي، ولا أحبّ مشروع قانون المساواة البائس، وأنا لا أعرف ما وراء ذلك، لم أكن أعتقد أنّه سيُمرَّر، لقد كان مثل الصدمة بالنسبة إليّ عندما كانوا..

ـ لا يهمّ.

ـ لكنّني فقط...

ـ لماذا تصرّ على الحديث عن ذلك؟

قال لاركين متضرّعًا: لقد قدّمت لك أفضل سعرٍ، يا هانك. والقانون ينصّ على «تعويض معقول». لقد كان عرضي يفوق عرض أيّ شخص آخر.

نظر ريردن إلى الأوراق التي لا تزال ملقاةً على المكتب، فكّر في المبلغ الذي دُوِّن في تلك الأوراق ثمنًا لمناجمه. وكان ثلثا المبلغ من المال الذي حصل عليه لاركين قرضًا من الحكومة. وينصّ القانون الجديد على أحكام بشأن هذه القروض من أجل إعطاء فرصة عادلة للمالكين الجدد الذين لم تسنح لهم الفرصة قطّ. الثلث الباقي كان قرضًا منحه هو نفسه للاركين وهو رهن كان قد قبله على مناجمه الخاصّة... والمال الحكومي؟ فكّر فجأة، المال الذي يُعطى له الآن كدفعة لممتلكاته، من أين جاء ذلك؟ ومن الذي وفّره؟

قال لاركين، بتلميح غير مفهوم وبنبرة التماس: لا داعي إلى القلق يا هانك، إنّها مجرد ورقة شكليّة.

تساءل ريردن بشكل خافت عمّا يريده لاركين منه. ورأى أنّ الرجل كان ينتظر شيئا يتجاوز الجانب المادّيّ في عمليّة البيع، بعض كلمات كان يُفترَض أن ينطق بها ريردن، بعض الإجراءات المتعلّقة بالرحمة التي كان من المتوقّع أن يمنحها. غير أنّ

عينَي لاركين، في تلك اللحظة من تحقيقه أفضلَ ثروةٍ، حَمَلَتَا نظرةَ متسوّلٍ مقزّزةً.

ـ لماذا أنت غاضب يا هانك؟ إنّه فقط شكل جديد من الروتين القانونيّ، مجرّد حالة تاريخيّة جديدة. لا أحد يستطيع إيقاف حتميّتها إذا كانت حالة تاريخيّة. لا يمكن أن نلقي باللَّوم على أحد. لكن هناك دائمًا طريقة للتوافق. انظر إلى الآخرين إنّهم لا يمانعون في...

ـ لا يمانعون في تجهيز المهرّجين الذين سيسيطرون عليهم، وفي إدارة الممتلكات التي استولوا عليها بالابتزاز. أنا...

ـ لماذا تستخدم الآن مثل هذه الكلمات؟

ـ من الأفضل أن أقول لكم -وأعتقد أنّك تعرف ذلك- إنّني لست ماهرًا في هذا النوع من الألعاب. لا أملك الوقت ولا القدرة على ابتكار أيّ شكل من أشكال الابتزاز من أجل تقييدك وامتلاك مناجمي عن طريقك أنت. الملكيّة شيء لا أشاركه ولا أريد أن أحمله بنعمة جبنك عن طريق كفاح مستمرّ لخداعك وإبقاء بعض التهديد فوق رأسك. أنا لا أنجز أعمالي بهذه الطريقة ولا أتعامل مع الجبناء، فالمناجم لك، وإذا أردت الاتّصال بي أوّلًا بشأن الخام المنتَج كلّه، فسوف تفعل ذلك. أمّا إذا كنت ترغب في خيانتي، فإنّ سلطتك تسمح لك بذلك.

كان لاركين يبدو كمَن جرح في كرامته، فقال:

ـ هذا ظلم كثير.

ثمّ أضاف بنبرة تضجّ باللوم والعتاب:

ـ لم أمنحك سببًا يجعلك لا تثق بي.

والتقط الأوراق بحركة متسرّعة. ثمّ رأى ريردن الأوراق تختفي في جيب معطف لاركين الداخليّ، ورأى تألّق المعطف المفتوح، وتجاعيد سترة ضيّقة سُحِبَت على معدةٍ مترهّلة، وبقعة من العرق في إبط القميص.

ومن دون استدعاء أو سابق إنذار، لاحت فجأةً في ذهنه صورة وجه شاهده قبل

سبعة وعشرين عامًا؛ وجه واعظ كان قد مرّ في زاوية الشارع، ببلدةٍ لم يعد يتذكّرها. وحدَها الجدران المظلمة للأحياء الفقيرة بقيت في ذاكرته، ومطر أمسية خريفيّة، ومكر صالح من فم الرجل، فم صغير امتدّ ليصرخ في الظلام: أنبل المثل العليا هي أن يعيش الإنسان من أجل إخوته، وأن يخدم القويُّ الضعيفَ، وأن يعمل من يملك القدرةَ في سبيل من لا يملكها.

ثمّ رأى ذلك الصبيّ الذي كان يسمّى هانك ريردن وهو في الثامنة عشرة. رأى توتّرَ الوجه، سرعةَ المشي، بهجةَ الجسد الثملة من طاقة الليالي الطوال، رفعَ الرأس بفخرٍ، العينَين الواضحتَين، الثابتتَين، القاسيتَين، عينَي رجل قاد نفسه دون شفقة نحو ما كان يريد. ورأى ما كان عليه بول لاركين في ذلك الوقت، شابًّا بوجه طفلٍ مسنٍّ، يبتسم بشكل لا يفرح، يتوسّل أن يتركه في حال سبيله، يتوسّل إلى الكون أن يجود عليه بفرصة. ولو أنّ شخصًا ظهر له في ذلك الوقت وبيّن له قوّة هانك ريردن وشبابَه وأخبره بأنّ ذلك سيكون الهدف من كلّ خطواته، أن يكون جامعًا للطاقة من ألم أوتاره وعضلاته، فماذا سيكون ردّه؟

لم تكن مجرّد فكرة عابرة، بل بدت مثل لكمة قبضة حديديّة داخل جمجمته. وعندما أمكنه أن يتذكّر مرّة أخرى، عرف ريردن ما كان سيشعر به الصبيّ في داخله: الرغبة في الدَّوْسِ على ذلك الشيء الحقير المسمّى لاركين وطَحْن كلّ جزء حيّ فيه وطَرْدِه من الوجود.

لم يسبق له أن واجه عاطفةً من هذا النوع، فاستغرق منه الأمر بضع لحظات ليدرك أنّ هذا ما يسمّيه البشر الكراهية.

لاحظ أنّ لاركين كان يهمّ بالمغادرة متمتمًا بكلمات الوداع، أوحت نظرتُه بأنّه شعر بجرحٍ من التوبيخ، في مشهد يشبه فمًا مقروصا، كما لو أنّه كان الطرفَ المصاب.

وحين باع مناجمَ الفحم الخاصّة به لكين داناغر، وهو الذي ملك في السابق أكبر شركة فحم في بنسلفانيا، تساءل ريردن عن السببَ الذي جعله لا يشعر بالألم ولا بأيّ كراهية تجاه ذاك الرجل الخمسينيّ ذي الوجه الصلب الحادّ، الرجل الذي بدأ

حياته المهنيّة عامل منجم.

وحين سلّمه ريردن سند ملكيّته الجديدة، قال داناغر بلامبالاةٍ:

ـ لا أظنُّني ذكرت لك أنّ أيّ فحم تشتريه منّي ستحصل عليه بسعر التكلفة.

قال ريردن مندهشا: إنّ هذا الأمر يخالف القانون.

ـ من سيكتشف المبالغ التي سأسلّمك إيّاها في غرفة جلوسك؟

ـ أنت تتحدّث عن خصمٍ.

ـ وهو كذلك.

ـ هذا الأمر يخالف القانون. ستنال العقاب إذا ضُبِطتَ متلبّسا في هذه الجريمة.

ـ بالتأكيد. هذا بمثابة حماية لك، لذلك لن تترك نفسك تحت رحمة حسن نواياي.

ابتسم ريردن؛ كانت ابتسامة تنمّ عن سعادة، لكنّه أغلق عينيه وكأنّه ينتظر لكمةً. ثمّ هزّ رأسه وقال:

ـ شكرًا، لكنّي لا أنتمي إلى ذلك الصنف من الرجال. لا أتوقّع أن يعمل أيّ شخص عندي بتكلفة ربويّة.

ردّ داناغر بغضب: أنا لست واحدا منهم. اسمع يا ريردن، ألا تفترض أنّني أعرف أنّ ما أحصل عليه هو ربح غير مستحقّ؟ لن يدفع لك المال مقابل ذلك، ليس في الوقت الحاضر على الأقلّ.

ـ أنت لم تقدّم عرضًا لشراء ممتلكاتي. أنا من طلب منك أن تشتريها. أتمنّى لو أنّه يوجد شخص مثلك في مجال الخام ليسيطر على مناجمي. لكنّه لا يوجد. إذا كنت تريد أن تقدّم لي معروفا، فلا تُثِر أيّ خصومات. أعطني فرصة لأدفع لك ثمنًا يفوق ما سيقدّمه لك أيّ شخص آخر. اسلب منّي أيّ شيء تريده. دعني فقط أَكُن أوّل من يحصل على الفحم. سأتدبّر الأمور الأخرى، وفّر لي فقط الفحم.

ـ ستحصل عليه.

تساءل ريردن لفترة لماذا لم يسمع أيّ كلمة من ويسلي ماوتش. لقد باتت كلّ الاتّصالات به في واشنطن من دون ردّ. ثمّ تلقّى رسالة تتكوّن من جملة واحدة تُبلِغه بأنّ السيد ماوتش استقال من عمله. وبعد أسبوعين، قرأ في الصحف أنّ ويسلي ماوتش عُيِّن مساعدًا منسّقًا لمكتب التخطيط الاقتصاديّ والموارد الوطنيّة. فقال في نفسه: لا تتطرّق إلى أيّ شيء من ذلك. وفكّر، أثناء لحظات الصمت التي تغزوه في أمسيات عديدة، في محاربة الوصول المفاجئ لتلك العاطفة الجديدة التي لم يرغب في الشعور بها. هناك شرّ لا يوصف في العالم كما تعلمون، ولا فائدة من الخوض في تفاصيله. يجب أن تعمل بقليل من القوّة. فقط، لا تدع الشرّ يفوز.

كانت قضبان جسر معدن ريردن وعوارضُه تخرج يوميًّا من مصانع الدرفة، وتُشحَن إلى موقع خطّ جون جالت. هناك تأرجحت في الفضاء الأشكال الأولى من المعدن الأخضر المائل إلى الزرقة، لتمتدّ عبر الوادي، وتلمع في أشعّة شمس الربيع الأولى. لم يكن يملك وقتًا للألم، ولا طاقة له على الغضب. وخلال أسابيع قليلة، انتهى الأمر؛ وتوقّفت الطعنات المسبّبة للكراهية وزالت.

لقد عاد إلى السيطرة على نفسه في المساء عندما اتّصل بإيدي ويلز: إيدي، أنا في نيويورك، في فندق واين فوكلاند. تعالَ لتتناول الفطور معي صباح الغد. ثمّة شيء أودّ مناقشته معك.

ذهب إيدي ويلرز إلى الموعد مع شعور ثقيل بالذنب. فهو لم يتعافَ بعدُ من صدمة مشروع قانون تكافؤ الفرص؛ لقد ترك وجعًا مملًّا بداخله مثل الأثر الذي يخلّفه لَكْمٌ على جسدٍ. كان يكره مشهد المدينة: بدا الأمر كأنّه يخفي الآن شيئًا من تهديد مجهول خبيث. كان يخشى مواجهة أحد ضحايا مشروع القانون: فمن موقع إيدي ويلرز نائب رئيس شركة تاجارت، شعر كما لو أنّه يتقاسم المسؤوليّة عن ذلك القانون بطريقة رهيبة لم يستطع تحديدها.

وحين رأى ريردن اختفى ذلك الشعور. لم يكن هناك تلميح يشير إلى أنّ ريردن ضحيّة. تألّق نور من وراء نوافذ غرفة الفندق، كان ضوء شمس الربيع في الصباح

الباكر يشعّ على نوافذ المدينة، وكانت السماء زرقاء شاحبة جدًّا وبدت في عنفوانها، والمكاتب لا تزال مغلقة. أمّا المدينة فبدت كما لو أنّها لا تضمر الشرّ، بل تبدو كأنّها سعيدة ومستعدّة للعمل بطريقة ريردن نفسها. بدا ريردن منتعشا وحيويّا وكأنّه لم ينم على نحو متوتّر. كان يرتدي لباس النوم، ولأنّه متشوّق إلى رؤية إيدي، لم يغيّر ملابسه. إنّه لا يريد أن يؤخّر لعبة مثيرة من واجباته التجاريّة.

ـ صباح الخير إيدي. آسف إن كنت قد أخرجتك باكرًا جدًّا. إنّها الفرصة الوحيدة التي سأحظى فيها بلقائك. يجب أن أعود إلى فيلادلفيا بعد الغداء مباشرة. يمكننا التحدّث ونحن نأكل.

كان ثوب النوم الذي يرتديه من الفانيلا الزرقاء الداكنة، مع أحرف بيضاء تختصر اسمه نُقشت على جيب الصدر «هـ ـ ر». بدا شابًّا ومسترخيًا، وكأنّه في منزله.

شاهد إيدي النادلَ وهو يجلب طاولة الغداء في الغرفة بكفاءة عالية جعلته يشعر بالانتعاش. لقد وجد أنّه يتمتّع بنضارة مفرطة وهو يرى نفسه على سماط المائدة الأبيض وأشعّة الشمس المتلألئة بلون الفضّة، على طبقين بلون الجليد المسحوق يحملان كوبَين من عصير البرتقال. لم يكن يعلم أنّ مثل تلك الأشياء يمكن أن تمنحه متعة منعشة.

قال ريردن: لم أكن أريد إجراء مكالمة هاتفيّة مع داغني وإزعاجها بهذه المسألة، لأنّه يمكننا تسويتها في دقائق قليلة. أمّا داغني فهي تملك ما يكفي من المتاعب.

ـ لا مانع لديّ إذا كنت أستطيع فعلَ ذلك.

ابتسم ريردن وقال: بالتأكيد، أنت تستطيع... إيدي، ما هي الحالة الماليّة لشركة تاجارت العابرة للقارّات في الوقت الحاليّ؟ هل هي حالة ميؤوس منها؟

ـ إنّها أسوأ من ذلك بكثير.

ـ هل أنت قادر على الالتزام بمواعيد الدفع؟

ـ ليس تمامًا. لقد أبقينا الأمر بعيدًا عن أعين الصحافة، لكن أعتقد أنّ الجميع

يعرفون ذلك. نحن متأخّرون في جميع أنحاء النظام وجيم لم يعد يملك الأعذار.

ـ هل تعلم أنّ مبلغ الدفعة الأولى للسكك الحديديّة من معدن ريردن من المقرّر أن يكون جاهزًا الأسبوع المقبل؟

ـ نعم، أعلم ذلك.

ـ حسنًا، دعنا نتّفق على تأجيل التسديد. سأمدّد لك، لن تضطرّ إلى دفع أيّ شيء لي حتّى ستّة أشهر بعد افتتاح خطّ جون جالت.

وضع إيدي ويلرز فنجان قهوته برعشة حادّة. لم يستطع أن ينبس بكلمة.

ضحك ريردن ضحكةً مكتومة وقال: ما خطبك؟ لديك جميع الصلاحيّات للقبول، أليس كذلك؟

ـ سيّد ريردن... لا أعلم... ماذا أقول؟

ـ لماذا؟ قل فقط: حسنًا، هذا كلّ ما هو ضروريّ.

قال إيدي بصوت لا يكاد يسمع: حسنًا يا سيّد ريردن.

ـ سأجهّز الأوراق وأرسلها إليك. يمكنك أن تخبر جيم بذلك حتّى يوقّع عليها.

ـ حاضر.

ـ لا أحبّ التعامل مع جيم. كان سيضيّع ساعتين ليحاول إقناعي بأنّه يقدّم لي معروفًا بقبوله.

جلس إيدي دون أن يتحرّك، ينظر إلى أسفل نحو طبقه. ثمّ سأله ريردن:

ـ ما خطبك؟

ـ سيّد ريردن، أودّ... أن أقول لك شكرًا... ولكن لا يوجد أيّ شكل من أشكال التعابير العظيمة يكفي لشكرك.

ـ اسمع يا إيدي، أنت تملك مواصفات رجل أعمال جيّد، لذا من الأفضل لك أن تتعلّم بعض الأشياء على نحو سويٍّ. لا يوجد أيّ داع للشكر في حالات من هذا

النوع. أنا لا أفعل ذلك من أجل شركة تاجارت العابرة للقارّات. إنّها مسألة بسيطة وعمليّة وأنانيّة من جانبي. لماذا يجب أن أتحصّل الآن على أموالي منك، بينما قد يكون ذلك بمثابة ضربة قاضية لشركتك؟ لو لم تكن شركتك جيّدة لتحصّلت عليه بسرعة. أنا لا أتورّط في الأعمال الخيريّة ولا أقامر مع الرجال غير الأكفاء. لكنّها لا تزال أفضل شركة لسكك الحديد في البلاد. حين يكتمل خطّ جون جالت، ستخفّ الأعباء الماليّة عن الشركة. لذا لديّ سبب وجيه للانتظار، بالإضافة إلى أنّك في مشكلة بسبب اعتمادك على سكك من معدني الجديد. أسعى إلى أن أراك تفوز.

ـ مازلت مدينا لك بالكثير. شكرًا يا سيّد ريردن...ما قدّمته لنا أكبر بكثير من أيّ عمل خيريّ.

ـ لا، ما من داعٍ إلى الشكر. ألا ترى؟ لقد تلقّيت للتوّ قدرا كبيرا من المال... وهو ما لم أكن أريده. لأنّني أستطيع استثماره. إنّه ليس ذا فائدة بالنسبة إلى أيّ كان... لذا، بطريقة مّا، يسعدني أن أتمكّن من تحويل هذا المال لمواجهة الأشخاص أنفسهم في المعركة نفسها. أرى أنّهم سمحوا لي بأن أمنحك تمديدا لأساعدك على محاربتهم.

ثمّ رأى إيدي وهو يغمز كأنّما أصيب بجرح:

ـ هذا هو الفظيع في هذا الموضوع!

ـ ماذا تقصد؟

ما فعلوه بك، وما تفعله في مقابل ذلك. أعني... اغفر لي يا سيّد ريردن. أعلم أنّ هذه ليست طريقة للحديث عن العمل.

ابتسم ريردن: شكرًا إيدي. أنا أعلم ما تعنيه. لكن انسَ الأمر، ليذهبوا إلى الجحيم.

ـ نعم. فقط... يا سيّد ريردن، هل لي أن أقول لك شيئًا؟ أعرف أنّ هذا غير لائق تمامًا وأنا لا أتحدّث بوصفي نائبًا للرئيس.

ـ تفضّل.

ـ ليس من الضروريّ أن أقول لك ما يعنيه عرضك لداغني ولي، ولكلّ شخصٍ يعمل بشركة تاجرت العابرة للقارّات. أنت تعرف ذلك. وتعرف أيضًا أنّ بإمكانك الاعتماد علينا لكن... أرى من الفظيع أن يستفيد جيم تاجارت هو أيضًا من هذا التأجيل، وأن تكون أحدَ منقذيه ومنقذَ أُناسٍ مثله، بعد أن...

ضحك ريردن قال: إيدي، لماذا يجب أن نهتمّ به وبأشخاص مثله؟ نحن نقود قطارًا سريعًا وهم يركبون على السطح ويصدرون الكثير من الضجيج. لماذا يجب أن نهتمّ بهم؟ لدينا ما يكفي من القوّة لنتحمّل ضجيجهم على طول الطريق، أليس كذلك؟

***

ـ لن يصمد.

أرسلت الشمس الصيفيّة أشعّتَها فأحدثت بُقعًا ناريّة على نوافذ المدينة، وتلألأ الشرر في غبار الشوارع. تلألأت أعمدة الحرارة على شكل سراب في الهواء، وارتفعت من الأسقف إلى الصفحة البيضاء من مستطيل روزنامة التقويم المعلّقة في إحدى ناطحات السحاب. اشتغل محرّك التقويم، ليعلن عن مناسبة الأيّام الأخيرة من يونيو.

قال الناس: لن يصمد. حين يطلقون أوّل قطار على خطّ جون جالت، ستنقسم السكك الحديديّة. لن يصل إلى الجسر أبدًا وإذا فعل ذلك، فإنّ الجسر سينهار تحت المحرّك.

على سفوح ولاية كولورادو، كانت قطارات الشحن تطوي مسار فينيكس- دورانغو، من الشمال إلى وايومنغ والخطّ الرئيسيّ لشركة تاجرت العابرة للقارّات، جنوبًا إلى نيو مكسيكو والخطّ الرئيسيّ لشركة جنوب المحيط الأطلسيّ. سارت سلاسل من العربات المصفّحة وهي تشعّ في جميع الاتّجاهات من حقول وايت للنفط إلى المصانع في الولايات البعيدة. لم يتحدّث عنها أحدٌ. وعلى حدّ علم الجمهور، فقد

تحرّكت قطارات الشحن بصمتٍ مثل الأشعّة، ومثلما لا تلاحظ كيفيّة تحوّل الأشعّة فقط إلى ضوء في المصابيح الكهربائيّة، وفي حرارة الأفران، وفي حركة المحرّكات. ولكن على هذا النحو، لن تكون مجرّد ظاهرة تلاحظ، بل ستعتبر أمرًا مفروغا منه.

كان من المقرّر أن تنهي سكّة حديد فينيكس- دورانغو عمليّاتها في الخامس والعشرين من شهر يوليو.

قال الناس: هانك ريردن وحشٌ جَشِعٌ. انظروا إلى الثروة التي جمعها. هل أعطى أيّ شيء في مقابل ذلك؟ هل أظهر أيّ علامة على حضور الضمير الاجتماعيّ؟ المال، هذا كلّ ما يسعى إليه. سيفعل أيّ شيء من أجل المال، لا يهمّه إذا فَقَد الناس حيواتهم عندما ينهار جسره؟

قالوا أيضا: لقدَ كانت عائلة تاجارت عصابةً من النسور على مدى أجيال. إنّ الجشع يسري في دمائهم. تذكّروا فقط أنّ مؤسّس تلك العائلة كان نات تاجارت، ذلك الوغد الأكثر شهرة في معاداته للمجتمع، الذي استنزف دماء البلاد وخلّفها جدباء فقط للضغط وكسب ثروة لنفسه. يمكنكم التأكّد من أنّ شركة تاجارت لن تتردّد في المخاطرة بحياة الناس من أجل تحقيق الربح. لقد اشتروا السكك الحديديّة الرديئة، لأنّها أرخص من الصلب، إنّهم لا يكترثون للكوارث والأجسام البشريّة المشوّهة بعد أن جمعوا الأجور.

قال الناس ذلك لأنّ أشخاصًا آخرين قالوه. لم يعرفوا لماذا كانت مثل تلك الأحاديث تقال وتسمع في كلّ مكان. ولم يقدّموا أسبابًا ولا سألوا عنها.

قال لهم الدكتور بريتشيت: السبب هو الشيء الأكثر سذاجة من بين جميع الخرافات.

قال كلود سلاجينهوب في خطاب إذاعيّ: ما هو مصدر الرأي العامّ؟ لا يوجد أيّ مصدر للرأي العام. إنّه عامّ بشكل عفويّ. إنّه ردّ فعل للغريزة الجماعيّة التي في العقل الجماعيّ.

أجرى أورين بويل مقابلة مع مجلّة ذي غلوب، وهي المجلّة الإخباريّة الأكثر تداولًا في البلاد. وخصّصت المقابلة لموضوع مسؤوليّة العلماء الاجتماعيّة الخطيرة، مؤكّدة على حقيقة أنّ المعدن يؤدّي الكثير من المهامّ الحاسمة من جهة اعتماد حياة الإنسان على نوعيّته. وقال: يبدو أنّ على المرء ألّا يستخدم البشر كفئران تجارب في إطلاق منتج جديد. لكنّه لم يذكر أسماء بعينها.

وقال كبير علماء المعادن في شركة «**أسوشيتد ستيل**» في برنامج تلفزيونيّ «لمَ لا أقول إنّ هذا الجسر سينهار؟ أنا لا أقول ذلك على الإطلاق. أنا أقول فقط إنّه لو كان لديّ أطفال لما تركتهم يركبون أوّل قطار سيعبر ذلك الجسر، لكنّه مجرّد تفضيل شخصيّ لا غير، لأنّني فقط مولع بالأطفال بشكل مفرط».

أنا لا أدّعي أنّ بدعة ريردن- تاجارت ستنهار في المستقبل، هكذا كتب بيرترام سكودر. قد تنهار وقد لا تنهار. هذه ليست القضيّة المهمّة، فالمسألة المهمّة هي: ما الحماية التي يتمتّع بها المجتمع ضدّ غطرسة اثنين من الأفراد الجامحين وأنانيّتهما وجشعهما، ذينك اللذين تخلو سجلّاتهما بشكل واضح من أيّ أعمال ذات روح عامّة؟ ويبدو أنّ هذين الشخصين مستعدّان لمواجهة حياة زملائهما الرجال من أجل أفكارهما المغرورة حول سلطاتهما في الحكم، ولأن يكونا ضدّ رأي الأغلبيّة الساحقة من الخبراء المعترف بهم. هل يجب على المجتمع أن يسمح بذلك؟ إذا انهار هذا الشيء، ألن يكون أوان اتّخاذ تدابير احترازيّة قد فات؟ ألن يكون الأمر مثل إغلاق الحظيرة بعد هروب الخيول؟ لقد ساد في هذا العمود الصحفيّ اعتقادٌ بأنّ أنواعًا معيّنة من الخيول ينبغي أن تبقى مقيّدة وتغلق عليها أبواب الإسطبلات بعيدًا عن المبادئ الاجتماعيّة العامّة.

ثمّ إنّ مجموعة أطلقت على نفسها اسم «**لجنة المواطنين النزهاء**» جَمَعَت توقيعاتٍ على عريضة تطالب بدراسةٍ تدوم عامًا لخطّ جون جالت من قبل خبراء حكوميّين قبل السماح بالسير لأوّل قطار. وجاء في العريضة أنّ الموقّعين عليها لم يكن لديهم دافع سوى «**الشعور بالواجب المدنيّ**». وكانت التوقيعات الأولى من جهة بالف

يوبانك ومورت ليدي. ومُنِحت العريضة حيّزا كبيرًا وتعليقًا في جميع الصحف. وقد لاقت اعتبارًا محترمًا، لأنّها جاءت من أشخاص نزهاء.

ولم تعطِ الصحف أيّ حيّز للحديث عن تقدّم أشغال بناء خطّ جون جالت. ولم يُرسَل أيّ مراسل صحفيّ للنظر في مشهد المشروع. وتكلّم محرّر شهير، فذكّر بالسياسة العامّة للصحافة المصادق عليها قبل خمس سنوات، قال: لا توجد حقائق موضوعيّة. كلّ تقرير عن الحقائق ليس سوى رأي شخصٍ مّا. ولذلك، لا جدوى من الكتابة عن الحقائق.

اعتقد عدد قليل من رجال الأعمال أنّ على المرء أن يفكّر في إمكان وجود قيمة تجاريّة لمعدن ريردن. فأجروا استبيانًا للإجابة عن ذلك الموضوع. ولم يستأجروا علماء المعادن لفحص العيّنات، ولا مهندسين لزيارة موقع البناء. لقد أجروا استطلاعًا عامًّا وسُئل عشرة آلاف شخص، على أمل أن يمثّلوا كلّ نوع من أنواع العقول القائمة، السؤالَ التالي: هل ستركب خطّ جون جالت؟ وكان الجواب، بأغلبيّة ساحقة: لا، يا سيّدي ري!

لم تُسمع في الأماكن العامّة أيّ أصوات تدافع عن معدن ريردن. ولا أحد يولي أهمّيّة لحقيقة أنّ أسهم تاجرت العابرة للقارّات كانت ترتفع في السوق ببطء شديد، وببطء تقريبا. كان هناك رجال يشاهدون ويلعبون بأمان. اشترى السيّد كوين أسهم شركة تاجارت باسم أخته. أمّا بن نيلي فاشتراها باسم ابن عمّه. واشتراها بول لاركين تحت اسم مستعار. وقال أحد هؤلاء الرجال: لا أؤمن بإثارة قضايا خلافيّة.

قال جيمس تاجارت متجاهلًا مجلس إدارته: أوه نعم، بطبيعة الحال، البناء يتقدّم باتّجاه الموعد المحدّد. أوه نعم، قد تشعر بالثقة الكاملة. أختي العزيزة لا يمكن أن تكون إنسانًا، هي مجرّد محرّك ذي احتراق داخليّ، لذلك يجب على المرء ألّا يتساءل عن نجاحها.

عندما سمع جيمس تاجارت شائعة بأنّ بعض عوارض الجسر قد انقسمت وتحطّمت، ممّا أسفر عن مقتل ثلاثة عمّال، قفز من الجزع وركض إلى مكتب

سكرتيره، وطلب الاتّصال بكولورادو. انتظر، وضغط على مكتب السكرتير، كما لو أنّه يطلب الحماية. كانت عيناه تنظران غير مركّزتين من الذعر ومع ذلك رسم ابتسامة على محيّاه، ثمّ قال:

ـ سأدفع أيّ شيء لرؤية وجه هنري ريردن في الوقت الحاليّ.

وعندما بلغه أنّ الإشاعة كاذبة، قال: الحمد لله!

لكنّ صوته كان يخفي خيبة الأمل.

قال فيليب ريردن لأصدقائه عندما سمع الشائعات نفسها: أوه جيّد! لعلّه يمكن أن يفشل أيضًا مرّة واحدة في كلّ حين. لعلّ أخي العظيم ليس عظيمًا كما يعتقد.

قالت ليليان ريردن لزوجها: عزيزي، قاتلت من أجلك بالأمس في جلسة الشاي إذ ادّعت النساء أنّ داغني تاجارت عشيقتك.... أوه، بحقّ السماء، لا تنظر إليّ هكذا! أعرف أنّ هذا منافٍ للعقل، لقد أمطرتُ هؤلاء النسوة بوابل من الشتائم. كلّ ما في الأمر أنّ أولئك العاهرات السخيفات لا يمكن أن يتخيّلن أيّ سبب آخر يجعل المرأة تتّخذ مثل هذا الموقف ضدّ الجميع من أجل معدنك بالطبع، أنا أعلم حقيقة الأمر أفضل منهنّ، وأعلم أنّ تلك المرأة بالذات من عائلة تاجارت لا تهتمّ بالجنس بل تلعنه. أنا أعلم، يا عزيزي، أنّك لو امتلكت الشجاعة لأيّ شيء من هذا القبيل، وتلك قيمة أعرف أنّك تفتقدها، لكنت اخترت إضافة آلة ترتدي أفضل الفساتين المصمّمة، فتاةٍ جوقة شقراء شديدة الأنوثة، أوه، ولكن أنا فقط أمزح، يا هنري! لا تنظر إليّ هكذا!

قال جيمس تاجارت بشكل بائس: داغني، ماذا سيحدث لنا؟ لقد فقدت شركة تاجارت العابرة للقارّات شعبيّتها!

ضحكت داغني، وهي تستمتع باللحظة، وبأيّ لحظة، كما لو أنّها تخشى أن ينضب ينبوع المتعة. ضحكت بسهولة، وبفم مرتاح ومفتوح. وكانت أسنانها بيضاء جدًّا، أمّا وجهها فبدا محروقا بفعل أشعّة الشمس. حملت عيناها نظرة إنسان يتأهّب

للمسافات البعيدة. وفي زياراتها القليلة الأخيرة إلى نيويورك، لاحظ جيم أنّها تنظر إليه نظرةَ مَن لا يراه.

ـ ماذا سنفعل؟ الشعب يصطفّ ضدّنا!

ـ جيم، هل تذكر القصّة التي يروونها عن نات تاجارت؟ تذكر القصّة قَولَه إنّه لا يحسد من بين منافسيه غير شخصٍ واحدٍ، ذاك الذي قال: الجمهور ملعون! تمنّى لو أنّه كان قائلها.

بصمت لا يعرفه الجميع، باستثناء ساحة الشحن في شركة تاجارت العابرة للقارّات في شايان ومكتب خطّ جون جالت في الزقاق المظلم، كان الشحن يتقدّم وطلبيّات العربات تتراكم في أوّل قطار يعمل على خطّ جون جالت. وكانت داغني تاجارت قد أعلنت أنّ أوّل قطار سيخصّص للشحن، وليس لنقل الركّاب. لن يحمل، كما جرت العادة، المشاهير والسياسيّين.

وجاء الشحن من المزارع، ومن ساحات الخشب، ومن المناجم في جميع أنحاء البلاد، ومن أماكن بعيدة كانت آخر وسائلها للبقاء على قيد الحياة هي مصانع كولورادو الجديدة. لم يكتب أحدٌ عن هؤلاء الشاحنين، لأنّهم كانوا رجالًا غير نزهاء.

وكان من المقرّر إغلاق خطّ سكك حديد شركة فينيكس-دورانغو في الخامس والعشرين من تموز ـ يوليو. وكان من المفترض أن ينطلق أوّل قطار لخطّ جون جالت في الثاني والعشرين من الشهر ذاته.

قال مندوب نقابة سائقي القاطرات: حسنًا يا آنسة تاجارت، هكذا تسير الأمور إذَن. لا أعتقد أنّنا سنسمح لك بتشغيل ذلك القطار.

جلست داغني في مكتبها البالي، قبالة جدرانه الملطّخة. ثمّ قالت لمندوب النقابة، دون أن تتحرّك:

ـ اخرج من هنا.

كانت جملة لم يسمعها الرجل في المكاتب الفارهة المصقولة لمدراء السكك الحديديّة فبدا حائرًا، وقال:

ـ جئت لأقول لك...

قاطعته وقالت: إذا كنت تملك أيّ شيء لتقوله لي، فابدأ من جديد.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا تخبرني بما ستسمح لي بفعله.

ـ حسنًا، قصدت أنّنا لن نسمح لرجالنا بتشغيل قطارك.

ـ هذا أمرٌ مختلف.

ـ حسنا، هذا ما قرّرناه.

ـ من قرّر ذلك؟

ـ اللجنة هي التي قرّرت ذلك. ما تفعلونه هو انتهاك لحقوق الإنسان. لا يمكنك إجبار الرجال على الخروج فيكون مصيرهم الموت. لا ينبغي أن نضحّي بالإنسان من أجل المال.

سلّمته ورقة وهي تقول:

ـ دوّن ما تريد هنا، وسنوقّع عقدًا في الموضوع.

ـ أيّ عقد؟

ـ أنّه لن يُوظَّف أيّ عضو في نقابتك لتشغيل محرّك على خطّ جون جالت.

ـ لماذا؟ انتظري دقيقة... لم أقل...

ـ أنت لا تريد توقيع مثل هذا العقد؟

ـ لا، أنا...

ـ لِمَ لا، مادُمتَ تعرف أنّ الجسر سينهار؟

ـ أريد فقط...

ـ أنا أعرف ما تريد. أنت ترغب في تضييق الخناق على رجالك عن طريق الوظائف التي أعرضها عليهم، تريد أن تضغط عليّ عن طريق رجالك. تريدني أن أُقدّم الوظائف، وتريد جَعل أيّ عمل أُنْجِزه مستحيلًا. الآن سأمنحك خيارًا واحدًا. ذلك القطار سينطلق، ليس لديك خيار، ولكن يمكنك اختيار ما إذا كان سيشّغله أحد رجالك أم لا. إذا اخترت عدم السماح لهم، فالقطار سيشتغل في كلّ الأحوال حتّى إذا كلّفني الأمر قيادته بنفسي. ثمّ، إذا انهار الجسر، لن تتبقّى أيّ سكّة حديديّة. لكن إن لم يسقط فلن يحصل أيّ عضو من نقابتك على وظيفة في خطّ جون جالت. وإذا كنت تعتقد أنّني بحاجة إلى رجالك أكثر ممّا هم في حاجة إليّ، فاختر ذلك. أمّا إذا كنت تعلم أنّي أستطيع تشغيل محرّك القطار، ولكن لا يمكنهم بناء السكك الحديديّة، فاختر ذلك. الآن، هل ستمنع رجالك من تشغيل ذلك القطار؟

ـ لم أقل إنّنا سنمنعه. لم أقل أيّ شيء عن المنع... ولكن، لا يمكنك إجبار الرجال على المخاطرة بحيواتهم في شيء لم يسبق لأحدٍ أن قام به.

ـ لن أجبر أيّ شخص على قيادة هذا القطار.

ـ ماذا ستفعلين؟

ـ سأطلب متطوّعًا.

ـ وإذا لم يتطوّع أحد منهم؟

ـ عندها ستكون مشكلتي وليست مشكلتك.

ـ حسنًا، دعيني أخبرك أنّني سأنصحهم بالرفض.

ـ واصل على هذا النحو. وانصحهم بأيّ شيء تريد. أخبرهم بما تريد. ولكن اترك الخيار لهم. لا تحاول صدّهم عن التطوّع معي.

وقّع إيدي ويلرز، نائب الرئيس المسؤول عن العمليّة، على بلاغ ظهر في كلّ مستودعات نظام شركة تاجارت. وطلب البلاغ من سائقي القطارات، الذين كانوا

على استعداد لقيادة أوّل قطار على خطّ جون جالت، إبلاغَ مكتب السيّد ويلرز، في موعدٍ لا يتجاوز الحادية عشرة صباحا من الخامس عشر من تمّوز - يوليو.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة في صباح الخامس عشر من تمّوز، عندما رنّ الهاتف في مكتبها. كان إيدي يتّصل من أعلى مبنى شركة تاجارت من خارج النافذة، ويقول بنبرة غريبة: داغني، أعتقد أنّ من الأفضل أن تأتي إلى هنا.

سارعت عبر الشارع، ثمّ أسفل القاعات ذات الأرضيّات الرخاميّة، إلى الباب الذي لا يزال يحمل اسم داغني تاجارت على لوحته الزجاجيّة. ثمّ فتحت الباب.

كانت غرفة استقبال المكتب ممتلئة. لقد وقف رجال كثيرون محشورين بين المكاتب، وقبالة الجدران. وعندما دخلت، خلعوا قبّعاتهم لتحيّتها في صمتٍ. رأت الرؤوس الرماديّة، والأكتاف المفتولة، ورأت الوجوه المبتسمة لموظّفيها في مكاتبهم ووجه إيدي ويلرز في آخر الغرفة. الجميع كانوا يعلمون أنّه لا يجب قول شيء.

وقف إيدي بجانب باب مكتبها المفتوح. افترق الحشد ليسمحوا لها بالاقتراب منه. حرّك يده مشيرًا إلى الغرفة، ثمّ إلى كومة من الرسائل والبرقيّات.

قال: داغني، كلّ واحد من هؤلاء اشتغل سائقًا في شركة تاجارت العابرة للقارّات. أولئك الذين استطاعوا القدوم إلى هنا لبّوا النداء، ومنهم من جاء من أقاصي البلاد مثل قسم شيكاغو.

أشار إلى البريد، ثمّ أضاف: ويوجد آخرون. على وجه الدقّة، ثمّة ثلاثة فقط لم أسمع عنهم: الأوّل في عطلة بالغابة الشماليّة، والثاني في مستشفى، والثالث في السجن بسبب قيادة السيّارة على نحوٍ متهوّر.

نظرت إلى الرجال. رأت الابتسامات المكتومة في ملامح وجوههم الرسميّة. كانت تميل برأسها تقديرًا وشكرًا. ثمّ وقفت لحظةً، انحنى رأسها، كما لو أنّها بصدد تلقّي الحكم، وهي تعلم أنّ الحكم سيطبَّق عليها، وعلى كلّ رجل في الغرفة وعلى

العالم وراء جدران المبنى.

قالت: شكرا لكم.

معظم الرجال رأوها مرّات عديدة. وبالنظر إليها، وهي ترفع رأسها، اعتقد كثيرون منهم - في دهشة ولأوّل مرّة - أنّ وجه نائب الرئيس الفعليّ كان وجه امرأة وأنّه كان جميلًا.

شخص مّا في الجزء الخلفيّ من الحشد بكى فجأةً بمرح: «إلى الجحيم يا جيم تاجارت!»

فانفجر الجميع ضاحكين، وهتفوا، وصدعوا بالتصفيق. وكان الردّ غير متناسب تمامًا مع الجملة. لكنّ الجملة قدّمت لهم العذر الذي يحتاجون إليه. ويبدو أنّهم كانوا يصفّقون للمتكلّم في تحدٍّ وقحٍ للسلطة. لكنّ كلّ من في الغرفة كان يعرف من كان المعنيّ بالهتاف.

رفعت يدها وقالت ضاحكةً: ما يزال الأمر باكرًا على الاحتفال. انتظروا أسبوعًا من الآن. هذا هو الوقت الذي يجب أن نحتفل فيه. وثقوا أنّنا سنحتفل!

لقد تطوّع كثيرون منهم لقيادة القطار. فالتقطت ورقة مطويّة من بين كومة تحتوي على جميع أسمائهم. الفائز لم يكن في الغرفة، لكنّه كان واحدًا من أفضل الرجال في النظام، بات لوغان، سائق القطار المذنّب لشركة تاجارت في قسم نبراسكا.

قالت لإيدي: اتّصل ببات لوغان وأخبره أنّنا خفّضنا رتبته ليصبح سائق قطار شحن.

ثمّ أضافت عَرَضًا، كما لو أنّه قرار اللحظة الأخيرة، لكنّ أوان التذكير به لم يفت: أوه نعم، قل له إنّني سأركب معهم في قُمرة القيادة على مدى كامل الرحلة.

فخاطبها سائق عجوز وقف بجانبها مبتسمًا: لطالما اعتقدت أنّك ستفعلين ذلك يا آنسة تاجارت.

***

كان ريردن في نيويورك يومَ اتّصلت به داغني من مكتبها: هانك، سأعقد مؤتمرًا صحفيًّا غدًا.

ـ ضحك بصوت عالٍ: لا!

قالت بنبرة جادّة: بلى، لقد اكتشفتني الصحف فجأة وطرحت عليّ بعض أسئلة. وسأجيب عنها.

ـ أتمنّى أن تحظي بوقت ممتع.

ـ ستكون فرصة ممتعة بالتأكيد. هل ستكون في المدينة غدًا؟ أودّ أن تكون حاضرًا معي في هذا المؤتمر.

ـ حسنًا، لا أريد أن أفوّت هذه الفرصة.

كان المراسلون الذين حضروا المؤتمر الصحفيّ في مكتب خطّ جون جالت شبّانًا تلقّوا تدريبًا محورُه أنّ عملهم يتمثّل في إخفاء طبيعة الأحداث عن العالم. وكان من واجبهم اليوميّ أن يعملوا كجمهور لبعض الشخصيّات العامّة التي أدلت بأقوالها عن الصالح العامّ، في عبارات اختيرت بعناية لا معنى لها. كان عملهم اليوميّ هو رمي الكلمات معًا في أيّ مزيج يحلو لهم، مادامت الكلمات لم تقع في تسلسل يوحي بشيء محدّد. ولم يتمكّنوا من فهم المقابلة التي ستُجرى لهم في تلك اللحظة.

جلست داغني تاجارت خلف مكتبها الشبيه بقبو الأحياء الفقيرة. ارتدت بدلة زرقاء داكنة مع بلوزة بيضاء، مصممّة بشكل جميل، ممّا يشير إلى جوٍّ من الأناقة الرسميّة العسكريّة تقريبًا. جلست مستقيمة، وكانت طريقتها في غاية الفخامة، وبروح جليلة جدًّا.

جلس ريردن في زاوية من غرفة مترامية الأطراف على كرسيّ مكسور، وقد ألقيت ساقاه الطويلتان على إحدى ذراعي الكرسيّ، وجسده يميل على كرسيّ آخر. كانت طريقته في الجلوس غير رسميّة.

في صوت واضح ورتيب كما يتلو المرء تقريرًا عسكريًّا، ودون الرجوع إلى أيّ

أوراق، وعبر النظر مباشرة إلى الناس، تلت داغني الحقائق التكنولوجيّة حول خطّ جون جالت، وقدّمت أرقامًا دقيقة عن طبيعة السكك الحديديّة، وقدرة الجسر، وطريقة البناء، والتكاليف. ثمّ، بلهجة جافّة تشبه لغة صيارفة البنوك، شرحت الآفاق الماليّة للخطّ وسَمَّت الأرباح الكبيرة التي توقّعت تحقيقها. ثمّ أنهت خطابها بالقول: هذا كلّ شيء.

قال أحد الصحفيّين: هذا كلّ شيء؟ ألن تعطينا رسالة إلى الجمهور؟

ـ كانت هذه هي رسالتي.

ـ لكن ألن تدافعي عن نفسك؟

ـ ضدّ ماذا؟

ـ ألا تريدين إخبارنا بشيء للدفاع عن خطّك؟

ـ قد فعلت.

سألها رجل توحي هيئته بسخريّة دائمة: حسنًا، ما أريد أن أعرفه، كما ذكر بيرترام سكودر هو: ما هي الضمانات التي تقدّمينها لأولئك الذين يخشون ركوب القطارات في هذا الخطّ؟

ـ لا تركب القطارات التي تسلك هذا الخطّ.

سأل صحفيّ آخر: ما الدوافع التي حفّزتك إلى بناء الخطّ؟

لقد قلت لك: الربح الذي أتوقّع أن أحقّقه.

ـ أوه، آنسة تاجارت، لا تقولي ذلك! صرخ صبيّ صغير. كان جديدًا، ولا يزال صادقًا في عمله، وشعر أنّه يحبّ داغني تاجارت دون أن يعرف السبب: هذا أمر خاطئ لا يجب قوله. هذا ما يقولونه عنك جميعًا.

ـ هل هم يقولون ذلك؟

ـ أنا متأكّد أنّك لم تقصدي ذلك بالطريقة التي تبدو... وأنا متأكّد من أنّك سوف

ترغبين في توضيح ذلك.

ـ لمَ لا، حاضر. إذا كنت ترغب في ذلك سأوضّح الأمر. لقد بلغ متوسّط الربح من السكك الحديديّة اثنين في المائة من رأس المال المستثمر. فالصناعة التي تفعل الكثير وتحتفظ بالقليل جدًّا ينبغي أن تعتبر نفسها غير أخلاقيّة. وكما أوضحت، فإنّ تكلفة خطّ جون جالت في ما يخصّ حركة المرور التي سيوفّرها تجعلني أتوقّع ربحًا لا يقلّ عن خمسة عشر في المائة فوق استثماراتنا. وبطبيعة الحال، فإنّ أيّ أرباح صناعيّة تزيد على أربعة في المائة تعتبر فائدة في الوقت الحاضر. ومع ذلك، سأبذل قصارى جهدي لجعل خطّ جون جالت يدرّ عليّ ربحًا بنسبة عشرين في المائة إن أمكن. هذا كان دافعي لبناء الخطّ، هل توضّحت الأمور الآن؟

كان الفتى ينظر إليها بعجزٍ، فقال وهو مدفوع بالأمل:

ـ أنت لا تقصدين أنّك ترغبين في تحقيق الأرباح لك؟ ربّما كان المقصود تحقيق الربح لحاملي الأسهم الصغيرة، بطبيعة الحال؟

ـ لمَ لا؟ يحدث أن أكون أحد أكبر حاملي الأسهم في شركة تاجرت العابرة للقارّات، لذلك ستكون حصّتي من الأرباح كبيرة جدًّا. الآن، السيّد ريردن في وضع أكثر حظًّا منّي، لأنّه لا يملك أصحاب أسهم ليشاركهم الأرباح، أم تفضّل أن تُصدر بيانك الخاصّ يا سيّد ريردن؟

قال ريردن: نعم، بكلّ سرور. بقدر ما كانت الصيغة الكيميائيّة لمعدن ريردن هي سرّي الشخصيّ، ونظرا إلى حقيقة أنّ المعادن تكلّف أقلّ بكثير لإنتاج ما يمكن أن يتصوّره الأولاد، ولإرضاء فضول الجمهور فأنا أتوقّع أنّ معدّل الربح قد يناهز خمسة وعشرين في المائة في السنوات القليلة المقبلة.

سأله الصبيّ: ماذا تعني بإرضاء فضول الجمهور؟ إذا صحَّ، كما قرأت في إعلاناتك، أنّ المعادن الخاصّة بك ستعمّر ثلاث مرّات أطول من أيّ معدن آخر وبنصف السعر، هل سيحظى الجمهور بصفقة رابحة؟

قال ريردن: أوه، هل لاحظت ذلك؟

سألهما رجلٌ يحمل روحَ الدعابة والسخريّة: هل تدركان أنّكما تتحدّثان عن أشياء قابلة للنشر؟

قالت داغني بنبرة مهذّبة: ولكن، يا سيّد هوبكنز، هل يوجد أيّ سبب يبرّر ما كنّا نتحدّث فيه إليكم لو لا النشر؟

ـ هل تريديننا أن نقتبس كلّ الأشياء التي ذكرتها؟

ـ آمل ذلك، أنا أثق بكم. هل تعدني بنشر هذا حرفيًّا؟

توقّفت لرؤية أقلامهم جاهزةً، ثمّ أملت: الآنسة تاجارت تقول -أقتبس- أتوقّع أن أكسب كومة من المال من خطّ جون جالت. سأكون قد جمعتها بعد ذلك -إغلاق الاقتباس- شكرًا جزيلًا.

سأل ريردن: هل من أسئلة أيّها السادة؟

لم تكن هناك أسئلة. فقالت داغني:

ـ الآن لا بدّ لي أن أعلن لكم عن افتتاح خطّ جون جالت. سيغادر القطار الأوّل من محطّة تاجارت العابرة للقارّات في شايان وايومنغ على الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم 22 يوليو/ تمّوز. وسيكون قطارَ شحن خاصّ، يتألّف من ثمانين عربة. وسيكون مدفوعًا بمحرّك قوّته ثمانية آلاف حصان، بأربع وحدات قاطرة ديزل سأؤجّرها من شركة تاجارت العابرة للقارّات لهذه المناسبة. وسوف تعمل دون توقّف إلى حدود تقاطع وايت، كولورادو، والسفر بمتوسّط سرعة مائة ميل في الساعة.

ـ ماذا قلت يا آنسة تاجارت؟

ـ قلت مائة ميل في الساعة في المنعطفات والمنحنيات وفي كلّ شيء.

ـ لكن ألا يجب أن تخفَّض السرعة إلى ما دون المعدّل المألوف بدلًا من... ألا تولين

الرأي العامَّ أيَّ اعتبار؟

ـ لكنّي سأفعل ذلك من أجل الرأي العامّ، ولولاه لكان متوسّط السرعة 65 ميلًا في الساعة كافيًا تمامًا.

ـ من سيدير ذلك القطار؟

ـ وجدت متاعب كثيرة بشأن ذلك الأمر. جميع مهندسي شركة تاجارت تطوّعوا لإنجاز ذلك وكذا رجال الإطفاء والمكابح والموصّلات. وكان علينا أن نخطّط لكلّ وظيفة في طاقم القطار. السائق سيكون بات لوغان سائق قطار المذنّب بشركة تاجارت، رجل الإطفاء سيكون راي ماكيم. سأركب معهما في قمرة القيادة الرئيسيّة للمحرّك.

ـ لا أصدّق ذلك!

ـ احضروا الافتتاح. سيكون في الثاني والعشرين من يوليو، والصحافة مدعوَّةٌ بإلحاحٍ كبير. على عكس سياستي المعتادة، أصبحت أتصيّد الدعاية. حقًّا. أودّ أن تكونَ هناك أضواء كاشفة، وميكروفونات الراديو وكاميرات التلفزيون. أقترح أن تزرع بعض الكاميرات حول الجسر. انهيار الجسر سيعطيكم بعض الصور المثيرة للاهتمام.

سألها ريردن: لماذا لم تذكري أنّني سأركب ذلك القطار أيضًا، يا آنسة تاجارت؟

نظرت إليه عبر الغرفة، وللحظة كانا وحدَهما، يتبادلان النظرات.

أجابته: نعم، بالطبع، يا سيّد ريردن.

***

لم تره مجدّدًا حتّى تبادلا النظرات عبر منصّة محطّة تاجارت في شايان، في 22 يوليو/ تمّوز.

لم تبحث عن أيّ شخص عندما خرجت إلى المنصّة: شعرت كما لو أنّ حواسّها

تداخلت، على نحوٍ لم تستطع معه تمييز السماء من الشمس أو من أصوات الحشد الهائل، ولكنّها أدركت فقط الإحساس بالصدمة والضوء.

ومع ذلك كان هو أوّل شخص رأته، ولم تتمكّن من معرفة المدّة التي قضّاها وهو وحيد. ثمّ وقف بجانب محرّك قطار جون جالت يتحدّث إلى شخص مّا خارج دائرة تفكيرها. كان يرتدي سروالًا رماديًّا وقميصًا، وبدا كميكانيكيّ خبير، لكنّه أخذ يحدّق في الوجوه من حوله، لأنّه كان هانك ريردن من شركة ريردن للفولاذ. في الأعلى، رأت على واجهة المحرّك الفضّيّة الحرفين (ت ـ ت) كاختصار لشركة تاجارت. كانت خطوط المحرّك مائلة إلى الوراء، مصوّبة نحو الفضاء.

كان بينهما مسافة وحشد، لكنّ عينيه انتقلتا إليها لحظة خروجها. نظر أحدهما إلى الآخر فعرفت أنّهما يشعران بالإحساس نفسه. ولم يكن هذا مشروعًا رسميًّا يتوقّف عليه مستقبلهما، بل مجرّد يوم متعة لهما. وقد أنجزا عملهما في الوقت الراهن. لم يكن في الأمر مستقبل. لقد استحقّا الحاضر.

قالت له: يكفي أن يشعر المرء بأهمّيّة كبرى، حتّى يشعر بأنّه خفيف حقًّا. ومهما يكن ما يعنيه تشغيل القطار للآخرين، فقد كانا هما المعنى الوحيد لذلك اليوم. ومهما يكن ما يسعى إليه الآخرون في الحياة، فإنّ حقّهما في ما يشعران به الآن هو كلّ ما يرغبان في العثور عليه. وكان الأمر كأنّهما تبادلا هذا الكلام عبر المنصّة.

ابتعدت عنه. ثمّ لاحظت أنّها هي أيضًا كانت موضوع تحديق الجميع، وأنّ أشخاصًا اجتمعوا حولها، وأنّها تضحك وتجيب على الأسئلة.

لم تكن تتوقّع مثل هذا الحشد الكبير. لقد شغلوا كلّ المنصّة والمسارات والساحة خارج المحطّة. كانوا على أسطح السيّارات، وعلى جوانب الطريق وعند نوافذ كلّ منزل في الأفق. شيء مّا جذبهم إلى هنا، شيء في الهواء الذي جعل جيمس تاجارت يرغب في اللحظة الأخيرة أن يحضر افتتاح خطّ جون جالت. لقد رفضت ذلك وقالت:

ـ إذا حضرت يا جيم، سأجعلهم يطردونك من محطّة تاجارت الخاصّة بك. هذا حدثٌ نادرٌ لن تراه.

واختارت إيدي ويلرز لتمثيل شركة تاجارت العابرة للقارّات في الافتتاح.

نظرت إلى الحشد وشعرت في الوقت نفسه بالدهشة من أنّ عليهم أن يحدّقوا فيها.

لم تشعر بأيّ غضب تجاه أيّ شخص على وجه الأرض. حتّى الأشياء التي تحمّلتها انحسرت الآن في بعض الضباب الخارجيّ، مثل الألم الذي لا يزال موجودًا لكنّه فَقَدَ القدرة على الأذى. لا يمكن لتلك الأشياء أن تقف في وجه حقيقة تلك اللحظة. كان معنى ذلك اليوم واضحًا على نحوٍ عنيف مثل بقع الشمس المنعكسة على اللون الفضّيّ للمحرّك. كلّ البشر يجب أن يدركوا ذلك الآن، لا أحد يمكن أن يشكّ فيه، ولم يكن لديها أيّ شيء لتكرهه.

كان إيدي ويلرز يراقبها وهو واقف على المنصّة، محاطًا بالمديرين التنفيذيّين لشركة تاجارت، ورؤساء الفرق، والقادة المدنيّين، ومختلف المسؤولين المحلّيّين الذين أُحضِروا بالرشوة أو بالتهديد، للحصول على تصاريح لتشغيل قطار عبر مناطق المدينة على بعد مائة ميل في الساعة. لمرّة واحدة، في ذلك اليوم وذاك الحدث، شعر أنّ لقب نائب الرئيس الذي يحمله كان حقيقيًّا، وقد حمله بشكل جيّد. ولكن بينما هو يتحدّث إلى من حوله، ظلّت عيناه تتبعان داغني من خلال الحشد. كانت ترتدي سروالًا أزرق وقميصًا، غير واعية بالواجبات الرسميّة، فتركتها له، إلى أن أصبح القطار الآن هاجسها الوحيد، كما لو أنّها مجرّد فرد من أفراد طاقمه.

رأته، فاقتربت منه، وصافحته. كانت ابتسامتها مثل خلاصة كلّ الأشياء التي لا يوجد داعٍ إلى قولها. فقالت:

ـ حسنا، إيدي، أنت الآن تمثّل شركة تاجارت العابرة للقارّات.

ـ قال بنبرة رسميّة وبصوت منخفض: نعم.

كان هناك مراسلون يطرحون الأسئلة، فسحبوها بعيدًا عنه. وقد سألوه هو أيضًا

بعض أسئلة من قبيل: سيّد ويلرز، ما هي سياسة شركة تاجارت العابرة للقارّات في ما يتعلق بهذا الخطّ؟ إذَن شركة تاجارت العابرة للقارّات هي مجرّد مراقب غير مهتمّ. هل هي كذلك يا سيّد ويلرز؟

أجاب بأفضل ما يستطيع. كان ينظر إلى انعكاس الشمس على محرّك الديزل لكنّ ما رآه هو الشمسُ زمنَ تنظيف الغابة وفتاةٌ في الثانية عشرة من عمرها تخبره أنّه سيساعدها على إدارة السكك الحديديّة يومًا مّا.

وظلّ يشاهد من مسافة بعيدة بينما يصطفّ طاقم القطار أمام المحرّك، لمواجهة فرقة من المصوّرين يحملون الكاميرات. كانت داغني وريردن يبتسمان، كما لو أنّهما يتظاهران بالتقاط لحظات استثنائيّة أثناء عطلة صيفيّة. كان بات لوغان، سائق القطار، رجلًا قصيرًا، قويًّا وذا شعر رماديّ وملامح وجه غامضة. أمّا راي ماكيم، رجل الإطفاء، فهو شابّ عملاق الجثّة، أجشّ الصوت، يبتسم في جوٍّ من الإحراج والتفوّق معًا. وكان باقي الطاقم يبدو كما لو أنّهم على وشك أن يغمزوا للكاميرات.

قال المصوّر وهو يضحك: من فضلكم، حاولوا أن تظهروا مثل أناس حُكِم عليهم بالفشل. هذا كلّ ما يريده المحرّر.

كانت داغني وريردن يجيبان على أسئلة الصحافة، بأجوبة ليس فيها سخريّة أو مرارة. كانوا يستمتعون بذلك. وقد تحدّثوا كما لو أنّ الأسئلة طُرِحت بحسن نيّة. وعلى نحوٍ لا يقاوم، وفي مرحلة مّا لم يلاحظها أحدٌ، أصبح المشروع حقيقة على أرض الواقع.

سأل أحد الصحفيّين أحد عمّال المكابح: ماذا تتوقّع أن يحدث أثناء التشغيل؟ هل تعتقد أنّكم ستصلون؟

أجاب عامل المكابح: أعتقد أنّنا سنصل إلى هناك، وستصل أنت أيضًا معنا.

ـ سيّد لوغان، هل لديك أطفال؟ هل حصلت على أيّ تأمين إضافيّ؟ أنا أفكّر فقط في الجسر.

أجاب بات لوغان بازدراء: لا تعبر ذلك الجسر حتّى أصل إليه.

ـ سيّد ريردن كيف تعرف أنّ سكّة حديدك ستصمد؟

ردّ ريردن: الإنسان الذي علّم الناس صناعة آلات الطباعة، كيف اهتدى هو إلى صناعتها؟

ـ قولي لي يا آنسة تاجارت، ما الذي سيدعم عبور قطارٍ بكتلة سبعة آلاف طن على جسر كتلته ثلاثة آلاف طن؟

أجابت: تقديري الشخصيّ.

لم يعرف رجال الصحافة الذين يحتقرون مهنتهم لماذا وجدوا أنفسهم يستمتعون بها اليوم. فقال أحدهم فجأة، وهو شابّ له سنوات من النجاح والشهرة ونظرة تهكّميّة تبلغ ضعف عمره: أعرف ما أرغب في أن أكونه: أتمنّى أن أكون رجلًا يغطّي الأخبار!

توقّفت عقارب الساعة بمبنى المحطّة على الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة. انطلق الطاقم نحو عربة المطبخ في الطرف البعيد من القطار. وبدأت حركة الحشد وضجيجه يهدآن. وعن غير قصد أو وعيٍ، بدأ الناس يقفون مكتوفي الأيدي.

كان مراسل المحطّة قد تلقّى كلمة من كلّ مشغّل محلّيّ على طول خطّ السكك الحديديّة التي تشقّ الجبال إلى حقول وايت للنفط على بعد ثلاث مائة ميل. خرج من مبنى المحطّة، ثمّ نظر إلى داغني، وأعطى إشارة لمسار واضح أمامهم. رفعت داغني يدها وهي تقف إلى جانب المحرّك، مُعيدةً إشارته لتؤكّد أنّها تلقّت الأمر وفهمته.

امتدّت السلسلة الطويلة من عربات الشحن على مسافة كبيرة، في وصلات متباعدة ومستطيلة مثل العصب الشوكيّ. وعندما ارتفعت ذراع سائق القطار في الفضاء، بعيدًا في نهاية السلسلة، حرّكت داغني ذراعها في إشارةِ ردٍّ.

وقف كلّ من ريردن ولوغان وماك في صمت، كانوا يرغبون في منحها شرفَ أوّل من يعتلي القطار. وعندما بدأت بصعود أولى الدرجات، فكّر أحد الصحفيّين في

سؤال لم يطرحه من قبل. فناداها وقال:

ـ آنسة تاجارت، من هو جون جالت؟

التفتت، وهي تمسك بقضيب معدنيّ في يد واحدة، ثمّ أجابت:

ـ نحن!

تبعها لوغان إلى العربة، ثمّ لحق بهما ماكيم. وكان ريردن هو آخر من صعد، ثمّ أُغلق باب قمرة المحرّك بقطعة صغيرة من معدن مختوم.

كانت الأضواء، المعلّقة على جسر للإشارات، خضراءَ. ولاحت بين المسارات أضواء خضراء منخفضة فوق الأرض، تهبط على بعد مسافة حيث تحوّلت القضبان وبقي الضوء أخضر عند المنحنى، قبالة أوراق الصيف الخضراء التي بدت وكأنّها هي أيضًا أضواء.

ثمّ حمل رجلان شريطًا حريريًّا أبيض امتدّ عبر المسار أمام المحرّك. لقد كانا المشرفَين على قسم كولورادو ومعهم نيلي كبير المهندسين، وهما الوحيدان اللذان استمرّا في العمل. وكان من المفترض على إيدي ويلرز قصّ الشريط. وبالنتيجة، الإعلان عن افتتاح الخطّ الجديد.مكتبة سُر مَن قرأ

التقط المصوّرون بعض الصور بعناية، وهو يحمل المقصّ بيده، موليا ظهره للمحرّك. وأوضحوا له أنّهم يستطيعون تكرار تصوير الاحتفال مرّتين أو ثلاث مرات، لإعطائه فرصة اختيار اللقطات المناسبة وبعد ذلك سيركّبون الفيلم على نحوٍ لائق. كان على وشك الامتثال، ثمّ توقّف وقال:

لا، لن يكون الأمر مزيّفًا.

وبصوت السلطة الهادئة، صوت نائب الرئيس، أمر، مشيرًا إلى الكاميرات:

ـ قف في الخلف، بعيدًا إلى الوراء. وخذ لقطة واحدة عندما أقطع الشريط، ثمّ ابتعد عن الطريق بسرعة.

أطاعوه وتجاوبوا معه، ثمّ تحرّكوا على عجلٍ إلى أبعد من المسار. لم تتبقّ سوى دقيقة واحدة. أدار إيدي ظهره للكاميرات ووقف بين القضبان، في مواجهة المحرّك. لقد أمسك بالمقصّ، واتّجه فوق الشريط الأبيض، ثمّ خلع قبّعته وتخلّص منها جانبًا. أخذ ينظر إلى المحرّك وهبوب الرياح الخافتة يعبث بخصلات شعره الأشقر. كان المحرّك درعا فضّيًا رائعًا يحمل شعار نات تاجارت.

رفع إيدي ويلرز يده عندما أدرك عقربُ ساعة المحطّة الثانيةَ الرابعة.

قال آمرا سائق القطار: شغّله يا بات!

في اللحظة التي بدأ فيها المحرّك يسير إلى الأمام، قصّ الشريط الأبيض وقفز من الطريق.

من المسار الجانبيّ، رأى نافذة قمرة القيادة تمرّ وداغني تلوّح له بالتحيّة. ثمّ اختفى المحرّك، ووقف ينظر عبر المنصّة المزدحمة التي استمرّت في الظهور والتلاشي بينما تنقر عرباتُ الشحن القضبانَ وهي تمرّ أمامه.

***

اشتعلت القضبان الخضراء المائلة إلى الزرقة تلبيةً لإرادتهم، مثل طائرتين نفّاثتين انطلقتا من نقطة واحدة وراء منحنى الأرض. ذابت وصلات القطع، مع اقترابهم، في تيّار سلس يتدحرج تحت العجلات. تشبّث الشريط الباهر بجانب من المحرّك، منخفضًا باتّجاه الأرض. ولاحت الأشجار وأعمدة التلغراف في الأفق فجأةً ثمّ غابت، وعادت إلى الأنظار ثمّ اختفت مرارا وتكرارا كما لو أنّها كانت رعشة متجدّدة. امتدّت السهول الخضراء أمامهم على مهلٍ. وبجانب السماء، عكست موجةٌ طويلة من الجبال حركةً بدت وكأنّها تتابع القطار.

لم تشعر داغني بأيّ جَلَبَةٍ للعجلات تحت الأرض، كانت حركة الرحلة سَلِسة بنظام دَفْعٍ مستمرّ، كما لو أنّ المحرّك معلّق فوق القضبان، ويسبح فوق تيّار مائيّ. لم تشعر بأيّ سرعة. بدا أمر أضواء الإشارات الخضراء غريبًا، لقد استمرّت في الظهور

والاختفاء وهي تمرّ أمامهم كلّ بضع ثوان. وكانت تعلم أنّ أضواء الإشارة متباعدة على مسافة ميلين.

وظلّت إبرة عدّاد السرعة أمام بات لوغان ثابتة على مؤشّر مائة ميل في الساعة.

جلست داغني على كرسيّ رجل الإطفاء وظلّت تراقب لوغان من حين إلى آخر. وجلس لوغان مستلقيًا إلى الأمام قليلا وممسكًا دوّاسة القيادة بيد واحدة في ارتياح شديدٍ، كما لو أنّ الأمر جرى صدفةً. لكنّ عينيه كانتا ثابتتين على المسار الذي ينتظرهم. كان يتمتّع بمهارة الخبير، واثقًا جدًا من أنّه يبدو غير رسميّ، لكنّه كان يمتلك سهولة في التركيز الهائل، تركيز على مهمّة المرء التي فيها قسوة مطلقة. جلس راي ماكيم على مقعد خلفهم. أمّا ريردن فظلّ واقفًا في منتصف قمرة القيادة.

وقف، وهو يضع يديه في جيبَيه، بقدمَين متباعدَتَين ثابتتين ضدّ الحركة، وتتطلّعان إلى الأمام. لم يكن هناك شيء يمكنه أن يراه الآن على جانب المسار: كان ينظر إلى السكك الحديديّة.

الملكيّة، هكذا فكّرت، وهي تلقي نظرة خاطفة عليه. ألم يوجد أناسٌ لا يعرفون شيئًا عن طبيعتها ويشكّون في واقعها؟ لا، لم تكن مصنوعة من أوراق وأختام ومنح وأُذُون. لقد كانت الملكيّة موجودة هناك في عينيه.

بدا الصوت الذي ملأ العربة جزءًا من الفضاء الذي يعبرونه. كان أزيزًا منخفضًا صادرًا عن المحرّكات، ذلك النقر الأكثر حدّةً على الأجزاء العديدة التي رنّت في صرخات متنوّعة من المعدن، والدقّات العالية الرقيقة للألواح الزجاجيّة المرتجفة.

كانت الأشياء المتتالية تمضي أمامهم، لقد مرّوا بخزّان مياه، وشجرة، وأكواخ، وصومعة لتخزين الحبوب. كانت حركتهم تشبه حركة ماسحة الزجاج الأماميّ: يرتفعون، يتجاوزون منحنًى ثمّ يتراجعون. وكانت أسلاك التلغراف في سباق مع القطار، ترتفع وتنزل من قطب إلى قطب، في إيقاع يشبه تخطيط القلب الذي يسجّل نبضات ثابتة.

نظرت إلى الأمام، في الضباب الذي ذاب في محيط السكك الحديديّة والمسافة، ضباب يمكنه أن يمزّق القطار إربًا في أيّ لحظة فيتسبّب في أيّ شكل من أشكال الكوارث. وتساءلت لماذا شعرت بأمان أكثر ممّا شعرت به في أيّ وقت مضى وهي داخل العربة خلف المحرّك، إنّه أكثر أمانًا هنا، إذ بدت كما لو أنّها ستصدّ أيّ عقبة، ويكون صدرها والدرع الزجاجيّ أوّل ما سيُسْحَق في مواجهتها. ثمّ ابتسمت، وقد عثرت على الجواب: كان سبب شعورها بالأمان أنّها أوّلًا على يقين من رؤية كاملة ومعرفة بمسار المرء، وليس من الشعور الأعمى بأن تُسحَب إلى المجهول من قبل قوّة مجهولة مقبلة. كان ذلك يمثّل أكبر إحساس بالوجود: ليس أن نثق بشيء، بل أن نعرف.

كانت الأغلفة الزجاجيّة لنوافذ القمرة قد جعلت انتشارَ الحقول يبدو أوسع: وبدت الأرض مفتوحة للحركة، وكانت هي ترى. ومع ذلك لم يكن هناك شيء بعيد أو مستحيل، ولم يكن هناك شيء بعيد المنال. كانت لا تكاد تستوعب بريق بحيرة أمامهم، حتّى تجدها بجانبهم في اللحظة التالية، ثم تمرّ وقد صار المشهد من الماضي.

وفكّرت في وجود فجوةٍ غريبة بين البصر واللمس، بين الرغبة والوفاء، بين... ونطّت الكلمات بحدّة في ذهنها بعد توقّف مذهل بين الروح والجسد. الرؤية أوّلًا، ثمّ الشكل المادّيّ للتعبير عنها. الفكر أوّلًا، ثمّ الحركة الهادفة أسفل الخطّ المستقيم لمسار واحد نحو هدف مختار. هل يمكن للمرء أن يحمل أيّ معنى دون الآخر؟ أليس من الشرّ أن نتمنّى دون تحرّك أو أن نتحرّك دون هدف؟ من كان السبب في تسرّب الضغينة عبر أنحاء العالم، وكافح من أجل تفريق الاثنين وجَعل أحدَهما ضدّ الآخر؟

هزّت رأسها. لم تعد ترغب في التفكير أو التساءل عن سبب بقاء العالم وراءها كما هو عليه. لم تهتمّ. كانت تحلّق بعيدًا عن ذلك بمعدّل سرعة مائة ميل في الساعة. انحنت نحو النافذة المفتوحة إلى جانبها، وشعرت برياح السرعة التي تهبّ عابثة بخصلات شعرها. كانت مستلقية، غير واعية بأيّ شيء سوى المتعة التي تمنحها هذه الرحلة.

ومع ذلك استمرّ عقلها في السباق. أجزاء مكسورة من الفكر مرّت بوعيها، مثل مرور أعمدة التلغراف بالمسار. المتعة الجسديّة؟ قالت في نفسها. هذا القطار صُنِع من الصلب... ويسير على قضبان من معادن ريردن... تحرّكه طاقة ناتجة عن احتراق النفط والمولّدات الكهربائيّة... إنّه الإحساس المادّيّ للحركة المادّيّة من خلال الفضاء... ولكن هل هذا هو السبب في ما أشعر به الآن؟ هل هذا ما يسمّونه الفرحة الحيوانيّة المتدنّية؟ هذا الشعور بأنّني لن أهتمّ إذا تحطّمت السكك الحديديّة إلى أجزاء من تحتنا الآن، وهي لن تفعل ذلك، لكنّني لن أهتمّ، لأنّني اختبرت هذا؟ متعة متدنّية، فيزيائيّة، مادّيّة، مهينة للجسد؟

ابتسمت، كانت عيناها مغمضتين، والرياح تتدفّق من خلال شعرها.

فتحت عينيها ورأت أنّ ريردن وقف ينظر إليها. كانت النظرة نفسها التي نظر بها إلى السكك الحديديّة. شعرت أنّ قوّة إرادتها صُرِعَت بضربة واحدة ساحقة، ضربة مملّة جعلتها غير قادرة على التحرّك. والتقطت نظرة عينيه، وهي مستلقية على كرسيّها، والريح تضغط قماش قميصها الرقيق على جسدها.

جال بنظره بعيدًا، بينما التفتت هي تنظر مجدّدًا لترى القطار وهو يعبر الأرض المفتوحة أمامهم.

لم تكن ترغب في التفكير بالأمر، لكنّ الأصوات داخل ذهنها تواصلت، مثل أزيز المحرّكات الصادر عن أصوات المحرّك. نظرت إلى عربة القيادة حولها. واكتشفت شبكة السقف الفولاذيّة الدقيقة، وصفَّ مسامير في الزاوية عليه صفٌّ من الصلب المختوم، وتساءلت: مَن صنعها؟ هل هي القوّة الغاشمة لعضلات الرجال؟ من تمكّن من جعل أربعة أوجه وثلاث أذرع أمام بات لوغان تمسك قوّةً لا تصدّق من المحرّكات الستّة عشر وراءها وتسلمها لسيطرة جهد يد رجل واحد؟

هذه الأشياء والقدرة التي جاءت منها، هل كان هذا الأمر إنجاز رجال الملاحقة الذين يعتبرونهم أشرارًا؟ هل هذا ما سمَّوه قلقًا بشعًا من العالم المادّيّ؟ هل هذه هي حالة استعباد المادّة؟ هل هذا هو استسلام روح الإنسان لجسده؟

هزّت رأسها، وكأنّها تتمنّى القدرة على التخلّص من الموضوع من خلال النافذة والسماح له بالتحطّم في مكانٍ مّا على طول المسار. نظرت إلى الشمس في حقول الصيف. لم يكن عليها أن تفكّر، لأنّ هذه الأسئلة كانت مجرّد تفاصيل عن حقيقةٍ عرفتها دومًا. وقالت في نفسها دعي تلك الأسئلة تمرّ مثل أعمدة التلغراف. أمّا الشيء الذي خبرته فكان مثل الأسلاك التي تحلّق فوق خطٍّ غير منقطع. وكانت الكلمات التي صاغتها لوصفه ووصف تلك الرحلة وشعورها والأرض كلّها هي: أنّها بسيطة جدًّا وصائبة جدًّا!

نظرت إلى البلاد فَوَعَت لبعض الوقت رؤية بعض الأشكال البشريّة التي تومض بانتظام غريب على جانب المسار. لكنّ تلك الأشكال تختفي بسرعة إلى درجة أنّها لم تتمكّن حتّى من فهم معناها مثل مربّعات فيلم سينمائيّ، ومضات قصيرة ممتزجة في شكل مكتمل استوعبت كنهه. كانت حراسة المسار قد تمّت منذ اكتماله، لكنّها لم تستأجر السلسلة البشريّة التي رأتها متراصّة لرؤية القطار على طول الطريق الصحيح. إذ وقف كلّ شخص بانفراد في كلّ موقع ميل. بعضهم كانوا من تلاميذ المدارس الصغار، وآخرون كبار في السنّ إلى درجة أنّ ظلال أجسادهم بَدَت منحنية في السماء. جميعهم مسلّحون، بأيّ شيء وجدوه، من بنادق مكلفة إلى أخرى قديمة. جميعهم يرتدون قبّعات السكك الحديديّة. كانوا أبناء موظّفي شركة تاجارت، ورجال السكك الحديديّة القديمة الذين تقاعدوا بعد حياة كاملة من خدمة تاجارت. لقد جاؤوا، دون استدعاء، لحراسة هذا القطار. وكلّما مرّ المحرّك بجانب أحد الرجال وقف من جهته منتصبًا، في حالة تأهّب، رافعًا مسدّسه في تحيّة عسكريّة.

عندما فهمت ذلك، انفجرت فجأة؛ تضحك حينا وتبكي حينا آخر. كانت تضحك، وترتجف مثل طفل، وبدا لها هذا الأمر وكأنّه بكاء الخلاص. أومأ بات لوغان إليها بابتسامة خافتة؛ لقد لاحظ مرورهم أمام حارس الشرف منذ فترة طويلة. انحنت إلى النافذة المفتوحة، واجتاحت ذراعها في منحنيات واسعة من الانتصار، تلوّح للناس الذين يصطفّون على طول المسار.

على قمّة تلّة بعيدة، رأت حشدًا من الناس، أذرعهم تعلو في السماء. كانت المنازل الرماديّة في قرية متناثرة أدنى الوادي، كما لو أنّها سقطت هناك دفعة واحدة ونسيت؛ خطوط السقف كانت مائلة، ووهن السنوات التي جرفت معها لون الجدران. ربّما عاشت أجيال هناك، ولا شيء كان يدلّ على مرور أيّامهم سوى حركة الشمس من الشرق إلى الغرب. الآن، تسلّق هؤلاء الرجال التلّ لرؤية مذنّب فضّيّ الرأس يقطع سهولهم مثل صوت الجرس الذي يخترق كتلة كبيرة من الصمت.

ومع الاقتراب من المنازل بشكل أكثر، وأقرب إلى المسار، رأت الناس عند النوافذ، وعلى الشرفات، وعلى أسطح بعيدة. رأت حشودًا تسدّ الطرق عند معابر الصفّ. لم تتمكّن من تمييز أشكال البشر، فقط أذرعهم المتحرّكة في تحيّة للقطار مثل تماوج أغصان الأشجار في مهبّ ريح قويّة. وقفوا تحت الأضواء الحمراء المتأرجحة من إشارات التحذير، وتحت لافتات تقول: توقّف. انظر. استمع.

المحطّة التي مرّوا بها، وهم يعبرون بلدةً بسرعة مائة ميل في الساعة، كانت عبارة عن منحوتة توثّق تمايل أمواج من البشر بين المنصّة والأسقف. لاحظت وميضًا من التلويح بالأسلحة، ومن قذف القبّعات في الهواء، ومن رمي الزهور على واجهة القطار الأماميّة.

ومع تجاوزها الأميال، مرّت بالمدن، والمحطّات التي لم تتوقّف فيها، وحشود الناس الذين جاؤوا فقط لرؤيتها في القطار والهتاف والتعبير عن الأمل. رأت أكاليل الزهور تحت إفريز مباني المحطّة القديمة، ورايات حمراء وبيضاء وزرقاء على الجدران التي أتت عليها صروف الدهر. كان الأمر أشبه بالصور التي شاهدتها – بغبطة – في الكتب المدرسيّة التي تروي تواريخ السكك الحديديّة، بدءا من العصر الذي تجمّع فيه الناس لتحيّة أوّل رحلة لأوّل قطارٍ. وبدا الأمر شبيهًا بالزمن حين تنقّل نات تاجارت في جميع أنحاء البلاد، ووقوف الناس المتميّز على طول طريقه حريصين على رؤية الإنجاز. وكانت تعتقد أنّ ذلك الزمن قد ولّى؛ وتعاقبت الأجيال، بلا أيّ حدث لإحيائه والاحتفال به في أيّ مكان، لا شيء يمكن رؤيته سوى الشروخ التي

ازدادت اتّساعًا سنة بعد سنة في الجدران التي بناها نات تاجارت. ومع ذلك جاء الناس مرّة أخرى، كما جاؤوا في ذلك الوقت، يجذبهم الأمر نفسه.
ونظرت إلى ريردن وهو واقف قبالة الجدار، غير مدرك للحشود، وغير مبال بتحيّات الإعجاب. لقد كان يراقب أداء المضمار والقطار باهتمام مهنيّ مكثّف لا يعرفه غير الخبراء من أمثاله؛ وأشارت قدرته على التحمّل إلى أنّه سيضع جانبًا كلّ ما ليس له أيّ صلة بالموضوع، أيّ فكرة مثل «إنّهم يحبّون ذلك»، والحال أنّ الفكرة التي جالت بذهنه كانت تقول: القطار يعمل!

وبدت قامته الطويلة، وهو يرتدي سروالًا وقميصًا رماديّين، كما لو أنّ جسده قُدَّ للعمل فقط.

ابتعدت داغني مدركةً على نحوٍ مفاجئ أنّها كانت تنظر إليه في أحيان كثيرة. لكنّ هذا اليوم لا يمتّ بصلة للماضي أو للمستقبل. كانت أفكارها مقطوعة عن الآثار، لم ترَ أيّ معنى آخر، فقط سرعة اشتداد الشعور بأنّها سُجنت معه، وأغلقت الأبواب عليهما معًا في مكعّب الهواء نفسه، وبأنّ وجوده قريب منها، ممّا يؤكّد وعيَها بذلك اليوم، مثلما أكّدت قضبانه سير القطار.

التفتت عمدًا وظلّت تنظر إلى الوراء. أمّا هو فاستمرّ في النظر إليها ولم يبتعد، بل ظلّ يراقبها ببرود ونيّة تامّة. ابتسمت بتحدٍّ، ولم تدع نفسها تعرف المعنى الكامل لابتسامتها، فقط علمت أنّها كانت اللكمة الحادّة التي يمكن أن تسدّدها على وجهه غير المرِن. شعرت برغبة مفاجئة في رؤيته يرتجف، لاستئصال صرخة منه. أدارت رأسها بعيدا وببطء، وشعرت بتسلية متهوّرة، وتساءلت: لماذا كانت تواجه صعوبة في التنفّس؟

جلست مائلةً إلى الوراء في كرسيّها، ومتطلّعة إلى الأمام، وكلّها علم بأنّه على وعي بها كما كانت هي على وعي به. لقد وجدت متعة في الوعي الذاتيّ الخاصّ الذي منحها إيّاه. وحين ثنت ساقيها وانحنت بذراعها على عتبة النافذة، حين سرّحت خصلات شعرها من جهة جبهتها، أكّدت في كلّ حركة من حركات جسدها شعورًا

من وراء كلمات لم تعترف بها تقول: هل كان يراها؟

خلّفوا المدن بعيدا. وكان المسار يرتفع عبر ريف يزداد تردّدا في السماح بالاقتراب. ظلّت القضبان تتلاشى خلف المنحنيات، وظلّت نتوءات التلال تقترب أكثر فأكثر، كما لو أنّ السهول تُطوى إلى طيّات. كانت الرفوف الحجريّة المسطّحة في كولورادو تتقدّم إلى حافّة المسار، وكانت الروافد البعيدة للسماء تتقلّص إلى موجات من الجبال المائلة إلى الزرقة.

قبل ذلك بكثير، رأوا ضبابًا من الدخان يتصاعد من مداخن المصنع، ثمّ شبكةَ محطّة للطاقة ومؤشّرًا وحيدًا لهيكل معدنيّ. لقد كانوا يقتربون من مدينة دنفر.

نظرت داغني إلى بات لوغان الذي كان يميل إلى الأمام أبعد منها بقليل. لاحظت شدًّا طفيفًا في أصابع يده وفي عينيه. كان يعرف، مثلها تمامًا، خطر عبور المدينة بالسرعة التي يسافرون بها.

لقد كانت سلسلة متتالية من الدقائق، لكنّها ضربتهم كدفعة واحدة من الزمن. رأوا في بداية الأمر الأشكال الوحيدة، التي كانت عبارة عن مصانع، تمرّ أمام أعينهم عبر نوافذ قطارهم، ثمّ انصهرت الأشكال في ضبابيّة الشوارع، وانتشرت أمامهم دلتا من القضبان، مثل فَمِ قِمْعٍ يمتصّها إلى محطّة تاجارت دون أيّ شيء يحميها سوى الخرز الصغيرة الخضراء للأضواء المتناثرة على الأرض. ومن خلال ارتفاع القمرة شاهدوا أيضًا عربات الشحن على جوانب المسار تمرّ أمامهم مثل شرائط مسطّحة في قمم السقف. وقد غطّت ظلال الثقب الأسود سقيفة القطار ونزلت على وجوههم، واندفعوا عبر انفجار الأصوات، وضرب العجلات ضدّ الألواح الزجاجيّة لقبوٍ، وصرخات الهتاف من كتلة من البشر تمايلت مثل السائل في الظلام بين أعمدة الصلب، وحلّقوا نحو قوس متوهّجة والأضواء الخضراء معلّقة في السماء المفتوحة، تلك الأضواء الخضراء التي كانت مثل مقابض أبواب الفضاء، تفتحها أمامهم بابًا بعد باب. ثمّ، تتلاشى خلفهم، فيمرّ في الشوارع المزدحمة بحركة المرور، والنوافذ المفتوحة متخمة بالأشكال البشريّة، وصفّارات الإنذار الصارخة. ومن أعلى ناطحة

سحابٍ بعيدة تلألأت سحابة من الثلج الورقيّ في الهواء قذفها شخص رأى قطارا يشبه في مروره رصاصة فضّيّة مندفعة، يسير عبر مدينة توقّفت لمشاهدته.

ثمّ خرجوا مرّة أخرى، على مسار صخريّ. وبمفاجأة صادمة، كانت الجبال أمامهم، وكأنّ المدينة قذفتهم مباشرة على جدار من الجرانيت، وأمسكت بهم حافّة رقيقة في الوقت المناسب. كانوا يتشبّثون بجانب جرف عموديّ، والأرض تتدحرج، وتسقط، وطبقات عملاقة من الصخور الملتوية تتدفّق وتغلق منافذ الشمس، ممّا يتركها تسرع من خلال غسق يميل إلى الزرقة، دون رؤية علامة تدلّ على وجود التربة أو السماء.

أصبحت منحنيات السكك الحديديّة دوائرَ لفٍّ بين الجدران التي تقدّمت لطحنهم قبالة جوانبها. ولكنّ المسار تجنّبها وشقّ طريقه من خلالها في بعض الأحيان فافترقت الجبال، واتّسعت مفتوحةً مثل جناحين في انحراف السكك الحديديّة: أحد الأجنحة أخضر، مصنوع من الإبر العموديّة، بأشجار صنوبر استخدمت كلّها مثل كومة من سجّادة صلبة، أمّا الجناح الآخر فقد بُنِي على نحو يميل إلى الحمرة، وكان مصنوعا من الصخور العارية.

نظرت داغني إلى أسفل من خلال النافذة المفتوحة فرأت الجانب الفضّيّ من المحرّك معلّقًا فوق مساحة فارغة. في أسفله، كانت هناك سيول رقيقة لتيّار مائيّ تندفع من الحافّة إلى الحافّة، والسرخس يتدلّى في الماء من قمم متلألئة من أشجار البتولا. رأت ذيل القطار المتكوّن من عربات الشحن المتعرّجة على طول وجه منحدرٍ من الجرانيت، وأميالًا من الحجر المائل في أسفله، ورأت أيضًا لفائف من السكك الحديديّة الخضراء والزرقاء تسترخي خلف القطار.

ثمّ اعترضهم جدار من الصخور في طريق صعودهم، ملأ بظلاله الزجاج الأماميّ، فحلّ الظلام بالقمرة، لقد كان قريبًا جدًّا فبدا كما لو أنّ بقايا الوقت لا يمكن أن تسمح لهم بالهروب منه. لكنّها سمعت صخب العجلات على منحنى، فحلّ الضوء مرّة أخرى، ورأت امتدادا مفتوحًا من السكك الحديديّة على الرفّ

الضيّق. انتهى الرفّ في الفضاء. كان أنف المحرّك موجّهًا مباشرة إلى السماء. ولم يكن هناك أيّ شيء ليوقفه إلّا شريطين من المعدن الأخضر والأزرق متراصّين في شكل منحنى على طول الرفّ.

فقالت في نفسها: هل سيتحمّل الجسر عنف ستّة عشر محرّكًا، ودفع سبعة آلاف طنّ من الصلب والشحن؟ هل سيصمد ويثبت ويتأرجح حول المنحنى؟ هل سينجز المستحيل الذي سيحقّقه شريطان من المعدن ليسا أوسع من امتداد ذراعيها؟ ما الذي جعل ذلك ممكنًا؟ ما هي القوّة التي منحت ترتيبًا غير مرئيّ من الجزيئات قوّةً تعتمد عليها حياتهم وحياة جميع الرجال الذين انتظروا ثمانين عربة شحن؟ لقد رأت وجه رجل ويديه في توهّج فرن المختبر، فوق السائل الأبيض لعيّنة من المعدن.

اكتسحتها عاطفة لم تتمكّن من احتوائها، وكأنّ شيئًا كان ينفطر بداخلها ويرغب في الخروج. تحوّلت إلى باب وحدات المحرّك، فتحتها فسمعت أصواتًا نفّاثة فهربت، ولم تجد إلّا قصف قلب المحرّك.

وللحظة، كان الأمر وكأنّها تريد اختزال حواسّها في حاسّة واحد، هي حاسّة السمع، وما تبقّى من سمعها لم يكن سوى صرخة طويلة تصعد وتهبط بالتناوب. وقفت في غرفة متمايلة ومختومة من المعدن، تنظر إلى المولّدات العملاقة. كانت تريد أن تراها، لأنّ الشعور بالانتصار داخلها مرتبط بها، وبحبّها لتلك المولّدات، وبسبب منهج العمل مدى الحياة الذي اختارته. وفي الوضوح غير الطبيعيّ للعاطفة العنيفة، شعرت كما لو أنّها على وشك فهم شيء لم تعرفه قطّ وكان عليها أن تعرفه. فضحكت بصوت عالٍ، لكنّها لم تسمع أيّ صدًى منه. لا شيء يمكن سماعه من خلال الانفجار المستمرّ. صرخت: خطّ جون جالت! من أجل الشعور بالتسلية لأنّ صوتها انطلق بعيدا عن شفتيها.

تحرّكت ببطء على طول وحدات المحرّك، أسفل ممرٍّ ضيّق بين المحرّكات والجدار. شعرت بتواضع دخيل، وكأنّها انزلقت داخل مخلوق حيّ، تحت جلده الفضّيّ، وكانت تشاهد حياتها تضرب في أسطوانات معدنيّة رماديّة، وفي لفائف ملتوية، وفي

أنابيب مختومة، وفي دوّامة الشفرات المتشنّجة في أقفاص سلكيّة. لقد استنزفت قنواتٌ غير مرئيّةٍ ذاك التعقيد الهائل للشكل الذي فوقها، وأدّى العنف المستعر بداخله إلى إبر هشّة قُدّت بأقراص زجاجيّة، وإلى الخرز الأخضر والأحمر يغمز على الألواح، وإلى خزّانات طويلة ورقيقة كُتِب عليها «تيّار بضغط مرتفع».

تساءلت بينها وبين نفسها: لماذا كانت تشعر دومًا بالثقة والسعادة عند النظر إلى الآلات؟ في هذه الأشكال العملاقة، كان هناك منحيان يتعلّقان بالجانب اللّا-إنسانيّ غائبَين بشكل مشعّ هما: اللّاسبب واللّاهدف. كلّ جزء من المحرّكات كان جوابًا مجسّدا لسؤال: لماذا؟ وما الغاية؟ مثل خطوات دورة حياة اختارتها من نوع العقل الذي تعبده. كانت المحرّكات رمزا أخلاقيّا يلقى في الفولاذ.

وقالت في نفسها أيضًا، إنّهم على قيد الحياة، لأنّهم الشكل المادّيّ لعمل قوّة حيّة، للعقل الذي كان قادرًا على فهم كلّ هذا التعقيد، وتحديد الغرض منه، ومنحه شكلاً. للحظة، بدا لها أنّ المحرّكات شفّافة وأنّها ترى شبكة من الجهاز العصبيّ. كانت شبكة من الاتّصالات، الأكثر تعقيدا، والأكثر أهمّيّة من بين جميع الأسلاك والدوائر: إنّها اتّصالات عقلانيّة تنحدر من هذا العقل البشريّ الذي صمّم كلّ جزء منها للمرّة الأولى.

إنّهم على قيد الحياة، ولكنّ أرواحهم تشغّلهم عبر التحكّم عن بعد. كانت أرواحهم رهنًا لكلّ رجل لديه القدرة على المساواة في هذا الإنجاز. إذا اختفت الروح من الأرض، ستتوقّف المحرّكات، لأنّها هي القوّة التي تبقيها مستمرّة، وليس النفط تحت الأرض التي هي تحت قدميها، والنفط الذي سيصبح بعد ذلك المادّة الأولية مرّة أخرى، وليس الأسطوانات الفولاذيّة التي ستصبح بقع صدإ على جدران كهوف الهمج المترفة. إنّها قوّة العقل الحيّ وقوّة الفكر والاختيار والهدف.

كانت تشقّ طريقها للعودة نحو قمرة القيادة، وهي تشعر بأنّها تريد أن تضحك، أن تركع أو ترفع ذراعيها، متمنّية أن تكون قادرة على إطلاق الشيء الذي شعرت به، وهي تدرك أنّ ذلك الشيء لا يملك أيّ شكل من أشكال التعبير.

ثمّ توقّفت حين رأت ريردن واقفًا بجانب عتبة باب العربة. كان ينظر إليها نظرةَ من يعرف سبب هروبها وما شعرت به. وقفا ساكنين، وأصبح جسداهما لمحة التقت عبر ممرّ ضيّق. النبض بداخلها يشبه ضرب المحرّكات، فشعرت كما لو أنّ كليهما جاءا منه؛ لقد قضى إيقاع القصف على إرادتها. فعادا إلى العربة بصمتٍ، وهما يعلمان أنّهما مرّا بلحظة لا يجب ذكرها.

في الخارج كانت المنحدرات أمامهم ذهبيّة وزاهية، وشرائط الظلّ تطول في الوديان أسفلها. كانت الشمس تنحدر إلى القمم في الغرب. أمّا هم فكانوا يتّجهون غربًا إلى أعلى نحو الشمس.

مال لون السماء ليصبح مشابها للون القضبان الأزرق المائل إلى الخضرة، عندما رأوا مداخن في واد بعيد. لقد كانت إحدى مدن كولورادو الجديدة، وهي المدن التي نمت مثل الإشعاع من حقول وايت للنفط. رأت خطوط زاوية للمنازل الحديثة، وأسطحا مستوية، وصفائح كبيرة من النوافذ. كانت أبعد ما يمكن عن تبيّن الناس. في اللحظة التي اعتقدت فيها أنّ السكّان لن يشاهدوا القطار على تلك المسافة، أُطلِق صاروخ من بين المباني، ارتفع عاليًا فوق المدينة وانفجر كنافورة من النجوم الذهبيّة في السماء المظلمة. الناس الذين لم تستطع رؤيتهم، كانوا يرون خطّ القطار على جانب الجبل، وكانوا يرسلون تحيّة، من خلال صاروخ وحيد في الغسق، رمزًا للاحتفال أو دعوة للمساعدة.

بعد المنعطف التالي، في منظر مفاجئ للمسافة، رأت نقطتين من الضوء الكهربائيّ، الأبيض والأحمر، منخفضتين في السماء. لم تكن طائرات، لأنّها رأت مخاريط العوارض المعدنيّة تدعمها. وفي اللحظة التي عرفت فيها أنّها رافعات شركة وايت للنفط، رأت أنّ المسار كان يحتاج إلى الاتّجاه نحو الأسفل، وأنّ الأرض أصبحت مفتوحة، كما لو أنّ الجبال انطرحت. وفي الأسفل عند سفح تلّ وايت عبر فجوة مظلمة في الوادي، رأت جسر معدن ريردن.

كانوا يحلّقون إلى أسفل. نسيت داغني الدرجات الدقيقة، والمنحنيات العظيمة

للهبوط التدريجيّ، شعرت كما لو أنّ القطار كان يغرق إلى تحت. فانحنت رؤوسهم إلى أسفل، فشاهدت الجسر يظهر شيئًا فشيئًا للقائهم. كان نفقًا صغيرا بُنِي من الشرائط المعدنيّة، وبضعة حزم تتقاطع عبر الهواء، بلونها الأخضر والأزرق المتوهّج، انعكس عليها شعاع طويل من ضوء غروب الشمس من خلال فجوة في حاجز الجبال. كان على الجسر أناسٌ، ومن السهل ملاحظة الدفق الداكن للحشد، لكنّ داغني طردتهم من ذهنها. سمعت صوت العجلات الصاعد والمتسارع مثل لحن موسيقيّ، يُسمع في إيقاع العجلات، وظلّ يتجاذب في ذهنها، ويزداد صخبه. انفجر فجأة داخل عربة القيادة، لكنّها كانت تعلم أنّه يعزف فقط في ذهنها: الكونشرتو الخامس لريتشارد هالي. تساءلت: هل ألّفهُ لهذه المناسبة؟ هل مرّ بشعور كهذا؟ كانوا يسيرون بسرعة، فقالت في نفسها لقد تركنا الأرض، وقذفنا من الجبال كما لو أنّها كانت نقطة انطلاق، والآن هم يبحرون عبر الفضاء. إنّه ليس اختبارًا عادلًا، لن نلمس ذلك الجسر، ثمّ رأت وجه ريردن فوقها، ضبطت عينيه، وانحنى رأسها إلى الخلف، على نحوٍ لا يزال وجهها فيه مستلقيًا على الهواء تحت وجهه. سمعا انفجارَين من المعدن، وسمعا لفّة طبل تحت أقدامهما، وعبر النوافذ أطلقت أقطار الجسر نشازا صوتيّا لصوت قضيب معدنيّ يجري تشغيله على طول أوتاد السياج، ثمّ كانت النوافذ واضحة فجأة، وكان اكتساح هبوط القطار إلى أسفل يحملهم نحو أعلى التلّ، فبدت أبراج وايت للنفط تترنّح أمامهم. ألقى بات لوغان نظرة خاطفة على ريردن، فردّ عليه هذا الثاني: هذا هو المطلوب.

كُتب على اللّافتة عند حافّة السطح: تقاطع وايت. حدّقت فيها، فشعرت أنّ هناك شيئا غريبا حول هذا الموضوع، إلى أن أدركت ما هي عليه: لقد كانت العلامة ثابتة لا تتحرّك. وكانت أشدّ رجّة في الرحلة هي إدراكهم أنّ المحرّك لم يقف ساكنًا.

سمعت أصواتًا في مكان مّا، فنظرت إلى أسفل ورأت على المنصّة أشخاصًا. ثمّ فتح باب عربة القيادة وكانت تعلم أنّ عليها أن تكون أوّل من ينزل، فخطت أولى خطواتها إلى الحافّة. شعرت بنحافة جسدها، وخفّة الوقوف بكامل قوامها في تيّار من

الهواء الطلق. أمسكت بالقضبان المعدنيّة وبدأت تنزل السلّم. كانت في منتصف الطريق إلى أسفل حين شعرت براحتَي يدي رجل تشدّانها بإحكام من أضلاعها وحول خصرها، رفعها قبالة خطواته، فتأرجحت في الهواء ثمّ وضعها على الأرض. لم تعتقد أن الشابّ الصغير الذي لطالما ابتسم كلّما رأى وجهها هو إليس وايت. كان وجهه المتوتّر والقبيح الذي تذكّرته يحمل الآن طهارة وجدّيّة وخيرًا وسعادة طفلٍ في ذلك النوع من العالم الذي كان ينوي العيش فيه.

كانت تتّكئ على كتفه، وتشعر بعدم الثبات على أرضٍ بلا حراك، وذراعه حولها، وهي تضحك، وتستمع إلى الأشياء التي قالها، فتجيب: لكن ألم تعلم أنّنا سننجح؟

وفي لحظةٍ، رأت الوجوه من حولهم. كانوا حاملي سندات خطّ جون جالت، رجال من بينهم ممثّلون: عن شركة نيلسن للمحرّكات، وعن شركة هاموند للسيّارات، وعن شركة ستوكتون للسباكة، وآخرون. صافحت أيديهم، ولم تكن لتلقي أيّ خطبة؛ وقفت أمام إليس وايت للاسترخاء قليلًا، وسرّحت خصلات شعرها بعيدا عن عينيها، فتركت بقعًا من السخام على جبهتها. صافحت أيدي رجال طاقم القطار دون كلمات، وواجهتهم بالابتسامات الختاميّة على وجوههم. كان هناك وميض لأضواء كاميرات تصوير تنفجر من حولهم، ورجال يلوّحون لهم من بين تجهيزات آبار النفط على سفوح الجبال. فوق رأسها، وفوق رؤوس الحشد، انعكس شعاع آخر من الشمس الغارقة على الحرفين (ت ـ ت) على درع القطار الفضّيّ.

تولّى إليس وايت بقيّة المسؤوليّة. كان يقودها إلى مكان مّا، وفسح بذراعيه الطريق لهما من خلال الحشد، حين اخترقه أحد الرجال أصحاب الكاميرات ليصل إليها ويطلب منها: آنسة تاجارت هل ستعطينا رسالة إلى الجمهور؟ أشار إليس وايت إلى السلسلة الطويلة من عربات الشحن وقال: لقد فعلت.

ثمّ جلست في المقعد الخلفيّ من سيّارة مفتوحة، كانت تسير عبر منحنيات طريق جبليّ. وكان الرجل الذي يجلس بجانبها هو ريردن، أمّا السائق فهو إليس وايت.

توقّفوا عند منزل يقف على حافّة الهاوية، ولم يكن هناك مسكن آخر في أيّ مكان بالأفق، مع انتشار حقول النفط على كامل المنحدرات أسفله.

قال إليس وايت وهم يسيرون: لمَ لا، بالطبع ستمكثان كلاكما في بيتي هذه الليلة. أين كنتما تتوقّعان البقاء؟

ضحكت، وقالت: لا أعرف، لا أعرف. لم أفكّر في ذلك على الإطلاق.

ـ تقع أقرب مدينة على بعد ساعة بالسيّارة. هذا هو المكان الذي قصده طاقمك: عمّالك في نقطة التقسيم والبلدة بأكملها سيقيمون حفلة على شرفهم. لكنّني أخبرت تيد نيلسن والآخرين أنّك لن تقيمي مآدب ولن تلقي خطبًا إلّا إذا كنت ترغبين في ذلك.

قالت: يا إلهي، لا خطب طبعًا! شكرا إليس.

حلّ الظلام عندما جلسوا إلى طاولة العشاء في غرفة ذات نوافذ كبيرة وعدد قليل من قطع الأثاث المكلفة. وقدّمت لهم العشاءَ شخصيّةٌ صامتة في سترة بيضاء، وهو الساكن الآخر الوحيد في المنزل، إنّه هنديّ مسنّ ذو وجه حجريّ ولكن ذو سلوك مهذّب. وتناثرت بضع نقاط النار من خلال الغرفة، وسرت حول المنزل وخارج النوافذ: شموع الطاولة، والأضواء، والنجوم.

قال إليس وايت: هل تعتقدين أنّ يديك ممتلئتان الآن؟ فقط أمهليني سنة وسأعطيك شيئًا ليبقيك مشغولة. هل يكفيك شحن قطارين يوميًّا يا داغني؟ سيكون لك أربعة أو ستّة أو ما تريدين منّي أن أملأه.

وأطلق يده فوق أضواء الجبال في إشارة إلى ضوء أبراج حفر بئر النفط. ثمّ أضاف:

ـ أترين ذلك؟ إنّه لا شيء، مقارنة بما هو هناك بممرّ بوينا إسبيرانزا. على بعد خمسة أميال من هنا. الجميع يتساءلون ماذا سأفعل بالصخر الزيتيّ. كم سنة مضت تخلّوا فيها عن محاولة الحصول على النفط من الصخر الزيتيّ، لأنّه كان مكلفًا جدًّا؟ حسنًا،

انتظري حتّى تَرَي العمليّة، لقد طوّرتُها. وسوف يكون أرخص نفط أرشّه على وجوههم. إمدادات غير محدودة منه، وإمدادات غير مستغلّة من شأنها أن تجعل أكبر تجمّع للنفط يبدو وكأنّه بركة من الطين. هل طلبت خطّ أنابيب؟ هانك، سنبني معًا خطوط أنابيب في كلّ الاتّجاهات لـ... أوه، المعذرة. لا أعتقد أنّني قدّمت لك نفسي عندما تحدّثت إليك في المحطّة، لم أخبرك حتّى باسمي.

ابتسم ريردن ابتسامة عريضة وقال: لقد استنتجت ذلك الآن.

ـ أنا آسف، أنا لا أحبّ أن أكون مهمّشًا، ولكنّي كنت متحمّسًا جدًّا.

سألته داغني وعيناها شبه مغمضتين من الضحك والسخريّة: ما الذي كنت متحمّسا إليه؟

التقط وايت نظرتها للحظة؛ وكان جوابه بنبرة متّزنة كثيفة نقلها بغرابة صوت مبتسم: عن أجمل صفعة تلقّيتها في وجهي، وكانت مستحقّة.

ـ هل تعني اجتماعنا الأوّل؟

ـ نعم.

ـ لا تقل ذلك. لقد كنتَ على حقّ.

ـ كنت على حقّ في كلّ شيء ما عداك أنت يا داغني، العثور على استثناء بعد سنوات من... أوه، فليذهبوا إلى الجحيم! هل تريدين منّي أن أشغّل الراديو ونسمع ما يقولونه عنكما الليلة؟

ـ لا.

ـ جيّد. لا أريد سماعهم، دعهم يلوكوا خطاباتهم الخاصّة. جميعهم يتسلّقون عربة الفرقة الآن. نحن الفرقة.

ثمّ نظر إلى ريردن فقال:

ـ ما الذي يضحك؟

ـ لطالما كنت فضوليًّا لأرى ما أنت عليه.

ـ لم تسنح لي الفرصة لأكون كما أنا عليه ما عدا هذه الليلة.

ـ هل تعيش هنا بمفردك على بعد أميال من كلّ شيء؟

أشار وايت إلى النافذة وقال:

ـ أنا على بعد خطوتين من كلّ شيء.

ـ وماذا عن الناس؟

ـ لديّ غرف للضيوف ولهذا النوع من الناس الذين يأتون لرؤيتي في العمل. أريد أكبر عدد ممكن من الأميال بيني وبين جميع الأنواع الأخرى من البشر.

ثمّ انحنى إلى الأمام لإعادة ملء كؤوس النبيذ قبل أن يضيف: هانك، لماذا لا تنتقل إلى كولورادو؟ لتذهب نيويورك والبحر الشرقيّ إلى الجحيم! هذه هي عاصمة عصر النهضة. عصر النهضة الثاني -ليس من اللوحات الزيتيّة والكاتدرائيّات- ولكن من أبراج حفر النفط، ومحطّات توليد الطاقة، والمحرّكات المصنوعة من معدن ريردن. لقد مرّ البشر بالعصر الحجريّ والعصر الحديديّ والآن سيسمّونه عصر معدن ريردن، لأنّه لا يوجد حدّ لما يمكن لمعدنك صنعه.

قال ريردن: سأشتري بضعة أميال مربّعة من ولاية بنسلفانيا، المساحة التي تقع حول مطاحني. ربّما كان من الأرخص بناء فرع هنا كما أردت، لكنّك تعرف لماذا لا أستطيع فعل ذلك، وليذهبوا إلى الجحيم! سأهزمهم على أيّة حالٍ. سأوسّع المطاحن، وإذا كانت داغني تستطيع توفير خدمة شحن لمدّة ثلاثة أيّام إلى كولورادو، فسأعطيك سبقًا لما سيكون عاصمة عصر النهضة!

قالت داغني: أمهلني سنة بعد تشغيل القطارات على خطّ جون جالت، امنحني الوقت لسحب نظام تاجارت معًا، وسأعطيك خدمة الشحن لمدّة ثلاثة أيّام في جميع أنحاء القارّة، على مسار معدن ريردن، ومن المحيط إلى المحيط!

قال إليس وايت: ومن قال إنّه يحتاج إلى نقطة ارتكاز؟ أعطني الحقّ في طريق دون

عوائق وسأريهم كيف تُحرِّك الأرض!

وتساءلت عن الشيء الذي أحبّته في صوت ضحكات وايت. لقد كانت في أصواتهم، بما في ذلك صوتها هي، نبرةٌ لم تسمعها من قبل. وعندما نهضوا عن الطاولة، اندهشت وهي تلاحظ أنّ الشموع هي مصدر الإضاءة الوحيد في الغرفة: فقد شعرت كما لو أنّها جالسة على ضوء عنيف.

التقط إليس وايت كأسه، ونظر إلى وجهَيهما وقال: على نخب العالم كما يبدو الآن!

وأفرغ الزجاجة بحركة واحدة. وسمعت تحطّم الكأس على الجدار في اللحظة نفسها التي رأت فيها تيارًا دوّارًا، من منحنى جسده إلى اكتساح ذراعه إلى عنف يده الرهيب الذي قذف به الكأس عبر الغرفة. لم تكن الإيماءة التقليديّة التي تعني الاحتفال، بل كانت إشارة غضب متمرّد، إشارة عدميّة شرّيرة حلّت محلّ صرخة الألم.

همست: إليس، ما خطبك؟

التفت لينظر إليها بالطريقة الفجّة العنيفة نفسها، كانت عيناه صافيتَين ووجهه هادئًا. ما أخافَها هو رؤيته يبتسم بلطف، فقال:

ـ أنا آسف، لا يهمّ. سنحاول الاعتقاد بأنّ نخبنا سيدوم.

كانت الأرض تحتهم مغمورة بضوء القمر، عندما قادهما وايت إلى الطابق الثاني من المنزل، إلى المعرض المفتوح عند أبواب غرف الضيوف. تمنّى لهما ليلة سعيدة وسمعا خطواته وهو ينزل الدرج. وبدا ضوء القمر وكأنّه يستنزف الصوت مثلما استنزف اللون. وتوالت الخطوات حتّى غرقت في الذّاكرة المعتمة، وحين ماتوا، كان للصمت نمط من العزلة التي استمرّت لفترة طويلة، كما لو أنّها لو أنها قضت على كلّ شيء من حولها.

لم تلتفت إلى باب غرفتها، ولم تتحرّك. على مستوى أقدامهما، لم يكن هناك شيء سوى سور رقيق وفضاء طلق. وكانت طبقات الزاوية في الأسفل تنزل بظلال تكرّر

الزخرفة الفولاذيّة لأبراج حفر بئر النفط، وخطوط متقاطعة سوداء حادّة تتقاطع على بقع من الصخور المتوهّجة. ارتعشت بعض الأضواء، بيضاء وحمراء، في الهواء الصافي مثل قطرات المطر التي تَعلَق على حوافّ العوارض الفولاذيّة. وعلى بعد مسافة، كانت هناك ثلاث قطرات صغيرة خضراء، متدلّية في خطّ على طول مسار تاجارت. ووراء تلك القطرات، في نهاية الفضاء، عند سفح منحنى أبيض، علّق الجسر.

شعرت بإيقاع لا صوت فيه ولا حركة، ذلك الشعور بالتوتّر، كما لو أنّ عجلات خطّ جون جالت كانت لا تزال تسير مسرعة. وببطء، في الإجابة ومقاومة لاستدعاء غير معلن، التفتت ونظرت إليه.

النظرة التي رأتها على وجهه جعلتها تعرف لأوّل مرّة أنّها كانت على علمٍ بأنّ هذه ستكون نهاية الرحلة. تلك النظرة لم تكن ممّا يتعلّم الرجال تمثيله، لم تكن مسألة عضلات فضفاضة، وشفاه معلّقة، وجوع طائش. كانت خطوط تقاسيم وجهه مشدودة، وقد منحها ذلك نقاءً غريبًا، ودقّة حادّة في الشكل، ممّا جعلها نظيفة وشابّة. كان فمه مشدودًا، والشفتان مرسومتان بشكل ضعيف إلى الداخل، مع شدّة في الخطوط العريضة لشكله. عيناه فقط كانتا غير واضحتين، بجفون منتفخة ومرفوعة، يطلقان لمحة تتراوح بين الكراهية والألم.

أصبحت الصدمة خَدَرًا ينتشر في كامل جسدها، وشعرت بضغط شديد في حلقها ومعدتها. لم تكن واعية بشيء سوى تشنّج صامت جعلها غير قادرة على التنفّس. ولكن لا كلمات لما شعرت به، كأنّها تقول: نعم، يا هانك، نعم الآن، لأنّه جزء من المعركة نفسها، بطريقة لا أستطيع تسميتها... لأنّه وجودنا، ضدّهم... قدرتنا العظيمة، التي من أجلها عذّبونا، قدرة السعادة... الآن، هكذا، بلا كلمات أو أسئلة... لأنّنا نريد ذلك.

كان الأمر أشبه بعمل من أعمال الكراهية، مثل ضربة سوط لجلد يطوّق جسدها: شعرت بذراعيه حولها، شعرت بساقيها سحبت إلى الأمام قبالته وصدرها انحنى

مرّة أخرى تحت ضغطه، وفمه على يدها.

انتقلت يدها من كتفيه إلى خصره ثمّ ساقيه، وأطلقت عنان رغبتها التي لم تعترف بها له في كلّ لقاء معه. وحين انتزعت فمها بعيدا عنه، كانت تضحك في انتصار وبلا صوت، كما لو أنّها تقول: هانك ريردن المتقشّف، الذي لا يمكن الاقتراب منه، هانك ريردن صاحب مكتب الراهب، ومؤتمرات الأعمال، والمساومات القاسية، هل تتذكّرها الآن؟ أنا أفكّر في ذلك، في متعة أن أجذبك إلى هنا. لم يبتسم، بل كان وجهه مشدودًا، مثل وجه عدوّ، هزّ رأسها وأخذ فمها مرّة أخرى، كما لو أنّه كان يحفّز جرحًا.

شعرت به يرتجف واعتقدت أنّ هذا هو نوع الصراخ الذي أرادت أن تنتزعه منه، هذا الاستسلام من خلال أشلاء مقاومته المعذّبة. ومع ذلك، فقد عرفت، في الوقت نفسه، أنّ الانتصار كان له، وأنّ ضحكاتها هي تكريمها له، وأن تحدّيها هو الخضوع، وأنّ الغرض من كلّ قوّتها العنيفة هو فقط جعل انتصاره أكبر. كان يمسك بجسدها مقابل جسده، كما لو أنّه يؤكّد رغبته في إعلامها بأنّها الآن مجرّد أداة لإشباع رغبته وانتصاره. كانت تعرف، وترغب في السماح له باختزالها في ذلك. فقالت في نفسها: مهما أُكُن ومهما يَكُن فخر الشخص الذي قد أحمله، فخر شجاعتي، وعملي، وعقلي وحرّيّتي، فإنّ هذا ما أقدّمه لك من أجل متعة جسدك، هذا ما أريدك أن تستعين به في خدمتك. ومادمتَ تريد أن يخدمك فهو أعظم مكافأة يمكن أن أحصل عليها.

كانت هناك أضواء مشتعلة في الغرفتين خلفهما. فأخذها من معصمها وألقاها داخل غرفته، ممّا جعل الإيماءة تخبرها بأنّه لا يحتاج إلى أيّ علامة على الموافقة أو المقاومة. ثمّ أغلق الباب وظلّ يراقب وجهها. ظلّت واقفة باستقامة، وهو ينظر إليها، ثم مدّت ذراعها إلى المصباح على الطاولة وأطفأت النور. فاقترب هو وأشعل النور مرّة أخرى، برعشة واحدة متردّدة من معصمه. فرأته يبتسم للمرّة الأولى، ابتسامة بطيئة، ساخرة ومثيرة كشفت عن نواياه.

كان يحمل نصفها الممتدّ عبر السرير، ويمزّق ملابسها، بينما كان وجهها مضغوطًا

عليه، وفمها يتحرّك أسفل خطّ رقبته، وأسفل كتفه. كانت تعرف أنّ رغبتها تجاههُ قد هوت بهِ، وأنّ هناك بعض القشعريرة من الغضب المتشكّك في داخله، ومع ذلك فإنّ أيّ بادرة لن ترضي جشعه ستكون دليلًا على رغبتها.

وقف ينظر إلى جسدها العاري، وانحنى، فسمعت صوته يقول: هل تريده؟ كانت إجابتها اللّاهثة أكثر من كلمة، وعيناها مغلقتان، وفمها مفتوح: نعم.

كانت تعرف أنّ ما شعرت به يلامس بشرة ذراعيها هو قماش قميصه، فعرفت أنّ الشفتين اللتين شعرت بهما على فمها هما شفتاه، ولكن في ما تبقّى من جسمها لم يكن هناك تمييز بين كيانه وجسدها، إذ غاب الانفصال بين الجسد والروح.

الفصل التاسع

المقدّس والمدنّس

نظرت داغني إلى الشرائط اللّامعة التي تلوح في ذراعها، متباعدةً مثل الأساور من معصمها إلى كتفها. كانت شرائط من تأثير أشعّة الشمس التي تسلّلت عبر ستائر الطراز البندقيّ على نافذة غرفة غير مألوفة. رأت كدمة فوق مرفقها، مع بقع داكنة من الدم. ألقت ذراعها على البطّانيّة التي غطّت جسدها. كانت على وعي بساقيها ووركيها، لكنّها لم تكن تجد في بقيّة جسدها سوى شعور بالخفّة، وكأنّها ممدّدة بشكل مُريح فوق الهواء في مكان يشبه قفصًا مصنوعًا من أشعّة الشمس.

وحين عاودت النظر إليه، فكّرت في انطوائه، وطريقة تمسّكه المنغلق بالشكليّات، وكبريائه من خلال عدم شعوره بأيّ شيء إزاء كلّ ذلك، وفكّرت أيضًا في هانك ريردن الذي يرقد بجانبها بعد ساعات من العنف الذي لم يتمكّنا من تسميته حتّى الآن، ليس بالكلمات أو في وضح النهار، ولكنّه كان في أعينهما، كلّما نظر أحدهما إلى الآخر، الأمر الذي أرادا تسميته، لتأكيده، وإلقائه على وجهيهما.

أمّا هو فرأى وجه فتاة صغيرة، شفتاها توحيان بابتسامة، كما لو أنّ استرخاءها الطبيعيّ حالةٌ من الإشراق، وخصلةٌ من الشعر تسقط عبر خدّها إلى منحنى كتفها العارية، عيناها تنظران إليه وكأنّها على استعداد لقبول أيّ شيء قد يرغب في قوله، مثلما أنّها مستعدّة لقبول أيّ شيء يرغب في فعله.

مدّ يده بحذر ليبعد خصلة الشعر عن خدّها كما لو أنّها كانت هشّة. أمسكها بأطراف أصابعه ونظر إلى وجهها. ثمّ أغلق أصابعه فجأة في شعرها ورفع الخصلة إلى شفتيه. كانت طريقة ضغط فمه عليها توحي بالحنان، لكنّ طريقة مسك أصابعه توحي باليأس.

استلقى مجدّدًا على الوسادة وظلّ ساكنًا، مغمض العينين. بدا وجهه شابًّا ومسالمًا. وبرؤيته للحظة، دون أن تطلق العنان للتوتّر، أدركت فجأة مدى التعاسة التي يحملها؛ لكنّ الأمر مضى الآن، بل واعتقدت أنّ أمره قد انتهى.

نهض من دون أن ينظر إليها. كانت ملامح وجهه خالية من المعنى ومطبقة مرّة أخرى. التقط ملابسه من الأرض وشرع في ارتدائها، ووقف وسط الغرفة، ونصفه يلتفت بعيدًا عنها. أمّا هي فتصرّفت، لا كما لو أنّها غير موجودة، بل كما لو أنّه لا يهتمّ لحضورها. كانت تحرّكاته وهو يزرّر قميصه، ثمّ وهو يشبك حزام سرواله بسرعة، كحركات من أدّى واجبًا.

أمّا هي فكانت مستلقيةً على الوسادة تراقبه، وتستمتع بمنظر جسده أثناء الحركة. كانت تحبّ السراويل الرماديّة والقمصان، واعتقدت أنّه يصلح أن يكون خبيرا ميكانيكيًا في خطّ جون جالت بملابس تشبه خطوط أشعّة الشمس والظلّ مثل سجين خلف القضبان. لكنّها لم تعد قضبانًا بعد الآن، كانت بمثابة شقوق الجدار الذي كسره خطّ جون -جالت، وبمثابة إشعار مسبق بما ينتظرهما في الخارج، وراء الستائر البندقيّة. فكّرت في رحلة العودة، على السكك الحديديّة الجديدة، مع أوّل قطار في تقاطع خطوط وايت، رحلة العودة إلى مكتبها في مبنى تاجارت وإلى كلّ الأشياء المفتوحة أمامها الآن للفوز، لكنّها كانت حرّة في السماح لها بالانتظار أكثر. وقالت في نفسها إنّها لا تريد التفكير في ذلك، بل فكّرت في أوّل لمسة من فمه على يدها، ووجدت نفسها حرّة في الشعور به، من أجل التقاط لحظة لا يوجد فيها شيءٌ آخر يشغلها، ثمّ ابتسمت بتحدٍّ لخطوط السماء وراء الستائر.

ـ أريدك أن تعرف هذا.

وقف بجانب السرير، وهو يرتدي ملابسه، وينظر إليها. وكان صوته قد انساب في وتيرة واحدة، بوضوح كبير ودون انحراف. نظرت إليه طائعةً. فقال:

ـ ما أشعر به تجاهك هو الاحتقار. لكنّه لا يساوي شيئًا بالقياس إلى الاحتقار الذي أشعر به تجاه نفسي. أنا لا أحبّك. لم أحبّ أحدًا من قبل. أردتك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. رغبت فيك تمامًا كما يرغب أيّ امرئ في عاهرة. قضّيت عامين وأنا أَلعن نفسي، لأنّي ظننتُك فوق رغبة من هذا النوعِ. أنت لست كذلك. أنت كالحيوان الحقير مثلي تمامًا. يجب أن أستنكر اكتشافي مثلَ هذا الفعل. بالأمس، كنتَ سأقتل أيّ شخص يخبرني أنّك قادرة على معاشرتي. أمّا اليوم، فلن أسمح لحياتي بأن تكون على خلاف ذلك، ولن أسمح لك بأن تكوني أيّ شيء سوى عاهرة. كلّ العظمة التي رأيتها فيك لن آخذها مقابل فحش موهبتك في إحساسك الحيوانيّ بالمتعة. كنّا كائنين رائعين، أنا وأنت، فخورين بقوّتنا، أليس كذلك؟ حسنًا، هذا كلّ ما تبقّى منّا وأنا لا أريد خداع ذاتي حول هذا الموضوع.

تحدّث ببطء، وكأنّه يجلد نفسه بكلماته. ثمّ أضاف:

ـ لقد احتفظت بذلك عنوانَ شرفٍ لي بأنّني لن أَحتاج إلى أيّ شخص. أنا بحاجة إليك. لقد كان لي فخرُ أنّني أتصرّف دائمًا وفق قناعاتي. لقد أعطيت رغبة أحتقرها. إنّها رغبة قلّلت من شأن عقلي وإرادتي ووجودي وقدرتي على الوجود في اعتماد بغيض عليك، ليس حتّى على داغني تاجارت التي تعجبني، بل اعتمادي على جسدك ويديك وفمك والثواني القليلة من تشنّج عضلاتك. لم أنقض كلماتي وعهدي مطلقًا. الآن، لقد خالفت القسم الذي عاهدت نفسي عليه مدى الحياة. لم يسبق لي أن ارتكبت فعلًا يجب أن يكون مخفيًا. الآن، يتوجّب عليّ الكذب، والتسلّل، والاختباء. كلّ ما أردته في حياتي كنت حرًّا في إعلانه بصوت عالٍ وتحقيقه على مرأى من العالم كلّه ومسمعه. رغبتي الوحيدة الآن هي أن أكره تسميةَ ما فعلته، حتّى لنفسي. لكنّها رغبتي الوحيدة. سوف أحظى بك ومستعدّ لأن أتخلّى عن كلّ ما أملك هُنا؛ من مطاحن ومعادن وإنجازات حياتي كلّها. سوف أحظى بك مقابل ثمن أغلى من

نفسي: على حساب احترامي لذاتي، وأريدك أن تعرفي ذلك. لا أريد أيّ ادّعاء، أو تهرّب، أو أيّ تساهل صامت، فاتركي طبيعة أفعالنا بلا أسماء. لا أريد أيّ ادّعاء حول الحبّ أو القيمة أو الولاء أو الاحترام. لا أريد أن تترك لنا ذرّة شرف، للاختباء وراءها. لم أتوسّل الرحمة من قبل. لقد اخترت فعل هذا، وسأتحمّل كلّ العواقب، بما في ذلك الاعتراف الكامل باختياري. إنّها الرذيلة، وأنا أقبلها على هذا النحو، ولا توجد ذُروة للفضيلة التي لن أتخلّى عنها من أجل ذلك. الآن، إذا كنت ترغبين في صفع وجهي، فلك ذلك. أتمنّى لو تفعلين.

كانت تستمع إليه، وهي جالسة باستقامة، ممسكة بالبطّانيّة تشدّها إلى حلقها لتغطية جسدها العاري. في البداية، رأى عينيها تزدادان حنقًا من هول الصدمة. ثمّ بدت له وكأنّها تستمع بقدر أكبر من الانتباه، ولكنّها تتطلّع إلى رؤية أكثر من وجهه، على الرغم من أنّ عينيها كانتا مثبّتتين على عينيه. بدت كما لو أنّها تدرس باهتمام بعض الإيحاءات التي لم تواجهها فيه من قبل. أمّا هو فقد شعر وكأنّ بعض أشعّة الضوء تسلّط أكثر على وجهه، لأنّه رأى انعكاسها على وجهها، وهي تراقبه رأى الصدمة تختفي، وحلّت محلّها الدهشة، ورأى وجهها ينجلي في صفاء غريب، فبدا هادئًا ومتلألئًا في آن واحدٍ.

وعندما توقّف عن الكلام، انفجرت ضاحكةً.

كانت الصدمة التي أصيب بها هي أنّه لم يشعر بأيّ غضب في ضحكاتها. فقد ضحكت ببساطة، وسهولة، وتسلية سعيدة، وارتياح، ليس كما يضحك المرء على حلّ مشكلة، ولكن حين يكتشف أنّه لا وجود لمشكلة على الإطلاق.

ألقت البطّانيّة بحركةٍ متعمّدة ومجهدة من ذراعها. وقفت ورأت ملابسها على الأرض فركلتها جانبًا. وقفت في مواجهته عارية. وقالت:

أريدك يا هانك. أنا أرقى من أن أكون حيوانًا مثلما تظنّ. أردتك منذ الوهلة الأولى التي رأيتك فيها، والشيء الوحيد الذي أخجل منه هو أنّني لم أكن أعرف ذلك. لم أكن أعرف السبب. طوال عامين، كانت أكثر اللحظات إشراقًا هي تلك التي عشتها

في مكتبك، حيث يمكنني رفع رأسي للنظر إليك. لم أكن أعرف طبيعة ما شعرت به في حضورك ولا السبب. أنا أعرف ذلك الآن. هذا كلّ ما أريده يا هانك. أريدك في سريري وأنت في حلّ منّي طوال ما تبقّى من وقتك. لا يوجد شيء يجب أن تتظاهر به، لا تفكّر بي، ولا تشعر بي، ولا تهتمّ كذلك. أنا لا أريد عقلك أو رغبتك أو كيانك أو روحك، مادمتَ بالنسبة إليّ ستأتي من أجل رغباتك الدنيا. أنا الحيوان الذي لا يريد سوى ذلك الإحساس من المتعة التي تحتقرها أنت. ولكن أريدها منك. وإذا كنت ستتخلّى عن أيّ فضائل عالية من أجل تلك الرغبة، فأنا لا أملك ما سأتخلّى عنه. لا يوجد شيء أسعى إليه أو أرغب في الوصول إليه. أنا دنيئة جدًّا إلى درجة أنّني سوف أبدّل أعظم منظر للجمال في العالم بمنظر رؤية شخصك الكريم وأنت في عربة قيادة محرّك سكك حديد. وأثناء رؤيتك على ذلك النحو لن أكون قادرة على ازدرائك بلامبالاة. ليس عليك خشية أنّك الآن تعتمد عليّ، فأنا من سيعتمد على أيّ نزوة لك. سأكون لك وستحصل عليّ متى شئت، وفي أيّ مكان، ووفق أيّ شروط. هل هذا هو ما سمّيته بإباحيّة موهبتي؟ إنّها من النوع الذي يعطيك أكثر تملّك آمن يفوق أيّ ممتلكات أخرى بحوزتك. يمكنك التخلّص منّي مثلما يحلو لك. أنا لست خائفة من الاعتراف بذلك. ليس لديّ ما أحميه منك وليس لديّ ما أحجزه. أنت تعتقد أنّ هذا يمثّل تهديدًا لإنجازاتك، لكنّه لا يمثّل شيئًا بالنسبة إليّ. سأمرّ على مكتبي، وأعمل، وعندما يصعب عليّ تحمّل الأشياء من حولي، سأفكّر أنّني سأكون في سريرك تلك الليلة. هل سمّيتها الرذيلة؟ أنا أكثر فسادًا منك: أنت تعتبرها ذنبك، وأنا أعتبرها كبريائي. أنا فخورة بذلك أكثر من أيّ شيء فعلته، أنا أفتخر بهذا الأمر أكثر من فخري ببناء خطّ جون جالت. إذا طُلب منّي تسمية أكثر إنجازاتي فخرًا، سأقول: قد عاشرت هانك ريردن. وقد نلت ذلك باستحقاق.

عندما ألقاها على السرير، التقى جسداهما مثل الصوتين اللذين انكسرا في فضاء الغرفة: صوت أنينه المعذّب وصوت ضحكاتها.

***

لم يكن المطر يُرى بسبب الشوارع المظلمة، لكنّه ظلّ يهطل فوق حاشية متلألئة على ضوء مصباح يقف عند الزاوية. اكتشف جيمس تاجارت وهو يتحسّس جيوبه، أنّه فقد منديله. وأصبح يُقسم ويلعن بصوت عالٍ، وباستياء خبيث، كما لو أنّ الخسارة والمطر وبرودة رأسه مؤامرةٌ حيكت ضدّه.

كان على الأرصفة وَحَلٌ رقيق من الطين؛ فأحسّ بشفط الغراء تحت باطن حذائه وبانزلاق البرد إلى أسفل طوقه. لم يكن يرغب في المشي أو التوقّف. ولم يكن لديه مكان يذهب إليه.

لقد غادر مكتبه، بعد اجتماع مجلس الإدارة، وأدرك فجأة أنّه لا توجد مواعيد أخرى، وأنّ أمامه أمسية طويلة ولا أحد سيساعده في استغلالها. وكانت الصفحات الأولى من الصحف تعلن عن انتصار خطّ جون جالت، وأجهزة الراديو تصدح بالخبر نفسه أمس وطوال الليل. كان اسم شركة تاجارت العابرة للقارّات مكتوبًا بالبنط العريض في جلّ عناوين الصحف في جميع أنحاء القارّة، مثل مسارها الجديد، وكانت الابتسامة ردًّا على التهاني. ابتسم، وهو جالس يترأّس الجلسة حول طاولة طويلة، في اجتماع لمجلس الإدارة، بينما تحدّث المديرون عن الارتفاع المتزايد لأسهم شركة تاجارت في البورصة، وطلبوا بحذر رؤية اتّفاقه الكتابيّ مع شقيقته من باب الاحتياط، وقالوا إنّه اتّفاق جيّد، ولا يمكن نقضه. لم يكن هناك شكّ في الاتّفاق ولكنّهم طالبوه بالتعجيل في نقل الخطّ إلى شركة تاجارت العابرة للقارّات دفعة واحدة، وتحدّثوا عن مستقبلهم الرائع والامتنان الذي تدين به الشركة لجيمس تاجارت.

جلس خلال الاجتماع، متمنيًا لو انتهى الأمر على الفور، حتّى يتمكّن من العودة إلى المنزل. ثمّ خرج إلى الشارع وأدرك أنّ المنزل هو المكان الوحيد الذي لن يجرؤ على الذهاب إليه في هذه الليلة. لا يمكن أن يكون وحده، ليس في الساعات القليلة القادمة على الأقلّ، ومع ذلك لا يوجد أحدٌ يتّصل به. لم يكن يريد رؤية الناس. لقدّ ظلّ يراقب العيون في اجتماع مجلس الإدارة عندما تحدّثوا عن عظمته: كانت نظرة

غاشمة ماكرة تزدريه، وبشكل أكثر رعبًا، كانت تحتقرهم.

كان يمشي مطأطأ الرأس، وخيوط المطر مثل الإبر تَخِز جلد رقبته من حين إلى آخر. وينظر بعيدًا كلّما مرّ بكشك بيع الصحف، ويبدو أنّ الصحف كانت تعلن له في كلّ ركن اسمَ خطّ جون جالت، واسمًا آخر لم يشأ سماعه: **راجنر دانسكولد**. لقد وقع الاستيلاء على سفينة متّجهة إلى ولاية النرويج الشعبيّة مع شحنة هديّة الطوارئ من التجهيزات الآليّة من قبل راجنر دانيسكولد في الليلة الماضية. أزعجته تلك القصّة بطريقة شخصيّة لم يستطع تفسيرها، ويبدو أنّ شعوره يتقاسم شيئًا من الجودة مع الأشياء التي شعر بها حول خطّ جون جالت.

لقد شعر بذلك لأنّه يعاني من نزلة برد، هكذا ظنّ؛ ما كان ليشعر بهذا الأمر لو أنّه لم يكن يعاني من نزلة برد. لا يمكن أن يُتوقَّع من الرجل أن يكون في أعلى مستوى له وهو يعاني من نزلة برد. لم يستطع منع ذلك، ماذا كانوا يتوقّعون منه أن يفعل الليلة، الغناء والرقص؟ لقد التقط السؤال من القضاة المجهولين بغضبٍ وذلك بسبب مزاجِهِ الذي يفتقر إلى النضج. تعثّر من أجل منديله مجدّدًا، فَلَعَن الأمر وقرّر أنّ من الأفضل أن يتوقّف في مكان مّا لشراء بعض المناديل الورقيّة.

عبر إحدى الساحات التي كانت في السابق حيًّا مزدحما، ورأى النوافذ المضاءة لمتجر ألعاب لا يزال مفتوحًا على أمل قدوم بعض الزبائن في تلك الساعة المتأخّرة من الليل. وفكّر وهو يعبر الساحة في ما إذا كان يوجد متجر آخر سيعلن إفلاسه في أقرب الوقت؛ ووجد في الفكرة إحساسًا بالمتعة.

كانت هناك أضواء ساطعة في الداخل، وعدد قليل من البائعات المتعبات منتشرات بين العدّادات المهجورة، وصراخ تسجيل فونوغراف يشغّلونه لزبون وحيد لا حصر له في الزاوية. ابتلعت الموسيقى الحوافّ الحادّة لصوت تاجارت: طلب مناديل الورق بنبرة توحي بأنّ فتاة المبيعات كانت مسؤولة عن نزلة برده. تحوّلت الفتاة إلى العدّاد خلفها، لكنّها عادت مرّة واحدة لإلقاء نظرة سريعة على وجهه. أخذت رزمة، لكنّها توقّفت متردّدة، تتأمّله بفضول غريب.

سألته: هل أنت جيمس تاجارت؟

ردّ بعنف: نعم! ولماذا؟

ـ أوه!

كانت تلهث منبهرةً من هول الصدفة مثل انبهار طفلة أمام انفجار المفرقعات الناريّة، وتنظر إليه بلمحة يعتقد أنّها مخصّصة فقط لنجوم السينما.

قالت بسرعة كبيرة وحمرة الخجل تزحف على خدّيها: رأيت صورتك في الجريدة هذا الصباح، يا سيّد تاجارت. لقد وصف مقال الجريدة كم كان الإنجاز عظيمًا وكيف كنت حقًّا مَن فعل كلّ شيء، إلّا أنّك لا تريد لهذا أن يُعرَف.

ردّ مبتسمًا: أوه.

قالت بذهول: لم أكن أتخيّل أن أراك تسير أمامي هنا على هذا النحو!

ردّ بلهجة مسلّية: ألا يجب أن أفعل ذلك؟

ـ أعني، الجميع يتحدّثون عن هذا الحدث العظيم، والبلاد كلّها تذكره، وأنت الرجل الذي فعل ذلك، وها أنت ذا أمامي! لم أرَ شخصًا مهمًّا من قبل. ولم أكن قطّ قريبة جدًّا من أيّ شيء مهمّ.

لم يحظ سابقا بتجربة رؤية وجوده يعطي لونًا ورونقًا لمكان يدخله: وبدت الفتاة كما لو أنّها لم تعد متعبة، أو أنّ متجر الألعاب أصبح مشهدًا للدراما والدهشة.

ـ سيّد تاجارت، هل ما قالوه عنك في الصحيفة صحيح؟

ـ ماذا قالوا؟

ـ عن سرّك.

ـ أي سرّ؟

ـ حسنًا، قالوا إنّه عندما كان الجميع يتحدّثون عن جسرك، سواء كان قائما أم لا، فإنّك لم تجادلهم، اكتفيت بالتقدّم إلى الأمام، لأنّك تعرف أنّه سيصمد في الوقت الذي

كان فيه الجميع غير متأكّدين من هذا الأمر. لذلك كان الخطّ مشروع شركة تاجارت وكنت الروح التوجيهيّة وراء الكواليس، ولكن أبقيت الأمر سرًّا، لأنّك لم تهتمّ بما إذا كانوا سيقدّرون ذلك أم لا.

وشاهد نسخا من المنشور الصادر عن قسم إدارة العلاقات العامّة التابعة له في أوراق الجريدة. فقال:

ـ نعم، هذا صحيح.

وقد جعلته الطريقة التي نظرت بها إليه يشعر وكأنّ القصّة التي ذكرتها الفتاة صحيحة.

ـ هذا لطف منك يا سيّد تاجارت.

ـ حسنًا، هل تتذكّرين دائما ما تطالعينه في الصحف، وهل تتذكّرين مثل كلّ هذه التفاصيل؟

ـ لماذا؟ نعم، أعتقد ذلك. كلّ الأشياء المثيرة للاهتمام أتذكّرها. أحبّ أن أقرأ عن الأحداث الكبيرة، لأنّي لم أشهد أيّ حدث كبير على الإطلاق.

قالت ذلك على نحو مرح، دون أن تشفق على ذاتها. كانت روح الشباب والإصرار والفظاظة كامنة في صوتها وحركاتها. وكانت الضفائر البنيّة المائلة إلى الحمرة تغزو شعر رأسها، بعينين واسعتين، خنساء الأنف بعدد قليل من النمش على أرنبته. وظنّ تاجارت أنّ كلّ من يراها سيحسب وجهها جميلًا وجذّابا إلّا إذا دقّق ولاحظ بعناية ملامحها، ولكنّه لن ينتبه إذا لم يكن إلى ذلك داعٍ. كان وجهها صغيرا مألوفا، باستثناء نظرة اليقظة، والاهتمام المتلهّف، نظرة توقّعت أن يحتوي العالم على سرّ مثير وراء كلّ زاوية فيه.

ـ سيّد تاجارت، ما هو الإحساس الذي يساورك لأنّك رجل عظيم؟

ـ وما الإحساس الذي يساورك لأنّك فتاة صغيرة؟

ضحكت وقالت: لماذا؟ إنّه إحساس رائعٌ.

ـ إذن، أنت أفضل حالًا منّي.

ـ أوه، كيف يمكنك أن تقول مثل هذا.

ـ لعلّك محظوظة إذ لم تكن لك أيّ علاقة بالأحداث الكبيرة في الصحف، أو ما تصفينها بالكبيرة على أيّة حال.

ـ لمَ لا نقول... مهمّة؟

ـ وما هو المهمّ؟

ـ أنت من يملك الإجابة يا سيّد تاجارت.

ـ لا شيء مهمّ.

نظرت إليه بريبة وقالت: أنت، من بين كلّ الناس، تقول ذلك لي في هذه الليلة بالذات!

ـ لا أشعر بالروعة على الإطلاق، إذا كان هذا ما تريدين معرفته. لم أشعر قطُّ بروعة أقلّ في حياتي مثل الآن.

فاندهش لرؤيتها تحدّق في ملامح وجهه بنظرة مثيرة للقلق لم يمنحه إيّاها أحدٌ قبلَها.

قالت بجدّيّة: أنت متعب جدّا يا سيّد تاجارت، أخبرهم بأن يذهبوا إلى الجحيم.

ـ من؟

ـ كلّ من يرغب في تحطيمك. فشعورك ليس سليمًا.

ـ أيّ شعور؟

ـ أن تحسّ بالأمور على هذا النحو. لقد مررت بوقت عصيب لكنّك التهمتهم جميعًا، لذا يجب أن تستمتع بنفسك الآن. أنت تستحقّ ذلك.

ـ وماذا تقترحين عليّ لكي أستمتع بذاتي؟

ـ لا أعلم، لا أعلم. لكنّي اعتقدت أنّك على موعد مع احتفال كبير هذه الليلة،

حفلة بكلّ الطلقات الكبيرة للألعاب الناريّة، والشمبانيا، والهدايا التي ستقدّم لك، مثل مفاتيح المدن، حفلة فخمة حقيقيّة من هذا القبيل بدلًا من التجوّل في كلّ مكان وحدك، وشراء المناديل الورقيّة، وكلّ هذه الأشياء الحمقاء!

قال وهو يسلّمها عشرة سنتات: هلّا أعطيتني تلك المناديل، قبل أن تنسيها تمامًا؟ وأمّا عن الحفلة الفخمة، فهل يخطر لك أنّني لا أرغب في رؤية أيّ شخص الليلة؟

فكّرت في الأمر بجديّة وقالت: لا لم أفكّر في ذلك. ولكن أستطيع أن أدرك السبب الذي يدفعك إلى فعل ذلك.

ـ وما هو السبب؟

أجابته ببساطة شديدة، خالية من أيّ تملّق: لا أحد حقًّا جيّد بما فيه الكفاية بالنسبة إليك.

ـ هل هذا ما تعتقدين؟

ـ أنا لا أحبّ الناس كثيرًا.

ـ أنا مثلك تمامًا. لا أحبّ أيًا منهم.

ـ كنت أعتقد أنّ رجلًا مثلك لن يعرف مدى خبث الناس وكيف يحاولون تجاوزك وتسلّق ظهرك إذا سمحت لهم بذلك. اعتقدت أنّ الرجال العظام في العالم يمكن أن يبتعدوا عنهم، وليس عليهم أن يكونوا طعمًا لتلك البراغيث طوال الوقت، ولكن ربّما أكون مخطئة.

ـ ماذا تقصدين بطعم للبراغيث؟

ـ أوه، إنّه مجرّد شيء أقوله لنفسي عندما تصبح الأمور صعبة، يجب أن أتغلّب على طريقي الوعرة حيث لا أريد أن أشعر بأنّني أتعرّض لعضّ البراغيث طوال الوقت من جميع أنواع رفقاء السوء، ولكن ربّما يحدث الشيء نفسه في أيّ مكان، لكن فقط ببراغيث أكبر.

ـ أكبر بكثير.

بقيت صامتة، كما لو أنّها تفكّر في شيء مّا ثمّ قالت بنَفَس حزين وكأنّها تتأمّل أشياء تعيشها:

ـ هذا مضحك.

ـ وما المضحك في الأمر؟

ـ قرأت ذات مرّة كتابًا يقول فيه مؤلّفه إنّ الرجال العظماء غير سعداء على الدوام، وإنّهم كلّما ازدادوا عظمة، ازدادوا تعاسة. لم أَجِد ذلك منطقيًّا ولكن لعلّ الأمر صحيح.

ـ هذا الكلام صحيح أكثر ممّا تتصورين.

نظرت بعيدًا عنه، وعلى وجهها علامات الاضطراب.

سألها: لماذا تهتمّين كثيرا بالرجال العظماء؟ ومن أنت؟ هل أنت من النوع الذي يقدّس الأبطال؟

فالتفتت وهي تنظر إليه، فرأى نور ابتسامة داخليّة، في حين ظلّ وجهها محافظًا على ملامح الجدّيّة الحادّة. كانت أكثر نظرة شخصيّة وُجّهت إليه ببلاغة، بينما أجابته بصوت هادئ دون مبالاة:

ـ سيّد تاجارت، ما الذي يمكن أن نتطلّع إليه أيضًا؟

قاطع حديثهما صوت صرير، لا هو برنين جرس ولا هو بأزيز طنّان، واختفى فجأة، ثمّ عاد متواصلا دونما توقّف بإصرار مثير يحطّم الأعصاب.

كانت تتمايل برأسها، كما لو أنّها تستيقظ على صرير منبّه ساعة حائطيّة، ثم تنهّدت وقالت بكلّ أسف:

ـ لقد حان موعد الإغلاق يا سيّد تاجارت.

قال: اذهبي وارتدي قبّعتك، سأنتظرك في الخارج.

حدّقت فيه، كما لو أنّها لم تكن تتصوّر أن يحدث لها مثل ذلك الأمر العظيم ضمن كلّ الإمكانات المتاحة لها في حياتها.

همست: لا شكّ أنّك تمزح؟

ـ أنا لا أمزح.

كانت تلتفّ وتدور حول نفسها، واندفعت مثل شريطٍ إلى باب مساكن الموظّفين، متناسية منضدتها وعدّادها وواجباتها وكلّ حرج أنثويّ من عدم إظهار جدّيتها في قبول دعوة الرجل.

وقف ينتظرها لحظةً إلى أن ضاقت عيناه. لم يذكر لنفسه طبيعة شعوره الخاصّ، فلم يكن تحديد مشاعره هو الحكم الصامد الوحيد في حياته؛ شعر فقط بذلك، ووجد شعوره الخاصّ ممتعًا، فهي الهويّة الوحيدة التي كان يهتمّ بمعرفتها. ولكنّ ذلك الشعور كان نتاج فكرة لم يستطع الإفصاح عنها. التقى سابقًا وفي أحيان كثيرة بفتيات من طبقات دنيا، أَتَين قليلًا من الأعمال الطائشة، وكنّ يتظاهرن بالتطلّع إليه، ويطنبن في المدح الفظّ لغرض واضح؛ لم يكن يحبّهن ولا استاء منهنّ؛ لقد وجد تسلية بالقضاء على الملل في رفقتهنّ وبعدما منحهنّ مكانة مساوية لأمثاله في اللعبة واعتبرها مساواة طبيعيّة لكلا اللّاعبين المعنيّين. لكنّ هذه الفتاة بدت مختلفة. كانت الكلمات التي لم يستطع الإفصاح عنها في ذهنه تقول: الأحمق الصغير اللعين.

لم يزعجه انتظارها الطويل، حين وقف تحت المطر على الرصيف، ولا أنّها الشخص الوحيد الذي يحتاج إليه في تلك الليلة، أو يحتاج إليه بوصفه تناقضًا. ولم يذكر طبيعة حاجته. بل لم يكن من الممكن أن يتعارض الشعور غير المُسمّى والمسكوت عنه مع التناقض في داخله.

وحين خرجت، لاحظ فيها مزيجا غريبا من الخجل والشموخ. كانت ترتدي معطفًا قبيحًا يقيهَا من المطر، وزادت من قبحها تشكيلة من المجوهرات الرخيصة تزيّن صدرها، وقبّعة صغيرة مخمليّة تزيّنها زهور فخمة زرعت بتحدٍّ بين ضفائر

شعرها. والغريب في الأمر أنّ علوّ رأسها جعل الملابس تبدو جذّابة؛ وشدّد على رفعة ذوقها في اختيار الملابس التي ارتدتها بما في ذلك حتّى الأشياء التي تلبسها.

سألها: هل ترغبين في الذهاب معي إلى المنزل وشرب بعض النبيذ؟

أومأت بصمت، على نحو رسميّ، كما لو أنّها لا تثق في قدرتها على إيجاد كلمات القبول. ثمّ قالت، من دون أن تنظر إليه، وكأنّها تخاطب نفسها: لم تكن ترغب في رؤية أيّ شخص هذه الليلة، لكنّك تريد أن تراني... لم يسمع البتّة نبرة الفخر في صوتها.

وعندما جلست بجانبه في سيّارة الأجرة ظلّت صامتة. نظرت إلى ناطحات السحاب الّتي مرّوا بها. وبعد فترة تكلّمت وقالت: سمعت أنّ أشياء مثل هذه قد حدثت في نيويورك، لكنّني لم أعتقد مطلقًا أنّها ستحدث لي.

ـ أين تقطنين؟

ـ أنا من مدينة بافالو.

ـ وهل لديك عائلة؟

قال متردّدة: أعتقد ذلك. عائلتي في مدينة بافالو.

ـ ماذا تقصدين بـ"أعتقد ذلك"؟

ـ لقد غادرتهم.

ـ لماذا؟

ـ اعتقدت أنّه إذا كان عليّ كسب أيّ شيء أكثر من أيّ وقت مضى، فإنّه يجب عليّ الابتعاد عن أفراد عائلتي، الابتعاد بشكل مشرّف.

ـ لماذا؟ ماذا حدث لك معهم؟

ـ لم يحدث أيّ شيء. ولم يكن هناك شيء ليحدث أبدًا. هذا ما لم أستطع الوقوف عليه.

ـ ماذا تعنين؟

حسنًا، هم ... حسنًا، أعتقد أنّ عليّ إخبارك بالحقيقة، يا سيّد تاجارت. لم يكن والدي جيّدًا مطلقًا، ولم تهتمّ أمّي لأمره سواء أكان جيّدًا أم لا. وقد سئمت من ذلك دائمًا لأنّني، من بين سبعة أبناء، كنت الوحيدة التي حافظت على وظيفتها، أمّا الباقون فكانوا يعانون من سوء الحظّ. ظننت أنّي إذا لم أخرج، فإنّ سوء الحظّ سيصيبني أيضًا. لهذا السبب اشتريت تذكرة سكّة حديد ذات يوم وغادرت. لم أقل لهم وداعًا. وما كانوا يعرفون حتّى أنّني سأغادرهم.

أطلقت ضحكة صغيرة ناعمة مذهلة من فكرة مفاجئة قبل أن تضيف:

ـ سيّد تاجارت، كانت أوّل رحلة لي في قطار شركة تاجارت.

ـ متى أتيت إلى هنا؟

ـ قبل ستّة أشهر.

ـ أنت وحيدة إذَن؟

قالت بسعادة: نعم.

ـ وأيّ عمل كنت تريدين إنجازه؟

ـ حسنا، أن أنجز أشياء من صنعي، وأحصل على عمل مّا في مكان مّا.

ـ أين؟

ـ لا أعلم، لكن... ولكنّ الناس يفعلون أشياء في العالم، رأيت صورا لنيويورك وفكّرت.

ثمّ أشارت إلى المباني العملاقة وراء خطوط المطر على نافذة سيّارة أجرة قبل أن تسترسل في الكلام:

ـ فكّرت بأنّ شخصا مّا أقام تلك المباني، إنّه لم يرغب فقط في مجرّد الجلوس والتذمّر من أنّ المطبخ كان قذرا وأنّ السقف تتسرّب منه المياه وأنّ أنابيب السباكة

مسدودة وأنّ هذا العالم ملعون و... يا سيّد تاجارت. نحن نعيش تحت وطأة الفقر المتعفّن ولا نبالي بذلك. هذا ما لم أستطع تحمّله. إنّهم لا يهتمّون بأيّ شيء... حتّى تفريغ حاوية القمامة. وكانت جارتنا تقول إنّه من واجبي مساعدتهم، مؤكّدةً أنّه لا فرق في ما حدث لي أو لها أو لأيّ منّا، لأنّه لا أحد يمكنه أن يفعل أيّ شيء على أيّة حال!

وإلى جانب النظرة المشرقة في عينيها، رأى جيم تاجارت شيئًا بداخلها كان مجروحًا وقاسيًا. ثمّ أضافت:

لا أريد أن أتحدّث عنهم. ليس معك على الأقلّ. هذا لقائي بك، أعني هذا ما لم يتمكّنوا من الحصول عليه. هذا ما لن أشاركهم فيه. إنّه أمر مرتبط بي وليس لهم.

سألها: وكم عمرك؟

ـ تسعة عشر عامًا.

عندما نظر إليها في أضواء غرفة جلوسه، اعتقد أنّها ستحظى بجسد جيّد إذا تناولت بعض الوجبات. لقد بدت نحيفة جدّا بالقياس إلى طولها وبنيتها الجسديّة. كانت ترتدي فستانًا أسود رثّا وضيّقا قليلا، حاولت تمويهه بواسطة الأساور البلاستيكيّة المبهرجة التي تتألّق في معصمها. وقفت تنظر إلى غرفته كما لو أنّها متحف يجب ألّا تلمس فيه شيئًا ويجب أن تحافظ بعناية على كلّ شيء.

سألها: ما اسمك؟

ـ تشيريل بروكس.

ـ حسنا، اجلسي.

خلط المشروبات في صمت، بينما كانت تنتظر بطاعة، وهي جالسة على حافّة كرسيّ. وعندما سلّمها كأسًا، تجرّعته بامتثال على مرّات عديدة، ثمّ أبقت الكأس في قبضة يدها. كان يعلم أنّها لا تتذوّق ما كانت تشربه، ولا تستمتع به ولا تنتبه أصلا إلى الكأس التي تحملها. لم يكن لديها وقت حتّى للاهتمام به.

ارتشف جرعة من شرابه ثمّ وضع الكأس على المنضدة وأحسّ بتهيّج: لم يكن يشعر بالرغبة في الشرب على أيّة حال. ومشى في الغرفة بخطوات متجهّمة، وكان يعلم أنّ عينيها تلاحقانه.

ـ سيّد تاجارت، ما الذي يجعلك تعيسًا جدًّا؟

ـ ولماذا يجب عليك أن تهتمّي بهذا الأمر؟

ـ لأنّهُ ... حسنا، إذا لم يكن لديك الحقّ في أن تكون سعيدا وفخورا، فمن سيكون لديه الحقّ إذَن؟

التفت إليها فجأة، والكلمات تنفجر كما لو أنّ فتيل أمان قد انفجر:

ـ هذا ما أسعى أيضا إلى معرفته: من يملك الحقّ في السعادة؟ هو لم يخترع خام الحديد وأفران الانصهار، أليس كذلك؟

ـ من؟

ـ ريردن. لم يخترع الانصهار والكيمياء وضغط الهواء. ما كان له أن يخترع معدنه لو لم يقدّم له الآخرون يد العون. معدنه! لماذا يعتقد أنّه ملك له؟ لماذا يعتقد أنّه اختراعه؟ الجميع يستخدمون عمل الجميع. لم يعد أحد يخترع أيّ شيء أكثر من ذي قبل.

قالت وهي في حيرة من أمرها: لكنّ خام الحديد وكلّ تلك الأشياء الأخرى كانت موجودة طوال الوقت. لماذا لم يصنع أيّ شخص آخر ذلك المعدن، وكان السيّد ريردن هو من فعل ذلك؟

ـ لم يفعل ذلك لأيّ هدف نبيل، لقد فعله فقط من أجل مصلحته الخاصّة، لم يفعل أيّ شيء لأيّ سبب آخر.

ـ ما هو الخطأ في ذلك، يا سيّد تاجارت؟

ثمّ ضحكت بهدوء، كما لو أنّها قدّمت حلّا مفاجئا للغز، وأضافت:

ـ هذا هراء يا سيّد تاجارت، أنت لا تعني ذلك. أنت تعرف أنّ السيّد ريردن قد جنى كلّ أرباحه وكذلك أنت. أنت تقول مثل هذه الأشياء فقط لكي تكون متواضعًا، حين يعرف الجميع كنه العمل العظيم الذي قمتم به ثلاثتكم: أنت والسيّد ريدن وأختك، التي لا شكّ أنّها شخصيّة رائعة!

ـ نعم؟ هذا ما تعتقدينه أنت. إنّها امرأة قاسية وغير حسّاسة، تقضي حياتها في بناء المسارات والجسور، ليس لها أيُّ مثال أعلى، ولكن فقط لأنّ هذا ما تستمتع به، إن كانت تستمتع به أصلا. فما الشيء الذي يجعلك تعجبين بما حقّقته أختي؟ لست متأكّدا من أنّ ما حقّقته كان رائعًا. كيف يعقل بناء هذا الخطّ لجميع هؤلاء الصناعيّين الميسورين في كولورادو، في الوقت الذي يحتاج فيه فقراء كثيرون بالمناطق المنكوبة إلى وسائل للنقل؟!

ـ لكن يا سيّد تاجارت أنت من كافح لبناء ذلك الخطّ.

ـ نعم، لأنّه كان واجبي تجاه الشركة وحاملي الأسهم وموظّفينا. لكن لا تتوقّعي منّي أن أستمتع به. لست متأكّدًا من أنّه كان عملًا رائعًا. لماذا اخترع هذا المعدن الجديد المعقّد، في الوقت الذي تحتاج فيه دول كثيرة إلى الحديد العاديّ؟ هل تعلمين أنّ دولة الصين الشعبيّة لم يكن لديها حتّى ما يكفي من المسامير لوضع أسطح خشبيّة تقي الناس من الحرارة والبرد؟

ـ لكنّني... لا أرى أنّ هذا الأمر غلطتك.

ـ يجب على شخص مّا أن ينكبّ على ذلك. شخص مّا له زاوية نظر جيّدة، تتجاوزُ جيبه الخاصّ. لا يوجد شخص حسّاس هذه الأيّام. في الوقت الذي تتناسل فيه المعاناة من حولنا هناك من يكرّس عشر سنوات من حياته لرشّ الكثير من المعادن الخادعة. هل تعتقدين أنّه شيء عظيم؟ حسنًا، إنّها ليست أيّ نوع من القدرة الفائقة، لكنّه مجرّد مخبإ لن تتمكّني من اختراقه حتّى لو سكبت طنّا من الفولاذ الخاصّ به فوق رأسه! يوجد في العالم أناس كثيرون يمتلكون قدرة أكبر بكثير، ولكنّك لا تقرئين عنهم في العناوين الرئيسيّة ولا تركضين بثغر مفتوح من الذهول لملاقاتهم

عند الأرصفة والمعابر، لأنّهم لا يستطيعون اختراع جسور غير قابلة للسقوط في وقت تثقل فيه معاناة البشريّة كاهل أرواحهم!

كانت تنظر إليه بصمت، وبكلّ احترام، وحرص بهيج، وعينين مهزومتَين. فشعر تاجارت بتحسّن.

التقط شرابه، وأخذ جرعة، وضحك فجأة. ثمّ قال:

ـ كان الأمر مضحكًا، على الرغم من ذلك.

كانت نبرته أكثر بساطة، وأكثر حيويّة، نبرة ثقة في صديق. ثمّ أضاف:

ـ كان يجب عليك رؤية أورين بويل أمس، عندما أذيع أوّل موجز إخباريّ على أثير الراديو من مفترق وايت! لقد تحوّل لون وجهه إلى الأخضر، ولكن أعني، أخضر، مثل لون السمكة التي أُهمِلت زمنًا خارج الماء! هل تعلمين ماذا فعل الليلة الماضية بعد سماع الأخبار؟ استأجر لنفسه جناحًا في فندق فالهالا -وأنت تعلمين ما يعنيه ذلك المكان- وآخر ما سمعته، أنّه لا يزال هناك حتّى اليوم، يشرب وهو على الطاولة، مع عدد قليل ممّن اختارهم من أصدقاء مع بعض الإناث اللواتي كنّ ضائعات في شارع أمستردام العلويّ!

سألته باستفزاز: من هو السيّد بويل؟

ـ أوه، ذلك الساذج البدين الذي يميل إلى تجاوز حدوده. هو رجل ذكيّ ويصبح ذكيًّا جدًّا في بعض الأحيان. كان يجب أن تحدّقي في وجهه أمس! لقد ركلوني بسبب ذلك. هو والدكتور فلويد فيريس. ذلك الرجل الناعم لم يعجبه الأمر قليلًا، أوه ليس قليلًا! الدكتور الأنيق فيريس من معهد الدولة للعلوم، خادم الشعب، يجب أن أعترف بذلك، يمكنك فقط رؤيته وهو يتلوّى في كلّ فقرة، أعني، تلك المقابلة التي أجراها هذا الصباح، إذ قال: لقد منح هذا البلدُ ذلك المعدن لريردن، نتوقّع الآن منه أن يمنح البلاد شيئًا في المقابل. كان كلامًا رائعًا جدًّا، بالنظر إلى ذلك الذي كان يركب في قطار المرق و... حسنا... كان ذلك الشخص أفضل من بيرترام سكودر

الذي لم يقل شيئًا غير عبارة: «دون تعليق»، عندما طلب منه زملاؤه من رجال الصحافة التعبير عن مشاعره.

كان يضحك بسعادة، وتستمع هي كأنّها تتابع محاضرة عن الرياضيات العليا، وهي لا تستوعب شيئًا، ولا حتّى أسلوب كلامه، وهو أسلوب جعل الأحجية أكثر غموضًا، لأنّها كانت متأكّدة من أنّ ما سمعته منه لن يعني ما كان سيعنيه في أيّ مكان آخر.

أعاد ملء كأسه واستنفدهُ، لكنّ فرحته اختفت فجأة. فسقط على الكرسيّ. فواجهها، وأخذ ينظر إليها من تحت جبهته الصلعاء، بعينين غائمتين.

قال بصوت يشبه قهقهة خالية من التسلية: إنّها ستعود غدًا.

ـ من؟

ـ أختي. أختي العزيزة. أوه، ستعتقد أنّها رائعة، أليس كذلك؟

ـ أنت تكره أختك يا سيّد تاجارت؟

أصدر الصوت نفسه. كان معناه بليغًا إلى درجة أنّها لم تَحتَجْ إلى إجابة أخرى. فسألته: لماذا؟

ـ لأنّها تحسب نفسها جيّدة جدًّا. ما الحقّ الذي يجعلها تعتقد ذلك؟ ما الذي يمنح أيّ شخص حقّ الاعتقاد بأنّه جيّد؟ لا أحد جيّد.

ـ أنت لا تعني ذلك يا سيّد تاجارت.

ـ أعني، نحن بشر فقط، وما الإنسان؟ مخلوق ضعيف وقبيح وآثم، ولد بهذه الطريقة، فاسد حدّ النخاع، لذلك كان التواضع هو الفضيلة الوحيدة التي يجب عليه أن يمارسها. يجب أن يقضي حياته جاثيا على ركبتيه، يتوسّل أن يُغفر له وجودُه القذر. إنّ الإنسان لا يعتقد بأنّه جيّد إلّا حين يكون فاسدًا. فالفخر هو أسوأ الخطايا، بغضّ النظر عمّا فعله المرء.

ـ ولكن، ماذا إذا كان الإنسان يعرف أنّ ما فعله جيّد؟

ـ يجب عليه أن يعتذر عن ذلك.

ـ لمن؟

ـ لأولئك الذين لم يفعلوا ذلك.

ـ أنا... لا أفهمك.

بطبيعة الحال أنت لا تفهمين. يستغرق المرء من أجل الفهم سنوات وسنوات من دراسة روافد الفكر العليا. هل سبق لك أن سمعت عن كتاب *(تناقضات الكون الميتافيزيقيّة)* للدكتور سيمون بريتشيت؟

هزّت رأسها بخوف. ثمّ أضاف:

ـ كيف تعرفين ما هو جيّد؟ من يستطيع أن يعرف ذلك؟ لا وجود لأمور مطلقة مثلما أثبت الدكتور بريتشيت ذلك على نحوٍ لا يمكن دحضه. لا شيء مطلق. كلّ شيء هو مسألة رأي. كيف تعرفين أنّ ذلك الجسر لم ينهار؟ أنت تعتقدين فقط أنّ ذلك لم يحدث. كيف تعرفين أنّ هناك جسرا؟ هل تعتقدين أنّ نظام الفلسفة - مثل نظام الدكتور بريتشيت - هو مجرّد شيء أكاديميّ، بعيد وغير عمليّ؟ لكنّه ليس كذلك. قد تسألينني: يا فتى، كيف تثبت أنّه ليس كذلك!

ـ ولكن يا سيّد تاجارت، أنت تتحدّث عن الخطّ الذي بنيته أنت...

ـ أوه، ما هو هذا الخطّ في كلّ الأحوال؟ إنّه مجرّد إنجاز مادّيّ. هل هذا مهمّ؟ هل هناك أيّ عظمة في أيّ شيء مادّيّ؟ وحده الحيوان الدنيء سيذهله ذلك الجسر لأنّه لم يشاهد الكثير من الأشياء العليا في الحياة. ولكن، هل الأشياء العليا تحظى دائمًا بالاعتراف؟ بالطبع لا! ولتنظري إلى الناس. كلّ ذلك التهليل واللغط والصراخ وما كتب في الصفحات الأولى حول بعض الترتيبات الخادعة من بعض نفايات المادّة. هل يهتمّون بأيّ قضية نبيلة؟ هل يمنحون الصفحات الأولى لظاهرة الروح؟ هل يلاحظون أو يقدّرون شخصًا أكثر حساسيّة؟ وأنت تتساءلين عن مدى صحّة أنّ كلّ

رجل عظيم محكوم عليه بالتعاسة في هذا العالم المنحرف!

انحنى إلى الأمام، يحدّق في وجهها باهتمام، ثمّ استرسل في الكلام:

ـ سأخبرك... سأخبرك بشيء... **التعاسة هي السمة المميّزة للفضيلة**. إذا كان الإنسان تعيسا حقّا، فهذا يعني أنّه يتفوق على بقيّة البشر.

رأى نظرة وجهها المتحيّرة القلقة، ثمّ قالت:

ـ ولكن يا سيّد تاجارت، أنت حصلت على كلّ ما تريد. الآن لديك أفضل السكك الحديديّة في البلاد، والصحف تعتبرك أكبر مدير أعمال ناجح في هذا العصر، ويقولون إنّ أسهم شركتك حقّقت ثروة لك بين عشيّة وضحاها، فحصلت على كلّ ما يمكن أن تطلبه. ألست سعيدًا بذلك؟

أجاب: لا.

لم تكن تعرف لماذا انخفض صوتها فتحوّل إلى ما يشبه الهمس:

ـ هل كنت تفضّل أن ينهار الجسر؟

قاطعها بحدّة وقال: أنا لم أقل ذلك!

ثمّ تجاهلها ولوّح بيده في لفتة من الازدراء، وأضاف:

ـ أنت لا تفهمين.

ـ أنا آسفة... أعرف أنّ ثمّة أشياء كثيرة يجب أن أتعلّمها!

ـ أنا أحدّثك عن الجوع لشيء مّا أبعد من ذلك الجسر، جوعٍ لا يمكن لأيّ شيء مادّي أن يطفئه أبدًا.

ـ ماذا تقصد يا سيّد تاجارت؟ ما الذي تريده؟

ـ أوه، أنت تسيئين فهمي مجدّدًا! في اللحظة التي تسألين فيها عن الشيء وغايته؟ نعود إلى العالم الخام والمادّيّ حيث يجب وضع علامات على كلّ شيء وقياسه. أنا أتحدّث عن الأشياء التي لا يمكن تسميتها في الكلمات المادّيّة... العوالم العليا للروح،

التي لا يمكن للإنسان الوصول إليها... ما هو الإنجاز البشريّ في هذا المجال؟ الأرض ليست سوى ذرّة تدور في الكون، ما قيمة ذلك الجسر مقارنة بالنظام الشمسيّ؟

غمرتها نظرة مفاجئة وسعيدة من الفهم فمسحت عينيها وقالت:

ـ إنّه لشيء رائع منك يا سيّد تاجارت أن تعتقد أنّ إنجازك الخاصّ ليس جيّدًا بما فيه الكفاية بالنسبة إليك. أعتقد أنّه مهما ذهبت في تفسيرك، فأنت تريد أن تذهب إلى أبعد من ذلك. أنت طموح. هذه أكثر قيمة تعجبني: الطموح. أعني إنجاز الأشياء وليس التوقّف والاستسلام، ولكن إنجازها. أنا أفهم يا سيّد تاجرت... حتّى إن كنت لا أستوعب كلّ الأفكار الكبيرة.

ـ سوف تتعلّمين.

ـ أوه، سأعمل بجدٍّ لكي أتعلّم!

لم تتغيّر نظرة إعجابها. مشى عبر الغرفة، وظلّ يتحرّك وتلك النظرة تلاحقه مثل دائرة ضوء لطيف. ثمّ ذهب لإعادة ملء كأسه. كانت هناك مرآة معلّقة قرب مشكاة وراء شريط محمول. فلمح صورةً لنفسه فيها: بجسم طويل القامة وهيئة قذرة ومترهّلة، كما لو أنّه تعمّد أن ينفي عنه نعمة الإنسان، بشعره الرقيق، وفمه الرطب المتجهّم. وبدا له فجأة وكأنّها لم تكن تراه على الإطلاق: ما رأته كان شخصيّة بطولية لبَنَّاءٍ، بكتفين مستقيمتين بفخر وشعر ينساب مع هبوب الرياح. ضحك بصوتَ عالٍ، وهو يشعر بأنّ تلك مزحة جيّدة تسخر منها، ثمّ شعر بارتياح خافت يشبه الشعور بالنصر: التفوّق بعد أن وضع شيئًا أثقل من ذلك بكثير على كاهلها.

احتسى شرابه، وألقى نظرة على باب غرفة نومه وفكّر في النهاية المعتادة لمغامرة من هذا النوع. اعتقد أنّ الأمر سيكون سهلًا: فالفتاة تهابه كثيرًا، وهكذا فإنّها لن تقاومه. رأى البريق البرونزيّ المائل إلى الحمرة في شعرها وهي جالسة، ورأسها مطأطأ تحت الضوء وإسفين من الجلد المتألّق الناعم على كتفها. نظر بعيدًا، ثمّ قال:

لماذا تزعج نفسك؟

ملامح الرغبة التي شعر بها، لم تكن أكثر من شعور بانعدام الراحة الجسديّة. أمّا الدافع الأكثر حدّة الذي اجتاح ذهنه، وظلّ يشكو عجزه عن الفعل، فلم يكن متعلّقًا بفكرة وجود الفتاة، ولكنّهُ مرتبط بأنّ جميع الرجال لن يفوّتوا فرصة من هذا النوع. واعترف لنفسه بأنّها أفضل بكثير من بيتي بوب، ولعلّها أفضل شخص قدّم له أكثر من أيّ وقت مضى. لقد جعله هذا الاعتراف غير مبالٍ. لم يشعر بأكثر ممّا شعر به تجاه بيتي بوب. لم يشعر بشيء يتعلّق باحتمال عيش متعةٍ لم يستحقّ منها أيّ شيء؛ بل إنّه لا يستحقّ ذلك. لم تكن لديه مطلقًا رغبة في تجربة المتعة.

قال: لقد تأخّر الوقت، أين تسكنين؟ تناولي كأسًا أخرى، ثمّ سآخذك إلى منزلك.

وعندما ودّعها على باب مبنى سكنيّ بائس في حيّ فقير، تردّدت وناضلت من أجل عدم طرح سؤال كانت ترغب بشدّة في طرحه عليه.

ـ هل س...

ـ ماذا تقولين؟

ـ لا شيء، لا شيء!

كان يعلم أنّ السؤال هو: هل سأراك مرّة أخرى؟ لقد أسعده ألّا يجيب، على الرغم من علمه بأنّه سيفعل.

ونظرت إليه مرّة أخرى، كما لو أنّها ستكون المرّة الأخيرة، ثمّ قالت جادّةً، بصوت منخفض:

ـ سيّد تاجارت، أنا ممتنة جدًّا لك، لأنّك... أعني، أيّ رجل آخر كان سيحاول... أعني، هذا كلّ ما يريده، لكنّك أفضل بكثير من ذلك، أوه، أفضل بكثير!

انحنى واقترب منها أكثر بابتسامة خافتة ومهتمّة وسألها:

ـ هل كنت ترغبين في ذلك؟

تراجعت إلى الخلف، في رعب مفاجئ من كلماته الخاصّة، وقالت:

ـ أوه، لم أكن أعني ذلك بهذه الطريقة!

ثمّ لهثت قليلا محاولةً استرداد أنفاسها بسبب دنوّه منها:

ـ يا إلهي، لم أكن ألّمح أو... أو...

احمرّت وجنتاها بسبب خجل عنيف، ثمّ التفتت وركضت، غابت في منحدر طويل من درج حادّ في منزلها.

وقف على الرصيف، واجتاحه شعور غريب وثقيل وضبابيّ بالرضا: شعور كما لو أنّه أتى إحدى الفضائل، أو أنّ ذلك كان طريقة انتقام من كلّ شخص. وقف يهتف على طول المسار ثلاثة مائة ميل من خطّ جون جالت.

***

عندما وصل قطارهما إلى فيلادلفيا، ظلَّ ريردن خلفها دون أن ينطقَ بكلمة دواع، وكأنّ ليالي رحلة عودتهم لا تستحقّ أيّ اعتراف بواقع منصّات المحطّات المزدحمة والمحرّكات المتحرّكة الذي تمّ في وضح النهار، الواقع الذي كان يحترمه كثيرًا. ذهبت إلى نيويورك وحدها. ولكن في وقت متأخّر من ذلك المساء، رنّ جرس شقّتها وكانت داغني تتوقّع ذلك.

لم يقل شيئًا عندما دخل، نظر إليها، جاعلا حضوره الصامت تحيّة أكثر حميميّة من الكلمات. كان في وجهه تلميح خافت بابتسامة احتقار، يصاحبه في الآن نفسه شعور بالاعتراف والسخرية لمعرفته بساعات نفاد صبرها ونفادِ صبره هو أيضا. وقف وسط غرفة جلوسها، ينظر ببطء من حوله؛ كانت تلك شقّتها، والمكان الوحيد في المدينة الذي مثّل محور عامين من عذابه، فهو المكان الذي لم يستطع التفكير فيه ومع ذلك فكّر فيه، المكان الذي لم يتمكّن من دخوله، وها هو يدخل الآن مع حقّ في الملكيّة غير رسميّ وغير معلن. جلس على كرسيّ، يمدّ ساقيه إلى الأمام، ووقفت أمامه، كما لو أنّها تحتاج إلى أن يأذن لها بالجلوس فمنحها متعة الانتظار.

سألها: هل تسمحين لي بإخبارك أنّك أنجزت عملًا رائعًا إذ بنيتِ ذلك الخطّ؟ نظرت إليه في دهشة. لم يسبق له أن عبّر لها بمجاملات مفتوحة من هذا النوع. كان الإعجاب في صوته حقيقيًّا، لكنّ أمارات السخريّة ظلّت جاثمة على وجهه، وشعرت كما لو أنّه يتحدّث لغرض مّا لم تستطع تخمينه. ثمّ أضاف:

ـ لقد قضّيت اليوم كلّه أجيب على الأسئلة بالنيابة عنك، أجيب على أسئلة تتعلّق بالخطّ والمعادن والمستقبل. بالإضافة إلى عدّ الطلبيّات الموجّهة إلى المعدن. إنّها تأتي بمعدّل آلاف الأطنان في الساعة. متى كان ذلك، قبل تسعة أشهر؟ لم أتمكّن من الحصول على إجابة واحدة في أيّ مكان. اليوم، اضطررت إلى قطع مكالمة هاتفيّة، وقرّرت ألّا أستمع لجميع الناس الذين يريدون التحدّث معي شخصيًا عن حاجتهم الملحّة إلى معدن ريردن. ماذا فعلت اليوم؟

ـ لا أعلم، لا أعلم. حاولت الاستماع إلى تقارير إيدي، والابتعاد عن الناس، والعثور على الأسهم المتداولة لوضع المزيد من القطارات على خطّ جون جالت، لأنّ الجدول الزمنيّ الذي خطّطت له لن يكون كافيًا للأعمال التي تراكمت بمكتبي خلال ثلاثة أيّام فقط. أناسٌ كثيرون أرادوا مقابلتك اليوم، أليس كذلك؟

ـ لماذا تسألين، نعم كثيرون منهم أرادوا ذلك.

ـ كانوا سيضحّون بأيّ شيء فقط مقابل حديث معك، أليس كذلك؟

ـ أنا... نعم أعتقد ذلك.

ـ ظلّ الصحفيّون يسألونني عن مسيرتي وطفولتي. لقد كان من بينهم صبيّ صغير يعملُ في جريدة محلّيّة، ظلّ يقول إنّني امرأة عظيمة. قال إنّه سيخاف من التحدّث إليك لو سنحت له الفرصة. إنّه على حقّ. ذلك المستقبل الذي يتحدّثون عنه ويرتجفون منه، سيكون كما صنعته أنت، لأنّك تمتلك الشجاعة التي لا يمكن لأيّ منهم أن يتصوّرها. كلّ الطرق إلى الثروة التي يتدافعون من أجلها في الوقت الراهن هي قوّتك التي حطّمتهم. القوّة للوقوف ضدّ الجميع. القوّة للاعتراف، فلا إرادة

سوى تلك الإرادة الخاصّة بك.

أمسكت داغني باللهاث الغارق في أنفاسها: كانت تعرف هدفه. ثمّ وقفت مستقيمة، وذراعاها على جانبيها، ووجهها زاهدٌ، كما لو أنّه يحملُ قدرة على التحمّل لا تتزعزع؛ وقفت تحت وطأة الثناء مثلما وقفت تحت نوبات من الشتائم.

واستمرّوا أيضًا في طرح أسئلة عليك، أليس كذلك؟ كان يحدّثها باهتمام وهو يميل إلى الأمام. ونظروا إليك بإعجاب. نظروا، كما لو أنّك كنت واقفة على قمّة جبل فلم يستطيعوا سوى رفع قبّعاتهم لك عبر مسافة كبيرة. ألم يكونوا كذلك؟

همست: نعم.

ـ بدوا كما لو أنّهم كانوا يعرفون أنّ المرء قد لا يقترب منك أو يتحدّث في حضورك أو يلمس طيّة من ثوبك. كانوا يعرفون ذلك وهذا صحيح. لقد نظروا إليك باحترام، أليس كذلك؟ نظروا إليك؟

استولى على ذراعها، وألقاها على ركبتيها، ولفّ جسدها على ساقيه، وانحنى لتقبيل فمها. ضحكت بلا صوت، ضحكتها كانت ساخرة، لكنّ عينيها كانتا شبه مغمضتين وتضجّان حبورا.

وبعد ساعات، وهما ممدّدان على السرير معًا، ويده تتحرّك فوق جسدها، سألها فجأة، وهو يرمي بظهرها على منحنى ذراعه، وانحنى فوقها - وكانت تعلم أنّه يرغب فيها بشدّة، ملامح وجهه تظهر هذه الرغبة العارمة، ومن صوت لهاثه ونبرته، رغم أنّ صوته منخفض وثابت، فانساب السؤال منه كما لو أنّه كان مندسّا في ساعات التعذيب التي قضّاها وهو يجول في ذهنه:

ـ من هم الرجال الآخرون الذين عاشروك قبلي؟

نظر إليها وكأنّ السؤال كان مشهدًا متخيّلًا بكلّ تفاصيله، مشهدًا يكرهه، لكنّه لن يتخلّى عنه. سمعت الاحتقار في صوته، والكراهية، والمعاناة وجدّيّة غريبة لم تكن تتعلّق بالتعذيب؛ فقد طرح السؤال، وهو يأخذ جسدها بشدّة.

أجابته في اتّزان، ورأى وميضًا خطيرًا في عينيها، عبارة عن تحذير مفاده أنّها فهمت قصده جيّدًا.

ـ شخص واحد فقط يا هانك.

ـ متى كان ذلك؟

ـ عندما كنت في السابعة عشرة من عمري.

ـ هل استمرّ حبّكما؟

ـ لسنوات عديدة.

ـ من يكون؟

وتمدّدت مرّة أخرى إلى الخلف، مستلقية على ذراعه. انحنى ليقترب منها أكثر، وتقاسيم وجهه مشدودة؛ أغمضت عينيها وقالت:

ـ لن أجيبك.

ـ هل أحببته؟

ـ لن أجيب.

ـ هل أحببت معاشرته؟

ـ نعم!

جعل الضحك في عينيها الأمرَ يبدو وكأنّه صفعة على وجهه، ثمّ ضحك من معرفتها أنّ ذلك هو الجواب الذي كان يخشاه ويريده.

ولفّ ذراعيها خلفها، ممسكا بها في عجزٍ، وصدرها مضغوط على صدره؛ شعرت بالألم يمزّق كتفيها، وسمعت صوت الغضب في كلماته وبُحَّةَ المتعة في صوته:

ـ من يكون؟

لم تجبه، بل ظلّت تنظر إليه، كانت عيناها داكنتين ومتألّقتين بشكل غريب، ورأى أنّ شكل فمها، الذي شوّهه الألم، هو شكل ابتسامة ساخرة.

ثمّ لاحظ أنّ شكل فمها تغيّر إلى صيغة من صِيَغِ الاستسلام، تحت لمسة شفتيه. أمسك بجسدها كما لو أنّ العنف واليأس من الطريقة التي أخذها بها يمكن أن يمحوا منافسه المجهول من الوجود، ومن ماضيها، بل أكثر من ذلك: كما لو أنه يمكن أن يحوّل أيّ جزء منها، حتّى منافسه، إلى أداة لمتعته. كان يعلم، من خلال حرص حركتها وهي تحيطه بذراعيها للاستيلاء عليه، أنّ تلك هي الطريقة المفضّلة التي تشتهي أن تعاشره وفقها.

***

تحرّكت ظلال حزام أحد عمّال الشحن قبالة شرائط النار في السماء، وهو يرفع الفحمَ إلى أعلى برج بعيدٍ، كما لو أنَّ عددًا لا ينضب من الدِّلاء السوداء الصغيرة قد خرجت من باطن الأرض في خطٍّ قُطريّ مع غروب الشمس. ثمّة صوتُ قعقعة قاسية وبعيدة واصل المرور من خلال حشرجة سلاسل كان شابّ في زيّ أزرق يحدثها وهو يربط الآلات، ويؤمّن ذلك في عربات مسطّحة مصطفّة على حدةٍ، وهي لشركة كوين لصناعة المحامل بولاية كونيتيكت.

كان السيّد موين، عن الشركة المندمجة لمفاتيح التبديل والإشارات، يعبر الشارع. ظلّ واقفًا يراقب. لقد توقّف ليراقب العمل، وهو في طريقه إلى المنزل من مصنعه الخاصّ. كان يرتدي معطفًا خفيفًا امتدّ على قامته القصيرة المزعجة، وقبّعة دربي على رأسه الأشيب الأشقر. وقد حمل الهواء مسحة أولى من برد سبتمبر. وكانت جميع بوّابات مباني مصنع موين مفتوحة على مصراعيها، والرجال والرافعات ينقلون الآلات إلى الخارج، مثلما تؤخَذ الأعضاء الحيويّة وتُترَك الجثّة، كما قال السيّد موين يقول في نفسه.

سألهم السيّد موين، وهو يشير برعشة من إبهامه إلى المصنع، على الرغم من أنّه يعرف الجواب: هل بقيت آلة أخرى؟

سأل الشابّ الذي لم يلاحظ أنّه وقف هناك: هاه، ماذا تريد؟

ـ ثمّة شركة أخرى ستنتقل إلى كولورادو؟

ـ آه، هاه.

قال السيّد موين: إنّها الشركة الثالثة التي انتقلت من ولاية كونيتيكت إلى هنا في الأسبوعَين الماضيَين. وعندما تنظر إلى ما يحدث في نيوجيرسي وورود آيلاند وماساتشوستس وجميع الولايات على طول ساحل المحيط الأطلسي...

لم يكن الشابّ ينظر إليه، ولا بدا أنّه ينصت. ثمّ أضاف السيّد موين: إنّها مثل تسرّب صنبور، وجميع المياه تنفذ إلى كولورادو. المال كلّه.

قذف الشابّ السلسلة وتبعها بمهارة، وتسلّق الشكل الكبير المغطّى بالقماش. ثمّ استرسل موين في الكلام:

ـ ظننتُ أنّه سيكون للناس شيء من الشعور الوطنيّ بولاياتهم الأصليّة، وبعض الولاء... لكنّهم يهربون. لا أعرف ما الذي يحدث لهم.

قال الشابّ: إنّه مشروع القانون.

ـ أيّ مشروع قانون؟

ـ مشروع قانون تكافؤ الفرص.

ـ ماذا تعني؟

ـ سمعت أنّ السيّد كوين كان يخطّط قبل عامٍ لفتح فرع في كولورادو. لقد حطّم ذلك الرجل البارد القانون. لذلك اتّخذ قراره الآن بالانتقال إلى هناك، ونقل الأقفال، والمخزون، والبراميل.

ـ لا أرى أيّ ضرورة في هذا الأمر. لقد كان مشروع القانون ضروريًّا. إنّه لَعارٌ في جبين الشركات القديمة التي كانت هنا لأجيال... ينبغي أن يوجد قانون.

عمل الشابّ بسرعة وكفاءة، كما لو أنّه يتمتّع بهاتين المهارتين. وخلفه، استمرّ الحزام الناقل في القعقعة والارتفاع صوب السماء. وقفت أربع مداخن بعيدة مثل

سواري الرايات، مع لفائف دخان منبعثة ببطء منها، تشبه في توهّجها المائل إلى الحمرة من غسق المساء لافتاتٍ طويلةً في منتصف سارية.

وكان السيّد موين قد عاش مع كلّ مدخنة في ذلك الأفق منذ أيّام والده وجدّه. لقد رأى الحزام الناقل من نافذة مكتبه لمدّة ثلاثين عامًا. أن تختفي شركة كوين لصناعة المحامل من الشارع كان أمرًا لا يمكن أن يتصوّره؛ كان على علم بقرار كوين، لكنّه لم يصدّق ذلك؛ أو بالأحرى، صدّقه مثلما صدّق أيّ كلمات سمعها أو تحدّثوا عنها، كأنّها أصوات لا تربطها أيّ صلة بالواقع المادّيّ. يعلم الآن أنّ هذا الأمر أضحى حقيقة. فوقف بجانب العربة المسطّحة على حافّة المسار كما لو أنّه ما يزال يملك فرصة للوقوف.

قال: هذا الأمر ليس صائبًا.

كان يتحدّث إلى الأفق بشكل عامّ، ولكنّ ذاك الشابّ كان الجزء الوحيد الذي يمكن أن يسمعه من ذلك الأفق، ثمّ أضاف:

ـ ليست هذه هي الطريقة التي كانت تسير بها الأمور في عهد والدي. أنا لست شخصًا مهمًّا. ولا أريد أن أقاتل أحدًا. ما خطب العالم؟ أنت الآن، على سبيل المثال، هل سيأخذونك معهم إلى كولورادو؟

ـ أنا؟ لا، أنا لا أعمل هنا. أنا مجرّد عامل عابر. كلّفت للتوِّ بهذه المهمّة المتمثّلة في المساعدة على سحب الأشياء فقط.

ـ حسنًا، إلى أين ستذهب عندما يبتعدون؟

ـ ليس لديّ أيّ فكرة.

ـ ماذا ستفعل إذا انتقل المزيد منهم؟

ـ دعنا ننتظر ونَرَ ما ستؤول إليه الأمور.

وألقى السيّد موين نظرة مريبة: فهو لا يستطيع معرفة ما إذا كان القصد من الإجابة هو أن ينطبق الكلام عليه أو على الشابّ. ولكنّ اهتمام الشابّ كان مركّزًا

على مهمّته؛ ولم يكن ينظر إلى أسفل. انتقل إلى الأشكال المغطّاة على العربة التالية، وتبعه السيّد موين، ونظر إليه، متوسّلًا شيئًا وهو يدعو في الفضاء: لديّ حقوق، أليس كذلك؟ لقد ولدت هنا وعندما كبرت توقّعت أن تبقى الشركات القديمة هنا. توقّعت أن أدير المصنع كما فعل والدي. فالإنسان ابن بيئته، لديه الحقّ في الاعتماد على ذلك، أليس كذا؟ لا بدّ من فعل شيء حيال ذلك.

ـ حيال ماذا؟

ـ أوه، أعلم أنّك تعتقد أنّ ذلك شيء رائع، أليس كذا؟ وأنّ ازدهار شركة تاجارت ومعدن ريردن والاندفاع نحو الذهب في كولورادو وما يحدث من فورة في حالة سكر هناك، مع وايت وحفنة من أصدقائه، وتوسيع إنتاجهم، مثل غلّايات فاقت درجة الفوران! يعتقد الجميع أنّ كلّ ذلك أمر رائع. هذا كلّ ما تسمعه أينما ولّيتَ وجهَك. الناس سعداء بالصفعة، ويضعون خططًا مثلما يفعل أطفال في السادسة من العمر أثناء العطلة، فتخال أنّه كان شهر عسل وطنيّ من نوع مّا أو احتفالًا دائمًا بالرابع من يوليو!

لم يقل الشابّ شيئًا. فقال السيّد موين بصوت منخفض: حسنًا، لا أعتقد ذلك، ولا أعتقد أنّ الصحف قالت ذلك أيضًا، حذارِ، ثمّ حذارِ، فالصحف لم تقل شيئًا على الإطلاق.

لم يسمع السيّد موين أيّ إجابة، سمع فقط قعقعة السلاسل. وتساءل: لماذا يركضون جميعا إلى كولورادو؟ ماذا توفّر لهم هناك وحُرِمنا منه هنا؟

ابتسم الشابّ، وقال: ربّما هو شيء حصلت عليه أنت ولم يحصلوا هم عليه بعدُ.

ـ ماذا تقول؟

لم يجبه الشابّ. فأضاف:

ـ أنا لا أرى ذلك. إنّه مكان متخلّفٌ وبدائيّ وغير مستنير. فهم لا يملكون حتّى مقوّمات حكومة حديثة. إنّها أسوأ حكومة، ولن تجد لها مثيلًا في أيّ ولاية، فهي

الأكثر تكاسلًا. هي لا تفعل شيئًا خارج نطاق المحاكم القانونيّة وقسم الشرطة. ولا تقدّم أيّ شيء للناس وهذا لا يشجّع أحدًا على الاستثمار هناك. لا أرى سببًا يجعل أفضل شركاتنا تنزح إلى ذاك المكان.

ظلّ الشاب ينظر إليه، لكنّه لم يجبه. وتنهّد السيّد موين وقال:

ـ إنّ الأمور ليست على ما يرام. كان مشروع قانون تكافؤ الفرص فكرة سليمة. لا بدّ من توفُّر حظوظ للجميع. إنّه لَعارٌ وفساد إذا لم يحظ ناس من أمثال كوين بامتياز غير عادل من هذا القانون. لماذا لم يسمح لشخص آخر بالبدء في تصنيع المحامل في كولورادو؟ أتمنّى أن يتركنا شعب كولورادو وشأننا. إنّ مسبك ستوكتون هناك لا يملك الحقّ في تصنيع مفاتيح التبديل والإشارات. هذا كان عملي لسنوات، والأقدميّة في هذا المجال تمنحني الحقّ. هذا ليس من العدل، إنّها منافسة (أكل الكلب للكلب)، إذ ينبغي ألّا يُسمَح للقادمين الجدد باستعراض عضلاتهم في هذا المجال. أين سأبيع المفاتيح والإشارات؟ في السابق كانت هناك شركتان كبيرتان لسكك الحديد في كولورادو، الآن وقد غادرت شركة فينيكس ـ دورانغو الميدان، لم يبق أمامي سوى شركة تاجارت العابرة للقارّات. ليس عادلًا أن يجبروا دان كونواي على المغادرة. لا بدّ من وجود مجال للمنافسة... كنت أنتظر مدّة ستّة أشهر لطلب الصلب من أورين بويل، والآن يقول إنّه لا يستطيع أن يعدني بأيّ شيء، لأنّ معدن ريردن قد أطلق النار على سوقه وبعثه إلى الجحيم، وهناك طلب كبير للعمل بذلك المعدن، أمّا معدن بويل فقد تراجع. ليس من العدل السماح لريردن بتدمير أسواق الآخرين بهذه الطريقة... أريد الحصول على القليل من معدن ريردن أيضًا، فأنا بحاجة إليه، ولكن لا بدّ لي من محاولة الحصول عليه! فخطّ الانتظار يمتدّ عبر ثلاث ولايات. لا أحد يستطيع الحصول على قصاصة منه، باستثناء أصدقائه القدامى، والناس من أمثال وايت وداناغر وغيرهم. هذا ليس عدلًا، إنّه تمييز. أنا زبون جيّد مثل أيّ زميل آخر، ويحقّ لي الحصول على حصّتي من ذلك المعدن.

نظر الشابّ إلى الأفق، وقال: كنت في بنسلفانيا الأسبوع الماضي. لقد رأيت

مطاحن ريردن. هناك مكان مزدحم! إنّهم يبنون أربعة أفران بمواقد مفتوحة جديدة، ولديهم ستّة أفران أخرى قادمة... أفران جديدة. لم يبن أحد فرنًا جديدًا على ساحل المحيط الأطلسيّ على مدى السنوات الخمس الماضية...

وقف مواجهًا السماء، على قمّة محرّك مغطًّى، ينظر إلى الغسق بابتسامة خافتة من الهمّة والشوق، مثلما ينظر المرء إلى لمحة بعيدة من عيني حبيبته. وقال: إنّهم مشغولون...

ثمّ اختفت ابتسامته فجأة؛ وقام بطريقة مختلفة يحرّك السلسلة، كانت هي الكسرَ الأوّلَ في كفاءة حركاته السلسة: وبدت وكأنّها هزّة من الغضب.

نظر السيّد موين إلى الأفق، وإلى الأحزمة، والعجلات، والدخان، ذلك الدخان الذي استقرّ بكثافة وسلام عبر هواء المساء، وامتدّ في ضباب طويل على طول الطريق إلى مدينة نيويورك في مكان مّا بعد غروب الشمس، وشعر بالاطمئنان لفكرة أنّ نيويورك تحيط بها حلقةٌ من الحرائق المقدّسة، وحلقة من المداخن، وخزّانات الغاز والرافعات وخطوط التوتّر العالي. فشعر بتيّار من السلطة يتدفّق عبر كلّ هيكل قاتم لشارعه المألوف؛ لقد أحبّ شخصيّة ذاك الشابّ، إذ يوجد شيء مطمئن في طريقة عمله، شيء اختلط مع الأفق... ومع ذلك، تساءل السيّد موين عن سبب شعوره بأنّ صدعًا كان ينمو في مكان مّا، ويأكل الجدران الصلبة والأبديّة.

قال السيّد موين: لا بدّ من فعل شيء مّا. لقد غادر صديق لي العملَ في الأسبوع الماضي. كان يشتغل في تجارة النفط، وهو يملك بئرين في أوكلاهوما، لكن لم يستطع منافسة إليس وايت. هذا ليس عدلًا. يجب أن يتركوا الفرصة للصغار ويضعوا حدًّا لطاقة وايت الإنتاجيّة، وينبغي ألّا يُسمَح له بمزيد من الإنتاج وإلّا سوف يغرق الجميع في السوق... بالأمس علقت في نيويورك، فاضطررت إلى ترك سيّارتي هناك والعودة إلى المنزل عبر ركوب وسائل النقل المحلّيّة الملعونة، لم أتمكّن من الحصول على أيّ وقود للسيّارة، وقالوا إنّ المدينة تشهد نقصًا في النفط... الأمور ليست على ما يرام. يجب القيام بشيء حيال ذلك...

تساءل الشابّ: وماذا تريد أن تفعل حيال ذلك؟

قال السيّد موين: من أنا لأعرف؟ فأنا لست شخصًا مهمًّا. ولا أستطيع حلّ المشاكل الوطنيّة. أريد فقط أن أكسب قوت يومي وكلّ ما أعرفه هو أنّ على أحدهم أن يفعل شيئًا حيال ذلك. فالأمور ليست على ما يرام... اسمع... هلّا ذكرتَ لي اسمَك؟

ـ أوين كيلوج.

ـ اسمع يا كيلوج، ماذا تتوقّع أن يحدث للعالم؟

ـ لن تهتمّ بمعرفة ذلك.

أطلقت صافرة على برج بعيد، كانت صافرة المناوبة الليليّة، فأدرك السيّد موين أنّ الوقت قد تأخّر. فتنهّد، وزرّر معطفه، وهمّ بالذهاب. وقال:

ـ حسنًا، هكذا تجري الأمور. وستتّخذ الخطوات اللّازمة والبنّاءة. ستقرّ الهيئة التشريعيّة مشروع قانون يمنح مكتبَ التخطيط الاقتصاديّ والموارد الوطنيّة سلطاتٍ أوسع. لقد عيّنوا رجلًا مقتدرا في خطّة منسّق أعلى. لم أسمع به من قبل، لكنّ الصحف قالت إنّه رجل يجب متابعته لأنّه سيحدث الفارق. اسمه ويسلي ماوتش.

***

وقفت داغني عند نافذة غرفة جلوسها، تنظر إلى المدينة. كان الوقت متأخّرًا والأضواء مثل الشرر الأخير المتلألئ في بقايا أخشاب الموقد السوداء.

شعرت بسلام، وتمنّت لو تستطيع أن تتحكّم في عقلها لتسمح للعواطف الخاصّة أن تلحق بها، ولتنظر في كلّ لحظة من الشهر الماضي مرّت بسرعة. ولم يكن لديها الوقت لتشعر بأنّها عادت إلى مكتبها الخاصّ في شركة تاجارت العابرة للقارّات؛ ثمّة أشياء كثيرة في انتظار أن تنجزها، حتّى إنّها نسيت أنّها كانت تشبه العودة من المنفى. لم تلاحظ ما قاله جيم لدى عودتها أو ما إذا كان قد قال أيّ شيء. ولم يكن هناك سوى شخص واحد أرادت أن تعرف ردّ فعله؛ لقد سبق أن اتّصلت بفندق واين

فوكلاند؛ ولكن قيل لها إنّ السيد فرانسيسكو دانكونيا عاد إلى بوينس آيرس.

تذكّرت اللحظة التي وقّعت فيها باسمها عند أسفل صفحة قانونيّة طويلة؛ لقد كانت اللحظة التي أنهت فيها خطّ جون جالت. الآن أصبح الخطّ يدعى مجدّدًا خطّ ريونورتي لشركة تاجارت العابرة للقارّات إلّا أنّ رجال طواقم القطار رفضوا التخلّي عن اسمه القديم. هي أيضًا وجدت صعوبة في الاستسلام. فأجبرت نفسها على عدم تسميته جون جالت، وتساءلت لماذا تطلّب منها الأمر جهدًا كبيرًا، ولماذا شعرت بوجع خافت من الحزن.

وفي إحدى الأمسيات، وباندفاعٍ مفاجئ، انعطفت على مستوى زاوية مبنى شركة تاجارت، واتّجهت لإلقاء نظرة أخيرة على مكتب جون جالت في الزقاق؛ لم تكن تعرف ما تريد، وقالت في نفسها إنّها ترغب في رؤية ذلك. على طول الرصيف رُفع حاجز من الخشب: فالمبنى القديم كان يُهدم؛ لقد استسلم وانهار في آخر المطاف. فتسلّقت الألواح الخشبيّة، وعلى ضوء مصباح الشارع الذي ألقى ظلًّا غريبًا عبر الرصيف، نظرت من خلال نافذة مكتبها السابق. لم يبق شيء من الطابق الأرضيّ؛ لقد هُدِمت الأقسام، وعُلِّقت في السقف أنابيب مكسورةٌ وتُركت كومة من الأنقاض على الأرض. لا شيء هناك لتراه.

لقد سألت ريردن عمّا إذا سبق له أن جاء إلى هناك في إحدى ليالي الربيع الماضي ووقف خارج نافذتها، وحارب رغبته في الدخول. لكنّها كانت تعلم، حتّى قبل أن يجيب، أنّه لم يفعل. لم تخبره عن السبب الذي دفعها إلى طلب ذلك منه. وقالت إنّها لا تعرف السبب الذي يجعل تلك الذكرى تزعجها في بعض الأحيان.

وراء نافذة غرفة جلوسها، كان المستطيل المضاء لروزنامة التقويم المعلّقة مثل علامة شحن صغيرة في السماء السوداء يشير إلى اليوم الثاني من أيلول/ سبتمبر. ابتسمت بتحدٍّ، متذكّرةً السباق الذي ركضت فيه ضدّ صفحاته المتغيّرة وقالت في نفسها: لا مواعيد نهائيّة الآن، لا حواجز، ولا تهديدات، ولا حدود.

ثمّ سمعت دوران مفتاح في قفل باب شقّتها؛ إنّه الصوت الذي كانت تنتظره

وترغب في سماعه هذه الليلة.

إنّه ريردن، الذي أتى كعادته، باستخدام المفتاح الذي أعطته إيّاه باعتباره إشعارًا وحيدًا. رمى قبّعته ومعطفه على كرسيّ بطريقة أصبحت مألوفة؛ كان يرتدي ملابس سوداء رسميّة.

قالت: مرحبًا.

أجابها: كنت في انتظارك هذا المساء وحين لم أجدك في..

قاطعته قائلة: كان يمكنك الاتّصال بي على هاتف مكاتب شركة تاجرت العابرة للقارّات.

ـ وهل سأجدك هناك في أيّ مساء؟ لن تذهبي إلى أيّ مكان آخر؟

ـ كم أنت غيور يا هانك؟

ـ لست كذلك. إنّما هو الفضول لمعرفة ما سيكون عليه ذلك الشعور.

وقف ينظر إليها عبر الغرفة، رافضًا السماح لنفسه بالاقتراب منها، وتعمّد إطالة متعةٍ ولّدتها معرفة أنّه يستطيع فِعلَ ذلك وقتما يشاء. كانت ترتدي تنّورة رماديّة ضيّقة لبدلة مكتبيّة وبلوزة من القماش الأبيض الشفّاف مصمّمة مثل قميص للرجال؛ لمعت البلوزة فوق خصرها، الشيء الذي أظهر مفاتنها. وفي مواجهة توهّج مصباح وراءها، استطاع أن يرى صورة ظلّيّة نحيلة لجسدها داخل دائرة لامعة من بلوزتها.

ـ سألته: كيف كانت المأدبة؟

ـ لا بأس بها. لقد هربت منهم بأسرع ما يمكن. لماذا لم تأتِ؟ فقد دُعيتِ أنت أيضًا.

ـ لا أريد رؤيتك في الأماكن العامّة.

فألقى نظرة عليها، وكأنّه يشدّد على أنّه انتبه إلى المعنى التامّ في جوابها؛ ثمّ انتقلت

خطوط وجهه راسمة ابتسامة مسلّيّة، وقال:

ـ لقد فاتك الكثير. لن يُحرج المجلس الوطنيّ للصناعات المعدنيّة نفسَه مرّة أخرى ويتكبّد محنة وجودي ضيفَ شرفٍ له إلّا في إذا قبلوا الأمر على مضض.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء. فقط الكثير من الخطب.

ـ هل كانت محنة بالنسبة إليك؟

ـ لا... نعم، بطريقة مّا... كنت أرغب حقّا في الاستمتاع بها.

ـ هل ترغب في أن أعدّ لك شرابًا؟

ـ نعم، من فضلك.

استدارت لتذهب، فأوقفها، وأمسك بكتفيها من الخلف؛ فوجّه رأسها إلى الوراء وقبّل فمها. وعندما رفع رأسه، جذبته مجدّدًا مطالبة بالتقبيل وكأنّ الأمر بادرة ملكيّة، أو أنّها تشدّد على حقّها في فعل ذلك. ثمّ ابتعدت عنه.

قال: دعك من الشراب، لا أريد إلّا رؤيتك وأنت تنتظرينني.

ـ حسنا إذَن، اسمح لي بأن أنتظرك.

ـ لا داعي إلى ذلك.

ابتسم، وتمدّد على الأريكة، متوسّدًا يديه. لقد شعر وكأنّه في منزله؛ كان بمثابة أوّل منزل حقيقيّ يجده.

قال: هل تعلمين أنّ أسوأ جزء في المأدبة كان أن يدلي كلّ شخص هناك أمام العلن برغبته الوحيدة التي يريد تحقيقها. ما لم أستطع فهمه مطلقًا هو لماذا أرادوا أن يفعلوا هذا. لم يكن عليهم فعل ذلك. لا شكّ أنّهم فعلوه ولكن ليس من أجلي.

التقطت علبة السجائر، وناولته واحدة، ثمّ أبقت الولّاعة مشتعلةً عند طرف سيجارته متعمّدةً انتظارَه. ابتسم ردًّا على ضحكة كتمتها، ثمّ جلس على ذراع

الكرسيّ في الغرفة.

سألته: لماذا لبّيت دعوتهم يا هانك؟ لقد رفضت دائمًا الانضمام إليهم.

ـ لم أكن أريد رفضَ عرض السلام عندما أهزمهم، وهم يعرفون ذلك. لن أنضمّ إليهم أبدًا، لكنّ دعوة للظهور بوصفي ضيفَ شرف... حسنًا، اعتقدت أنّهم خاسرون جيّدون. حسبتُه كرمًا منهم.

ـ كرمًا منهم؟

ـ هل تلمّحين إلى أنّه كان كرمًا منّي؟

ـ هانك! بعد كلّ الأشياء التي فعلوها لإيقافك...

ـ لقد فزت، أليس كذلك؟ لذا فكّرت... كما تعلمين، لم أكن أقف في وجوههم. وما كانوا يعرفون وقتئذٍ قيمة المعدن. وبما أنّهم اعترفوا بقيمته وأقرّوا بغلطتهم، فأنا أغفر لهم كلّ شيء. كلّ إنسان يتعلّم بطريقته الخاصّة. بالتأكيد، كنت أعرف أنّ في الأمر كثيرًا من الجبن، والحسد والنفاق، ولكن اعتقدت أنّ هذا هو الظاهر فقط. الآن، وقد أُثبِتَت حالتي، وأثبتّ ذلك بصوت عالٍ جدًّا! اعتقدت أنّ دافعهم الحقيقيّ إلى دعوتي كان تقديرهم للمعدن، و..

ابتسمت داغني طيلة الحيّز الزمنيّ القصير من توقّفه عن الكلام؛ كانت تعرف الجملة التي منع نفسه من التلفّظ بها: ولهذا، سأسامح أيّ شخص على أيّ شيء.

أضاف: لكنّ الأمر لم يكن كذلك. ولم أتمكّن من معرفة دوافع هذه الدعوة. لا أعتقد أنّهم يملكون أيّ دافع أصلًا. لم يقيموا تلك المأدبة لإرضائي، أو للحصول على أيّ شيء منّي، أو لحفظ ماء الوجه أمام الشعب. لم يكن هناك أيّ غرض من أيّ نوع من وراء هذه المأدبة. لم يكونوا مهتمّين حقًّا عندما ندّدوا بالمعدن، وحتّى الآن هم لا يكترثون. إنّهم لا يخشون حقًّا من أن أبعدهم جميعًا عن السوق. ولا يهتمّون بما فيه الكفاية حتّى بهذا الأمر. هل تعلمين كيف كانت تلك المأدبة؟ لقد كانت كما لو أنّهم سمعوا بوجود قيمٍ من المفترض أن يحترمها المرء وهذا ما يفعله هو لاحترامهم،

لذلك ذهبوا من خلال حركاتهم، مثل الأشباح التي تسحبها الأصداء البعيدة من عصر أفضل. أنا... لم أستطع التحمّل.

قالت بغضب: وأنت، ألا تعتقد أنّك كريم!

نظر إليها؛ ثمّ أشرقت عيناه بنظرة من التسلية وهو يقول:

ـ لماذا يجعلونك غاضبةً جدًّا؟

قالت بصوت منخفض لتخفي حنانها: أردت أن تتمتّع به...

ـ ربّما يخدمني ذلك بشكل صحيح. ما كان يجب أن أتوقّع أيّ شيء. لا أعرف ماذا أريد؟

ـ أنا أعرف ما أريد.

ـ لا تعجبني البتّة مناسبات من هذا النوع. ولكن لا أرى السبب الذي دفعني هذه المرّة إلى توقُّع أن تكون مختلفة... ذهبت، كما تعلمين، إلى هناك بشعور سحريّ كما لو أنّ المعدن قد غيّر كلّ شيء بها في ذلك الناس.

أوه نعم يا هانك، أعرف ذلك النوع من الإحساس!

ـ حسنًا، لقد كان المكان الخطأ ليبحث فيه المرء عن أيّ شيء... هل تتذكّرين؟ قلت في إحدى المرّات إنّ الاحتفالات يجب أن تكون فقط لأولئك الذين يملكون ما يحتفلون به.

توقّفت نقطة سيجارتها المضاءة في الجوّ. جلست ساكنة. ولم تتحدّث معه مطلقًا عن تلك الحفلة أو عن أيّ شيء يتعلّق بمنزله. وفي لحظة قصيرة، أجابت بهدوء:

ـ نعم أتذكّر هذا الأمر.

ـ أنا أعرف ما كنت تعنيه... كنت أدرك هذا الأمر في ذلك الوقت أيضًا.

كان ينظر إليها مباشرة. لقد خفضت عينيها. بينما ظلّ صامتًا؛ وحين تكلّم مجدّدًا، جاء صوته مرحًا جدًّا فقال:

ـ أسوأ شيء في الناس ليس الإهانات التي يوزّعونها، بل المجاملات. لم أستطع تحمّل ذلك النوع الذي انبثق منهم الليلة، ولاسيّما عندما ظلّوا يخبرونني بمدى حاجة الجميع إليّ، مدى حاجة المدينة والبلاد والعالم بأسره. يبدو أنّ فكرتهم عن ذروة المجد هي التعامل مع الناس الذين يحتاجون إليهم. لا أطيق الناس الذين يحتاجون إليّ.

نظر إليها وقال:

ـ هل تحتاجين إليّ في أيّ شيء؟

أجابت بصوت جدّيّ: أحتاج إليك بيأسٍ.

ضحك ثمّ قال: لا. ليس بالطريقة التي قصدتها. أنت لم تقوليها بالطريقة التي قالوها بها.

ـ كيف قلتها؟

ـ مثل التاجر الذي يدفع ثمن ما يريد. هم يقولونها مثل المتسوّلين الذين يستخدمون كوب القصدير مثل شيك مطالبة.

ـ أنا... دفعت ثمنها يا هانك؟

ـ لا تتظاهري بالبراءة. أنت تعرفين بالضبط ما أعنيه.

همست وهي تبتسم: نعم.

قال بسعادة: أوه، فليذهبوا إلى الجحيم كلّهم!

ثمّ مدّ ساقيه، واسترخى على الأريكة، ثمّ أضاف:

أنا لا أصلح لأكون شخصيّة عامّة. على أيّة حال، لا يهمّ الآن. ليس علينا أن نهتمّ بما يرونه أو ما لا يرونه. ليتركونا وشأننا. إنّه مسار واضح أمامنا. ما هو التعهّد التالي يا سيّدي نائب الرئيس؟

ـ بناء مسار عابر للقارّات من معدن ريردن.

ـ متى تريدين ذلك؟

ـ صباح الغد. بعد ثلاث سنوات من الآن سأحصل عليه.

ـ هل تعتقدين أنّك تستطيعين فعلَ ذلك في غضون ثلاث سنوات؟

ـ إذا كان جون جالت... أعني إذا كان خطّ ريونورتيي سيفعل ذلك كما يفعل الآن.

ـ إنّه سيعمل أفضل بكثير. هذه ليست سوى البداية.

ـ لقد وضعت خطّة تقسيط. مع جني الأرباح، سأبدأ بتفكيك المسار الرئيسيّ، قسم واحد في كلّ مرّة، وتغييره بسكّة حديد من معدن ريردن.

ـ حسنًا، أنا رهن إشارتك متى رغبت في إطلاق هذا المشروع.

ـ سأستمرّ في نقل السكك الحديديّة القديمة إلى الخطوط الفرعيّة، إذا لم أفعل ذلك فهي لن تستمرّ لفترة أطول. وفي غضون ثلاث سنوات، سوف تركب المعدن الخاصّ بك إلى سان فرانسيسكو، إذا دعاك شخص مّا إلى مأدبة هناك.

ـ في غضون ثلاث سنوات، ستكون لي مطاحن خاصّة تسكب معدن ريردن في كولورادو،وفي ميشيغان وأيداهو. هذه هي خطّتي المستقبليّة.

ـ مطاحن خاصّة؟ والفروع منها؟

ـ آه هاه، نعم.

ـ ماذا عن مشروع قانون تكافؤ الفرص؟

ـ أنت لا تعتقدين أنّه سيكون موجودًا بعد ثلاث سنوات من الآن، أليس كذلك؟ لقد قدّمنا لهم مثل هذا العرض لنبرهن أنّ كلّ هذا العفن سنكنسه بعيدا. والشعب كلّه يصطفّ في جهتنا. من سيوقف الأمور الآن؟ من سيستمع إلى كلّ تلك التفاهات؟ ثمّة مجموعة ضغط من أفضل المجموعات تعمل في واشنطن هذه اللحظة. سيلغى مشروع قانون تكافؤ الفرص في الجلسة القادمة.

ـ آمل ذلك.

ـ لقد مررت بوقت عصيب في الأسابيع القليلة الماضية لجعل الأفران الجديدة تنطلق في العمل، لكن كلّ شيء أُعِدَّ الآن، وفرغنا من بنائها، ويمكنني الجلوس ومعالجة الأمور بسهولة. يمكنني جَنْيُ المال وأنا جالس في مكتبي، والتسكّع مثل الشحّاذ، ويمكنني أيضًا متابعة طلبيّات معدن ريردن وأنا أمارس هواياتي المفضّلة في جميع أنحاء هذا المكان... ما هو أوّل قطار سيتّجه إلى فيلادلفيا صباح الغد؟

ـ لا أعلم.

ـ كيف لا تعلمين؟ وما الفائدة من مهمّة نائب الرئيس؟ غدًا يجب أن أكون في المطاحن عند السابعة. هل ثمّة قطار يعمل في السادسة صباحًا؟

ـ القطار الأوّل ينطلق عند الخامسة والنصف صباحًا.

ـ هل ستوقظينني في الوقت المناسب أم تُفضّلين تكليفَ القطار بتدبّر أمر إيقاظي؟

ـ سأوقظك.

جلست وظلّت تراقبه وهو صامت. كان يبدو متعبًا عندما دخل. أمّا الآن فقد اختفت علامات الإرهاق من وجهه. ثمّ سألها فجأة بصوت جادٍّ:

ـ لماذا لا ترغبين في رؤيتي داخل الأماكن العامّة؟

ـ أنا لا أريد أن أكون جزءًا من... حياتك الرسميّة.

لم يجبها؛ لكنّه بعد لحظة، سألها عرضًا:

ـ متى استفدت من آخر عطلة؟

ـ أعتقد أنّها كانت منذ عامين... لا، بل قبل ثلاث سنوات.

ـ ماذا فعلت في تلك العطلة؟

ـ زرت جبال آديرونداك لمدّة شهر. ثمّ عدت في خلال أسبوع.

ـ أمّا أنا، فآخر عطلة لي كانت قبل خمس سنوات. زرت فقط ولاية أوريغون.

كان مستلقيًا على ظهره، ينظر إلى السقف. ثمّ أضاف:

ـ داغني، لنأخذ عطلةً معًا. لنأخذ سيّارتي ولنذهب بعيدًا لبضعة أسابيع، لنذهب إلى أيّ مكان. نقود فقط أسفل الطرق الخلفيّة حيث لا أحد يعرفنا. لن نترك أيّ عنوان، ولن ننظر إلى صحيفة، ولن نلمس هاتفًا، سنتخلّى عن أيّ حياة رسميّة.

نهضت واقتربت منه، ثمّ وقفت إلى جانب الأريكة، وظلّت تنظر إليه، على ضوء المصباح خلفها. لم تكن تريده أن يرى ملامح وجهها والجهد الذي تبذله لكي لا تبتسم.

قال: يمكنك أن تطلبي بضعة أسابيع إجازةً، أليس كذلك؟ فالأمور مضبوطة وتسير على ما يرام الآن. كلّ شيء آمن. لن نحظى بفرصة أخرى في السنوات الثلاث المقبلة.

ـ قالت بهدوء: حسنًا يا هانك.

ـ هل أنت موافقة؟

ـ متى تريد أن نبدأ؟

ـ صباح الإثنين.

ـ حسنًا لك ذلك.

التفتت لتبتعد عنه فأخذ بمعصمها، وسحبها إلى أسفل، فتمايل جسدها. وقبل أن يتمدّد على كامل جسده، أمسك بها في ثبات، على نحو غير مريح، وهي تسقط، ويده في شعرها، تضغط على فمها إلى وجهه، ويده الأخرى تتحرّك من لَوْحَي كتفيها تحت بلوزتها الرقيقة إلى خصرها، ثمّ إلى ساقيها. فهمست: وتقول إنّني لست بحاجة إليك...

سحبت نفسها بعيدًا عنه، ووقفت، تسرّح خصلات شعرها من فوق وجهها. كان مستلقيًا، ينظر إليها، وضاقت عيناه، فلمحت بريقًا ساطعًا ينمّ عن شيء من الاهتمام الخاصّ في عينيه، يعني به بعض السخريّة الخافتة. ثمّ نظرت إلى أسفل: لقد تمزّق

حزام فانيلاتها المعلّقة قطريّا من كتفها إلى جانبها، وكان ينظر إلى صدرها تحت شريط قماشيّ شفّاف من بلوزتها. فرفعت يدها لضبط الحزام. صفع يدها وأنزلها إلى أسفل فابتسمت ساخرة، لأنّها فهمت فعله. تعمّدت السير ببطء عبر الغرفة، وانحنت على طاولة لتواجهه، ويداها تمسكان بحافّة الطاولة، بينما تحني كتفيها إلى الخلف. كان هذا هو التباين الذي يحبّه، يحب شدّة ملابسها وجسدها شبه العاري، جسد مدير شركة سكك حديد هو الآن امرأةٌ يملكها.

جلس؛ وانحنى بشكل مريح على الأريكة، بينما كانت ساقاه متقاطعتَين وممتدّتَين إلى الأمام، ويداه في جيبَيه، ثمّ أخذ ينظر في تقاسيم وجهها نظر مَن يقيّم ممتلكات.

سألها: سيّدي نائب الرئيس، هل قلت إنّك تريدين مسارًا عابرًا للقارّات من معدن ريردن؟ ماذا لو رفضت أن أمدّكم به؟ يمكنني اختيارُ زبائني الآن وطلبُ أيّ سعر أريد. لو كان هذا الأمر قبل عامٍ من الآن، لطلبت منك النوم معي كشرط لتلبية طلبيّتكم من معدن ريردن.

ـ أتمنّى لو حدث ذلك.

ـ هل كنت ستفعلين؟

ـ بالطبع.

ـ من قبيل التجارة؟ كعرض بيع؟

ـ إذا كنت المشتري. سترغب في ذلك، أليس كذا؟

ـ هل كنت ستفعلين ذلك؟

ـ همست: نعم ...

اقترب منها، وأمسك كتفيها وضغط بفمه على صدرها من خلال القماش الرقيق. وظلّ يمسك بها، وهو يتطلّع إليها في صمتٍ للحظات طويلة. ثمّ سألها: ماذا فعلت بذلك السوار؟

لم يتحدّثا في أمر ذلك السوار قطّ؛ فكان عليها أن تدع اللحظة تمرّ لاستعادة ثبات صوتها. ثمّ أجابته: مازلت أحتفظ به.

قال: أريدك أن ترتديه.

ـ لكن قد يكتشف أمرَه أيّ شخص ويخمّن أنَّ ثمَّةَ عاطفة تجمعنا، آنذاك ستسوء أمورك أكثر منّي.

ـ ارتديه.

أحضرت سوار معدن ريردن ومدّته له دون أن تنبس بكلمة واحدة، وهي تنظر مباشرة إليه، والسلسلة الخضراء التي تميل إلى الزرقة تتلألأ في راحة يدها. أمسك بالسوار من يدها وشَبَكَه على معصمها. ولحظةَ أغلق المشبك، طأطأت رأسَها وقبّلت يده.

***

كانت الأرض تنساب تحت غطاء محرّك السيّارة. وظلّت تسير وهي في حِلٍّ من كلّ شيء بين منحنيات تلال ويسكونسن، وسط الطريق السريع الذي كان يمثّل الدليل الوحيد على بصمة عملٍ بشريّة، ثمّ عبرت جسرًا متحرّكًا يمتدّ عبر بحر من الخمائل والأعشاب والأشجار. ثم طُوِيَ البحر بهدوءٍ، في رذاذ من اللون الأصفر والبرتقاليّ، وعدد قليل من النفثات الحمراء أطلقت على سفوح التلال، مع برك من بقايا الخضرة في تجاويف الأرض، تحت سماء زرقاء نقيّة. ومن بين ألوان صورةٍ لبطاقة بريديّة، بدا غطاء السيّارة مثل تحفة أبدعها صائغٌ ماهرٌ، مع تألّق الشمس على فولاذ الكروم، وطلاء المينا الأسود الذي يعكس لون السماء.

انحنت داغني على زاوية النافذة الجانبيّة، ومدّت ساقيها إلى الأمام؛ لقد أحبّت المساحة الواسعة المريحة لمقعد السيّارة ودفء الشمس على كتفيها؛ كانت تجد الريف جميلًا.

قال ريردن: أودّ أن أرى أيّ لوحة إعلانيّة.

فضحكت: لقد أجاب على فكرتها الصامتة. لوحة إعلانيّة لبيع ماذا ولمن؟ فنحن لم نرَ سيّارة أو منزلًا منذ ساعة.

هذا ما لا يعجبني في الأمر. ثمّ انحنى قليلًا إلى الأمام، كان متجهّمًا فقال: انظري إلى هذا الطريق.

لقد تمّ تبييض الشريط الطويل من الخرسانة باللون الرماديّ المعفّر من العظام المتروكة على الصحراء، كما لو أنّ الشمس والثلوج قد أكلت آثار الإطارات والنفط والكربون، وحركة الطلاء المتألّقة. ارتفعت الحشائش الخضراء من شقوق أطراف الخرسانة. يبدو أن لا أحد كان يستخدم الطريق أو أنّ إصلاحًا تمّ هنا منذ سنوات عديدة؛ لكن مع ذلك كانت الشقوق قليلة.

قال ريردن: إنّه طريق جيّد، لقد بُني ليدوم. والرجل الذي بناه كان يملك سببًا وجيهًا حتّى يتوقّع منه تحمُّلَ حركة مرور كثيفة في السنوات المقبلة.

ـ نعم...

ـ أنا لا أحبّ مثل هذه المناظر.

قالت وهي تبتسم: ولا أنا أيضًا، ولكن فكّر في عدد المرّات التي سمعنا فيها الناس وهم يشتكون من أنّ اللوحات الإعلانيّة تدمّر مظهر الريف. حسنًا، هذا هو الريف غير المدمّر الذي يعجبهم. هؤلاء هم الأشخاص الذين أكرههم.

هي لا تريد أن تشعر بعدم الارتياح الذي مرّت به وكأنّه صدع رقيق تحت مشاعر متعة ذلك اليوم. لقد شعرت بعدم الارتياح في بعض الأحيان، أثناء الأسابيع الثلاثة الماضية، على مرأى من الريف المنساب على إسفين غطاء محرّك السيّارة. ابتسمت: كان غطاء محرّك السيّارة بمثابة نقطة غير متحرّكة في مجال رؤيتها، بينما مرّت الأرض تحته، فأصبح الغطاء هو المركز، والتركيز، والأمن في عالم ضبابيّ ومتلاشٍ... كان غطاء محرّك السيّارة أمامها ويَدَا ريردن على عجلة القيادة إلى جانبها... ابتسمت، معتقدة أنّها راضيةٌ بِتَرْكِ هذا الأمر يكوّن شكل عالمها.

وبعد الأسبوع الأوّل من التجوال، وحين كانا يهيمان بالسيّارة على غير منهجٍ، تحت رحمة أحد مفترقات الطرق المجهولة، قال لها في صباح أحد الأيّام عند بداية الرحلة:

ـ داغني، هل شرط الراحة هو أن تكون بلا هدف؟

ضحكت، ثمّ أجابته: لا. أخبرني أيّ مصنع تريد رؤيته؟

ابتسم لشعوره بذنبٍ لم يكن عليه افتراضُه في التفسيرات التي لم يكن عليه تقديمها، ثمّ أجابها:

ـ إنّه منجم خام مهجور في خليج ساجيناو. يقولون إنّه منجم مُسْتَنْزَفٌ.

فأخذا السيّارة واتّجها عبر ميشيغان إلى منجم الخام. ثمّ سارا عبر حوافّ حفرة فارغة، ببقايا رافعة مثل هيكل عظميّ ينحني فوقهم في السماء، وعلبة غذاء صدئة لشخص مّا مبعثرة بعيدًا تحت أقدامهما. فشعرت داغني بطعنة من عدم الارتياح، طعنة أكثر حدّة من الحزن، ولكنّ ريردن قال بمرح:

ـ لقد استنزفوا هذا المنجم! ومع ذلك سيرون الخيرات التي يمكنني استخراجها من هذا المكان!

وفي طريق عودتهما إلى السيّارة، قال:

ـ لو أتمكّن من العثور على الرجل المناسب، فإنّني سأشتري ذلك المنجم صباح الغد وأجهّزه للعمل.

وفي اليوم الموالي، عندما كانا يهيمان بالسيّارة غربًا وجنوبًا في سهول إلينوي، قال فجأةً، بعد صمت طويل:

ـ لا، سأنتظر حتّى يلقوا بمشروع قانون تكافؤ الفرص في سلّة المهملات. أمّا الرجل الذي يمكنه أن يشغّل ذلك المنجم، فلن يحتاج إليّ كي أعلّمه ما عليه فعله. فالرجل الذي يحتاج إليّ لن يستحقّ إلّا اللعن.

كان بإمكانهما أن يتكلّما عن عملهما، كما كانا يفعلان دائمًا، بثقة كاملة وتفاهم. لكنّهما لم يتبادلا الحديث. لقد تصرّفا كما لو أنّ حميميّتهما العاطفيّة حقيقة جسديّة لا اسم لها، ولا يمكن تحديدها في التواصل بين عقلَيْن. في كلّ ليلة، بدت وكأنّها تنام في حضن شخص غريب يسمح لها برؤية كلّ رعشة من الإحساس تمرّ عبر جسده، لكنّه لا يسمح لها بمعرفة ما إذا كانت الصدمات قد وصلت إلى أيّ اختلاج بداخله. كانت مستلقية عارية إلى جانبه، وعلى معصمها يستلقي سوار من معدن ريردن.

كانت تعرف أنّه يكره محنة التوقيع على سجلّات الفنادق القذرة على جانب الطريق تحت اسم السيّد والسيّدة سميث. ثمّة أمسيات لاحظت فيها انقباض الغضب الخافت في ضيق فمه، حيث وَقْعُ الأسماء المتوقَّعة للاحتيال المتوقّع، والغضب على أولئك الذين جعلوا الاحتيال ضروريًّا. ولاحظت، بلامبالاة، دهاء سلوك عمّال الفندق، ممّا بدا أنّه يوحي بتواطؤ الضيوف والعمّال جميعهم في ذنب مخزٍ: ذنب التماس المتعة. لكنّها علمت أنّ الأمر لم يعد يعنيه عندما أصبحا وحدهما، وحين أمسك بها قبالته لحظةً ورأت عينيه لا تحملان أيّ إحساس بالذنب، بل على العكس من ذلك تضجّان بالحياة.

تجوّلا عبر المدن الصغيرة، وفي طرق جانبيّة غامضة، وفي أماكن لم يشاهداها لسنوات. لكنّها شعرت بعدم الارتياح لرؤية المدن. ومرّت أيّام قبل أن تدرك ما كانت تفتقده في تلك المساكن خلال الرحلة، إنّه لمحة من الطلاء النضر. لقد وقفت المنازل مثل الرجال في البدلات غير المضغوطة، لأولئك الذين فقدوا الرغبة في الوقوف باستقامة: كان الكورنيش يشبه ترهّل الكتفين، وعتبات الشرف ملتوية مثل خطوط حواشي ثياب ممزّقة، والنوافذ المكسورة مثل بقع مرقّعة بالألواح. كان المارّة يحدّقون في السيّارة الجديدة، لا كتحديق في مشهد نادر، ولكن كما لو أنّ الشكل الأسود المتلألئ يمثّل رؤية مستحيلة من عالم آخر. كان هناك عدد قليل من المركبات في الشوارع والكثير منها تجرّه الخيول. لقد نسيت الشكل الحرفيّ لاستخدام قوّة الخيول، لم تكن تحبّ أن ترى عودة العربات المجرورة بالخيول.

لم تضحك، في ذلك اليوم عند معبر الصفّ، حين ضحك ريردن، وهو يشير بيده، فرأت قطارًا محلّيًا صغيرًا يترنّح وراء تلّة، تجرّه قاطرة قديمة تسعل فتنفث الدخان الأسود من خلال مدخنة طويلة.

ـ يا إلهي، هذا ليس أمرًا مضحكًا!

قال: أعرف ذلك.

كانا على بعد سبعين ميلًا وساعة واحدة منه، عندما قالت:

ـ هانك، هل يمكنك تخيّل القطار المذنّب لشركة تاجارت تسحبُه عبر القارّة قاطرةٌ بموقد فحم من ذلك النوع؟

ـ ما خطبك؟ تمالكي نفسك.

ـ أنا آسفة... كلّ ما في الأمر أنّني مازلت أفكّر في أنّه لم تعد ثمّة فائدة لمساري الجديد وجميع أفرانك الجديدة، إذا لم نجد شخصًا قادرًا على إنتاج محرّكات الديزل، وإذا لم نجده بسرعة.

ـ تيد نيلسن من ولاية كولورادو هو رجلك المطلوب.

ـ نعم، إذا وجد طريقة لفتح مصنعه الجديد. لقد أسرف أموالًا أكثر ممّا يجب في سندات خطّ جون جالت.

ـ لقد اتّضح أنّ ذلك كان استثمارًا مربحًا جدًّا، أليس كذلك؟

ـ نعم، لكنّه أعانه فقط على النهوض. الآن هو مستعدّ للمضيّ قُدُمًا، لكنّه لم يستطع العثور على الأدوات. لم يحصل على أدوات آليّة لشرائها في أيّ مكان، ومهما يكُن الثمن. لم يحصل على أيّ شيء سوى الوعود والتأخير. إنّه يمشط البلاد ويبحث عن خردة قديمة لاستعادتها من المصانع المغلقة. إذا لم يبدأ قريبًا...

ـ سوف يفعل. من سيوقفه الآن؟

قالت بشكل مفاجئ: هانك، هل بإمكاننا الذهاب إلى مكان أرغب في زيارته؟

ـ بالتأكيد. مكان. أيّ مكان؟

ـ إنّه في ويسكونسن. كانت هناك شركة محرّكات عظيمة في زمن والدي. لقد كنّا نملك خطًّا فرعيًّا يوفّر خدمات النقل إليه، لكنّنا أغلقنا الخطّ قبل حوالي سبع سنوات عندما أغلقوا المصنع. أعتقد أنّها إحدى المناطق المنكوبة الآن. ربّما لا تزال توجد بعض الآلات التي تُرِكَت هناك ويمكن لتيد نيلسن استخدامها. ربّما تمّ تجاهل تلك الشركة، وأصبح المكان منسيًّا ولا توجد وسيلة نقل إليه على الإطلاق.

ـ سأجده. ما الاسم الذي كان يطلق على المصنع؟

ـ شركة القرن العشرين للمحرّكات.

ـ أوه، بالطبع! كانت إحدى أفضل شركات المحرّكات في شبابي، ولعلّها الأفضل على الإطلاق. يبدو أنّ ثمّة شيئًا غريبًا حول الطريقة التي خرجت بها تلك الشركة عن العمل... لا أستطيع تذكّر ما حدث بالضبط.

استغرق منهما الأمر ثلاثة أيّام من التحقيقات، لكنّهما وجداها في الطريق الذي أصبح مكانًا مهجورًا، وها هُما الآن يقودان سيّارتهما بين الأشجار الصفراء التي تلمع أوراقها مثل بحر من العملات الذهبيّة نحو شركة القرن العشرين للمحرّكات.

ـ سألته فجأة، وهما يقودان السيّارة في صمت: هانك، ماذا لو حدث أيّ مكروه لتيد نيلسن؟

ـ وما السبب الذي يجعلك تعتقدين أنّ مكروهًا قد يحدث له؟

ـ لا أعلم، ولكن... حسنًا، هذا ما حدث لدوايت ساندرز، لقد اختفى. والشركة المتّحدة للقاطرات انتهى أمرها في الوقت الراهن. والمصانع الأخرى ليست في حالة تسمح لها بإنتاج محرّكات الديزل. لقد ملّت انتظار الوعود... وما الفائدة من شركة للسكك الحديديّة دون قوّة دافعة؟

ـ ما الفائدة من أيّ شيء سواء من تلك المادّة أو من دونها؟

تألّقت الأوراق، وتمايلت في مهبّ الريح. كانت تنتشر على مدى أميال، من

العشب إلى الخمائل والأشجار، بحركة النار وبجميع ألوانها؛ يبدو أنّها تحتفل بهدف منجز، تحترق في وفرة غير خاضعة للرقابة، ولم يمسسها أحدٌ.

ابتسم ريردن، ثمّ قال:

ـ ثمّة شيء يمكن أن يقال في حقّ البرّيّة. لقد بدأت أقع في حبال غرامها. وطن جديد لم يكتشفه أحدٌ.

أومأت بفرح وقالت:

ـ إنّها تربة جيّدة، انظر إلى الطريقة التي تنمو بها الأشياء. سأنظّف المكان من هذه الخمائل وسأبني...

ثمّ توقّفا عن الابتسام. لمحا هيكلًا بين الأعشاب الطفيليّة على جانب الطريق، كان عبارة عن أسطوانة صدئة بأجزاء من الزجاج. إنّها بقايا مضخّة لمحطّة وقود.

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي بقي مرئيًّا، بالإضافة إلى بعض الدعامات المتفحّمة، ولوح الخرسانة وبريق الغبار الزجاجيّ، وهي جزء من محطّة للوقود ابتلعتها الأعشاب والخمائل. هذه الأشياء لا يمكن الانتباه إليها من مسافة بعيدة، ولعلّ رؤيتها تصبح معدومة بعد عامٍ آخر.

نظرا بعيدًا. وواصلا السير، بلا رغبة في معرفة ما يكمن أن يكون مخبّأً أيضا تحت أميال من الأعشاب الطفيليّة. كانا يشعران بالتعجّب من كمّيّة الأعشاب التي ابتلعت تلك الأشياء ومدى سرعتها في الابتلاع.

وانتهى الطريق فجأة خلف منعطف تلّة. وما تبقّى كان بضع قطع من الخرسانة تظهر على امتداد طريق طويل ومحفور. لقد حطّم أحدهم الخرسانة وأبعدها؛ حتّى الأعشاب لم تتمكّن من النموّ في قطع الأرض التي تركت وراءها. على قمّة تلّة بعيدة، وقف قطب تلغراف واحد مائل في السماء مثل صليب فوق قبر واسع.

استغرق الأمر منهما ثلاث ساعات.

ثمّة عدد قليل من منازل لا تزال قائمة داخل الهيكل العظميّ لهذه الأرض التي

كانت تسمّى قديما المدينة الصناعيّة. وكلّ ما يمكن أن يتحرّك، قد انتقل بعيدًا. ولكنّ بعض البشر ما يزالون متمسّكين بهذه الأرض. وكانت الهياكل الفارغة أنقاضًا رأسيّة؛ تآكلت، لا بمفعول الزمن، ولكن بسبب الرجال: لوحات ممزّقة عشوائيًّا، وبقع مفقودة من السقوف، والثقوب التي تُرِكَت في الأقبية الملتهبة. كان الأمر يبدو كما لو أنّ الأيدي العمياء قد استولت على كلّ ما يتناسب مع حاجات اللحظة. وتناثرت المنازل المأهولة عشوائيًّا بين الأنقاض؛ كان دخان مداخنهم هو الحركة الوحيدة المرئيّة في المدينة. وقف هيكل من الخرسانة، كان في السابق مبنًى لمدرسة على المشارف، مثل جمجمة، بمآخذ فارغة من نوافذ لا زجاج لها، وعدد قليل من جدائل الشعر التي لا تزال متمسّكة به في شكل أسلاك مقطوعة.

وراء المدينة، على تلّة بعيدة، وقف مصنع شركة القرن العشرين للمحرّكات. بدت جدرانه وخطوط سقفه ومداخنه مزخرفةً، ومنيعة تمامًا مثل أيّ قلعة. كان سيبدو سليمًا لولا خزّان مياه فضّيٌّ يميل على أحد جوانبه.

لم يلمحا أيّ أثر لطريق يؤدّي إلى المصنع في الأميال المتشابكة من الأشجار وسفوح التلال. واصلا سيرهما بالسيّارة إلى باب أوّل منزل يتصاعد منه الدخان. كان الباب مفتوحًا، ثمّ أطلّت امرأة عجوز بعد سماعها أزيزَ صوت المحرّك. كانت منحنية ومنتفخة، حافية القدمين، ترتدي ثوبًا من كيس للطحين. نظرت إلى السيّارة من دون دهشة أو فضول. وحدّقت كمن لا يشعر بشيء سوى الإرهاق.

سألها ريردن: هل يمكنك أن تخبريني عن الطريق المؤدّية إلى المصنع؟

لم تجبه المرأة دفعة واحدة؛ بَدَتْ كما لو أنّها غير قادرة على التحدّث باللغة الإنجليزيّة. ثمّ سألته: أيّ مصنع؟

أشار ريردن: ذلك المصنع.

ـ إنّه مغلق.

ـ أعلم أنّه مغلق. ولكن هل توجد أيّ طريقة للوصول إليه؟

ـ لا أعلم.

ـ هل توجد طرق توصل إلى ذلك المصنع؟

ـ ثمّة طرق في الغابة.

ـ هل توجد طرق يمكن أن أقود فيها السيّارة؟

ـ ربّما.

ـ حسنًا، ما الطريق التي يستحسن أن نسلكها؟

ـ لا أعلم.

من خلال الباب المفتوح، شاهدا الجزء الداخليّ من منزل تلك العجوز. كان هناك موقد غاز عديم الفائدة، فرنه محشوّ بالخرق، يُستَعمَل كمجموعة من الأدراج، وموقد مبنيّ من الحجارة في الزاوية، بعدد قليل من جذوع الأشجار تحترق تحت غلّاية قديمة، وشرائط طويلة من السخام ترتفع على الجدار. وكان هناك جسم أبيض مسنود على ساقي طاولة، إنّه حوض غسيل خزفيّ، مستأصل من جدار بعض بيوت الحمّام، مليء بملفوف الكرنب الذابل. وعلى الطاولة شمعة في زجاجة. لم تكن الأرضيّة مطليّةً؛ نظّفت لوحاتها فأصبحت بلون رماديّ باهتٍ يشبه التعبير البصريّ للألم في عظام الشخص الذي انحنى ونظّف وخسر المعركة ضدّ الأوساخ الغارقة الآن في غبار الألواح.

تجمّع، في صمتٍ، حشدٌ من الأطفال الهائجين خلف المرأة. كانوا يحدّقون في السيّارة، لا بدافع فضول الأطفال، ولكن بتوتّر المتوحّشين المستعدّين للتلاشي عند أوّل علامة خطرٍ.

سأل ريردن: كم ميلا يفصلنا عن المصنع؟

قالت المرأة: عشرة أميال، أو ربّما خمسة.

ـ كم تبعد عنّا البلدة الموالية؟

ـ لا توجد أيّ بلدة أخرى.

لا شكّ أنّ هناك مدنًا أخرى في مكان مّا. أعني: كم هي المسافة التي تفصلنا عن البلدة الموالية؟

ـ نعم. توجد بلدة أخرى في مكان مّا.

في المساحة الشاغرة بجانب المنزل، لاحظا الخرق الباهتةَ المعلّقةَ على حبل الغسيل، وهو عبارة عن قطعة من سلك التلغراف. وكانت هناك ثلاث دجاجات بين أسرّة حديقة خضروات متوحّشة؛ ودجاجة رابعة جثمت على شريط امتدّ على طول أنابيب السباكة، وخنزيران يتبختران على مساحة من الطين والوحل والقمامة؛ وكانت أحجار الممشى الموضوعة عبر الوحل قطعًا من خرسانة الطريق السريعة.

ثمّ سمعا أصوات صراخٍ على بعد مسافة، فشاهدا رجلًا يسحب الماء من بئر عموميّة مستعملًا حبلًا ودلوًا. راقبا قدومه ببطء إلى الشارع. كان يحمل دلوين يبدوان ثقيلين جدًّا على ذراعيه الرقيقتَين. لا يستطع المرء أن يقدّر عمره. اقترب وتوقّف، ونظر إلى السيّارة. فاندفعت عيناه تحدّقان في الغريبيَن، ثمّ نظر بعيدًا في ريبةٍ ومكرٍ.

أخرج ريردن ورقة نقديّة بقيمة عشرة دولارات ومدّها إليه، متسائلًا: هلّا أخبرتنا عن الطريق إلى المصنع؟

حدّق الرجل في المال بلامبالاة وتجهّم، ودون أن يحرّك ساكنًا، فلم يرفع يده ليستلمها، بل ظلّ ممسكًا بالدلوين. وقالت داغني في نفسها لو أنّ على الأرض إنسانًا واحدًا قنوعًا لكان هذا الرجل.

قال: لا حاجة بنا إلى المال هنا.

ـ ألا تعمل من أجل لقمة العيش؟

ـ نعم.

ـ حسنًا، ما العملة النقديّة التي تستخدمون هنا؟

وضع الرجل الدلوَين على الأرض، لأنّه لم يعد قادرًا على تحمّل ثقلهما. ثمّ قال:

ـ نحن لا نستخدم أيّ عملة هنا. نحن نكتفي بتبادُل الأشياء فيما بيننا.

ـ هل تتبادلون مع أشخاص من مدن أخرى؟

ـ نحن لا نذهب إلى أيّ بلدات أخرى.

ـ يبدو أنّ حياتكم ليست سهلة هنا.

ـ ما رأيك؟

ـ لا شيء. مجرّد فضول. لماذا لا تزالون متمسّكين بهذه الأرض؟

ـ كان والدي يملك محلّ بقالة هنا قبل أن يغلق المصنع.

ـ لماذا لم تهاجر؟

ـ إلى أين؟

ـ إلى أيّ مكان.

ـ لماذا؟

كانت داغني تحدّق في الدلوين اللذين صُنِعا من قوارير الزيت.

قال ريردن: اسمع، هل يمكنك إخبارنا بالطريق إلى المصنع؟

ـ توجد طرق كثيرة.

ـ هل توجد طريق يمكن أن نسلكها بالسيّارة؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ أيّ واحدة نسلك؟

أخذ الرجل يفكّر في الأمر بجدّيّة لبعض اللحظات، ثمّ قال:

ـ حسنًا. إذا انعطفت الآن إلى اليسار على مستوى المدرسة، فواصل المسير حتّى شجرة البلّوط الملتوية، ثمّة طريق جيّدة ما لم تمطر السماء على مدى أسابيع.

ـ ومتى كان آخر عهد لكم بالمطر؟

ـ أمس.

ـ هل توجد طريق أخرى؟

ـ حسنًا، يمكنك الذهاب عبر مراعي هانسون، ثمّ عبر الغابة، ومن ثمّ توجد طريق صلبة، اتّبع الطريق حتّى تصل إلى جدول.

ـ هل يوجد جسر عبر الجدول؟

ـ لا.

ـ ما هي الطرق الأخرى؟

ـ حسنًا، إذا كنت ترغب في طريق سيّارة، فثمّة سبيل واحدة في الجانب الآخر من بركة ميلر، إنّها معبّدة، وهي أفضل طريق سيّارة، يكفيك أن تنعطف على يمين المدرسة و...

ـ لكنّ هذه الطريق لا تقود إلى المصنع، أليس كذلك؟

ـ لا، ليس إلى المصنع.

قال ريردن: حسنًا، أعتقد أنّ علينا أن نجترح طريقًا خاصّة.

كان بصدد الضغط على مفتاح تشغيل السيّارة، حين ارتطمت حصاة بالزجاج الأماميّ. وكان الزجاج مضادًا للتحطّم، لكنّ الارتطام أحدث خطوطًا من الشقوق في الزجاج. فشاهدا سفّاحًا صغيرًا خشنًا يختفي خلف زاوية ويطلق صرخات من الضحك، وسمعوا ضحكاتٍ صارخةً من الأطفال يجيبونه من وراء بعض النوافذ أو الشقوق.

كظم ريردن غيظه. بينما كان الرجل فظًّا وعابسًا. ونظرت المرأة العجوز دون ردّ فعل. لقد وقفت هناك في صمت، تراقب ما يحدث دونما اهتمام أو هدف، مثل مركّب كيميائيّ على لوحة فوتوغرافيّة يمتصّ الأشكال البصريّة لأنّها خلقت لتمتصّ،

ولكنّها غير قادرة على تشكيل أيّ تقدير لمواضيع رؤيتها.

أخذت داغني تتفحّص ملامح المرأة العجوز لبضع دقائق. لم يكن لانتفاخ جسد تلك المرأة أيُّ شكل، بدا شكلها وكأنّه نتاج التقدّم في العمر والإهمال. كانت تبدو مثل امرأة حاملٍ، لكنّ هذا الأمر مستحيل. وبنظرة خاطفة لاحظت داغني أنّ شعرها الذي يشبه لون الغبار لم يكن رماديًّا وأنّ بوجهها عددًا قليلًا من التجاعيد؛ وحدها عيناها الشاغرتان، وانحناء الكتفين، وحركاتها المرتعشة، توحي بختم الشيخوخة. ثمّ انحنت داغني وسألتها:

ـ كم عمرك؟

نظرت إليها المرأة غير مستاءة. ولأنّ السؤال لا طائل منه، أجابت:

ـ سبعة وثلاثون.

وبعد أن ابتعدا عن ذلك المكان بخمس بنايات، قالت داغني في رعب:

ـ هل تعلم، يا هانك، أنّ تلك المرأة تكبرني بسنتين فقط!

ـ نعم.

ـ يا إلهي، كيف وصلوا إلى مثل تلك الحال؟

قال متجاهلًا: من هو جون جالت؟

آخر شيء شاهداه عندما غادرا البلدة كان لوحةً إعلانيّة، ولا يزال التصميم مرئيًّا على شرائط التقشير، مطبوعًا باللون الرماديّ الميّت الذي كان في السابق أفضل لون. إنّه إشهار لآلة غسيل.

في حقل بعيد، وراء المدينة، شاهدا جسد رجل يتحرّك ببطء وهو يدفع المحراث.

ووصلا إلى مصنع شركة القرن العشرين للمحرّكات على بعد ميلين وساعتين في وقت لاحق. كانا يعرفان، وهما يتسلّقان التلّ، أنّ سعيهما عديم الفائدة. وجدا أمامهما قفلًا صدئا معلّقا على باب المدخل الرئيسيّ، لكنّ النوافذ الضخمة تحطّمت.

وكان المكان مفتوحًا للحطّابين والأرانب وأوراق الأشجار الجافّة التي انجرفت إلى الداخل.

كان المصنع قد دُمِّر منذ فترة طويلة، ونُقلت منه القطع العظيمة من الآلات باستعمال الوسائل الحديثة، أمّا ما تبقّى منها فقد نهبه اللصوص. لم يبق شيء هنا، سوى القمامة التي تتكوّن من أكوام من القصاصات الملتوية والصدئة، ومن الألواح، والجصّ وشظايا الزجاج والسلالم الفولاذيّة، التي بُنِيت لتدوم إلى الأبد.

توقّفا في القاعة الكبرى حيث سقط شعاع من الضوء قطريًّا من فجوة في السقف، وأصداء خطواتهما تتردّد في الفضاء، ثم تختفي بعيدًا في صفوف الغرف الفارغة. اندفع طائرٌ من بين العوارض الخشبيّة الفولاذية وظلّ يرفرف بجناحَيه في السماء.

قالت داغني: ينبغي أن نمسح كلّ أرجاء المصنع لنقطع الشكّ باليقين. ابحث أنت في الدكاكين وسأبحث أنا في المرفقات. لتُنْجِزْ هذا العمل في أسرع وقت ممكن.

ـ لا أستطيع أن أتركك تتجوّلين بمفردك. لأنّي لست متأكّدًا من سلامة تلك الطوابق أو السلالم ولا من أمنها.

ـ أوه، كفّ عن هذا الهراء! يمكنني أن أجد طريقي في جميع أرجاء المصنع أو حتّى في طابق محطّم. دعنا نحصل على أكثر من ذلك معًا. أريد الخروج من هنا.

عندما سارت عبر الساحات الصامتة، حيث الجسور الفولاذيّة لا تزال معلّقة وتتبع خطوط الكمال الهندسيّ عبر السماء، كانت أمنيتها الوحيدة عدم رؤية أيّ شيء من ذلك، لكنّها أجبرت نفسها على النظر. كان الأمر يشبه الاضطرار إلى إجراء تشريح لجثّة إنسان نحبّه. جالت بنظرها ككشّافٍ آليّ، تمسح المكان وأسنانها مشدودة معًا. لقد سارت بسرعة، ولم تكن هناك ضرورة للتوقّف في أيّ مكان.

في مكان مّا ثمّة غرفة تشبه المختبر، ويتكوّن هذا المختبر من لفائف الأسلاك التي عرقلت سيرها وأرغمتها على التوقّف. نتأت اللفائف من كومة من الخردة. لم ترَ قطّ مثل هذا الترتيب الخاصّ من الأسلاك، ومع ذلك كان يبدو لها مألوفًا. وصلت إلى

الملفّ، لكنّها لم تستطع تحريكَه لأنّه كان جزءا من الأشياء المدفونة في الكومة.

بدت الغرفة كما لو أنّها كانت مختبرًا تجريبيًا، وإذا كانت محقّة في الحكم على الغرض من الأشياء المهملة التي رأتها على الجدران: العديد من المنافذ الكهربائيّة، وأجزاء من الكابلات الثقيلة، وقنوات الرصاص، والأنابيب الزجاجيّة، والخزّانات المدمجة دون رفوف أو أبواب. في كومة خردة ثمّة قدر كبير من الزجاج والمطّاط والبلاستيك والمعادن، وقصاصات الورق التي أحدثت حفيفًا جافًّا في جميع أنحاء الأرض. كانت هناك أيضًا بقايا الأشياء التي لن يكون صاحب هذه الغرفة هو من جلبها مثل أغلفة الفشار، وزجاجة ويسكي، ومفكّرة اعتراف.

حاولت تخليص الملفّ من كومة الخردة. ولم يتحرّك؛ لقد كان جزءا من بعض أشياء كبيرة. انحنت وشرعت تحفر القمامة.

كانت قد شقّت الركام بيديها، وقد غطّاها الغبار في الوقت الذي وقفت فيه للنظر إلى شيء نظّفته. لقد كانت بقايا حطام لموديل محرّك فُقِدت معظم أجزائه، ولكن ثمّة ما يكفي لتكوين فكرة مّا عن شكله والغرض منه.

لم يسبق لها أن رأت محرّكًا من هذا النوع أو حتّى أيّ شيء يشبهه. وقالت إنّها لا تستطيع فهم تصميم أجزائه الغريبة أو الوظائف التي كان يؤدّيها.

فحصت الأنابيب المشوّهة والاتّصالات الغريبة الشكل. حاولت التكهّن بالهدف منها، فراح عقلها يتصوّر أكثر من نوع من المحرّكات التي كانت تعرفها وكلّ نوع ممكن من العمل الذي يمكن لأجزائه أن تؤدّيه. لا شيء ملائم للنموذج الذي وجدته. بدا الأمر وكأنّه محرّك كهربائيّ، لكنّها لم تتمكّن من معرفة الوقود الذي كان من المفترض أن يحترق بداخله. لم يكن مصمّمًا للعمل بالبخار أو النفط أو أيّ شيء يمكن أن تسمّيه.

لم يكن لهاثها المفاجئ صوتًا، ولكن هزّة رمت بها في كومة خردة. كانت جاثية على يديها وركبتيها، تزحف فوق الحطام، تصادر كلّ قطعة من الورق في الأفق، تقذفها

بعيدًا، لتبحث أكثر. وكانت يداها ترتجفان.

ووجدت جزءًا ممّا تأمل في أن يكون قد بقي قائمًا. إنّها صورة رقيقة من الصفحات المكتوبة من بقايا المخطوطة. لقد اختفت بدايتها ونهايتها؛ وأظهر رقم الورقة الصفحات التي احتوت عليها سابقًا. كانت الورقة صفراء وجافّة. وكانت المخطوطة وصفًا للمحرّك.

من منطقة خالية في محطّة توليد الطاقة الكهربائيّة للمصنع، سمع ريردن صوتها وهي تصرخ، هانك! كأنّها صرخة من الرعب.

ركض في اتّجاه الصوت. وجدها واقفةً وسط غرفة، ويداها تنزفان، وجورباها ممزّقان، وبدلتها ملطّخة بالغبار، وهي تمسك بيدها مجموعة من الأوراق.

سألته وهي تشير إلى قطعة غريبة من الحطام عند قدميها: هانك، ماذا يشبه هذا الشيء؟

كرّرت بنبرة إنسان مصدوم: ماذا يشبه؟

ـ هل تأذّيت؟ ماذا حدث؟

ـ لا، لا، لا، لا، ... لا يهمّ، لا تنظر إليّ! أنا على ما يرام. انظر إلى هذا. هل تعرف ما هذا؟

ـ ماذا فعلت بنفسك؟

ـ اضطررت إلى التنقيب عنه هناك. أنا بخير.

ـ أنت ترتجفين.

ـ سوف ترتجف أنت أيضًا بعد لحظة من الآن. هانك! انظر إلى هذا. فقط انظر وأخبرني برأيك فيه.

نظر إلى أسفل بانتباهٍ، ثمّ جلس على الأرض، وأخذ يدرس الموضوع باهتمامٍ. ثمّ قال متجهّمًا:

ـ إنّها طريقة شاذّة لتركيب المحرّك.

قالت وهي تنشر الصفحات: اقرأ هذا.

قرأ ثمّ نظر إلى أعلى قائلا: يا الله!

كانت تجلس على الأرض بجانبه، وللحظة لم يستطيعا قول شيء آخر.

قالت: كانت لفائف...

شعرت كما لو أنّ عقلها في سباق، لم تستطع مواكبة كلّ الأشياء التي انفجرت على نحوٍ مفاجئ لتراها، وجاءت كلماتها متدافعةً:

ـ إنّها اللفافة التي أثارت انتباهي أوّلَ الأمر، لأنّني رأيت قبل سنوات رسومات مثلها، وإن كانت لا تشبهها تمامًا، وذلك عندما كنت في المدرسة. وُجدت هذه الرسومات في كتاب قديم، أُهمِل منذ فترة طويلة بوصفه مشروعًا يستحيل إنجازه. لكنّني أحببت قراءة كلّ ما استطعت أن أجده عن محرّكات السكك الحديديّة. قال ذلك الكتاب إنّ الرجال فكّروا بذلك في وقت مّا، عملوا عليه، وقضّوا سنوات في التجارب، لكنّهم فشلوا، فتخلّوا عنه. لقد نُسي زمنًا طويلًا، ولا أعتقد أنّ أيّ عالم حيّ يفكّر في هذا الأمر الآن، لكنّ شخصًا مّا فعل ذلك، شخصًا مّا حلّ المعضلة الآن، اليوم!... هانك، هل تفهم؟ هؤلاء الرجال حاولوا، منذ زمن طويل، اختراعَ محرّك يستطيع أن يسحب الكهرباء الساكنة من الغلاف الجويّ، ويحوّلها ويخلق قوّته الخاصّة كلّما تقدّم في مسيره. لم يستطيعوا فعل ذلك، لقد تخلّوا عن هذه الفكرة...

أشارت إلى الشكل المكسور، ثمّ أضافت: لكن ها هي.

أومأ برأسه. لم يكن يبتسم. جلس ينظر إلى البقايا، عازمًا على التفكير في شيء من تلقاء نفسه؛ لا يبدو أنّها فكرة مفرحة.

ـ هانك! ألا تفهم ماذا يعني هذا؟ إنّها أعظم ثورة في محرّكات الطاقة منذ محرّك الاحتراق الداخليّ، بل أكبر من ذلك! إنّه يمحو كلّ شيء، ويجعل كلّ شيء ممكنًا. فليذهب دوايت ساندرز وجميع من معه إلى الجحيم! من يريد أن ينظر إلى الديزل؟

من ذا الذي سيقلق بعده بشأن النفط أو الفحم أو محطّات التزوّد بالوقود؟ هل ترى ما أراه؟ قاطرة العلامة التجاريّة الجديدة نصف حجم وحدة ديزل واحدة، بعشرة أضعاف الطاقة. مولّد ذاتيّ، يعمل على بضع قطرات من الوقود، مع عدم وجود حدود لطاقته. أنظف وأسرع وأرخص وسيلة للحركة سيتمّ ابتكارها على الإطلاق. هل ترى ما الذي سيفعله ذلك بأنظمة النقل لدينا وبالبلاد في حوالي عام واحد؟

لم يتحمّس لهذا الموضوع. ثمّ قال ببطء:

ـ من صمّمه؟ لماذا أُهمل هنا؟

ـ سنكتشف ذلك.

كان يقلب الصفحات بشكل عكسيّ قبل أن يبادرها بالسؤال:

داغني، إذا لم تجدي الرجل الذي صمّمه، هل ستكونين قادرة على إعادة بناء هذا المحرّك من بقايا هذا النموذج؟

استغرقت زمنًا في التفكير قبل أن تقول:

ـ لا.

ـ ولا أحد يستطيع فعل ذلك. لقد نجح في تصميمه وكان كلّ شيء على ما يرام. لقد نجح الأمر بالاستناد على ما كتبه هنا. إنّه أعظم شيء رأته عيناي. لا يمكننا إنجاح الأمر مجدّدًا، وتوفير ما هو مفقود من شأنه أن يحتاج إلى عقل كبير مثل عقله.

ـ سأجده حتّى إذا اضطُرِرتُ إلى التخلّي عن كلّ شيء آخر.

ـ هذا إذا كان لا يزال على قيد الحياة.

ـ لماذا أنت متشائم؟

ـ لا أعتقد أنّه ما يزال على قيد الحياة. لو كان كذلك، هل سيترك اختراعًا من هذا النوع يتعفّن في كومة من الخردة؟ هل سيتخلّى عن إنجاز مهمّ بهذا الحجم؟ لو كان على قيد الحياة، لكانت لديك القاطرات ذات المولّدات الذاتيّة منذ سنوات. ولم يكن

عليك البحث عنه، لأنّ العالم كلّه سيعرف اسمه الآن.

ـ لا أعتقد أنّ هذا النموذج أُجرِي منذ فترة طويلة جدًّا.

نظر إلى ورقة المخطوطة وفي تشوّه المحرّك الصدئ، ثمّ قال:

ـ أعتقد أنّ هذا الأمر تمّ قبل حوالي عشر سنوات، أو ربّما هي فترة أطول بقليل.

ـ يجب أن نجده أو نجد أيّ شخص يعرفه. وهذا أكثر أهمّيّة...

ـ من أيّ شيء يملكه أو يصنعه أيّ شخص اليوم. لا أعتقد أنّنا سنجده. وإذا لم نفعل ذلك، فلن يتمكّن أحدٌ من تكرار أدائه. لا أحد سيُعيد بناء محرّكه ولم يتبقّ ما يكفي منه. إنّه مجرّد دليل، دليل لا يقدّر بثمن، لكن لإكماله نحتاج إلى ذلك العقل الذي يولد مرّة واحدة في كلّ قرن. هل تعتقدين أنّ مصمّمي المحرّكات الحاليّين يقدرون على محاولة تركيبه؟

ـ لا.

ـ لا يوجد أيّ مهندس تصميم من الدرجة الأولى. لم نرَ جديدًا في المحرّكات منذ سنوات. هذه إحدى المهن التي يبدو أنّها تنقرض أو ستنقرض.

ـ هانك، هل تعرف ماذا سيعني ذلك المحرّك إذا اكتمل اختراعه؟

ضحك بينه وبين نفسه لفترة وجيزة، ثمّ قال:

ـ أودّ القول إنّه سيضيف قرابة عشر سنوات إلى حياة كلّ شخص في هذا البلد، إذا فكّرت في عدد الأشياء التي كان من شأنها أن تصبح أسهل وأرخص إنتاجًا، وكم ساعة من العمل البشريّ سيوفّرها لعمل آخر، وكم سينجز من عمل لأيّ شخص. قاطرات؟ ماذا عن السيّارات والسفن والطائرات والجرّارات التي ستعمل بهذا المحرّك؟ لن يكون الناس مرهونين بإمدادات الطاقة، ثمّ إنّهم لن يحتاجوا إلى صرف الأموال على الوقود، إلّا بضع سنتات للحفاظ على اشتغال المحوّل. ذلك المحرّك يمكن أن يضع البلاد بأكملها في الحركة والنار. كان من الممكن أن يجلب نور مصباح كهربائيّ إلى كلّ أصقاع الأرض، حتّى في منازل أولئك الناس الذين رأيناهم عند

الوادي.

ـ كلّ شيء كان سيحدث، بل سيحدث. سأجد الرجل الذي صنعه.

ـ سنحاول إيجاده.

نهض فجأة، لكنّه توقّف لإلقاء نظرة على بقايا حطام هذا النموذج، ثمّ قال:

ـ كان هذا محرّك خطّ جون جالت.

ثمّ تحدّث بطريقة المدير التنفيذيّ الفظّة مضيفًا:

ـ أوّلًا، سنحاول أن ندرس ما إذا كان بإمكاننا العثور على مكتب موظّفيهم هنا. سنبحث في سجلّاتهم وما إذا كان هناك أيّ شيء يمكن أن يدلّنا على المخترع. نحن نريد أسماء موظّفي البحث ومهندسيهم. لا أعرف من يملك هذا المكان الآن وأظنّ أنّه سيكون من الصعب العثور على المالكين أو أنّهم لن يسمحوا للأمور بالوصول إلى هذه المرحلة. ثمّ سنبحث في كلّ غرفة من غرف المختبر. وفي وقت لاحقٍ، سنجلب بعض المهندسين بالطائرة إلى هنا وسنمشّط بقيّة المكان.

ثم همّا بالخروج، لكنّ داغني توقّفت لحظة عند العتبة، ثمّ قالت:

ـ هانك، هذا المحرّك كان الشيء الأكثر قيمةً داخل هذا المصنع، هو أكثر قيمة من المصنع بأكمله. ومع ذلك كانوا يمرّون عليه مرور الكرام وتُرِك مهملًا في القمامة كأيّ شيء لا يستحقّ الاهتمام.

أجابها: هذا بالتحديد ما يخيفني في هذا الموضوع.

لم يستغرقا وقتًا طويلا في البحث عن مكتب شؤون الموظّفين، لأنّ في أحد الأبواب إشارةً تدلّ عليه. لكنّهما لم يجدا في الداخل أثاثا أو أوراقًا، بل فقط بعض شظايا النوافذ المحطّمة.

ثمّ عادا إلى غرفة المحرّك زحفًا على اليدين والركبتين، وفحصا كلّ خردة من القمامة التي تناثرت على الأرض. لكنّهما لم يجدا أشياء كثيرة. فوضعا جانبًا الأوراقَ

التي يبدو أنّها تحتوي على ملاحظات مخبريّة، ولكن لم يُشِر أيّ واحد منها إلى المحرّك، إذ لم تكن بينها صفحاتٌ من المخطوطة. وقد شهدت أغلفة الفشار وزجاجة الويسكي على هذا النوع من جحافل الغزاة التي اجتاحت الغرفة، مثلما تحمل موجات غسيل بقايا الدمار بعيدًا إلى أعماق غير معروفة.

وضعا جانبًا بضعَ قطع معدنيّة يمكن أن تنتمي إلى المحرّك، ولكنّها كانت صغيرة جدًّا ممّا قد يدلّ على أنّها غير مهمّة. وبدا المحرّك كما لو أنّ أجزاء قد انتزعت منه، ربّما من قبل شخص يعتقد أنّه يمكن أن تكون صالحة للاستخدام في أمور أخرى. أمّا ما تبقّى فلا يمكن أن يثير اهتمام أيّ شخص.

انتشرت راحتاها المسطّحتان على الأرضيّة المليئة بالأتربة، وهي جاثية على ركبتيها المتورّمتين، فشعرت بالغضب ينضحُ بداخلها، ذلك الغضب المؤلم والعاجز الذي يجيب على مشهد الانتهاك والتدنيس. وتساءلت عمّا إذا كانت حفّاظات شخص مّا معلّقة على حبل الغسيل المصنوع من أسلاك المحرّك المفقودة، أو تحوّلت عجلاته إلى دلوٍ في بئر عموميّة مشتركة، أو أصبحت أسطوانته الآن وعاءً يحتوي على نبتة إبرة الراعي ووُضِعَ بعتبة نافذة حبيبة الرجل صاحب زجاجة الويسكي.

كانت على التلّ بقايا ضوء، ولكنّ السديم الأزرق أخذ يزحف على الوديان، وكانت الألوان الحمراء والذهبيّة لأوراق الشجر تنتشر في السماء على هيئة شرائط مع غروب الشمس.

كان المكان مظلمًا عندما انتهيا من البحث. نهضت داغني وانحنت على إطار نافذة لتحظى بلمسة من الهواء البارد على جبهتها. وكانت السماء زرقاء داكنة. ثمّ قالت:

ـ كان يمكن أن يؤدّي ذلك إلى نهضة البلاد بأكملها.

نظرت إلى المحرّك، ثمّ إلى الخارج. فتنهّدت فجأة، واجتاحتها رعشة طويلة، فمالت برأسها على ذراعها، وظلّت واقفة وهي تضغط على إطار النافذة.

سألها ريردن: ما خطبك؟

لكنّها لم تجبه. فنظر هو أيضًا إلى الخارج، إلى أسفل حيث الوادي، مسترجعًا الليلة التي جمعتهما هناك.

الفصل العاشر

شعلة وايت

ـ قال موظّف في إدارة السجلّات: فليرحمنا الله جميعًا يا سيّدتي! لا أحد يعلم من يملك هذا المصنع، ولعلّه لا أحد يعلم هذا الأمر مطلقًا.

جلس الموظّف بمكتبه في الطابق الأرضيّ، حيث الغبار يجثم على الملفّات من غير أن يعكّر صفوه أحدٌ، عدد قليل فقط من الزوّار اتّصلوا به. نظر من النافذة إلى السيّارة المتألّقة التي تقف في ساحة موحلة كانت ذات يوم مركزًا مزدهرا في المقاطعة. تملّكت الموظّفَ دهشةٌ وذهول من الضيفين الغريبين.

سألته داغني: ولماذا؟

أشار بعجز إلى كتلة الأوراق التي أخرجها من الملفّات. ثمّ قال:

ـ على المحكمة أن تقرّر من يملكه، وهو ما لا أعتقد أنّ أيّ محكمة يمكنها البتّ فيه. هذا إذا نجحت المحكمة أصلًا في الوصول إليه. ولا أعتقد أنّ هذا الأمر سيحدث.

ـ لماذا؟ ماذا حدث؟

ـ حسنًا، لقد بيعت شركة القرن العشرين للمحرّكات في الوقت نفسه لمالكين مختلفين. كانت هذه الواقعة فضيحةً كبرى هزّت البلاد قبل عامين، والآن هي فقط مجرّد حفنة من الأوراق في انتظار رأي المحكمة. ولا أرى كيف سيتمكّن أيّ قاضٍ من حلّ هذه القضيّة.

ـ هل بإمكانك أن تخبرني فقط بما حدث؟

ـ حسنًا، المالك القانونيّ الأخير للمصنع كان شركة الرهن العقّاريّ الشعبيّ، من مدينة روما، بولاية ويسكونسن. وهي المدينة التي تقع في الجانب الآخر من المصنع على بعد ثلاثين ميلًا شمالًا. كانت شركة الرهن العقاريّ تروّج إعلانات كثيرة عن الائتمان السهل. وكان يرأسها مارك يونتس، هذا الرجل الذي لا أحد يعرف من أين جاء تمامًا كما لا أحد يعرف إلى أين ذهب، ولكنّ ما اكتشفوه، في صباح اليوم الموالي لانهيار هذه الشركة، هو أنّ مارك يونتس قد باع مصنع القرن العشرين للمحرّكات إلى مجموعة من مصّاصي المال من داكوتا الجنوبيّة، وضمن به في الوقت نفسه قرضًا تحصّل عليه من بنك في إلينوي. وعندما تفحّصوا المصنع، اكتشفوا أنّه نقل كلّ الآلات وباعها مفكّكةً، الله وحده يعلم أين باعها؟ ولمن باعها؟ لهذا السبب فإنّ للجميع الحقَّ في هذا المكان. الآن داكوتا الجنوبيّة والبنك ومحامي الدائنين من شركة الرهن العقّاريّ الشعبيّ يقاضي بعضُهم بعضًا، وكلّ واحد منهم يدّعي ملكيّة هذا المصنع، ولا يحقّ لأحدٍ أن يحرّك فيه العجلات، ولا توجد أصلًا عجلات لتدور فيه.

ـ هل كان المصنع يعمل قبل أن يبيعه مارك يونتس؟

ـ يا إلهي، لم يحدث ذلك يا سيّدتي! لم يكن مارك يونتس من النوع القادر على تشغيل أيّ شيء. ولم يسعَ إلى كسب المال بعرق جبينه، بل كان فقط يرغب فيه دون جهدٍ. وأعتقد أنّه نجح في ذلك أكثر من أيّ شخص قد يشغّل المصنع.

وتساءل عن السبب الذي يجعل الرجل الأشقر ذا الوجه القاسي، والذي يجلس مع المرأة أمام مكتبه، ينظر من خلال النافذة إلى سيّارتها التي يستلقي فيها جسم كبير ملفوفٌ في قماش، ومشدود بإحكام تحت الغطاء المرفوع في مقصورة الأمتعة الخاصّة بالسيّارة.

ـ وماذا حدث لسجلّات المصنع؟

ـ ماذا تقصدين يا سيّدتي؟

ـ سجلّات إنتاجهم، وسجلّات عملهم...وملفّات الموظّفين.

ـ أوه، لم يبق شيءٌ منها بسبب عمليّات السطو والنهب. لقد نهب المالكون الأثاث وكلَّ الأشياء التي استطاعوا نقلها حتّى بعد ما أغلقت المحكمة باب المصنع. والراجح عندي أنّ كلّ الأوراق والسجلّات قد استعملها رجال من ستارنسفيل في التدفئة، وهي مكان يقع في الوادي، إذ كانوا يمرّون في تلك الأيّام بظروف طبيعيّة قاسية.

ـ سأله ريردن: هل نستطيع أن نجد شخصًا مّا سبق أن عمل في المصنع؟

ـ لا يا سيّدي. لن تجد أيّ واحدٍ منهم هنا. كلّهم كانوا يعيشون في ستارنسفيل.

ـ همست داغني، وهي تفكّر في الأنقاض: كلّهم؟ حتّى المهندسون؟

ـ نعم، يا سيّدتي. تلك كانت مدينة المصنع. لقد رحلوا جميعًا منذ زمن بعيدٍ.

ـ هل تتذكّر اسم أيّ رجل كان يعمل هناك؟

ـ لا يا سيّدتي.

سأله ريردن: من هو آخر مالك أدار المصنع؟

ـ لا أستطع أن أحدّد يا سيّدي. لأنّ هذا المصنع تناوبت عليه الأيادي منذ وفاة العجوز جيد ستارنس. إنّه الرجل الذي بنى هذا المصنع مثلما صنع مجد هذا الجزء من البلاد. لقد مات قبل اثني عشر عامًا.

ـ هل يمكنك أن تمدّنا بأسماء جميع المالكين منذ ذلك الحين؟

ـ لا يا سيّدي. لقد شبّ حريق في المحكمة القديمة قبل حوالي ثلاث سنوات، وقد اختفت جميع السجلّات القديمة. لا أعرف أين يمكنك تعقّبها الآن.

ـ هل تعلم كيف تملّك مارك يونتس المصنع؟

نعم، أعرف ذلك. لقد اشتراه من عمدة باسكوم في مدينة روما، أمّا في خصوص الكيفيّة التي امتلكه بها عمدة باسكوم فأنا لا أعلم عن ذلك شيئًا.

ـ وأين يمكن أن نجد العمدة باسكوم الآن؟

ـ لا يزال هناك في روما.

قال ريردن، وهو ينهض من مكانه: شكرًا جزيلا، سنحاول الاتّصال به.

كانا واقفين بالباب عندما سأله الموظّف: عمّ تبحث يا سيّدي؟

ردّ ريردن: نحن نبحث عن صديق لنا، صديق عزيز فقدناه، كان يعمل في ذلك المصنع.

***

انحنى عمدة باسكوم بمدينة روما، في ولاية ويسكونسن، مرّةً أخرى على كرسيّه، ولكنّ شكل صدره ومعدته رسم مخطّطًا على هيئة إجّاصة تحت قميصه الرثّ. كان الهواء خليطًا من الشمس والغبار، يضغط بشدّة على شرفة منزله. فلوّح بيده، فلمعت ياقوتة كبيرة من النوع الرديء في خاتم إصبعه. ثمّ قال:

ـ لا فائدة يا سيّدتي، لا فائدة على الإطلاق. ستكون محاولتك لاستجواب الناس هنا مضيعةً للوقت. لم يبق في ربوعنا أيّ شخص عمل بالمصنع ولا أحد يتذكّر الكثير عنهم. لأنّ معظم العائلات هاجرت بعيدًا. وما تبقّى هنا لا جدوى منه. ولا أملك إلّا أن أقول ذلك لك ولنفسي. لا جدوى تُرجى من ذلك المكان، وما أنا سوى مجرّد عمدة لمجموعة من أكوام القمامة.

قدّم العمدة لزائريه كرسيّين ليجلسا، لكنّه لم يمانع إذ فضّلت السيّدة الوقوف عند سور الشرفة. انحنى إلى الوراء، ليدرس قامتها الطويلة والرشيقة، ثمّ قال في نفسه إنّها امرأة أرستقراطيّة، والرجل الذي يرافقها يبدو عليه الثراء الفاحش.

ظلّت داغني تراقب شوارع روما. لقد كانت هناك منازل وأرصفة وأعمدة إنارة، وحتّى لافتة تعلن عن أحد المشروبات الغازيّة؛ لكنّ تلك الشوارع تبدو الآن كما لو أنّها بوصات وساعات قبل أن تصل البلدة إلى مرحلة ستارنسفيل.

قال عمدة باسكوم: لا، لم تعد للمصنع سجلّات. لا تواصلي رحلة البحث عن

السجلّات. لأنّ هذا الأمر هو تمامًا مثل مطاردة أوراق الشجر في زمن العاصفة. من يهتمّ أصلًا بتلك الأوراق؟ في مثل هذا الزمن، لا يحتفظ الناس إلّا بالأشياء المادّيّة النفيسة والصلبة. يجب أن يكون المرء عمليًّا.

لاحظا، من خلال النوافذ التي يغمرها الغبار، غرفةَ جلوس منزله: كان هناك سجّاد فارسيّ على أرضيّة خشبيّة مشدودة، وحانة صغيرة متنقّلة بشرائط الكروم قرب جدار تلطّخ بفعل تسرّب أمطار العام الماضي، وراديو ثمين وضع فوقه مصباح كيروسين قديم.

ـ بالتأكيد، أنا من باع مارك يونتس المصنعَ. كان مارك صديقًا لطيفًا، صديقا جيّدا ونشطًا. لقد نهب فعلًا بعض الزوايا القليلة، ولكن مَن ذا الذي لم ينهب شيئا في هذه البلاد؟ بالطبع، هو تمادى قليلًا في عمليّات النهب، وهو الأمر الذي لم أتوقّعه منه، إذ أعتقد أنّ له ما يكفي من الذكاء حتّى لا يتصرّف ضدّ القانون.

ابتسم العمدة باسكوم، ونظر إليهما على نحوٍ صريح وهادئ. كانت عيناه ماكرة دون أن توحي بأنّه ذكيّ، أمّا طبيعة ابتسامته فجيّدة، لكنّها غير لطيفة. ثمّ قال:

ـ لا أعتقد أنّكما من قسم المباحث والتحرّيات، ولكن حتّى إن كنتما كذلك، فهذا لا يعنيني في شيء. أنا لم أحصل على أيّ أسهم من مارك، فهو لم يسمح لي بالدخول في أيّ واحدةٍ من صفقاته، ولا فكرة لديّ عن المكان الذي ذهب إليه الآن. كنت معجبًا بمارك يونتس. وتمنّيت لو أنّه ما يزال يجاورني. فهو لا يهتمّ بخطب الأحد، بل كان كلّ ما يهمّه هو أن يعيش، أليس كذلك؟ لم يكن أسوأ من أيّ شخص، كان فقط أذكى منهم. يُقبض على البعض منهم، وفي مقابل ذلك لا يسجن البعض الآخر أبدًا. هذا هو الفرق الوحيد... لا، لم أكن أعرف ما كان سيفعله بالمصنع عندما اشتراه. بالتأكيد، لقد دفع لي أكثر بقليل من قيمة ذلك الفخّ القديم. ولا شكّ أنّه كان يُقدّمُ لي معروفًا عندما اشتراه. لا، لم أضغط عليه لأجعله يشتريه فلم يكن ذلك ضروريًا. لقد منحته بعض الخدمات من قبل. ثمّة قوانين كثيرة كانت مرنة تمامًا مثل المطاط، والعمدة في وضع يمكنه من تمطيطها قليلا لصديق مثله. ما الخطأ في ذلك بحقّ

الجحيم؟ هذه هي الطريقة الوحيدة التي يراكم بها أيّ شخص الثروة في هذا العالم.

ألقى نظرة على السيّارة السوداء الفاخرة، قبل أن يتمتم قائلًا: مثلما يجب أن تعلما.

قال ريردن، وهو يحاول تمالك نفسه: كنت تخبرنا عن المصنع.

ردّ العمدة باسكوم: إنّ ما لا أستطيع تحمّله هو الأشخاص الذين يتحدّثون عن المبادئ. فالمبدأ لا يستطيع أن يوفّر زجاجة حليب لأيّ شخص. الشيء الوحيد الذي يهمّ في الحياة هو الأسس المادّيّة الصلبة. لا أظنّ أنّ الوقت مناسب للنظريّات والمبادئ حين يتحوّل كلّ شيء من حولنا إلى أشلاء. حسنًا أنا لا أبرّئ نفسي. دعهم يتمسكّوا بمبادئهم وسأستولي على المصنع. لا أريد مبادئ، تكفيني وجباتي الغذائيّة الدسمة لثلاثة أوقات في اليوم.

ـ لماذا اشتريت هذا المصنع؟

ـ ولماذا يشتري الناس المصانع؟ بالتأكيد، من أجل الربح والكسب. لقد كنت أراه فرصةً جيّدة للاغتناء. وحصلت عمليّة البيع بعد إفلاس صاحبه، وهذا الأمر هو ما يجعل الطلب عليه ضعيفًا. حصلت على هذا المصنع وكنت سأحوّله إلى محلٍّ لبيع الفول السودانيّ. ولم يكن أمامي امتلاكه لفترة طويلة أيضًا. أمّا مارك فتولّى إدارته بعدي بشهرين أو ثلاثة. بالتأكيد، يمكن أن أسمح لنفسي بالقول إنّها كانت صفقة ذكيّة. لم يكن في وسع أيّ رجل أعمال كبير فعلُ أفضل من ذلك.

ـ هل كان المصنع يعمل عندما تولّيت أمره؟

ـ لا. لقد كان مغلقًا.

ـ هل حاولت إعادة فتحه؟

ـ لست من النوع الذي يقدر على الإنتاج. أنا شخص عمليّ.

ـ هل يمكنك أن تمدّني باسم أيّ رجل عمل في المصنع؟

ـ لا. لم أقابلهم مطلقًا.

ـ هل نقلت أيّ شيء من المصنع؟

ـ حسنًا، دعني أخبرك عن هذا الأمر. لقد مسحت كلّ أرجاء المصنع، ولم يثر إعجابي سوى مكتب الشيخ جيد ستارنس. لقد كان تحفة رائعة في ذلك الزمن، إنّه مكتب مصنوعٌ من خشب الماهوجني الصلب. لذلك نقلته بعربة إلى المنزل. ولم يعرف بعض المديرين التنفيذيّين من استولى عليه. وكان الشيخ يملك حمّامًا لم أرَ مثله من قبل، ببابٍ زجاجيّ رُسِمت على زجاجه حوريّةُ البحر. كان تحفة فنّيّة حقيقيّة، وأكثر إثارة من أيّ لوحة زيتيّة. لذلك امتلكت الحقّ في رفع ذلك الحمّام ونقله إلى هنا. وماذا تتصوّر أنّي أفعل بحقّ الجحيم، لقد كنت أملكها، أليس كذلك؟ كان من حقّي الحصول على كلّ شيء قيّم من ذلك المصنع.

ـ ممّن اشتريت المصنع؟

ـ أوه، حدث ذلك بعد الانهيار الكبير للبنك الأهليّ الوطنيّ في ماديسون. يا فتى، وهل ذلك مجرّد حادث تحطّم! لقد كان على وشك إنهاء ولاية ويسكونسن بأكملها. وبالتأكيد أنهى ذلك الجزء من تلك الولاية. يقول البعض إنّ مصنع المحرّكات ذاك هو الذي تسبّب في خراب ذلك البنك، لكنّ البعض الآخر يقول إنّه كان آخر قطرة في دلوٍ مثقوب أصابه التسرّب، لأنّ البنك الأهليّ الوطنيّ كان يملك استثمارات في ثلاث ولايات أو أربع. يوجين لوسون كان رئيس ذلك البنك. ذاك المصرفيّ ذو القلب الرحيم، بإمكانكم الاتّصال به. لقد اشتهر جدًّا في تلك النواحي قبل عامين أو ثلاثة.

ـ هل كان لوسون يدير المصنع؟

ـ لا. لقد أقرض المصنع مالًا كثيرًا، أكثر ممّا كان يأمل في حصده من ذلك المصبّ القديم للنفايات. وعندما أصيب المصنع بالإفلاس، كانت تلك القشّة الأخيرة التي قصمت ظهر جين لوسون. فقد أفلس المصرف بعد ذلك بثلاثة أشهر. أصيب الناس بصدمة شديدة، لأنّهم خسروا جميع مدّخراتهم في البنك الأهليّ الوطنيّ.

ونظر العمدة باسكوم بأسفٍ إلى بلدته وراء أسوار شرفته. كان يشير برعشة من إبهامه إلى شخصيّة عبر الشارع: إنّها خادمة ذات شعر أبيض، تتحرّك على ركبتيها

بشكل مؤلمٍ، تنظّف ممشى أحد المنازل.

ـ هل رأيت تلك المرأة؟ لقد كانوا أناسًا متماسكين محترمين. كان زوجها يملك متجرًا للسلع الجافّة. عمل طوال حياته لإعالتها في شيخوختها، وقد توفّي وهو يعمل... ثمّ ساءت أحوالهم لأنّ مالهم كان مدّخرًا في البنك الأهليّ الوطنيّ.

ـ من كان يدير المصنع عندما أفلس؟

ـ أوه، كانت تديره شركة الخدمات المدمجة، إنّها مجرّد فطريّات منتفخة. لذلك أفلس المصنع بسرعة.

ـ وأين يمكن أن نجد أعضاء تلك الشركة؟

ـ أين ستجد الفطريّات المنتفخة عندما تنفجر في الهواء على سحابة تشبه الدخان ثمّ تندثر؟ حاول تعقّبهم في جميع أنحاء الولايات المتّحدة الأمريكيّة. جرّب ذلك.

ـ وأين يوجين لوسون؟

أوه، أمّا هو، فقد أبلى بلاءً حسنًا. لقد حصل على وظيفة في واشنطن بمكتب التخطيط الاقتصاديّ والموارد الوطنيّة.

نهض ريردن بسرعة كبيرة، وألقى برجليه في غضبٍ، ثمّ قال، وهو يتمالك نفسه:

ـ شكرًا على المعلومات.

ـ ردّ العمدة باسكوم بهدوء: لا شكر على واجب يا صديقي، على الرحب والسعة. لا أعلم ما الذي تبحثان عنه، لكن اعملْ بنصيحتي، وتخلَّ عن هذا الأمر. لا يوجد شيء يمكن استخراجه من هذا المصنع.

ـ قلت لك إنّنا نبحث عن صديق لنا.

ـ حسنًا، تدبّر أمرك. لا شكّ أنّه صديق جيّد جدًّا، مادمتَ ستمرّ بمتاعب كثيرة من أجل العثور عليه، أنت والسيّدة الساحرة التي يبدو أنّها ليست زوجتك.

رأت داغني أنّ لون وجه ريردن أصبح أبيض، حتّى إنّ شفتيه لا يمكن تمييزها من

بشرته، ثمَّ قالت:

ـ أَبقِ قذارتك بعيدًا عنّا...

همَّ بمقاطعتها، لكنّها تدخّلت بينهما. وسألته بهدوء:

ـ لماذا تعتقد أنّني لست زوجته؟

وبدا عمدة باسكوم مندهشًا من ردّ فعل ريردن، لأنّه أبدى تلك الملاحظة من غير خُبثٍ مسبّق. فردّ بطيبة عفويّة:

ـ سيّدتي، لقد تعرّفت على أناس كثيرين في حياتي.المتزوّجون لا يبدون كما لو أنّهم يحملون في أذهانهم غرفةَ نوم عندما يتبادلون النظرات. في هذا العالم، إمّا أن تكون فاضلًا وإمّا أن تستمتع بنفسك. ليس كلاهما يا سيّدتي، ليس كلاهما.

توجّهت بالكلام إلى ريردن في الوقت المناسب لإسكاته: لقد سألته سؤالًا، فأعطاني تفسيرًا مفيدًا.

قال عمدة باسكوم: إذا كنت تريدين نصيحة منّي، فاحصلي لنفسك على خاتم زفاف من متجر الألعاب وضيّعيه. لن يكون بالتأكيد رمزًا لنار العشق، لكنّه سيساعد على ذلك.

قالت: شكرًا لك، وداعًا.

كان أسلوبها الهادئ والصارم بمثابة الأمر الذي جعل ريردن يتبع خطاها عائدَين إلى سيّارتهما في صمت.

كانا على بعد أميال من المدينة حين قال لها، دون أن ينظر إليها، بصوت يائس ومنخفض:

ـ داغني، داغني، داغني... أنا آسف!

ـ أنا لست آسفة.

وبعد لحظات، عندما رأت نظرة التسلّط تعود إلى وجهه، قالت:

ـ لا تغضب أبدًا من رجل يتفوّه بالحقيقة.

ـ هذه الحقيقة بالذات لم تكن من شأنه.

ـ لم يكن من شأنك أو شأني الاعتراض على تقديره الخاصّ للمسألة.

قال والكلام ينساب منه دون إرادة: لم أستطع حمايتك من ذلك القليل الذي لا يوصف..

ـ لم أكن بحاجة إلى حماية.

ظلّ صامتًا لا ينظر إليها. ثمّ قالت:

ـ هانك، عندما تجد نفسك قادرًا على كظم غيظك غدًا أو في الأسبوع المقبل، امنح نفسك بعض الوقت للتفكير في تفسير ذلك الرجل وحاول إدراك وجاهة جزء من كلامه.

هزّ رأسه لإلقاء نظرة عليها، لكنّه لم يقل شيئًا. وحين تحدّث، بعد وقت طويل، فإنّ ذلك لم يكن سوى محاولة ليقول بصوت متعب:

ـ لا يمكننا ربط اتّصال بنيويورك واستقدام مهندسينا لتفتيش المصنع. لا يمكننا أن نلقاهم هنا ولا أن ندعهم يعلمون أنّنا وجدنا المحرّك معًا... لقد نسيت كلّ ذلك... هناك... في المختبر.

ـ اسمح لي حين نجد الهاتف بأن أجري مكالمة مع إيدي. سأجعله يرسل المهندسين من طاقم شركة تاجارت. فأنا هنا بمفردي في إجازتي، وهذا كلّ ما سيعرفونه أو ما يجب أن يعرفوه.

وسارا مسافة مائتي ميلٍ قبل أن يجدا خطّ هاتف يستطيعان أن يجريا منه مكالمة إلى مكان بعيد. وحين اتّصلت بإيدي ويلرز كان يلهث:

ـ داغني! بالله عليك، أين أنت؟

ـ في ويسكونسن. لماذا؟

ـ لم أجد طريقة للاتّصال بك. من الأفضل أن تعودي حالّا وفي أسرع وقت ممكن.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء حتّى الآن. ولكن ثمّة أشياء تجري هنا، إنّها... من الأفضل أن توقفيهم الآن إذا استطعت إلى ذلك سبيلا. أو إذا كان أيّ شخص يستطيع ذلك.

ـ عمَّ تتحدث؟

ـ ألم تقرئي الصحف؟

ـ لا.

ـ لا أستطيع إخبارك بالأمر عبر الهاتف. لا أستطيع مَدَّك بكلّ التفاصيل. قد تقولين إنّني مجنون، لكن أرى أنّهم يخطّطون لقتل كولورادو.

ـ سأعود حالًّا.

***

تحت محطّة تاجارت كانت هناك أنفاق تقطع جرانيت مانهاتن، وقد استُخدمت سابقًا كخطوط سكك جانبيّة وقتَ الذروة، وفيها كانت حركة المرور تعمل في تيّارات النقر من خلال كلّ شريان في المحطّة كلّ ساعة من اليوم. وعلى مرّ السنين تقلّصت الحاجة إلى ذلك الفضاء مع تقلّص حركة المرور، وهُجرت الأنفاق الجانبيّة، مثل أَسِرَّةِ الأنهار الجافّة؛ فبقي عدد قليل من الأضواء مثل بقع زرقاء على الجرانيت فوق القضبان المتروكة للصدإ على الأرض.

وضعت داغني بقايا المحرّك في قبو بأحد تلك الأنفاق، ولكنّ ذلك القبو كان في الماضي يحتوي على مولّد كهربائيّ للطوارئ أزيل منذ فترة طويلة. لم تكن تثق في الشباب العديمي الفائدة من موظّفي قسم الأبحاث في شركة تاجارت؛ كان بينهم مهندسان موهوبان فقط، يمكنهما أن يقدّرا اكتشافها. فشاركتهما سرّها وأرسلتهما لتفتيش المصنع في ولاية ويسكونسن. ثمّ أخفت المحرّك حيث لا أحد يستطيع أن يهتدي إليه.

وحين حمل عمّالها المحرّك إلى القبو وغادروا، كانت على وشك أن تتبعهم وتغلق الباب الفولاذيّ، لكنّها توقّفت، والمفتاح في يدها، وكأنّ الصمت والعزلة قد ألقيا بها فجأة في المشكلة التي واجهتها منذ أيّام، بل وكأنّ تلك اللحظة مناسبة لاتّخاذ قرارها.

كانت عربة مكتبها بانتظارها في إحدى منصّات المحطّة، وقد ارتبطت بنهاية القطار المقرّر أن يغادر إلى واشنطن خلال دقائق قليلة. كانت قد ضربت موعدًا للقاء يوجين لوسون، لكنّها قالت في نفسها إنّها سوف تلغيه وتؤجّل سعيها وراءه إذا أمكنها اتّخاذ بعض الإجراءات بمجرّد عودتها إلى نيويورك لمواجهة الأشياء التي وجدتها، أشياء توسّل إليها إيدي عبر الهاتف للعودة من أجلها ومكافحتها.

حاولت التفكير، لكنّها لم تستطع رؤية أيّ طريقة للقتال، لا قواعد للمعركة، ولا أسلحة. كان العجز تجربةً غريبة، وجديدة بالنسبة إليها؛ لم تجد صعوبة من قبل في مواجهة الأمور واتّخاذ القرارات؛ لكنّها لم تكن تتعامل مع الأشياء، بل تصارع ضبابًا دون أشكال أو تعريفات، يواصل فيه الشيء التشكّل والتحوّل قبل أن تصبح رؤيته ممكنةً، إنّه يشبه الجلطات في سائل بغير سيلانٍ تامٍّ كما لو أنّها ضيّقت عينَيها وركّزتهما في اتّجاه جانبيّ فشعرت بضبابيّة سَبَبُهَا الكوارث التي تلتفّ حولها، ولكنّها لم تتمكّن من تحريك نظرها، ولم تملك القدرة على التركيز ولا الرغبة في التحرّك.

لقد طالبت نقابة مهندسي القاطرات وسائقيها بتخفيض السرعة القصوى لجميع القطارات على خطّ جون جالت إلى ستّين ميلًا في الساعة. وكان اتّحاد موصّلات السكك الحديديّة والمكابح يطالب بتخفيض طول جميع قطارات الشحن على خطّ جون جالت إلى ستّين عربة. في حين طالبت ولاية وايومنغ ونيو مكسيكو ويوتا وأريزونا بألّا يتجاوز عدد القطارات التي تعمل في كولورادو عددَ تلك التي تعمل في كلّ الولايات المجاورة. أمّا المجموعة التي يترأّسها أورين بويل فقد طالبت بإقرار قانون الحفاظ على سبل العيش، وهو قانون من شأنه أن يحدّ من إنتاج معدن ريردن على نحوٍ تكون فيه كمّيّة إنتاجه مساويةً لإنتاج أيّ مطاحن أخرى للفولاذ. وطالبت مجموعة يرأسها السيّد موين بإقرار قانون الحصص العادلة لإعطاء كلّ عميل

إمداداتٍ متساويةً من معدن ريردن. بينما طالبت مجموعة أخرى برئاسة بيرترام سكودر بإقرار قانون الاستقرار العامّ الذي يحظر على شركات الأعمال الشرقيّة الخروجَ من ولاياتها.

وأصدر ويسلي ماوتش، كبير منسّقي مكتب التخطيط الاقتصاديّ والموارد الوطنيّة، عددًا كبيرًا من البيانات، لا يمكن تحديد مضمونها وغرضها، باستثناء عبارتَي سلطات الطوارئ والاقتصاد غير المتوازن ظهرا كالظلّ في النصّ كلّ بضعة أسطر.

ـ سألها إيدي ويلرز بنبرة هادئة لكنّها تضجّ نحيبًا: داغني، بأيّ حقّ؟ بأيّ حقّ يطالبون جميعهم بهذه الأمور؟ بأيّ حقّ؟

كانت قد واجهت جيمس تاجارت في مكتبه وقالت له:

ـ جيم، هذه معركتك. لقد حاربت في جميع معاركي، ومن المفترض أن تكون خبيرًا في التعامل مع اللصوص من أمثال هؤلاء، ينبغي عليك أن توقفهم.

قال تاجارت، من دون أن ينظر إليها: لا يمكنك أن تتوقّعي من إدارة الاقتصاد الوطنيّ خدمةَ مصالحك الخاصّة.

ـ لا أريد أن أدير الاقتصاد الوطنيّ! أريد فقط ممّن يديرون اقتصادك الوطنيّ أن يتركوني وشأني! أملك سكّة حديديّة لأديرها، وأعرف ما سيحدث لاقتصادك الوطنيّ إذا انهارت هذه السكّة!

ـ لا أرى ضرورة للذعر.

ـ جيم، هل يجب أن أشرح لك أنّ دَخل خطّ ريونورتيي هو كلّ ما نملك، أليس هو الذي ينقذنا دومًا من الانهيار؟ نحن نحتاج إلى كلّ مليم منه، وكلّ أجرة، وكلّ حمولة عربة شحن؟

لم يجبها. فتساءلت: ما الذي سيحدث إذا خفّضنا سرعة القطارات وطولها؟

ـ حسنًا، ثمّة شيء يمكن أن يقال ليبرّر وجهة نظر النقابات أيضًا. فبسبب إغلاق

الكثير من شركات السكك الحديديّة وفقدان رجال كثيرين للعمل، هم يشعرون بأنّ تلك السرعات الإضافيّة التي أدخلتها على خطّ ريونورتي غير عادلة؛ ويشعرون بأنّه ينبغي أن يوجَد المزيد من القطارات لكي يقسم العمل بالتناوب؛ وأنّه ليس من العدل أن نستفرد بكلّ أرباح السكك الحديديّة الجديدة، إنّهم يريدون حصّة منها.

ـ من يريد حصّة منها؟ ومقابل ماذا؟ ومن سيتحمّل تكلفة قطارين ينجزان عمل قطار واحدٍ؟ ومن أين ستحصل على العربات والمحرّكات؟ وماذا سيفعل هؤلاء الرجال بعد أن يضعوا شركة تاجارت العابرة للقارّات خارج الخدمة؟

لم يجب عن أسئلتها، بل قال:

ـ أنوي فعلًا حماية مصالح شركة تاجرت العابرة للقارّات.

ـ كيف؟ هل بإلغاء خطّ كولورادو؟

ـ أرى أنّه، قبل تفكيرنا في منح فرصة للناس الذي يرغبون في التوسّع، يجب أن نمح هذه الفرصة أوّلًا للناس الذين يتصارعون من أجل البقاء على قيد الحياة.

ـ إذا ألغيت خطّ كولورادو، فما الذي سيتبقّى للصوص الملاعين حتّى يبقوا على قيد الحياة؟

ـ لقد كنت دائمًا تعارضين كلّ تدبير اجتماعيّ تقدُّميّ. ولعلّي أتذكّر أنّك كنت تتنبّئين بحدوث كارثة عندما مرّرنا (قانون مكافحة أكل الكلب للكلب)، ولكنّ الكارثة لم تحدث بتاتًا.

ـ لأنّي أنقذتكم أيّها الحمقى الفاسدون! لا أستطيع إنقاذكم هذه المرّة!

تجاهلها، ولم ينظر إليها، ثمّ أضافت:

وإذا لم أنقذكم أنا، فمن الذي سيتطوّع لإنقاذكم هذه المرّة؟

لكنّه لم يجب على سؤالها.

لم يبدُ لها الأمر حقيقيًّا هناك تحت الأرض. فبالتفكير في الأمر هناك، كانت تعرف أنّه لا يمكنها أن تحظى بأيّ دور في معركة جيم. ولم يكن بوسعها اتّخاذ أيّ إجراء ضدّ

رجال يحملون أفكارًا غير معروفة وتحرّكهم دوافع غامضة ويرمون إلى أهداف غير محدّدة. لم يكن هناك شيء يمكن أن تقوله لهم، لأنّه لا أحد سيسمعها أو يجيبها. وما قيمة الأسلحة في عالم لم يعد فيه العقل سلاحًا؟ كان عالمًا لا تستطيع دخوله، وعليها أن تترك الأمر لجيم وتعوّل على مصلحته الذاتيّة. وبغباء شعرت بلسعة برد من فكرة تخبرها بأنّ المصلحة الذاتيّة ليست الدافع الذي يحرّك جيم.

ثمّ نظرت إلى الكائن المعروض عليها، في علبة زجاجيّة تحتوي بقايا المحرّك. من يكون الرجل الذي صنع المحرّك. وفكّرت فجأةً، وأتتها الفكرة مثل صرخة يأس. لقد شعرت بلحظة من الشوق العاجز إلى العثور عليه، للاتّكاء عليه والسماح له بأن يقول لها ما يجب فعله. عقل مثله سيعرف الطريق إلى الفوز بتلك المعركة.

نظرت حولها. في عالم الأنفاق تحت الأرض، ذاك العالم النظيف والعقلانيّ، لم يكن هناك شيء مهمٌّ بإلحاحٍ مثل مهمّة العثور على الرجل الذي صنع المحرّك. ثمّ فكّرت: هل يمكنها تأخير ذلك من أجل الجدال مع أورين بويل والتبرير للسيّد موين والتوسّل لبيرترام سكودر؟ تخيّلت المحرّك مكتملا ومُدمجا في قاطرة تسحب قطارًا من مائتي عربة على مسار معدن ريردن بسرعة مائتي ميلٍ في الساعة. لو أنّ الرؤية في متناولها، وفي حدود الممكن، هل كان لها أن تتخلّى عنها وتقضّي وقتها في المساومة على سرعة تناهز ستّين ميلًا بستّين عربة؟ هي لا تستطيع الانحدار إلى وجودٍ يمكن لذهنها فيه أن ينفجر تحت ضغط إجبار نفسها على عدم الابتعاد عن عدم الكفاءة. إنّها لا يمكن أن تعمل وفق قاعدة: اصمت، هدّئ من روعك، تحرّك ببطء، لا تقدّم أفضل ما لديك، فهذا غير مطلوب!

تحوّلت بحزمٍ وغادرت القبو، لتستقلّ القطار إلى واشنطن.

بدا لها، وهي تغلق الباب الفولاذيّ، وكأنّها سمعت صدى خطواتٍ خافتًا. ثمّ لمحت صعودا وهبوطا في منحنى ظلام النفق. لم يكن في الأفق أحدٌ؛ لم يكن ثمّة شيء سوى سلسلة من الأضواء الزرقاء تلمع على جدران من الجرانيت الرطب.

***

لم يستطع ريردن محاربة العصابات التي طالبت بحزمة من القوانين. لا يملك أكثر من خيارين؛ محاربتهم أو إبقاء مطاحنه مفتوحة. لقد فَقَدَ إمداداته من خام الحديد، وعليه أن يخوض إحدى المعارك، لأنّه لا يملك وقتًا لكليهما.

بعد عودته وجد أنّ شحنة مقرّرة من الخام لم تسلَّم بعد. ولم يسمع أيّ كلمة أو تفسير من لاركين. وعندما استُدعِي لاركين إلى مكتب ريردن، ظهر بعد ثلاثة أيّام من الموعد المُعيَّن، ولم يقدّم أيّ اعتذار. قال، من دون أن ينظر إلى ريردن، وفمه منقبض بإحكامٍ في تعبير عن كرامة لا تخلو من حقدٍ:

ـ بعد كلّ شيء، لا يمكنك أن تأمر الناس بالقدوم راكضين إلى مكتبك في أيّ وقت يحلو لك.

تكلّم ريردن ببطء ودقّة: لماذا لم يسلّم الخام؟

ـ لن أتعرّض للإساءة، بل لن أتعرّض ببساطة لأيّ إساءة من شيء كان خارجًا عن إرادتي. يمكنني تشغيل المنجم تمامًا كما كنت تشغّله، وكذا إدارة كلّ جزء فيه، لقد أنجزت كلّ الأشياء التي كنت تنجزها، لكن لا أعلم لماذا يوجد دومًا خطأ بشكل غير متوقّع. لا يمكن أن أُلامَ على ما هو غير متوقّع.

ـ لمن شحنت خامك الشهر الماضي؟

ـ كنت أنوي شحن حصّتك منه، لقد نويت ذلك فعلًا، لكنّني لم أنجح، لأنّنا فقدنا عشرة أيّام من الإنتاج الشهر الماضي بسبب العاصفة الممطرة في كامل منطقة شمال مينيسوتا. كانت نيّتي حسنة، لذلك لا يمكنك لومي.

ـ إذا توقّف أحد الأفران، هل سأغذّيه بنيّتك الصادقة؟

ـ لهذا السبب لا يمكن لأحد التعامل معك أو التحدّث إليك، لأنّك غير إنسانيّ.

ـ لقد علمت للتوّ أنّك، على امتداد الأشهر الثلاثة الماضية، لم تكن تشحن خامك على متن قوارب البحيرة، كنت تشحنه عن طريق السكك الحديديّة. لماذا؟

ـ حسنًا، في كلّ الأحوال أنا أملك الحقّ في إدارة أعمالي بالطريقة التي أراها مناسبة.

ـ لماذا أنت على استعداد لدفع تكلفة إضافيّة؟

ـ وما الذي يهمّك في هذا الأمر؟ فأنا لا أتقاضى منك فلسًا.

ـ ماذا ستفعل عندما لا تستطيع تحمّل تكاليف الشحن عبر السكك الحديديّة وتعرف أنّ كلّ ما فعلته هو تدمير عمليّات الشحن في البحيرة؟

ـ أنا متأكّد من أنّك لا تولي أهمّيّة لشيء غير المال، ولكنّ بعض الناس يتحمّلون مسؤوليّاتهم الاجتماعيّة والوطنيّة.

ـ ما هي هذه المسؤوليّات؟

ـ حسنًا، أعتقد أنّ السكك الحديديّة من قبيل شركة تاجارت العابرة للقارّات أمر ضروريّ للرفاه الوطنيّ، ومن الواجب العامّ أن يدعم المرء خطّ فرع جيم مينيسوتا، الذي تعطّل الآن.

مال ريردن إلى الأمام، ثمّ بدأت تظهر له أشياء لم يفهمها قطّ. فسأله برويّةٍ:

ـ إلى من شحنت خامك الشهر الماضي؟

ـ حسنا، هذا هو عملي الذي..

ـ إلى أورين بويل، أليس كذلك؟

ـ لا يمكنك أن تتوقّع من الناس تضحيتَهم بكلّ ما في البلاد من صناعة الصلب حمايةً لمصالحك الأنانيّة و..

قال ريردن: اخرج من هنا.

ـ لا تسئ فهمي، لم أقصد.

ـ اخرج.

خرج لاركين أخيرًا.

ثمّ تبعت ذلك أيامٌ وليالٍ من البحث في القارّة بواسطة الهاتف والطائرات عن المناجم المهجورة، وأُقِرَّ التخلّي عن المناجم الجاهزة في المؤتمرات المتوتّرة والمستعجلة

الّتي تعقد على طاولات في زوايا المطاعم السيّئة السمعة. وبالنظر عبر الطاولة، كان على ريردن أن يقرّر مدى المخاطرة في الاستثمار وفق دليل وحيد قد يُرصَد على وجه الرجل وطريقته في الكلام ونبرة صوته، وكره الحكم على الحالة التي يجب أن نأمل فيها الصدق بوصفه امتيازًا، بل بوصفه مخاطرة، تُصرَف فيها الأموال لأيدٍ مجهولة مقابل وعودٍ غير مدعومة، في قروض غير موقّعة وغير مسجّلة لأصحاب مناجم فاشلة. الأموال التي سُلِّمت وأُخذت نقدًا مجهولَ الهويّة على نحو خفيّ، كتبادل بين المجرمين، ؛ فتدفّقت الأموال إلى عقود غير قابلة للتنفيذ من كلا الطرفين، مع العلم أنّه في حالة الاحتيال، كان يجب معاقبة المحتالين، وليس المحتال، ولكنّ سكب ذلك التيّار من الخام قد يستمرّ في التدفّق إلى الأفران، وقد تستمرّ الأفران في صبّ تيّار من المعدن الأبيض.

سأله مدير المشتريات بمصانعه: سيّد ريردن، إذا كنت ستستمرّ على هذا النحو، فكيف ستجني الأرباح؟

ـ سنعوّضها في الحمولة. نملك سوقًا غير محدودة لمعدن ريردن.

كان مدير المشتريات رجلًا مسنًّا بشعر رماديّ، ووجه جافّ وقلب رحيم. يقول عنه الناس إنّه نذر نفسه حصرًا لمهمّة الضغط على كلّ أوقية مقابل الحصول على سنت واحد. وقف أمام مكتب ريردن، ولم يقل شيئًا آخر، بل اكتفى بالتحديق فيه بعينين باردتَين وقاتمتَين. كانت نظرة متعاطفة لم يرَ ريردن مثلها على الإطلاق.

وقال ريردن في نفسه إنّه لم تعد هناك دورة أخرى مفتوحة للإنتاج، مثلما اعتقد في الأيّام والليالي الموالية. لم يكن يعرف أسلحةً سوى أن يدفع ثمن ما يريد، ويعطي قيمة مقابل قيمة أخرى، ولا يطلب شيئًا من الطبيعة دون مقايضة، كما يأخذ شيئًا من الرجال دون مقابل وتعويض. وقال في نفسه: ما قيمة الأسلحة في الوقت الذي لم تعد فيه القيم سلاحًا أصلًا؟

سأله مدير المشتريات على نحو جافّ: سوق غير محدودة؟

لمحه ريردن وردّ على الأفكار غير المعلنة التي علقت بذهنه:

ـ أعتقد أنّني لم أعد ذكيًّا بما يكفي لكي أبرم اليوم الصفقات اللّازمة.

قال مدير المشتريات رافعًا رأسه: لا يا سيّد ريردن، يجب عليك الفصل بين هذا وذاك؛ فالذهن لا يستطيع تحقيق هذين الأمرين معًا، فإمّا أن تكون جيّدًا في إدارة المطاحن أو أن تكون جيّدا في الهرع إلى واشنطن.

ـ ربّما يجب عليّ أن أتعلّم طريقتهم في إدارة شؤونهم.

ـ لن تتمكّن من تعلّمها، ولن تفيدك في شيء. ولن تفوز في أيّ واحدة من تلك الصفقات، ألا تفهم؟ أنت من يمتلك شيئًا ينهبُه الناس منه.

وعندما تُرك وحيدًا، شعر ريردن بموجة من الغضب الأعمى، مثل تلك التي اجتاحته من قبل، كانت موجةً مؤلمة وفريدة ومفاجئة مثل صدمة كهربائيّة. قد ينفجر الغضب من معرفة أنّ المرء لا يستطيع التعامل مع الشرّ الخالص، الشرّ العاري، بالوعي الكامل الذي لا يملك. ولكن حين شعر ريردن برغبة في القتال والقتل في قضيّة دفاعه عن نفسه، رأى الوجه السمين والابتسامة العريضة للعمدة باسكوم وسمع صوته وهو يقول: ...أنت والسيّدة الساحرة التي ليست زوجتك.

ثمّ لم يبقَ له أيّ سبب شرعيّ، وتحوّل ألم الغضب إلى ألم مخزٍ من الخضوع. لم يكن له الحقّ في إدانة أيّ شخص وفي التنديد بأيّ شيء، والقتال والموت بفرحٍ، مدّعيًا معاقبة الفضيلة. فالوعود المخترقة، والرغبات غير المعترف بها، والخيانة، والخداع، والأكاذيب، والاحتيال كلّها كانت ذنوبا اقترفوها جميعًا. فما هو شكل الفساد الذي يمكن أن يحتقره؟ لم تعد الدرجات تهمّ. وقال في نفسه إنّ على المرء ألّا يساوم حتّى بشأن بوصات قليلة من الشرّ.

عندما كان يَجلس منهارًا بمكتبه يفكّر في الصدق الذي ما عاد يُمكنه ادّعاؤه، والحسّ القاسي بالعدالة الذي افتقده، لم يكن يعلم أنّ صدقه الصلب وحسّه القاسي بالعدالة هو ما يُفقده سلاحه الوحيد. إنّه يريد أن يحارب اللصوص لكنّ غضبه وناره أفلتَا. كان سيقاتل ضدّ الآخرين، ولكن فقط مثل فرد بائس ومذنب. لم ينطق بالكلمات، لكنّ الألم فضحها، ذلك الألم القبيح الذي يقول: من أكون لألقي الحجر

الأوّل؟

ترك جسده يتهاوى على المكتب... ثمّ قال في نفسه: داغني هي الحلّ، فإذا كانت هي الثمن الذي يجب عليَّ دَفْعُه، فإنّني سأدفعه... كان لا يزال ذلك التاجر الذي لا يعترف بأيّ قاعدة أخلاقيّة إلّا التعبير الواضح عن رغباته.

تأخّر الوقت حين عاد إلى المنزل، فسارع بالنزول في صمتٍ من فوق الدرج إلى غرفة نومه. كان يكره اختزال نفسه في التسلّل الصامت إلى منزله، لكنّه يفعل ذلك في معظم الأماسي وعلى امتداد شهور عديدة. إنّه لم يعد يطيق رؤية عائلته، ولكن دون معرفة السبب. قال في نفسه: لا تكرههم بسبب ذنبك الخاصّ. لكنّه لم يكد يعلم أنّ ذلك ليس سبب هذه الكراهية.

أغلق باب غرفة نومه مثلما يفوز هارب ملاحَق بمهلة اللحظة الأخيرة. تحرّك بحذر، وخلع ملابسه لينام. كان يحاول ألّا يُصدِر أيَّ صوت يدلّ على وجوده، لأنّه لم يرغب في أيّ اتّصال بالعائلة.

كان قد ارتدى بيجامته وتوقّف لإشعال سيجارة، حين فُتِحَ باب غرفة نومه. فمن يكون هذا الزائر غير المرغوب فيه الذي فتح الباب علمًا، أنّ زوجته هي الشخص الوحيد الذي يستطيع الدخول إلى غرفته دون طرق أو استئذان. كان يحدّق في الفراغ قبل أن يدرك أنّ ليليان هي التي دخلت.

كانت ترتدي ملابس من الطراز الإمبراطوريّ بلون أخضر مصفرّ شاحب، وتنّورة ذات طيّات تنساب برشاقة من خصرها العالي؛ فلا يمكن للمرء أن يجزم للوهلة الأولى بها إذا كان ما ترتديه ثوب سهرة أو عباءة. لقد كانت بالفعل عباءة. توقّفت في المدخل، وخطوط جسدها تجتاح المكان في صورة ظلّيّة جذّابة تواجه الضوء.

قالت بهدوء: أعلم أنّه ليس عليّ تقديم نفسي لشخص مألوف، ولكن أظنّ أنّ من واجبي فعل ذلك: اسمي السيّدة ريردن.

لم يكن متأكّدًا ممّا إذا كان ما تفوّهت به ليليان سخرية أم التماسًا. ثمّ دخلت وأغلقت الباب بطريقة عنيفة.

سألها بهدوء: ما خطبك؟

ـ بصراحة، لا يتوجّب عليك أن تعترف بالكثير.

كانت تمشي بطريقة متأنّية في الغرفة، متجاوزةً سريره، ثمّ جلست على كرسيّ بذراعين، وأضافت:

ـ لسبب وجيه أحتاج إلى أن أنعم بقليل من وقتك. هل عليّ أن آخذ موعدًا بشكل مسبّق مع سكرتيرتك؟

وقف وسط الغرفة، وهو يحمل سيجارة بين شفتيه، ثمّ نظر إليها، دون أن يجيب.

ضحكت وقالت: سببي غير عاديّ إلى درجة أنّه لن يخطر ببالك أبدًا. إنّه الوحدة يا عزيزي. هل ترغب في أن ترمي إلى متسوّل بعضَ الفتات من اهتمامك الثمين؟ هل تمانع إذا بقيت هنا دون أيّ سبب رسميّ على الإطلاق؟

قال بهدوء: لا، إذا كنت ترغبين في ذلك.

ـ لا أملك موضوعًا مهمًا يمكنني أن أفتح فيه نقاشًا معك. لا أريد أن أناقش معك لا صفقات عابرة للقارّات، ولا قضبان سكك حديد، ولا جسورًا، ولا حتّى الوضع السياسيّ. إنّما أريد فقط أن أثرثر كما تثرثر امرأة بشأن أشياء غير مهمّة تمامًا.

ـ تفضّلي.

ـ هنري، لا توجد طريقة أفضل لإيقافي، أليس كذلك؟

ثمّ اعتراها شعور بإخلاص عاجز ومناشِد للشفقة، ثمّ أضافت:

ـ ماذا يمكنني أن أقول بعد ذلك؟ لنفترض أنّني أردت إخبارك عن الرواية الجديدة التي يكتبها بالف يوبانك، وأنّه سيهديها إليّ، هل سيثير هذا الموضوع اهتمامك؟

ـ إذا كنت تريدين الحقيقة أو على الأقلّ تسعَين إليها.

ضحكت، ثم ردّت: وماذا لو كنت لا أريد الحقيقة؟

أجابها: حينها لن أعرف ما سأقول.

شعر بأنّ الدم يندفع في دماغه بحدّة تشبه الصفعة، وأدرك فجأة العار المضاعف لكذبة تُلفظ في شكل احتجاج ينمّ عن شرفٍ؛ وقالها بصدق، لكنّ كلامه تضمّن نبرة من التباهي الذي لم يعد لديه أيّ حقّ فيه. فتساءل:

ـ ما الذي تبحثين عنه غير الحقيقة؟ وما الغاية من سؤالك؟

ـ هذه هي قسوة الناس من أصحاب الضمائر الحيّة. لنتفهّم هذا الأمر، أليس كذلك؟ إذا أجبتك بأنّ التفاني الحقيقيّ يتكوّن من الاستعداد للكذب والغشّ والتزييف من أجل جعل شخص آخر سعيدًا، أي أن نخلق له الواقع الذي يريده، حين لا يعجبه الواقع القائم.

قال ببطء: لا، لن أفهم ذلك.

ـ الأمر بسيط جدًّا. إذا أخبرت امرأةً جميلة بأنّها جميلة، فماذا أعطيتها؟ إنّها ليست أكثر من حقيقة لن تكلّفك أيّ شيء. ولكن إذا كنت ستقول لامرأة قبيحة إنّها جميلة، فأنت تكرمها إكراما عظيمًا. أن تحبّ امرأة لفضائلها فهو أمر خالٍ من المعنى، لأنّها اكتسبت تلك الفضائل، ودفعت مقابل ذلك. ففضائلها على هذا النحو ليست هديّةً. ولكن أن تحبّها من أجل رذائلها فهي هديّة حقيقيّة، غير مكتسبة وغير مستحقّة. إنّ حبّها من أجل رذائلها هو تدنيس لكلّ فضيلة من أجلها، وهذا تكريم حقيقيّ للحبّ، لأنّك تضحّي بضميرك وعقلك ونزاهتك واحترامك لذاتك الذي لا يقدَّر بثمن.

نظر إليها نظرة خاوية. وبدا الأمر وكأنّه نوع من الفساد الوحشيّ الذي يحول دون إمكان التساؤل عمّا إذا كان أيّ شخص يمكن أن يعني ذلك؛ وما إذا كان يمكن لأيّ شخص أن يقصد ذلك. وتساءل فقط ما هي الفائدة من التلفّظ به.

ـ ما الحبّ يا حبيبي، إذا لم يكن يعني التضحية بالنفس؟

وواصلت حديثها على نحوٍ لطيف، كأنّما هو نقاش يدور في مرسم:

ـ وما التضحية بالنفس؟ أليست هي أن يضحّي المرء بأثمن شيء يملكه؟ لكنّني لا أتوقّع منك أن تفهم ذلك. لا يمكن لإنسان طُهوريّ يشبه الفولاذ المقاوم للصدإ مثلك أن يفهم مثل هذه الأمور. هذه هي الأنانيّة الهائلة للطهوريّين. أنت تريد أن تدع العالم كلّه يهلك عوضًا عن اتّساخ بقعة واحدة من تربة نفسك النقيّة الطاهرة من فعلٍ قد تخجل منه.

ردّ ببطء، وبنبرة متوتّرة على نحوٍ غريبٍ: لم أزعم قطّ أنّي طاهر.

قالت بعد أن ضحكت: وما الأمر الذي أنت عليه الآن؟ أنت تقدّم لي إجابة صادقة، أليس كذلك؟

كانت تخاطبه وهي تتجاهل كتفيها العاريتَين:

ـ أوه، حبيبي، يبدو أنّك لا تأخذ كلامي على محمل الجدّ! أنا فقط أتحدّث دون جدوى.

رمى سيجارته على الأرض ثمّ أطفأها. لكنّه لم يتفاعل مع كلامها. فقالت:

ـ عزيزي، لقد جئت إلى هنا فقط لأنّني فكّرت دومًا أنّ لي زوجا وأردت الاطمئنان على حالته.

ظلّت تدرس ملامحه وهو واقف بشكل مستقيم، بينما كانت خطوط جسده المفتولة تؤكّد تناسقه مع لون بيجامته الأزرق الداكن.

قالت: أنت جذّاب جدًّا. لقد بدوت في مزاج جيّد الأشهر القليلة الماضية. تمامًا كما تبدو أصغر سنًّا. وهذه العلامات قد تؤكّد أنّك سعيد جدًّا. إنّك تبدو أقلّ توتّرًا. أعلم أنّك مندفع وفي عجلة من أمرك أكثر من أيّ وقت مضى وأنّك تتصرّف كقائد في غارة جويّة، لكنّ هذا الأمر لا يعكس حقيقتك الداخليّة إذ تنعم بالهدوء والسكينة.

نظر إليها باندهاش. فكلّ ما قالته صحيح؛ لكنّه لم يكن يعرف ذلك، ولم يعترف به لنفسه. واستغرب من قوّة ملاحظتها ودقّتها. فهي لم ترَه إلّا في مناسبات قليلة خلال الأشهر القليلة الماضية. ولم يدخل غرفة نومها منذ عودته من كولورادو. وكان يعتقد أنّها سترحّب باعتزال أحدهما للآخر. وتساءل الآن ما الدافع الممكن الذي جعلها حسّاسة جدًّا لملاحظة تغيّره، إلّا إذا كان شعورًا أكبر بكثير ممّا اشتبه في أنّها تعيشه بمعاناة.

قال: لم أكن على علم بذلك.

ـ لقد أصبح الأمر مقلقًا يا عزيزي، بل ومحيّرا، نظرًا إلى أنّك تواجه مثل هذا الوقت العصيب جدًّا.

فكّر في ما إذا كان كلام ليليان يضمر سؤالًا. توقّفت، كما لو أنّها تنتظر جوابًا، لكنّها لم تضغط عليه فاستأنفت حديثها بفرح:

ـ أعلم أنّك تواجه مشاكل جمّة في المطاحن، وأنّ الوضع السياسيّ أصبح مشؤومًا، أليس كذلك؟ وأنّهم لو مرّروا كلّ تلك القوانين التي يتحدّثون عنها، فإنّك سوف تتضرّر كثيرا، أليس كذلك؟

ـ بلى. سأتضرّر كثيرًا. ولكنّ هذا الموضوع لا يهمّك يا ليليان، أليس كذلك؟

ـ أوه، بلى. يهمّني أمرُك كثيرًا!

رفعت رأسها ونظرت إليه مباشرة. كانت عيناها فارغتين من أيّ معنًى، وتحجبان نظرةً رآها من قبل، نظرة من الغموض المتعمّد والثقة في عدم قدرته على حلّها. ثمّ أضافت:

إنّه من الاهتمامات الكبرى بالنسبة إليّ... وإن لم يكن بسبب أيّ خسائر ماليّة محتملة.

فتساءل، لأوّل مرّة، عمّا إذا كان حقدها وسخريّتها والطريقة الجبانة في توجيه الشتائم تحت غلاف الابتسامة، تدلّ على عكس ما كان يظنّ دائمًا، فسلوكها إذَن ليس

أسلوبًا من أساليب التعذيب، بل هو شكل ملتوٍ من اليأس، وليس رغبة في جعله يعاني، بل هو اعتراف بألمها، ودفاع عن كبرياء زوجة غير محبوبة، وهو بمثابة الالتماس السرّيّ على نحوٍ لم يكن فيه سلوكها الخفيّ والمعبِّر والمراوغ، وكلّ الأشياء التي تتوسّل فهمها، من قبيل الخبث المنفتح ولكنّه كان ضربًا من ضروب الحبّ الخفي. ففكّر في الأمر بدهشة. لقد جعل ذنبه أكبر من المتوقَّع.

ـ لو كنّا بصدد التحدّث عن السياسة، يا هنري، لأخبرتك بفكرة طريفة خطرت لي، فكرة تتّصل بالجانب الذي تمثّله أنت. ما هو الشعار الذي تدافعون عنه جميعًا؟ أليس هو (قداسة العقد)؟

ثمّ ضحكت بصوت عالٍ. ففاجأها بالقول كأنّما يهدّدها:

ـ هيّا، استرسلي في كلامك.

ـ مادمتَ قد فهمت قصدي جيّدًا، فما الداعي إلى ذلك يا حبيبي؟

قال بنبرة قاسية: ما الذي كنت تنوين قوله؟

ـ هل ترغب حقًّا في دفعي إلى مربّع الشكوى المذلّة؟ مثل هذه الشكوى الشائعة تافهة جدًّا، وإن كنت أعتقد أنّ لي زوجًا يفخر بأنّه مختلف عن الرجال الذين هم أقلّ منه شأنًا. هل تريدُني أن أذكّرك بأنّك أقسمت ذات مرّة على جعل سعادتي هي الهدف من حياتك؟ وأنّه لا يمكنك أن تقول بكلّ صدق ما إذا كنت سعيدًا أم غير سعيد، لأنّك لم تستفسر حتّى عن وجودي؟

كلّ الأشياء التي جاءت تمزّقه معًا بشكل لا يصدّق شعر بها كمثل ألمٍ جسديٍّ. كانت كلماتها نداء، فوخزه تأنيب الضمير. شعر بالشفقة، ذلك القبح البارد للشفقة من دون مودّة. شعر بغضب خافت، مثل صوت حاول خنقه، صوت يبكي في اشمئزاز فيقول: لماذا يجب أن أتعامل مع كذبها الفاسد والملتوي؟ لماذا يجب أن أقبل التعذيب من أجل الشفقة؟ لماذا عليّ أن أتحمّل عبئا ميؤوسا من نتائجه في محاولة تجنّب شعور لن تعترف به، شعور لا أستطيع معرفته أو فهمه أو حتّى التكهّن به؟ إذا

كانت تحبّني، فلماذا لا تقول هذه الجبانة اللعينة ذلك وتدعنا نواجه الأمر في العراء معًا؟ ثمّ سمع صوتًا آخر أقوى من الأوّل يقول: لا تلقِ اللوم عليها، هذه أقدم خدعة يعرفها كلّ الجبناء، أنت مذنب. مهما يكُن ما تفعله فهو لا يساوي شيئا أمام ذنبك، إنّها على حقٍّ، هذا الأمر يجعلك تشعر بتأنيب الضمير، أليس كذلك؟ أن تعرف أنّها على حقّ؟– دعه يشعرك بالتأنيب، أيّها الزاني اللعين – إنّها على حقّ!

ـ سألها: وما الذي يجعلك سعيدة يا ليليان؟

ابتسمت، ثمّ استرخت على كرسيّها تراقب وجهه باهتمام، ثمّ قالت:

ـ أوه، يا عزيزي! هذا هو السؤال المخادع والثغرة وشرط الهروب.

نهضت، فتركت ذراعاها تتدلّيان في تجاهلٍ، ومدّدت جسدها بارتخاء، في لفتة رشيقة محمّلة بالعجز.

ـ ما الذي يمكن أن يجعلني سعيدة؟ هذا ما يجب عليك أن تخبرني به. هذا ما كان عليك أن تكتشفه من أجل إكرام عيني. أمّا أنا فلا أعلم. كنت تصنعه وتقدّمه لي، يتلخّص في ثقتك والتزامك ومسؤوليّتك. لكنّك لن تكون أوّل رجل يتخلّف عن هذا الوعد. إنّه أسهل الديون قابليّةً للتنصّل. أوه، ربّما لن تتهرّب من دفع الرهان على شحنة خام الحديد المسلّمة لك. فأنت ستراهن بحياتك من أجلها.

كانت تتحرّك في الغرفة على غير منهج، وطيّات الأخضر والأصفر في تنّورتها تتمايل مثل اللفائف. ثمّ قالت:

ـ أعرف أنّ مثل هذه الادّعاءات غير عمليّة. لأنّني لم أتلقّ منك أيّ ضمانات، ولم أوقّع معك أيّ عقد. لم أتلقّ ضمانا منك، يا هنري، سوى شرفك.

وقف ينظر إليها كما لو أنّ الأمر استغرق كلّ جهده ليُبْقِي عينيه موجّهتَين إلى وجهها، ثمّ سألها:

ـ ماذا تريدين؟

عزيزي، ثمّة أشياء كثيرة يمكنك أن تتكّهن بها، إذا كنت ترغب حقًّا في معرفة ما

أريد. أريد أن أعرف مثلًا السبب الذي يجعلك تتجنّبني بشكل صارخ لعدّة أشهر؟

ـ لقد كنت مشغولًا جدًّا.

تجاهلت الأمر وقالت:

ـ تتوقّع الزوجة أن تكون الشاغل الأوّل لزوجها. لم أكن أعرف أنّك عندما أقسمت على التخلّي عن كلّ الآخرين ستستثني الأفرانَ من قَسَمِك.

ـ اقتربت منه أكثر، وواجهته بابتسامة مسلّية بدت أنّها تسخر من كليهما، ثمّ مرّرت يديها حوله.

وببادرة غريزيّة شرسة وسريعة من عريس شابّ عند اتّصال غير مرغوب فيه بعاهرة، خلع ذراعيها عن جسده وألقاهما جانبًا.

ثمّ وقف مشلولًا ومصدومًا من وحشية ردّ فعله. كانت تحدّق فيه محتارةً، لأنّها لم تكن تتوقّع ردّ فعل مثل هذا.

قال بصوت منخفض، صوت الإخلاص والمعاناة: أنا آسف، ليليان...

لكنّها لم تجبه. فقال:

ـ أنا آسف... كلّ ما في الأمر أنّني متعب جدًّا.

لقد اقترف هنا كذبة أخرى، كذبة تنضاف إلى الخيانة التي لا يستطيع مواجهتها.

ضحكت ليليان ضحكة مكتومة وقصيرة، ثمّ قالت:

ـ حسنًا، أعتذر منك لأنّني لم أعرف أنّك متعب بسبب كثرة الأعمال. سامحني، كنت فقط أحاول أن أؤدّي واجبي بوصفي امرأة. أرى أنّك شهوانيّ ولا تتحكّم في غرائزك تمامًا كأيّ حيوان في الطبيعة. أنا لست عاهرة لكي أنزل إلى ذلك المستوى.

كانت تلتقط الكلمات بجفاء، وهي مغمّى عليها. وتطرح الأسئلة وتطارد كلّ جواب ممكن.

حرّضت الجملة الأخيرة هانك على المواجهة لأنّه لم يعد يقوى على لَعِب دور

المدافع.

ـ سألها: ليليان، ما الهدف الذي تعيشين من أجله؟

ـ يا له من سؤال فجٍّ! مثل هذا السؤال لا يمكن أن يصدر عن شخص مستنير.

ـ حسنًا، ما الذي يفعله الناس المستنيرون بحياتهم؟

ـ لعلّهم لا يحاولون فعل أيّ شيء. هذا هو تنويرهم.

ـ أين يقضونَ وقتهم؟

– هم بالتأكيد لا يُسرفونه في تصنيع أنابيب السباكة.

أخبريني، لماذا تستمرّين في خلق تلك التصدّعات؟ أعرف أنّك تحتقرين أنابيب السباكة. لقد تنبّهت إلى ذلك منذ زمن بعيدٍ. لكنّ احتقارك لا يعني لي شيئًا، فلماذا تصرّين على ترديد الأسطوانة المشروخة ذاتها؟

وتساءل عن السبب الذي جعلها تتأثّر بكلامه. لا يعلم بأيّ طريقة جَرَحَها، لكنّه كان متأكّدا من أنّه جَرَحَها. وتساءل أيضًا عن السبب الذي جعله يشعر بأنّ ما تفوّه به كان الشيء الصحيح الذي يمكن قوله.

سألته بصوت جافٍّ: وما الهدف من هذا الاستنطاق المفاجئ؟

أجابها ببساطة: أودّ أن أعرف ما إذا كان هناك أيّ شيء تريدينه حقًّا. وإن وُجد، فأنا مستعدّ لتوفيره لك إذا كان في المستطاع.

ـ أنت لا تفقه إلّا في دفع ثمن الأشياء. أنت بكلّ بساطة تهرب من الموضوع، أليس كذلك؟ لا، الأمر ليس بهذه البساطة. ما أريده لا يتعلّق بالمادّة.

ـ ما هو؟

ـ أنت.

ـ ماذا تقصدين بذلك؟ أنت لا تقصدين المعنى الفرعيّ.

ـ لا، ليس بالمعنى الفرعيّ.

ـ ماذا تقصدين إذن؟

كانت عند الباب فالتفت، ثمّ رفعت رأسها لتنظر إليه مطلقةً ابتسامةً باردة.

ـ أنت لن تفهم هذا.

قالت ذلك ثمّ خرجت. كان آخر ما يعذّبه ليس فقط يقينه من أنّها لن ترغب أبدًا في تركه وأنّه لن يحظى أبدًا بالحقّ في المغادرة، وإنّما أيضًا أنّه لم يستطع جلب أيّ شيء لها باستثناء الاحتقار، ذلك الاحتقار الغريب المطلق، الذي لا منطق له، احتقار لا تهزّه شفقة أو لوم أو توسّلات خاصّة من أجل العدالة. أشدّ ما يعذّبه هو الاشمئزاز الفخم ضدّ حكمه، ضدّ مطالبته بأن يعتبر نفسه أقلّ من تلك المرأة التي احتقرها.

وبعد ذلك لم يعد يعنيه ذاك الأمر، فقد انحسر كلّ شيء في مسافة خارجيّة، ولم يعلق بذهنه سوى فكرة واحدة وهي أنّه مستعدّ لتحمّل أيّ شيء. لأنّه كان مستلقيًا على السرير، ووجهه مضغوط على الوسادة، يفكّر في داغني، وفي جسدها النحيل الحسّاس الممدّد بجانبه، مرتجفًا تحت لمسة أصابعه. كان يتمنّى لو أنّها عادت إلى نيويورك. لو أنّها عادت فعلا، لذهب إلى هناك الآن، وإن كان الوقت يشير إلى منتصف الليل.

***

جلس يوجين لوسون بمكتبه كما لو أنّه يجلس في قمرة القيادة داخل طائرة حربيّة. لكنّه ينسى ذلك في بعض الأحيان، فيسترخي داخل بدلته، كأنّما يختزل كلّ معاني العبوس في العالم. وكان فمه يمثّل، من بين أعضاء جسده، الجزءَ الوحيد الذي لم يتمكّن من التحكّم فيه على مدى كلّ الأوقات؛ ولكنّه كان بارزًا بشكل غير مريح في وجهه الهزيل. كان يجذب انتباه عينَي أيّ مستمع. فحين يتكلّم، تجري الحركة من خلال شفته السفليّة، ثمّ تنحرف في التواءات غريبة خاصّة بها.

قال يوجين لوسون: آنسة تاجارت، أنا لا أشعر بالخجل من ذلك، أريدك أن تعرفي أنّني لا أشعر بالخجل من حياتي المهنيّة السابقة بوصفي رئيسًا لبنك ماديسون

الوطنيّ الأهليّ.

ردّت داغني ببرود: لم يصدر منّي أيّ شيء يفيدُ أنّني أرى هذا الأمر عارًا.

ـ لا أشعر إطلاقا بالعار وتأنيب الضمير، لأنّني خسرت كلّ ما أملك بعد انهيار ذلك البنك. بل أشعر بالفخر لأنّني بذلت تضحيات جسامًا.

ـ أردت فقط أن أسألك بعض أسئلة حول شركة القرن العشرين للمحرّكات والتي...؟

ـ سأجيب بكلّ سرور على أيّ سؤال. لا أملك ما أخفيه، لأنّ ضميري مرتاح. وإذا كنت تعتقدين أنّ هذا الموضوع سيحرجني، فأنت مخطئة.

ـ من هم الرجال الذين كانوا يملكون المصنع في الوقت الذي قدّمت فيه قرضًا لـ..

ـ لقد كانوا رجالًا جيّدين تمامًا. وكانت مخاطرة سليمة تمامًا، على الرغم من أنّني بالطبع -وأنا هنا أتحدّث من الناحية الإنسانيّة فقط وليس من الناحية الماليّة الباردة التي اعتدت على توقّعها من المصرفيّين- منحتهم القرض لشراء ذلك المصنع، لأنّهم كانوا بحاجة إلى المال. إذا احتاج الناس إلى المال، فهذا يكفيني. فالحاجة كانت معياري يا آنسة تاجارت. الحاجة وليس الجشع. أبي وجدّي أسّسا فقط البنك الوطنيّ الأهليّ لجمع ثروة لنفسيهما. لقد وَضعت ثروتهما في خدمة مثال أعلى. لم أكن أجلس على أكوام من المال، ولم أطلب ضمانات من الفقراء الذين يحتاجون إلى قروض. القلب كان ضماني بالطبع، ولا أتوقّع أن يفهمني أحدٌ في هذا البلد المادّيّ. المكافآت التي حصلت عليها لم تكن من النوع الذي سيقدّره الناس من طبقتك يا آنسة تاجارت. الناس الذين اعتادوا الجلوس أمام مكتبي في البنك لم يقفوا كما تفعلين الآن يا آنسة تاجارت، بل كانوا متواضعين، ومرتابين، وحذرين وخائفين. كانت مكافآتي هي دموع الامتنان في عيونهم، والأصوات المرتجفة، والبركات، والمرأة التي قبّلت يدي عندما منحتها قرضًا فشلت في الحصول عليه من جميع البنوك الأخرى.

ـ هلّا أخبرتني من فضلك بأسماء الرجال الذين يملكون مصنع المحرّكات؟

ـ كان هذا المصنع مهمًّا للمنطقة وضروريًّا جدًّا. ومَنحُهم ذلك القرض كان مبرَّرًا تمامًا، فقد وفّر العمل لآلاف العمّال الذين لا يملكون وسائل أخرى لكسب قوتهم.

ـ هل تعرف أيّ واحد من الناس الذين عملوا في المصنع؟

ـ بالتأكيد. أعرفهم جميعًا. فما يهمّني هو الرجال، وليست الآلات. لقد كنت منشغلًا بالجانب الإنسانيّ الذي في الصناعة، ولم أهتمّ بالربح الماديّ إطلاقًا.

انحنت بشغف على المكتب، ثمّ قالت:

هل تعرف أيّ واحد من المهندسين الذين عملوا في المصنع؟

المهندسون؟ لا، قطعًا. كنت أكثر ديمقراطيّة من ذلك بكثير. كنت أهتمّ أكثر بالعمّال الحقيقيّين، أولئك الرجال العاديّين. جميعهم يعرفونني بمجرّد رؤيتي أثناء التسوّق في المحلّات التجاريّة، ويلوّحون ويصرخون: مرحبًا جين. جين كان الاسم الذي ينادونني به هناك. لكنّني متأكّد أنّ هذا الأمر لا يعنيك. لقد أصبح في عداد التاريخ. إذا كان قدومك الآن إلى واشنطن من أجل التحدّث معي عن السكك الحديديّة الخاصّة بك...

نهض فجأة، ثمّ أضاف:

ـ أنا لا أعرف ما إذا كنت أستطيع وعدَك بأيّ امتيازات خاصّة، لأنّني أضع الرفاه الوطنيّ فوق أيّ اعتبار أو مصلحة خاصّة، والتي..

قالت وهي تنظر إليه في حيرةٍ: لم آتِ إلى هنا لأتحدّث معك عن سكّتي الحديديّة. ولا رغبة لي في التحدّث معك عن شركتي.

بدت عليه علامات خيبة أملٍ، ثمّ قال: وما سبب زيارتك إذَن؟

ـ جئت إليك للحصول على معلومات حول مصنع المحرّكات. هل يمكنك أن تمدّني باسم أيّ واحدٍ من المهندسين الذين عملوا في المصنع؟

ـ لا أعتقد أنّني استفسرت يومًا عن أسمائهم. لم أكن معنيًّا بطفيليّات المكتب

والمختبر. كنت مهتمًا بالعمّال الحقيقيّين، بالرجال ذوي الأيدي القاسية الذين حافظوا على استمرار عمل المصنع. لقد كانوا أصدقائي.

ـ هل يمكنك أن تمدّني بأسماء بعض العمّال؟

ـ عزيزتي الآنسة تاجارت، لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد، وكان هناك الآلاف من العمّال، كيف لي أن أتذكّر أسماءهم؟

ـ ألا يمكنك أن تتذكّر على الأقلّ اسما واحدا؟

ـ بالتأكيد لا أستطيع. لأنّ ثمّة رجالًا كثيرين عبروا من حياتي. إنّ البحث عن أسمائهم في أرشيف ذاكرتي هو تمامًا مثل البحث عن الإبرة في كومة قشّ.

ـ هل كنت على علم بما ينتجه المصنع؟ ونوع العمل الذي كانوا يؤدّونه أو ما يخطّطون له؟

بالتأكيد. لقد اهتممتُ بمصلحتي الشخصيّة في جميع استثماراتي. أدّيتُ زيارات تفتيش للمصنع أكثر من مرّة. كان على أحسن حال. وكان العمال ينجزون العجائب، وظروف إيوائهم هي الأفضل في البلاد. رأيت ستائر الدانتيل في كلّ نافذة والزهور على عتبات النوافذ. وكان كلّ منزل يتوفّر على قطعة أرض لحديقة غنّاء، بالإضافة إلى مدرسة جديدة للأطفال شُيِّدت هناك.

ـ هل كنت تعرف أيّ شيء عن عمل مختبر أبحاث المصنع؟

ـ نعم، نعم، كانوا يملكون مختبر أبحاث رائعًا ومتقدّمًا جدًّا وديناميكيًّا، وهو يمتاز برؤية متقدّمة وخطط رائعة.

هل سمعت عن أيّ شيء حول... خطّة مّا لإنتاج نوع جديد من المحرّكات؟

ـ محرّك؟ أيّ محرّك يا آنسة تاجارت؟ لم أكن أملك وقتًا للتفاصيل، لأنّ هدفي الوحيد كان هو التقدّم الاجتماعيّ والازدهار العالميّ والأخوّة الإنسانيّة والحبّ. الحبّ هو مفتاح كلّ شيء. إذا تعلّم البشر أن يحبّوا بعضهم بعضًا، فإنّ ذلك سيحلّ جميع مشاكلهم.

فالتفتت بعيدًا، كي لا ترى حركات فمه الرطبة.

رأت على قاعدة تمثال في زاوية المكتب قطعةً من الحجر نُقش عليها بكتابة هيروغليفيّة، لقد كان تمثال آلهة هندوسيّة بستّة أذرع عنكبوت وقفت في مشكاة، وعلى الحائط عُلّق رسمٌ بيانيّ ضخم به تفاصيل رياضيّة كثيرة محيّرة، مثل مخطّط مبيعات طلبيّات مكاتب البريد.

ـ لذلك، إذا كنت تفكّرين في شركة السكك الحديديّة الخاصّة بك، وبطبيعة الحال في ضوء بعض التطوّرات المحتملة مثلما تعلمين، فلا بدّ لي من الإشارة إلى أنّه وإن كانت رفاهية البلاد هي أوّل همّي ولن أتردّد في التضحية بأرباح أيّ شخص من أجلها، فإنّه لا يزال عندي باب مفتوح لنداء الرحمة ولم أصمّ أذني عن سماع...

نظرت إليه وفهمت ما يريده منها، وأيّ نوع من الدوافع جعله يستمرّ في الكلام.

قالت وهي تصارع نفسها من أجل الحفاظ على الهدوء، وإن كانت في داخلها ترغب في الصراخ: لا أرغب في مناقشة موضوع شركتي. وإن وددتَ قول أيّ شيء في هذا الموضوع، فدونك أخي السيّد جيمس تاجارت، يمكن أن تفتح معه هذا الموضوع.

ـ أعتقد أنّك لن تفوّتي في مثل هذا الوقت فرصةَ الترافع عن قضيّتك قبل أن...

ـ هل تحتفظ بأيّ سجلّات تتعلّق بمصنع المحرّكات؟

ـ أيّ سجلّات؟ أظنّني أخبرتك بأنّي فقدت كلّ ما أملك هُناك عندما انهار البنك. لكنّني لست حزينًا على ذلك، لأنّ ما فقدته كان مجرّد ثروة مادّيّة. أنا لست أوّل رجل في التاريخ عانى من أجل المثل العليا. لقد هزمني ما كان في المحيطين بي من جشعٍ وأنانيّة. لم أستطع إنشاء نظامٍ من الأخوّة والحبّ في ولاية صغيرة واحدة فقط، وسطَ أمّة من الباحثين عن الربح والدولار. لم يكن خطئي، لكنّني لن أدعهم يَفُلُّون من عزمي. أنا أجابه على نطاق أوسع من أجل امتياز خدمة أصدقائي من الرجال. أمّا بخصوص السجلّات يا آنسة تاجارت؟ السجلّ الذي تركته عندما غادرت مدينة

ماديسون فهو منقوش في قلوب الفقراء الذين لم يُمنَحوا فرصة من قبل.

لم تكن ترغب في نطق أيّ كلمة ليس منها بدّ، ولكنّها فشلت حين تذكّرت صورة الخادمة العجوز التي كانت تنظّف الممشى. فسألته:

ـ هل زرت ذلك الإقليم من البلاد بعد الكارثة؟

صرخ قائلًا: لم تكن غلطتي! إنّه خطأ الأغنياء الذين يملكون المال، لكنّهم لم يضحّوا به لإنقاذ البنك وشعب ويسكونسن! لا يمكنك أن تلقي عليّ باللّائمة! لقد فقدت كلّ شيء!

قالت بجهد: سيّد لوسون، هل تتذكّر اسم الرجل الذي ترأّس الشركة التي كانت تملك المصنع؟ الشركة التي أقرضتها المال. كانت تسمّى الشركة المندمجة للخدمات، أليس كذلك؟ من كان رئيسها؟

ـ أوه، ذلك الشخص؟ نعم، أتذكّره. كان اسمه لي هونساكر. وهو شابّ جدير بالاهتمام، لكنّه تلقّى صدمة رهيبة بسبب الإفلاس.

ـ أين هو الآن؟ هل تعرف عنوانه؟

ـ لماذا؟ أعتقد أنّه في مكان مّا من ولاية أوريغون بمدينة غرانجفيل ـ أوريغون. يمكن لسكرتيرتي أن تمدّك بعنوانه، وإن كنت لا أرى أيّ فائدة... يا آنسة تاجارت، إذا كان ما يدور بخلدك هو محاولة لقاء السيّد ويسلي ماوتش، فدعيني أخبرك بأنّه يعلّق أهمّيّة كبيرة على رأيي في المواضيع التي تؤثّر على مسائل مثل السكك الحديديّة وغيرها.

قالت وهي تهمّ بالنهوض: ليست لديّ أيّ رغبة في لقاء السيّد ماوتش.

ـ لكن بعد كلّ هذا اللقاء، لم أستطع أن أفهم... ما هو غرضك الحقيقيّ من وراء هذه الزيارة؟

ـ أنا أبحث عن رجل معيّن كان يعمل في شركة القرن العشرين للمحرّكات.

ـ ولماذا تبحثين عنه؟

ـ أريده أن يعمل في شركتي.

أشرع ذراعيه على مصراعيها، وبدا متشككًا وعلى شيء من الغضب. ثمّ قال:

ـ أراك تضيّعين وقتك في البحث عن موظّف واحد. صدّقيني، مصير شركتكم يعتمد على السيّد ماوتش أكثر من أيّ موظّف آخر.

ردّت: طاب يومك.

وهمّت بالذهاب، حين قال بصوت متشنّج ومرتفع:

ـ ليس لك الحقّ في احتقاري.

توقّفت لتنظر إليه، ثمّ قالت:

ـ لم أُدْلِ بأيّ رأي.

ـ أنا بريء منذ فقدت أموالي، ومنذ خسرت كلّ أموالي الخاصّة من أجل قضيّة وجيهة. كانت دوافعي صادقة. لم أطلب شيئًا لنفسي. ولم أبحث عن أيّ شيء لنفسي. يا آنسة تاجارت، يمكنني أن أقول بفخرٍ إنّني لم أحقّق طوال حياتي أيّ ربحٍ!

ردّت بنبرة هادئة ورسميّة: سيّد لوسون، ينبغي أن تعلم أنّه من بين كلّ التصريحات التي يمكن للمرء الإدلاء بها، أرى تصريحك هو الأكثر حقارة.

***

قال لي هونساكر: لم تسنح لي الفرصة!

جلس وسط المطبخ، أمام طاولة بعثر فوقها أوراقًا كثيرة. كان يحتاج إلى حلاقة؛ ويحتاج قميصه إلى غسيل. ومن الصعب الحكم على عمره: بدت عضلات وجهه منتفخة على نحو رطب وخالية من علامات الخبرة. وعلى عينيه تبدو علامات التعب والإرهاق، وكان في الثانية والأربعين من عمره.

ـ لم أحظ بأيّ فرصة على الإطلاق. أتمنّى أن يكونوا راضين عمّا صنعوه بي. أعلم أنّني تعرّضت للغشّ وحرمت من حقّي الطبيعيّ. لا تنخدعي بالطيبة التي

يتظاهرون بها. إنّهم حفنة نتنة من المنافقين.

سألته داغني: من هم؟

أجابها لي هونساكر: الجميع. الناس في الواقع أوغاد ولا فائدة تُرْجَى من طمس الحقيقة. أين العدالة؟ هاه، انظري إليها! كيف يُعقَل أن يصير رجلٌ مثلي إلى هذه الحال؟!

بدا ضوء الظهيرة وراء النافذة، مثل الغسق الرماديّ بين الأسقف القاتمة والأشجار العارية لمكانٍ لم يكن ريفًا ولا يمكن أن يصبح مدينة بمعنى الكلمة التامّ. كان الغسق والرطوبة غارقين في جدران المطبخ، وفي الحوض أُودِعت كومةٌ من أطباق الفطور. وعلى الموقد وعاء من الحساء يغلي، ينبعث منه البخار مع رائحة دهنيّة من اللحوم الرخيصة؛ وبين الأوراق انتصبت على الطاولة آلةٌ كاتبة مغبّرة.

قال هونساكر: شركة القرن العشرين للمحرّكات كانت إحدى أكثر أسماء الشركات شهرةً في تاريخ الصناعة الأميركيّة. لقد كنت رئيس الشركة ومالكها، لكنّني لم أحظ بفرصتي كاملةً.

ـ لم تكن رئيس شركة القرن العشرين للمحرّكات، أليس كذلك؟ أعتقد أنّك ترأّست الشركة المدمجة للخدمات؟

ـ نعم، نعم، لكنّ هذا الأمر كان يعني الشيء نفسه. لقد استولينا على مصنعهم وكنّا سنفعل ما كانوا يفعلون، بل أفضل من ذلك بكثير. لقد حظينا بالأهمّيّة نفسها. من يكون جيد ستارنس؟ لا شيء سوى ميكانيكيّ نكرة في مرآب بمناطق غير مأهولة. هل تعلمين أنّ بداية مسيرته المهنيّة كانت هكذا؟ لم يملك أيّ خلفيّة على الإطلاق. عائلتي كانت تنتمي إلى جمعيّة الأربعمائة بنيويورك. وكان جدّي عضوًا في الهيئة التشريعيّة الوطنيّة. ليس خطئي أنّ والدي لم يستطع توفير سيّارة خاصّةٍ لي عندما أرسلني إلى المدرسة. كلّ الأطفال الآخرين حظوا بسيّارات خاصّة. وكان اسم عائلتي رفيعًا مثل أيّ اسم من عائلاتهم حين التحقت بالكلّيّة.

توقّف عن الكلام فجأةً. ثمّ سألها:

ـ ما اسم الصحيفة التي قلت إنّك تعملين بها؟

ذكرت له اسمها؛ ولم تَدْرِ لماذا شعرت بالسعادة لأنّه لم يتعرّف عليها، ففضّلت عدم كشف الأمر له. ثمّ أجابت:

ـ لم أقل إنّني أعمل لصالح صحيفة مّا. أنا أحتاج فقط إلى بعض معلومات عن مصنع المحرّكات لأمر يخصّني، وليس للنشر.

ـ أوه.

شعر بخيبة أمل، ومضى متجهّمًا، كما لو أنّها اقترفت جريمة متعمّدة ضدّه، ثمّ أضاف:

ـ كنت أعتقد أنّك أتيت إلى هنا لإجراء مقابلة، لأنّني أكتب سيرتي الذاتيّة.

أشار إلى الأوراق على الطاولة. ثمّ استرسل في الكلام:

ـ وسأفشي في سيرتي أسرارًا كثيرة. أنوي...أوه، الجحيم!

توقّف عن الكلام، ثمّ هرع إلى الموقد، ورفع الغطاء عن الوعاء ثمّ راح يحرّك الحساء. قذف الملعقة الرطبة على الموقد، وترك الشحوم تقطر في مواقد الغاز، ثمّ عاد إلى الطاولة ليواصل الحديث:

ـ نعم، سأكتب سيرتي الذاتيّة إذا حظيت بالفرصة من أيّ شخص، كيف يمكنني التركيز على العمل الجادّ في وقت يجب عليّ أن أنجز فيه هذا النوع الأشياء؟

هزّ رأسه باتّجاه الموقد، ثمّ أضاف:

ـ أصدقاء، هاه! لقد كان هؤلاء البشر يعتقدون أنّهم سيتمكّنون من استغلالي حين يحيطونني بالخداع والمكر، لأنّني فقط لم أكن أملك مكانًا آخر أقصده. لقد استسهلوا الأمر، أولئك هم أصدقائي القدامى الوُسَماء. إنّها لا تستطيع أن تحرّك ساكنًا في منزلها، وتجلس طوال اليوم في متجرها؛ متجر قرطاسية صغير ورديء. هل يمكن مقارنته بأهمّيّة الكتاب الذي سأكتبه؟ لقد خرجت للتسوّق وطلبت منّي أن أراقب

حساءها اللعين. هي تعلم أنّ الكاتب يحتاج إلى السلام والتركيز، ولكن هل تكترث لهذا الأمر، هل تعلم فداحة ما اقترفت اليوم؟

انحنى مشيرا إلى الأطباق في الحوض، ثمّ أضاف:

ـ لقد ذهبت إلى السوق وتركت جميع أطباق الفطور في الحوض، وقالت إنّها ستغسلها في وقت لاحق. أعلم أنّها تتوقّع منّي غَسْلَها. حسنًا، سأخيّب ظنّها. وسأترك الأطباق كما هي.

ـ هل تسمح لي بأن أطرح عليك بعض أسئلة حول مصنع المحرّكات؟

ـ لا تتخيّلي أنّ مصنع المحرّكات كان الشيء الوحيد في حياتي. لقد شغلتُ مناصب عديدةً مهمّة في الماضي. وكنت، في أوقات مختلفة، على اتّصال بارز بالمؤسّسات التي تصنع المعدّات الجراحيّة، وحاويات الورق، وقبّعات الرجال والمكانس الكهربائيّة. وبطبيعة الحال، فهذا النوع من الأشياء لم يمنحني إشعاعًا كبيرًا. لكنّ مصنع المحرّكات مثّل فرصتي الكبيرة. هذا ما كنت أنتظره.

ـ كيف تحصّلت عليه؟

ـ كان قسمة ونصيبًا، وبمثابة حلمٍ يتحقّق. لكن سرعان ما أُغلق المصنع بسبب الإفلاس. لقد أخفى ورثة جيد ستارنس الأمر بسرعة كبيرة. ولم أعرف بالضبط الوضعيّة التي كان عليها المصنع، ولكنّ شيئًا مّا كان يُدبَّر في الخفاء. لذلك انهارت الشركة. وأغلق رجال السكك الحديديّة خطَّ فرعهم. لا أحد رغب في هذا المصنع، ولا أحد قدّم عرضًا لشرائه. وبقي شامخًا هناك، ذلك المصنع العظيم، بكلّ المعدّات، وكلّ الآلات، وكلّ الأشياء التي جعلت جدّ ستارنس يربح الملايين. كان هذا الأمر من الفرص التي حُقَّ لي الحصول عليها. وكان لي عدد قليل من الأصدقاء، فشكّلنا معًا الشركة المندمجة للخدمات وجمعنا القليل من المال. لكنّنا لم نملك ما يكفي، فاحتجنا إلى قرض يساعدنا في البدايات. كان رهانًا آمنًا تمامًا، وكنّا شبّانا مقبلين على مهن رائعة، مليئة بالحرص والأمل في المستقبل. لكن هل تعتقدين أنّنا حصلنا على التشجيع من أيّ شخص؟ لم يفعلوا ذلك. كيف كنّا سننجح في الحياة إذا لم يعطنا أحدٌ

مصنعًا؟ لم نستطع منافسة هؤلاء المالكين الذين يرثون سلاسل كاملة من المصانع، أليس كذلك؟ ألم يكن لنا الحقّ في الانطلاقة نفسها؟ لا تدعيني أسمع أيّ شيء عن العدالة! لقد كنت أعمل كالكلب في محاولة للحصول على قرض ماليّ، لكنّ ذلك الوغد ميداس موليغان زجّ بي في مأزق.

جلست داغني باستقامة، ثمّ تساءلت: ميداس موليغان؟

ـ المصرفيّ الذي كان يتصرّف مثل سائق الشاحنة!

ـ هل تعرف ميداس موليغان؟

ـ هل أعرفه؟ أنا الرجل الوحيد الذي هزمه، لكنّي لم أجنِ من ذلك الأمر أيّ خير!

وخلال لحظات غريبة لم تشعر فيها بالراحة، داهمتها أسئلة كتلك التي طرحتها في الماضي عن قصص سفنٍ مهجورةٍ وُجِدَت عائمةً في البحر أو عن الأضواء التي كانت تومض في السماء بلا مصدر، وعن اختفاء ميداس موليغان. لم يكن ثمّة سببٌ يجعلها تشعر أنّ عليها حلَّ كلّ تلك الألغاز، باستثناء أنّها كانت أسرارًا وليس لها من شأن آخر سوى كونها أسرارًا: لا يمكن أن تكون بلا سبب، ومع ذلك لا يوجد سبب معروف يمكن أن يفسّرها.

لقد كان ميداس موليغان من أغنى الأغنياء في الماضي. وهكذا، كان الرجل الأكثر إدانة في البلاد. لم يسبق لميداس أن خسر أيّ استثمار أطلقه. بل إنّ كلّ شيء يلمسه يتحوّل إلى ذهب. لأنّه كما يقول يعرف ما يجب أن يلمس. ولم يستطع أحدٌ فهمَ نمط استثماراته: فقد رفض الصفقات التي كانت تعتبر آمنة وغير مشبوهة، وعمد إلى استثمار مبالغ طائلة في مشاريع لا يستطيع أيّ مصرفيّ آخر أن يتجرّأ على الاستثمار فيها. لقد كان أوّل من استثمر في معدن ريردن عند بداياته الأولى. وهكذا، فقد ساعد ريردن في إتمام عمليّة شراء مطاحن الفولاذ المهجورة في بنسلفانيا. وعندما أشار إليه أحد علماء الاقتصاد ذات مرّة على أنّه مقامر جريء، قال موليغان: إنّ السبب في أنّك لن تصبح غنيًّا أبدًا هو اعتبارك ما أفعله مقامرةً.

في حياته المهنيّة الطويلة، كان يتجاهل جميع الحروب التي تُشَنّ عليه إلّا حربًا واحدة. اسمه الشخصيّ مايكل، لكنّ صحفيًّا أطلق عليه ميداس موليغان فالتصق به هذا اللقب مثل إهانة. وسرعان ما لجأ موليغان إلى المحكمة يلتمس تغيير اسمه الشخصيّ بـ(ميداس)، وقد حظي هذا الالتماس بالقبول. وكان معاصروه يرونه رجلًا ارتكب خطيئة لا تُغْتَفَر، لأنّه يفتخر بثروته.

تلك أشياء سمعتها داغني عن ميداس موليغان؛ ولكن لم يسبق لها أن قابلته. وكان ميداس موليغان قد اختفى قبل سبع سنوات. غادر منزله في صباح أحد الأيّام ولم يُسمع عنه أيّ شيء مرّةً أخرى. وفي اليوم الموالي، تلقّى زبائن بنك موليغان في شيكاغو إخطارًا يطلب منهم سحب أموالهم، لأنّ المصرف سيغلق أبوابَه. وفي التحقيقات التي تلت ذلك، عُلِم أنّ موليغان خطّط للإغلاق مسبّقًا وبالتفصيل؛ فكان موظّفوه ينفّذون تعليماته فقط. لقد كان بنكًا من أفضل البنوك التي عرفتها البلاد على الإطلاق في مستوى حسن تسييره وترتيبه الإداريّ. كلّ زبون تلقّى أمواله وصولًا إلى الجزء الأخير من الفائدة المستحقّة. وقد بيعت جميع أصول المصرف لمختلف المؤسّسات الماليّة بصورة مجزّأة. عندما كانت الدفاتر التجاريّة متوازنة، وجد أنّها متوازنة تمامًا، ولم تُغفِل ولو بنسًا في سجلّاتها. ولم يبق أيّ شيء أكثر من ذلك؛ لقد قُضِي على بنك موليغان.

لم يتمّ العثور على أيّ دليل يبرّر دافع موليغان لتحديد مصيره الشخصيّ أو مصير الملايين العديدة من ثروته الشخصيّة. فالرجل والثروة اختفيا كما لو أنّهما لم يُوجَدا قطّ. ولم يتلقّ أحدٌ أيّ تحذير بشأن قراره، ولا يمكن تتبّع أيّ أحداث لتفسير ذلك. فإذا كان يرغب في التقاعد – يتساءل الناس – لماذا لم يبع مؤسّسته بربح كبيرٍ، كما كان يمكن أن يفعل، بدلًا من تدميرها؟ لم يكن هناك أحد يملك جوابًا، لأنّه لم يملك عائلة ولا أصدقاء ولا كان خدمه يعرفون عنه شيئًا، فقد غادر منزله في ذلك الصباح كالمعتاد ولم يعد؛ وهذا كلّ ما في الأمر.

كان هناك – مثلما اعتقدت داغني لسنوات وعلى نحوٍ غير مريح– أمرًا عصيًّا جدًّا

يحوم حول اختفاء موليغان. كان الأمر يبدو كما لو أنّ ناطحة سحاب في نيويورك قد اختفت ذات ليلة، ولم تترك شيئًا وراءها سوى الكثير من الفراغ في أحد الشوارع. فرجل مثل موليغان، وثروة مثل التي أخذها معه، لا يمكن أن يظلّا مختفيَين في أيّ مكان. ناطحة السحاب لا يمكن أن تضيع، وسوف تلوحُ وهي ترتفع فوق أيّ سهل أو غابة يتمّ اختيارها لتكون مخبئًا لها؛ وحتّى إذا دمّرت، فإنّ كومة من الأنقاض لا يمكن أن تبقى دون أن يلاحظها أحدٌ. ولكنّ موليغان تبخّر، وفي السنوات السبع التي تلت اختفاءه، كثرت الشائعات والتخمينات والنظريّات والقصص المُلحَقَة بصحف يوم الأحد، والشهود العيان الذين ادّعوا أنّهم رأوه في كلّ جزء من العالم. لا يوجد حتّى الآن أيّ دليل يمكن أن يفسّر هذا الأمر على نحوٍ معقول.

ومن بين القصص، ثمّة واحدة تنافي العقل لشخصٍ اعتقدت داغني أنّ روايته صحيحة: لا شيء في طبيعة موليغان يمكن أن يكون قد أعطى أيّ شخص الأرضَ لاختراع ذلك. قيل إنّ آخر شخص رآه، في صباح يوم ربيعيّ من اختفائه، كان امرأةً عجوزًا تبيع الزهور في زاوية شارع شيكاغو بالقرب من بنك موليغان. لقد ذكرتْ أنّه توقّف واشترى مجموعةً من أوّل أزهار الوهلنبرجية الفتّانة لذلك العام. وكان وجهه أسعد وجه رأته في حياتها. إذ امتلك نظرة شابّ انطلقت لتكون رؤية عظيمة، بلا عائق من الحياة، تمتدّ بانفتاح أمامه؛ وقد مُسِحت علامات الألم والتوتّر، ورواسب السنوات على الوجه الإنسانيّ، ولم يتبقّ سوى الحرص على الفرح والسلام. التقط الزهور كما لو أنّ اندفاعا مفاجئا أثاره، وغمز العجوز، وكأنّه يودّ مشاركتها بعض النكت المضحكة، ثمّ قال: هل تعلمين كم أحببت أن أكون على قيد الحياة؟ حدّقت فيه المرأة حائرة، ثمّ سار بعيدًا، يرمي الزهور مثل كرة في يده. كان شخصيّة عريضة المنكبَين ومستقيمة في معطف رجل أعمال وقور وثمين، رحل في المسافة قبالة المنحدرات المستقيمة لمباني المكاتب مع شمس الربيع المتلألئة على نوافذها.

قال هونساكر في غمرة أبخرة الحساء البشع: كان ميداس موليغان وغدًا شرّيرا

يقدّس المال. وكان مستقبلي كلّه يعتمد على نصف مليون دولار بائس، وهو مجرّد فكّة صغيرة عنده، ولكن عندما تقدّمت له بطلب للحصول على قرض، رفض فرجعت خالي الوفاض، ولم يجد من سبب وجيه أفضل من القول إنّه لا ضمانات لديّ أقدّمها. فكيف يمكن لي أن أريكم أيّ ضمانات، في وقت لم أحظ فيه بفرصة في أيّ شيء كبير؟ ولماذا أقرض الآخرين المالَ؟ لقد كان تمييزًا واضحًا. لم يكترث لكرامتي حين قال إنّ سجلّي الماضي زاخر بالإخفاقات ولا يؤهّلني حتّى لامتلاك عربة دفع للخضار. عن أيّ إخفاقات يتحدّث؟ لم أستطع منع أيّ شيء، فحتّى الكثير من البقّالين الجهلة رفضوا التعاون معي حول حاويات الورق. بأيّ حقّ سمح لنفسه بإصدار حكم على قدرتي؟ لماذا يجب على خططي المستقبليّة أن تعتمد على رأي متعسّف لمحتكر أنانيّ؟ لم أحتمل ذلك ولم أكن مستعدًّا للسكوت وأخذ الأمر وأنا مستلقٍ ومرتاح البال، لقد رفعت دعوى ضدّه.

ـ فعلت ماذا؟

قال بفخرٍ: أوه نعم، لقد رفعت دعوى قضائيّة ضدّه. أنا متأكّد من أنّ الأمر قد يبدو غريبًا في بعض الولايات الشرقيّة كما هي الحال في ولايتك. لكن في ولاية إلينوي القانون إنسانيّ جدًّا، وتقدّميّ جدًّا، ممّا سمح لي بمقاضاته. يجب أن أقول إنّها كانت أوّل قضيّة من نوعها، ولكن كان لي محامٍ ليبراليّ وذكيّ جدًّا، فوجد لنا وسيلة في تحقيق ذلك، وهو قانون الطوارئ الاقتصاديّ الذي ينصّ على أنّ الناس ممنوعون من التمييز لأيّ سبب من الأسباب أيًّا كان، وضدّ أيّ شخص في أيّ مسألة تتعلّق برزقه. كان قانونًا يستخدم لحماية العمالة اليوميّة وأشياء أخرى من هذا القبيل، لكنّه ينطبق عليّ وعلى شركائي أيضًا، أليس كذلك؟ لذا لجأنا إلى المحكمة، وأدلينا بشهادتنا حول الانقطاعات السيّئة التي جمعتنا في الماضي، واقتبست حرفيًّا ما قاله موليغان من أنّني لا أستطيع امتلاك حتّى عربة دفع الخضار. وأثبتنا أنّ جميع أعضاء الشركة المدمجة للخدمات لم يتمتّعوا بالنفوذ ولا بالأمان ولا بأيّ وسيلة أخرى لكسب لقمة العيش. وهكذا، فإنّ شراء مصنع للمحرّكات كان فرصتنا الوحيدة

لكسب الرزق. ولذلك، لم يكن لميداس موليغان الحقّ في التمييز ضدّنا. وبالنتيجة، كان من حقّنا أن نطالبه بقرض يوجبه القانون. أوه، لقد كانت قضيّة مثاليّة ولدينا فيها كلّ الحقّ، ولكنّ الرجل الذي ترأّس المحاكمة كان القاضي ناراغاناسيت، وهو أحد أولئك الرهبان من الطراز القديم من دكّة البدلاء الذين يفكّرون مثل علماء الرياضيّات ولا يشعرون مطلقًا بالجانب البشريّ في أيّ شيء. لقد جلس هناك طوال المحاكمة مثل تمثال رخاميّ من تلك التماثيل المعصوبة العينين. وفي النهاية، أصدر تعليماته إلى هيئة المحلّفين بأن تصدر حكمًا لصالح ميداس موليغان، وقال بعض الأشياء القاسية جدًّا عنّي وعن شركائي. ولكنّنا استأنفنا الحكم أمام المحكمة العليا التي نقضت ذاك الحكم وأمرت موليغان بأن يمنحنا القرض، وفق شروطنا. كانت أمامه ثلاثة أشهر ليمتثل لها، لكن قبل أن تنقضي هذه المدّة، حدث شيء لا يمكن لأحد أن يتوقّعه وتبخّر هو ومصرفه في الهواء، لم يبق قرش إضافيّ من ذلك البنك لتلبية مطلبنا القانونيّ. لقد أهدرنا الكثير من المال على المحقّقين، محاولين العثور عليه. لكن لا أحد وجده. لذلك تخلّينا عن هذا الأمر.

قالت داغني في نفسها: لا، هذه القضيّة، وبصرف النظر عن الشعور المقزّز التي تثيره، لم تكن أسوأ بكثير من واحد من الأشياء الأخرى التي تحمّلها ميداس موليغان لسنوات. لقد تكبّد خسائر كثيرة بموجب قوانين العدالة، وبموجب قواعد ومراسيم كلّفته مبالغ أكبر بكثير من المال؛ كان قد تحمّلها وقاتل وعمل بجدّ. ليس من الوارد أنّ هذه القضيّة هي التي كسرت شوكته.

سألته بشكل لاإراديّ: ماذا حدث للقاضي ناراغاناسيت؟

كانت تعرف القليل عن هذا القاضي، لكنّها تذكّرت اسمه، لأنّه كان اسما ينتمي حصرًا إلى قارّة أمريكا الشماليّة. الآن أدركت فجأة أنّها لم تسمع عنه شيئًا لسنوات.

ردّ هونساكر: أوه، لقد تقاعد.

قالت وهي تلهث: هل تقاعد فعلًا؟

ـ نعم.

ـ متى؟

ـ أوه، حوالي ستّة أشهر بعد تلك القضيّة.

ـ وماذا فعل بعد تقاعده؟

ـ لا أعلم، ولا أعتقد أنّ أحدًا قد سمع عنه منذ ذلك الحين.

وتساءلت عن السبب الذي يجعلها تبدو خائفة. هذا الخوف الذي يعود جزء منه إلى أنّها لم تستطع إدراك سببه، فقالت بجهد:

ـ من فضلك أخبرني عن مصنع المحرّكات.

ـ حسنًا، يوجين لوسون من البنك الوطنيّ الأهليّ بمدينة ماديسون منحنا أخيرًا قرضًا لشراء المصنع، لكنّه كان مجرّد بخيل فوضويّ، لم يكن يملك ما يكفي من المال الذي سيمكّننا من العبور إلى برّ الأمان، ولم يستطع مساعدتنا حين أفلسنا. لم يكن خطأنا، لأنّ كلّ الأمور سارت منذ البداية ضدّ إرادتنا. فكيف يمكننا إدارة مصنع محرّكات والحال أنّنا لم نكن نملك سكّة حديد؟ أليس لنا الحقّ في سكّة حديديّة؟ حاولت أن أجعلهم يعيدون فتح خطّ فرعهم، لكنّ هؤلاء الأشخاص الملعونين في شركة تاجارت العابرة...

توقّف قليلًا ثمّ سألها:

ـ أخبريني، هل أنت بالصدفة أحد الممثّلين لعائلة تاجارت؟

ـ أنا نائب الرئيس التشغيليّ لشركة تاجارت العابرة للقارّات.

حدّق في وجهها بذهولٍ. رأت صراع الخوف والبذاءة والكراهية في عينيه الشفّافتين. وكانت النتيجة زمجرة مفاجئة:

ـ أنا لست بحاجة إلى أيّ منكم لأيّ فرص كبيرة! لا تظنّي أنّني سأخاف منك ولا تتوقّعي منّي أن أتوسّل للحصول على وظيفة. أنا لا أطلب معروفًا من أحدٍ. وأراهن أنّك لم تتعوّدي سماع الناس يتحدّثون إليك بهذه الطريقة، أليس كذلك؟

ـ سيّد هونساكر، سأقدّرك كثيرًا إذا قدّمت لي ما أحتاج إليه من معلومات عن

المصنع.

ـ لقد تأخّرت قليلًا. ما خطبك؟ هل تشعرين بتأنيب الضمير؟ أنت وقومك تركتم جيد ستارنس ينمو ويزدهر ويغتني من المصنع، لكنّكم لم تمنحونا أيّ استراحة. لقد كان المصنع نفسه، وفعلنا كلّ ما فعله وبدأنا بالفعل في تصنيع نوع معيّن من المحرّكات مثّل أكبر صانع لثروة ستارنس على مدى سنوات. وبعد ذلك افتتح وافدٌ جديدٌ لم يسمع به أحدٌ من قبل مصنعًا ذا جناحين أسفل ولاية كولورادو، باسم نيلسن للمحرّكات، وصنع محرّكًا جديدًا من الفئة نفسها لنموذج ستارنس، لكن بنصف السعر! لم نستطع منع ذلك، أليس كذا؟ كان كلّ شيء يسير على ما يرام في زمن جيد ستارنس، فهو لم يواجه أيّ منافس مدمّر، أمّا نحن فماذا كنّا سنفعل؟ كيف يمكن لنا محاربة نيلسن هذا، والحال أنّه لم يقدّم لنا أحدٌ أيّ محرّك لمنافسته؟

ـ هل تولّيت مختبر ستارنس للأبحاث؟

ـ نعم، نعم، كنت هناك. كلّ شيء كان هناك.

ـ وماذا عن الموظّفين؟

ـ أوه، هاجر كثيرون منهم بعد إغلاق المصنع.

ـ وماذا عن طاقم أبحاثه؟

ـ لقد رحلوا.

ـ هل استأجرت أيّ رجال أبحاث لكي يعملوا لصالحك؟

ـ نعم، نعم، البعض منهم، ولكن اسمحي لي بأن أقول لك إنّني لم أكن أملك مالًا كثيرًا لكي أنفقه على أشياء مثل المختبرات، بل لم أكن أملك حتّى ما يكفي من الأموال لتنقذني إن تعرّضت لمرض طارئ. لم أتمكّن حتّى من دفع الفواتير التي أدين بها جرّاء عمليّة أساسيّة جدًّا أقدمت عليها تتمثّل في تحديث المصنع وإعادة تزيين مظهره. كان المصنع من الطراز القديم، بشكل شائن، فجدران الجصّ بالمكاتب التنفيذيّة عارية ومراحيضها صغيرة نسبيًّا. أيّ طبيب نفسانيّ حديث سيخبرك بأنّه لا

يمكن لأحد أن يبذل قصارى جهده في مثل هذه الأماكن المُحبِطة. كان عليّ أن أجعله أكثر إشراقًا بنظام الألوان في مكتبي، وحمّام لائق حديث مع دشّ بكشك. وعلاوة على ذلك، أنفقت الكثير من المال على كافتيريا جديدة وغرفة لعب وغرفة راحة للعمّال. كان علينا أن نبني الروح المعنويّة، أليس كذلك؟ أيّ شخص مستنير يعلم أنّ الإنسان في أصله مخلوق من عوامل مادّيّة، وأنّ عقله يتشكّل من أدوات الإنتاج التي يبتكرها. ولكنّ الناس لن ينتظروا قوانين الحتميّة الاقتصاديّة لتطبّق علينا. لم يكن لدينا مصنع للمحرّكات من قبل، كان علينا أن ندع الأدوات تُكيّف عقولنا، أليس كذلك؟ ولكن لا أحد منحنا الوقت.

ـ هل يمكنك أن تخبرني عن عمل موظّفي البحث الخاصّ بك؟

ـ كانت لديّ مجموعة من الشباب الواعدين جدًّا، جميعهم يملكون شهادات من أفضل الجامعات. لكنّ الأمر لم ينجح معي. لا أعلم ماذا كانوا يفعلون؟ أعتقد أنّهم كانوا يُزْجُون الوقت في المختبر لا غير.

ـ من كان مسؤولًا عن مختبرك؟

بحقّ الجحيم، كيف يمكنني أن أتذكّر ذلك الآن؟

ـ هل تتذكّر بعض أسماء موظّفي البحث الخاصّ بك؟

ـ هل تعتقدين أنّني كنت أملك ما يكفي من الوقت لكي أقابل شخصيًّا كلّ موظّف يعمل عندي؟

ـ هل تحدّث أيّ منهم عن أيّ تجارب مع... مع نوع جديد تمامًا من المحرّكات؟

ـ أيّ محرّك؟ دعيني أخبرك أنّ أحد المسؤولين التنفيذيّين في منصبي لا يتسكّع في المختبرات. قضّيت معظم وقتي في نيويورك وشيكاغو، في محاولة لجمع المال للحفاظ على استمرارنا.

ـ من كان المدير العامّ للمصنع؟

ـ زميل قدير جدًّا يسمّى روي كانينغهام، لقد مات العام الماضي في حادث سير.

قالوا إنّه كان يقود السيّارة في حالة سكر.

ـ هل يمكنك أن تمدّني بأسماء وعناوين أيّ من شركائك؟ أيّ شخص تتذكّره؟

ـ لا أعلم ما الذي حدث لهم. لم أكن في مزاج جيّد لأتتبّع ذلك.

ـ هل تحتفظ بأيّ سجلّ من سجلّات المصنع؟

ـ بالتأكيد.

ـ هل تسمح لي برؤيتها؟

ـ أنت تراهنين!

وبدا حريصًا على الامتثال؛ هبّ واقفًا وسارع للخروج من الغرفة. ما وضعه أمامها عندما عاد، كان ألبومًا سميكًا من القصاصات: تضمّن مقابلاته الصحفيّة وإصدارات وكيله الصحفيّ. ثمّ قال بفخر:

ـ كنت أحد كبار الصناعيّين أيضًا، وشخصيّة وطنيّة كما ترين. حياتي ستكون كتابًا ذا أهمّيّة إنسانيّة عميقة. كنت سأكتبها منذ زمن طويل، لو أنّي امتلكت أدوات الإنتاج المناسبة.

وأخذ ينقر بغضب على آلته الكاتبة، ثمّ أضاف:

ـ لا أستطيع العمل على هذا الشيء اللعين. إنّه يتخطّى الفراغات. كيف يمكنني أن أستدرج أيّ إلهام وكتابة أفضل الكتب مبيعًا بآلة كاتبة تتخطّى الفراغات؟

ـ شكرًا لك يا سيّد هونساكر، أعتقد أنّ هذا هو كلّ ما يمكنك أن تقول لي.

ثمّ همت بالنهوض، وهي تسأل:

ـ ما الحال التي أصبح عليها ورثة ستارنس؟

ـ لقد سارعوا إلى الاختفاء بعد أن دمّروا المصنع. كانوا ثلاثة؛ ولَدَيْن وابنةً. وكان آخر ما سمعته عنهم أنّهم يخفون وجوههم في مدينة دورانس بولاية لويزيانا.

حين همّت بالمغادرة، رأت هونساكر يقفز بشكل مفاجئ نحو الموقد. أمسك غطاء

الوعاء وأسقطه على الأرض لأنّ أصابعه احترقت، قبل أن يلعن حظّه مزمجرًا: لقد احترق الحساء.

***

قال رئيس شرطة دورانس ـ لويزيانا: يا آنسة تاجارت، لن تجدي رغبةً في رؤيتهم، إنّه رجلٌ مسنّ يتصرّف ببطءٍ وحزمٍ ونظرة تبيّن ما اكتسبه من المرارة بعيدًا عن الاستياء الأعمى، ولكنّها أيضًا نظرة تجلو ما اكتسبه من إخلاص لمعايير واضحة المعالم. ثمّ أضاف:

ـ يمكنك أن تقابلي كلّ أنواع البشر في العالم، بما في ذلك القتلة والمجرمين المجانين، ولكن، بطريقة مّا، أعتقد أنّ هؤلاء الأشخاص من عائلة ستارنس هم من لا ينبغي على الناس المحترمين مقابلتهم. إنّهم من النوع السيّئ يا آنسة تاجارت. من النوع الفاتر والسيّئ... نعم، ما زالوا هنا في المدينة، أعني اثنين منهم. الثالث مات منتحرًا، لقد حدث ذلك قبل أربع سنوات. إنّها قصّة قبيحة. كان أصغر الثلاثة، واسمه إيريك ستارنس. وهو واحد من هؤلاء الشباب المصابين بمرض مزمن، أولئك الذين يئنّون وهم يتجوّلون بسبب مشاعرهم الحسّاسة، عندما يتجاوزون سنّ الأربعين. وقد نَقَصَه الحبُّ الذي مثّل مدار اهتمامه. كانت تهتمّ به النساء الأكبر سنًّا، عندما يتمكّن من العثور عليهنّ. ثمّ بدأ يطارد فتاةً في السادسة عشرة، وهي فتاة لطيفة لا يمكن أن تربطه بها أيّ علاقة. تزوّجت الفتاة من شابّ. فدخل إيريك ستارنس منزلهما يوم الزفاف وعندما عادا من الكنيسة بعد المراسم وجداه ميّتًا في غرفة نومهما بمعصمين مُقطّعين... يمكنني الآن القول إنّه قد يُغفَر لرجل يقتل نفسه بهدوء. من يستطيع أن يحكم على معاناة رجل آخر وعلى الحدود التي يمكن أن يتحمّلها؟ لكنّ الرجل الذي يقتل نفسه، يعرض موته من أجل إيذاء شخص مّا، الرجل الذي يَهَبُ حياته للخبث، لن يحظى بالمغفرة، ولا يمكن أن نلتمس له أيّ عذرٍ. إنّه الفاسد بعينه، وما يستحقّه هو أن يبصق الناس على ذكراه، بدلًا من الشعور بالأسف أو الشفقة عليه مثلما أراد لهم أن يفعلوا.... حسنًا، كانت تلك قصّة إريك

ستارنس. أستطيع أن أدلّك على الاثنين الآخرين إذا كنت ترغبين في ذلك.

لقد وُجِد جيرالد ستارنس في جناح نزل رخيص. كان ممدًّدا على مَهْدٍ ونصفه ملتوٍ، وشعره لا يزال أسود، ولكن بجذامة في ذقنه بدَت مثل ضباب من الرؤوس النافقة الميّتة على وجه شاغر. كان مخمورًا حدّ الثمالة. صاحبته ضحكة مكتومة لا طائل منها ظلّت تكسر صوته عندما يتكلّم، بصوت حاقد ثابت، وغير مركّز.

ـ لقد أفلس المصنع العظيم. فبعدما صعد نجمُه أفلس. هل يزعجك هذا الأمر يا سيّدتي؟ المصنع كان فاسدًا. والجميع فاسدون. ومن المفترض أن أتوسّل العفو من شخص مّا، لكنّني لن أفعل. أنا لا أهتمّ. كان الناس يحصلون على ما يناسبهم في محاولةٍ للحفاظ على المعرض، عندما تعفّن كلّ شيء، وأصبح أسود من العفن، السيّارات، والمباني والأرواح، هذا لن يحدث أيّ فارق بطريقة أو بأخرى. كان يجب أن ترَي ذلك النوع من الطبقة المثقّفة الذي تحوّل رأسًا على عقب حين صفّرت، وحين كان العجين ملكي وبين أناملي. الأساتذة والشعراء والمثقّفون والمدّخرون العالميّون والأحبّاء. ومهما كانت طريقتي في التصفير فإنّني قد استمتعت كثيرًا. كنت أريد أن أفعل الخير، ولكنّني الآن لا أودّ فِعْله. لا يوجد أيّ خير. لا خير يرجى من هذا الكون كلّه. أنا لا أعتزم الاستحمام إذا لم أشعر بذلك. هذا كلّ شيء. إذا كنت تريدين معرفة أيّ شيء عن المصنع، اسألي أختي، أختي الحلوة التي كانت تملك صندوق الائتمان الذي لم يتمكّنوا من الوصول إليه، لذا خرجت من الورطة بأمان، حتّى وإن كانت لا تنتمي إلى طبقة الهامبرغر الآن، ولا حتّى إلى طبقة سمك الفيليه بصلصة البيرنيز، ولكن هل ستعطي أخاها فلسًا واحدًا منه؟ الخطّة النبيلة التي ضبطت كانت فكرتها بقدر فكرتي، ولكن هل ستمنح أخاها فلسًا واحدًا ؟ هاه! يجب أن أذهب لإلقاء نظرة على الدوقة، مجرّد إلقاء نظرة. ما الذي يهمّني بشأن المصنع؟ لقد كان مجرّد كومة من الآلات الدهنيّة. سأبيعك كلّ حقوقي ومطالباتي وسند ملكيّتي مقابل قنّينة خمر. لعلّك تعتقدين أنّي متشرّد نَتِنٌ، ولكن هذا ينطبق على كلّ ما تبقّى منهم وعلى السيّدات الثريّات مثلك أيضًا. أردت أن أقدّم الخير للبشريّة.

هاه! أتمنّى أن يُغلَوْا جميعًا في الزيت. سيكون الأمر مسلّيًا جدًّا. أتمنّى أن يختنقوا جميعًا. ما الذي يهمّني؟ وما وجهُ أهمّيّة أيّ شيء؟

كان على المهد الآخر صعلوكٌ صغير آخر، أبيض الشعر، ذابلا يتقلّب في نومه ويئنّ؛ لكنّ سقوط قطعة نيكل من خرقه البالية أحدث قعقعة على الأرضيّة. فالتقطه جيرالد ستارنس ودسّه خلسة في جيبه الخاصّ. لمحته داغني فافترّت تجاعيد وجهه عن ابتسامة خبيثةً. فسألها:

ـ هل تريدين إيقاظه لكي تبدأ المتاعب؟ إذا فعلت فسأقول له إنّك تكذبين.

وكان البنغل الذي تفوح منه رائحة كريهة، حيث وجدت إيفي ستارنس، يقع بأطراف المدينة على شاطئ المسيسيبي. وكانت الخيوط المعلّقة من الطحالب وكتل أوراق الشجر الشمعيّة تجعل الغطاء النباتيّ الكثيف يبدو كما لو أنّ لعابه يسيل؛ وبهذا المظهر نفسه بدت الكثير من الستائر المعلّقة في الهواء الراكد من غرفة صغيرة. ثمّ تسلّلت رائحة من الزوايا التي لم ينفض عنها الغبار ومن حرق البخور في الجرار الفضّيّة عند أقدام الآلهة الشرقيّة الملتوية. جلست إيفي ستارنس على وسادة فبدت كأنّها صورة مُتَضَخّمة من بوذا. كان فمها يشبه هلالًا ضيقًا صغيرًا، مثل فمٍ شرس لطفل يطلب شيئًا بتزلّف، ووجه عريض لاذع لامرأة تجاوزت الخمسين من عمرها. عيناها كانتا مثل بركتين جافّتين وتعوزهما حياة. قالت بصوت منتظم، يقطر رتابةً تماما مثل المطر:

ـ يا ابنتي، لا أستطيع الإجابة على هذا النوع من الأسئلة التي تطرحينها. مختبر الأبحاث؟ المهندسون؟ لماذا يجب عليّ أن أتذكّر أيّ شيء عنهم؟ كان والدي هو من يهتمّ بمثل هذه الأمور وليس أنا. والدي كان رجلًا شرّيرًا لا يهتمّ بشيء سوى العمل. لم يكن يملك وقتًا للحبّ. لقد كرّس كلّ وقته لكسب المال. عشت أنا وإخوتي في مستوى مختلف عنه. لم يكن هدفنا هو إنتاج الأدوات، ولكن فعل الخير. لقد أطلقنا خطّة جديدة ورائعة في المصنع. كان ذلك منذ أحد عشر عامًا. هزمنا الجشع والأنانيّة وقاعدة الطبيعة الحيوانيّة للبشر. لطالما كان هناك صراع أبديّ بين

الروح والمادّة، وبين الروح والجسد. لم يكونوا مستعدّين للتخلّي عن أجسادهم، وهذا كلّ ما طلبناه منهم. لا أتذكّر أيّ واحد من هؤلاء الرجال. ولا يهمّني أن أتذكّر... المهندسون؟ أعتقد أنّهم هم الذين بدؤوا بالناعور... نعم، هذا ما قلته: الناعور... ذلك التسرّب البطيء ونزيف الدم الذي لا يمكن وقفه. لقد ركضوا أوّلًا وهجرونا واحدًا تلو آخر... وما كانت خطّتنا؟ وضعنا قيد التنفيذ ذلك المبدأ التاريخيّ النبيل: ابتداء من عمل كلّ فرد حسب قدرته، إلى عمل كلّ فرد حسب حاجته. كلّ من كان في المصنع، بدءًا بالخادمات وصولًا إلى الرئيس، كان يحصل على الراتب نفسه، أي على الحدّ الأدنى الضروريّ. وكنّا نجتمع كلّنا مرّتين في السنة في اجتماع جماهيريّ، فيقدّم كلّ شخص مطالبه بما يعتقد أنّها احتياجاته. وصوّتنا على كلّ المطالب، فأثبتت إرادة الأغلبيّة حاجة كلّ شخص وقدرة كلّ شخص. ووُزِّع دخل المصنع وفقًا لذلك. وتستند المكافآت إلى الحاجة، والعقوبات إلى القدرة. أولئك الذين تمّ التصويت على احتياجاتهم لتكون أكبر، يتلقّون أكبر الحصص.

سمعت داغني صوتًا باردًا عنيدًا يقول في مكان مّا بداخلها: تذكّري ذلك جيّدًا، إنّ مثل هذه الفرص لا تتكرّر في كثير من الأحيان إذ يمكن للمرء أن يرى الشرّ الخالص، انظري إليه، تذكّري، فيومًا مّا ستجدين الكلمات لتسمية جوهره.... سمعت ذلك من خلال صراخ الأصوات الأخرى التي بكت بعنف وعجزٍ: إنّه لا شيء، لقد سمعت ذلك من قبل، وأنا أسمعه في كلّ مكان، إنّه لا شيء سوى الشيء نفسه التافه القديم. لماذا لا أستطيع تحمّله؟ أنا لا أستطيع تحمّله، لا أستطيع تحمّله!

ـ ما خطبك يا ابنتي؟ لماذا قفزت هكذا؟ لماذا ترتجفين؟ ماذا تقولين؟ تكلّمي بصوت عالٍ، لا أستطيع سماعك.... كيف نجحت الخطّة؟ لا يهمّني أن أناقش ذلك. أصبحت الأمور قبيحةً جدًّا في الواقع وازدادت سوءًا كلّ عامٍ. لقد كلّفني ذلك ثقتي في الطبيعة البشريّة. ففي ظرف أربع سنوات وضعت خطّة، لا من خلال حسابات العقل الباردة، ولكن من خلال ما في القلب من حبٍّ نقيّ، فوضعت حدًّا للفوضى الدنيئة التي يسبّبها رجال الشرطة والمحامين وإجراءات الإفلاس. لكنّني

أدركت خطئي وتخلّصت منه. لقد أنهيت علاقتي بعالم الآلات والمصنّعين والمال، وعالم عَبَدَة المادّة. أنا بصدد تعلّم تحرير الروح كما كشفت عنه أسرار الهند العظيمة، عبر الخلاص من عبوديّة الجسد، والانتصار على الطبيعة المادّيّة، وانتصار الروح على المادّة.

لقد أوحى توهّج شرر الغضب الأعمى في داخل داغني بأن ترى شريطًا طويلًا من الخرسانة التي كانت على شكل طريق، بأعشاب ترتفع من شقوقه، وشخصيّةَ رجلٍ ملتوٍ يدفع محراثا يدويّا.

ـ لكن يا ابنتي، لقد قلت لك إنّني لا أتذكّر... لا أعرف أسماءهم، ولا أعرف أيّ أسماء لأيّ نوع من أنواع المغامرين الذين ربّما شغّلهم والدي في ذلك المختبر! ألا تسمعينني؟ أنا لست متعوّدة على أن أُستَجوبَ بهذه الطريقة... لا تستمرّي في تكرار الأسئلة ذاتها. ألا تعرفين أيّ كلمات أخرى غير كلمة مهندس؟... ألا تسمعينني مطلقًا؟... ما الذي يؤرّقك؟ أنا لا أحبّ وجهك، دعيني وشأني. أنا لا أعرف من أنت، لم أؤذِك مطلقًا، أنا امرأة عجوز، لا تنظري إليّ على هذا النحو، أنا... تراجعي! لا تقتربي منّي أو أتّصل بأحدهم طلبًا للمساعدة! أنا... نعم، نعم، أنا أعرف ذلك الشخص! كبير المهندسين. نعم. لقد كان رئيس المختبر، نعم. ويليام هاستينغز. نعم كان هذا اسمه ويليام هاستينغز. أتذكّر. ذهب إلى مدينة براندون، في ولاية وايومنغ. لقد استقال في اليوم التالي من تقديمنا الخطّةَ. كان الرجل الثاني الذي هجرنا... لا. لا، لا أتذكّر من كان الأوّل. ليس مهمًّا.

***

كانت المرأة التي فتحت الباب ذات شعر رماديّ ونظرة متأهّبة، استغرق الأمر من داغني بضع ثوانٍ لكي تدرك أنّ ما ترتديه هو مجرّد ملابس منزليّة قطنيّة بسيطة.

سألتها داغني: هل لي أن أرى السيّد وليام هاستينغز؟

كانت المرأة تتأمّل ملامحَ وجهها باستغرابٍ. ثمّ قالت:

هل لي أن أعرف اسمك؟

ـ أنا داغني تاجارت من شركة تاجارت العابرة للقارّات.

قالت بنبرة مهذّبة دون أن تندّ عنها ابتسامة: أوه، ادخلي يا آنسة تاجارت، أنا زوجة السيّد وليام هاستينغز.

كان منزلها متواضعًا يقع في ضواحي بلدة صناعيّة. وقد أعاقت أغصانُ الأشجار العارية دخولَ زُرقة السماء الساطعة الباردة، في ذلك الجزء العلويّ المرتفع الذي كان يؤدّى إلى المنزل. كانت جدران غرفة معيشتها رماديّة فضّيّة اللون؛ وأشعّة الشمس تنعكس على قاعدة كريستاليّة لأحد المصابيح، ممّا أحدث ظلّا أبيض. خلف باب مفتوح، كان ركن الغداء مغطّى بأوراق بيضاء منقّطة بالأحمر.

ـ هل تعرّفت على زوجي في مجال الأعمال يا آنسة تاجارت؟

ـ لا، لم أقابل السيّد هاستينغز من قبل. ولكن أودّ أن أتحدّث معه بشأن مسألة عمل ذات أهمّيّة حاسمة.

ـ زوجي مات قبل خمس سنوات.

أغمضت داغني عينيها؛ أغرقها وقع الصدمة الثقيل في استنتاجات لم تكن قادرة على ترجمتها إلى كلمات. ذلك إذَن مصير الرجل الذي تبحث عنه. لقد كان ريردن على حقّ. هذا هو السبب الذي يفسّر ترك المحرّك في كومة خردة من دون أن يطالب به أحدٌ.

ـ أنا آسفة.

تفوّهت داغني بهذه الجملة وهي لا تعي ما إذا كانت تأسف للسيّدة هاستينغز أم لنفسها. ثمّ لاحظت على وجه السيّدة هاستينغز ابتسامة حزنٍ، ولكنّ ملامح الوجه لم تكن عليها تقاسيم مأساة، فقط نظرة خطيرة من الحزم والقبول والصفاء الهادئ.

ـ سيّدة هاستينغز، هل تسمحين لي بأن أطرح عليك بعض أسئلة؟

ـ بالتأكيد. من فضلك اجلسي.

ـ هل كنت تطّلعين على الأعمال العلميّة لزوجك؟

ـ القليل جدًّا. لا شيء حقًّا. فهو لا يناقش البتّة مثل هذه الأمور في المنزل.

ـ كان كبير المهندسين في شركة القرن العشرين للمحرّكات؟

ـ نعم، لقد عمل معهم مدّة ثمانية عشر عامًا.

ـ كنت أرغب في سؤال السيّد هاستينغز عن عمله هناك والسبب الذي جعله يتخلّى عنه. هل تستطيعين إخباري بذلك؟ فأنا أودّ أن أعرف ما حدث في ذلك المصنع.

كانت ابتسامة الحزن والفكاهة ترتسم على وجه السيّدة هاستينغز. وقالت:

ـ هذا ما أودّ معرفته أنا أيضا. لكن أخشى أنّي لا أعرف إلّا القليل الآن. أعرف السبب الذي جعله يغادر المصنع. يعود ذلك إلى مخطّط شائن أنشأه ورثة جيد ستارنس هناك. وقال إنّه لن يعمل وفق تلك الشروط أو عند مثل هؤلاء الناس. لكن ثمّة سبب آخر. أحسستُ دومًا بأنّ شيئًا مّا حدث في شركة القرن العشرين للمحرّكات، وهو أمر لم يخبرني به.

ـ أنا متلهّفة جدًّا لمعرفة أيّ دليل قد تمنحينني إيّاه.

ليس لديّ أيّ دليل على الأمر. لقد حاولت التكهّن بذلك، ثمّ تخلّيت عنه. لا أستطيع فهمَه أو شرحه. لكنّي أعلم أنّ شيئًا مّا حدث عندما غادر زوجي شركة القرن العشرين. جئنا إلى هنا وتولّى وظيفة رئيس قسم الهندسة في شركة أكمي للمحرّكات. لقد كان الاهتمام في ذلك الوقت يتزايد حول المحرّكات، ممّا منح زوجي العمل الذي يحبّ. لم يكن شخصًا يعرّض نفسه للصراعات الداخليّة، كان دائمًا متأكّدًا من أفعاله ومتصالحًا مع نفسه. ولكن لمدّة عامٍ كامل بعد مغادرتنا ولاية ويسكونسن، تصرّف كما لو أنّه تعرّض للتعذيب من قبل شيء مّا، كما لو أنّه يعاني من مشكلة شخصيّة لم يستطع حلّها. وفي نهاية ذلك العام، جاء إليّ ذات صباح وقال لي إنّه استقال من شركة أكمي للمحرّكات، وإنّه سيتقاعد ولن يعمل في أيّ مكان آخر.

كان يحبّ عمله؛ بل إنّ عمله هو حياته كلّها. ومع ذلك بدا هادئًا وواثقًا من نفسه وسعيدًا، للمرّة الأولى منذ أن جئنا إلى هنا، طلب منّي ألّا أسأله عن سبب قراره. لم أسأله ولم أعترض. ثمّ إنّنا نملك هذا المنزل، ولدينا مدّخراتنا، وما يكفي للعيش بتواضعٍ بقيّة أيّامنا. لم أعرف قطّ سبب تحوّلنا للعيش هنا بهدوء وبسعادة كبيرة. وبدا وكأنّه يشعر بالرضا العميق. لقد أبدى صفاء روحيًّا غريبا لم أره فيه من قبل. لم يكن في سلوكه أو نشاطه شيء غريب باستثناء بعض الأحيان، إذ نادرًا جدًّا ما يخرج دون أن يخبرني إلى أين ذهب أو مَن قابل. وفي العامين الأخيرين من حياته، سافر لمدّة شهر واحد، كلّ صيف؛ ولم يخبرني بالوجهة. وباستثناء ذلك، فقد عاش كما كان دائمًا. درس الكثير وقضّى وقته في البحوث الهندسيّة الخاصّة به، والعمل في الطابق السفليّ من منزلنا. لا أعرف ماذا فعل بملاحظاته ونماذجه التجريبيّة، فأنا لم أجد لها أيّ أثر في القبو بعد وفاته. توفّي قبل خمس سنوات بسبب مرض في القلب كان يعاني منه لبعض الوقت.

سألتها داغني بيأس: هل كنت تعرفين طبيعة تجاربه؟

ـ لا، أنا لا أعرف إلّا القليل عن الهندسة.

ـ هل كنت تعرفين أيّ واحد من أصدقائه المحترفين أو زملائه في العمل الذين ربّما كانوا على دراية بأبحاثه؟

ـ لا. عندما كان في شركة القرن العشرين للمحرّكات، كان يعمل ساعات طويلة فلا يتبقّى له من الوقت إلّا النزر القليل الذي نقضيه مجتمعين. لم تكن حياتنا اجتماعيّةً على الإطلاق. لم يُحضر شركاءه إلى المنزل مطلقًا.

ـ عندما كان في شركة القرن العشرين، هل ذكر لك محرّكًا صمّمه، وهو نوع جديد تمامًا من المحرّكات التي كان يمكن أن تغيّر مسار الصناعة كلّها؟

ـ محرّك؟ نعم. نعم، لقد تحدّث عن ذلك مرّات عديدة. وقال إنّه اختراع بالغ الأهمّيّة. لكنّه ليس هو من صمّمه، بل كان من اختراع شابّ مساعد له.

رأت علامات الخيبة والحزن باديةً على وجه داغني، فعلّقت قائلة:

ـ أرى ذلك.

قالت داغني، وهي تدرك أنّ ملامح وجهها فضحت ما أحسّت به: أوه، أنا آسفة!

ـ كلّ شيء على ما يرام. أنا أتفهّم. إنّه مخترع ذلك المحرّك الذي تهتمّين به. لا أعلم ما إذا كان بعدُ على قيد الحياة، ولكن على الأقلّ ليس لديّ أيّ سبب للاعتقاد بأنّه ليس كذلك.

ـ سأنفق كلّ عمري للوصول إليه. لأنّ هذا الأمر بالغ الأهمّيّة. أخبريني يا سيّدة هاستينغز من هو ذلك الشابّ؟

ـ لا أعرف، لا أعرف اسمَه أو أيَّ شيء عنه. فأنا لم أعرف أيّ واحد من الرجال في طاقم زوجي. أخبرني فقط أنّ لديه مهندسًا شابًّا، سيقلب العالم يومًا مّا. لم يكن زوجي يهتمّ بأيّ شيء في الناس سوى القدرة على الإبداع. أعتقد أنّ هذا الشابّ كان الرجل الوحيد الذي أَحَبَّه. لم يقل ذلك، لكن يمكنني التكهّن به. بالمناسبة لقد تحدّث عن ذلك المساعد الشابّ. أتذكّر –يوم أخبرني أنّ المحرّك قد اكتمل– كيف بدا صوته عندما قال: 'وهو في السادسة والعشرين فقط!' كان هذا قبل شهر تقريبًا من وفاة جيد ستارنس. ثمّ لم يأتِ بعد ذلك على ذكر المحرّك أو المهندس الشابّ.

ـ إلى أين ذهب ذلك المهندس الشابّ؟

ـ لا أعرف.

ألا يمكنك أن تدلّيني على طريقة للعثور عليه؟

ـ لا أعرف

ـ ليس لديك أدنى فكرة، ألا تملكين أيّ شيء يمكن أن يقودني إلى معرفة اسمه؟

ـ لا شيء. أخبريني، هل كان ذلك المحرّك قيّما جدًّا؟

ـ نعم. إنّه أكثر قيمة من أيّ شيء آخر.

ـ إنّه أمر غريب، لأنّني، كما ترين، فكّرت في الأمر مرّة واحدة بعد بضع سنوات من مغادرتنا ولايةَ ويسكونسن، وسألت زوجي عمّا آل إليه أمر ذلك الاختراع الذي قال إنّه رائع جدًّا، وعمّا سيفعلون. لكنّه نظر إليّ بغرابة وأجاب: لا شيء.

ـ لماذا؟

ـ لم يخبرني.

ـ هل تتذكّرين أيّ شخص عمل في مصنع القرن العشرين؟ هل تتذكّرين أيّ شخص يعرف ذلك المهندس الشابّ أو أيّ صديق له؟

ـ لا، أنا... انتظري! انتظري، أعتقد أنّني أستطيع أن أدلّك على صديق واحد له. للأسف لا أعرف حتّى اسم ذلك الصديق، لكنّني أعرف عنوانه. إنّها قصّة غريبة من الأفضل أن أشرح كيف حدث ذلك في إحدى الأمسيات بعد حوالي عامين من قدومنا إلى هنا. كان زوجي يتهيّأ للخروج، وكنت بحاجة إلى سيّارتنا في تلك الليلة، فطلب منّي أن أقلّه بعد العشاء إلى مطعم محطّة السكك الحديديّة. لم يخبرني مع مَن سيتناول العشاء. وعندما توجّهت إلى المحطّة، رأيته يقف خارج المطعم مع رجلَين. كان أحدهما شابًّا طويل القامة والآخر شيخًا يبدو متميزًا جدًّا. ما أزال أستطيع التعرّف على هذين الرجلين في أيّ مكانٍ. كانا يملكان ملامح من النوع الذي لا يُنسى. رآني زوجي، فتركهما وسارا بعيدًا نحو منصّة المحطّة. وكان هناك قطار قادم. أشار زوجي إلى ذلك الشابّ وقال: هل رأيته؟ ذلك هو الصبيّ الذي أخبرتك عنه. إنّه صانع المحرّكات العظيم؟ إنّه الشخص الذي اخترع ذلك المحرّك.

ـ وهل قال لك أيّ شيء آخر؟

ـ لا. حدث هذا الأمر قبل تسع سنوات. في الربيع الماضي، ذهبت لزيارة أخي الذي يعيش في شايان. وبعد ظهر أحد الأيّام، أخذ العائلة في رحلة طويلة. ذهبنا إلى ريف بريٍّ جميل، مرتفع في جبال روكي، وتوقّفنا للعشاء على جانب الطريق. كان خلف المنضدة رجلٌ مميّزٌ رماديّ الشعر، أخذتُ أحدّق في وجهه وهو يعدّ لنا السندويتشات والقهوة، إذ عرفتُ أنّي رأيت وجهه من قبل، ولكن لم أستطع أن

أتذكّر أين رأيته. ثمّ انطلقنا، ولمّا صرنا على بعد أميال من المطعم تذكّرت. من الأفضل أن تذهبي إلى هناك، إنّه على الطريق 86، في الجبال، غرب شايان، بالقرب من مستوطنة صناعيّة صغيرة، من مسبك لينوكس للنحاس. يبدو غريبًا، ولكن أنا متأكّدة من ذلك: طبّاخ ذلك المطعم هو الرجل الذي رأيته في محطّة السكك الحديديّة مع الشابّ الذي كان زوجي يقدّره كثيرا.

***

كان المطعم يقف بشموخ في قمّة جميلة يصعب تسلّقها. نشرت جدرانه الزجاجيّة طبقةَ طلاءٍ زادته رونقًا على منظر الصخور والصنوبر التي تنحدر في الحوافّ المكسورة من غروب الشمس. كان الظلام داكنًا في الأسفل، ولكنّ ظلّ ضوء متوهّج لا يزال في المطعم، مثلما هي الحال في حوض سباحة صغير حين يتركه المدّ المتراجع.

جلست داغني في نهاية المنضدة، تأكل شطيرة هامبرغر. إنّه أفضل طعام مطبوخ تذوّقته على الإطلاق، وهو نتاج مكوّنات بسيطة ومهارة غير عاديّة. وكان عاملان ينهيان عشاءهما؛ وانتظرت هي رحيلهما.

درست ملامح الرجل خلف المنضدة بدقّة. كان نحيفًا وطويل القامة، يحمل من علامات التميز ما تحمله قلعة قديمة، ولكنّه استمدّ نوعيّته الغريبة من حقيقة أنّه جعل التميّز يبدو مناسبًا للمكان، وراء منضدة المطعم. كان يرتدي سترة طبّاخٍ بيضاء كما لو أنّها بدلة لباس تامّ. بدا خبيرًا في عمله؛ تحرّكاته سلسة، ومُقتَصَدة بذكاء. لديه وجه نحيل وشعر رماديّ مُزج في تناغم مع لون عينيه الأزرق البارد؛ في مكان مّا بعدَ نظرته الصارمة المهذّبة، كانت هناك مسحة من الفكاهة، خافتة جدّا، تختفي إذا حاول المرء تبيّنها.

انتهى العاملان ودفعا ورحلا، وترك كلّ منهما عشرة سنتات بقشيشا. شاهدت الرجل وهو يزيل أطباقهما، ويضع السنتات في جيب سترته البيضاء، ويمسح المنضدة. كان يعمل بدقّة خاطفة. ثمّ التفت ونظر إليها. كانت لمحة غير مخصوصة، ولم يُقصَد منها دعوة إلى المحادثة؛ لكنّها كانت على يقين من أنّه لاحظ منذ فترة طويلة

بدلتها النيوركيّة الثمينة، وحذاءها ذا الكعب العالي. بَدَت له امرأةً ذات نفس راقٍ ولا تهدر وقتها؛ ويبدو أنّ عينيه الفاترتين والدقيقتين أخبرتاها بأنّه يعرف عدم انتمائها إلى ذلك المكان وأنّ عليه الانتظار لاكتشاف هدفها.

سألته: كيف حال العمل هنا؟

قال بنبرة هادئة وواضحة: سيّئة جدًّا. سيغلقون مسبك لينوكس الأسبوع المقبل، لذلك سأضطرّ إلى الإغلاق قريبًا والانتقال إلى مكان آخر.

ـ إلى أين؟

ـ لم أقرّر بعد.

ـ ما المشروع الجديد الذي تفكّر فيه؟

ـ لا أعلم. أفكّر في فتح مرآب، إذا تمكّنت من العثور على المكان المناسب في أحد أنحاء المدينة.

أوه لا! أنت ماهر في عملك فلا تغيّره. أنت لا تصلح إلّا طبّاخًا.

حرّكت ابتسامةٌ غريبةٌ وجميلةٌ منحنى فمه. قبل أن يقول بلطف:

ـ لا؟

ـ ردّت: لا! هل ترغب في وظيفة بنيويورك؟

نظر إليها باندهاش. فاستأنفت:

ـ أنا جادّة. يمكنني أن أعطيك وظيفة في شركة السكك الحديديّة الكبيرة، فتكون المسؤول عن قسم الطعام بالعربات.

ـ هل لي أن أسألك لماذا ترغبين في ذلك؟

فرفعت شطيرة الهامبرغر في منديل الورق الأبيض، ثمّ قالت:

ـ هذه الشطيرة هي أحد الأسباب.

ـ شكرًا لك. وما هي بقيّة الأسباب الأخرى؟

ـ لا أعتقد أنّك عشت في مدينة كبيرة، أو أنّك ستعرف مدى صعوبة العثور على أيّ رجال أكفاء لأيّ وظيفة مهما يكن نوعها.

ـ أعرف القليل عن ذلك.

حسنًا، وماذا تعرف عن ذلك؟ هل ترغب في وظيفة في نيويورك بعشرة آلاف دولار في السنة؟

ـ لا.

لقد حملتها فرحة الاكتشاف وهبة القدرة بعيدًا. فنظرت إليه بصمت. كانت مصدومة. فقالت:

ـ لا أعتقد أنّك أدركت قصدي.

ـ بلى، أدركت قصدك.

ـ أنت ترفض فرصة من هذا النوع؟

ـ نعم.

ـ ولكن، لماذا؟

ـ هذه مسألة شخصيّة.

ـ لماذا يجب أن تعمل هكذا، بينما يمكنك الحصول على وظيفة أفضل؟

ـ أنا لا أبحث عن وظيفة أفضل.

ـ أنت لا تريد فرصة للنهوض وكسب المال؟

ـ لا، لماذا تصرّين؟

ـ لأنّني أكره رؤية المهارة تهدر هباءً!

قال ببطء وعن قصد: وكذلك أنا.

كان في طريقة كلامه شيءٌ جعلها تشعر بنوع من الرابطة العاطفيّة العميقة التي تجمعهما؛ علاقة كسرت الانضباط الذي منعها من طلب المساعدة، فقالت:

ـ لقد سئمت منهم!

أذهله صوتها الذي انقلب إلى صرخة لا إراديّة، ثمّ أضافت:

ـ أنا متعطّشة جدّا إلى رؤية أيّ مشهد لأيّ شخص قادر على إتقان ما يفعله!

ثمّ ضغطت بالجزء الخلفيّ من يدها على عينيها، في محاولة لسدّ اندلاع اليأس الذي لن تسمح لنفسها بالاعتراف به؛ لم تكن تعرف مداه، ولا كيف ترك لها سعيُها القليلَ من قدرتها على التحمّل.

قال بنبرة منخفضة: أنا آسف.

بدا الأمر وكأنّه لا يعتذر بقدر ما يشفق عليها. ثمّ نظرت إليه فابتسم، وكانت تعرف أنّه قصد بالابتسامة كسرَ الرابطة التي شعر بها هو أيضًا: وقد حملت الابتسامة أثر السخريّة المهذّبة. فقال:

ـ لكنّني لا أعتقد أنّك قطعت كلّ هذه المسافة من نيويورك فقط للبحث عن طهاة للسكك الحديديّة في سلسلة جبال الروكي.

قالت: لا، لقد جئت إلى هنا لشيء آخر.

وانحنت إلى الأمام، فثبّتت ساعديها بحزمٍ على المنضدة، وهي تشعر بهدوء، وفي سيطرة مشدّدة مرّة أخرى، إنّه الشعور بخصم خطيرٍ. ثمّ أضافت:

ـ هل تعلم أنّه قبل حوالي عشر سنوات من الآن، كان هناك مهندس شابّ يعمل في شركة القرن العشرين للمحرّكات؟

وأخذت تعدّ ثواني التوقّف عن الكلام؛ ولكنّها لم تستطع تحديد طبيعة الطريقة التي كان ينظر بها إليها، باستثناء أنّها نظرة تنمّ عن انتباه مخصوص.

أجابها: نعم، لي علمٌ بذلك.

ـ هل يمكن لك أن تمدّني باسمه وعنوانه؟

ـ لماذا؟

ـ من المهمّ جدًّا أن أجده.

ـ تقصدين ذلك الرجل؟ وما أهمّيّته؟

ـ إنّه أهمّ رجل في العالم.

ـ حقًّا؟ لماذا؟

ـ هل تعرف أيّ شيء عن عمله؟

ـ نعم.

ـ هل تعلم أنّه اكتشف فكرة لها نتائج هائلة جدًّا؟

صمت لحظة، ثمّ قال:

ـ هل لي أن أسألك من تكونين؟

ـ أنا داغني تاجارت. أنا نائب...

قاطعها قائلا: نعم، آنسة تاجرت. أنا أعرفك.

قالها باحترام. لكنّه بدا وكأنّه وجد الإجابة على بعض الأسئلة الخاصّة التي تدور في ذهنه، ممّا رفع عنه كلّ دهشة.

قالت: كما تعلم فاهتمامي ليس بسيطًا. أنا في وضع يسمح لي بمنح ذلك الشابّ الفرصة التي يستحقّها وأنا مستعدّة لدفع أيّ مبلغ يطلبه.

ـ هل لي أن أسأل ما الذي أثار اهتمامك به؟

ـ محرّكه.

ـ كيف سمعت عن محرّكه؟

ـ لقد وجدت بقايا مكسورة منه في أنقاض مصنع القرن العشرين. وتلك البقايا لا تكفي لإعادة بنائه أو معرفة كيفيّة عمله. ولكن عندي ما يكفي لمعرفة أنّه اشتغل وأنّه اختراع يمكن أن ينقذ شركتي للسكك الحديديّة، والبلاد والاقتصاد في العالم كلّه. لا تطلب منّي أن أخبرك الآن أيّ سبيل اتّبعتها لمحاولة تعقّب ذلك المحرّك والعثور على

مخترعه. فهذا ليس من الأهمّيّة بمكانٍ، حتّى حياتي وعملي ليسا ذوا أهمّيّة عندي الآن، لا شيء له أيّ أهمّيّة، إلّا أنّ عليّ إيجاده. ولا تسألني كيف وصلت إليك. فأنت نهاية الطريق. فقط قل لي اسمه.

كان يستمع من دون أن يحرّك ساكنًا، وينظر إليها مباشرة؛ يبدو أنّ انتباه عينيه يمسك بكلّ كلمة ويخزّنها بعناية، دون أن يعطيها أيّ تلميح يخصّ هدفه. لم يتحرّك لفترة طويلة. ثمّ قال:

ـ تخلّي عن هذا الأمر يا آنسة تاجارت. فلن تجديه.

ـ ما اسمه؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك أيّ شيء عنه.

ـ أَمَا يزال على قيد الحياة؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك شيئًا.

ـ وما اسمك؟

ـ هيوأكستون.

ظلّت تقول في نفسها: أنت مجنونة... إنّها مجرّد صدفة في الأسماء، وفي مقابل ذلك كانت تعلم علم اليقين أنّ هذا الرجل هو هيوأكستون الذي تعرفه.

ـ قالت وهي تتلعثم: هيوأكستون؟ الفيلسوف؟... آخر دعاة العقلانيّة؟

أجابها بسرور: نعم، لماذا؟ أو دعينا نَقُل أوّل العائدين منهم.

لم يبد مذهولًا من صدمتها، لكنّه بدا وكأنّه يجد تلك الصدمة غير ضروريّة. كان سلوكه بسيطا، يكاد يكون وديًا، وكأنّه لا يشعر بالحاجة إلى إخفاء هويّته ولا الاستياء من اكتشافها. ثمّ قال:

ـ لم أكن أعتقد أنّ أيّ شابّ سيتعرّف إلى اسمي أو يعلّق أيّ أهمّيّة عليه في الوقت الحاضر.

قالت وهي تشير إلى الغرفة: لكن ماذا تفعل هنا؟ هذا أمر غير منطقيّ!

- هل أنت متأكّدة؟

- وما هذا الأمر؟ أهو حيلة أم تجربة أم مهمّة سرّيّة؟ هل أنت بصدد دراسة شيء مّا لهدف خاصّ؟

قال بنبرة بسيطة: لا يا آنسة تاجارت. أنا بصدد كسب رزقي.

- دكتور أكستون، أنا... هذا أمر لا يمكن تصوّره، إنّه... كنت... أنت فيلسوف... أعظم فيلسوف ما يزال حيًّا... اسم خالد... لماذا تفعل هذا؟

- لأنّني فيلسوف يا آنسة تاجارت.

كانت تعلم يقينًا – رغم شعورها بأنّ قدرتها على التيقن والفهم قد اختفت – أنّها لن تحصل على أيّ مساعدة منه، وأن لا طائل من وراء الأسئلة، وأنّه لن يقدّم لها أيّ تفسير، لا عن مصير المخترع ولا عن مصيره هو.

قال بهدوء كأنّما قرأ أفكارها: تخلّي عن ذلك، يا آنسة تاجارت.

ثمّ أضاف:

- إنّه مسعًى ميؤوس منه، وما يزيد في تعذّره هو أنّك لا تمتلكين أيّ فكرة عن المهمّة المستحيلة التي اخترت القيام بها. أودّ أن أجنّبك عناء محاولة استنباط بعض الحجج أو الحيل أو التوسّلات التي من شأنها أن تجعلني أعطيك ما تسعَين إليه من معلومات. ثقي بكلامي: لا يمكن تحقيق ذلك. لقد قلت إنّك وجدتني في نهاية طريقك. فاعلمي أنّه طريق مسدود يا آنسة تاجارت. فلا تحاولي تضييع أموالك وجهدك على غيرها من الطرق التقليديّة في البحث، لا توظّفي المحقّقين. هم لن يتعلّموا أيّ شيء. لعلّك تتجاهلين تحذيري، ولكن أعتقد أنّك تتمتّعين بذكاء عالٍ، وتفهمين جيّدًا ما أقول. تخلّي عن هذا الأمر. فالسرّ الذي تحاولين حلّه ينطوي على شيء أكبر، أكبر بكثير من اختراع محرّك تديره كهرباء الغلاف الجويّ. هناك اقتراح واحد مفيد يمكنني أن أقدّمه لك: وفقًا لجوهر الوجود وطبيعته، لا يمكن أن توجد

تناقضات. فإذا وجدت أنّ من المستحيل التخلّي عن اختراع عبقريّ بين الأنقاض، وأنّ الفيلسوف يجب أن يرغب في العمل طبّاخًا بمطعم فتحقّقي من مقدّماتك المنطقيّة. سوف تجدين أنّ أحد افتراضاتك الأساسيّة كان خاطئًا.

فبدأت تتأمّل متذكّرةً أنّها سمعت هذا من قبل وأنّ فرانسيسكو هو الذي قال ذلك. ثمّ تذكّرت أنّ هذا الرجل كان أحد أساتذته.

قالت: كما يحلو لك يا دكتور أكستون. لن أحاول استجوابك حول هذا الموضوع. ولكن هل تسمح لي بأن أطرح عليك سؤالًا حول موضوع مختلف تمامًا؟

ـ بالتأكيد.

ـ أخبرني الدكتور روبرت ستادلر ذات مرّة أنّه كان لديك، أيّامَ وجودك بجامعة باتريك هنري، ثلاثة طلّاب تفضّلهم وأنّك توقّعت لهم مستقبلًا عظيمًا. كان أحدهم فرانسيسكو دانكونيا.

ـ نعم. وطالب آخر اسمه راجنر دانيسكولد.

ـ بالمناسبة –وهذا ليس سؤالي– من كان الثالث؟

ـ اسمه لن يعني لك شيئًا، إنّه ليس مشهورًا.

قال الدكتور ستادلر إنّكما كنتما تتنافسان على هؤلاء الطلّاب الثلاثة، لأنّكما تنظران إليهم بوصفهم أبناء.

ـ لقد فقدهم.

قل لي: هل أنت فخور بالمرتبة التي بلغها هؤلاء الطلّاب؟

نظر بعيدًا إلى نار شمس الغروب المحتضرة في أقصى الصخور؛ كان وجهه يشبه أبًا يشاهد أبناءه ينزفون في ساحة المعركة. ثمّ أجابها:

ـ أكثر فخرًا ممّا توقّعت.

كان المكان مظلمًا تقريبًا. فاستدار بحدّة، أخذ علبة سجائر من جيبه، ثمّ سحب

واحدةً، لكنّه توقّف، متذكّرا وجودها، كما لو أنّه نسيها لحظةً، ومدّ إليها العلبة. فأخذت سيجارة، ثمّ أضرم عود الثقاب وهزّه، فترك نقطتين صغيرتين فقط من النار في ظلام الغرفة الزجاجيّة وظلام أميال من الجبال خلفها.

نهضت، ثمّ دفعت فاتورة عشائها، وقالت:

ـ شكرًا لك يا دكتور أكستون. لن أضايقك بالحيل أو التوسّلات ولن أستأجر محقّقين. لكن أعتقد أنّ عليّ إخبارك بأنّي لن أستسلم. وسأحاول إيجاد مخترع ذلك المحرّك، بل سأجده.

ـ ليس حتّى اليوم الذي يختار فيه أن يجدك، وسيجدك.

عندما قصدت سيّارتها، شغّل هو أضواء المطعم، فرأت صندوق البريد على جانب الطريق ولاحظت حقيقةً لا تصدّق؛ لقد كان اسم هيوأكستون مكتوبًا عليه علنًا.

ثمّ قادت سيّارتها بعيدًا في الطريق المتعرّج، وكانت أضواء المطعم قد غابت منذ فترة طويلة عن الأنظار، حين لاحظت أنّها وجدت متعة في طعم السيجارة التي أعطاها إيّاها: كان النوع مختلفًا عن أيّ نوع دخّنته من قبل. فأخذت عَقِبَ السيجارة وقرّبته إلى ضوء لوحة القيادة، لتبحث عن اسم العلامة التجاريّة. لم يكن هناك أيّ اسم، فقط علامة تجاريّة، بِخَتْمٍ مذهّب على ورقة بيضاء رقيقة، كانت علامة دولار.

فحصت الأمر بفضول: لم تكن قد سمعت عن تلك العلامة التجاريّة من قبل. ثمّ تذكّرت الرجل العجوز صاحب كشك الصحف والسجائر قرب محطّة تاجارت فابتسمت، معتقدةً أنّ هذه كانت عيّنة من مجموعته. ثمّ أطفأت النار وأسقطت العقب في حقيبة يدها.

كانت عربات القطار رقم 57 مصطفّةً على طول الخطّ، تتأهّب للمغادرة إلى تقاطع وايت، عندما وصلت إلى شايان، وتركت سيّارتها في المرآب حيث استأجرتها، وخرجت إلى منصّة محطّة تاجارت. كان لديها نصف ساعة لتنتظر الخطّ الرئيسيّ المتّجه شرقًا إلى نيويورك. فمشت إلى نهاية المنصّة وانحنت على عمود إنارة من جرّاء

الإرهاق؛ لم تكن ترغب في أن ينظر إليها أيّ واحدٍ من موظّفي المحطّة أو يتعرّف إليها، ولا رغبت في التحدّث إلى أيّ شخص. لقد كانت في حاجة إلى الراحة. ثمّ وقف عدد قليل من الناس في شكل مجموعات على المنصّة التي تبدو شبه مهجورة. ويبدو أنّ المحادثات التي لا تهدأ ما تزال متواصلةً، وكانت الصحف تسوق أدلّة أكثر من المعتاد.

نظرت إلى النوافذ المضاءة من القطار رقم 57 لتبحث عن لحظة ارتياح وترى تحقّق إنجاز منتصر. كان القطار رقم 57 يوشك على الانطلاق على مسار خطّ جون جالت، وعبر المدن، من خلال منحنيات الجبال، مرورًا بالإشارات الخضراء حيث وقف الناس يهتفون، والوديان حيث ارتفعت الصواريخ في سماء ذلك الصيف. لقد علقت بعض البقايا الملتوية من أوراق الشجر على الفروع وراء خطّ القطار، وارتدى الركّاب معاطف الفراء والكوفيّات، وهم يصعدون على متنه. تنقّلوا بطريقة عاديّة إلى حدث يوميّ، تشوبهم الطمأنينة لتوقّع أداء آمن أصبح أمره مفروغًا منه منذ فترة طويلة... لقد ربحنا هذا الرهان.

ومن حسن حظّها أنّ محادثة كانت تجري بالصدفة بين رجلين في مكان مّا. فاستقطب الصخب بينهما انتباهَها المطلق.

ـ لكنّ القوانين ينبغي ألّا تُمَرَّر بهذه الطريقة وبهذه السرعة.

ـ إنّها ليست قوانين، بل توجيهات.

ـ ثمّ إنّها غير قانونيّة.

ـ هذا الأمر قانونيّ، لأنّ الهيئة التشريعيّة أصدرت الشهر الماضي قانونًا يفوّض لها سلطة إصدار التوجيهات.

ـ لا أعتقد أنّ التوجيهات يجب أن تظهر في حياة الناس بهذه الطريقة الفجائيّة.

ـ حسنا، لا وقت للكراهية عندما توجد حالة طوارئ وطنيّة.

ـ لكن لا أعتقد أنّ الأمر على هذا النحو صحيح، وأنّه لن ينحرف. كيف

سيتصرّف ريردن ويتجاوز هذه المحنة، عندما تقول هنا...

ـ لماذا يجب أن تقلق بشأن ريردن؟ إنّه غنيّ بما فيه الكفاية وقادر على ابتداع طريقة لفعل أيّ شيء.

ثمّ قفزت داغني عند أوّل كشك لبيع الصحف لاحَ في الأفق، واقتنت نسخة من جرائد المساء.

في الصفحة الأولى عنوان يقول: (ويسلي ماوتش، كبير منسّقي مكتب التخطيط الاقتصاديّ والموارد الوطنيّة، في خطوة مفاجئة، وباسم حالة الطوارئ الوطنيّة أصدر مجموعة من التوجيهات). لقد كانت تلك التوجيهات بارزة في عمود أسفل الصفحة. تقول التوجيهات:

ـ أُمرت السكك الحديديّة في البلاد بتخفيض السرعة القصوى لجميع قطاراتها إلى ستّين ميلًا في الساعة، وذلك للنزول بالحدّ الأقصى لطول جميع القطارات إلى ستّين عربة، وأمرت أيضًا بأن يُشغَّل في كلّ ولاية العددُ نفسه من القطارات وفق منطقة تتألّف من خمس ولايات متجاورة، نظرا إلى أنّ البلاد ستُقسَّم إلى مثل هذه المناطق لهذا الغرض.

ـ أُمرت مصانع الصلب في البلاد بأن تنتج على نحوٍ متساوٍ كمّيّةً محدّدة من السبائك المعدنيّة، وتوفّر حصّة عادلة من أيّ سبيكة معدنيّة لجميع المستهلكين الذين قد يرغبون في الحصول عليها.

ـ يُحظر على جميع مؤسّسات التصنيع في البلد، أيّا كان حجمها وطبيعتها، الانتقال من مواقعها الحاليّة، إلّا عندما يمنحها مكتب التخطيط الاقتصاديّ والموارد الوطنيّة إذنًا خاصّا بذلك.

ـ لتعويض السكك الحديديّة في البلاد عن التكاليف الإضافيّة التي ينطوي عليها الأمر و'تخفيف عمليّة إعادة التكيّف'، أُعلن عن وقفٍ اختياريّ لدفع الفوائد وأصل الدَّيْن على جميع سندات السكك الحديديّة المضمونة وغير المضمونة والقابلة

للتحويل وغير القابلة للتحويل، وذلك لمدّة خمس سنوات.

ـ لتوفير الأموال للموظّفين من أجل إنفاذ هذه التوجيهات، فُرِضت ضريبة خاصّة على ولاية كولورادو، باعتبارها الولاية الأكثر قدرةً على مساعدة الولايات الأكثر احتياجًا لتحمل وطأة الطوارئ الوطنيّة، وهذه الضريبة تتكوّن من خمسة في المائة من إجماليّ مبيعات المعامل الصناعيّة في كولورادو.

لّما انتهت داغني من قراءة هذه التوجيهات أطلقت صرخةً كَتَمَتْها من قبل، لأنّها لطالما افتخرت برباطة جأشها وقدرتها على تقديم كلّ الإجابات بنفسها، لكنّها رأت رجلًا يقف على بعد خطوات قليلة منها، ولم تنتبه إلى أنّه مجرّد متسوّل خشن بملابس بالية، فنطقت صارخة إذ داهمها نداء العقل في داخلها ولم تكترث لوجود ذلك الرجل لأنّه كان مجرّد جسد بشريّ، وقالت:

ـ ماذا سنفعل؟

ابتسم المتسوّل ثمّ تجاهلها قائلًا:

ـ من هو جون جالت؟

لم تكن شركة تاجارت العابرة للقارّات هي ما وقف كبؤرة للرعب في ذهنها، ولم يكن التفكير في هانك ريردن المقيّد برفٍّ يُسحَب في اتّجاهين متعاكسين هو مَا يؤرّقها، بل كان ما يشغل بالها هو إليس وايت. ثمّ محت البقيّة، وملأت وعيها، فلم تترك مجالًا للكلمات، ولا وقتًا للتساؤل، وكإجابة صريحة على الأسئلة التي لم تبدأ في طرحها بعدُ، كانت هناك صورتان: شخصيّة إليس وايت المنعزلة أمام مكتبها، وهي تقول: يمكن لسلطتك الآن أن تدمّرني؛ ربّما يتوجّب عليّ الرحيل. ولكن إذا رحلت، فسأحرص على أن آخذ معي كلَّ ما تبقّى منك وكلّ العنف الدائر بجسد إليس وايت عندما ألقى كأسًا وحطّمها على الحائط.

كان الوعي الوحيد الذي خلّفته تلك الصور في نفسها هو الشعور بالاقتراب من كارثة لا يمكن تصوّرها، والشعور بأنّها يجب أن تتفوّق عليها. كان عليها أن تصل

إلى إليس وايت وتوقفه. لم تعرف السبب الذي يدفعها إلى إيقافه. لكنّها تعرف فقط أنّ عليها إيقافه.

ولأنّها استلقت في السابق تحت أنقاض مبنًى ولم تمزّقها قنابل الغارات الجويّة، فصمدت وبقيت على قيد الحياة، فإنّها ستعرف أنّ العمل هو التزام الإنسان قبل كلّ شيء، بغضّ النظر عن أيّ شيء يشعر به. كانت قادرة على الجري أسفل المنصّة ورؤية وجه مدير المحطّة عندما وجدته، وكانت تستطيع أن تأمره قائلة: أوقف لي القطار رقم 57! ثمّ تبحث في الظلام عن بعض الخصوصيّة في كشك الهاتف خلف نهاية المنصّة، وتعطي مشغّل خطوط الهاتف للمسافات الطويلة رقمَ هاتف إليس وايت المنزليّ.

وقفت، مدعومةً بجدران المقصورة، وعيناها مغلقتان، واستمعت إلى دوّامة المعدن الميّتة التي كانت صوتَ جرس يرنّ في مكان مّا. لم يأتِ الهاتف بأيّ جواب. وظلّ يجلب تشنّجات مفاجئة، مثل أصوات الحفر التي تمرّ عبر أذنها، وعبر كلّ جسدها. أمسكت السمّاعة وكأنّها لا تزال تمثّل شكلًا من أشكال الاتّصال، على الرغم من أنّها لم تكن تسمع شيئًا. تمنّت أن تُرفع سمّاعة الهاتف في الضفّة الأخرى.. لم تعلم أنّها كانت تصرخ: إليس، لا تفعل! لا! لا تفعل ذلك!، ولم تنتبه إلى هذا الأمر إلّا حين سمعت صوت المشغّل يجيبها ببرود وحيرة: الطرف المقابل لا يردّ.

جلست عند نافذة عربة بالقطار رقم 57، واستمعت إلى نقر العجلات على قضبان معدن ريردن. جلست، دون مقاومة، تتمايل مع حركة القطار. وقد أخفى اللمعان الأسود من النافذة ملامحَ الريف الذي لم تُرِد رؤيته. كانت تلك رحلتَها الثانية على متن خطّ جون جالت، فحاولت ألّا تفكّر في رحلتها الأولى.

وفكّرت في حاملي سندات خطّ جون جالت. لقد تشرّفت بأنّهم عهدوا إليها بأموالهم، وما كانوا يذخرونه من إنجازات على مدى سنوات، وفكّرت في قدرتها التي كانوا قد دعموها، فاعتمدوا على عملها مثلما اعتمدوا على أنفسهم، فأُرغمت على خيانتهم في فخّ للناهبين؛ لن يكون هناك قطارات ولا دماء حياة تضخّ في عربات

الشحن، فخطّ جون جالت كان فقط أنبوب التصريف الذي سمح لجيم تاجارت بعقد صفقة فاستنزف ثرواتهم، غير المكتسبة، في جيبه، مقابل السماح للآخرين باستنزاف سككه الحديديّة. وسندات خطّ جون جالت، التي كانت إلى حدود ذلك الصباح رمزَ فخر الأوصياء على أمن أصحابها ومستقبلها، أصبحت في غضون ساعة واحدة مجرّد قصاصات من الورق لن يشتريها أحدٌ، لأنّها غَدَتْ بلا قيمة ولا مستقبل ولا قوّة، لقد وفّرت السلطة لإغلاق الأبواب ووقف عجلات الأمل الأخير للبلاد. وشركة تاجرت العابرة للقارّات لم تكن مصنعًا ينعم بالحياة، تغذّيه الدماء التي تحرّك عمليّة الإنتاج، ولكنّها أصبحت من أكلة لحوم البشر في لحظة من الزمن، تلتهم عظام الأطفال الذين لم يولدوا بعد.

ثمّ فكّرت في الضريبة التي ستفرض على كولورادو، والضرائب التي جُمعَت من إليس وايت لدفع ثمن رزق أولئك الذين كانت وظيفتهم تنحصر في تقييده وجعله غير قادر على العيش، أولئك الذين سيقفون على أهبة الاستعداد لرؤية أنّه لم يحصل على القطارات، ولا على عربات الشحن، ولا خطّ أنابيب من معدن ريردن. لقد جُرّد إليس وايت من حقّ الدفاع عن النفس، وبقي بلا صوت أو أسلحة. والأسوأ من كلّ ذلك أنّهم جعلوا منه أداةً لتدمير بلده، والداعمَ لمن دمّروه، يمدّهم بطعامهم وأسلحتهم. إليس وايت كان يختنق، لقد كتمت أنفاسُه طاقتَه المشرقة التي تحوّلت ضدّه فأصبحت مثل حبل المشنقة. إليس وايت الذي كان يريد الاستفادة من مصدر غير محدود من النفط الصخريّ والذي تحدّث عن عصر النهضة الثانية...

جلست منحنية، ورأسها مائل على ذراعيها، وهي متّكئة على حافّة النافذة، بينما كانت المنحنيات العظيمة للسكك الحديديّة الخضراء والزرقاء، والجبال، والوديان، والمدن الجديدة من ولاية كولورادو تمرّ في الظلام غير مرئيّة.

فجأةً، اهتزّت الفرامل على العجلات، فألقت بها منتصبةً. لقد توقّفوا بمحطّة غير مجدولة، وكانت منصّة المحطّة الصغيرة مزدحمةً بالناس، وجميعهم ينظرون في الاتّجاه نفسه. كان الركّاب من حولها يضغطون على النوافذ، ويحدّقون فيها. قفزت من

الهلع، وركضت أسفل الممرّ، ثمّ أسفل الدرج، لتواجه الرياح الباردة التي تجتاح المنصّة.

في اللحظة التي سبقت رؤيتها وصراخها الذي قطع أصوات الحشد، أدركت أنّها تعلم ما كانت ستراه. في فاصل بين الجبال، يضيء السماء، ويرمي بتوهّجه المتمايل على أسطح المحطّة وجدرانها، كانت تلّة شركة وايت للنفط قد تحوّلت إلى ورقة صلبة من اللهب.

في وقت لاحق، عندما أخبروها أنّ إليس وايت قد اختفى، ولم يترك أيّ شيء وراءه سوى لوحةٍ كان قد ثبّتها بمسامير في صندوق بريد عند سفح التلّ، وعندما نظرت إلى خطّ يده على اللوحة، شعرت كما لو أنّها تعرف تقريبًا أنّ الكلمات ستكون:

سأتركه كما وجدته. تَوَلّي زمام الأمر. إنّه لكِ.

ينشر الجزء الثاني من القصة

قريبا على مكتبة



آين راند

أطلس متململا

يعتقد الناس أنّ الكاذب يكسب انتصارَه على حساب ضحيّته. أمّا ما تعلّمته فهو أنّ الكذبَ فعلٌ من أفعال التنازل عن الذات، لأنّ المرء يسلّم حقيقتَه إلى الشخص الذي يكذب عليه ويجعل منه سيّدًا عليه، وفي مقابل ذلك يُدين ذاتَه منذ ذاك الحين لتزييف نوع الواقع الذي يحتاج ذاك الشخصُ إلى تزييفه. وإذا كان المرء يظفر بالغرض المباشر من الكذب، فإنّ الثمنَ الذي سيدفعه في مقابل ذلك هو تدمير ما كان ذاك الظفرُ يقصد إلى خدمته. فالإنسان الذي يكذب على العالم هو عبدُ ذلك العالم. وعندما اخترتُ إخفاءَ حبّي لك، بهدف التنصّل منه في العلن وعيشه مثل كذبةٍ، جعلته ملكيّةً عامّةً، ولم تكن لديّ أيّ وسيلة لتجنّب ذلك ولا أيّ قوّة لإنقاذك. وعندما استسلمت للصوص -بعد توقيع شهادة الهديّة قصدَ حمايتك- كنت لا أزال أزيّف الواقع، ولم يبقَ لي من حلٍّ آخر. فأنا يا داغني، كنت أفضّل أن يُنظَر إلينا بوصفنا أمواتًا على أن أسمح لهم باقتراف ما هدّدوا به. لكن لا توجد أكاذيب بيضاء، وما يوجد فقط هو سوداويّة الدمار، فالكذبة البيضاء هي الأكثر سوادًا على الإطلاق.


ISBN:978-603-91630-3-9
9 786039 163039
WWW.PAGE-7.COM

